مارسيل ليبمان

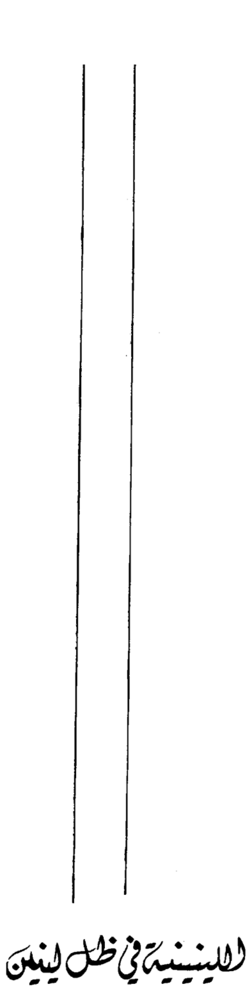
تعريب كميل داغر

اللينينية في ظل لينين

الجزء الثاني

امتحان السلطة





اللينينية في ظل لينين

MARCEL LIBMAN

LE LÉNINISME
SOUS LÉNIN

II

L'épreuve du pouvoir

دار الحصاد
دمشق ١٩٨٩

تأليف: مارسيل ليبمان

اللينينية في ظل لينين

الجزء الثاني

امتحان السلطة

تعريب: كميل داغر

طبع في مطبعة العجلوني

١٥٠٠/ ١/ ١٩٨٩

التنضيد الضوئي: مكتب الفيحاء
صمم الغلاف: عبد الهادي شماع

الإخراج: سهام بطرس

القسم الثالث

روسيا اللينينة



«سوف نبني الان، على أرض أزيلت منها أنقاض التاريخ، البناء المهيب والوضّاء للمجتمع الاشتراكي، وتخلق نموذجاً جديداً للدولة مجهولاً من قبل ومدعوّاً بإرادة الثورة إلى تنظيف الأرض من كل استغلال، ومن كل عنف، ومن كل استعباد. . . الآن، كلُّ معجزات التقنية، وكل مكاسب الثقافة ستصبح تراث الشعب بأسره؛ ومن الآن وصاعداً، لا الفكر ولا العبقرية البشريان سيتحولان الى وسائل عنف ووسائل استغلال[1]». هكذا كان يتحدث لينين بعد الاستيلاء على السلطة بقليل.

هذا الطموح اللا محدود كانت تقابله إمكانات محدودة للغاية. فلحلِّ المشكلات التي لا تحصى والتي كانت تنطرح على الشيوعيين الروس[*]، ماكان بوسعهم إطلاقاً أن يعتمدوا على نجدة العقيدة. كان بناء الاشتراكية، وفقاً لأقوال زعيمهم، «مشروعاً جديداً، لا مثيل له في التاريخ، ولم تتم معالجته في أي كتاب»[2]. ثم إن هذا البناء كان أشد صعوبة لاسيما أن صانعيه الرئيسيين كانوا قد تخصصوا حتى ذلك الحين - بحماس وموهبة عظيمين! - في عمل هدّام بصورة خالصة مكرَّس بكامله لتدمير النظام القائم. أما الآن، فلم يعد الاندفاع ولا الحماس هما ما يتطلبه العمل الثوري، في نظر لينين، بل «العمل اليومي الرتيب، والدقيق، والمبتذل[3]». بات ينبغي الآن «الزحف في الوحل»[4]. في الوحل، لأنه كما سوف يعلن غالباً، لا يمكن أن تُنجز مهمة البناء إلا بموارد المجتمع الروسي غير الكافية، وبعتاد يزخر بالعيوب. وسرعان ما أدرك ذلك ظافرو أوكتوبر.

(*) سنستخدم الآن بالمعنى ذاته تعبيري «بلشفي» و«شيوعي (روسي)» مع أن الحزب لم يتبنَّ صفة «الشيوعي» إلا في آذار ١٩١٩.

«إنه لأسهل بما لا يقاس أن تنتصر في الثورة . . من أن تنتصر على صعيد التنظيم(*)» .
وبـالفعـل ، فإن المقـاومـة المسلحة من جانب البورجوازية كانت تافهة في بتروغراد . وفي موسكو ، استمرت لمدة أسبوع . لكن محل القوة المسلحة التي بدت عاجزة ، حلَّ تخريب جهاز الدولة القديم ، والنُّخَب ، الذي تواصَل على مدى أسابيع طويلة . فالمصارف رفضت تقديم العون ، وأغلقت صناديقها أمام الجمهور خلال قسم كبير من النهار ، وألغت أي تسليف للدولة ودفعت معونات بطالة لعشرات الالوف من الموظفين الذين اضربوا لابداء معارضتهم للبلشفية(٦) . وعلى مقربة من الشتاء ، أوقفت العمل كلُّ مصالح الفرع الزراعي في وزارة التمـوين وأخـذت معها ملفات الشؤون الجارية(٧) . وبعد ستة أسابيع من الاستيلاء على السلطة ، كان جاك سادول لا يزال يكتب : «إن تخريب الادارات لا يزال قائمًا»(٨) . وحين جرى تعيين تروتسكي مفوضاً للشعب في الشؤون الخارجية ، فقدم نفسه لمعاونيه الجدد في الوزارة ، استقبلوه بضحكات السخرية ، وأداروا له ظهورهم جميعا . وقد هنأت الصحافة الاشتراكية ـ الثورية المضربين(٩) .

لقد اضطر البلاشفة لمعالجة هذه النواقص . فستالين ، المسؤول عن وزارة مهمة ، هي مفوضية الشعب لشؤون القوميات ، لم يكن في متناوله بالنسبة لمجمل «مصالح» (المفوضية)* ، غير غرفة واحدة في معهد سمولني ، وطاولة صغيرة وكرسيين . وفي أمَّة الفلاحين التي كانت تمثلها روسيا ، لم تكن مفوضية الشعب لشؤون الزراعة أفضل تجهيزاً . وقد لاحظ المفوض ، لدى استلامه مهماته ، أنه ليس في مفوضيته غير مكتب واحد . الا أن مساعده نجح في ايجاد طاولة له استعارها من مصالح لينين(١١) .

ضمن هذه الظروف ، بدأت عملية البناء السوفياتية . والحال أن هذه الظروف قد تفاقمت بمقدار ماكان يتسارع الخراب الذي سببته الحرب الاهلية والتدخل الاجنبي والحصار .

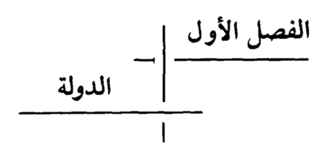
ـ **لينين في أيار ١٩١٨** : «الكارثة محدقة ؛ إنها وشيكة جداً ، وداهمة(١٢)» .
ـ **في تموز ١٩١٨** : «الشعب يشبه رجلًا صريعاً ، نصف ميت»(١٣)» .
ـ **في كانون الثاني ١٩١٩** : «الجماهير الجَوْعى منهكة ، وهذه المجاعة تبلغ احياناً درجة تفوق قدرة البشر(١٤)» .
ـ **في كانون الأول من العام ذاته** : «نجتاز الآن أزمة يائسة(١٥)» .

«ثمة . . . وباء (جديد) ينهال أيضاً علينا : **القمل ، التيفـوس الطفحي الذي يبيد قواتنا . . . إما سيتغلب القمل على الاشتراكية أو ستنتصر الاشتراكية على القمل**!(١٦)» .

(*) إضافة كلمة (مفوضية) من وضعنا (المعرِّب) .

- **نيسان ١٩٢٠** : «على كل جمهور الاربعة ملايين بروليتاري أن يعدوا أنفسهم لتضحيات جديدة، ولحرمانات جديدة وكوارث[١٧]».
- **كانون الأول ١٩٢٠** : «الوضع مريع[١٨]».
- **نيسان ١٩٢١** : «الورطة لا خلاص منها[١٩]».
- **حزيران ١٩٢١** : «خراب البلد لا مثيل له[٢٠]».

هكذا، بعد سنوات من الهدم، وعدة أشهر من الهجوم الثوري، وصلت اللينينية الى السلطة ضمن أسوأ الشروط لإنجاز مهماتها.



الفصل الأول

الدولة

واقع الديمقراطية السوفياتية وحدودها

تتمة اللينينية الفوضوية ونهايتها

كان الوصف المسبَّق، من جانب لينين، للنظام السوفياتي يتخطى إطار المؤسسات السياسية. فهذه «الديمقراطية التي باتت للمرة الاولى ديمقراطية للفقراء، لـ «الغالبية الساحقة من الشعب»(*)، ما كان ينبغي أن تتمثل بقلبٍ للآلية الانتخابية، او حتى باستيلاء السوفييتات على سلطة الدولة. كان ينبغي أن يؤديَ انتصار الثورة الى ظهور مناخ اجتماعي جديد، وإلى تغيير كامل في الحياة العامة، وارتقاء مجمل الشعب الى الغالبية السياسية، والى المواطنية الحقيقية، أي إلى المشاركة في القرار والادارة. بتعابير أخرى وبشكل أساسي، كانت المنظورات التي قدمها لينين لمحازبيه كأهداف **فورية** لجهودهم، هي سيرورة اضمحلال الدولة، والاختفاء التدريجي للاكراه السياسي معبَّراً عنه باختفاء «آلة القمع الخاصة» وبالبناء السريع لادارة شعبية(**). هل كان ذلك طوباوياً؟ كلا، على الاطلاق ـ كان جواب لينين ـ لأن «الكثير من الاشياء التي تبدو مستحيلة بالنسبة لقوانا المحدودة، والشائخة، والبيروقراطية، سوف تغدو ممكنة التحقيق بالنسبة لقوى كتلة مؤلفة من عدة ملايين ستشرع في العمل لصالح نفسها(***).

(*) انظر أعلاه، الجزء الاول، ص ٢٥٩.

(**) انظر أعلاه، الجزء الاول، ص ٢٦١ وما بعدها.

(***) انظر أعلاه، الجزء الاول، ص ٢٦٣.

كان عام ١٩١٧ قد رأى مشهد الجماهير الروسية، ولاسيما البروليتاريا، مضاعِفة هجماتها ومراكمةً نجاحاً فوق نجاح. وكانت المبادرات القاعدية ـ خلق السوفييتات، ولجان المشغل والمصنع، وبلورة مطالب جديدة، من بينها الرقابة العمالية ـ قد قدمت للينين، ليس فقط الالهام «الفوضوي» لتصوراته الجديدة، لكن كذلك التوجه شبه التروتسكي لاستراتيجيته الثورية. هكذا كانت روسيا خطت باتجاه ثورة اوكتوبر. والحال أن هذه الثورة لم تشكل من جميع النواحي قَطْعاً بين عالمين. فالأشهر التي سبقتها كانت أشهر الهجوم الشعبي، ولم تكن الاشهر التي تلت، لهذا السبب، أشهر المراكمة والتوطيد. على العكس، من الملاحظ أن بين الفترتين تشابهات عديدة. فكلاهما تشكلان جزءاً من الحركة التاريخية ذاتها، وتتعلقان لردحٍ من الزمن بديناميةِ فتحٍ واحدة.

هكذا، خلال الخريف، شهدت الارياف الروسية أفعالاً صاخبة اكثر فاكثر للفلاحين المتمردين. ولم يتوقف ذلك مع صدور المرسوم حول الارض الذي أعلنته السلطة البلشفية الجديدة في اليوم ذاته الذي رفعها فيه الى سدة الحكم مؤتمر السوفييتات لعموم روسيا، ذلك المرسوم الذي الغى الملكية العقارية وقضى بتوزيع الاراضي(*). ولقد تم وضع المرسوم موضع التطبيق بصورة فوضوية وعلى يد الفلاحين أنفسهم. وكما يشير كار، فإن أشكال توزيع الاراضي لم تحددها السلطة البلشفية بل «إرادة الفلاحين الجماعية(١)». من جهة اخرى، فان ظهور المشاريع الزراعية الجماعية الاولى كان في الغالب ثمرة مبادرات محلية(٢)، مع ان الحكومة كانت تتمناه. وإذا كان خلق «لجان الفلاحين الفقراء»، في حزيران ١٩١٨، ناتج مرسوم حكومي، فإن وضعه موضع التطبيق يدين بالكثير للتدخل العفوي من جانب جماهير الجنود المسرَّحين الذين كانوا يعودون الى قراهم(٣). وعموماً، فإن قيام السلطة الجديدة بسن قوانين ومراسيم لم يكن له في أغلب الاحيان اكثر من قيمة رمزية، أو بالأحرى لم تكن له غير اهداف دعاوية، ونادراً ماكان لدى البلاشفة وسائل لتنفيذ قراراتهم التشريعية. ولقد اعترف لينين بذلك، فيما بعد، في المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي عام ١٩٢٢(٤). وحين كانت تلك المراسيم تنتقل من وضعها كمجرد نصوص قوانين وإبداءات نوايا، لتصبح واقعاً، وتكيِّف الحياة اليومية قالبةً إياها رأساً على عقب، مغيِّرةً المصير الجماعي والفردي للشعب الروسي، فذلك لأن فعل الجماهير الملموس كان يكمل العمل شبه النظري للمشرِّعين الجدد وينفخ فيه الحياة.

كان عمل الجنود المسرَّحين يشكل امتداداً للعمل الذي كانوا قد تابعوه، في افواجهم، في أعقاب استيلاء البلاشفة على السلطة. فبما أن هؤلاء لم يكونوا يستطيعون الاعتماد على

(*) انظر أدناه ص ٣٠٨.

هيئــة أركــان الجيش القيصري القــديم لتنفيذ سياستهم السلمية، وإزاء رفض القيادة العسكرية مباشرة مفاوضات لأجل الهدنة، طلبوا من الجنود بالذات أن ينتخبوا لجاناً تتفاوض بصدد وقف للنار مع الوحدات المعادية التي كانوا على تماس مباشر بها(*). هكذا تواصلت خلال الشتاء ظاهرة تكاثر اللجان التي كانت تميز إلى حد بعيد الجيش الروسي بين شباط/ فبراير وتشرين الأول/ اكتــوبــر، وسمحت للبــلاشفـة بتسجيل نجـاحـات هامـة خلال الانتخـابـات لأجل تجديد اللجان التي كانت قائمة(٦). ومع أن الحزب كان يمتلك نفوذاً مباشراً على صعيد الطبقة العاملـة، فالوضع لم يكن مختلفاً أبداً في المدن الصناعية. كانت مبادرات البروليتاريا وفتوحاتها فيها، إبان شتاء ١٩١٧ـ١٩١٨، ثمرة مبادرات محلية وأعمال عفوية. كان الأمر على تلك الحال، مثلاً، بالنسبة لإرساء الرقابة العمالية على منشآت عديدة. لاشك أن الحكومة أصدرت، في هذا الميدان كما في ميدان الاصلاح الزراعي، مرسوماً يضفي الشرعية على الرقابة العمالية(*)؛ وكانت تصدق بذلك على وضع سمحت به وشجعته، لكنها لم تكن مسؤولة عنه مباشرة. وفي الواقع، كانت تلك الرقابة العمالية تتخذ، كما سنـرى، شكل ضغط تمارسه البروليتاريا على قيادة المنشآت الصناعية، ووضع يد من جانب الشغيلة على قطاعات من الادارة أشد فأشد اتساعاً وعلى ممارسة صلاحيات كانت تلغي في الغالب حقوق أرباب العمل التي لم تكن ألغيت بعد.

إلا أن العمال لم يكونوا يكتفون بأخذ زمام مصانع عديدة، بل كانوا يدفعون الحكومة السوفياتية في طريق تأميمات لم تكن تدخل آنذاك في برنامجها الاقتصادي. ففي الاشهر الاولى التي تلت استلام السلطة، لم تكن القيادة البلشفية - ولينين في الطليعة - تفكر اطلاقاً في تشريك اقتصـاد البلد، لأنها كانت تعي الامكـانـات المحدودة الموجودة في متناول روسيا المتأخرة والمعزولة. فهذه الاخيرة، إذ كانت تتلمس طريقها، كانت تتجه نحو نموذج من الاقتصاد «المختلط» الذي يتم فيه تجريب تعاون شاق بين الدولة البروليتارية والرأسماليين الروس(٧) الأكثر تساهلاً. بيد أن هذه السياسة اصطدمت بصعوبة مزدوجة، متمثلة بمقاومة أرباب العمل ورفضهم، من جهة، وبفقدان العمال صبرهم، من جهة اخرى. ذلك أن تطبيق هؤلاء الاخيرين اجراءات الرقابة العمالية أقنع، في الاخير، قادة المنشآت الروس بأن كل شكل من التعاون مع السلطة الجديدة مستحيل: كان إغلاق المصانع هو الرد على الرقابة العمالية، وكانت التأميمات «العقابية» هي الرد بالمقابل على حالات الاقفال؛ وكانت تقررها

(*) انظر أدناه، ص ١٦٧ ـ ١٦٨.

السلطات المركزية، تارة، وطورا السوفييتات المحلية، وأحياناً شغيلة المنشأة بالذات. هكذا، تحت ضغط «قاعدة» لم تكن الحكومة تنجح في التحكم بها، اتخذت روسيا السوفياتية طريق التشريك. فمن أصل الخمسمئة منشأة مؤممة حتى حزيران ١٩١٨، تاريخ اتخاذ تدبير بالتأميم العام لمجمل الصناعة الروسية، تم تأميم أربعمئة منشأة بنتيجة مبادرات محلية كانت الحكومة المركزية تسعى جهدها لكبحها أو تقنيتها[٨]، لكن عبثاً. ففي هذا المجال كما في مجالات أخرى، في ربيع عام ١٩١٨ كما على امتداد عام ١٩١٧، كانت الجماهير هي التي تستمر في فرض إرادتها؛ لم يكن اندفاعها الديناميكي قد توقف بعد عن استنفاد آثاره.

وربما أمكننا مضاعفة الأمثلة، وتتبع الظهور العفوي لمحاكم شعبية في بتروغراد، وعموماً مبادرات الجماهير في إدارة القضاء[*]، أو في ميدان الإسكان أو التربية. ففي خريف عام ١٩١٨ لاحظ الصحفي الانكليزي ارثور رانسوم أنه «في كل مقاطعة، ثمة لجان بيوت يتوجه إليها الاشخاص الراغبون في إيجاد غرفة»[٩]. صحيح انه منذ تشرين الثاني ١٩١٧، كان مجلس مفوضي الشعب قد دعا المواطنين لحل ازمة السكن «بوسائلهم الخاصة، مانحاً إياهم حق مصادرة الابنية وحجزها والاستيلاء عليها»[١٠].

وفي ميدان التعليم العام والثقافة، كان مفوض الشعب المختص يستلهم الفلسفة ذاتها. كان خطابه الرسمي الاول، في ٢٩ تشرين الاول ١٩١٧ يعلن ان الحكومة لا تستطيع ري «عطش الجماهير الكادحة والانتليجنسيا الى الثقافة... على الشعب بالذات أن ينتج ثقافته الخاصة، عن وعي أو دون وعي». وخلص المفوض اناتول لوناتشارسكي الى ان «العمل المستقل... للمنظمات التربوية والثقافية الخاصة بالعمال والفلاحين والجنود يجب ان يستمتع باستقلال كامل، سواء في علاقاتها بالحكومة المركزية أو في علاقاتها مع الادارات البلدية»[١١].

وعلى الصعيد السياسي أيضاً، كانت تلك الفترة تشكل امتداداً لسابقتها إذا أخذنا بالاعتبار، على الأقل، النجاحات التي سجلها الشيوعيون. فأحد المؤلفين الذين درسوا، بأكبر قدر من الدقة، تطور عدد البلاشفة يلاحظ التزايد الكثيف لأعضاء الحزب في الفترة التي تلت الاستيلاء على السلطة[١٢]، وذلك بالرغم من خسارة أراضٍ مهمة وما عنته تلك الخسارة من تناقص عدد السكان الواقعين تحت إشراف السلطة السوفياتية. ففي شهر تشرين الثاني ١٩١٧، وجد مارتوف بالذات نفسه مجبراً على الاعتراف بأن «السكان بمجملهم تقريباً يؤيدون لينين»[١٣]. وحين حاول الجنرال كراسوف، في الايام الاخيرة من

(*) انظر أدناه، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

اوكتوبر، **استعادة العاصمة على رأس قوات معادية للثورة، لاحظ جون ريد عشرات الالوف من العمال الذين كانوا يغادرون المصانع باتجاه الجبهة: «كان ممثلو البروليتاريا الثورية هؤلاء يعرضون صفوفهم، أشبه بسيل، مدافعين بصدورهم عن عاصمة الجمهورية العمالية والفلاحية»**[١٤].

وكان الصحفي الانكليزي برايس شاهداً للمشهد ذاته وللحماس ذاته، مشيراً، في الوقت نفسه، لرد الفعل الودي تجاه الالمان الذي كانت تظهره البورجوازية: «لو كان في وسع الالمان ان يصلوا ويستأصلوا هؤلاء الاوباش»، هذا ماكان يسمعه من المشاهدين المعادين[١٥]. طبعاً، لم يعد الوقت وقت التظاهرات الصاخبة التي ساهمت من قبل في ايصال البلاشفة الى السلطة. كانت مواكب اكثر سلمية قد أعقبتها مبرهنة على ان اندفاع الجماهير الثوري بقي عالياً. هكذا بينت مشاركة الجمهور في يوم الدعم لمفاوضات بريست ليتوفسك، الذي نظمه سوفييت بتروغراد. فرغم البرد في نهاية كانون الأول، مر مئات الالوف من العمال والحراس الحمر والجنود من الفَجر حتى الغسق[١٦].

أخيراً، وبوجه خاص، تلا استيلاء البلاشفة على السلطة، في كل أنحاء روسيا، **امتداد الظاهرة السوفياتية**، الذي لم يحدث حقاً إلا بعد اوكتوبر ١٩١٧. أعلن تعميم من مفوضية الشعب للشؤون الداخلية مؤرخ في ٥ كانون الثاني ١٩١٨ أن السوفييتات المحلية باتت مذاك تتقلد كل سلطات الادارة القديمة، وأضاف: «ينبغي ان تغطي البلد بأسره شبكة سوفييتات جديدة». وفي الواقع، نما عددها بشكل مذهل، لاسيما في الريف، حيث بقيت حتى ثورة اوكتوبر شبه معدومة[١٧]. والحال أن السلطة لم تنفك تشدد آنذاك على واقع انها تكتفي بتصديق المبادرات السياسية التي تتخذها الجماهير بصورة عفوية[١٨]. وبما يخص السوفييتات المدينية، كانت تعمل، بالضرورة، وفقاً لمبدأ التفويض، حيث كان على جمهور الناخبين الواسع أن يتمثل بمندوبين منتخبين. إلا أن عمل السوفييتات في الأرياف كان يترافق بممارسة الديمقراطية المباشرة، التي كانت تتوافق اكثر مع فلسفة النظام الجديد[١٩]. في كل مكان، كان يُبذل جهد لمحو التمييز بين الوظيفتين التشريعية والتنفيذية، ولجعل الافراد يشاركون في تطبيق قرارات متخذة بصورة جماعية[٢٠]. فضلاً عن ذلك، كان عشرات الالوف من العمال يدخلون في جهاز الدولة، حيث ان الحزب البلشفي كان يتحول الى أداة تجنيد ويبدي في هذا الميدان الحيوي حماساً خاصاً للغاية[٢١]. وإذا كان ألفرد ماير يتكلم في مؤلفه الكلاسيكي عن اللينينية، بصدد الاشهر الاولى من حياة النظام السوفياتي، على **«شهر عسل الثورة»**[٢٢]، **فهو فعل هذا فيما هو يفكر بكل ذلك**، وبسبب كل ذلك.

في كل حال، كانت القصيدة الغزلية الثورية تتواصل بالنسبة للينين، على ما يبدو. فنحن نقع في كتاباته وخطبه آنذاك، على النبرات «الفوضوية» ذاتها، وروح التفاؤل ذاتها، والالهام الديمقراطي ذاته بالكامل، التي نجدها في الكتابات التي سبقت اوكتوبر. كانت احدى موضوعاته المفضلة آنذاك روح الخلق لدى الجماهير، والموارد اللا متناهية التي تمتلكها والامكانات الهائلة التي تنفتح أمامها. ففي معرض كلامه أمام المؤتمر الثاني لسوفييتات روسيا، اعلن ما يلي: «علينا ان نقدم للجماهير الشعبية حرية خلق كاملة[٢٣]». وكممثل وقائد للطليعة العمالية، كان يبدو مستعداً حتى لمنح الفلاحين الروس ثقته. لقد اكد في الخطاب ذاته: «إننا نريد الاعتقاد ان الفلاحين سيعرفون أفضل منا كيف يحلون المسألة بصورة سليمة (مسألة تطبيق مرسوم الارض، م. ل.)[٢٤]».

على امتداد شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، ضاعف التصريحات المشابهة. «المبادرة الخلاقة لدى الجماهير، ذلكم هو العامل الاساسي في المجتمع الجديد. . فالاشتراكية ليست نتاج مراسيم تهبط من فوق. إن الآلية الادارية والبيروقراطية غريبة عن روحها. الاشتراكية الحية، الخلاقة، هي عمل الجماهير الشعبية بالذات[٢٥]». وفي «نداء إلى السكان»، نشرته **البرافدا** في ٧ نوفمبر ١٩١٧: «ايها الرفاق الشغيلة تذكروا أنكم **أنتم الآن** الذين تديرون الدولة. لن يساعدكم أحد إذا لم. . . تأخذوا كل **شؤون** الدولة بين **أيديكم**. . . باشروا العمل بذاتكم، في القاعدة، دون انتظار أحد[٢٦]». ولغة لينين لا تتغير بتاتاً حين يخاطب الجنود: «لا يمكن مقاتلة دوخونين(*) إلا بالاستعانة بروح التنظيم والمبادرة لدى جماهير الجنود. لا يمكن إبرام السلام من فوق، حصراً. ينبغي السعي للحصول على السلام من لأسفل. . . من دون المشاركة النشطة للجنود، لا يكون سلام يبرمه القادة الأعلون سلاماً سلباً[٢٧]».

في نهاية كانون الاول ١٩١٧، حرَّر لينين مقالاً نشرته صحيفة الحزب البلشفي في كانون الثاني ١٩١٨، بعنوان «كيف ننظم المنافسة؟» وكانت الروح التي تلهم هذا المقال شبيهة بتلك التي ألهمت **الدولة والثورة**، لاسيما لكونه يهتم بوجه خاص ببناء إدارة جديدة شعبية بعمق، هي قاعدة ديمقراطية فعلية وشرطها. أعلن لينين في المقال المشار اليه: «تكمن إحدى المهمات الاكثر أهمية في أيامنا هذه، إذا لم نقل المهمة الاكثر اهمية، في أن نحفز باكبر قدر ممكن هذه المبادرة العفوية لدى العمال، لدى كل الشغيلة المستغلين عموماً، في كدهم

(*) كان دوخونين القائد الاعلى للجيش الروسي إبان استيلاء البلاشفة على السلطة. رفض مباشرة مفاوضات الهدنة مع الالمان واغتالته مجموعة من الجنود، وقد أدان البلاشفة الاغتيال (انظر ادناه، ص ١٤١).

التنظيمي الخصب. ينبغي أن نحطم مهما غلا الثمن تلك الفكرة المسبقة القديمة المنافية للعقل، والهمجية، والسافلة والبشعة، التي تذهب الى ان «الطبقات العليا» المزعومة، وحدها، او الاغنياء وحدهم، أو اولئك الذين مروا بمدرسة الطبقات الغنية، يمكنهم ادارة الدولة، وتنظيم بناء المجتمع الاشتراكي». وكما في **الدولة والثورة**، يؤكد انه «بما يخص العمل التنظيمي، هو في متناول سواد العمال والفلاحين، شرط أن يعرفوا القراءة والكتابة، ويعرفوا الناس ويكونوا مزودين بتجربة عملية». والحال، يضيف لينين، ان «قوة ثورة اوكتوبر ١٩١٧ وحيويتها ومناعتها تكمن بالضبط في كونها توقظ هذه الصفات، وتقلب كل الحواجز القديمة، وتقطع الروابط البالية، وتخرط الشغيلة في الطريق التي يخلقون فيها بأنفسهم الحياة الجديدة»[٢٨].

عندما انعقد المؤتمر الثالث لسوفييتات روسيا، في كانون الثاني ١٩١٨، في حين كان حل الجمعية التأسيسية قد قطع مرساة جديدة كانت تربط النظام الجديد إلى أصوله البورجوازية(*)، كانت اللغة التي خاطب بها لينين أعضاء المؤتمر تشهد على ان «شهر عسل الثورة» لم يكن قد انتهى: كان الامر يحتاج الى الكثير. وفي الواقع: «غالباً جداً ما يأتي مندوبون للعمال والفلاحين ليسألوا الحكومة، مثلاً، كيف التصرف بصدد هذه الارض او تلك. غالباً ما حدث ان وجدت نفسي، أنا بالذات، في وضع مربك حين كنت ارى انهم لم يكونوا مستقرين على رأي، هم أنفسهم. كنت أقول لهم آنذاك: أنتم السلطة، افعلوا كل ما تشاؤون، خذوا كل ما أنتم بحاجة اليه، ونحن سندعمكم[٢٩]». ويضيف لينين الى ذلك هذا المديح المؤثر لـ «نشاط الجماهير العفوي» و«عملها الخلاق»: «ألقوا إذاً نظرة الى اعماق الشعب الشغيل، الى قلب الجماهير. سترون أي عمل تنظيمي يُنجز هناك، أي اندفاعة خلاقة: سترون كيف ينبثق من هنالك ينبوع حياة جددتها الثورة وقدستها[٣٠]».

بعد شهرين، كان لينين يشرح للمندوبين إلى المؤتمر الرابع لسوفييتات روسيا ان «عمل الـ . . . ثورة ليس عارضاً. مثلما ليس ثمرة قرارات من جانب حزبنا» . . . لكنه عمل «الجماهير الشعبية بالذات، بشعاراتها وطموحاتها». وقد شددً على واقع أن «الاشتراكية لا يمكن ان تشاد بواسطة أقلية، ولا بواسطة حزب. ولا يمكن ارساؤها إلا بفعل عشرات الملايين من الناس[٣١] . . . ».

ضمن شروط كهذه، ماذا كان من أمر «اضمحلال الدولة»، الموضوع في البرنامج شبه الفوري للحزب البلشفي في **الدولة والثورة**؟ كان لينين قد أكد في كانون الثاني ١٩١٨، أمام مؤتمر السوفييتات، «اننا نملك تنظيماً للسلطة يعين بوضوح الانتقال الى الالغاء الكامل لأي

(*) انظر أدناه، ص ٣٣ وما بعدها.

سلطة، لأي دولة»، حيث أن هذا الاختفاء بالذات لا يمكن ان يتحقق إلا «حين لايعود هناك أي أثر للاستغلال، أي في مجتمع اشتراكي»[٣٢]. وفي المؤتمر السابع للحزب، في آذار ١٩١٨، كان قد بدأ يؤكد: «لأن الجماهير الكادحة تشرع تسير الدولة وتخلق قوة مسلحة تدعم النظام القائم، يختفي جهاز التسيير الخاص. يختفي الجهاز الخاص لنوع من العنف من جانب الدولة[٣٣]...». إلا أنه لفت الانتباه، في معرض رده على مداخلة لبوخارين، إلى ما يلي: «في الوقت الحاضر، نحن مع الدولة على وجه الاطلاق[٣٤]». وأضاف: «متى ستبدأ الدولة بالاضمحلال؟ سيتسنى لنا من الآن حتى ذلك الحين ان نعقد اكثر من مؤتمرين، إقبل ان يغدو بوسعنا القول: انظروا كيف تضمحل دولتنا؟ اما الآن، فما يزال الوقت مبكراً جداً. إن المناداة مسبقاً باضمحلال الدولة تعني قسر المنظور التاريخي[٣٥]». وسوف يقدم لينين مراراً هذا الاضمحلال على انه هدف للحركة الثورية(*) لكن لن يعود وارداً جعل استيلاء البروليتاريا على السلطة يتطابق مع بداية تحققه.

على العكس تماماً: دون أن يتكلم لينين بصراحة، لّمح مراراً إلى أنه مع استيلاء البروليتاريا على السلطة، ولكون صراع الطبقات يتفاقم، نشهد تعزيزاً للدولة لا اضمحلالها. هكذا في خطاب يعود الى شهر أيار ١٩١٩، يقول: «بعد قلب البورجوازية بالضبط يأخذ صراع الطبقات الاشكال الاكثر فظاظة. والديمقراطيون والاشتراكيون الذين يخدعون أنفسهم ثم يخدعون الآخرين أيضاً، إذ يقولون: ما أن تجري إطاحة البورجوازية حتى ينتهي كل شيء، لا يساوون قُلامة ظفر. فبدل ان ينتهي كل شيء، يكون في طور البدء[٣٦]...» وفي «تحية الى العمال الهنغاريين» كتبت في نهاية الشهر ذاته: «إن إلغاء الطبقات هو ناتج صراع طبقات طويل، وصعب وعنيد، لا يختفي (كما يتخيل الممثلون المبتذلون للاشتراكية القديمة وللاشتراكية الديمقراطية العجوز)، بعد قلب سلطة رأس المال، بعد تدمير الدولة

(*) انظر مثلاً الجزء ٢٧، ص ١٥٧، ٢٨٣، ٤٣٣. من جهة أخرى، وفي واحد من االنصوص الرسمية تبناه المؤتمر الاول للاممية الثالثة، في آذار ١٩١٩، وكتبه بوخارين ورد ما يلي: «بمقدار ما تتحطم مقاومة البورجوازية وتتحول هذه تدريجياً، عن طريق مصادرة أملاكها، إلى شريحة كادحة، تختفي ديكتاتورية البروليتاريا ومع الدولة تختفي الطبقات بالذات.» (أورد الكلام ج. ليغراس، الاممية الشيوعية (٩١٩ - ١٩٤٣)، لندن، ١٩٥٥، الجزء الاول، ص ١٩.) وفي عام ١٩٢٠، لّمح تروتسكي من جانبه، إلى ظاهرة الاضمحلال ذاتها: «حين تكون الثورة الاجتماعية قد انتصرت نهائياً، سيمتد النظام السوفياتي ليشمل كل السكان. سيفقد عندئذ طابعه الحكومي وينحل في تعاون قدير بين المنتجين والمستهلكين ٢٢٠ (تروتسكي، الارهاب والشيوعية، باريس ١٩٦٣، ص ١٦٧.)

البورجوازية، **بعد** إرساء ديكتاتورية البروليتاريا، بل يتغير شكله فقط ليصبح اكثر شراسة من نواحٍ عديدة»[٣٧].

في اطروحات رسمية كتبها لينين الى المؤتمر الثاني للأممية الثالثة، في تموز **١٩٢٠**، جاء فضلاً عن ذلك أن «استيلاء البروليتاريا على السلطة لن يضع نهاية لصراعها الطبقي ضد البورجوازية بل على العكس، فإنه يجعل هذا النضال أشد اتساعاً وصرامةً وعناداً[٣٨]». كانت هذه الملاحظة، المستمدة من مجرى الثورة في روسيا، لكن التي عمّمها لينين وقدمها كملاحظة شاملة، تضع في المهملات ـ وحتى في المهملات الاشتراكية ـ الديمقراطية!ـ الفكرة القائلة أن استيلاء البروليتاريا على السلطة سيجعل ـ ما أن يتحقق ـ جهاز الدولة القمعي، وبالتالي الدولة بالذات، نافلين بالتدريج.

بعد أن قال لينين ذلك، شدّد بصورة تفخيمية على أن ثورة اوكتوبر كانت قد أدت إلى ولادة «نموذج جديد للدولة»، خلقته فضلاً عن ذلك «الجماهير الشعبية»[٣٩]. واضاف في التصريح نفسه، الذي ادلى به في آذار **١٩١٨** امام المؤتمر السابع للحزب: «إن سلطة السوفييتات نموذج جديد للدولة، من دون بيروقراطية، ودون شرطة، ودون جيش دائم، حيث تخلي الديمقراطية البورجوازية المكان لديمقراطية جديدة تنقل الى المقام الأول طليعة الجماهير الكادحة، وتجعل من هذه الاخيرة السلطة التشريعية والتنفيذية، وتعهد اليها بالدفاع العسكري، وتخلق جهازاً من شأنه إعادة تربية الجماهير[٤٠]». وأمام الهيئة نفسها، حدد مهمات هذا النظام الجديد للدولة وسماته: تحقيق «وحدة الجماهير الكادحة وتنظيمها»، و«تعليم كامل افراد الشعب الكادح كيف يشاركون بأنفسهم في تسيير الدولة والتوصل الى «الدمج بين الادارة والتشريع»»، و«خلق قوة مسلحة من العمال والفلاحين، قليلة الانفصال عن الشعب قدر الامكان»؛ وأخيراً جعل «انتخاب النواب وعزلهم اكثر سهولة»[٤١]. وعلى العكس فإن ماكان يظهر للينين غير متوافق مع النظام الجديد، كان الشكلاوية والبيروقراطية المميزتين للديمقراطية البورجوازية. لقد اكد بهذا الصدد في **المهام المباشرة لسلطة السوفييتات** المكتوب والمنشور في الفترة ذاتها: «ان الطابع الاشتراكي للديمقراطية السوفياتية، اي **البروليتارية**، في تطبيقها الملموس، المحدد، يكمن في مايلي: أولاً، إن الناخبين هم الجماهير الكادحة والمستغَلة، وبالتالي فالبورجوازية ليست في عدادهم(*)؛ ثانياً، كل الشكليات والتقييدات البيروقراطية بخصوص الانتخابات ملغاة، حيث أن الجماهير تحدد بنفسها طريقة الانتخاب وتاريخه ولها مطلق الحرية في عزل منتخبيها.

ثمة موضوعتان تسيطران في كل حال على تصريحات لينين بصدد الديمقراطية

(*) انظر أدناه، ص ١٨٩، بصدد التدابير الانتخابية في النظام السوفياتي الجديد.

السـوفياتية، على الأقـل في تلك الفترة: إنها «اكثر ديمقراطية. . بما لا يقاس من أفضل الجمهوريات البرلمانية البورجوازية [٤٣]»؛ ليس لها معنى إلا بالمشاركة الفعلية للجماهير في العمل الاداري: «إن هدفنا هو تأمين المشاركة العملية **لكل الفقراء دون استثناء** في حكم البلد. . . وجعل **كل** الشغيلة يضطلعون مجاناً بوظائف الدولة ما أن تنتهي ساعاتهم الثماني في الانتاج». وخلص لينين الى القول: «من اصعب ما يكون الوصول الى ذلك، لكن هناك فقط تكمن ضمانة التوطيد النهائي للاشتراكية[٤٤]».

«من أصعب ما يكون الوصول الى ذلك». أليست هذه رنة جرس جديدة مع ذلك، مختلفـة عن النـبرات التي كانت، قبـل وقت قصير، قد حمست النشاط العفوي للجماهير وقـدراتها المكتسبة سابقاً، وتمكنها، بمساعدة الاندفاعة الثورية، من تقديم كوادر الادارة الشعبية على الفور؟ صحيح انه في الفترة ذاتها، في شهر آذار ١٩١٨، كان لينين قد اضطر الى الاعتراف، خلال حديثه الى اعضاء المؤتمر في الحزب بأن «القرميدات التي ستستخدم في بناء الاشتراكية لم تُصنع بعد[٤٥]».

منعطف بريست ـ ليتوفسك

ثمة فرق محسوس بين الواقعية المتحررة ربما من الأوهام ـ بهذه السرعة؟. . . ـ هذه الـواقعية التي تتضمنها الجملة الاخيرة: «القرميدات التي ستستخدم في بناء الاشتراكية لم تُصنع بعد»، والوصف الحماسي لفضائل الجماهير الثورية وقدراتها. والحال أن هذا الفرق لا يتعلق بتناقض في الافكار بل بتعقد الوقائع والتطور الديالكتيكي للثورة. لأنه في حين كانت لا تزال تأخذ ديناميتها الصاعدة مجراها، وفي حين كانت تتواصل وتتعمق وتتوطد وتتكاثر الفتوحات الشعبية المنبثقة من عفوية هجومية، كانت بعيدة عن استنفاد آثارها؛ وفي حين **كانت الديمقراطية السوفياتية**، القوية والخلاقة، تثبت أصالتها بألف طريقة وطريقة، كانت قد بدأت تتواجد وتنمو عوامل انحلال، وفي أوج النصر بالذات براعمُ هزيمةٍ.

لقد جرى التساؤل كثيراً حول الحدود التاريخية للديمقراطية السوفياتية. فموت لينين، ومـرضه واعتزاله السياسي قبل ذلك، قدمت نقاط استدلال سهلة لهواة المفارقات المذهلة والترسيمات التعليمية didactiques. لقد سقط ألبر كامو، في مقدمته لكتاب الفرد روسمر، **موسكو في ظل لينين**، واحداً بين كثيرين آخرين، في فخ السهولة هذه. هتف بصدد الفترة التي تفصل ثورة اوكتوبر عن موت لينين، قائلاً: «أزمنة رائعة». «أزمنة رائعة حيث بدا العالم وكأنه يبدأ من جديد، ويبدأ التاريخ أخيراً على أنقاض امبراطورية»[٤٦]. ويعترف مؤرخون

ليسوا أقل تأييداً لثورة اوكتوبر، لكنهم اكثر تدقيقاً، من امثال بيير برويه وإسحق دويتشر، بأنه في نهاية الحرب الاهلية، وفي كل حال خلال ربيع عام ١٩٢١، كانت الديمقراطية السوفياتية قد كفّت عن الوجود، وذلك قبل بعض الوقت. وفي الواقع، كانت سيرورة انحلال هذه الديمقراطية قد بدأت في فترة كانت لا تزال تبدو فيها مفعمة قوةً وكان من المستحيل فضلاً عن ذلك إرجاع قوة الثورة الاولية إليها وجعلها تستأنف سيرها الى الامام.

إن شتاء ١٩١٧ـ١٩١٨ الذي كان شتاء الاستيلاء على السلطة والانتصار البروليتاري كان في الواقع شتاء البؤس أيضاً ـ الجوع والبرد ـ والتفكك الاقتصادي. منذ فترة الانتصار والأمل تلك، شهد الناس الخطوات الاولى للحرب الاهلية و ـ بالتلازم معها ـ أولى تجليات لظاهرة سيطرت على السنوات الاولى من النظام السوفياتي: الضعف التدريجي للطبقة العاملة الروسية، وفقدان للقوة والجوهر سوف يؤدي في النهاية الى انحطاطها الطبقي شبه الكامل، وبصورة ما إلى اختفائها مؤقتاً.

صحيح انه في ربيع عام ١٩١٨، كانت الديمقراطية السوفياتية حية، وبالفعل ـ كما سنرى ـ ديكتاتورية البروليتاريا. صحيح ان العمال الروس كانوا قد حققوا، آنذاك، انتصاراً تاريخياً وكانوا يعون ذلك. صحيح انهم كانوا مستعدين، دفاعاً عن فتوحاتهم، لتقديم كبرى التضحيات؛ كانوا قد برهنوا عن ذلك وقد يبرهنون عنه أيضاً. لكن إلى ربيع عام ١٩١٨، مع ذلك، يعود هذا المشهد الذي يرويه احد عمال بطرسبورج: «في مصنع ترينغولنيك، دعت اللجنة المكلفة بإغلاق المؤسسة إلى لقاء عام. كان الأسف والحزن يملآن القلوب وكان الجميع يتمنون التمكن من الخلاص من ذلك الكابوس الرهيب. لكن كيف؟ تلقى جمهور مؤلف من ثمانية الى عشرة آلاف عامل خبر تسريحه بتشكّيات الاحتضار، تماماً كأولئك الذين سوف يموتون، وهم يعرفون ذلك. كانت هنالك دموع وصيحات غضب أيضاً(٤٧)».
ويروي عامل آخر من العاصمة: «هاكم أيضاً جمهرة من العمال الذين جرى تسريحهم. مع أننا آلاف، لم تكن تُسمع كلمة واحدة لها علاقة بالسياسة. لا أحد يتكلم على الثورة، أو على الامبريالية الالمانية او على اي مشكلة راهنة اخرى. بالنسبة لكل هؤلاء الرجال والنساء الذين يكادون يقفون على أرجلهم، بدت تلك المسائل بعيدة بصورة هائلة. من حين لآخر تعلو صيحة: «إنها لحياة مرعبة! من الافضل ان نستسلم للموت!(٤٨)».

والحال أن مشاهد من هذا النوع كانت متواترة. فالمؤرخ السوفياتي سوبوليف يخبرنا انه في نيسان ١٩١٨، كان قد جرى إغلاق ٢٦٥ من اصل ٧٩٩ منشأة صناعية في بتروغراد، وانه على صعيد مجمل الصناعة الكبرى في بطرسبورغ، كان اقل من نصف العمال لا يزالون يعملون(٤٩). وفي ربيع عام ١٩١٨، لم يكن مجموع سكان العاصمة يبلغ اكثر من ١,٥ مليون نسمة مقابل ٢,٥ مليون قبل عام. كان التدهور الاقتصادي والخطر العسكري

الالماني قد أديا الى تفكيك المصانع. وفي موسكو، في الفترة ذاتها، كان عدد السكان قد هبط من مليونين الى مليون ونصف(*). تضاف الى ذلك اضرار القحط. ففي شباط وآذار ١٩١٨، لم تتلق معظم المناطق إلا ١٢ إلى ١٣٪ من كمية الخبز التي توقعتها مفوضية التموين. وفي نيسان، هبطت هذه الكمية الى النصف. وفي المراكز الصناعية، بقي العمال عدة ايام لا يتلقون حصتهم من الخبز(٥٠). في بداية عام ١٩١٨، كانت هذه الحصة، فضلاً عن ذلك، ٥٠ غرام خبز في اليوم(٥١)! كانت السوق السوداء قد غدت وسيلة البقاء الرئيسية، رغم الاسعار الباهظة جداً(٥٢) المتداولة فيها. حوالي نهاية شهر نيسان، وصف جاك سادول، وكان مراقباً ايجابياً تجاه النظام، وصف هكذا وضع موسكو، التي رُقِّيت قبل شهر الى مرتبة عاصمة: «في الضواحي، يستشري البؤس المخيف. وتعيث الاوبئة فساداً: التيفوس، الجدري، امراض الاطفال. الاطفال يموتون بكثافة. والذين يلتقيهم المرء موهنون، جلد على عظم، مثيرون للرثاء. في الاحياء العمالية، غالباً ما نلتقي أمهات بائسات شاحبات، هزيلات، يحملن بين اذرعهن بحزن، في نعشٍ خشبي صغير مفضض يشبه المهد، الجسم الصغير الهامد الذي كان سيبقى حياً لو توفر له قليل من الخبز أو الحليب(٥٣)». كانت خسارة اوكرانيا، إثر الشروط الجائرة لصلح بريست ـ ليتوفسك، والأزمة او قطع المبادلات الاقتصادية بين المدينة والريف والوضع الكارثي لوسائل النقل، سبب تلك الكارثة. وكانت نتائج ذلك بالنسبة للطبقة العاملة في أقصى درجات الخطورة. هكذا إذ كان بوخارين يتكلم في المؤتمر السابع للحزب البلشفي، وصف بعبارات منذرة بالخطر ماكان يسميه، منذ آذار ١٩١٨، «تفتيت البروليتاريا»(٥٤).

لاشك ان التعبير الذي استخدمه بوخارين كان مبالغاً به. ربما كان له طابع سجالي، على لسان زعيم «الشيوعيين اليساريين». وبهذه الصفة الناقد الرئيسي للسياسة الحكومية(**). كان في كل حال يشي كلياً بمناخ جديد ومنحط ينعكس في كتابات لينين وتصريحاته. ثمة حد غير دقيق وغير عازل بتاتاً بين تفاؤله وديمقراطيته الأقصيين في الاشهر الاولى التي تلت انتصار أوكتوبر وانحنائهما الواضح، بين تمجيد «العمل الخلاق.. للشعب الشغيل» و«العمل التنظيمي» الذي ينجزه(***) وهذا التصريح المتحرر من الأوهام: «لم تُصنع بعد القرميدات

(*) و. بييتش، Revolution and, staat' institutionenals Träger der Macht in der. Sowjetrusland (1917 - 1922), Cologne, 1969, P. 88.

(**) انظر أدناه، ص ١٠٨.

(***) انظر أعلاه، الجزء الثاني، ص ١٧.

التي ستبنى بها الاشتراكية(*)». وهذا لا يعني أنه ما وراء هذا التبدل في الإضاءة حيث تتغلب الظلال على الأنوار، اختفت هذه الاخيرة كلياً. فطويلاً جداً أيضاً، وحتى نهاية حياة لينين، أبقى على بعض منظورات **الدولة والثورة**. كتب في آب ١٩١٨، مثلاً، في «رسالة إلى العمال الامريكيين» - الامر الذي يعطي تصريحه حقاً مضموناً امتداحياً بعض الشيء: «**وللمرة الاولى** ليست أقلية، ليس الأغنياء فقط، الشرائح المثقفة فقط، بل الجمهور الحقيقي، الغالبية العظمى من الشغيلة تبني بذاتها حياة جديدة. وتحسم، **مستندة إلى تجربتها الخاصة** مشكلات التنظيم الاشتراكية بالغة الصعوبة»(٥٥). وفي نهاية شتاء ١٩١٨-١٩١٩، في مشروع البرنامج الذي كان يعده للمؤتمر الثامن للحزب: «للمرة الاولى في التاريخ، لا تسهل السلطة السوفياتية فقط، وبكل الوسائل، تنظيم الجماهير التي تضطهدها الرأسمالية، بل تجعل من هذا التنظيم الاساس الدائم لكل جهاز الدولة، من الاسفل الى الاعلى، سواء على الصعيد المحلي او على الصعيد المركزي. هذه هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق الديمقراطية في الواقع لغالبية السكان، أي المشاركة الفعلية للغالبية العظمى من الشعب، للشغيلة، في ادارة الدولة(٥٦)». وأخيراً، رغم الخيبات المحتومة، اصر لينين حتى النهاية على ضرورة اعتبار المشاركة القاعدية والمبادرات الشعبية الاساس الجوهري للسياسة السوفياتية الخاصة بالتربية والتعليم العامين(٥٧). إلا أنه منذ زمن بعيد، كان يجري التشديد على الصعوبات المصادفة في عملية دمقرطة الدولة وادارتها وبالتالي في خلق الديمقراطية السوفياتية. ما كان يظهر عشية ثورة اوكتوبر وغداتها ضرورةً على طريق التحقيق - وشبه بداهة - انتقل تدريجياً الى مستوى المثل الاعلى الذي يجب بلوغه، او الهدف الذي ينبغي تحقيقه. إذا كان في وسع لينين، في تشرين الثاني ١٩١٨، بمناسبة الذكرى الاولى للاستيلاء على السلطة، أن يعلن بعد: «الآن، كل الكتلة العمالية، وليس فقط القادة والعمال الطليعيون، بل في الحقيقة الشرائح الأوسع، تعرف انها تبني الاشتراكية بنفسها، بيديها هي، وأنها وضعت أساساتها(٥٨)» - وربما كان هذا التفاؤل ناتجاً عن الطابع الاحتفالي للمناسبة، بقدر ماكان يرتبط بالابتهاج الذي أثاره اندلاع الثورة الالمانية(**) - فبعد مضي شهر، باتت اللهجة اكثر تواضعاً وبلا شك اكثر واقعية. هكذا في معرض كتابة لينين، في كانون الاول ١٩١٨ - كانون الثاني ١٩١٩، بصدد مهمات النقابات، اعترف انه فيما يخص «بناء المجتمع الاشتراكي» «لم يتم انجاز ماهو جوهري، وأن «مشاركة اوسع جماهير الشغيلة في هذا البناء لا تزال غير كافية بتاتاً(٥٩)». كان

(*) انظر أعلاه، الجزء الثاني، ص ٢٠.

(**) انظر أدناه، ص ٢٠٨.

الهدف المتمثل بـ «الدمقرطة الادارية» لا يزال **مشرعاً** اكثر من اي وقت مضى لأن الأمر كان يتعلق بـ «اشتراك كل اعضاء النقابات (اي في الواقع، كل السكان العاملين، حيث ان الانتساب الى النقابات كان اجبارياً، م. ل.) **دون استثناء** في إدارة الدولة، وباجتذاب، على سبيل المثال، «الخدم بادىء ذي بدء الى عمل التعاونيات[٦٠]». لكن في الفترة ذاتها، وفي كراس ظهر في آذار - نيسان ١٩١٩ بعنوان **نجاحات سلطة السوفييتات وصعوباتها**، لاحظ لينين ان «تنظيم تأثير البروليتاريا على باقي السكان، وخلق بيئة جديدة وسط الجماهير، كان «مهمة بالغة الصعوبة يتطلب انجازها عشرات السنين[٦١]».

بيد إنه لم تكن هناك حاجة للانتظار كل هذا الوقت لملاحظة مدى ابتعاد لينين عن تفاؤله الخاص عام ١٩١٧. كان قد بدأ يمتدح الامكانات - واكثر من الامكانات - القدرات التي باتت حقيقية، الكمونات Potentialités التي تحققت - الخاصة بكامل البروليتاريا وبطبقة الفلاحين بالذات. لكن في نص مهم بعنوان، **المهام الفورية لسلطة السوفييتات**، كتبه لينين في آذار - نيسان ١٩١٨، أقام للمرة الاولى تمييزاً ضمن البروليتاريا بالذات في معرض الحديث عن «الجهود المثابرة والعنيدة (التي) ينبغي ان يبذلها الافضل والاشد وعياً بين العمال والفلاحين لاحداث انعطافة كاملة في ذهنية الجماهير ولمساعدتها على الانتقال الى عمل منتظم، ومنسّق ومنضبط»[٦٢].

كان قد انتهى الان - ولاسباب تعود الى تطور اجتماعي واقتصادي رسمنا معالمه - تمجيد البروليتاريا بما هي كذلك، والشعب بكامله، والطبقة العاملة المحيّاة بمجملها، والفلاحين الممتدحين بقضهم وقضيضهم. توصل لينين، غالباً اكثر فأكثر، وبصورة منهجية بسرعة بالغة، الى تمييز «عمال الطليعة» الذين كانوا لا يزالون يستحقون وحدهم الثقة وإلى فضح الاضرار التي تخلفها، داخل البروليتاريا بالذات، عقابيل الرُوح البورجوازية الصغيرة والذهنية الرأسمالية، أو انبعاثاتها؟ منذ شهر ايار ١٩١٨، كان يستنجد بـ «العمال الواعين»، «عمال الطليعة»، مؤكداً أنه «لا يستطيع انقاذ البلد والثورة غير اندفاعة عظيمة من جانب العمال المتقدمين»، وموضحاً انه «ثمة حاجة لعشرات آلاف الرجال الطليعيين (لأنه لم يعد يتعلق الأمر بعشرات الملايين من الافراد الذين كان لا يزال يعقد الامال عليهم قبل اسابيع قليلة م. ل.)، ومن البروليتاريين المتمرسين في القتال، الواعين كفاية ليتمكنوا من شرح الامور لملايين الفقراء في كل نواحي البلد ومن قيادة هذه الملايين»[٦٣]. لكن هؤلاء العمال الطليعيين لم يكونوا كبيري العدد بتاتاً! لقد أعلن لينين في خطاب بتاريخ ٢٣ أيار ١٩١٨: «إننا نعرف كم هي رقيقة شرائح العمال المتقدمين والواعين في روسيا[٦٤]». وقد كانوا يتناقصون، كما يبدو، لأن لينين اعترف في بداية حزيران ١٩١٨ بأن «عدد اولئك الذين يترددون وأولئك الذين ييأسون يزداد في صفوفنا[٦٥]»، ولأنه إذ كان يتكلم بعد اسابيع قليلة

في المؤتمر الرابع للنقابات، انتقد بشدة العمال الذين «يتخلون عن الطبقة العاملة وينتقلون الى معسكر البورجوازية[٦٦]». وبعد وقت قصير، بات مطروحاً الدفاع عن «مصالح الطبقة العاملة ضد الحفنات، والمجموعات، والشرائح من العمال الذين يتشبثون بعناد بتقاليد الرأسمالية وأعرافها[٦٧]».

لا ريب اننا نستبق الوضع بالشكل الذي كان في ربيع عام ١٩١٨ يحدِّد في تقويمات لينين وتقديراته انحناء كان في البدء غير محسوس كثيراً لكن الوقائع بالذات سوف تجعله يزداد حدة. لم نكن وصلنا بعد، في ربيع ١٩١٨، إلى هذا التأكيد الذي لم تكن بداهته أذهلت لينين خلال «شهر عسل الثورة الروسية»: «لم يوجد أبداً، ولا يمكن ان يوجد أبداً صراع طبقات لا يكون فيه قسم من الطبقة الطليعية إلى جانب الرجعية»[٦٨]. لكن منذ شهر ايار ١٩١٨ وفي تلك الفترة كانت هذه الفكرة الموضوعية جديدة تماماً لدى لينين. كان يلاحظ ان «العامل، إذ يصبح الزعيم المستنير للفلاحين الفقراء، لم يصبح قديساً. لقد قاد الشعب الى الامام، لكن حدث في الوقت ذاته ان ترك نفسه يتلوث بالامراض الخاصة بالبورجوازية الصغيرة التي في طور الانحلال[٦٩]». كان لا يزال ثمة مسافة بعيدة، آنذاك، تفصل عن الدعوة التي وجهها لينين في شباط ١٩٢٠ الى اجهزة التشيكا لتقود «العنف الثوري» ضد «العناصر المترجرجة وغير المنطقية داخل الكتلة الكادحة بالذات»[٧٠]. لكن هذه المسافة تفصل أيضاً عن الحماس والابتهاج اللذين اثارهما هجوم ١٩١٧ وانتصار اوكتوبر.

هذا الزوال للأوهام، هذه العودة القوية للـ «واقعية»، والوعي المفاجىء نسبياً لكل ما يفصل المتمنى عن الممكن، وهذا الاخير عن الواقع، هذه العودة الى الصحو بعد النشوة التي رافقت الهجوم الظافر للجماهير، ليست ناتجة فقط عن الاحداث التي كانت تأخذ مجراها في روسيا ـ الازمة الاقتصادية والاجتماعية، وتقدم الحرب الأهلية. إن فحصاً دقيقاً لكتابات لينين وتصريحاته، والبحث المتأني عن اصول هذه «الانعطافة» ومحاولة تحديد تاريخها تصب في خلاصة جازمة نسبياً. ينبغي البحث في **عقد صلح بريست ـ ليتوفسك** عن السبب الرئيسي ـ لكن غير الوحيد بالتأكيد ـ لهذه الظاهرة. هل من قبيل الصدفة، في الواقع، إذا كان لينين صرَّح في ٢٣ شباط ١٩١٨، اليوم الذي استأنفت فيه الجيوش الالمانية زحفها اثر قطع مفاوضات السلام بقرار من اللجنة المركزية للحزب، بعد ان كانت تلك المفاوضات قد اوقفت الزحف المشار اليه، هل من الصدفة اذا كان صرّح بما يلي: «كانت الثورة قد تبعت حتى الان خطاً تصاعدياً، ماضية من نصر الى نصر، اما الآن فلقد منيت بهزيمة خطيرة[٧١]»؟ هل من قبيل الصدفة إذا كان لينين تساءل في ذلك اليوم: «ربما سيكون ثمة حاجة للانتظار طويلاً قبل ان تستأنف الجماهير اندفاعها»[٧٢]؟ وإذا كان أكد، فيما هو يدافع عن عقد السلم مع المانيا امام مؤتمر الحزب البلشفي في آذار ١٩١٨: «ينبغي انتظار

صعوبات قصوى، وهزائم موجعة[٧٣]». وفي الخطاب نفسه وبصدد الحدث ذاته: تخلوا عن اوهامكم، التي سببت لكم درساً قاسياً والتي ستجعلكم الحياة تدفعون ثمناً أغلى مقابلها. إن حقبة من الهزائم الفادحة للغاية تقترب[٧٤]».

في تلك الفترة بالذات ظهرت موضوعة ستسيطر على خطاب لينين سنوات عديدة: «ينبغي ان نعرف التراجع[٧٥]»، وسيعبر لينين عنها ايضا في كراسه المكتوب في آذار - نيسان ١٩١٨، **المهمات الفورية لسلطة السوفييتات**: «علينا اليوم «ان نوقف» الهجوم مؤقتاً. في تلك الفترة أيضاً هاجم لينين «يساروية» بعض رفاقه. فعلى امتداد عام ١٩١٧ وفي الاسابيع التي اعقبت الاستيلاء على السلطة، كان قد هاجم بصورة منهجية البلاشفة الحذرين والتوفيقيين، أولئك الذين كانوا قد خافوا من الاستراتيجية الهجومية التي جرى العمل بموجبها انطلاقاً من ربيع ١٩١٧، ثم وضع الخطة الانتفاضية وتطبيقها. وغداة الانتفاضة الظافرة كان البلاشفة اليمينيون، مرة اخرى، هم الذين اختارهم لينين أهدافاً لرمايته لأنهم إذ كانوا يتراجعون إزاء نتائج الثورة، كانوا يتشبثون بالفكرة، الطوباوية في الحاصل، الخاصة باتفاق مع الاحزاب الاشتراكية المعتدلة(*). لقد سرّع لينين هزيمتهم. وفي كانون الثاني ١٩١٨ أيضاً، كان عليه أن يناضل ضد هذا التيار البلشفي المعتدل الذي، رغم انعزاله، كان يتردد، أو يرفض القبول بحل الجمعية التأسيسية(**). لكن حين انطرحت مشكلة العلاقات مع المانيا الامبريالية - هل يجب الانحناء أمام قوتها وأوامرها أو تحديها بالحرب الثورية؟ ومع البروليتاريا الغربية - هل يجب محاولة هز خمولها النسبي عن طريق حفزها بهذه الحرب الثورية بالذات او على العكس، اخذ علم بذلك الواقع ورفض استراتيجية كل شيء أو لا شيء؟- انفصل لينين عن «الشيوعيين اليساريين» وهاجمهم بشدة(***).

لم يكن الخلاف واقعاً فقط بصدد السياسة الخارجية، علماً ان هذه النقطة كانت حاسمة. إن منطق «واقعية» لينين دفعه ليبدل، في نقاط عديدة، موقع بندقيته. لقد جعل من نفسه، كما سنرى، مدافعاً عن «رأسمالية الدولة»(****)، ونادى اكثر فاكثر، ليس بفضائل المبادرة، بل بضرورات الانضباط وضرورات المردود والانتاجية والامر المفروض من الاعلى على بروليتاريا مستمرة في تأييدها للنظام السوفياتي، لكنها مصابة اكثر فاكثر في مواردها

(*) انظر أدناه، ص ٤٥ - ٤٦.

(**) انظر أدناه، ص ٣٣ وما بعدها.

(***) انظر أدناه، ص ١١٥ - ١١٦.

(****) انظر أدناه، ص ١٧١.

المـاديـة(*) . وفي كل من هذه الامـور ، اصـطدم بمعـارضة «الشيوعيين اليساريين» . إن لينـين ، الـذي كان دفـع خلال اشهـر باتجـاه الهجـوم ودعـا حزبـه للحـاق بالجماهير الثورية ، رفض مذاك «الاصغاء إلى الصيّاحين» وأعلن غداة بريست ـ ليتوفسك أن التكتيك «يجب ان يكون الانتظار، وكسب الوقت، وتجنب المعركة، والتقهقر(٧٧)» . كانت تلك نتيجة اول هزيمة منيت بها البلشفية بعد استيلائها على السلطة . وإنه لذو مغزى، أن يكون حدث هذا الاخفاق ـ الأول، لكن بَـدْلك الاكثر حسمًا، ذلك الذي سيكون، رغم كل الامال وكل الجهود، متعذراً قهره ـ على مستوى الاستراتيجية الاممية للينينية . على مستوى الثورة العالمية .

والباقي كان قد بات يتفرع منه: انعزال الطبقة العاملة الروسية، المتروكة لنفسها، وبالتالي للبؤس . وبالتلازم مع ذلك، كسوف رونق تلك الديمقراطية السوفياتية التي تتبعنا ولادتها، والتي ينبغي ان نصف الان احتضارها، وانحطاطها .

انحطاط السوفييتات

بقي النـظام الـذي خلقتـه ثورة اوكتـوبـر عدة اشهـر قبل ان يحيط نفسه بلبوس دستوري . فلقد بدا له وضع دستور متعارضاً، بشكلاويته وشرعويته، مع فهم حي ودينامي للثورة . فضلا عن ذلك، فان الشكل الذي كانت تتخذه الدولة الجديدة كان سيربح دون ادنى شك اذا لم يطبع نفسه بكليشيهات القانون: لاسيما ان الاطار القومي الذي كان يحد نفسه به والذي كان يحدد بعض ملامحه سيجري بالتأكيد تخطيه في مستقبل قريب جداً، بمساعدة الثورة العالمية، وهو ما سيجعل الكثير من الترتيبات القانونية شيئاً من الماضي . مذّاك لا يجب الاندهاش إذا كان وضع نصوص دستورية جديدة تم بلا مبالاة نسبية وامتنع القادة الشيوعيون الرئيسيون عن المشاركة فيه(**) . مهما يكن، كانت التسمية التي اختارها اخـيرا واضعـو الـدستور يكشف طبيعة النظام الجديد: «الجمهورية الاشتراكية الاتحادية لسوفييتات روسيا(***)» . هكذا جرى تقديمه إلى اعضاء المؤتمر الخامس لسوفييتات روسيا الذين تبنوا، في تموز ١٩١٨ الدستور.

(*) انظر أدناه، ص ١٨٤ وما يليها .

(**) حول المشكلات الدستورية كما كانت تقدم نفسها في روسيا السوفياتية خلال الاشهر الاولى من حياة النظام، انظر إ. هـ. كار، مرجع مذكور، الجزء الاول، ص ١٢٤ وما بعدها .

(***) حول مشكلات الفدرالية والقوميات السوفياتية ، انظر ادناه، ص ٨٧ وما بعدها .

باتت السوفييتات مستودع الشرعية والسيادة. وبوجه خاص كان الدستور يعترف بالسوفييتات المحلية بالضبط كقاعدة للسلطة السياسية. هي في الواقع التي كانت تجسد، بالشكل الاكثر امانة، الفعل العفوي للجماهير التي كان قادتها يكررون ان الدستور ليس غير ترجمته الحقوقية الشاحبة والناقصة[٧٨]. مع ذلك، وفي اسناد الصلاحيات، أعطى واضعو الدستور حصة الاسد للسلطة المركزية، الممثلة بمؤتمر السوفييتات لعامة روسيا، ومابين دوراته باللجنة المركزية التنفيذية لعامة روسيا (لمؤتمر السوفييتات). كان النص يذكر أن «السوفييتات المحلية هي اجهزة الادارة، اجهزة السلطة المحلية: عليها ان تضع تحت اشرافها كل المؤسسات الادارية والاقتصادية والمالية والثقافية والتربوية» ويضيف ان هذه السوفييتات، «حتى الاصغر بينها، مستقلة بالكامل على صعيد المسائل ذات المصلحة المحلية، لكن عليها ان تجعل نشاطها متوافقاً مع المراسيم العامة ومع قرارات السلطة المركزية كما مع قرارات الاجهزة السوفياتية الاوسع التي تشارك فيها[٧٩]». هكذا كان يقوم هرم سوفييتات، ينطلق من السوفييتات المحلية الى مؤتمر عامة روسيا، مروراً بسوفييتات الاقضية والاقاليم والمناطق، هذه الشبكة من السوفييتات السياسية المضاعفة غالباً بسوفييتات محلية ومنطقية مكلفة بحل المشكلات الاقتصادية[٨٠]. لكن إذا كان الدستور يمنح المؤسسات المركزية صلاحيات واسعة، بالاضافة الى حق ان تحدد هي ذاتها طبيعة تلك الصلاحيات وحق توسيعها عند الاقتضاء، فهذه النوايا لم تنجح في الانتقال الى حيز الواقع. كانت المرحلة الاولى من النظام السوفياتي مرحلة الاستقلال شبه غير المحدود لهذه المؤسسات المحلية. ولقد اظهرت السوفييتات القاعدية، المفعمة بحيوية قوية والمتزايدة عدداً، غيرةً من سلطتها.

هكذا إذ كان احد اعضاء «هيئة مفوضية الشعب للشؤون الداخلية(*)» يعبر عن افكاره عام ١٩١٨، اكد ان «السوفييتات البلدية وسوفييتات القرى لم تكن تعترف بغير سلطتها الخاصة بها، وحين كانت تعترف بسلطة اخرى، فكان ذلك يحدث فقط حين كانت القرارات المنبثقة منها تقدم لها بعض المنافع[٨١]». وأعلن نائب مفوض الشعب لشؤون المال، من جهته، أنه رغم الصلاحيات المهمة المعطاة للسلطة المركزية في الشؤون المالية، «تقوم السوفييتات المحلية بما تريد، ووفقاً للتعبير القديم، في وسعها ان تحوّل الرجل الى امرأة والعكس[٨٢]». وسواء عن قصد أو عن غير قصد، عن «ليبرالية» أو عن عجز، لم يكن مؤتمر السوفييتات لعامة روسيا ولجنته التنفيذية يحاولان فرض سلطتها على السوفييتات المحلية والمنطقية، وكان لينين، من جهته، يحكم آنذاك على هذا الوضع بالكثير من الفلسفة، معتبراً

(*) بهدف دمقرطة النظام، كان كل مفوض للشعب، ووظيفته تعادل وظيفة وزير، محاطاً بـ «هيئة» مكلفة بمساعدته ومراقبته.

إياه كـ «مرض نمو» طبيعي تماما[٨٣]. إلا أن ذلك كان يؤدي الى حالات شاذة. فعلى مستوى مناطق واسعة جداً، كانت تظهر مثلاً سلطات مستقلة لا تشعر بتاتاً بأنها مربوطة بقرارات الحكومة. هكذا مع أن سوفييت سيبيريا المنطقي كان خاضعاً دستورياً لمؤتمر سوفييتات عامة روسيا الـذي كان ينتدب إليه ممثليه، فقد رفض القبول بصلح بريست ـ ليتوفسك الذي كانت السلطة المركزية قد صادقت عليه وأعلن انه يعتبر نفسه لا يزال في حالة حرب مع الدول المركزية[٨٤]. وفي الميدان الاقتصادي، كانت تظهر احياناً حالات ليست اقل عبثية. ففي نيسان ١٩١٨، لم يكن نفط باكو يصل الى موسكو إلا بعد أن يخضع على امتداد طريق نقله لضرائب تفرضها مختلف السوفييتات المنطقية الواقعة على تلك الطريق[٨٥]. وكانت تلك فترة، في التـاريخ السوفياتي، سريعة الزوال عُرفت باسم «الأوبلاستنيتشستفو»، أي فترة النزعة المناطقية.

لقـد توجَّب انتـظار خريف عام ١٩١٨ لرؤية التفتت السريع لهذه السلطات «القاعدية». أما ما وضع حداً لها فلم يكن إرادة السلطة المركزية بقدر ماكان متطلبات الحرب الاهلية أو آثارها. حتى ذلك الحين، كانت سلطة السوفييتات، وبوجه خاص على الصعيد المحلي، دون منازع وأكبر بوضوح في كل حال من سلطة الحزب البلشفي(*).

لكن في غضـون أشهـر، انهارت تلك السلطة. لاشك ان الارهاب الابيض كان مسؤولاً جزئياً عن ذلك، حيث ان انتصارات الثورة المضادة ترافقت اغلب الاحيان ليس فقط مع إبادة عدد كبير من الشيوعيين بل كذلك مع القضاء على مناضلي السوفييتات الأشد نشاطاً، وفي كل حال مع إزالة تلك السوفييتات. لكن الأمر الاكثر غرابة هو ان السوفييتات كانت كذلك ضحايا التنظيم المكلف بوجه خاص بالنضال ضد «البيض»: «التشيكا».

لقد تقرر تأسيس التشيكا («اللجنة غير العادية»، أو بصورة أكثر كمـالاً «اللجنة غير العادية لمكافحة الثورة المضادة والتخريب») بمرسوم صدر في ٧ كانون الاول ١٩١٧. ولقد أدى الاتسـاع السريع للحـرب الاهلية، ابتداء من نهاية صيف ١٩١٨، إلى تزويد هذه المؤسسة القمعية الصرفة بسلطات مهمة، اضطرت السوفييتات إزاءها للامّحاء. ففي ٢٨ آب ١٩١٨، أعطت السلطة المركزية للتشيكا تعليمات إلى لجانها المحلية بإنكار كل سلطة للسوفييتات. كان على لجانها، على العكس، أن تفرض هي إرادتها على الهيئات السوفياتية. وقد نجحت دون صعوبة في ذلك، في المناطق العديدة التي شملتها العمليات العسكرية[٨٦] فعام ١٩١٩، اعترف ستالين بهذا الصدد، بصفته مفوضاً لدى الجيوش، بأن التشيكا «باتت

(*) انظر أدناه، ص ٩٨.

الممثل الوحيد للسلطة السوفياتية في المقاطعات»[٨٧]. لم يكن ذلك صحيحاً كلياً، لكن الهيئات التي كانت تنافس سلطان التشيكا لم تعد الاجهزة المحلية أو المنطقية للسوفييتات، بل مؤسسات ادارية جديدة منبثقة من الحرب الأهلية. من بينها «اللجنة العسكرية الثورية لجمهوريات روسيا الاتحادية والسوفياتية»، وكانت «اللجان الثورية» الممثلة لها محلياً تشغل مكانة مهمة. كان قرار صادر عن مجلس مفوضي الشعب يجبر السوفييتات على الانصياع بصورة غير مشروطة لتعليمات تلك اللجان[٨٨]. من جهة اخرى، ووفقاً لظاهرة قاسرة اكثر فاكثر، كان التبقرط يؤدي الى تكاثر هيئات ولجان واجهزة من كل الأنواع، متطاولاً غالباً على صلاحيات كل منها. هكذا تأسس في نهاية شهر تشرين الثاني ١٩١٨ «مجلس الدفاع العمالي والفلاحي» الذي سرعان ما سيحل محل الحكومة بالذات. للوهلة الاولى، كانت مهامه غريبة عن المسائل العسكرية، لكن لما كان يهتم بمشكلات الاقتصاد والتموين المرتبطة بالحرب، سوف يتحكم بمجمل الحياة العامة، وذلك مرة اخرى على حساب السوفييتات او ما تبقى منها[٨٩].

إن «نزع سَفْيَتَة desovietisation» الحياة السياسية تقدم في الواقع بسرعة وتجلى في المركز كما في المستوى المحلي. لقد عمد مؤتمر عامة روسيا، الذي كان عليه مبدئياً أن يجتمع كل ثلاثة اشهر، والذي تعبر اجتماعاته المتواترة ـ تشرين الاول ١٩١٧ وكانون الثاني وآذار وتموز ١٩١٨ ـ على طريقتها، عن نشاط السوفييتات الكثيف خلال اشهر النظام الاولى، الى المباعدة بين جمعياته العمومية التي باتت سنوية منذ نهاية عام ١٩١٨، واتخذت فضلاً عن ذلك طابعاً اكثر فاكثر اكاديمية. كان قد جرى تصور اللجنة المركزية التنفيذية لهذا المؤتمر كجهاز دائم أو شبه دائم. وهي لم تجتمع إلا مرة واحدة ما بين ١٤ تموز ١٩١٨ وأول شباط ١٩٢٠ مع أن مراسيمها استمرت في الصدور. وفي معرض الرد على تأنيبات موجهة في هذا الصدد الى السلطة المركزية إبان مؤتمر كانون الاول ١٩١٩ لعامة روسيا، برَّر تروتسكي هذا الوضع، وسط تأييد لينين، معلناً مايلي: «اللجنة التنفيذية هي في الجبهة»[٩٠]. وعموماً فإن عسكرة كل الحياة العامة كانت قد تغلبت على الواقع السوفياتي، وهذا ماكان مؤلِّفا **ألفباء الشيوعية** شبه الرسمي، بوخارين وبريوبراجنسكي، يسميانه «الديكتاتورية العسكرية للبروليتاريا»[٩١].

إن السوفييتات، التي ولدت من النشاط العفوي للجماهير، وتنظمت بحيث تديمه وتعطيه التعبير الاوسع والاشد حرية، كانت قد فقدت منذ النصف الثاني من عام ١٩١٨ اندفاعها وحيويتها. وحيث كانت لا تزال صامدة، كانت تدين بذلك الى نشاط هيئات تداولية باتت في حالة خدر أقل بكثير مما إلى نشاط أجهزتها التنفيذية. وكان كامينيف قد اعترف بذلك في الجمعية العامة لكل روسيا في كانون الاول ١٩١٩: «إن الافراد يهتمون

فيها بمسائل تقنية بحتة. . نادراً ما تنعقد الاجتماعات بكامل الاعضاء وحين يلتقي النواب فذلك للاستماع الى قراءة تقرير وبعض الخطابات ليس إلا[٩٢]». ولم تكن هذه الظاهرة جديدة. فخلال مرور الصحفي الانكليزي أرتور رانسوم في موسكو، في شتاء ١٩١٨-١٩١٩، لاحظ الجو الكامد الذي كان يسود سوفييت العاصمة، وهو الذي سبق ان اكتشف بحماس، قبل قليل، واقع الديمقراطية السوفياتية. يقول: «صعقني غياب الجمهور الذي سبق ان كان يملأ القاعات. كانت الحمّى السياسية للثورة قد اختفت، ولم يعد ثمة حاضرون اليوم أكثر مما نجد في العادة في مجلس العموم في لندن[٩٣]». وأخيراً، ألم يسلّم لينين ذاته أمام المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي، منذ شهر آذار ١٩١٩ بما يلي: «إن السوفييتات التي هي من حيث برنامجها اجهزة للحكم بواسطة الشغيلة، هي في الواقع اجهزة حكم لأجل الشغيلة، تمارسها الشريحة المتقدمة من البروليتاريا، وليس الجماهير الكادحة[٩٤]»؟

ألم تكن تلك شهادة وفاة المؤسسة الاكثر فرادة والاكثر اصالة في ديمقراطيتها على مستوى الثورة الروسية؟ صحيح انه لا قادة الحزب الشيوعيون ولا مناضلوه، ولا كوادر السوفييتات كانوا يسلمون بهذا الوضع، فلقد بدا واضحاً عندما ارتفعت أصوات من كل الجهات، حالما ظهر ان الحرب الاهلية على وشك الانتهاء، مطالبة باستعادة السوفييتات حقوقها. فمثلاً حل مطلب «بعث السوفييتات حية»، في مقام مرموق جداً اثناء النقاشات التي دارت في مؤتمر عموم روسيا المنعقد في نهاية كانون الاول ١٩١٩. وقد كان المنشفي مارتوف المعبر الرئيسي عن هذا المطلب، لكنه حظي بمساندة بعض المندوبين الشيوعيين الذين نجحوا في تمرير قرار يطالب بتعزيز سلطة السوفييتات[٩٥]. وبعد طول همود، استعادت اللجنة التنفيذية لمؤتمر عموم روسيا نشاطاتها واجتمعت في شباط، ففي ايار، ففي حزيران ففي ايلول من عام ١٩٢٠، ودامت كل من تلك الدورات اسبوعاً. ومع عودة السلام وزوال التهديد المناهض للثورة، عادت سوفييتات محلية عديدة الى الظهور في الارياف واعلنت الحكومة السوفياتية عن نيتها التخلي عن قسم من صلاحياتها وتمكين اللجنة التنفيذية من استرجاع حقوقها، وكان دستور ١٩١٨ كلفها بالاشراف على نشاطات مفوضي الشعب[٩٦]. من جهة اخرى، استعادت الانتخابات الى السوفييتات، بصورة جزئية عام ١٩٢٠، طابع الحرية الذي كان طبعها في بداياتها. شارك فيها المناشفة بعدد متزايد، واعترف زعيمهم مارتوف، في بداية عام ١٩٢٠، بأنه اذا استثنينا بتروغراد حيث بقيت تُنَظَّم انتخابات «على طريقة زينوفييف»، فالعودة الى طرائق اكثر ديمقراطية كانت عامة وكان ذلك يعطي الحظوة في الغالب لمرشحي حزبه[٩٧].

إن الآمال التي أمكن أنصار الديمقراطية السوفياتية أن يعقدوها آنذاك لم تتحقق.

فانحطاط الوضع الاقتصادي والاجتماعي كان تسبب في مجمل انحاء روسيا بأضرار كثيرة بحيث لم يكن يسمح بالعودة إلى الينابيع. شهدت الثورة المضادة، مع العدوان البولندي على روسيا السوفياتية والهجوم «الأبيض» بقيادة فرانغل، تجدداً لحيويتها. وأخيراً وبوجه خاص، فإن أزمة خريف ١٩٢٠ وشتاء ١٩٢٠- ١٩٢١، أدت إلى انهيار تلك الآمال. فمع تمرد الأرياف ضد السلطة السوفياتية والاستياء المتنامي للطبقة العاملة، وإرادة الشيوعيين المستبسلة للبقاء في السلطة، رغم تراجع شعبيتهم، وأخيراً لكن ليس آخراً(*) حالة الخراب على الصعيد الاقتصادي، وإحباط السكان، والانعزال المتزايد لبلد مهدَّم وأمة منزوفة، كانت قاعدة انبعاث سوفياتي وشروط ذلك قد اضمحلت. وكان يلزم ليصبح ذلك ممكناً انفتاح حقبة جديدة من الفتوحات الثورية. لكن إدخال النيب (الاقتصاد السياسي الجديد) عنى العكس تماماً. كانت الديمقراطية السوفياتية، المنبثقة من اندفاع الجماهير ومن الانتصار البلشفي، قد ولَّت الادبار نهائياً بفعل هزائم تلك الجماهير وانعزالها.

ولادة الدولة المونوليتية

إن التفسير الذي يقدمه معظم مؤرخي الشيوعية الروسية يتميز بالوضوح، في غياب الحقيقة. لما كانوا مقتنعين بالماكيافلية العميقة لمؤسسها، وبالخضوع الخانع من جانب أنصاره، فلقد وجدوا في بدايات النظام السوفياتي التبرير الظاهر لأطروحة مألوفة وتافهة: لم يكن يتطلع، رجل التنظيم والحزب، إلا إلى انتصار تكتله. مماثلاً بين الاشتراكية وسلطة الطليعة، عمد لينين، الحاذق والداهية والمتحرر من كل الهواجس، إلى استخدام اللهجة الديمقراطية كلما اقتضى الأمر، ودعم عمل الجماهير العفوي حين كان يبدو ذلك مفيداً، وتظاهر بالاهتداء إلى الفلسفة الفوضوية للسوفييتات، لا بل مارس أيضاً ترف استعارة بعض الشعارات من جعبة الفوضويين. لكن حين وصلت اللينينية إلى السلطة، لكثرة ما استخدمت تكتيكات دقيقة ومهارات بدت عاجزة إزاءها براءة خصومها المؤثرة - تماماً كما الفضيلة منزوعة السلاح إزاء روح الشر - لم تتأخر في نزع القناع الذي كانت تخفَّت خلفه. فبعد أن كانت البلشفية أخذت على الحكومة المؤقتة كونها لم تَدْعُ لانتخاب الجمعية

(*) ورد هذا التعبير في النص بالانكليزية Last but NoT least

التـأسيسية، وبعـد أن موهت هذا القصور ولاحظت بغيظ أن نتائج الانتخابات شكلت بالنسبة إليها إنكاراً، حلت الجمعية التأسيسية، ساحقةً هكذا أولى أساسات الديمقراطية الـروسية؛ بعـد أن أعلنت تعلقها بالحريات الديمقراطية، سارعت إلى خنقها، وبعد أن أبدت نيتها في إرساء نظام سوفياتي واشتراكي، بادرت ـ وهي التي لم تكتف باحتكار السلطة ـ فحظرت الاحزاب الاشتراكية الاخرى واضطهدتها. ألا يبرهن تكذيب سريع وشبه فوري للبرنـامج البلشفي من جانب البلاشفة بالذات، وللبرنامج اللينيني من جانب لينين، ألا يبرهن عن طريق شهـادة الـوقـائـع التي لا تُدحض أن المـذهب اللينيني، بما هو مشروع توتاليتاري، كان لابد أن يلد، بالضرورة، إثر انتصاره، الدولة التوتاليتارية؟ ان اللينينية والستالينية هما، في نهاية المطاف، الشيء نفسه؟

فلنستشهـد بليونـار شابيرو، الممثل التافه لكن البارز لهذه الاطروحة. يقول: «إن الوجه الشرير لـ. . . ستالين، كما يصوِّره المعارضون المحبطون والمهزومون، مألوف جداً. لكن لينين هو الذي قدم للأمين العام، بدعمٍ منهم، الاسلحة التي استخدمها وأطلقه على الطريق التي سار فيها(*)».

الشهادة التي لا تُدحَض للوقائع: هذه الوقائع هي في الواقع ذات اهمية حاسمة من اجل الحكم على طبيعة اللينينية. حاسمة لدرجة انه لا غنى عن تفحصها بأعظم قدر من الانتباه، وبدل الاكتفاء بأنصاف البديهيات وأنصاف الحقائق، لا غنى عن التساؤل بصدد الظروف الحقيقية التي أدت الى الانحطاط السوفياتي وولادة المونوليتية البلشفية و«التوتاليتارية السوفياتية». هل اللينينية مسؤولة أم ضحية؟ هذا هو معنى الجدال، بصورة أو بأخرى.

الجمعية التأسيسية وحلها:

كان انعقاد جمعية تأسيسية ماثلاً في برنامج كل الاحزاب اليسارية في روسيا، وبوجه خاص في برنامج الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي، بما فيه جناحه البلشفي. كان أنصار لينين ولينين ذاته قد صوَّروا دعوة الجمعية التأسيسية بين شباط وتشرين الاول ١٩١٧ كواحد من أهداف عملهم، وذلك دون أن يجعلوا منها محور دعاوتهم، لأنهم كانوا يتعبؤون ويعبئون الجـماهـير باسم السلطة السوفياتية (كـل السلطة للسوفييتات!). وفى ٢٥ اوكتوبر، إبان

(*) ل. شابيرو، The Origins of the Communinst Autocracy، ص ٣٦١. هذه هي الخلاصة النهائية للكتاب.

الاستيلاء على السلطة، أكد لينين للمندوبين إلى المؤتمر الثاني للسوفييتات لعموم روسيا أن «سلطة السوفييتات. . . ستؤمن في الوقت المناسب دعوة الجمعية التأسيسية[٩٨]». واعلن امام الهيئة ذاتها في اليوم التالي أن شروط السلم سوف تُعرض «لنقاش الجمعية التأسيسية»[٩٩].

وحول المرسوم المهم بصدد الأرض، الذي جرى إخضاعه لتصويت اعضاء المؤتمر وتصويره على انه مؤقت، بانتظار اجتماع الجمعية التأسيسية: إذا اعطى الفلاحون «هذا الحزب (حزب الاشتراكيين الثوريين ـ م. ل.) الاغلبية في الجمعية التأسيسية، سنقول أيضاً: فليكن![١٠٠]» وأخيراً اعترفت الحكومة بالذات، أو بالأحرى مجلس مفوضي الشعب، بلسان لينين، بطابعه المؤقت، «حتى انعقاد الجمعية التأسيسية[١٠١]».

خلال الأسابيع الاولى التي أعقبت الانتفاضة، حصل أن ثبت لينين صحة هذه التأكيدات(*). فلقد جرى تنظيم الانتخابات في الواقع، وحدثت بدءاً بـ ١٢ تشرين الثاني ١٩١٧ في مناخ حرية واسعة(**). كانت النتائج الاولى، المؤكدة لحكم الاستشارات التي سبقت انتفاضة اوكتوبر، مؤاتية للبلاشفة: ففي بتروغراد حصلوا على ٣ من أصل ٦ مقاعد، في حين حصل حلفاؤهم الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون(***) على مقعد واحد[١٠٢]. ورداً على سؤال من الاسوشيتدبرس اجاب لينين بالايجاب الصحافي الذي سأله إذا كانت «الجمعية التأسيسية. . ستصادق على كل التدابير التي تتخذها حكومة مفوضي الشعب»[١٠٣]. لكن نتائج الانتخابات في المقاطعات لم تؤكد هذه التوقعات المتفائلة، فمع نشرها تدريجياً، كشفت مدى نجاح الاشتراكيين ـ الثوريين، وبوجه خاص الاشتراكيين ـ الثوريين اليمينيين. وقد تشكلت الجمعية التأسيسية في نهاية المطاف بالطريقة التالية: اشتراكيون ـ ثوريون، ٢٩٩ مقعداً؛ اشتراكيون ـ ثوريون اوكرانيون، ٨١ مقعداً؛ اشتراكيون ـ ثوريون يساريون، ٣٩ مقعداً؛ بلاشفة ١٦٨ مقعداً. مناشفة ١٨ مقعداً؛ دستوريون ـ ديمقراطيون ١٥ مقعداً؛ وتوزعت الـ ٧٦ مقعداً الباقية بين لوائح صغيرة ذات طابع قومي في الغالب[١٠٤]. أما التوزيع حسب الاصوات فتم بالشكل التالي:

ـ اشتراكيون ثوريون (من كل الاتجاهات) ١٥٨٤٨٠٠٤

(*) مثلاً في ٨ تشرين الثاني ١٩١٧ بصدد السلطات التي ستعطى للسوفييتات المحلية (لينين، **الاعمال الكاملة**، الجزء ٢٦، ص ٣٠٨).

(**) انظر عموماً بصدد موضوع الجمعية التأسيسية أو. رادكي، The Elections to the Russian Constituent Assembly of 1917. كامبردج (ماس)، ١٩٥٠. وحول الطابع الحر للانتخابات، ص ٤٢ ـ ٤٧.

(***) انظر أدناه، ص ٦٤ وما بعدها.

- بلاشفة ٩٨٤٤٦٣٧
- مناشفة ١٣٦٤٨٢٦
- دستوريون - ديمقراطيون ١٩٨٦٦٠١

وذلك من اصل ٤١٦٨٦٨٧٦ صوتاً، الأمر الذي كشف نسبة كبيرة من الامتناعات[١٠٥].

كان خصوم النظام السوفياتي يمتلكون إذاً في الجمعية التأسيسية اكثرية مريحة، وقد وجدت الحكومة البلشفية نفسها إزاء مأزق كان على لجنة الحزب المركزية أن تناقش موضوعه في جلستها في ٢٩ تشرين الثاني. وإذا شئنا الحكم على أساس المحضر الذي وضع عن نقاشاتها، فلقد كانت تلك النقاشات مرتبكة جداً. فبوخارين وحده قدم اقتراحاً واضحاً، يستلهم ذكرى الثورة الفرنسية: «تنظيم الجزء اليساري، طرد الكاديت والمناداة بيسار الجمعية التأسيسية جمعية ثورية[١٠٦]». أما لينين فمع أنه كان حاضراً لم يشارك في النقاش الذي لم يؤد في كل حال إلى أي قرار، لشدة ماكان تردُّدُ وحيرةُ البلاشفة عظيمين. وأكثر من الحيرة، صدرت عنهم علامات قلق كانت تبرهن عن بلبلتهم. كانوا قد بدأوا يتهمون اللجنة الخاصة بالرقابة الانتخابية، التي كانت عينتها الحكومة المؤقتة أثناء ممارستها الحكم، بأنها قدمت تغطية لمخالفات، وقد جرى توقيف أعضاء اللجنة ثم إطلاق سراحهم بعد أيام دون تقديم دليل من أجل دعم الاتهامات[١٠٧]. وكانت خيبة امل البلاشفة عظيمة لاسيما انهم كانوا قد شاركوا في الحملة الانتخابية بالكثير من الاندفاع وأحياناً بحماس حقيقي، حيث كانت الحملة مناسبة لإبداء المناضلين الموارد الهائلة لنشاطيتهم[١٠٨].

كان ينبغي الآن اتخاذ قرار. فالأحزاب الاشتراكية المعتدلة، من اشتراكيين - ثوريين ومناشفة، كانت تطالب بدعوة سريعة لانعقاد الجمعية التي رأوا فيها، بمعزل عن السوفييتات، المستودع الشرعي الوحيد للسيادة. وكانت البورجوازية، من جهتها، تتحرك، وكان وزراء سابقون في الحكومة المؤقتة يحاولون ولو دون جدوى أن يدفعوا باتجاه اجتماع أعضاء الجمعية التأسيسية. وأخيراً فإن أوائل القوى المضادة للثورة، التي كانت قد بدأت تتجمع في جنوبي روسيا، وبوجه خاص «جيش المتطوعين» المتمركز في منطقة الدون، لم تكن تضع غير نقطة واحدة في برنامجها السياسي الهزيل: كل السلطة للجمعية التأسيسية[١٠٩].

كان البلاشفة منقسمين مرة أخرى. كانوا قد جمعوا نوابهم في كتلة وكان هؤلاء قد اختاروا مكتباً لهم من أعضائه كامينيف وريكوف وريازانوف ولارين وميليوتين ونوغين، وكلهم شخصيات مهمة معروفة بآرائها التسويفية. وفي الواقع كانوا مؤيدين بمجملهم لعقد اجتماع للتأسيسية، وبلا شك لاحترام صلاحياتها. في ١١ كانون الاول، ناقشت اللجنة

المركزية مرة اخرى المشكلة واقترح لينين عزل مكتب الكتلة البلشفية الموصوف بأنه «تيار يميني». لكنه أخفق، حيث امتنعت اللجنة المركزية عن التصويت على الاقتراح الذي قدمه لينين[110]. وقد قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الروسي الكبير للسوفييتات بعد قليل أن يتم انعقاد الجمعية التأسيسية في ٥ كانون الثاني ١٩١٨، لكن لينين بيّن في الحال الأسباب التي تبرر حذره حيال الجمعية: نُشرت «الاطروحات حول الجمعية التأسيسية»، التي كتبها في ١٢ كانون الاول، في البرافدا، في ٢٦ منه. للمرة الاولى، بيّن بصورة واضحة في كل حال أنَّ تَواجُهَ الهيئتين وتصادُمها المحتمل ـ الجمعية التأسيسية ومؤتمر السوفييتات ـ لم يكن غير مواجهة بين طبقات، حيث تتجابه المؤسسة البروليتارية والمؤسسة البورجوازية[111].

وأضاف إلى هذا المعطى الأساسي حججاً تتعلق اكثر بالظروف التي كانت قد حكمت انتخاب الجمعية التأسيسية: لم يكن في وسع هذه الأخيرة أن تأخذ بالاعتبار، في تركيبها، الانشقاق الطارىء بين اشتراكيين ـ ثوريين يمينيين، هم خصوم السلطة السوفياتية، واشتراكيين ـ ثوريين يساريين، انضموا إلى النظام الجديد؛ من جهة أخرى، كانت الاستشارة قد جرت قبل ان يعرف الشعب حقاً، ولاسيما في الأرياف، بثورة اوكتوبر، أو على الاقل بأهميتها؛ وأخيراً، فإن تفجير العمل المضاد للثورة، وإذاً الحرب الاهلية، جعل من المستحيل اللجوء الى الاجراءات الديمقراطية العادية. وقد أعلن لينين أن «شعار (كل السلطة للجمعية التأسيسية).. بات عملياً شعار الكاديت والكاليدينيين (انصار الجنرال «الابيض» كاليدين ـ م. ل.) وشركائهم[112]». وأعقبت ذلك الخلاصة التي تقول: «الجمعية التأسيسية... تدخل بالضرورة في صراع مع إرادة ومصالح الطبقات الكادحة والمستغَلة التي فجرت في ٢٥ اوكتوبر الثورة الاشتراكية ضد البورجوازية. طبيعي أن تتغلب مصالح هذه الثورة على الحقوق الشكلية للجمعية التأسيسية[113]». لم يبق لهذه الاخيرة من ملجأ غير منح «اعترافها دون تحفظ (بـ).. سلطة السوفييتات» وإلا فإن «الأزمة المفتوحة حول الجمعية التأسيسية» سيتم حلها «بالطريق الثوري، بالتدابير الثورية الاكثر قوة[114]».

حين اجتمعت الجمعية التأسيسية في ٥ كانون الثاني ١٩١٨، غدا معنى هذا التهديد واضحاً بالكامل. دعت الكتلةُ البلشفيةُ الجمعيةَ، التي يرئسها الاشتراكي ـ الثوري تشيرنوف، للموافقة على القرارات الرئيسية للسلطة السوفياتية، وكان ذلك يعني الاعتراف بشرعيتها. وقد جرى إسقاط الاقتراح المقدم لهذه الغاية بـ ٢٣٧ صوتاً ضد ١٣٨. عندئذ ترك المندوبون البلاشفة والاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون الجلسة ولم يعودوا إطلاقاً. وقد تواصلت النقاشات طيلة ليلة الخامس (من كانون الثاني) وحتى صباح السادس منه. إلا أنه قبل الخامسة بقليل، أعطى آمر فصيلة عسكرية، هو الفوضوي جيليزنياكوف، مطبِّقاً تعليمات الحكومة، أعطى الجمعية الأمر بوقف اعمالها، مفسراً ذلك بتعب الحراس. فتفرق

الاعضاء دون مقاومة. ولم يجتمعوا بعد ذلك أبداً، حيث حل مرسوم اصدرته السلطة جمعيتهم[١١٥]. وقد كانت ردود فعل الرأي العام، وفي كل حال القسم الاكثر نشاطاً بينه، تعبر عن الكثير من اللامبالاة. صحيح انه في ٥ كانون الثاني، كان البلاشفة قد فرقوا دون هوادة مظاهرة كبرى مؤيدة للجمعية التأسيسية. إلا أن تلك المظاهرة كانت هي الاخيرة من هذا النوع.

هناك عدة طرق لمعالجة مشكلة المصير الذي خبأته السلطة البلشفية للجمعية التأسيسية، الجمعية الوحيدة المنبثقة من انتخابات شاملة وحرة التي عرفتها روسيا. الطريقة الاولى تتمثل في الحكم، بصورة مطلقة، بأنه لا ديمقراطية من دون استشارة مجمل المواطنين ومن دون احترام الارادة الاكثروية التي تنتج منها. ولأن تبني وجهة النظر هذه يعني الادانة ipso facto لموقف الشيوعيين الروس وللينين بوجه خاص. وبالدفاع عن طريقة النظر هذه، يجد المرء نفسه متحرراً من تفحص الظروف الفعلية التي احاطت بالقرار البلشفي ومن ان يأخذ بالحسبان السياق الذي اندرج فيه. لكن إذا جرى اختيار مسعى آخر ورفض طرح حكم في المطلق، وبالتالي في **التجريد**، تفرض ملاحظاتٌ نفسها بصدد القوى السياسية والاجتماعية التي تجابهت في روسيا، بمناسبة انعقاد الجمعية التأسيسية وبصدده. والحال أنه ليس مسموحاً بالشك من وجهة النظر هذه: كانت البروليتاريا الصناعية والجماهير الشعبية المندفعة في إثرها ضد الجمعية التأسيسية ومع السوفييتات، بينما كانت البورجوازية والعناصر المحافظة أو الرجعية، هي على العكس ضد السوفييتات ومع الجمعية التأسيسية. وبما يخص القضية الاولى، فإن شهادة المؤرخ الغربي الرئيسي للمؤسسة السوفياتية، أوسكار أنويلر، مقنعة لاسيما أنه ليس واقعاً تحت تأثير أية مودة حيال البلاشفة. والحال أن هذا المؤلف حاسم إلى أبعد الحدود: «كانت السوفييتات في نظر الجماهير جهاز«ها» وكان من المستحيل تعبئتها ضد السوفييتات باسم الجمعية التأسيسية[١١٦]». وتلك بديهة في كل حال، ففي كانون الثاني ١٩١٨، كانت السوفييتات لا تزال، واكثر من اي وقت كان، المؤسسة الشعبية البروليتارية والعامية بامتياز، تلك التي أتاحت كل فتوحات الثورة، والتي كانت ترمز اليها. لذلك السبب، **على العكس**، كانت كل القوى المحافظة والرجعية معادية لها، وتضع آمالها في الجمعية التأسيسية التي كانت تنتظر منها إلغاء الفوضى الثورية وإعادة النظام.

من الناحية الاجتماعية، يقدم أنصار الجمعية التأسيسية وخصومها نموذجاً آخر من التمايز. فالبلاشفة حصلوا خلال انتخابات الجمعية التأسيسية على أصوات كثيفة، ليس فقط في المدن الصناعية، بل كذلك في الأرياف وعلى الجبهات القريبة من المراكز المدينية. وقد لوحظ من جهة اخرى ان البلاشفة حصلوا في المناطق الريفية على نتائجهم الفضلى في القرى

والمحلات الواقعة على امتداد خطوط السكة الحديدية، في كل مكان كانت تسمح فيه شبكة الاتصال بنشر الرسالة الثورية ـ بواسطة العمال والجنود ـ، وبالتالي بالتسييس[١١٧] .
وليس أقل اهمية أن نشير الى فرق محسوس بين الطريقة التي حصلت فيها الانتخابات في المدن، المؤيدة للبلاشفة بشكل كثيف، من جهة، وفي الارياف، من جهة اخرى، حيث كان الاشتراكيون ـ الثوريون يحصلون على القسم الاكبر من ناخبيهم. لقد كشفت الاستشارة في المدينة «وعياً (سياسياً) صافياً نسبياً» في حين أن «وعياً سياسياً محدوداً» في الريف عبّر عن نفسه بـ «تصويت قطيعي»، حيث كانت حالات قرى بكاملها تصوت بكثافة لا بل بالاجماع للائحة من اللوائح المتنازعة، كانت حالات كثيرة نسبياً[١١٨]. إن الانقسام بين مدافعين مقتنعين عموماً ونشيطين نسبياً عن السوفييتات وأنصار واعين عموماً وجامدين نسبياً للجمعية التأسيسية وجهٌ آخر للمشكلة يساهم في تبيان أهميتها.

وإن ما يكمل عملية التوضيح هذه، إنما هو طبيعة الجمعية التأسيسية بالذات. هل هي معبر عن الارادة الشعبية؟ دون شك؛ تجسيد للسيادة القومية؟ بالتأكيد. لكن ماذا أيضاً؟.. ليس عديم الأهمية أن نتفحص عن كثب أكثر التركيب السياسي والاجتماعي للجمعية. سياسياً كان يسيطر عليها بكثافة الاشتراكيون ـ الثوريون، الذين سنرى انهم لم يكونوا اشتراكيين ولا ثوريين. فهذا الحزب، محرراً من يساره، كان يمثل على العكس قوة من بين الاشد محافظة(*). كان قد اتخذ لنفسه قبل قليل رئيساً جديداً من اتجاه يسار الوسط، بشخص زعيمه الاكثر مهابة، تشيرنوف، الوزير السابق للزراعة في الحكومة المؤقتة. لكن الكتلة الاشتراكية ـ الثورية في الجمعية التأسيسية كانت تميل الى اليمين أكثر من قيادة الحزب، وبما أنها كانت تعتبر أن هذه الأخيرة يسارية جداً ـ مع انها كانت ترفض الاعتراف بالنظام السوفياتي ـ فلقد كان اعضاء الجمعية الاشتراكيون ـ الثوريون، بغالبيتهم الكبرى، ينكرون على تلك القيادة، وعلى تشيرنوف، أي نوع من السلطة[١١٩]. ويعتبر المؤرخ الرئيسي للحزب الاشتراكي ـ الثوري في هذا الصدد، انه كان بالامكان اعتبار اعضاء مكتب الحزب الاشتراكي ـ الثوري، في الجمعية «أعدى أعداء الثورة»[١٢٠]. والمؤلف ذاته يحدد التركيب الاجتماعي السائد في الجمعية التأسيسية كما يلي: «أناس ذوو نفوذ وتجربة..، خبراء في الزراعة وفي الادارة، فلاحون يتمتعون بالنفوذ الاجتماعي»[١٢١]. فلنترجم ولنختصر: **جمعية أعيان**، كانت تبرر، من حيث أصولها وتطلعاتها، الأمل والثقة اللذين وضعهما فيها المعسكر المحافظ. هكذا، إذا كانت المجابهة بين السوفييتات والتأسيسية تعبر على صعيد المبادىء عن التمايز بين الديمقراطية الثورية والديمقراطية البرلمانية، فهي كانت تضع في المواجهة، في

(*) انظر أدناه، ص ٤٨ وما بعدها.

الواقع الاجتماعي والسياسي، عالمين متعاديين، عالم البورجوازية وحلفائها، بمواجهة عالم البروليتاريا وداعميها.

أخيراً وفي النهاية، يتجاوز السؤال «سوفييتات أم جمعية تأسيسية؟» الإطار التاريخي والجغرافي الذي وضعنا فيه حتى الآن لأنه لا ينحدُّ لا بعـام ١٩١٧ ولا بروسيا. إذا فكرنا بالمجابهات الاجتماعية الكبرى للحقبة المعاصرة وبالحلقات الاكثر حسمًا للصراع الطبقي، نلاحظ في فرنسا والمانيا، كما في روسيا، أن الدينامية الثورية اصطدمت دائمًا بالقوة الشالّة أو بكابح الآلية الانتخابية، حتى بشكله الديمقراطي المتمثل بالاقتراع العام. حدث ذلك في باريس في عام ١٨٤٨، حين هاجمت البروليتاريا في الشارع وحين ردت البورجوازية بالبنادق وبأوراق الاقتراع. حصل ذلك أيضاً عام ١٨٧١، حيث تمكنت الجمعية الوطنية، بمواجهة الكومونة، من التباهي بإضفاءِ ديمقراطي للشرعية لم يكن يمتلكه عمال باريس. لم يكونوا، هم، ممثلي **السيادة القومية**. في كل مرة، يُغْرِق الاقتراع العام اندفاع الثورة(*) تحت العدد وبفعل قوة جمود تنتصب في وجه هذه الاخيرة. إن الثوري ناخب رديء والناخب ثـوري تافه.

وقد جرى التحقق من صحة ذلك، بوجه خاص، إبان حَدَثٍ أقرب جغرافياً وتاريخياً الى الثـورة البلشفية: الثـورة الالمانية عام ١٩١٨. فعلى أنقاض امبراطورية الهوهنزلرن، استعار النضال السياسي والاجتماعي التعرجات نفسها وتسبب بالانفلاقات clivages نفسها التي حدثت في روسيا. ففي برلـين، اعلن المحافظون، الذين كانوا لا يزالون في العشية داعمين حازمين للملكية ـ نصف استبدادية ونظام نصف اقطاعي، أعلنوا أنفسهم بين ليلة وضحاها جمهوريين وديمقراطيين»، أنصار «سيادة شعبية»، أي بصورة ملموسة جداً أنصار الجمعية القومية التأسيسية[١٢٢]. «ففرق المتطوعين» بالذات، رواد النازية، جعلت أعضاءها يقسمون يمين الولاء لهذه المؤسسة الديمقراطية[١٢٣]. وعلى العكس كان السبارتاكيون هم الـذين رفضـوا دعـوتهـا للانعقـاد وواجهـوا مبدأ هذه المؤسسة بالذات بمبدأ «ديمقراطية المجالس». ففي صحيفتهم، **روت فاهني**، جرى تقديم الجمعية التأسيسية على انها «الحل البورجوازي» ومجلس العمال والجنود على أنه «الحل الاشتراكي[١٢٤]».

وأيضـاً: «الثوري الحقيقي يقول ماهو كائن، واليوم الحقيقة هي التالية: الرأسمال من جهة، والعمل من جهة اخرى؛ التأسيسية من جهة، ومن جهة اخرى الديمقراطية، بشكل مجالس العمال والجنود[١٢٥]». هكذا كانت تقول جريدة السبارتاكيين الذين لم يفكر أحد يوماً بصورة جدية باعتبارهم أنصاراً للبُدِّية التنظيمية وللتوتاليتارية.

(*) تفرض ملاحظة من النوع ذاته نفسها بالنسبة لاحداث عام ١٩٦٨ في فرنسا.

وفي روسيا، من جهة اخرى، إذا كان حل الجمعية التأسيسية من عمل البلاشفة الـذين كانوا يمسكون بزمام السلطة، فلقد أيد ذلك الاشتراكيون الثوريون ـ اليساريون والفوضويون، الغريبون عن المذهب اللينيني، والمناصرون أيضاً لديمقراطية لا متناهية.

في التحليل الاخير، إن ما يثير الدهشة، ليس كون لينين اضطلع بمسؤولية حل الجمعية التأسيسية، بل كونه قرر ذلك متأخراً وصَعُب عليه ان يكتشف بأي عبارات ينطرح المأزق ـ لان ذلك كان مأزقاً: ـ جمعية تأسيسية أم سوفييت؟؛ وكونه لاحظ بارتباك كيف يقدم الخيار نفسه ـ لأن ذلك كان خياراً ـ: جمعية تأسيسية أم سوفييت؟. ويكمن التبسيط والتعسف هنا في عَزْوِ مسعى لينين إلى ماكيافلية يجري الادعاء بعزم أنها طبيعته الثانية، إذا لم تكن الاولى. وفي الـواقـع، في هذا الحقـل كما في حقول كثيرة اخرى، لم يستلهم استراتيجية موضوعة مسبقاً. ففي إحدى كتاباته الاخيرة، وفي معرض وضع جردة بعام ١٩١٧، اعترف بأنـه استلهم نابـوليون: «تـذكـرت أن نابـوليون قال: «ننخـرط ثم.. نرى». وهـذا ما فعلناه[١٢٦]». منذ كانون الثاني ١٩١٨، كان قد أعلن أمام مؤتمر عمال سكك الحديد الروس: «لم نعمـل وفقـاً لتصميم مقـرر سلفاً..[١٢٧]». عام ١٩١٧، كان لينـين انخرط لصالح السوفييتات، في الواقع، من أجل إطلاق الهجوم الثوري مجدداً، من اجل هجوم جديد تشنه البروليتاريا على مواقع البورجوازية. كان قد اختار في الواقع، كما رأينا، الثورة الدائمة. لكن فيما كان يفعل هذا، بقي مع ذلك ومن نواحٍ عديدة رجل الاشتراكية ـ الديمقراطية الروسية والاشتراكية العالمية الذي كانت الفتوحات الديمقراطية تشكل بالنسبة اليه جزءاً من المطالب الكـلاسيكية للحـركة العمالية، ومن ضمن تلك المطالب الحصول على نظام دستوري في الدول الاستبدادية ونصف الاستبدادية ومطلب الاقتراع العام في الأنظمة التي لا يزال نظام دفع نسبة ضَريبية معينة يسود فيها القانون الانتخابي.

ألم يلاحظ لينين، الذي كان يستغرقه العمل الثوري اليومي، ما يظهر اليوم، مع المسافة الزمنية الفاصلة، بديهياً للغاية؟ أن فكرة العهد بالسلطة، كل السلطة، للسوفييتات، المؤسسات الشعبية المثلى والتي لم تكن تنظم التمثيل القومي، كانت تستبعد فكرة جعل جمعية تأسيسية ينتخبهـا مجمـل السكان، جهاز السيادة؟ فضلاً عن ذلك، مذ كفّت فكرة «كل السلطة للسوفييتات» عن أن تكون شعاراً لتصبح مبدأ دستورياً ـ هذا هو معنى أوكتوبر ـ، كان قد قضي الأمر: لن يكون، ولم يكن يمكن أن يكون هنالك سلطة سيدة معترف بها للجمعية التـأسيسية، إلا إذا حصـل أولاً تراجـع للديمقـراطية السـوفياتية، ومن ثم استسلامها. لكن ما يبدو لنا اليوم دون التباس كان يبدو أقل وضوحاً بكثير بالنسبة للينين. فهو لم يفهم دفعة واحدة المرمى الدستوري للدينامية الثورية التي، إذ جعلت فتوحات شباط شبه تافهة وفي كل حال مغلوطة تاريخياً، وإذ أطلقت السوفييتات لمهاجمة النظام المقام حديثاً

والجماهير لاقتحام السوفييتات، والفلاحين لاقتحام الأرض والعمال لاقتحام المصانع، كانت تجعل من مفهوم الثورة الدائمة، الذي تخيله ماركس وتروتسكي، القانون السائد روسيا عام ١٩١٧. ليس صدفة، في الواقع، إذا وجدنا لدى لينين الكثير من التردد حين يتعلق الأمر بوصف أحداث تلك الفترة. يبدو لنا اليوم أنه عند كل قفزة كانت تقوم بها الثورة ـ النضال من أجل السلطة السوفياتية ضد الحكومة المؤقتة، وتصفية هذه الأخيرة، وقطع التحالف مع الديمقراطيات البورجوازية، الغربية، ودعم الرقابة العمالية وحل الجمعية التأسيسية ـ إذ كانت هذه الثورة تتخطى تقييداتها البورجوازية، كانت تزيد من حدة طابعها الاشتراكي. لكن لينين كان يتردد، من جهته، في هذا الموضوع، ويتلمس الطريق ويناقض نفسه أحياناً.

لقد حدث له في الواقع أن قدَّم «خلق نظام السوفييتات ـ أي ثورة اوكتوبر ـ، و«الخروج الثوري من الحرب الامبريالية العالمية» ـ أي صلح بريست ـ ليتوفسك ـ على أنهما العنصران الرئيسيان في «العمل البروليتاري أو الاشتراكي» للثورة[١٢٨]. لكن في فترة حل الجمعية التأسيسية، وإذ كان يتكلم في كانون الثاني ١٩١٨ أمام المؤتمر الثالث الروسي الكبير للسوفييتات، أعلن ما يلي: «الآن وقد استولت السوفييتات على السلطة.. لا يمكن على الإطلاق أن نتحدث عن ثورة ديمقراطية بورجوازية[١٢٩]». ومع ذلك، كان الأمر وارداً، في ذهن لينين، إلى حد أنه كان غالباً ما يماثل بين الانتقال من الثورة البورجوازية إلى الثورة الاشتراكية والقيام في حزيران عام ١٩١٨ بخلق «لجان فلاحين فقراء، الذي إذ كان يحطم وحدة المعسكر الفلاحي أدخل الصراع الطبقي إلى الأرياف. ففي **الثورة البروليتارية والمرتدكاوتسكي**، أكد في الواقع أن «ثورتنا بورجوازية **طالما** نسير مع الفلاحين بمجملهم[١٣٠]» وأوضح أمام المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي في ايار ١٩١٩: «حين بدأت تنتظم لجان الفلاحين الفقراء، وبدءاً بذلك الحين، باتت ثورتنا ثورة **بروليتارية**[١٣١]».

هذه التقريبات وهذه التغييرات في المنظور لن تدهش إلا أولئك الذين يريدون أن يروا في لينين المعلم المعصوم والمخطط كلي العلم ـ السماوي أو الشيطاني ـ للاستراتيجية الثورية. إلا أنه لم يكن كذلك. لم يرتفع حتى إلى وصف المنظِّر الحقيقي للثورة. كان «فقط» صانعها. وإن نشاطه «الصنعي» هو الذي منعه بلا ريب عام ١٩١٧ من نَظْم الدروس التي تقدمها الاحداث في نظرية. من هنا حياؤه النظري في مقاربة مشكلة الجمعية التأسيسية الذي عوَّض منه، وإلى حد بعيد، عن طريق جسارته العملية.

الحزب البلشفي والأحزاب الاشتراكية :

إن الترسيمات الخطية Linéaires (*) هي الأكثر إغراء. وهاكم مثالاً عليها: من شدة عطش البلاشفة إلى السلطة، ما أن وصلوا إليها حتى قاموا بتصفية خصومهم السياسيين. بدأوا بالدستوريين ـ الديمقراطيين(**)، ثم انقلبوا بعد ذلك على الاحزاب الاشتراكية وصفّوها. اللينينية التوتاليتارية: هذه هي الاطروحة التي يلخصها تماماً ليونار شابيرو في مؤلفه الكلاسيكي تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي: «كانت النتيجة المنطقية لرفض التفاهم مع الاشتراكيين وحل الجمعية التأسيسية أن الارهاب الثوري لن يبقى يوجّه فقط ضد الاعداء التقليديين، كالبورجوازية واليمين، بل ضد أي كان، اشتراكياً، عاملاً أو فلاحاً، يعارض الحكومة البلشفية(١٣٢)».

«رفض التفاهم مع الاشتراكيين». هكذا تُختصر حلقة مهمة من الثورة الروسية: المحاولة الجهيض، غداة ثورة اوكتوبر وخلق السلطة السوفياتية، لإقامة حكومة ائتلاف اشتراكي واسعة كانت منعت ـ لو لم تجهض (المعرب) ـ ظهور المونوليتية الشيوعية وتطورها. والمسألة مشبعة بالمستتبعات بحيث لا يمكن الامتناع عن دراستها بدقة.

ثمة ملاحظة استهلالية تفرض نفسها: إن تاريخ العلاقات بين البلاشفة والاحزاب الاشتراكية المعتدلة لم يبدأ في اوكتوبر ١٩١٧. ودون العودة حتى إلى الحقبة ماقبل الثورية، ينبغي التذكير بأن الطلاق بين اللينينيين، من جهة، والاشتراكيين ـ الثوريين والمناشفة، من جهة اخرى، طبع بطابعه كل تطور الاحداث في روسيا بين شباط وتشرين الثاني (اوكتوبر) ١٩١٧. طلاق كامل شهد تجابه المعسكرين بصدد كل مشكلات الثورة ـ سياسة السلام أو متابعة الحرب، الصلاحيات التي يجب الاعتراف للسوفييتات بها أو سحبها منها، تطبيق الاصلاح الزراعي أو تأجيله، دعم المطالب العمالية أو إدانتها ـ وفي التحليل الأخير، بصدد المسألة الأساسية: هل كان يجب منح البورجوازية الثقة أو عدم منحها إياها، إتاحة المجال أمام إقامة سلطتها وتشجيعها على ذلك أو العكس؟ لأن البلاشفة والاحزاب الاشتراكية المعتدلة كانوا على خلاف بصدد الجوهري من الأمور، تمت انتفاضة اوكتوبر ضد هذه الاحزاب، ولم تكتف هذه الاخيرة بالامتناع بل دانت العمل الانتفاضي وكانت سحقته لو لم

(*) أي التي تسير في خط واحد (المعرب).

(**) تم حظر الحزب الدستوري ـ الديمقراطي في أول كانون الاول ١٩١٧. وقد استمرت صحافته في الصدور، ليس من دون صعوبة، حتى ربيع ١٩١٨. (إ. هـ. كار، م.م. ج١، ص ١٦٩).

يكن عجزها على مقاس شجبها وغضبها. فلم تكد تعلن سيادة السوفييتات كمصدر لسلطان الـدولـة، في ليل ٢٥-٢٦ اوكتـوبر ١٩١٧، حتى كان المناشفة والاشتراكيون - الثوريون يرفضون الاعتراف بها ويغادرون مؤتمر السوفييتات لعامة روسيا، ومعظمهم لم يعودوا إليه أبداً. وربما أمكن الخروج من ذلك بخلاصة مفادها أن هذا الرفض وهذا الرحيل، المثبتين خلافاً على طبيعة النظام الجديد بالذات، كانا يجعلان من المستحيل أي تعاون بين احزاب باتت متعادية مذّاك، وذلك بالرغم من التماثل أو التشابه في العلامات.

إن أهمية البادرة المنشفية والاشتراكية - الثورية هي في كل حال أساسية، ولم ينخدع بصـددهـا مراقب كسـوخانوف، المنشفي هو بالذات، وإن كان إلى اليسار. حين علم قبل افتتاح مناقشات السوفييت بقليل، في لحظة سقوط الحكومة المؤقتة، أن الكتلة المنشفية اليسارية التي كان عضـواً فيهـا تفكر بمغادرة مؤتمر «لم يكن أحد يجادل في شرعيته» «أصيب بالذهول[١٣٣]». فهم فوراً أن هذا الرحيل «يعني قطيعة جازمة مع الجماهير ومع الثورة». وقد أطلق العنان لدهشته الساخطة: «لم يكن في وسع الكتلة القديمة (الاشتراكية المعتدلة - م. ل.) أن تبتلع لا هزيمتها ولا الديكتاتورية البلشفية. مع البورجوازية ومع الكورنيلوفيين، بلى؛ لكن مع العمال والفلاحين الذين دفعوا بهم بأنفسهم إلى أحضان لينين، مستحيل[١٣٤]».

بيد أن البادرة الحاسمة لم تكن قد استخدمت بعد. داخل السوفييت، تكلم مارتوف وطالب بتشكيل حكومة تتمثل فيها **كل** الاحزاب السوفياتية. وقد لقي تصفيقاً حاداً. فردَّ لوناتشارسكي باسم البلاشفة وأبدى اتفاقه مع صيغة مارتوف. وقد جرى التصويت عندئذ على اقتراح الاخير **بالاجماع**، حيث ان البلاشفة ابدوا تأييدهم له[١٣٥] ولقـد غادر الجمهور الاكبر من المناشفة والاشتراكيين - الثوريين قاعة جلسات السوفييت **بعد** تبني اقتراح مارتوف. إن مغادرة أولئك الذين كان سوخانوف يدعوهم، قبل الحدث بأربع سنوات، «مناهضين للثورة عمياناً»[١٣٦] جعلت حرارة الاجتماع ترتفع عدة درجات. وقد تولى تروتسكي تفسير الحادثة واستخلاص نتائجها. صرخ قائلاً: «لقد تبعت الجماهير رايتنا، وقُيِّض لانتفاضتنا الانتصار. والآن يقولون لنا: تخلوا عن انتصاركم، قدِّموا تنازلات، اقبلوا بمساومة. وأنا أسأل: مع من؟ مع من علينا عقد هذه المساومة؟ مع الجماعات البائسة التي غادرتنا للتو أو مع اولئك الذين يقدمون هذا الاقتراح؟.. لكن المساومة لا يمكن تصورها إلا مع أنداد!.. كلا، لن يكـون هنا من مساومة ممكنة. علينا القول لأولئك الذين مضوا ولأولئك الذين يقترحون المساومة: «أنتم مفلسون بائسون، وقد انتهى دوركم؛ مكانكم في سلة مهملات التاريخ!».

قاطعه مارتوف قائلاً: «في هذه الحالة سوف نغادر!» وترك المنصة التي كان يشغلها دائماً وقاعة أعمال المؤتمر[١٣٧].

إلا أنه لم يكن أي شيء محسوماً وكان يمكن اعتبار كل القضية مجرد «حادث بسيط في جلسة». اجتمع فريق المناشفة اليساريين إذاً لدراسة الوضع. فدعا مارتوف رفاقه للرحيل النهائي، ودافع سوخانوف عن الأطروحة المعاكسة. فرجح موقف الأول بأربعة عشر صوتاً ضد اثني عشر[١٣٨]. وخلص المناضل المنشفي القديم إلى القول: «هكذا بلغت الدراما نهايتها. مضينا دون أن نعرف إلى أين أو لماذا. كنا نغادر السوفييتات، ونمتزج بالعناصر المعادية للثورة، مُذِلّين انفسنا في نظر الجماهير، كنا ندمر كل مستقبل حركتنا في الوقت ذاته الذي ننتهك فيه مبادئنا.. لقد اقترفْتُ اثناء الثورة أخطاء عديدة وحماقات كثيرة. لكنني اعتقد أن الجريمة الكبرى والأكثر استعصاء على الاصلاح هي كوني لم أقطع فوراً مع مجموعة مارتوف حين قرر هذا مغادرة المؤتمر[١٣٩]».

هل إن إمكانية مساومة بين البلاشفة والاشتراكيين المعتدلين ـ معتدلين في اشتراكيتهم، لكن كما سنرى أيضاً ليس بتاتاً في حقدهم على البلشفية ـ كانت مذاك مستبعدة تماماً، وهل كان منظور حكومة ائتلاف قد دُفن إلى الأبد؟ لقد أعادت مبادرة اتخذتها نقابة عمال سكك الحديد اطلاق المشكلة. ففي ٢٩ تشرين الاول، أطلقت هذه النقابة، حيث كانت تسيطر التأثيرات المنشفية والاشتراكية الثورية اليسارية، إنذاراً موجهاً بشكل رئيسي نحو حكومة لينين. كان عمال السكك يشترطون تشكيل ائتلاف يضم كل الاحزاب السوفياتية. وأعلنوا أنه في حال عدم حصول ذلك، قد يعلنون إضراب سكك الحديد على كامل الارض الروسية. في اليوم ذاته، وبغياب لينين، اجتمعت لجنة الحزب المركزية لدرس «اقتراح» عمال السكك. وقررت المشاركة في الكونفرانس الذي قد يناقش فيه موضوع الائتلاف، وذلك بسهولة كبرى، لاسيّما أنه وفقاً لنص القرار الذي تم التصويت عليه بإجماع الحاضرين، كانت اللجنة تعتبر من «الضروري توسيع قاعدة الحكومة[١٤٠]». جرى تعيين وفد منتدب للمشاركة في المفاوضات: من المعبر انه كان مشكّلاً من ثلاثة بلاشفة يمينيين، ريازانوف، وسوكولنيكوف وكامينيف، علماً أن الأخيرين عبّرا في اللجنة المركزية عن رأيهما القاضي بإدخال كل الاشتراكيين في الحكومة المقبلة، حتى اولئك المصنَّفين في اقصى اليمين[١٤١]. من جهة اخرى، قررت لجنة الحزب المركزية توسيع تركيب اللجنة المركزية التنفيذية للسوفييتات عن طريق إضافة مندوبين إليها عن «الاحزاب التي غادرت المؤتمر»، وذلك على قاعدة التمثيل النسبي[١٤٢].

بدأت المفاوضات تحت كنف نقابة عمال السكك في الحال وسوف نرى(*) ضمن أي استعدادات ذهنية شارك فيها الاشتراكيون ـ الثوريون والمناشفة، وكيف جعل تصلبهم من

(*) انظر أدناه، ص ٤٨ وما بعدها وص ٥٣ ـ ٥٤.

المستحيل الوصول الى اتفاق. وعلى العكس، كان العديد من القادة البلاشفة مهتمين بصورة يائسة بتحويل خصوم الامس الى شركاء الغد. في اول تشرين الثاني، قدم المفاوضون تقريراً الى زملائهم في اللجنة المركزية عن مسار كونفرانس الائتلاف. ظهر أن كامينيف وسوكولنيكوف وريازانوف كانوا قد سجلوا فقط اشتراط الاشتراكيين المعتدلين رؤية لجنة السوفييتات المركزية التنفيذية وقد جرى توسيعها بإضافة مجموعة كبيرة من الممثلين البورجوازيين -أعضاء مجلسي بلديتي موسكو وبتروغراد-، الامر الذي كان يعيد النظر في الطبيعة السوفياتية للنظام الجديد. ضمن هذه الشروط، أبدى لينين عداءه للكونفرانس الآخذ مجراه، لينين الذي كان قد أعلن بالأمس بالذات أمام مندوبي حامية بتروغراد: «كنا نريد حكومة ائتلاف سوفياتية[١٤٣]». لاسيما ان المندوبين البلاشفة كانوا تبلغوا شرطاً آخر من محاوريهم الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة: لا لينين ولا تروتسكي يمكن، بأي ثمن، أن يكونا جزءاً من الائتلاف. وقد اكد لينين: «لم يعد جائزاً(*) خوض مفاوضات مع الفيكجل («اللجنة التنفيذية لعامة روسيا لنقابة عمال السكك - م. ل.)»، مضيفاً أنه، من جهته، يرى ان «المفاوضات كانت معدة لتكون غطاء ديبلوماسياً للحركات(**) العسكرية[١٤٤]». وقد اقترح بحزم «قطع» المفاوضات. فسقط اقتراحه بـ ١٠ أصوات ضد ٤. تابع المندوبون البلاشفة إذاً جهودهم بهدف تشكيل حكومة ائتلاف.

في اجتماع الغد، حقق لينين نجاحاً لدى رفاقه في اللجنة المركزية. فلقد جرى تبني اقتراحه الذي يوجه الاتهام الى «المعارضة داخل اللجنة المركزية» بـ ١٠ أصوات ضد ٥. كانت تلك «المعارضة»، التي يشكل كامينيف الوجه المركزي فيها، قد تجلت في اللجنة التنفيذية المركزية لمؤتمر السوفييتات. فكامينيف، بوصفه رئيساً لهذه المؤسسة المهمة، استبق المفاوضات الجارية واقترح فيها استقالة مجلس مفوضي الشعب البلشفي واستبداله بحكومة ائتلاف. وقد تلقى الدعم من عدد مهم من الشخصيات البلشفية من بينهم نوغين، عضو اللجنة المركزية ومفوض الشعب في الصناعة والتجارة، وريكوف، عضو اللجنة المركزية ومفوض الشعب للشؤون الداخلية، وميليوتين، مفوض الشعب في الزراعة، وتيودوروفيتش، مفوض الشعب لشؤون التموين، بالاضافة الى زينوفييف، المتحالف مرة اخرى مع كامينيف[١٤٥]. هكذا كان الاتجاه المعتدل لا يزال قوياً في قيادة الحزب. وحين قدم

(*) البلاشفة وثورة اكتوبر، ص ١٨٥، محضر جلسة أول تشرين الثاني وارد في الكتاب من الصفحة ١٨٣ إلى الصفحة ١٩١.

(**) المرجع ذاته، ص ١٨٧. كانت «الحركات العسكرية» تلميحاً إلى الانتفاضة البلشفية التي لم تكن قد انتهت بعد في موسكو.

لينين اقتراحاً يؤكد ان «الرضوخ للانذارات والتهديدات من جانب الاقلية في السوفييتات يعادل التخلي نهائياً ليس فقط عن سلطة السوفييتات، بل كذلك عن الديمقراطية، لأن هكذا تنازلات تعادل خوف الاكثرية من استهلاك اكثريتها(١٤٦) . . »، أدى النقاش إلى معركة حائرة. أعطى التصويت الأول ٦ أصوات لنص لينين و٦ ضده، وفي الدورة الثانية، كان هنالك ٧ أصوات مع و٧ ضد، وقد لزم امتحان اخير خرج لينين منه منتصراً بأكثرية صوت واحد: ٨ ضد ٧(١٤٧).

بعد أن انهزمت الاقلية، قررت مغادرة اللجنة المركزية رافعة شعار: «عاشت حكومة الأحزاب السوفياتية!(١٤٨)» كانت تضم ثلث القيادة: كامينيف، زينوفييف، ريكوف، نوغين، ميليوتين. واستقال ايضاً عدة مفوضي شعب من وظائفهم، لشدة ماكانت رغبتهم في إيجاد مجال للتفاهم مع الاشتراكيين المعتدلين. وإذا لم يكن في أملهم أي شيء غير طبيعي جداً - لأنه، كما كتب المؤرخ الامريكي ر. مانيلز، خلال ثورة أوكتوبر لم يكن مجمل البلاشفة يفكرون بتاتاً في الحكم وحدهم(١٤٩)، وحتى الشيوعيون اليساريون كانوا بالرغم من راديكاليتهم المعتادة من أنصار حكومة ائتلاف بشرط أن تكون الاكثرية لممثلي الحزب البلشفي(١٥٠)-، فعنادهم كان أقل طبيعية. لأن الاتفاق الذي كانوا يتمنونه لم يكن ممكناً إلا فيما لو كانت لدى المناشفة والاشتراكيين - الثوريين استعدادات مشابهة لتلك التي كانت موجودة لدى معظم البلاشفة. والحال ان زواج المصلحة كان مستحيلاً لأن طالبيه اللينينيين لم يكونوا يجدون في وجههم غير العداء والازدراء والتصلب.

لم يكن الحزب الاشتراكي - الثوري قد اكتفى بمغادرة مؤتمر السوفييتات. فبعد يومين من رحيله، قررت لجنته المركزية إقصاء كل اعضائه الذين كانت لهم مشاركة ما في الانتفاضة أو الذين لم يحذوا، خلال الجلسة التاريخية التي انعقدت في السوفييت، حذو القادة وحضروا تتمة النقاشات(١٥١). وكان ذلك القرار بليغاً بصدد الطريقة التي سيتصرف على اساسها الاشتراكيون - الثوريون خلال كونفرانس الائتلاف. في كل حال، كان موقفهم واضحاً لا لبس فيه. فلقد اكد المندوب الاشتراكي - الثوري، دفعة واحدة، وكان يتكلم باسم الحزب: «بالنسبة إلينا، لا مجال للتفكير في حكومة يشارك فيها البلاشفة(١٥٢)» وشرح كيف أن «البلد لن يغفر للبلاشفة الدم الذي أراقوه. . يجب تصفية مغامرتهم(١٥٣)». أما المناشفة، الذين كان وزنهم السياسي أخف من وزن حلفائهم، فاكتفوا بتأييد وجهة النظر هذه. وفي صباح ٣٠ تشرين الاول، حين استؤنف النقاش، قدّم مندوبو الحزبين الاشتراكيين شروطاً تناسب، كما يبدو، الظافرين اكثر مما تناسب المهزومين: على البلاشفة ان يتعهدوا بنزع سلاح «الحرس الاحمر» وبترك قوات كيرنسكي تدخل العاصمة دون مقاومة! إلا أنهم حين علموا بفشل الانتفاضة المناهضة للبلاشفة لتلامذة الضباط في بتروغراد، أبدى قسم من الاشتراكيين -

الثوريين ـ وليس كلهم! ـ تواضعاً أكثر. أعلنوا عن استعدادهم لتصور إمكانية السماح لبعض البلاشفة بدخول الحكومة، بصفة فردية، علماً أن هذا التسامح لا ينطبق لا على تروتسكي ولا على لينين(*).

استؤنفت المفاوضات على هذا الاساس، في اول تشرين الثاني، بحضور مندوبين بلاشفة كانوا لا يزالون مستعدين، كما رأينا، لتقديم حد أدنى من التنازلات لمحاوريهم. أما الاشتراكيون ـ الثوريون فاعترفوا بأن إخفاقاتهم العسكرية وحدها هي التي كانت تجبرهم على المشاركة في أعمال الكونفرانس. إلا أنه، في الغداة، أعلن الاشتراكيون ـ الثوريون والمناشفة، معاً، قرارهم لا بـ «قطع» المفاوضات بل بوقفها نهائياً. وقد خلص المؤرخ الامريكي رادكي في هذا الصدد الى الكتابة: «كان الحزب الاشتراكي ـ الثوري قد اتخذ منذ البداية موقفاً متصلباً: وهو لم يلينه إلا بسبب الاخفاقات العسكرية التي مني بها مناهضو البلاشفة، وحتى في ذلك الحين كان مستعداً فقط للسماح لخصومه بالدخول من الباب الصغير إلى حكومة يمتلك هؤلاء الخصوم من جهة اخرى احتكارها(١٥٤)».

ومن الصعب أن نتخيل لا واقعية بهذا القدر وموقفاً مضحكاً بهذا الاكتمال. إلا أنه، في الواقع، لم تكن سياسة الاشتراكيين الثوريين والمناشفة، خلال المفاوضات بصدد الائتلاف، مضحكة إلا في الظاهر. كانت تستجيب لمنطق لخَّصه الكاتب ذاته: «في التحليل الاخير، كان تشبث البلاشفة بـ النظام السوفياتي للحكم هو الذي تسبب بفشل المفاوضات(**).

ثمة يكمن، في الواقع، عمق المشكلة. فقط أقلية ـ مهمة في الحقيقة ـ داخل القيادة البلشفية كانت مستعدة للتضحية بنظام السوفييتات لصالح لا سوفييتية الاشتراكيين المعتدلين. لم يكن الاخرون ناضجين لهكذا استسلام، مع انهم كانوا مهتمين أيضاً بتوسيع تركيب الحكومة. أما لينين، فلم يكن اكثر ولا أقل تصلباً من معظم معاونيه، بل كان فقط أبعد نظراً. وسوف نقدم البرهان على أن الأمر لديه لا يتعلق لا بتصلب ولا بإرادة احتكار حزبه السلطة: لقد سعى لينين لأن يدخل في الحكومة الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين(***).

(*) حول موقف الاشتراكيين ـ الثوريين والمناشفة خلال المفاوضات بصدد الائتلاف، انظر بوجه خاص أو. رادكي **The Sickle under the Hammer**، ص ٦٥ ـ ٧٢. أما ل. شابيرو، الذي يعتبر أن انعدام الائتلاف الحكومي عامل مهم لتفسير «الاكتفاء الذاتي الشيوعي»، فلا يشير ولو من بعيد إلى تصلب الاشتراكيين ـ الثوريين والمناشفة.

(**) أو. رادكي، **The Sickle under the Hammer**، ص ٦٩. التشديد من وضعنا.

(***) انظر أدناه، ص ٦٤.

وبوجه خاص، فإن ماكان أساسياً بالنسبة إليه، هو أن يبقي قيد الحياة **حكومة السوفييتات** التي كان الاشتراكيون المعتدلون يرفضون الاعتراف بها. وعلينا أن نفتش عن اصول المونوليتية الشيوعية(*) في غير المحاولة الجهيض لخلق ائتلاف بين البلاشفة وخصومهم الاشتراكيين.

الاشتراكيون ـ الثوريون، والمناشفة والفوضويون

هكذا إذا استثنينا الفاصل القصير من التعاون بين البلاشفة والاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين(**)، ركز اللينينيون، رغماً عنهم غالباً، كل سلطة الدولة بين أيديهم. ولم تشارك الاحزاب الاشتراكية إطلاقاً. أكثر من ذلك، اتجه النظام الجديد نحو حظرها وتصفيتها. رثمة من يزعم رؤية دليل آخر على الطابع التوتاليتاري الصرف في انعدام التسامح الأقصى هذا، أو على الاقل على **الطابع الحزبي البحت للينينية**. لأنه إذا كان حظر الحزب الدستوري ـ الديمقراطي، في كانون الاول ١٩١٧، في حين كان يجري إعداد ثورة مضادة يؤيدها اولئك الليبراليون السابقون ويدعمونها، إذا كان يمكن أن يُعتبر بادرة دفاع مشروع، فموقف البلاشفة حيال خصومهم الاشتراكيين ـ الثوريين والمناشفة، كما حيال الفوضويين الذين جرى النظر اليهم في بعض الظروف كحلفاء لهم(***)، يكشف، حسبما يبدو، إرادة سلطان مذنبة، واتجاهاً مشؤوماً نحو المونوليتية. ألم يكن الامر يتعلق، بعد كل شيء، بأحزاب اشتراكية، كانت خلافاتها مع البلاشفة عميقة طبعاً، لكنها كانت تتقاسم معهم مثلاً أعلى واحداً، وبخصوص المناشفة كانوا يتغذون من الينابيع المذهبية ذاتها؟

إن حالة الاشتراكيين ـ الثوريين هي الاكثر إثارة للبلبلة، للوهلة الاولى، طالما أن لينين كان يبدي اهتماماً بالاستناد الى غالبية السكان وكان عليه بالتالي أن يحظى بدعم الفلاحين الذين كان الحزب الاشتراكي ـ الثوري المعبر السياسي عنهم تقليدياً. ففي كانون

(*) خلال حوار تم تنظيمه في كامبردج (ماس) بمناسبة الذكرى الخمسين للثورة الروسية، اتفق مؤرخان، هما السيدان فاينسود وجيير، اللذان لم يبدِ أحدهما يوماً أي مودة حيال الشيوعيين، على التأكيد بأن البلاشفة «كانوا يدعمون بحزم فكرة ائتلاف مع الاحزاب الاشتراكية واضطروا للحكم وحدهم فقط بسبب رفض تلك الاحزاب أي تعاون معهم». (ر. بايبس. Russia Revoluticnary، ص ٢١٧).

(**) انظر أدناه، ص ٧٠ - ٧٢

(***) انظر أعلاه، الجزء الاول، ص ٢٦٤ وما يليها.

الثاني ١٩١٨، إذ كان يتكلم أمام المؤتمر الثالث الروسي الكبير للسوفييتات، أعلن ما يلي: «السلطة الوحيدة التي من شأنها البقاء في روسيا هي تلك التي ستعرف كيف تحشد الطبقة العاملة وغالبية الفلاحين، كل الطبقات الكادحة والمستَغَلة في قوة واحدة موحدة بصورة لا فكاك منها(١٥٥)». وبعد أشهر، بمناسبة الذكرى الاولى للاستيلاء على السلطة، كرر قائلاً: «إن إرادة الاكثرية هي دائمًا ملزمة بالنسبة إلينا، والوقوف بوجهها يعني خيانة الثورة(١٥٦)».
أما دعم الطبقة الفلاحية، فليس كافياً القول إن لينين كان يعتبره مهمًا. ألم يؤكد في كانون الاول ١٩٢١ امام المؤتمر التاسع للسوفييتات ـ مكرساً في كل حال تصريحات سابقة عديدة ـ أن «المشكلة الاساسية، المشكلة الجوهرية، هي مشكلة موقف الطبقة العاملة حيال الفلاحين، هي تحالف الطبقة العاملة مع الفلاحين(١٥٧)»؟

مقابل هذه الاعتبارات، كان يمكن اعتبارات اخرى، مؤسسة على الماضي الثوري للحزب الاشتراكي ـ الثوري، أن تبدو تافهة. كان بعيداً ولا علاقة له بالطبيعة الاجتماعية وبالتوجه السياسي للاشتراكيين ـ الثوريين في الوقت الذي وصل فيه البلاشفة إلى السلطة. لقد رأيناهم يجحدون مؤتمر السوفييتات، ولم يكن هذا الخيار الاساسي ناجماً فقط عن واقع انهم كانوا قد خسروا الاكثرية في اوكتوبر لصالح خصومهم البلاشفة. لأنهم لم يكونوا يجحدون الغالبية السوفياتية بل النظام السوفياتي بالذات. منذ أيلول ١٩١٧، كتبت صحيفة الازفستيا التي كانوا يشرفون عليها: «إن دور السوفييتات يقارب النهاية. ولقد دنا الحين الذي سيكون عليها فيه، هي والاجسام الاخرى للجهاز الثوري، ان تختفي من الساحة السياسية لشعب حر ومنتصر لن يستعمل بعد الان غير أسلحة سلمية(١٥٨)». وبعد شهر، كتبت الصحيفة نفسها: «حين انهارت الاوتوقراطية ونظامها البيروقراطي، شكّلنا السوفييتات، وهي نوع من المخيمات التي امكن الديمقراطية أن تجد فيها ملجأ مؤقتاً. والآن نقيم البناء الدائم الذي سيحل محل المخيمات ومن الطبيعي ان يتخلى الشعب عنها تدريجياً من أجل هذا المسكن الاكثر رخاء(١٥٩)».

لم يكن مدهشاً أن يكون الاشتراكيون ـ الثوريون فضلوا في خريف ١٩١٧ على فقر المخيمات السوفياتية رخاء الأبنية الجديدة ـ بلا شك تلك التي كانوا يهيئونها للجمعية التأسيسية. كل شيء كان يدفعهم للقيام بهذا الخيار، بدءاً بانغراسهم الاجتماعي الذي يصفه مؤرخهم الرئيسي والاكثر تدقيقاً بالشكل التالي: «كانت قاعدة الحزب الاشتراكي ـ الثوري الانتليجنسيا الريفية: موظفي القرى، ومستخدمي ادارة «الزمستفوات» والتعاونيات، واولاد الكهنة، وبوجه خاص المدرسين(١٦٠)». هذه العناصر البورجوازية الصغيرة بصورة نموذجية سرعان ما توصلت خلال عام ١٩١٧ إلى مطابقة مواقفها مع مواقف الدستوريين ـ الديمقراطيين بالذات المهتدين للروح المحافظة وحتى الرجعية. وهذا هو

السبب الـذي من أجله رفض الحزب الاشتراكي ـ الثوري أن يدعـم بين شباط واوكتوبر مطالب كانت ضمن برنامجه منذ تأسيسه، وجابه، بعنف أحياناً، محاولات الفلاحين لتوزيع الملكيات العقـارية الكـبرى. «قسم كبـير من الانتليجنسيا الشعبـوية (وإذاً الاشتراكية ـ الثورية ـ م. ل.) كان قد اصبح في صفوف الكاديت دون التجرؤ على التسليم بذلك. كانوا يتشبثون بالعلامة القديمة لكنهم كانوا قد فقدوا الايمان القديم. كان آخر شيء يتمناه هؤلاء القـوم الثـورة الاجتماعية. فهذه كانت ستضع حداً في الواقع للحرب، وستهدد وضعهم الاجتـماعي وتتسبب بعـداء الكـاديت الـذين كانـوا يكنـون لهم الاعجـاب المشـوب بالاحترام[١٦١]». وسوف تمثل مجموعتهم في الجمعية التأسيسية «أحد العناصر الاكثر محافظة في المجتمع الروسي[١٦٢]». طبعاً كان الاشتراكيون ـ الثوريون لا يزالون حزباً فلاحياً، لكن، كما يشير إ. هـ. كار، مرتبطاً بصورة اخص بمصالح الفلاحين **الميسورين** الذين حموهم قدر ما استطاعوا إبان توزيع الاراضي الذي اعقب وصول البلاشفة الى السلطة[١٦٣].

إلا أنـه إذا كان الـتركيب الاجتـماعي لملاك الحـزب الاشتراكي ـ الثوري السياسي بورجوازياً صغيراً، فالامكانات المالية التي كانت بحوزته كانت من أصل أقل تواضعاً. ففي كانون الاول ١٩١٧ اعترف التقرير الاداري المقدم الى المؤتمر الرابع بأن ٣٪ فقط من موارد الاشـتراكيين الثوريين يأتي من اشتراكات الاعضاء. والباقي كان يجيء من المصارف على شكل قروض. من جهـة اخرى، لم يكن الحزب يتغذى فقط من ينابيع روسية، وبعض رجال الاعـمال الامـريكيين الـذين قُرع بابهم لم يرفضوا تقديم العون. هكذا هي حال وليـام تومسون، قطب صناعة النحاس الذي كان عضواً في وفد الصليب الاحمر المرسل من وراء الاطلسي الى روسيا، والذي كانوا يسمونه في بتروغراد «القيصر الامريكي». لما كان وليـام تومســون غير مكبل بتصور ضيق ولا سياسي لمهمته الخيرية دفع وحده مبلغ مليون دولار لصندوق الاشتراكيين ـ الثوريين[١٦٥].

هكذا كان الحزب الاشتراكي ـ الثوري، اجتماعياً وسياسياً ومالياً. كان ثورياً قبل عام ١٩١٧، محافظاً بين شباط واوكتوبر، وبدا معادياً للثورة منذ الايام الاولى أو الساعات الاولى للنظام السوفياتي. في ٢٦ اوكتوبر ١٩١٧ قررت غالبية اللجنة المركزية للحزب القيام بعمل مسلح(*) فوري ضد البلاشفة؛ وقد اتخذ هذا القرار آنذاك بصورة سرية لكنه نُقِل الى العلن في المؤتمر الرابع الاشتراكي ـ الثوري الذي انعقد علانية في بتروغراد في شهر كانون الاول

(*) ان رواية النشاط المعادي للثورة من جانب الاشتراكيين ـ الثوريين، غداة استيلاء البلاشفة على السلطة تقـوم بشكـل رئيسي على ما جاء في كتـاب أو. رادكي، **The Sickle under the Hammer**، ص ١٨ ـ ٣٩.

١٩١٧. وقد عُهد بتنفيذ الخطة الى الشخصية الاكثر نفوذاً في الحزب، ابراهام غوتز، الذي كان قد حصل، إبان الانتخابات لتشكيل لجنة الحزب المركزية،على اكبر عدد من الاصوات. ولكي يوسع غوتز قاعدته، قرر وضع الانتفاضة المناهضة للبلاشفة تحت كنف «اللجنة من اجل خلاص الوطن والثورة» المتمحورة حول مجلس بلدية العاصمة. كان مقرراً تكليف لجنة الحزب العسكرية، بشكل خاص، بمهاجمة البلاشفة في بتروغراد في الوقت الذي تقترب فيه قوات كيرنسكي منها. لكن سرعان ما بدا لغوتز أنه لأجل تحقيق مشروعه المعادي للثورة ماكان في وسعه الاعتماد بتاتاً على مناضلي الحزب الاشتراكي ـ الثوري؛ فاستدار عندئذ نحو القوزاق المعسكرين في ثكنات العاصمة، وحين رفضوا الالتزام، تحول الى مدارس «اليونكرز»، تلامذة الضباط المشهورين بارتباطاتهم المحافظة. وقد قبل هؤلاء كفالة الملكي بوريشكيفيتش، الذي كان غوتز قد عقد معه اتفاقاً، لاشك انه بدا حاسماً. وهذا هو اصل الانتفاضة المسلحة لليونكرز، التي أقضت في ٢٩ اوكتوبر ١٩١٧ مضجع بتروغراد وقمعها «الحرس الاحمر» بسهولة. إزاء هذا الفشل، اتجه العديد من القادة الاشتراكيين ـ الثوريين إلى الجبهة للانضمام الى القوات العسكرية التي كانوا يعتقدون أن هجومها ضد البلاشفة بات وشيكاً. كان وزير الزراعة السابق الاشتراكي ـ الثوري تشيرنوف ـ المصنف في الحزب الى اليسار ـ قد غدا هناك حيث راح يسعى لتحضير عملية الاستيلاء مجدداً على العاصمة. أما غوتز فشوهد بعد قليل في شوارع موهيليف، مقر القيادة العامة للجيش. لما كان يبحث باستمرار عن قوات معادية للثورة، نجح فقط في استعراض فصائل مرت أمامه على أنغام الاناشيد الملكية[١٦٦].

لن نتابع بالتفصيل نشاطات الاشتراكيين ـ الثوريين المضادة للثورة قبل حل الجمعية التأسيسية وبعده، لكن من المؤكد أنه كان للاشتراكيين ـ الثوريين في تفجير الحرب الاهلية في روسيا دور الرواد داخل المعسكر المعادي للثورة. ففي تشرين الثاني ١٩١٧، أعدت لجنتهم العسكرية خطف لينين وتروتسكي، عاهدة بهذا المشروع الضخم الى مجموعة من الضباط[١٦٧]. وإذا كانت مظاهرة دعم الجمعية التأسيسية التي نظموها في كانون الثاني ١٩١٨ في شوارع بتروغراد ذات طابع سلمي، فلم يكن ذلك لأن الاشتراكيين ـ الثوريين تمنوا أن تكون عزلاء من السلاح، بل لأنه لم يكن بالامكان جمع تلك الاسلحة. فالخطة التي تصورتها قيادة الحزب في الاصل كانت تتوقع على العكس عملاً عنيفاً لاسقاط النظام السوفياتي: «كُرِّست أسابيع لوضع هذه الخطة، لكن بات واضحاً في بداية كانون الثاني أنه لم يكن ثمة أي حظ في النجاح لهجوم عسكري[١٦٨]».

بعد حل الجمعية التأسيسية، قرر الاشتراكيون ـ الثوريون ان يضيفوا الى ترسانة وسائلهم سلاحاً وجدوه في التراث القديم لحزبهم، سلاح الارهاب الفردي. ففي الربيع،

حاكـوا مؤامـرة لاغتيال لينين[١٦٩]، وفي حزيران ١٩١٨، اغتال أحدهم القيادي البلشفي فولودارسكي، وبعد شهر قتل اشتراكي ثوري أوريتسكي، وهو شخصية شيوعية مهمة[١٧٠].

وعمـومـاً، في الحـرب الاهلية التي اجتـاحت البلد ابتداء من تموز، لعب الاشتراكيون ـ الثـوريون دوراً مرموقاً جداً. منذ أيار ١٩١٨، في كل حال، كانوا صوتوا خلال مؤتمرهم الثامن على قرار يَحْسُن بموجبه «قلب الديكتاتورية البلشفية لارساء حكومة تقوم على الاقتراع العـام وتكـون مستعـدة لقبـول مسـاعـدة الحلفاء في الحرب ضد المانيا[١٧١]». وقد شارك الاشتراكيون ـ الثوريون في كل الحكومات المعادية للبلشفية التي قامت في روسيا، وسيطروا عليها غالباً. شاركوا فيها حتى حين نادت هذه الحكومات بسياسة رجعية بوضوح وتولت تطبيقها. كانت تلك هي الحال، مثلاً، مع «الحكومة المؤقتة لعامة روسيا» المشكلة خلال خريف ١٩١٨ والتي نص برنامجها على «تطوير قوى انتاج البلد بمساعدة الرأسمالية الروسية والاجنبية وتشجيع المبادرة والمنشأة الخاصتين» وأبدت نيتها في إلغاء الاصلاح الزراعي وإعادة الارض الى الملاكين العقاريين الكبار[١٧٢]. ونقع أيضاً على الاشتراكيين ـ الثوريين في حكومة أركـانجلز، التي ظهـرت في ربيع ١٩١٨ بعـد نزول القـوات الانكليزية، والتي كانت شخصيات اشتراكية ـ ثورية بالذات تصفها بـ «الديكتاتورية العسكرية» للجنرال ميلر[١٧٣].

ما الذي كان يبقى أخيراً من الماضي الاشتراكي والثوري في هذه التشكيلة حيث كان تشيرنوف الشهير القديم، رغم حقده على البلاشفة، مرعوباً من اكتشاف ماكان يدعوه «قوة العواطف الملكية، وضعف الاتجاهات المعتدلة والميل إلى التحالف مع كل القوى المعادية للديمقراطية[١٧٤]»؟ إن هذا الاهتداء إلى المَلَكية من جانب العديد من الاشتراكيين ـ الثوريين لم يكن في كل حال جديداً لأن جاك سادول لَخص هكذا، في رسالة من موسكو في نيسان ١٩١٨، جوهـر محادثـاتـه مع شخصيات اشتراكية ـ ثورية: «يؤكد كثيرون في المحادثات الخاصة، دون الاعتراف بذلك علانية، ضرورة عودة النظام الملكي[١٧٥]».

صحيح أن انعطافة قد حدثت في شباط ١٩١٩ ـ بعد سنة من الحرب الاهلية ـ بين بعض الاشـتراكيين ـ الثوريين في موسكو وسمارا حيث كانوا قد شاركوا في حكومة معادية للشيوعية. قرروا الالتحـاق بالنـظام السوفياتي، لكن الكونفـرانس التابع للحزب الذي اجتمع سراً في العاصمة ردَّ بإقصاء هؤلاء «المصالحين»[١٧٦]. في غضون ذلك، كان البلاشفة استقبلوا تحول الاقلية الاشـتراكية ـ الثـورية بإعـطاء الشرعية لحزب كانوا حظروه في تموز ١٩١٨. إلا أن بادرة التسامح هذه بقيت دون مستقبل لأن انقلابـات بعض الاشتراكيين ـ الثوريين وتردداتهم ووساوسهم، في بلبلة الحرب الاهلية، لم تكن لتغير شيئاً في هذه الحقيقة الاسـاسية: في المـواجهـة بين الـطبقـات التي سبقت ثورة اوكتـوبر وتلتها، اختار الحزب الاشتراكي ـ الثوري معسكره بوضوح، معسكر الثورة المضادة ومارس فيه كل العنف الذي

كان يميز تلك الحقبة. ولقد كان «انعدام التسامح» الذي أبداه البلاشفة حياله الرد على هذا الخيار الحاسم.

إن حالة المناشفة مختلفة بشكل محسوس عن حالة حلفائهم الاشتراكيين ـ الثوريين. لاشك أن عداءهم للبلشفية لم يكن اضعف بتاتاً من عداء الاشتراكيين ـ الثوريين، لكن كان لابد من أن تتخذ معارضتهم أشكالاً أخرى بسبب ضعفهم وطبيعة حزبهم بالذات.

في فترة إرساء السلطة السوفياتية، كان المناشفة يبدون كحزب فاقد للحظوة. لما كان حزباً مدينياً، فقد كشفت الانتخابات الخسارة الكاملة لشعبيته في المدن؛ وكحزب عمالي، كان قد فقد ضمن البروليتاريا كل الدعم الذي كان يتمتع به في الاشهر الاولى التي تلت ثورة شباط. كان المناشفة يظهرون في اوكتوبر كتشكيلة سياسية لا قاعدة اجتماعية لها. فككوكبة من القادة السياسيين البلغاء في الغالب والشخصيات الفكرية اللامعة أحياناً، كانوا وسط ضعفهم شبه المثير للرثاء، كأشباح عالم مندثر. وإلى هذا العجز المتناقض مع الانغراس الاجتماعي المستمر في صلابته على مستوى الاشتراكيين ـ الثوريين في الارياف، كانت تضاف لإكمال الفرق بين الاشتراكيين ـ الثوريين والمناشفة، الطبيعة السياسية لهؤلاء الاخيرين. كان حزبهم من نواح عدة، تجمعاً لمعتدلين أصيلين. كانت خصومتهم الطويلة مع البلاشفة، منذ تأسيس الاشتراكية ـ الديمقراطية الروسية، تشهد على حذرهم وميلهم الى الشرعية. لم يكونوا، على مثال البلاشفة والاشتراكيين ـ الثوريين، ورثة ماضٍ من النضال العنيف، والسلاح الوحيد الذي كانوا قادرين على استعماله، كان سلاح النقد صاحب القيمة والقدر. بعد أن برهنوا قبل ثورة شباط على أنهم ثوريون شديدو الخجل، أثبتوا بين شباط واوكتوبر أنهم سياسيون رديئون. كان اندحارهم كاملاً، وبدا مستقبلهم مسدوداً. لكن القوة التي كانت تنقصهم بصورة قاسية خلال انتقالهم الهش الى السلطة، سوف يكتشفونها ويظهرونها في ساعة التخلي.

رأينا انه خلال المفاوضات لتشكيل حكومة ائتلاف كان المناشفة قد نسخوا موقفهم عن موقف الاشتراكيين ـ الثوريين الذين كانت قوتهم، الظاهرة أكثر مما هي حقيقية، تؤثر فيهم(*). حين بدأت المفاوضات التي نظمتها نقابة عمال السكك لتشكيل حكومة

(*) لم يكن لاحترام المناشفة للاشتراكيين ـ الثوريين من مثيل غير احترامهم للدول الغربية الكبرى. عشق بائس بالقدر ذاته لا بل أكثر بؤساً أيضاً! حين وصل جاك سادول، الدبلوماسي الفرنسي إلى روسيا، قبل انتفاضة اوكتوبر بقليل، كان رؤساؤه «نصحوه بشدة» بتجنب أي اتصال بالقادة المناشفة! (ج. سادول، مرجع مذكور، ص ٧٢).

ائتلاف(*)، بدأ المندوب المنشفي يؤكد أن اللغة الوحيدة التي يحسن استخدامها مع البلاشفة هي لغة البنادق(١٧٧)، لكن بما أن الفن العسكري لم يكن في يوم من الأيام من خصالهم، وافقوا على الجلوس إلى طاولة الكونفرانس. وحين قرر الاشتراكيون ـ الثوريون وضع حد للمفاوضات، أيدهم المناشفة. وقد دان هذا الموقف مارتوف الذي، منذ عودته الى روسيا في ايار، كان يقود الجناح اليساري في الحزب ويجد نفسه على خلاف عميق مع القيادة اليمينية. كان هدفه في الواقع شق الحزب البلشفي ولاحظ برضى تقدم الانقسام في الصفوف اللينينية، لاسيما بصدد مشكلة الائتلاف(١٧٨).

في كانون الاول ١٩١٧، خلال مؤتمر استثنائي منشفي جرى تنظيمه علانية في العاصمة، عاد مارتوف وتكتله إلى الحزب وعززا فيه مواقعهما على حساب يمين كان يقوده ميشال ليبر. وفي حين كان هذا الاخير يطلب من رفاقه المشاركة في «تحالف قتالي يحشد كل القوى المعادية للبلاشفة»، فإن مارتوف تمكن، بعد أن حشر هذا الاتجاه المتطرف في موقع الاقلية، تمكن من جعل الاكثرية تتبنى وجهة نظره الخاصة به، المنوَّعة Nuancé إلى حد الاقتراب من التشوش، حيث التأييد مع التحفظ للمشاركة في السوفييتات يترافق بأيْمان إخلاص للجمعية التأسيسية(١٧٩). وقد شرح مارتوف، في كل حال، استحالة الالتحاق بالعداء للشيوعية لأن ذلك قد يعني قطيعة كاملة مع الطبقة العاملة «الواقعة تحت سيطرة اليوتوبيات والأوهام (البلشفية)(١٨٠)». أما رفيقه دان، فاعترف بصورة اكثر نثرية بأنه لما كانت «قوة السلاح» كشفت عدم فعاليتها، في الصراع ضد البلاشفة، بات من الافضل «اعتماد وجهة نظر المصالحة(١٨١)».

إبان شتاء ١٩١٧ـ ١٩١٨ وفي الربيع، عاد المناشفة إلى الظهور في اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات حيث كانوا يشكلون مجموعة صيقة للغاية ـ نصف دزينة مندوبين من اصل حوالي ٣٥٠. وقد تحدث خطباؤهم أيضاً في مؤتمرات عموم روسيا، وفي تلك المناسبات المتنوعة. وقد تدخل مارتوف بقوة استثنائية لفضح سياسة السلطة البلشفية. ففي نهاية شهر ايار، مثلاً، هاجم الحكومة التي قررت للتو أن ترسل إلى الأرياف فصائل عمالية مكلفة بمصادرة القمح. اتهمها بأنها تريد، بهذه الوسيلة، إبعاد العمال المستائين عن موسكو وبتروغراد.

صرخ: «إنكم تسعون لأن تخنقوا هكذا احتجاج البروليتاريا السليم! وقد قوطع باحتجاجات شديدة. كانت الصيحات ترتفع من كل الجهات: «غادر المنبر!» لكن مندوبين آخرين صفقوا له. وبعد أن ذكّر رئيسُ الجلسة مارتوف بضرورة التزام النظام واصل هجاءه.

(*) انظر اعلاه، الجزء الثاني، ص ٤٤ وما بعدها.

مدعي لمغادرة المنبر. تقرر عندئذ طرده، لكنه لم يعر ذلك اهتمامه وتشبث بالمنبر مضاعفا شتائمه ضد البلاشفة. اخيراً، تدخل رجال من الميليشيا وأخرجوه بالقوة(١٨٢). وفي مناسبة اخرى، خلال النقاش المكرس لصلح بريست - ليتوفسك، الذي عارضه المناشفة بعنف، استدار مارتوف نحو رئيس الحكومة البلشفية وصاح في خصمه القديم: «أنا أهنىء لينين: انطلاقاً من الآن، لم يعد فقط تحت حماية «الحراس الحمر»، بل كذلك تحت حماية الامبراطور غليوم!(١٨٣)». لم يكن شيء أقل شبهاً بمعارضةٍ تحترم نفسها من المعارضة المنشفية.

كانت صحافتهم، المستمرة في الصدور علانية، وإن ضمن شروط صعبة(*)، تهاجم أيضاً شتى وجوه السياسة الشيوعية. كانت تأخذ عليها، بين ما تأخذ، تطويع ضباط قيصريين قدامى في الجيش الأحمر، والمحاولات الاولى لتطبيق نظام عمل(**) على الطبقة العاملة. وفي ربيع ١٩١٨، كانت هذه الصحافة المنشفية مهمة وتضم صحفاً يومية كما تضم دوريات ومجلات(١٨٤). كانت تدعم مرشحي الحزب حين يتقدم هؤلاء لانتخابات السوفييتات حيث كان يحدث لهم أن يحصلوا على نتائج مشرِّفة كلما كانت تزداد الصعوبات الاقتصادية في البلد. ففي تامبوف، مثلاً، نجح المناشفة حتى في انتزاع الاكثرية في سوفييت المدينة(١٨٥). وفي حالات اخرى، كانوا يرفضون المشاركة في الانتخابات أو ينحيهم البلاشفة عنها(١٨٦). وأخيراً، كانوا يعقدون احياناً في العاصمتين «كونفرانسات لاحزبيين»، كانت تنبثق منها «وفود ورشة أو مصنع(١٨٧)».

في ايار ١٩١٨، عقد الحزب المنشفي كونفرانساً جديداً - رسمياً وعلنياً - جرت فيه إدانة تدخل الحلفاء في روسيا (خطوة إلى اليسار)، لكن جرى تأكيد التشبث بالجمعية التأسيسية (خطوة إلى اليمين)(١٨٨). كان الحزب بغالبيته، وباستثناء اتجاه محافظ يدعم الثورة الم[illegible]ة، يعطي الانطباع اكثر فاكثر بانه في الحرب الاهلية التي بدأت، يحوم فوق المعترك ويحتفظ ببعض الحياد. هكذا في نهاية شهر ايار، حين تورطت الفرقة التشيكوسلوفاكية التي كانت في روسيا، معدة للانتقال نحو الغرب من أجل مواصلة الحرب هناك ضد المانيا، في نزاع مسلح مع البلاشفة، أوصى المناشفة بالحياد حين استشارهم نقابيون من عمال السكك حول الموقف الذي ينبغي اتخاذه إزاء توسلات الطرفين. لكن بما أن هذا الرأي بدا غامضاً

(*) تماماً كما كانت الحالة بالنسبة للصحافة البلشفية بعد احداث تموز ١٩١٧، كانت الصحف المنشفية مضطرة، في الغالب، بسبب تدابير منع أو تدقيق، لتغيير اسمائها من أجل الاستمرار في الصدور.

(**) إي. هـ. كار، مرجع مذكور، ج٢، ص ١١١، إ. دويتشر، **The Prophet armed**، ص ٤٠٩ - ٤١٠، انظر ادناه بصدد البلاشفة حيال العمال.

جداً اوضحت اللجنة المركزية المنشفية أن هذا الحياد يجب أن يكون «متسامحاً» حيال التشيكيين و«عدائياً» تجاه البلاشفة(*).

أيّاً تكن الصعوبات التي عانى منها رفاق مارتوف لتحديد سياسة متماسكة وقادرة على الحصول على دعم شتى الاتجاهات المنشفية، فإن السلطة السوفياتية اتخذت حيالهم وحيال الاشتراكيين ـ الثوريين قراراً جوهرياً. ففي ١٤ حزيران ١٩١٨ أعلن مرسومٌ طرد مندوبي الطرفين من المؤتمر الروسي الكبير للسوفييتات ومن لجنته التنفيذية المركزية وطلب من السوفييتات المحلية والمنطقية بأن تفعل الشيء ذاته. هذه المرة، كانت المونوليتية الشيوعية، بتشجيع من سياسة المناشفة الانتظارية، وتحت تأثير سياسة الاشتراكيين ـ الثوريين المعادية بصراحة للثورة، قد خطت خطوة حاسمة.

بدءاً بصيف ١٩١٨، والتطورات السريعة للحرب الأهلية، عانى المناشفة المزيد من الصعوبة في تشكيل جبهة متناسقة نسبياً. على العكس، امكنت ملاحظة سلسلة من التباينات التي من الصعب التوفيق بينها والتي لم يكن الغياب التقليدي للتنظيم والانضباط يسمح بتاتاً بتخطيها. كان هنالك في الطرفين الأقصيين أقليات، إحداها بقيادة ليبر كانت تؤيد الكفاح المسلح ضد البلاشفة، وتشارك فيه عملياً في بعض الحالات(١٨٩). وقد حدث أن طردت لجنة الحزب المركزية الأعضاء الذين كانوا يشاركون في الثورة المضادة بنشاط، لكن لا يبدو أن هذا القرار طال كل المناشفة المعنيين، ولا جرى تطبيقه بالفعل، بوجه خاص، حيث استمر مناشفة مناهضون للثورة في المقاطعات يعتبرون انفسهم اعضاء في الحزب وممثلين له. وفي الطرف اليساري، على العكس، كان اتجاه أقلوي ينادي بتقارب مع السلطة السوفياتية وحتى مع الحزب الشيوعي، ويمارسه(١٩٠). وأخيراً في الوسط، مع تلاوين تيار الوسط ويمين الوسط التي ينطوي عليها هذا التيار بالضرورة، كانت غالبية اللجنة المركزية تتجمع حول شخص مارتوف الذي استعاد بعد عام ١٩١٧ وضع القيادي الذي كان خسره قبل اوكتوبر.

إن موقف مارتوف حيال السلطة البلشفية ـ وبصورة غير مباشرة، موقف اكثرية الحزب المنشفي ـ وصفه كاتب سيرة بعيد النظر وحسن الاستعداد بأنه «نصف صادق»(١٩١). لقد رأينا خصم لينين القديم يرعد ضده حين كان المناشفة لا يزالون يتمتعون بالشرعية. ومن قبيل المفارقة، أن يكون زعيم الحزب اقترب من النظام الشيوعي، ضمن بعض الحدود، بعد حظر هذا الحزب. جرى تحديد موقفه وموقف حزبه خلال فترة الحرب الاهلية إبانا كونفرانس

(*) هذه رواية إ. مايسكي، الشخصية المنشفية التي انتقلت الى صفوف البلاشفة، وقد رواها مجدداً د. ؟وتّان، مرجع مذكور، ص ٨٥.

عقـدته في موسكو اللجنة المركزية المنشفية واستمر خمسة ايام في نهاية شهر تشرين الاول ١٩١٨. فوفقاً للقرار النهائي، قررت القيادة المنشفية دعم حكومة لينين بمقدار ما تدافع هذه عن المكـاسب الثـورية، لكن الـوقوف ضد سياستها القاضية بالتشريك الفوري، وضد ديكتـاتورية الحزب البلشفي وضد ممارسة الارهاب. ولا يبدو أن مسألة معرفة ما إذا كان بالامكان الدفاع عن مكاسب الثورة دون اللجوء الى الارهاب استرعت انتباه المناشفة. مذّاك سيصبح هؤلاء المدافعين شبه المعتمدين عن «الشرعية السوفياتية» التي كانت الحرب الاهلية افرغتها من جوهرها(*)، كما رأينا، إلا أن هذا التحول كان له حدود دقيقة إلى درجة انه ليس من المؤكد انـه أمكن الجميع فهم مرمـاه. كان المنـاشفـة، في الواقع، يدعون انصارهم لـ «النضال من اجل استبدال النظام السوفياتي بجمهورية ديمقراطية»، لكنهم كانوا يضيفون فوراً بأنه لما كان شعار «السلطة للجمعية التأسيسية» أصبح يعبىء أنصار التفاهم(**) والثورة المضادة، بات من المستحسن التخلي عنه. وقـد اعلن الكونفراس، بالتالي، ان الحزب «مجبر على اعتبار النظام السوفياتي نقطة انطلاق معركته، وذلك كواقع وليس كمبدأ، في الوقت الذي يبقى فيه أميناً لفكرة السيادة الشعبية، والاقتراع العام والـ... جمعية التأسيسية». كان النص يتمنى اخـيراً ان يسمح تطور الوضع باستئناف النضال في وقت قريب لاجل الجمعية التأسيسية(١٩٢).

رغم تصنع هذا النص وتناقضاته، أحدث نشره أفضل انطباع لدى القادة البلاشفة، الـذين لم ينتـظروا ليصدر عنهم جواب: في ٣٠ تشرين الثاني، صدر مرسوم عن اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات يعلن «إعادة إضفاء الشرعية» على الحزب المنشفي. والمناشفة، من جهتهم، اطلقـوا نداء إلى البروليتاريا الاوروبية كي تقف ضد تدخل الدول الكبرى الغـربية في روسيا ودعـوا السكـان الـروس لزيادة دعمهم للجيْش الاحمـر في نضاله ضد «البيض»(١٩٣). من جهة اخرى ففي تلك الفترة - **لكن في تلك الفترة فقط** - أخذت اللجنة المـركزية للحزب المنشفي مسافة «نهائية» من أقصى يمينها الذي استمر يشارك بنشاط في الثورة المضادة.

ابتداء من عام ١٩١٩، وبصورة اكثر دقة من النصف الثاني من ذلك العام، عاد المناشفة إذاً إلى الظهور في السوفييتات، وإن بعدد محدود، واستطاعوا أن يدافعوا فيها عن أفكارهم، وإن بوسائل محدودة للغاية. وكمعارضة دستورية، طوروا سياستهم في اتجاهات ثلاثـة: الـدفـاع عن «الشرعية السـوفياتية» والنضـال ضد الارهـاب؛ المطالبة بالليبرالية

(*) انظر اعلاه، الجزء الثاني، ص ٢٩ وما بعدها.

(**) المقصود الدول الكبرى المتحالفة ضد المانيا (المعرب).

الاقتصادية؛ إعادة الاستقلال النقابي وحقوق الطبقة العاملة. إن مارتوف بوجه خاص هو الذي جعل من نفسه بطل القضية الاولى، ولاسيما في مؤتمر كانون الاول ١٩١٩ الخاص بالسوفييتات، حيث تدخل باسم حزبه بقوته وروحه السجالية المعتادتين من اجل فضح كل حالات الانتقاص من الشرعية التي كانت السلطة البلشفية تقترفها. ورغم فظاظة رد لينين عليه لقيت مداخلة مارتوف صدى لدى بعض الشيوعيين[١٩٥]. فقد طالب المناشفة على الصعيد الاقتصادي، في تموز ١٩١٩، بتليين «شيوعية الحرب». وفي كراسة جرى توزيعها علانيةً، أوحى الى المناشفة بإصدارها الاقتصادي لارين، وهو شخصية بلشفية مهمة، وكانت خطرت لهم الفكرة الطيبة بعنونتها **ماالعمل**؟، دعوا إلى سلسلة من تدابير اللَّبرلة التي كانت تشكل شعوراً مسبقاً بالنيب[١٩٦].

لكن المناشفة اشتهروا بشكل رئيسي، في عامي ١٩١٩و ١٩٢٠، بالدفاع عن المصالح العمالية وعن الاستقلال النقابي. والموقع القوي نسبياً الذي كانوا يشغلونه حتى عام ١٩١٨ في بعض المنظمات المهنية واهتمامهم بالحفاظ عليه رغم الضغوط والاكراه التي كانت تصدر في ظروف عديدة عن السلطات، يفسران سياسة الدفاع النقابي هذه التي اضيفت اليها إرادة حماية الطبقة العاملة ضد انحطاط شروط حياتها، وكلها اهتمامات متناسبة مع التوجهات التقليدية للمنشفية. وليس من شك في أن المناشفة استعادوا نوعاً من القاعدة ضمن الشرائح الكادحة، يساعدهم في ذلك الهبوط المتنامي في شعبية الحكومة وارتخاء التوتر الثوري الناجم عن نهاية الحرب الاهلية. وتشهد على ذلك النتائج التي سجلوها خلال بعض الانتخابات إلى السوفييتات. ففي عام ١٩٢٠، حصلوا مثلاً على ٤٦ تفويضاً في سوفييت موسكو، و٢٠٥ في سوفييت خاركوف، و١٢٠ في ييكاتيرينوسلاف، و٥٠ في تولا[١٩٧]. كان لديهم في موسكو مقرهم الرئيسي، وكانوا يوزعون بعض المنشورات بصورة شرعية، واتفق أيضاً أن تكلم الخطباء المناشفة في اجتماعات عامة، مظهرين التناقض مع ممثلي الحزب البلشفي. في آذار ١٩١٩، حضر أرتور رانسوم في موسكو، لقاء كشف تيودور دان خلاله «أن صيغة «كل السلطة للسوفييتات» باتت تعني الآن «كل السلطة للبلاشفة»، وعبَّر عن الرغبة في أن تكون للسوفييتات حقاً كل السلطة بدل الاكتفاء بدعم البيروقراطية البلشفية[١٩٨]». وحين كان تعسف بعض الهيئات المحلية يمنع الانتخاب ـ الذي كان يتم على درجات عدة ـ لشخصيات منشفية مهمة إلى مؤتمر السوفييتات لعامة روسيا، كان يحصل أن تتجاوز الحكومة البلشفية ذلك وتدعو هذه الشخصيات مباشرة للمشاركة في اعمال السوفييت[١٩٩].

إلا أنه ينبغي الامتناع عن تضخيم روح التسامح لدى الشيوعيين. فحتى خلال فترة شرعية المناشفة، تمتع هؤلاء بحرية بالغة الهشاشة وكانوا عرضة لتنكيدات وتمييزات وطرق

إرهـاب تأخذ شكل توقيفات سرعان ما يليها تدبير إخلاء سبيل، يبشر هو ذاته بقرارات تعسفية اخـرى(٢٠٠). يبقى أنـه، وفقـاً لتعابير كاتب سيرة مارتوف، «كان القمع المباشر، والتوقيفات واعمال الطرد من السوفييت هي الاستثناء لا القاعدة(٢٠١)». هذا التسامح المشوب بكسوفات أصيب بنكسة عنيفة في ايار ١٩٢٠ حين نظم نقابيون مناشفة لقاء على شرف وفد من النقابات البريطانية كان يزور العاصمة السوفياتية. كان ذلك مشروعاً؛ أما ماكان بلا شك أقـل شرعية وبـدا كاستفزاز، فهو كون منظمي الاجتماع قدموا منبرهم للاشتراكي - الثوري تشيرنوف ، المحارب القديم في الثورة المضادة الذي كانت الشرطة تلاحقه(٢٠٢) .
بقيت السلطات شهـراً قبل أن ترد ، لكنها ردت دون هوادة ، عامدة الى توقيف العديد من المنـاشفـة، لاسيما في الوسط النقابي. وسوف نلاحظ من جهة اخرى ان هذا التدبير القمعي تطابق مع الغزو البولندي ومع اندفاع الحرب الاهلية مجدداً الذي كانت له عموماً نتيجة كارثية على محاولات إعادة الحياة للديمقراطية(*).

إلا أنـه توجب انتـظار نهاية شتاء ١٩٢٠- ١٩٢١ لنشهد الالغاء المنهجي للحزب المنشفي. ويجد قرار الشيوعيين تفسيره بلا شك في الدور المهم لخصومهم في التعبئة وفي موجة الاضرابات التي حدثت في شباط ١٩٢١ في بتروغراد، قبل انتفاضة كرونشتاد مباشرة. هذا النشاط من جانب المناشفة، إذا كان ينطوي على ما من شأنه إزعاج الحكومة وحتى إثارة قلقها، لم يكن مع ذلك السبب الرئيسي لتصلب الحزب الشيوعي. لقد أدرك قادته، وعلى رأسهم لينين، في تلك الفترة، الانعزال الذي كانوا يوجدون فيه وهشاشة سلطتهم(**). ففي الـظروف الكـارثية، الاقتصادية كما السياسية، التي حكمت القمع الموجه ضد كرونشتاد وإدخال النيب، قرروا التوقف عن السماح بأية معارضة خارج الحزب الشيوعي وتضييقها الى حدود بعيدة حتى في إطـار الحـزب. لم يكن المنـاشفة الضحية الوحيدة ولا الرئيسية لهذه الاحداث؛ لكن هذه الاخيرة عنت خسارتهم، وقد كفت أسابيع عدة من التعسف المنهجي لشطبهم نهائياً من الخارطة السياسية لروسيا السوفياتية.

من حيث المبـدأ، إذا كان التعـايش بين لينينيين ومـاركسيين وفـوضـويين ومعادين للماركسية يصطدم بعوائق خطيرة، فإن تطور البلاشفة، وبوجه خاص تطور قائدهم عام ١٩١٧، كان قد أحدث تقارباً أشرنا اليه سابقاً(***)؛ لكن هذا التقارب قد حدث في حين كان البلاشفة، والفوضويون في المعارضة، منخرطين في معركة مشتركة من بعض النواحي ضد

(*) انظر أعلاه، الجزء الثاني، ص ٣٢.

(**) انظر أدناه.

(***) انظر اعلاه، الجزء الأول، ص ٢٦٤ وما بعدها.

البورجوازية الروسية. كيف ستتطور العلاقات بينهم انطلاقاً من الحين الذي سيجسد فيه الحزب البلشفي، المستقر في السلطة، في نظر الفوضويين، مبدأ سلطة دولانية كانوا يرفضونها بشكل أساسي، وواقع هذه السلطة؟ من الصعب للأسف تقديم صورة واضحة عن تلك العلاقات ـ إذا حاولنا على الأقل الاهتمام بما هو جوهري ـ بسبب تنوع الاتجاهات والتيارات التي كانت تنتسب إلى الفوضوية والتي كانت تعطي بعض الاحيان صورة عن تباينات عميقة فيما بينهم بحيث كان إطلاق تسمية مشتركة عليهم جميعاً يفقد في الواقع أي معنى.

لقد رأينا أنه كان هنالك تياران بين الفوضويين الروس، الفوضويون ـ النقابويون والفوضويون ـ الشيوعيون، والأخيرون كانوا يؤيدون نسبياً التعاون مع البلاشفة. لكن كان يضاف إلى هاتين المجموعتين المهمتين، واكثر من ذلك المتجانستين، تلاوين اخرى من الفوضويين، كالفوضويين ـ العموميين وسلسلة من الفوضويين الفردويين الصعب تصنيفهم. وفي الحد الاخير، كانت الفوضوية تنحل في تجمعات سريعة الزوال، ولا شكلية وقليلة التسييس، لكنها، تماماً كالفوضويين المنظمين نسبياً، تنسب نفسها إن لم يكن إلى المذهب، فعلى الاقل الى الفلسفة، لا بل الذهنية الإباحية البسيطة. وأخيراً، كان من الصعب التمييز في حالات عديدة نسبياً بين الفوضويين والعناصر المنحطة طبقياً من السكان تلك التي كانت تميل، في تلك الازمنة المضطربة، الى الخلط بين الالتزام السياسي ولصوصية ذات منحى رومانسي، والتي كانت تجد في فكرة الموت وواقعة اكتمالها الامثل[٢٠٣]. كانت الفوضوية، وبوجه خاص في تنويعها الفردوي، تقدم فضلاً عن ذلك مكوِّناً قوياً معادياً للثقافة كان يأخذ من حين لاخر تعبيراً هزلياً بصورة غير ارادية، كالاخوة غوردين الذين كانوا يعتبرون الكتب مثلاً ـ الكتب، على وجه العموم ـ كالـ «سلاح الشيطاني»، في حين ان حلقة فوضوية في خاركوف تسمى «المستقبلية» كانت ترفع الشعار الطموح: «الموت للحضارة العالمية!»[٢٠٤]. إن فيكتور سرج، الذي بسبب أصوله السياسية ورغم انضمامه إلى البلشفية، كان يحتفظ بعلاقات لا تنقصها الحرارة مع الفوضويين، يشرح كيف أنه «في تلك الفترة من القحط، كانت الديماغوجية الصادقة للدعاوين الفوضويين تلقى استقبالاً حسناً لدى العناصر المتأخرة من السكان[*]... كان الفوضويون يسلمون هم ذاتهم بأن عناصر مشبوهة ومغامرين، ومجرمي حق عام، ومعادين للثورة، كانوا يتكاثرون في صفوفهم، حيث أن المبادىء الفوضوية لا تسمح بإغلاق باب التنظيمات أمام أي كان، ولا بفرض أية رقابة

(*) ف. سرج، مرجع مذكور، الجزء ٣، ص ٩. وقد اعترفت شخصية فوضوية، الكسندر غاي، الى جاك سادول بان عناصر ملكية كانت قد امتزجت بالحركة الفوضوية. (ج. سادول، مرجع مذكور، ص ٢٩٦).

حقيقية على أي كان[٢٠٥]. إن وضعاً. . . فوضوياً إلى هذا الحد لم يكن من شأنه تسهيل التمييز الذي كان البلاشفة يزعمون القيام به بين الفوضويين «المثاليين» والآخرين[٢٠٦].

فضلاً عن هذه الاختلافات في المبادىء أو في أنماط الحياة، كان هنالك فرق آخر، من طبيعة اكثر ظرفية: كان الفوضويون الروس ينقسمون وفقاً لانفلاق واضح جداً في الظاهر، بين فوضـويين موالين للسوفيات وفوضويين معادين. كان الأولون يرغبون في التعاون مع النـظام الجـديد، ولو لأنهم كانوا يعتبرونه أهون الشرور. لكن هؤلاء الفوضويين الموالين للسـوفيات كانـوا يتـوزعـون بدورهم في تشكيلة متنـوعة من الولاء للسوفيات تتراوح بين الالتحاق شبه الحماسي والاستسلام الكئيب[٢٠٧]. أما المعادون للسوفيات فكانوا يبدون قوة لفظية اكثر ـ لكن كما سنرى غير لفظية وحسب ـ مما هي حساً بالفروق، داعين الشعب مثلاً إلى الانتفـاض ضد مصـاصي الـدمـاء ـ الاجتماعيين (المقصود البلاشفة ـ م. ل.) «الذين يشربـون دمكم»، و«تحولوا في كل حال إلى ملكيين[٢٠٨]». وأخيراً، فضلاً عن الفوضويين الموالين والفوضويين المعادين للسوفيات، كان هنالك الفوضويون الذين يرغبون في خوض النضال على جبهتين وكانوا يغنون هكذا التنوع العجيب في العائلة الفوضوية الكبرى.

أياً يكن أمـر هذه التبـاينات، والتمايزات والفروق، فقد رد الفوضويون في الاتجاه المعاكس لاستيلاء البلاشفة على السلطة في اوكتوبر. أعلن البعض على الفور ضرورة إعداد «ثـورة ثالثـة»[٢٠٩]. ونـظر الآخـرون ببعض المودة إلى سياسة البلاشفة بخصوص الرقابة العمالية ـ التي كانـوا هم بالـذات أنصـارها دون شروط ـ وبمودة أكيدة إلى موقف هؤلاء البـلاشفـة ذاتهم حيال الجمعية التأسيسية، المشنّعة بما هي تجسيد للديمقراطية البرلمانية. مستفيدين من الاحداث، تسنى للفوضويين، في كل حال، أن يعززوا صفوفهم، وذلك حتى شهر نيسان ١٩١٨، حين قررت الحكومة أن تخوض ضد مقرهم في موسكو عملية ضخمة، بعد حادث تورط فيه ممثل الصليب الاحمر الامريكي وكان من الصعب التمييز بين الفوضوية السياسية والفوضوية المغامرة. يضاف الى ذلك واقع أن بعض الضباط من منظمة معادية للثورة وجدوا ملجأ لدى الفوضويين الموسكوبيين[٢١٠]. وقد سال الدم وأوقف عدة مئات من الفوضويين، الذين صوَّرتهم السلطات كـ «عناصر مجرمة»، لكن عدداً كبيراً منهم أطلق سراحه على الفور[٢١١]. إلا أن هذا التدخل حفَّز ردود فعل من الاستياء لدى بعض البلاشفة، الذين صُدموا لأن الفوضويين «ساعدونا في ساعة الثورة[٢١٢]».

أدى هذا الحـدث إلى رحيل الكثير من الفوضويين إلى اوكرانيا التي كانت تشكل، بصـورة ما، الحصن المنيع للفـوضـوية في البلد. لكن في موسكو بالذات، خلال الحرب

الاهلية، بقيت باستمرار بقية مهمة من الفوضويين. ووفقاً لفيكتور سرج، كانوا يمثلون فيها، في خريف عام ١٩١٨، قوة مهمة وكانوا يفكرون في تفجير كفاح مسلح فيها ضد السلطة الشيوعية[٢١٣]. لأنه إذا كان عدد من الفوضويين الموالين للسوفيات يتعاونون مع السلطة البلشفية، فلقد كان آخرون ينصرفون لاعتداءات يستحيل إعطاء قائمة كاملة بها. فلنشر فقط إلى أن ثمة فوضويين شاركوا في الانتفاضة التي فجرها في تموز ١٩١٨ الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون(*)، وانهم في ايلول ١٩١٩، وبمساعدة اشتراكيين ـ ثوريين، فجروا مقر المنظمة الشيوعية للعاصمة خلال اجتماع مهم كان ينعقد فيها فتسببوا هكذا بمصرع ١٢ عضواً من اللجنة البلشفية المحلية. وقد سقط فضلاً عن ذلك اكثر من ٥٠ جريحاً كان بينهم بوخارين[٢١٤]. بالمقابل، حين اقتربت قوات يودنيتش المعادية للثورة، بعد شهر من اعتداء موسكو، انخرط فوضويون كانوا بالتأكيد من اتجاه آخر، في القوات العمالية التي اخذت على عاتقها الدفاع عن المدينة[٢١٥].

إلا أن المجابهة الاهم بين الشيوعيين والفوضويين حدثت في أوكرانيا، لكنها لم تكن مع ذلك الاكثر بساطة ولا الأشد مواطأة Univoque. وقد مرت العلاقات بين المعسكرين ـ كان المعسكر الفوضوي متمثلاً بوجه خاص بالجيش الفلاحي بقيادة نسطور ماخنو ـ بمراحل تعاون سريعة الزوال، يبررها حقد مشترك على القوات «البيضاء» القوية بشكل خاص في أوكرانيا، وبمراحل صدامات عنيفة سببتها رغبة القوات «الماخنوفية» في الاستقلال وإرادة الجيش الاحمر ان يفرض على الفوضويين سلطته الخاصة به، الممركَزَة في اوكرانيا كما في كل مكان آخر. انه ليس من الممكن ان تروى هنا تقلبات هذه الحرب الدامية التي كان الشيوعيون يُصفُّون فيها «البيض» و«الفوضويين»، فيما يبيد هؤلاء الاخيرون «الشيوعيين» (اي الكوادر البلاشفة) والمعادين للثورة، ويعمل هؤلاء الاخيرون على تصفية كل خصومهم اليساريين. كما لا يمكن أن نتفحص هنا ادعاء «الماخنوفيين» انهم اظهروا في اوكرانيا في بعض الاحيان «قدرة تنظيمية» يؤكدها فيكتور سرج[٢١٦]. إن حقدهم على كل حزب سياسي وواقع حظرهم (الاحزاب)(**) في كل مكان كانوا يقيمون فيه سلطتهم ـ وهذا الحظر كان يصيب دون تمييز المنظمات البلشفية وغير البلشفية ـ لم يسهل علاقاتهم مع الحكومة الشيوعية. فهذه الاخيرة، في اية حال من الاحوال، لم تكن مستعدة لان تسمح في اوكرانيا بوجود «سلطة مضادة» فوضاوية anarchique بلا شك بقدر ما هي فوضوية anarchiste. ففي تشرين

(*) انظر أدناه، ص ٦٧ ـ ٦٨.

(**) الاضافة من وضعنا (المعرب).

الثاني ١٩٢٠، تولى الجيش الاحمر التصفية الفظة لآخر قوات نسطور ماخنو، واضعاً حداً دموياً لحلقة من الثورة الروسية لم تجد مؤرخها(*) الحقيقي إلى الآن.

لحسن الحظ لا يسعنا القول هكذا بصدد مأساة كرونشتاد التي حللها المؤرخ الامريكي للفوضوية الروسية، بول افريش، في كتاب لا تسيء فيه المودة لقضية البحارة المتمردين، لا إلى دقة الرواية ولا الى صفاء التحليل[٢١٧]. إن ميزته ليست قليلة في حقل زيفت فيه الاهواء النقاش اكثر مما في أي مكان آخر. فاليوم ايضاً، بعد اكثر من ٥٠ عاماً على الحدث، يتواجه شيوعيون من شتى الأورثوذكسيات وتروتسكيون ذوو ولاءات متنوعة وفوضويون من كل التيارات ومن كل التلاوين بصدد كرونشتاد في سجالات نادراً ما تكون شريفة، وغالباً ما تكون صاخبة، ودائماً هي بلا جدوى تماماً، حيث يتفنن اللينينيون (النسخة «الشيوعية» والنسخة «التروتسكية») في التحايل على المشكلات ويمتنع «الفوضويون» عن طرحها بغير تعابير انفعالية. اما نحن فلا نستطيع للأسف عرضها هنا إلا بصورة مختصرة جداً، معتمدين بشكل رئيسي على المصدر الجدي بصورة استثنائية الذي يشكله كتاب أفريش.

لا يمكن الحكم على موقف السلطة الشيوعية حيال انتفاضة كرونشتاد دون وضع الحدث في سياقه من اجل تفسير السرعة التي تدخل بها البلاشفة ضد البحارة المتمردين، جرى التذرع بالفصل: حدثت الانتفاضة في بداية شهر آذار ١٩٢١ وكان اقترب الربيع وذوبان الجليد سيجعلان بعد قليل من القاعدة البحرية قلعة منيعة بالكامل وعصية على البلوغ. ومهما تكن هذه الاسباب وجيهة فهي تبدو ثانوية بجانب معطيات اكثر حسماً. ففي فترة تمرد كرونشتاد، كان وضع الحكومة السوفياتية في الواقع كارثياً. تكلم لينين امام المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي في الوقت الذي كانت تتم فيه الانتفاضة فوصف هكذا الحالة التي

(*) إن كتاب أرشينوف، **Le Mouvement makhnoviste**، باريس، ١٩٦٩، هو قبل كل شيء الرواية المتحزبة لمغامرة ولا علاقة له بالتحليل. اما مؤلَّف فولين la Révolution inconnue (١٩١٧-١٩٢١) الذي يبدو أنه يمارس هكذا إغراء، فهو يعاني، بصدد عملية الفوضويين الاوكرانيين وبصدد الثورة الروسية عموماً، من افتقار للجدية يقارب الفكاهة هو للأسف تَجلِّيه الوحيد. فماذا نقول عن كتاب يتكلم مثلاً على القمع البلشفي الموجَّه ضد الاشتراكيين - الثوريين اليساريين، في تموز ١٩١٨، دون التلميح بتاتاً إلى الانتفاضة المسلحة لهؤلاء الاشتراكيين - الثوريين، في حين كان ذلك القمع الرد المباشر والفوري (ص ٢٧٨- ٢٧٩)؟ ماذا نقول عن كتاب زعم من جهة اخرى إبان صدوره عام ١٩٣٦، ان «(تصنيع) روسيا ليس غير خديعة، لا اكثر» (ص ٣٧١)؟ اما نحن فاستندنا في روايتنا للصراع بين البلاشفة والفوضويين في اوكرانيا، لعدم توافر الافضل، الى هذين الكتابين، مكملين معلوماتها بمعطيات مأخوذة من كتاب بول أفريش، **The Russian Anarchists**.

كانت عليها القاعدة الاجتماعية الاساسية إذا لم تكن الوحيدة للسلطة السوفياتية: «إن بروليتاريانا مسقطة طبقياً في القسم الاعظم منها» بسبب «أزمات لا مثيل لها[٢١٨]» وبسبب «المجاعة القصوى»[٢١٩]. فضلاً عن ذلك وصف في الفترة ذاتها الطبقة العاملة بأنها «متعبة، منهكة، مستنفدة»[٢٢٠] وأضاف أنه «لم يكن ضيق هذه الطبقة بهذه الضخامة في يوم من الايام[٢٢١]». اما الارياف فكانت توحي للينين بقلق اعظم ايضاً. الم يكن يقدّر أن «أزمة الاقتصاد الفلاحي في أوجها[٢٢٢]»؟

وفي الواقع: كان عدد الفلاحين الذي يخوضون تمرداً مفتوحاً في منطقة تامبوف وحدها ٥٠ ألفاً، وفي أوكرانيا كانت عشرات عدة من الفصائل المسلحة بعضها يضم آلاف الرجال، تقاتل كذلك الدولة السوفياتية[٢٢٣]. والاضرابات الكبرى التي تمت في بتروغراد في نهاية شهر شباط ـ وقبل ذلك بقليل في موسكو بالذات ـ كانت تبينّ أن عمال الصناعة لم يكونوا بمنجى من التحريض. وأخيراً على الصعيد العالمي، كان الوضع غير مطْمَئِن إطلاقاً: فالصلح مع بولندا لم يكن قد وُقِّع بعد، ومع أن قوات الجنرال «الأبيض» فرانجل، المؤلفة من عشرات الألوف من الرجال، كانت قد هُزمت وأبعدت عن روسيا، إلا أنها بقيت متجمعة ومسلحة، وقادرة باستمرار على تحريك الحرب الاهلية من جديد.

هل يعني ذلك أنه لم يكن لدى حكومة موسكو وسيلة اخرى من أجل نزع سلاح الانتفاضة غير اللجوء إلى القوة؟ لا يمكننا أن نزعم ذلك. فالشخصيات الشيوعية التي أرسلت إلى كرونشتاد لإعادة النظام برهنت عن رعونة وتجبر، مورية الأهواء بدل تهدئتها. هل كان ذلك لأنها شعرت بنفسها في بيئة معادية، ونوعاً ما في أرض أجنبية؟ إن جمهور بحارة كرونشتاد كان قد تغير، في كل حال، عما كان في الفترة التي كان يشكل فيها رأس حربة الثورة. كان تركيبه الاجتماعي اكثر فلاحية بكثير مما في عام ١٩١٧[٢٢٤]. وهذا هو السبب في كل حال الذي من أجله كان بحارة القاعدة مذهولين بوجه خاص من بؤس الارياف. اما بالنسبة لحالتهم الذهنية، فلقد كانت مطبوعة اكثر من اي وقت آخر بميول فوضوية، كرفض الانصياع لأي سلطة، والرغبة في الحرية والاستقلال، وهو ماكان البلشفي ديبنكو، الذي كان يعرفهم جيداً حيث كان واحداً منهم لوقت طويل، يسميه «الذهنية المتمردة الأبدية للبحارة»[٢٢٥]. ويؤكد فولين، من جهته، أن الكرونشتاديين كانوا قد فكروا منذ تشرين الاول ١٩١٧ بعزل البلاشفة من السلطة إذا فكر هؤلاء بخيانة مبادئهم[٢٢٦].

كان انزعاج الشيوعيين قابلاً إذاً للتفسير بسهولة. يبقى أن الاتهامات الموجهة للمتمردين، المصوَّرين كمعادين للثورة، مرتبطين بالمناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين المهاجرين «البيض»، أو أن هؤلاء يحركونهم، اتهامات لا علاقة لها بالحقيقة. فالمناشفة من جهتهم وكانوا لا يزالون معارضة شرعية او نصف شرعية، رفضوا تأييد الانتفاضة[٢٢٧]. وقد

قدّم الاشتراكيون ـ الثوريون خدماتهم بواسطة تشيرنوف، لكنهم اصطدموا برفض على الاقل مؤقت[٢٢٨]. أمـا اوساط المهاجرين المعادية للثورة فكانت تهيّىء في الحقيقة عملية في اتجاه القاعدة البحرية التي بدا التحكم بها ثميناً بالنسبة اليها، إن لم يكن لا غنى عنه، من أجل إطلاق الحرب الاهلية من جديد، لكن لا شيء يشير الى ان بحارة كرونشتاد شاركوا في وضع هذه المشاريع أو عرفوا بها فقط. والنجدات المالية التي جمعها هؤلاء المهاجرون بالذات لم تصل الى الكرونشتاديين إلا بعد هزيمتهم، في معسكرات الاعتقال في فنلندا. على العكس، بعد سحق الانتفاضة(*)، عقدت «لجنة كرونشتاد الثورية المؤقتة» أو ما بقي منها اتفاقاً مع «البيض» في باريس، ووضـع قائـدها الرئيسي، البحار بتريشنكو، وكان رجلاً ذا ماضٍ مشكوك فيه(**)، وضع نفسه بنشاط في ربيع عام ١٩٢١ في خدمة «المركز القومي الروسي» الباريسي، منصرفاً إذّاك لصالح هذا الاخير الى نشاطات معادية للثورة في بتروغراد[٢٢٩].

إلا أن ماهـو جوهـري فيتعلق ببرنـامج الحـركـة الانتفـاضية وايديولوجيتها. كان برنامجها(***) يشمل مجموعة من المطالب السياسية المكمَّلة ببعض الشروط الاقتصادية. كان الكرونشتاديون يطالبون قبل كل شيء بإعادة الحريات، وإلغاء احتكار السلطة التي يقبض عليها الشيوعيون، وإعادة كامل الحقوق الى الفوضويين، و«الاحزاب الاشتراكية اليسارية» والنقابات؛ وبالاضافة الى انتخابات جديدة، على اساس الاقتراع السري، كان البرنامج يطلب أخيراً عودة الحرية الاقتصادية بالنسبة للفلاحين والحرفيين.

لن نتوقف هنا عند تقلبات المعركة بين القوات الشيوعية والبحارة المتمردين، وكانوا قوة عامية لا يلعب فيهـا الضبـاط اي دور وقد انضم اليها بلاشفة عديدون نسبياً. كان الصراع قاسياً والخسـائـر من الجهتـين عالية جداً. هل من اجل هذا السبب كان القمع الحكومي قاسياً ودموياً ودون رحمة، علمًا أن الكرونشتاديين امتنعوا عن لمس مئات الشيوعيين الـذين أوقفوهم قبل الهجوم النهائي(****)؟ بيد أنه يجب التساؤل أخيراً، مع بول افريش، إذا كانت حكومة ما، أياً تكن، «تستطيع التسامح طويلاً مع أسطول متمرد (١٥ ألف بحار

(*) حول العلاقات بين كرونشتاد والمهاجرين «البيض»، انظر افريش، ص ١٠٦ـ ١٢٣.

(**) كان عضـواً في الحـزب الشيوعي، لكن بعـد مغـادرته له اراد الالتحاق بمنظمة «بيضاء» رفضت خدماته. (المرجع ذاته، ص ٩٤ـ ٩٥).

(***) نصه الكامل في كتاب ب. افريش، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(****) اعدم الشيوعيون بعض سجنائهم وذلك بعد انتهاء الانتفاضة بأشهر: وجرى إرسال العديد من الكـرونشتـاديين الى معسكـرات اعتقال سوفياتية حيث وجدوا اقارب متمردين جرى توقيفهم كرهائن (المرجع ذاته، ص ٢١١ـ ٢١٥).

مسلحون جيدا، وسلسلة من السفن الحربية من بينها عدة مدرعات)، متمترس في قاعدة بحرية كانت تتطلع اليها الثورة المضادة بشهية لأنها كانت رأس جسر يمكن ان يفيد في غزو جديد؟[٢٣٠]».

لا تكمن مأساة كرونشتاد في القمع الذي كان خاتمتها بقدر مافي معناها السياسي. لقد وجدت حكومة السوفييتات نفسها مضطرة للاستدارة ضد رجال لم يكونوا يطالبون بغير تطبيق المبادىء التي شادت هذه الحكومة عليها سلطتها، وذلك في نهاية حرب اهلية ربحتها. وحاصل الكلام، هزيمة في الانتصار. لقد بذرت الاحباط والمرارة في صفوف الفوضويين الذين كانوا لا يزالون يتشبثون في روسيا، حيال كل شيء وضده، بأمل تعاون ممكن مع الشيوعيين[*].

يتميز **الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون** بهذه الخصيصة المهمة المتمثلة بأنهم كانوا الحزب الوحيد الذي تعاون في الحكومة مع الحزب البلشفي. كاتجاه ثوري داخل تشكيلتهم الخاصة بهم، لم ينشق هؤلاء الاشتراكيون الثوريون اليساريون حقاً إلا بعد ثورة اوكتوبر، ومنذ الاستيلاء على السلطة تطلع اليهم البلاشفة ودعوهم للدخول الى مجلس مفوضي الشعب[٢٣١]. وقد برهن لينين عن «صبر مذهل»[٢٣٢] حيالهم، مقدماً إليهم ثلاث مفوضيات من بينها مفوضية الزراعة، الأساسية، لكنه اصطدم برفضهم. وحين استقال ميليوتين، مفوّض الشعب البلشفي، من هذا المنصب بسبب خلافه مع اللجنة المركزية بشأن مشكلة الائتلاف[**]، عاد لينين فجدد العرض على الاشتراكيين الثوريين، لكن دون قدر أكبر من النجاح[٢٣٣]. ولم يعقد الاتفاق إلا أخيراً في ١٢ كانون الاول ١٩١٧، حيث حصل الاشتراكيون الثوريون اليساريون على سبع مقاعد مفوضين مقابل ١١ للبلاشفة. كما جرى تعيين اشتراكي ثوري يساري نائباً لرئيس التشيكا.

خلال الاشهر الثلاثة التي قضاها في الحكومة الاشتراكيون الثوريون اليساريون الذين كان انغراسهم بشكل رئيسي في الفلاحين المتوسطين[٢٣٤] وكانت اتجاهاتهم السياسية تذكر، من بعض النواحي، بنظريات النقابوية الثورية، لاسيما بسبب معارضتهم للمركزية، حاولوا بوجه خاص أن يمارسوا على شركائهم البلاشفة تأثيراً باتجاه الاعتدال[٢٣٥]. عبّروا عن تحفظات

(*) حين سمع القصف المدفعي الذي أعلن الهجوم البلشفي على كرونشتاد، تمتم الفوضوي الامريكي الكسندر بركمان، النصير النشط للتعاون مع الشيوعيين: «أحس أن شيئاً ما مات في داخلي». (أ. بركمان، The Bolshevik Myth (Diary 1920 -1921)، نيويورك، ١٩٢٢، ص ٣٠٣) كانت الملاحظة تتخطى شخصه.

(**) انظر **أعلاه**، الجزء الثاني، ص ٤٥.

ثوية بصدد استخدام العنف من اجل مقاتلة الثورة المضادة، مع انهم في هلسنكي، حيث كانوا يشرفون هم بالذات على جهاز القمع، لم يمتنعوا عن ايقاف الجريدة الاشتراكية ـ الثورية اليمينية وعن اعتقال رئيس تحريرها[٢٣٦]. من جهة أخرى، على صعيد القضاء، وعلى عكس البلاشفة، كان الاشتراكيون الثوريون اليساريون «يتمنون الابقاء على التشريع والقضاة الراهنين بأوسع قدر ممكن[٢٣٧]». وكان السبب المباشر لمغادرتهم الحكم عقد صلح بريست ـ ليتوفسك الذي عارضوه بشكل إجمالي وبعنف. بيد أنه جرى بذل جهود من أجل تخطي خلافات لم تكن تشكل بالكامل تبايناً بلشفياً/ اشتراكياً ثورياً يسارياً، طالما كان الخلاف موجوداً داخل الحزب اللينيني بالذات[٢٣٨]. ففي ٢٣ شباط ١٩١٨، في اللحظة الحاسمة من النقاش بصدد ملاءمة توقيع الصلح مع ألمانيا، عقدت الكتلتان البلشفية والاشتراكية ـ الثورية اليسارية في اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييت اجتماعاً مشتركاً لمحاولة ايجاد تسوية. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن المندوبين المفوضين في السوفييت دُعُوا كذلك الى هذا النقاش[٢٣٩]. وقد انضم اربعة من أصل المفوضين السبعة الاشتراكيين الثوريين اليساريين إلى الحل الذي دعا إليه لينين، لكن قيادة حزبهم تنصلت من موقفهم وجحدته[٢٤٠].

بعد استقالة «وزراء» الاشتراكيين الثوريين اليساريين، أبقى هؤلاء الاخيرون لبعض الوقت على علاقات ودية نسبياً، وفي كل حال على بعض اشكال التعاون مع البلاشفة. استمر ممثلوهم في حضور اجتماعات لجان اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييت المكلفة بوضع المشروع الجديد للدستور، وفي الاشراف على «اللجان الزراعية» في مقاطعات عديدة[٢٤١] وفي شغل وظائف مهمة في قيادة التشيكا[٢٤٢]. وإلى جانب اشكال التعاون المكشوفة تلك، كانت هنالك اشكال اخرى، سرية اكثر، لاسيما في تنظيم النضال ضد قوات الاحتلال الالماني في اوكرانيا[٢٤٣]. لاشك أن الوطنية المتغطرسة لدى الاشتراكيين الثوريين وارادتهم مواصلة حرب ثورية ضد المانيا كانتا تخلقان توتراً شديداً بينهم وبين البلاشفة. لكن ما انتهى إلى تدمير كل حظوظ الاتفاق أو المساومة إنما كان السياسة الزراعية التي مارستها الحكومة وبوجه خاص خلق «لجان الفلاحين الفقراء» وإرسال فصائل عمالية إلى الأرياف مكلفة بمصادرة المؤن هناك. فهذه التدابير لم تثر فقط معارضة الكولاك، بل أزعجت أيضا الفلاحين المتوسطين، وهم القاعدة الرئيسية للاشتراكيين الثوريين اليساريين. لقد احتج هؤلاء بعنف، لكن سُدىً. لقد حدثت القطيعة[٢٤٤].

وأية قطيعة! كثوريين حقيقيين، ورثة وخلفاء للتراث الارهابي لدى «النارودنيين»، أعطى الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون لمعارضتهم التعبير الاشد عنفاً. كان ذلك التعبير لفظياً في البدء: ففي المؤتمر الخامس للسوفييتات لعموم روسيا، في تموز ١٩١٨، حيث كان

ممثلوهم حاضرين بعدد كبير ـ ٣٥٢ مندوبا مقابل ٧٥٤ بلشفياً من أصل ١١٣٢ مؤتمراً[٢٤٥]، عمد أحد قادتهم، كامكوف، إلى «حض المؤتمر على توجيه التحية إلى الوحدات العسكرية التي خرقت الانضباط[٢٤٦]»، وصاحت بطلتهم ماريا سبيريدونوفا: «ثمة بيننا خلافات محتملة فقط، لكن بصدد المسألة الفلاحية، نحن مستعدون للقتال.» وقد أوضحت فكرتها هكذا: «ستجدون في يديَّ المسدس ذاته، والقنبلة ذاتها بحيث بت مضطرة من أجل الدفاع[٢٤٧]..». ولقد قوطعت في تلك اللحظة، لكنها كانت قد قالت مع ذلك الجوهري. وهي لم تتأخر. ففي اليوم التالي، اغتال الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون الكونت ميرباخ، سفير المانيا في روسيا، لأجل محاولة تفجير الحرب مجدداً بين روسيا والمانيا، وفي الوقت ذاته أطلقوا في شوارع العاصمة انتفاضة مسلحة موجهة ضد حلفاء الامس. هم أيضاً كانوا قد انتقلوا للتو إلى معسكر الثورة المضادة، ومن هذه الجهة كما من جهات أخرى كثيرة، كانت امكانية تعاون بين البلاشفة وغير البلاشفة قد صُفِّيت تماماً[*].

اللينينية والمعارضة

إذا تساءلنا حول المعنى المعطى حالياً لـ «مثال السوفياتي»، على الأقل في حقل المؤسسات السياسية، سوف نلاحظ أنه يتعلق إلى حد بعيد بوجود حزب واحد. إن العالم الشيوعي، في جناحه الاكثر تجديداً أو الأكثر تحريفية ـ حيث أن التشوش في التعابير بات متعذر الحل تقريباً في البلبلة الستالينية وما بعد الستالينية ـ يمكنه أن يتصور في مراحل جسارته مراجعةً لمفهوم الحزب الواحد، إعادة تحديد لدوره ووظائفه في المجتمع. إلا أنه لايعيد النظر مطلقاً في البلدان التي وصل فيها الى السلطة بالفكرة التي باتت كلية القداسة والتي مفادها ضرورة ذوبان سلطة الدولة في منظمة سياسية لامنافس لها أو على الأقل استنادها إلى تلك المنظمة. فلنفكر في التدخل السوفياتي في تشيكوسلوفاكيا. أية أشباح لوَّح

(*) فلنشر هنا الى انه، خلافاً لما كانت الحال في حزيران ١٩١٨ بالنسبة للمناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين اليمينيين، لم تجر تصفية الاشتراكيين ـ الثوريين من السوفييتات في تموز. فقسم مهم نسبياً أيد حتى في تلك الفترة مواصلة التعاون مع البلاشفة. كما جرى الامتناع عن شمل الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين بموجة الارهاب التي اجتاحت موسكو في ايلول (انظر ادناه، ص ١٥٧)، لكن دورهم السياسي بات مع ذلك تافهاً تماماً (ل. شابيرو، **The Origins of the Communist Autarcy**، ص ١٢٣ ـ ١٢٦).

بها القادة الشيوعيون لتبرير عدوانهم ؟ شبح التهديد الالماني الغربي الذي لاتزال أمم اوروبا الوسطى والشرقية حساسة تجاهه، وشبح الولادة الممكنة لحزب اشتراكي ـ ديمقراطي جديد. ولـو أن هذا المشروع الأخير، وهو مشروع افتراضي، أبصر النور، يبدو أنه حسب تفكير السوفيات سيعني ذلك نهاية السلطة الاشتراكية والديمقراطية البروليتارية، ودون أدنى شك اللينينية. إن مفهوم الحزب الواحد هذا يشغل حيزاً عظيمًا في «المثال السوفياتي». ولقد جرى الخلط بسهـولـة بالغة بين هذا الأخير والانجاز السياسي والمؤسسي للينينية ـ أليس «المثال السوفياتي» في ذهن الكثير من أنصار الشيوعية واعدائها هو اللينينية الحية؟ ـ، بحيث كان مما لا غنى عنه التحليل الدقيق كفايةً للمعطيات التاريخية التي حكمت ظهور الحزب الواحد القابض على السلطة السياسية، في الاتحاد السوفياتي، في أيام لينين، وتوطيده.

إزاء الوضع الذي خلقته الحرب الأهلية الموجهة ضد البرجوازية التي أزيحت ليس فقط من السلطة بل إلى حد بعيد من الحياة السياسية بالذات بسبب ديكتاتورية البروليتاريا؛ وإزاء الموقف المعادي للثورة الذي تبنته بعض الأحزاب الاشتراكية ورفض هذه الأحزاب بالذات رفضاً شبه إجماعي في البداية القبول بشرعية النظام السوفياتي، إزاء ذلك ما هو الحل الذي نادى به لينين؟ هل وضع تحت ضغط أحداث لم يكن أحد قد تمكن من توقعها ـ انظروا الدهشة الغاضبة لواحد كسوخانوف الذي كان يعرف مع ذلك الاشتراكيين المعتدلين!ـ هل وضع نظرية عن السلطة السياسية تؤكد ضرورة حزب بروليتاري واحد؟ كلا على الاطلاق، ولو للسبب البسيط المتمثل في أن لينين وجد نفسه، انطلاقاً من الاستيلاء على السلطة، في حال الاستحالة شبه الفيزيائية وشبه المادية لتصور أي نظام نظري، على وجه العموم. وبما أنه لم يكن عنده مذهب أوحت به الممارسة والعزلة بصدد السلطة، فلا يمكننا إلا أن نتبنى مسعى مزدوجاً: فمن جهة، أن نلاحظ أن لينين، في كتاباته وكلماته السابقة للثورة، لم يقترح يوماً نظاماً يشبه من قريب أو من بعيد نظام الحزب الواحد، ومن جهة أخرى، أن نتفحص كتاباته وكلماته وأفعاله السابقة لاوكتوبر ١٩١٧. فلنتذكر في هذا الصدد أننا رأيناه يقف في وجه دخول المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين اليمينيين الحكومة السوفياتية، بعد أن رفض هؤلاء فضلاً عن ذلك الاعتراف بسيادة السوفييتات، غير مكتفين بإظهار جبنهم على امتداد عام ١٩١٧ وبـالبرهان على انحيازهم الى البرجوازية. بالمقابل، بدا مهتمًا بضم المندوبين الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين، الذين قبلوا بالدولة الجديدة رغم بعض التحفظات، إلى فريق مفوضي الشعب البلاشفة.

صحيح أن المونوليتية لا تتمثل فقط ولا بشكل رئيسي في الابقاء على الخصم السياسي في المعـارضة، بل كذلك وبوجه خاص في حرمانه كل حق في التعبير أولاً وفي الأخير كل امكـانية للوجـود. والحـال أن السلطة السـوفياتية سلّمت بحرية التعبير بالنسبة للحزبين

الاشتراكي ـ الشوري اليميني والمنشفي، خلال أشهر عديدة. وقد اختفت هذه الحرية حين حُظِّر هذان الحزبان في حزيران ١٩١٨، بعد ظروفٍ وصفناها. حتى ذلك الحين، كانت صحافة المعارضة الاشتراكية (أو الاشتراكية سابقاً)، في أفضل الحالات مسموحاً بها وفي أسوأ الحالات وأكثرها تواتراً منكَّدة، لكن بالتأكيد غير مكمومة الفم ولا تحت الرقابة. فلنحكم على ذلك.

كانت الصحيفة الفوضوية في موسكو، **البورفستنيك** تعبر عن رأيها في نيسان ١٩١٨ بالشكل التالي: «لقد بلغ السيل الزبى! فالبلاشفة الذين فقدوا رشدهم خانوا البروليتاريا وهاجموا الفوضويين. لقد التحقوا بالجنرالات «المائة السود» وبالثورة المضادة البورجوازية. إن أوكتوبرنا نحن في متناول النظر[٢٤٨]». اما الصحيفة المنشفية اليسارية **نوفايا جيزن** التي كان يقودها ماكسيم غوركي فنشرت بين اوكتوبر ١٩١٧ وحظرها في تموز ١٩١٨، سلسلةً من المقالات النارية دون ان تتعرض مع ذلك لصواعق السلطة. كانت تندد بـ «بطلان وعود لينين. . . واتساع جنونه[*]» وتصف مجلس مفوضي الشعب بأنه «اوتوقراطية متوحشين». وكتبت أيضاً: «إن لينين ومعاونيه يعتقدون ان كل الجرائم مسموح لهم بها. . وفي سلوك لينين حيال حرية الكلام، بم يتميز عن ستوليبين وبليهفي وكاريكاتورات بشرية أخرى؟» وأخيراً وِدائمًا بصدد لينين: «إنه مجنون لا شفاء له يوقِّع مراسيم بصفة قائد الحكومة الروسية، بدل أن يخضع لمعالجة علمية بالماء تحت إشراف طبيب عقلي ذي خبرة.» والحال أنه **إلى يمين** هذه الصحافة كانت هنالك كل صحف الاشتراكيين ـ الثوريين اليمينيين والمناشفة «الأورثوذكسيين».

بعد هذا، لا نجد لدى لينين تصريحاً جازماً، وأقلّ أيضاً فكرة نظرية حول «حرية الصحافة» تماماً كما لا نجد شيئاً من ذلك بما يخص مسألة شرعية الاحزاب، ومن المؤكد أيضاً أننا لا نجد شيئاً من ذلك حول حق الوجود لصحافة معارضة أو حول إنكار مثل هذا الحق. فما خلا ملاحظات عرضية، مطلقة في حرارة مجادلة وذات طابع سجالي بالأحرى[٢٤٩]، علينا أن نستبقي بشكل رئيسي «مشروع قرار حول حرية الصحافة»، كتبه قبل أسبوع تقريباً من الاستيلاء على السلطة وجرى نشره بعد موت لينين بوقت طويل. جاء فيه أنه «عبر حرية الصحافة، تعنى حكومة العمال والفلاحين بتحرير الصحافة من نير رأس المال، وتحويل صناعة الورق والمطابع الى ملكية للدولة وإعطاء كل مجموعة من المواطنين يبلغ تعدادها رقمًا معيناً (١٠ آلاف مثلاً) حقاً متساوياً في استخدام جزء مقابل من مخزونات الورق ويداً عاملة مقابلة للطباعة[٢٥٠]». على الفور، طالب لينين بتقييد حرية الصحافة البورجوازية، مؤكداً

(*) هذا الاستشهاد والاستشهادات التالية مأخوذة من ب. سوفارين، مرجع مذكور، ص ١٨٤ـ ١٨٥.

أمام اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات: «لا يمكننا إعطاء البورجوازية إمكانية الافتراء علينا[٢٥١]». ولقد لقيت وجهة النظر هذه معارضة قوية بين البلاشفة بالذات، وحين عمد عضو مرموق في الحزب هو لارين، إلى تقديم اقتراح ينتقد التقييدات التي فرضتها الحكومة على حرية الصحافة، أمام تلك اللجنة بالذات التي كان يسيطر فيها مع ذلك الشيوعيون، لم يسقط اقتراحه إلا بأكثرية صوتين[٢٥٢].

إذا أردنا أن نلخص مواقف لينين الاكثر منهجية في هذا الصدد، سوف نشير إلى أنه كان يربط مشكلة حرية الصحافة بمشكلة الحريات السياسية عموماً، وانه كان يحكم على هذه الاخيرة تبعاً للحرب الاهلية(*)، وأنه بصورة أعم كان يتبنى في هذا الحقل وجهة نظر طبقية، معتبراً أنه ينبغي الدفاع عن «الحريات» والديمقراطية **ليس** للجميع بل **لأجل** الجماهير الكادحة والمستَغَلة ضمن مصلحة تحريرهم من نير الاستغلال[٢٥٣]»، ولا شيء في كل ذلك كان يستتبع الحظر المنهجي والنهائي لصحافة اشتراكية معارضة. وإذا كانت التدابير التي اتخذتها السلطة البلشفية خلال الحرب الأهلية ذات صرامة وتجريبية مفعمة بالأخطار، لا يسعنا الحكم عليها جدياً إذا عزلناها عن سياقها وإذا لم نحاول مدَّ الملاحظة إلى حالات اخرى غير حالة حكومة الشيوعيين. إذا تفحصنا مثلاً حالة الاشتراكية ـ الديمقراطية الالمانية، التي ولدت ونمت في مناخ من حرية التعبير الواسعة وكانت ضمنت لاتجاهاتها الاكثر تنوعاً الحق في الوجود وحتى في التفتح، يدهشنا ان نلاحظ أن قيادتها ضمن ظروف أزمة سياسية خطيرة بوجه خاص لم تول «حرية الصحافة» اهتماماً أكبر من اهتمام القادة الشيوعيين الروس. ففي الحرب العالمية (الأولى) وحتى قبل الوصول الى السلطة، صادر ايبرت ورفاقه في «الفورستاند»، عبر استخدام العنف حقاً، صحف الاتجاه الاشتراكي اليساري التي كان هذا الاتجاه يشرف عليها منذ زمن طويل[٢٥٤]. وحين استقر القادة الاشتراكيون ـ الديمقراطيون هؤلاء في السلطة في تشرين الثاني ١٩١٨ بذلوا ما أوتيهم من جهد لمنع اصدار الصحف السبارتاكية والاشتراكية المستقلة اليسارية، خلال تطور الأزمة الثورية[٢٥٥]. والاوضاع ذاتها تستدعي غالباً ردود الفعل ذاتها ولا تهتم كثيراً بالايديولوجيات. لماذا عندئذ اتهامُ اللينينية، بما هي كذلك؟

تستحق حالة الثورة الالمانية في تشرين الثاني ١٩١٨ التوقف مرة أخيرة عند مشكلة حرية الصحافة واستخدامها في فترة ثورية. إنها تبيّن في الواقع إلى أي نتائج كارثية بالنسبة للاشتراكية يمكن أن يقود وجود احتكار واسع للصحافة، بالفعل إذا لم يكن قانوناً، تستفيد

(*) «حين يكون البلد في خطر، ويصل كولتشاك حتى الفولغا ودينيكين حتى الاورال، لا يمكن ان تكون هناك أية حرية»، هذا ما أعلنه لينين في ايلول ١٩٢٠ (ج٣٢، ص ٢٠٩).

منه البورجوازية في حالة الأزمة على مهل، هذا كي لا نتحدث عن فترة اقل اضطراباً. ففي تشرين الثاني وكانون الاول ١٩١٨، في حين كانت الحركة الثورية والاشتراكية تصطدم بأعظم الصعوبات من اجل إصدار صحافة بالغة البؤس في الحاصل، استفاد مشروع معادٍ للشيوعية من إمكانات مالية مهمة وَضَعها تحت تصرفه الدوتش بنك بهدف نشر أدب يهاجم حكومة السوفييتات ويندد بالخطر الاحمر. وقد صدرت أيضاً مئات آلاف المنشورات التي كان مندِّداً فيها كيفما اتفق بالارهاب الشيوعي، والفوضى الثورية والتهديد اليهودي و«روزا - الدموية[٢٥٦]». وكما يلفت بيير برويه الانتباه إليه في كتابه حول الثورة الالمانية: «منذ تشرين الثاني، وبفعل شعار «حرية الصحافة» الذي جوَّقه(*) الاشتراكيون - الديمقراطيون والقوى الداعمة لهم، بقيَ الاعلام بين أيدي القوى المعادية للعمال. ففي حين استمرت في الصدور الـ **فوسيشي زايتونغ وبرلاينر تاجيبلات، وكروز زايتونغ والصحف الاخرى** (هذه الصحافة بالذات التي سوف تصفق لاغتيال كارل ليبنخت وروزا لوكسمبورغ وتقدمه على أنه التصفية السماوية لمجرمي حق عام[٢٥٧] - م. ل.)، تغذيها إمكانات مالية مهمة، كان على المنظمات العمالية الثورية التي لا تستطيع الاعتماد إلا على مساهمات الشغيلة أن تصمت أو ألا تعبر عن رأيها إلا بوسائل غير كافية بتاتاً في مواجهة الائتلاف الذي يسحقها بوزنه.. وهكذا نفهم أنه ضِمن هذه الشروط أمكن... كل الصحف تقريباً أن.. تجوِّق حملة منهجية لإفقاد مجالس العمال والجنود حظوتها[٢٥٨]».

لاشك أن تدابير الحظر والتخويف التي اتخذها البلاشفة ونادى بها لينين لا تقدم حلاً للمشكلة الفعلية جداً التي تطرحها حرية الصحافة في الفترة الثورية. لكن تقديم هذه التدابير على انها الدليل على إرادة توتاليتارية متعمَّدة، إنما هو إغماض العينين أمام ما تشكله حقيقةُ ثورة. وهذا يعادل نصح الثوريين، كرد على الضغط الكثيف من جانب البورجوازية (كي لا نقول شيئاً عن عنفها)، بفضائل الزهد والاستسلام والتواضع الفرنسيسكانية.

إن الصحافة هي ناقلة آراء ومصالح، ووسيلة التعبير بالنسبة لمنظمات، ولاسيما منظمات سياسية، وإن موقف لينين حيال هذه الأخيرة هو الذي يهمنا بشكل أساسي، ومن المفهوم أن دراستنا لن تتناول إلا الاحزاب والتيارات التي تنسب نفسها الى الاشتراكية، وهذا أمر طبيعي في فترة حرب اهلية وبالنسبة لنظام ديكتاتورية بروليتاريا. ومن هذه الناحية، يشكل موقف لينين حيال الفوضويين حالة على حدة. ويقدر إ. هـ. كار بهذا الصدد وبصورة عامة أنه «منذ عهد **الدولة والثورة**، أبدى لينين حياهم نوعاً من الحنان[٢٥٩]».

(*) جوَّقه: بمعنى نظم الالحان لجوقة، أو لَحن لجوقة (المعرب).

وإذا كانت صياغة البروفسور كار مشكوكاً بها هنا، فرأيه مبّرر بالكامل في العمق. لاشـك أن لينين، مؤكداً أحكاماً سابقة، أكّد في ربيع ١٩١٨، **في المهام الفورية لسلطة السوفييتات** ان الفوضوية وكذلك، الفوضوية ـ النقابية، كانت «اتجاهاً بورجوازياً.. في تعارض حاسم مع الاشتراكية، وديكتاتورية البروليتاريا والشيوعية»[٢٦٠]، لكن هذا الحكم يفاجئنا إذا قارناه بالعديد من التأكيدات الرحيمة أو المجاملة أو حتى المحابية جداً للفوضويين، إذا لم يكن للفوضوية. ففي كانون الثاني ١٩١٨، كان لينين قد تكلم على «تيار جديد جداً من الفوضوية يصطف بوضوح إلى جانب السوفييتات»[٢٦١]. لكن في آب ١٩١٩ بوجه خاص، وفي رسالة موجهة إلى سيلفيا بانخورست، أبدى لينين تعاطفه مع نوع من الفوضوية: «إن عدداً كبيراً جداً من العمال الفوضويين يصبحون الآن الأنصار الأكثر صدقاً لسلطة السوفييتات، وبما أن الامر هكذا فهذا هو الدليل على أنهم افضل رفاقنا واصدقائنا، افضل الثوريين الذين لم يكونوا اعداء للماركسية إلا بنتيجة سوء فهم، لأن الاشتراكية الرسمية، السائدة في عهد الاممية الثانية (١٨٨٩ـ ١٩١٤) كانت قد خانت الماركسية...»[٢٦٢]. وفي **مرض الشيوعية الطفولي**، عاد لينين إلى موقف الفوضويين حيال الاشتراكية قبل عام ١٩١٤ فسلّم بأن «الفوضويين لم يكونوا مخطئين حين شددوا على الطابع الانتهازي للأفكار بصدد الدولة التي تعبر عنها الاحزاب الاشتراكية[*]». وبما أن لينين اعترف بأن الانقسام بين اشتراكيين وفوضويين «بدأ يمّحي»، إذ أن الحركة العمالية «اتبعت في كل البلدان توجهاً جديداً» ليس «توجه الفوضويين ولا توجه الاشتراكيين[٢٦٣]»، فقد دعا العمال الفوضويين بصورة جد منطقية إلى الانضمام الى صفوف الاممية الثالثة، معتبراً حتى أن «نجاحات عمل الاحزاب الشيوعية حقاً يجب أن تقاس، بين ما تقاس به، بالمدى الذي تكون نجحت فيه في كسب العناصر الفوضوية غير المثقفة وغير البورجوازية الصغيرة، لكن البروليتارية والمرتبطة بالجماهير[٢٦٤]».

هذا التعاطف غير المقنّع حيال الفوضوية، الذي تجلى في فترة كانت فيها المعارضات للتيارات الاشتراكية الماركسية تصبح على العكس أشد عنفاً، لا يكفي مع ذلك لحفز تعاون منسجم نسبياً بين البلاشفة وشتى الاتجاهات الفوضوية. وهذا الاخفاق كان عائداً لتنوع

(*) لينين، **الاعمال الكاملة**، الجزء ٣١، ص ٢٨. في «الاطروحات حول مهام المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية»، سوف يتحدث لينين أيضاً عن «الحقد المشروع تماماً على انتهازية الاممية الثانية واصلاحيتها» الذي كان موجوداً لدى الفوضويين قبل الحرب العالمية الاولى. (**المرجع ذاته**، ج ٣١، ص ٢٠٤). حول الفوضويين، او الميالين للفوضوية في الاممية الثالثة، انظر ادناه، ص ٢٤٨ وما بعدها.

هذه الاتجاهات والتناقضات الحادة جداً التي كانت تجعل بعض الفوضويين يشغلون داخل السلطة السوفياتية مكانة خاصة، في حين أن آخرين، كما رأينا، كانوا يعارضونها بعنف وإزاء هذه التباينات، لم يكن لدى لينين من ملجأ آخر غير إقامة تمييز بين الفوضويين المثاليين و. . . الآخرين(*). إن تعاوناً مديداً بين الشيوعيين والفوضويين اصطدم فوق ذلك بالحاجز المزدوج للقدرة الشيوعية المتناقضة مع الضعف النسبي للفوضوية بالاضافة الى التنافر الاقصى لهذه الاخيرة. وكما سبق أن قلنا، كان لابد أن تنتج انتفاضة كرونشتاد وقمعها، من وجهة النظر هذه، قطيعة عميقة ودموية. إلا أنه يجب الاشارة انه حتى في كرونشتاد، برهن المتمردون على نوع من التعاطف مع لينين، في حين كانوا يكنّون لتروتسكي(**) حقداً عنيفاً. فبعد سحق الانتفاضة، حين استعاد الشيوعيون السيطرة على القاعدة، وجدوا مثلاً في المكاتب التي كان يحتلها الكرونشتاديون العديد من صور لينين(٢٦٥). ومن جهة ثانية فهذا الاخير حرص في ايلول ١٩٢١ على إطلاق سراح كل الفوضويين المعروفين نسبياً الذين لم يقترفوا اعمال عنف ضد السلطة(٢٦٦). من جهة اخرى، كان لينين قد التقى نسطور ماخنو خلال صيف ١٩١٨ وبدا مُصالحاً حياله وحتى ودياً، مؤكداً له انه «لو كان ثلث الفوضويين فقط مثله، لكنا مستعدين، وفقاً لشروط معروفة تماماً، للعمل معـ . . (هم) على البناء المشترك لمنظمة حرة للمنتجين(***)».

وليس أقل تعبيراً أن يكون لينين أقام علاقات مع كروبوتكين، مع أن هذا اتخذ خلال الحرب موقفاً وطنياً ودافع عن مشاركة روسيا في النزاع إلى جانب بلدان التفاهم. لقد التقى الرجلان أحياناً وتبادلا للأسف مراسلة غير معروفة كثيراً أو غير معروفة بتاتاً. ويقال إن لينين أبدى «الكثير من الاحترام» حيال الزعيم الفوضوي الكبير. وقد أعلن هذا الاخير ان الشيوعيين والفوضويين يلاحقون «هدفاً مشتركاً» لكن وسائلهم تختلف كثيراً، واقترح على محاوره أن يقدم له تقارير حول المظالم التي اقترفتها السلطات السوفياتية. وقد وافق لينين. وقد أُرسلت هذه التقارير بالفعل، وذلك حتى موت كروبوتكين، في شباط ١٩٢١(****).

(*) انظر اعلاه، الجزء الثاني، ص ٦١.

(**) ثمة أسطورة شائعة مفادها ان تروتسكي هو المسؤول عن قمع تمرد كرونشتاد، في حين انه لم يكن له علاقة بالقرار المباشر المتعلق بهذا الموضوع، وإن كان فيما بعد أوضح الاسباب التي تدفعه لاعتبار ما حصل في كرونشتاد أمراً كان لابد منه لمصلحة الثورة واستمرارها ولمصلحة قضية الطبقة العاملة، وبالتالي ابدى تضامنه مع القرار بقمع تمرد البحارة (المعرِّب).

(***) ب. افريش، **The Russian Anarchists**، ص ٢١١. نقل هذه الكلمات ماخنو بالذات.

(****) د. شوب، مرجع مذكور، ص ٣٨٤. كانت جنازة كروبوتكين مناسبة لمظاهرات هائلة، نظمها

فلنشر أخيراً إلى أنه كانت هناك عدة محاولات للتقريب بين الشيوعيين والفوضويين كان يمكن أن تصل خلال الحرب الأهلية إلى إضفاء الشرعية الكاملة على الحركة الفوضوية. وقد عمل على ذلك كامينيف وألفرد روسمر كلٌ من جهته. كان الفوضويون مطالَبين بأن «يراقبوا انفسهم بأنفسهم، ويقوموا بتطهير أوساطهم التي يعج فيها الحانقون، وغير الممكن ضبطهم، ونصف المجانين وبعض المعادين للثورة الحقيقيين غير المَتَخفّين جيداً». لكن كما يشير فيكتور سرج، فإن «معظم الفوضويين كانوا يرفضون باستهوال فكرة التنظيم والرقابة هذه.. كانوا يفضلون الزوال، وفقد صحافتهم ومقراتهم[٢٦٧]».

هكذا في حين كان موقف لينين حيال الفوضويين، غداة ثورة اوكتوبر وخلال السنوات الاولى للنظام السوفياتي، إرادة طيبة اكثر مما عصبوية، فإن سياسته حيال الاشتراكيين المعتدلين كانت على العكس على قدر كبير من التصلب. وهنا نصل إلى مسألة رئيسية: إمكانية تعايش بين الشيوعيين ومعارضة اشتراكية قبلت بالأسس الجوهرية للنظام السوفياتي كما فعل المناشفة، خلافاً للاشتراكيين ـ الثوريين، أنصار الثورة المضادة وروادها من بعض النواحي. والبديهي أن تعايشاً كهذا لابد أن يصطدم بعقبات كأداء. كان لابد للحرب الاهلية واحتدام العلاقات بين الطبقات وبين الاحزاب أن تقود الى تعزيز المتطرفين وتهدد بسحق كل اتجاه يحمل مشروعاً توفيقياً. تلك بالضبط كانت حالة المناشفة. وأن يكون تنافرهم ووجود تيارات يمينية في العائلة المنشفية المعقدة، (وأحياناً تيارات معادية للثورة)، المفاقمان بتراث طويل من التسامح وغياب الانضباط، أبرزا هذه الصعوبات، فذلك أمر لا يمكن إنكاره. ولينين لم يكن على خطأ بالكامل من هذه الناحية حين أكد أنه « لا يوجد فاصل واضح» بين اليمين واليسار المنشفيين وأنه «في حين يُقدم أفضل المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين بالذات على ادانة «يمينهم» لفظياً، يبقون عملياً عاجزين بجانبه، بالرغم من كل كلامهم[٢٦٨]». لكن يبقى انه لم يفعل شيئاً ـ بل على العكس ـ لتجاوز هذه العقبات ويبدو

= فوضويو موسكو الذين كان بعضهم قد أطلق من السجن لمدة ٢٤ ساعة ليتمكنوا من المشاركة فيها. لا بل يقال ان لينين بالذات عرض على عائلة كروبوتكين جنازة قومية له، لكن جوبه بالرفض. وقد ألقى الفرد روسمر في الجنازة، باسم الهيئة التنفيذية للاممية الثالثة خطاب تمجيد تجنب فيه اي تلميح سجالي، في حين لم يمتنع الخطباء الفوضويون عن مهاجمة الحكومة. ولقد طُبعت خطبهم ووزعت بصورة شرعية في ٤٠ ألف نسخة. وقد حولت السلطات منزل كروبوتكين الى متحف مكرس لذكراه. (ل. شابيرو، **The origins of the Communist Autocracy**، ص ١٨٧. أ. روسمر، مرجع مذكور، ص ١٤٥ ـ ١٤٦؛ ب. افريش، **The Russian Anarchists**، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨).

انـه رضـخ لذلـك بسهولة كبرى، حاشراً هكذا المناشفة في معارضة كان التسامح حيالها يتناقص بالتدريج، ومُقْصياً إياهم شيئاً فشيئاً عن كل قطاعات الحياة العامة.

كل شيء يشير في هذا الصدد الى ان مسار المؤتمر الخامس للسوفييتات(*) لعامة روسيا ساهم كثيراً في تدمير إمكـانـات تعايش بين الحكومة البلشفية والمعارضة. كان الخطباء الاشـتراكيون ـ الثوريون فيه عنيفين إلى درجة لا يسمح بها أي برلمان. بينما لقي الخطباء الشيوعيون، على العكس، كل ما في العالم من مصاعب لاسماع صوتهم. كتروتسكي، مثلاً، الذي يروي لويس فيشر أنه «دفع نفسه إلى المقدمة وحاول الكلام. (لكن) صياح السخرية كان يجبره على السكـوت...[٢٦٩]». امـا الخـطاب المعتدل مع ذلك، الذي القاه لينين، فهوامش التقرير الرسمي تشير بما فيه الكفاية الى اي جو القي فيه: «ضجيج»، «ضجيج متنوع»، «صرخات»، «الضجة تزداد»، «اضطراب»، «الضجة والصيحات تمنع الخطيب من المواصلة»، «ضجة خلال عدة دقائق[٢٧٠]». أما لينين، الذي تحاشى المساجلة، فخاطب حِلْم سامعيه[٢٧١]. صحيح أنـه، وفقاً لشهود الحدث، احتفظ بهدوء ملحوظ رغم العاصفة. وجـاك سادول، الـذي حضر تلك الجلسـات «المحمومة» و«المتغـطرسـة»، يصف موقف لينين بالشكل التالي: «في تلك الظروف المأساوية، وفي حين يعرف هذا الرجل أن ما هو موضـع الاتهام إنما هو كل عمله، فكره، حياته، فإن هذه الضحكة الواسعة، المتفتحة، الصادقة، التي يجدها آخرون في غير محلها، تعطيني انطباعاً عن قوة خارقة[٢٧٢].» ولويس فيشر ـ الذي ليس لديه مع ذلك أي صفة من صفات تقديس اللينينية ـ يروي من جهته على الشكل التالي: «يظهر لينين، سائراً ببطء، في مقدمة المشهد. يربِّت أثناء مروره على كتف سفـردلـوف (الذي كان يترأس المناقشات ـ م. ل.) ويطلب منه أن يضع جرسه الصغير جانباً وفيما يمسك بطية سترته، يواجه الحضور ـ مبتسمًا، مفعمًا بثقة عظيمة في النفس. يتم استقباله بالصياح والصفير. فيضحك بمزاج طيب. ثم يرفع يده، وبعد زمجرة أخيرة، تهدأ الجلبة[٢٧٣]»

إن هدوء القيادي الرئيسي في السلطة السوفياتية لم يمنع بلا ريب هذه الاخيرة من استخلاص نتائج هذا النقاش حيث قاربت الأهواء الهذيان أحياناً؛ لاسيما أن مساره تطابق مع تفجير انتفاضة الاشتراكيين الثوريين اليساريين. لقد كان المؤتمر الخامس الروسي الكبير للسـوفييتات آخر مؤتمر تحضـره المعـارضة. ففي المؤتمر اللاحق، بعد أربعة أشهر، كان هنـالـك ٩٣٣ منـدوبـاً شيوعياً من أصـل ٩٥٠ مشـتركـاً[٢٧٤]. منذ تموز، كان الصـحفي

(*) انظر اعلاه، الجزء ٢، ص ٦٧ ـ ٦٨.

الانكليزي فيليبس برايس قد شعر بأن جلسات المؤتمر الخامس كانت تشكل منعطفاً حاسماً في تاريخ الثورة الروسية. ويلاحظ برايس، مشيراً إلى الفرق بين المناخ الذي كان يسود في السوفييت قبل رحيل الاشتراكيين الثوريين اليساريين المنخرطين في انتفاضة مسلحة، وبعد هذا الرحيل، في الايام الاخيرة من الدورة، فيقول: «كان ثمة شعور بأنه مع الاحداث التي حصلت من ٤ إلى ٨ تموز، بدأت مرحلة جديدة تماماً في التطور الثوري، شبيهة بتلك التي ادخلها توقيع صلح بريست ـ ليتوفسك. كان ثمة إدراك لذلك في داخل المسرح الكبير (حيث كان السوفييت مجتمعاً ـ م. ل.)، حين استأنف مؤتمر سوفياتي مؤخر، بعد ظهر ٨ تموز، الاعمال التي توقفت قبل عدة ايام. . كانت تلاحظ بين المندوبين البلاشفة روح جديدة: «هاقد آن اوان العمل، مضى وقت الثرثرة!» هذا هو الانطباع الذي كان يُقرأ على كل الوجوه. «آن أوان تلقي الاوامر من فوق. كفى خطباً ونقاشات!» تلكم هي الروح التي طبعت منذ ذلك التاريخ الثورة الروسية». وأضاف برايس: «كل مجرى النقاشات، في ذلك اليوم وفي الأيام التالية، كان يكشف غياب ذلك الحماس الثوري الذي ساد خلال المؤتمرات الاولى وخلال المرحلة الاولى من المؤتمر الجاري. لم يعد هناك أحد ينهض ويصفق. على العكس، كان بريزيديوم(*) المؤتمر، المؤلف الآن من بلاشفة فقط، يكتفي بقراءة التقارير المتبناة، آلياً ودون نقاش»[٢٧٥].

لم يتدخل المناشفة بهذه الحوادث، مع أن زعيمهم مارتوف كان برهن في ظروف اخرى ان حدته لا تقل بأي شكل عن حدة بعض الاشتراكيين الثوريين اليساريين(**). وبوجه خاص، لم تكن لهم اية علاقة بالانتفاضة المعادية للثورة لهذا الحزب ذاته. لكنهم كانوا ضحايا ذلك، ومعهم الديمقراطية السوفياتية. إن السياسة الممارسة مذاك حيال المناشفة على يد اللينينية في السلطة يمكن اختصارها بالملامح التالية: الخضوع الكلي لضرورات الحرب الاهلية، الحقيقية او المفترضة؛ القناعة بأنه في هكذا فترة، يستحيل اتخاذ أي موقف حيادي؛ ممارسة خلطٍ شبه كامل بين المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين. والنقطة الاولى تستجيب لمنطق لا يُدحض وأكدها لينين مراراً[٢٧٦]. فإزاء متطلبات النضال ضد «البيض»، اكد ان التمييز بين مناشفة يساريين ومناشفة يمينيين يجب ان يزول؛ لقد أعلن خلال دورة المجلس المركزي للنقابات في نيسان ١٩١٨: «فلنسلِّم بأن اللجنة المركزية المنشفية أفضل من المناشفة الذين نُزعت أقنعتهم مباشرة في تولا كاستفزازيين، لا بل أنا لا أشك في أن قسماً من الاعضاء الأقرب الى اللجنة المنشفية هم أفضل أيضاً. لكن في النضال السياسي، حين

(*) البريزيديوم هو مجلس الرئاسة (المعرب).

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٥٤.

يمسكنا البيض على أعناقنا، هل من الممكن أن نقيم هذا التمييز؟ . . ربما بعد عامين، حين نكون قد هزمنا كولتشاك، سوف نوضح الأمور، لكن ليس الآن[٢٧٧]». من جهة أخرى، ازاء خطورة الوضع الذي وُجدت فيه السلطة الشيوعية مراراً، وفي مواجهة التطورات الهشة لكن المذهلة احياناً والحاسمة في الظاهر للثورة المضادة، رفض لينين التسليم بأي حياد في النزاع: «كل من ليس معنا هو ضدنا»[٢٧٨].

من البديهي ان النظام لم يكن مستعداً، في هكذا ظروف، للاستقبال الحسن لرهافة القرارات التي يصوِّت عليها المناشفة، و«للولاء النصفي» لدى مارتوف(*). إلا أن هذا لم يمنعه من ملاحظة الانعطاف الذي تم لدى المناشفة في تشرين الاول ١٩١٨ ومن تحية هذا الانعطاف كبادرة ايجابية، طالما انه «اعاد الشرعية» للحزب. لقد أوصى لينين بأخذ هذا «الانعطاف» بالحسبان وبـ «معرفة استخدامه»[٢٧٩]. وألح على ما يلي: «إن شعارات هذا الصراع (ضد الاشتراكيين ـ الثوريين والمناشفة ـ م. ل) غالباً ما تجمدت؛ أما اليوم فهي تحول دون أن نأخذ بالحسبان بشكل سليم المرحلة الجديدة ونستخدمها بحكمة، في حين أن منعطفاً جديداً قد ارتسم داخل هذه الديمقراطية (يتعلق الأمر ببعض العناصر الاشتراكية ـ الثورية وبالغالبية المنشفية ـ م. ل.) منعطفاً في اتجاهنا.» وخلص الى القول: «سيكون . . . أحمق ومثيراً للسخرية . . . الإبقاء على تكتيك القمع والارهاب ذاته حيال الديمقراطيين البورجوازيين الصغار[٢٨٠].» وفي كانون الاول ١٩١٨، أكد ما يلي: «لا يجب علينا أن ندفعهم (المناشفة)، بل يجب على العكس أن نستقبلهم، ونسمح لهم بالعمل المشترك معنا[٢٨١]. » إلا أن هذا العمل المشترك كانت له حدود دقيقة: «كان لينين يقبل في تلك الفترة إقامة «علاقات حسن جوار» مع المناشفة. لكنه كان يضيف في الحال: «إننا نعطيكم الشرعية طوعاً أيها السادة المناشفة» لكننا «نحتفظ لأنفسنا بسلطة الدولة، **فقط** لأنفسنا[٢٨٢].» لقد حصلت بصورة ما قسمة عمل بين المناشفة والشيوعيين: لهؤلاء السلطة ولأولئك الشغل العملي(**)، هذا على افتراض تعاونهم الصادق.

إن لينين لم يذهب أبعد، في أي يوم من الايام، على طريق المصالحة حيال المناشفة. على العكس، أعطى تروتسكي انطباعاً في مناسبة على الاقل بتصور تعاون اكثر مساواتية مع

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٥٩

(**) في آذار ١٩٢٠، دعا لينين كامينيف أن «(يرهق) بالمهام العملية» أناساً كدان ومارتوف، دان ـ الذي كان طبيباً ـ في مصالح الصحة، ومارتوف في مصلحة التموين. (لينين، **الاعمال الكاملة**، ج ٤٤، ص ٣٥٣).

حزب مارتوف. ففي معرض كلامه في كانون الاول ١٩١٩ امام مؤتمر السوفييتات لعامة روسيا، تكلم بالعبارات التالية: «إننا نقدر تقديراً جيداً للغاية أن تكون احزاب اخرى.. تنتمي للمعارضة.. عبأت عدداً من مناضليها للجيش. ولقد جرى استقبالهم فيه كإخوان». واستدار نحو مارتوف، معبراً عن «فرح حقيقي.. من دون أية سخرية، ومن دون أي فكرة مبطنة» لأنه «تكلم على جيشنا ونضالنا الأممي. لقد استعمل صيغة جمع المتكلم، وبذلك عزز قضيتنا سياسياً وأدبياً»[٢٨٣]. هل كان ذلك تجدُّد شباب روح المصالحة القديمة التي كان تروتسكي أبداها سابقاً حيال المناشفة؟ وبالنسبة للينين، الذي لا يقول أبداً الشيء ذاته، ألم تتوقف عقابيل الصراع الاخوي القديم؟ مهما يكن، فإن لينين عاد سريعاً إلى موقف قاس للغاية حيال مجمل الحزب المنشفي، وتعززت صرامته بمقدار ماكان انتهاء الحرب الاهلية يكشف حالة الخراب في البلد والانعزال المأساوي للحزب الشيوعي. ففي آذار ١٩١٩، صوَّر المناشفة أمام المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي على أنهم «أعدى اعداء الاشتراكية»[٢٨٤]. وفي كانون الاول ١٩١٩، في مؤتمر السوفييتات، وفي الوقت ذاته الذي حيى فيه تروتسكي الارادة الحسنة لدى مارتوف، صاح لينين، آخذاً على المناشفة تمنيهم عودة إلى الديمقراطية البورجوازية: «حين نسمع أناساً أكدوا تعاطفهم معنا تصدر عنهم هكذا إعلانات، نقول لأنفسنا: كلا، إن الارهاب والتشيكا لا غنى عنهما إطلاقاً![٢٨٥]». وهذا كان يتضمن على الاقل الايحاء بأن الارهاب والتشيكا يمكن أن ينقلبا ايضا ضد الحزب المنشفي. وفي نيسان ١٩٢١، استخدم في الضريبة العينية لغة أقل التباساً، معلناً أن المارتوفيين قد يُطردون بـ «صفعات على القفا»[٢٨٦]. ذلك أنه، مع إدخال النيب والازمة السياسية العامة لم يعد وارداً غير الاكراه والوحدة والانضباط، وحدة وانضباط، كما سنرى، بالنسبة للشيوعيين بالذات(*)، وإكراه حيال المناشفة: انطلاقاً من عام ١٩٢٢، أعطى لينين التعليمات مراراً إلى معاونيه، لاسيما إلى مفوضية الشعب لشؤون العدل، لتكثيف القمع ضد المناشفة[٢٨٧]، داعياً فوق ذلك المكتب السياسي إلى «نضال عنيد» ضد هؤلاء «الشركاء بالفعل الاكثر خطورة لزمرة الحراس البيض[٢٨٨]»، وموحياً من جهة اخرى «بتطبيق عقوبة الاعدام (الممكن استبدالها بالنفي الى الخارج)... على كل انواع نشاط المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين، الخ[٢٨٩]».

إن ما يفسر على امتداد تلك السنوات الموقف شبه السلبي بالكامل والارهابي في المناسبات، الذي وقفه لينين حيال المناشفة، إنما هو العداء وشبه النفور الذي كانت توحي إليه به نشاطاتهم الرئيسية. كان يأخذ عليهم بوجه خاص نزعتهم الشرعوية وإدانتهم للارهاب

(*) انظر أدناه، ص ١٢٥ وما بعدها.

في وقت لا يمكن غير القتال الشرس ضد الرجعية ان ينقذ النظام(٢٩٠)، وبصورة اكثر عمومية ايضاً ترددهم المتواصل الذي «يقودهم الى خدمة كولتشاك(٢٩١)» ـ، وتعرجات سياسة غير ثابتة ومتحايلة كان لينين يعزوها الى الطبيعة البورجوازية الصغيرة للقاعدة الاجتماعية المنشفية(٢٩٢). وبصورة اكثر ملموسية، كان المناشفة يثيرون حنق لينين بتحريضهم الاجتماعي وإرادتهم دفع العمال للجوء الى الاضراب من اجل الدفاع عن مصالحهم الفورية(٢٩٣). وكانت النجاحات التي يلاقونها في هذا الحقل تشهد على استعادة للشعبية كانت تجعلهم اخطر مما كانوا منذ اوكتوبر ١٩١٧(٢٩٤). من جهة اخرى، كان النشاط الذي يبذلونه في فترة الهزائم يهدد بزيادة حدة ازمة النظام. ولقد عمل ضعف الحزب الشيوعي بالذات، الواقع فريسة انقساماته(*)، على جعل الميزان يميل لصالح سياسة القوة: ما تبقى من الحزب المنشفي جرت تصفيته نهائياً.

لكن ما يذهل بوجه خاص في موقف لينين ويستدعي النقد الاكثر صرامة، إنما هو الخلط المستمر الذي مارسه بين المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين اليمينيين(٢٩٥). والحال أننا شددنا على الفروق التي كانت قائمة بين الحزبين بحيث ليس من حاجة لتبيان الخطأ الفادح في هكذا خلط. فبين دعم للثورة المضادة ومشاركة فيها من جهة، وموقف دعم نقدي، ومتردد ومتناقض وغير فعال للثورة، لكنه دعم مهما يكن، لم يجد لينين ما يدعو للتمييز. ونحن نفهم ذلك بالتأكيد حين كان يؤكد في تشرين الثاني ١٩٢٠ ان «نظام السوفييتات كان انهزم **بالتأكيد** لو ان المناشفة والاصلاحيين والديمقراطيين البورجوازيين الصغار ظلوا داخل حزبنا أو حتى باعداد أهم إلى هذا الحد أو ذاك في الاجهزة السوفياتية المركزية(٢٩٦).» أو بالأحرى، كان امكننا فهمه لو انه هنأ نفسه لكونه أبقى المناشفة خارج مراكز السلطة التي كانوا شلوها على الارجح او كبحوها في المعركة الثورية. لكن أن يكون أزاحهم بالكامل من الحياة السياسية في الاتحاد السوفياتي وصفّاهم كحزب فذلك، كان أمراً مشؤوماً بالنسبة للديمقراطيه الحزبية. هذه التصفية كانت في كل حال وبوجه خاص إحدى العلامات الاكثر خطورة للمرض الذي كانت تلك الديمقراطية مصابة به. كان هنالك في الواقع خطأ مزدوج وظلم مزدوج في الجمع بين المناشفة والاشتراكيين ـ الثوريين، الذين باتوا من جهتهم وبسبب انحطاطهم السياسي اعداء الثورة. طبعاً، كان الحزبان على علاقة جد وثيقة عام ١٩١٧. لكن غداة اوكتوبر، زاد الاشتراكيون ـ الثوريون بشكل محسوس من حدة اتجاهاتهم المحافظة بالتخلص من جناحهم اليساري، الامر الذي رمى بهم في احضان الثورة المضادة. أما

(*) انظر أدناه، ص ١١٢ و١٢٤.

المناشفة فهم على العكس قاموا بعد اقامة النظام السوفياتي بقليل بانعطافة الى اليسار عن طريق حشر قيادتهم اليمينية السابقة في موقع الاقلية وتحويل تيارها المعادي بشراسة للبلشفية الى اتجاه هامشي في الحزب. وهذا لم يكف بالطبع لجعل الحزب المنشفي منظمة ثورية. كان ينقصه لاجل ذلك حس التنظيم والميل الى الثورة. لكن هذا التطور أعاده الى ينابيعه الماركسية وجعله يستعيد بالتدريج اتصاله بالطبقة العاملة.

صحيح ان التقارب بين المنشفية والبروليتاريا تم في فترة جَزْرٍ ثوري. وإنها لظاهرة تناقضية من نواح كثيرة بالنسبة الى البلشفية، ان المنشفية ماكان في وسعها استعادة قاعدة اجتماعية وقدر من القوة إلا في فترة تراجع وهزائم، تماماً كما ان البلشفية ماكان يمكنها ان تتقدم الا في فترة مكاسب عمالية وانتصارات ثورية. صحيح ايضا وبصورة ملازمة انه انطلاقاً من عام ١٩٢٠ لم تجد المنشفية تجاوباً إلا لدى طبقة عاملة منحطة طبقياً، وفي كل حال مضعفة ومصابة بالاحباط. إلا أن هذا الظرف لا ينتزع شيئاً من واقع ان الحركة المنشفية، بمقدار ماكان يجري السماح بوجودها، كانت قد عادت تعبيراً سياسياً عن حقيقة عمالية. لكن بصورة تعسفية، كان لينين يصف المنشفية دون قيد او شرط بالبورجوازية الصغيرة، وكانت لديه في كل حال نزعة لان يراعي بوجه خاص البورجوازية الصغيرة الفلاحية - الاهم والى حد بعيد في روسيا - التي كانت تفلت من تأثير المناشفة. لقد كان هؤلاء بورجوازيين صغاراً فقط بمعنى انهم كانوا يعبرون عن التطلعات البورجوازية الصغيرة للطبقة البروليتارية المنهكة وخائبة الامل. لكن المنشفية كانت تفعل اكثر من ذلك: بالوسائل المحدودة التي كانت في حوزتها، ورغم الشروط الهشة التي كان عملها يتم فيها، وبالرغم من التعسف الممارس ضدها، كانت تحاول ان تدافع بقوة عن الشرط المادي للعمال. لقد كانت وراء العديد من الاضرابات، ومن بينها الاضراب الجماهيري الذي أطلقه عمال بتروغراد قبل انتفاضة كرونشتاد بقليل. لقد حكم لينين بأن تنظيم هذه الاضرابات كان معاكساً لمصالح الدولة البروليتارية(*). ومع ذلك كان قد اعترف بمناسبة الجدال الكبير الذي كرسه الحزب الشيوعي للنقابات(**)، بأن المكانة التي تشغلها البيروقراطية في النظام تبرر عملاً مطلبياً للمنظمات العمالية. ولم يجد احد حتى اليوم سر مطالبة عمالية فعالة من دون ممارسة الاضراب، مهما يكن النظام والفترة اللذين يقع فيهما هذا العمل. والحال ان النقابات العمالية كانت قد فقدت، كما سنرى، استقلالها حيال الدولة وباتت تتماهى اكثر فاكثر مع الحزب الموجود في السلطة.

(*) انظر ادناه، ص ١٨٠ - ١٨١.

(**) انظر ادناه، ص ١٨٢ - ١٨٣.

لقد حل المناشفة محل النقابات العاجزة والمبقرطة الى حد بعيد، ليس من دون محاولة الدفاع عن المزق الهزيلة للاستقلال النقابي التي كانت لا تزال موجودة. وكان لابد أن يساعدهم في ذلك ميلهم القديم الى النشاط المطلبي الاحترافي(*). ولقد كان لينين يستعيد نبرات جديرة بروبسبير - ولماذا لا نقول بورجوازية صغيرة - فيتهم أحيانا «المطالب التافهة» للطبقة العاملة الروسية، المصابة بالأنانية في حين أن سلطة السوفييتات - أو ما تبقى منها - لا يمكن إنقاذها إلا بروح التضحية. إزاء موجة الاستياء التي كانت تتضخم، غالباً ماكان رد فعل القادة الشيوعيين - وعلى رأسهم لينين - تعنيف الذهنية البورجوازية الصغيرة التي من البديهي جداً انها لم تختف ولم تنفك تمارس فتكها. لكن الحجة كانت سهلة وخطرة. إن السلطة اللينينية الواقعة في ضيق شديد لم تحاول يوماً بصورة جدية ان تركز آليات «دفاع اجتماعي» غير مؤسسات القمع في فترة الحرب الاهلية. وهي لم تسمح حقاً للطبقة العاملة بتطوير نشاط مطلبي مستقل بعض الشيء. ففي هذا الصدد، اختار لينين السلطة لا بل التسلطية.

لكن مع تحفظ واحد، وذي أهمية: لم يصوِّر يوماً ما اعتقد انه ضرورة على انه فضيلة ولا على انه نظام يجب أن يدوم حقاً. على العكس، تسمح بعض الملاحظات - العرضية في الحقيقة - بافتراض ان وجود تعددية احزاب كان يتطابق اكثر مع مشروعه السياسي. ففي آذار ١٩١٩، تكلم في مؤتمر الحزب الشيوعي فأعلن انه «لزمن طويل، سوف تقوم هذه الاحزاب (البورجوازية الصغيرة - م. ل.) حتماً بخطوة الى الامام وخطوتين إلى الوراء[٢٩٧]»، وبدا أنه يرضخ لهذا الواقع. وبصورة اكثر وضوحاً أيضاً، اعترف خلال مناقشات المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي عام ١٩٢١، - هذا المؤتمر بالذات الذي حدَّ من الحرية داخل المنظمة البلشفية(**) - بأن «الخيار» الذي ينطرح على السلطة لم يكن «أن تترك أو لا تترك الحرية» للأحزاب السياسية التي تنبثق من تطور «علاقات بورجوازية صغيرة». كتلك التي سوف تحفزها النيب بقوة. ولقد أوضح لينين مايلي: «هذه الاحزاب هي حتماً ثمرة العلاقات الاقتصادية البورجوازية الصغيرة؛ إن خيارنا ينحدُّ - وإلى حد ما أيضاً - بأشكال تركيز أفعال هذه الاحزاب وتوحيدها[٢٩٨]. » كانت الصيغة غير دقيقة وغير كافية بتاتاً، لكنها لا توحي بالتأكيد بإرادة التصفية النهائية لأحزاب المعارضة. إلا أنه إذا كان يستحيل أن نكتشف هنا مشروعاً توتاليتارياً ومونوليتياً، فإن عمل اللينينية ساهم في التسبب بتحقيق ذلك. لقد طرد المعارضة القانونية والشرعية للحزب المنشفي: وهذا خطأ **لا يمكن اصلاحه** تفسره الظروف المأساوية للحرب الاهلية لكن مبدأ الديمقراطية البروليتارية بالذات يمنع تبريره.

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ٥ ٥

(**) انظر ادناه، ص ١٢٥ وما بعدها.

في رأي بيير برويه، فكّر لينين في الأسابيع الأخيرة من حياته النشطة في إعادة الشرعية إلى الحزب المنشفي. لكن للأسف فهو لا يقدم أي توضيح في هذا الحقل المهم مع ذلك للغاية[٢٩٩]. ويؤكد فيكتور سرج، من جهته، بصورة جازمة أنه في أيار ١٩٢٢، «درس لينين وكامينيف عودة نوع من الحرية للصحافة»[٣٠٠]، دون أن يدعم هذا التأكيد. اما من جهتنا، فلقد أشرنا إلى أنه في تلك الفترة بالذات، دعا لينين، على العكس، إلى تشديد القمع ضد المناشفة. لكن هل حصل لديه وعي متأخر وشفاف لمضار المونوليتية المتنامية، بفضل المرض الذي أبعده عن السلطة وجعله يكتشف مساوئها الضخمة؟ لا شيء في كتابات لينين الأخيرة يسمح بتأكيد ذلك، على الاقل على قاعدة ما جرى نشره آنذاك ورغم الأهمية الكبرى والقيمة شبه النبوية لبعض تصريحاته. يمكننا على الاكثر الاشارة الى ان لينين، في تعميم وجهه في شباط ١٩٢٣ إلى سكرتيراته، طلب منهن ان يقدمن إليه تقريراً عن «الوضع الحالي» ولاسيما عن «الحملة الانتخابية، والمناشفة، والمعارضة، والنزاع القومي[٣٠١]». والاشارة رقيقة جداً بحيث لا يمكن ان نخلص منها بأي استنتاج، وأي فرضية قد تستخرج من ذلك النص هي ـ في الوضع الحالي لمعارفنا ـ تخمينية جداً وحتى مجانية. إلا أننا سوف نلاحظ أن هذه الملاحظة تعود الى الاسابيع الاخيرة من حياة لينين النشطة في وقت كان يحاول فيه القيام بهجوم اخير على بعض اشكال التعسف السياسي المؤذية بوجه خاص. تضاف الى ذلك بعض الوقائع المتعلقة بالعلاقات بين مارتوف ولينين وتطورها خلال اعتزال هذا الاخير ومرضه.

إن العلاقات بين لينين ومارتوف موضوع لا يجب ان يدرسه المؤرخ وعالم الاجتماع إلا مسلَّحين بنجدة علم النفس. إننا نعرف، دون ادنى شك ممكن، ان الزعيم البلشفي كان قد كنَّ لخصمه المنشفي إعجاباً وصداقة لم يكن يمنحهما عموماً إلا بالكثير من التقتير. ومع ازدياد حدة الصراعات بين الكتل وبين الاحزاب، توصل لينين احياناً الى معاملة خصمه بعنف لفظي لم يكن يقبل أي هوادة(*). حتى المواقف الاممية التي اتخذها مارتوف خلال الحرب ـ وإن كانت من تلوين «وسطي» ـ لم تكن كافية لتجعله بمنجى من هجمات متجددة، مثلما لم تنفعه معارضته للسياسة المحافظة التي اتبعتها عام ١٩١٧ قيادة الحزب المنشفي. فحين هاجم مارتوف لينين علانية بالتعابير القاسية التي اشرنا اليها(**)، رد في امكنة اخرى بأقذع الشتائم، غير مكتف بتصوير خصمه كـ «خادم للبورجوازية»[٣٠٢]، بل وصفه بـ «الاوباش»[٣٠٣] واتهمه بـ «النذالة المهذبة» وبـ«النفاق» و«الخيانة الدنيئة»، وذلك لأنه أكد أن الحرب الاهلية باتت تشق البروليتاريين بالذات[٣٠٤]. ومع ذلك...

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ٦٣.

(**) انظر اعلاه، ص ٥٧ ـ ٥٨.

مع ذلك، كان الموقف القاسي بشكل غير معقول يخفي عواطف ملتبسة وبالتالي حساباً سياسياً وآمالاً محبطة. فلوناتشارسكي في معرض كتابته عام ١٩٢٣، في فترة لم يكن من شأن التعبير خلالها عن أي تعاطف حيال مارتوف في روسيا السوفياتية، أن يعود عليه بالكثير من المودة، أكد أنه في ربيع عام ١٩١٧، كان لينين «يحلم بعقد تحالف مع مارتوف[٣٠٥].» والأكيد ان لينين أبدى في نهاية حياته اهتماماً حقيقياً بعدوه القديم. ففي تشرين الاول ١٩٢١، طلب مارتوف المصاف بسل سوف يموت به بعد عامين السماح له بمغادرة روسيا لحضور المؤتمر الذي كان سيعقده الحزب الاشتراكي الالماني المستقل في هال من اجل تقرير الانضمام الى الاممية الثالثة. ومع ان مارتوف كان ينوي التدخل باسم المناشفة لمحاولة منع ذلك الانضمام، فقد حصل على جواز سفره. كان المكتب السياسي للحزب الشيوعي قد دعا مع ذلك الى الرفض لكن التدخل الشخصي للينين قلب القرار[٣٠٦]. لم يعد مارتوف إلى روسيا بتاتاً، وتحت وطأة المرض استقر في برلين. وخلال شتاء ١٩٢١-١٩٢٢، أرسل لينين إليه أفضل طبيب في موسكو، آملاً أن يساهم ذلك في شفاء خصمه[٣٠٧]. ويروي كاتب سيرة مارتوف، على قاعدة ذكريات مفوض سابق للشعب في شؤون الزراعة، أن لينين «كان يهجس بفكرة الانضمام الى مارتوف. لما كان مشلولاً وفاقداً للنطق، كان يدل بإلحاح على أعمال مارتوف التي كانت موجودة على رفوف مكتبته[٣٠٨]». وتستحق شهادة كروبسكايا بلا شك ثقة اكبر، لكن حرية التعبير التي تمتعت بها في روسيا بعد وفاة زوجها كانت كذلك محدودة اكثر. تروي في كل حال أن «فلاديمير ايليتش كان مريضاً جداً حين قال لي يوماً، بلهجة حزينة: «يقال إن مارتوف هو أيضاً على وشك الموت». وقد اكدت ارملة لينين في تلك المناسبة ان زوجها كان يكن باستمرار لخصمه المنشفي مودة عظيمة[٣٠٩].

هذا الدخول العابر في التاريخ الصغير ليس غريباً عن إحدى اخطر المشكلات التاريخية التي تطرحها اللينينية: الاستحالة التي وجد لينين نفسه فيها للقبول بأن يوجد، الى جانب حزبه، تشكيل معارض كان كبح نمو المونوليتية أو منع هذا النمو. لقد صوَّر البروفسور كار هذه المونوليتية كظاهرة حتمية عملياً[٣١٠]. وربما كان هنالك أثر في هذا الرأي لحتمية جد صارمة. صحيح ان إمكانية تعايش بين تنظيم سلطة ثورية وبنية متنوعة ومرنة تسمح بأن تعبر عن نفسها معارضة شرعية للحزب الشيوعي اصطدمت بصعوبات خطيرة جداً يمكن أن يخلط المؤرخ بينها وبين حتمية لا مناص منها. لكن لينين كان قد برهن في مناسبات شتى أنه لا يرضخ لهكذا حتمية. ولو أن لينين فهم مابين ١٩١٨ و ١٩٢٢ ضرورة أن تحفظ كل ديمقراطية بروليتارية، كمكوِّن أساسي، حقوق الاحتجاج المعارضة، فهل من المستبعد أن يكون حاول مرة أخرى أيضاً قسر التشريطات الاكثر إكراهاً في الظاهر؟ لأن فيكتور سرج هو الذي على حق في الأخير حين يؤكد: إن الثورة، «لكي تُخدم بشرف. . يجب

أن تصـان دائـمًا من إساءاتها الخاصة بها، وتجاوزاتها الخاصة بها، وجرائمها الخاصة بها، وعناصرها الرجعية الخاصة بها. إنها إذاً بحاجة حيوية للنقد والمعارضة، والشجاعة المدنية لمنجزيها[٣١١]».

في الـواقـع، إن الـتصفية الكـاملة للمنشفية على يدي السلطة اللينينية أنتجت ضحية مزدوجـة: الاشـتراكية ـ الـديمقـراطية الروسية، في طبيعتها (متساوية الحدين) ـ ديمقراطية بورجوازية بإيديولوجيتها وبروليتارية بإنغراسها ـ وبجانبها **البلشفية بالذات** التي لم تقاوم حيويتُها فتكَ الاورثوذكسية والمونوليتية.

اللينينية والقوميات

إلى كل الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي كان يعاني منها في روسيا بناء مجتمع قطع صلته بالعالم القديم الرأسمالي، كانت تنضاف صعوبة تتعلق بمشكلة القوميات: ففي نهاية القرن التاسع عشر، كانت الامبراطورية القيصرية، باستثناء فنلندا، تضم سكاناً لا يبلغ العنصر الـروسي البحت، أي الروسي الكبير، ضمنهم، نصف المجموع، بل فقط ٤٤,٣٪[٣١٢]. كان إرث الماضي، في هذا الحقل، ثقيلاً بوجه خاص: كانت العلاقات بين الروس و«الامم الطارئة» تعاني من سياسة العنف والاضطهاد المنهجية التي كانت تمارسها في هذا الموضوع وموضوعات اخرى كثيرة السلطة الاوتوقراطية والرجعية. والحال أنه لأجل حل المشكـلات التي أثـارهـا تَسَاكُنُ شعوبٍ على هذه الدرجة من التنافر، لم يكن الماركسيون يستـطيعـون الاعتـماد إلا على إمكـانـات أممية مدفـوعة بطبيعتها إلى بخس أهمية مسائل القوميات. إلا أن لينين لم يقع في هذا العيب.

فخلال السنوات الاخيرة من فترة ماقبل الحرب، تشهد كتاباته على العكس على اهتمام متنام بمسألة القوميات. وبحفز من الوضع الذي اكتشفه في غاليسيا حيث أقام عام ١٩١٢، ومن المجابهات البلقانية الدامية، كلف ستالين الشاب بكتابة كراس، **الماركسية والمسألة القومية**، مفترضاً أن أصوله الجورجية تزوده بقدرات خاصة. ولا يبدو أن لينين اعتبر أجوبة ستالين مرضية بما فيه الكفاية. اعتبر في كل حال أن من الضروري أن يكرس هو بالذات العديد من المقالات وبعض الكراسات لمشكلة القوميات. ومجمل كتاباته تشكل كلاً متماسكاً ما فيه الكفاية، جسمًا مذهبياً يشغل في اللينينية مكانة مهمة.

هذا المذهب اللينيني في موضوع القوميات يستوحي بشكل واسع المبادىء العامة للديمقراطية، وينادي بـ «حق الامم في تقرير مصيرها» ويوضح أن هذا الحق يستتبع حق «الانفصال لتشكيل دولة مستقلة[٣١٣]». ويؤكد لينين، شارحاً موقفه في هذا الموضوع: «في كل مكان نرى (نحن الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ـ م. ل.) فيه روابط **إكراه** بين الامم، ندافع بحزم **ودون شروط**... عن حق كل امة منها في ان تقرر بنفسها مصيرها السياسي، اي في ان تنفصل[٣١٤]». لكن ثمة ملاحظتان تفرضان نفسيهما. إن الاعتراف بحق الانفصال هذا لا يعني انه ينبغي التوصية بممارسته. فملاءمة هذه الممارسة هي في الواقع مسألة «ينبغي أن يحلها الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي في كل حالة خاصة بصورة مستقلة كلياً، من وجهة نظر مصالح التطور الاشتراكي بكامله ومصالح النضال الطبقي للبروليتاريا من اجل الاشتراكية[٣١٥]». وكذلك بصدد الموضوع نفسه هذا التوضيح المهم: «البروليتاريا تقوِّم من زاوية النضال الطبقي للعمال كل مطالبة قومية، كل انفصال قومي[٣١٦]». ويدين لينين، بخصوص بلده الخاص به «سُمَّ النزعة القومية الروسية الكبرى... (التي) تسمم الجو السياسي لروسيا بكاملها[٣١٧]». ولتصحيح هذا الوضع، ينادي بـ «المساواة المطلقة لكل الامم وكل اللغات وبغياب لغة رسمية إلزامية» ويؤيد «احترام حقوق الاقليات القومية واستقلالاً إقليمياً واسعاً»(*). ولنحفظ أخيراً هذه الصيغة الجازمة: «أيمكن شعباً ان يكون حراً، إذا كان يضطهد شعوباً أخرى؟ كلا[٣١٨]».

إن تفجير الحرب العالمية والاضرار التي مارستها الشوفينية في الصفوف الاشتراكية بالذات كانت نتيجتها تعزيز القناعات الاممية لدى لينين وفي الوقت ذاته حقده على التجاوزات القومية. فمنذ ما قبل النزاع، كان قد أشار إلى «الخطأ المشترك بين اشتراكيي الأمم المسيطرة (الانكليز والروس)»: «عدم فهم واجباتهم كاشتراكيين حيال الامم المستعبدة[٣١٩]». ولقد وطدت تجربة الحرب من جهة أخرى القناعة بأن «اشتراكيي كل بلد (غير الانتهازيين) كان عليهم أن يروا عدوهم الرئيسي في شوفينيتهم (القومية)[٣٢٠]». ولقد فاقمت حقده على الشوفينية: «يجب النهوض بكل قوانا ضد الشوفينية الدنيئة»، هذا ما كتبه إلى مناضل بلشفي منذ ايلول ١٩١٤[٣٢١]. وبصدد ما تبقى، ففي العديد من الكتابات

(*) لينين، **الاعمال الكاملة**، ج ١٩، ص ٤٦٠. إلا أن لينين يرفض الحل الفدرالي («الماركسيون معادون للفدرالية ونزع المركزة للسبب البسيط المتمثل في أن تطور الرأسمالية يتطلب ان تكون الدول على اكبر قدر ممكن من الاتساع والمركزة»: **الاعمال**، ج ٢، ص ٣٩) وكذلك «الاستقلال الثقافي القومي» الذي يدافع عنه الماركسيون النمساويون لأن هذا الشعار يوحد البروليتاريا وبورجوازية الامة ذاتها ويشق بروليتاريا الامم المختلفة». «ينادي الاشتراكيون ـ الديمقراطيون بثقافة عالمية». (المرجع ذاته، ج ١٩، ص ١١٤).

المكرسة للمشكلة، لا تتبدل إعادة تأكيد حق الشعوب في تقرير مصيرها، وهي تتماهى مع حق الانفصال[٣٢٢]. لكن لينين يشير إلى أن هذا الحق «هو الوسيلة السياسية الفضلى والوحيدة التي تتيح الوقوف بوجه النظام الاحمق للدول الصغيرة والانعزال القومي[٣٢٣]». ليس هنالك في كل حال تناقض بين «حرية انفصال الامم» و«الدعاوة لصالح التقارب والاندماج بين الامم»[٣٢٤]. وأخيراً وبوجه خاص، يؤكد لينين بقوة من جديد الطابع المشروع للمطالب والحقوق القومية: «إن شتى مطالب الديمقراطية، بما فيها حق الامم في تقرير مصيرها، ليست حقاً مطلقاً، بل قطعة من مجمل الحركة الديمقراطية العالمية. من الممكن أن تكون القطعة، في بعض الحالات الملموسة، متناقضة مع الكل، عند ذلك يكون من الضروري نبذها(*)».

هذه هي المبادىء التي حاول لينين، في الظروف الصعبة لعام ١٩١٧ وللحرب الاهلية، أن يطبقها، مصطدماً في هذا الحقل كما في حقول كثيرة، بعدم فهم العديد من البلاشفة وبعدم موافقتهم. اما الحكومة المؤقتة فلم تبرهن أنها اكثر فعالية في مسألة القوميات منها في مسألة الاصلاحات الاجتماعية او السياسة الخارجية. كانت قد ردت بالرفض على مطالب «الطارئين» الاوكرانيين والفنلنديين ولم تكن ليبراليتها حيال بولندا لتفسَّر بالاستعدادات الطيبة للوزراء البطرسبورجيين بقدر ما بقوة الجيوش الالمانية التي كانت قد اخرجت هذا البلد بالكامل من تحت السلطة الروسية. إنه لعجز كامل: فكما كان يقول ممثل لإحدى الامم الشرقية الخاضعة لروسيا «لم تقدم ثورة شباط أي شيء جديد للشعوب الطارئة(**)».

لقد أدى انتصار ثورة اوكتوبر الى قطيعة كاملة مع هذا الموقف المطبوع بالنزعة القومية الروسية الكبرى. ففي ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، بعد أيام تقريباً من انتصار البلاشفة، كان «إعلان لحقوق شعوب روسيا» ينادي بـ «حق الشعوب في تقرير مصيرها» ويجعل من حق الانفصال حقاً ملازماً للأول[٣٢٥]. وقد تولى لينين الشرح والرد على الانتقادات التي كانت تثيرها هكذا سياسة: «يقولون لنا إن روسيا سوف تتقطَّع وتتفكك إلى جمهوريات متمايزة، لكن ليس لدينا ما نخافه من هذه الناحية. أياً يكن عدد الجمهوريات المستقلة، فلن يرهبنا

(*) المرجع ذاته، ج ٢٢، ص ٣٦٧. ويبرز لينين هذه الفكرة في مكان آخر: «أن يكون المرء نصيراً لحرب عامة في أوروبا من اجل إعادة إرساء بولندا فقط، إنما يكون عندئذ قومياً من أسوأ النوعيات». (المرجع ذاته، ص ٣٧٧).

(**) م. ليبمان، مرجع مذكور، ص ٢٦٣. من أجل جردة مختصرة للحكومة المؤقتة في حقل القوميات، انظر المرجع ذاته، ص ٢٦١ - ٢٦٣.

ذلك. فبالنسبة إلينا، ما يهم ليس المكان الذي تمر فيه حدود الدولة، بل الحفاظ على وحدة شغيلة كل الأمم». وأضاف بما يخص اوكرانيا: «نحن بلا تحفظ انصار الحرية الكاملة، غير المحدودة للشعب الاوكراني. . سنقول للاوكرانين: بصفتكم أوكرانيين، يمكنكم أن تنظموا الحياة لديكم حسبما تشاؤون. . .[٣٢٦]».

إلا أن استعدادات على هذه الدرجة من الديمقراطية لم تكف لحل مشكلة العلاقات بين روسيا التي باتت بلشفية والامم «الطارئة». وحالة فنلندا مثالية من وجهة النظر هذه. لقد اعترف مفوضو الشعب على الفور باستقلالها، مع أن الامر كان يتعلق بحكومة بورجوازية، لا بل معادية للاشتراكية، كانت تقود الأمور في هلسنكي. إلا أن تمرد عمال فنلندا، الجيران المباشرين لرفاقهم في بتروغراد ادى الى حالة حرب أهلية وسريعاًجداً إلى ظهور سلطتين متنافستين، إحداهما بورجوازية والأخرى بروليتارية لم تستطع روسيا السوفياتية إلا الاعتراف بها. وقد فعلت البورجوازية الفنلندية الكثير من أجل التنديد بهذا «التدخل» المعتبر غير متلائم مع حق الشعوب في تقرير مصيرها ولقد أدى تدخل القوات الالمانية إلى جانب هذه البورجوازية وسحق العمال الفنلنديين إلى وضع حد لالتباسات هذا الوضع[٣٢٧]. كانت مجابهة الطبقات فيما بينها قد أفسدت التطبيق الصرف للمبادىء الديمقراطية (البورجوازية) حول حق الشعوب في تقرير مصيرها. ولقد تأكد هذا التداخل فضلاً عن ذلك وتفاقم بنتيجة احداث اوكرانيا.

كانت النزعة القومية الاوكرانية تقدم، قبل الثورة، طابعاً بورجوازياً وثقافياً شبه حصري، وبين شباط واوكتوبر ١٩١٧ لم يكن الرادا (المجلس المركزي) قد طالب إطلاقاً بأكثر من الحكم الذاتي داخل روسيا لا مركزية. حتى غداة استيلاء البلاشفة على السلطة، اعلن القوميون الاوكرانيون أولاً إرادتهم الاحتفاظ بنوع من التبعية حيال الدولة الروسية. ومرة اخرى، قلبت الحرب الاهلية الداخلية ـ المعقدة كما في فنلندا بتدخل الدول الغربية الكبرى ـ معطيات المشكلة[٣٢٨]. لقد أبدى الرادا في الواقع انحيازاً كاملاً في الصراع بين «البيض» و«الحمر»، حيث كان الأولون يستفيدون من مسايرته ودعمه في حين كان الثوريون يصطدمون بعداء منهجي. أكثر من ذلك، هاجمت قوات تابعة للرادا العمال الذين سلحتهم السوفييتات الأوكرانية. ومنذ شهر كانون الاول ١٩١٧، كان ستالين، مفوض الشعب لشؤون القوميات، مجبراً على التصريح بما يلي: «إن التذرع بمبدأ حق تقرير المصير من اجل تقديم دعم لتمرد كاليدين (الأول، زمنياً، بين الجنرالات «البيض» ـ م. ل.) ونزع سلاح السوفييتات الثورية. . إنما هو من قبيل السخرية بتقرير المصير هذا وبالمبادىء الاساسية للديمقراطية[٣٢٩]». كان رد الفعل هذا مفهوماً لاسيما أن الرادا كان قد دخل في مفاوضات مع بعثة عسكرية فرنسية بهدف عقد اتفاق ما كان يمكن إلا أن يثير قلق البلاشفة. لقد أدى

تدهور العلاقات بين قوميي كييف والسوفييتات، اكانت روسية أو اوكرانية، إلى أن يقدم ستالين وصفاً مهمّاً لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها. فإذ تكلم في كانون الثاني ١٩١٨ أمام المؤتمر الثالث للسوفييتات لعامة روسيا، أكد أن «حق الامم الصغيرة في تقرير المصير يجب أن يُفهم كحق معترف به لا للبورجوازية، بل للجماهير الكادحة ويجب إخضاعه لمتطلبات الاشتراكية[٣٠]». وإنه لأمر واقع، في كل حال، أن تطبيق مبدأ تقرير المصير أُخضع، على امتداد تقلبات الحرب الاهلية وعقابيلها، لمتطلبات النضال من اجل حماية الثورة.

بما ان اوكرانيا القومية، مثلاً، لم تدن بوجودها سريع الزوال إلا لوجود الجيوش الالمانية وحمايتها، أو، بعد هدنة تشرين الثاني ١٩١٨، لوجود القوات الفرنسية وحمايتها؛ بما أن جورجيا، أبعد إلى الشرق، أعلنت استقلالها في أيار ١٩١٨، «إلى حد ما، بمبادرة من الالمان[٣١]»، وقبلت بالتتالي حماية الامبريالية الالمانية فالامبريالية البريطانية(*)، وأخيراً بما أن هذه الوصاية كانت تربط أمماً «طارئة» بدول تتدخل في روسيا إلى جانب المعادين للثورة، كان من المحتم أن تتأثر بذلك بعمق كل سياسة القوميات التي كانت تمارسها السلطة السوفياتية. يضاف الى ذلك واقع أنه في حالات عديدة كان مطلب الاستقلال رد فعلٍ ضد البلشفية اكثر مما كان التعبير عن إرادة قومية اصيلة. هكذا فإن الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الجورجيين الذين كانوا رفضوا، حتى عام ١٩١٧ استقلال امتهم[٣٢]، تركوا بين شباط وأوكتوبر الشؤون المحلية ليكرسوا أنفسهم بالأولوية للمشكلات الروسية كما كانت تُسوَّى في مكاتب بتروغراد وشوارعها. صحيح على العكس أنه من بعض النواحي سهَّلت الحرب الأهلية سياسة البلاشفة بصدد القوميات. إن التحاق شعوب «طارئة» بالحكومة السوفياتية نتج أحياناً عن الحقد الذي كانت تكنه للجنرالات «البيض»، الذين كانوا جميعاً متشبثين بالامبريالية والشوفينية الروسيتين الكبيرتين.

إن حل مشكلة القوميات تعقد أيضاً خلال السنوات الأولى للنظام السوفياتي باعتبارات أخرى كانت تتعلق بالاستعدادات الذهنية لدى البلاشفة بالذات. ذلك أن مُبادىء لينين لم تَلْقَ القبول من دون مقاومة عدد من أنصاره. وبين بعضهم ـ لاسيما بين الشيوعيين اليساريين ـ كان مبدأ تقرير المصير القومي يبدو كمطلب وإلهاء بورجوازيين قد

(*) هكذا في نهاية ١٩١٩، حين انسحبت القوات الانكليزية من جورجيا فعلت ذلك ضد رغبة قادة تفليس (انظر بايبس، **The Formation of the Soviet Union**، ص ٢١٩). هؤلاء القادة ذاتهم كانوا قد عرضوا على الاتراك تحالفاً ضد البلاشفة. (ل. فيشر، **The soviets in World Affairs**، ص ١١٧).

يحطهان الوحدة البروليتارية لصالح العدو الطبقي. كان رجال كبوخارين وبياتاكوف ورادك أقرب في هذا الحقل الى روزا لوكسمبورغ منهم إلى لينين. وفي الكراس الذي كرسته لوكسمبورغ للثورة الروسية، كانت قد هاجمت السياسة البلشفية بصدد القوميات، كما كان لينين لجح في فرضها على حزبه: «بدل الدفاع بالأنياب والمناجذ (هكذا) عن داخل الامبراطورية الروسية على أنه أرض الثورة، وبدل أن يطرحوا كقانون أعلى لسياستهم التماسك والوحدة التي لا تنفصم للبروليتاريين من كل القوميات على أرض الثورة الروسية على كل الاتجاهات الانفصالية القومية (هكذا)، قدم البلاشفة، على العكس، بهذرهم القومي المدوي حول حق تقرير المصير الذي يصل إلى حد انفصال الدول، قدموا للبورجوازية في كل البلدان المجاورة الذريعة الأثمن والاكثر تمنياً، التي تشكل الراية التي كانوا بحاجة اليها من اجل مناوراتهم المعادية للثورة[٣٣٣]». محدَّدةً هكذا، احتفظت «اللوكسمبورغية» بالعديد من الاتباع بين البلاشفة. وحين تأسست، غداة الاستيلاء على السلطة، مفوضية الشعب لشؤون القوميات، بدا حتى أن هؤلاء «اللوكسمبورغيين» كانوا أغلبية كبرى داخل تلك المؤسسة، في حين لم يكن يشارك لينين وجهة نظره، في القمة، غير ستالين(*).

وثمة اسباب اخرى ايضاً تفسر الموقف المركز للبلاشفة، وتحفظاتهم ـ أو عداءهم ـ بمواجهة المطالب القومية للشعوب «الطارئة» في روسيا. كان هنالك، بوجه خاص بالنسبة للمناطق التي يسيطر فيها الاسلام، قناعات إلحادية كانت روح المحافظة الاجتماعية للعديد من السلطات الدينية الاسلامية تساهم في تعزيزها. وفي المناطق التي كانت القيصرية تستعمرها في السابق، كان الروس ـ الكبار يجنّدون فضلاً عن ذلك داخل السكان العمال والمدينيين اكثر مما في الريف؛ كانوا يشكلون إجمالاً وبصورة جد نسبية عنصراً صاحب امتيازات بالنسبة للسكان الاصليين. والحال أن البلاشفة وجدوا أتباعهم بشكل رئيسي في هذا الوسط المتقدم اجتماعياً واقتصادياً. وفي آسيا، لم يستطيعوا أن يتحاشوا دائماً مواقف «الأبيض ـ الصغير» التي كانت تجابه المشاريع النازعة للمركزة الخاصة بالسلطة السوفياتية.

هكذا في كانون الثاني ١٩٢٢، حضت لجنة الحزب المركزية شيوعيي تركستان على التخلص من كل «انحراف كولونيالي»[٣٣٤]. هذا «الانحراف الكولونيالي» كان يمكن في بعض الاحوال ان يتخذ التعرجات الاكثر مدعاة للاحترام، الخاصة بأبوية كان لينين

(*) إ. هـ. كار، مرجع مذكور، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩. يشير هذا المؤلف الى ان الصحيفة الرسمية لمفوضية الشعب لشؤون القوميات نشرت في حزيران ١٩١٩ افتتاحية كان فيها دفاع حار عن افكار روزا لوكسمبورغ بصدد المسألة القومية.

يقـاومهـا. فحين سأله احد قادة جمهورية تاتاريا إذا «كان على شيوعيي الأمة التي كانت مسيطرة في السابق، الذين يتمتعون بمستوى أرفع من كل النواحي، أن يلعبوا دور مربٍ أو مربيات أطفال حيال الشيوعيين وكل شغيلة الامم التي كانت مضطهدة في السابق»، أجاب لينين باقتضاب بواسطة برقية: «ليس (مربي ولا مربيات أطفال)، بل مساعدين(٣٣٥)».

كان هنالك أخيراً كل العوامل التوحيدية والممركزة التي تنتج إما عن المشروع الأساسي للبلاشفة أو عن ظروف الحرب الاهلية. لقد تطور الجيش الاحمر وفقاً لنموذج روسي ومارس نفوذاً اكثر من عسكري(٣٣٦). إن التصنيع، المعتبر بداهةً عامل تقدم وتسوية، لعب بصورة شبـه ضرورية ضد تقاليد ومصالح محلية. وكما يروي تومسكي، كان يتبع الجندي الذي يصل إلى أراضي الإعمار تلك المندوبون والمرشدون الذين أرسلهم إلى المكان المجلس المركزي للنقابات الروسية(٣٣٧): هكذا كان يحدث تنميط ثقافي يتداخل في بعض الحالات مع حق الشعوب في «تقرير مصيرها»، ومثلاً مع مبدأ المساواة في اللغات الذي كان ينادي به لينين وبـرنـامج الحزب. كان هذا الأخير يصوِّت عبثاً على اقتراحات بهذا المعنى، الا انه كان يصـطدم بحقائق لم يكن ينجح الانضباط المذهبي في إلغائها دائمًا. فخلال مؤتمر ١٩٢٣ البلشفي، روى كريستيان راكوفسكي، وكان شيوعياً جدَّ «ليبرالي» وجدَّ «لينيني» بما يخص سياسة القوميات، روى حادثاً وضع موظفاً اوكرانياً كبيراً في مواجهة مناضل مغمور. كان المؤتمر قد صوت للتو على قرار يؤكد الحقوق الكاملة للغة الاوكرانية حين طرح المناضل سؤالاً - بالأوكرانية - على الكادر الشيوعي. فرد هذا الاخير بجفاف: «وجِّه إليَّ الكلام بلغة متحضِّرة!(٣٣٨)».

هكذا ذهنية، كانت تثقِّل أيضاً وزن شروط موضوعية غير مناسبة أحياناً، تفسر لماذا اصـطدمت المشـاريع نازعـة المـركزة للسلطة السوفياتية، بصورة منتظمة، بالارادة السيئة للشيوعيين «الـطارئـين». لقـد أنشئت، مثـلاً، عام ١٩٢١، جمهـورية القرم الاشتراكية السوفياتية المحكومة ذاتياً، ضد إرادة البلاشفة المحليين الممركزة. وقبل عام، كان شيوعيو قازان قد ارادوا إثناء لينين عن خلق جمهورية للتتار محكومة ذاتياً(٣٤٠). وكان شيوعيو بشكير حاولوا عملية مماثلة لمنع تأسيس سلطة حكم ذاتي في منطقتهم(٣٤١) وقد كانت حكومة موسكو هي التي تولت اخيراً فرض إنشاء جمهورية محكومة ذاتياً وسياسة تعاون مع العنصر الفلاحي الاصلي(٣٤٢) على السلطات السوفياتية في تركستان.

لقد تمثل عمل لينين في كل تلك الظروف في توصية أنصاره بفضائل الصبر والاعتدال والتفهم. ففي نص معد لنقاش البرنامج الجديد الذي وضعه الحزب البلشفي عام ١٩١٩، كان يلح بوجه خاص على «ضرورة الاقتراب من الشعور القومي بالكثير من الاحتياطات، والاهتـمام بعنـاية بتـأمـين مسـاواة الامم وحريتها في الانفصال بهدف قطع جذور الحذر

والحصـول على ان تتحقق طوعـاً وحـدة وثيقـة للجمهوريات السوفياتية من كل الامم».
ويضيف لينين: يجب أيضاً المساعدة عن طريق التعاون على تطوير اللغة والادب الخاصين بالقوميات التي كانت مضطَهَدة حتى ذلك الحين أو التي لم تكن تتمتع بحقوق متساوية[٣٤٣]».
ولم يكن هذا الاهتمام يتعلق فقط بالأفكار التي دافع عنها دائماً والتي بقي مخلصاً لها، حيال كل شيء وضده ـ وضد الجميع. كان يستلهم أيضاً متطلبات سياسية اكثر عمومية. وكما فسر لينين في رسالة إلى يوفي، كتبت في ايلول ١٩٢١: «بالنسبة لكل سياستنا الخاصة بالقوميات، من المهم لأبعد الحدود كسب ثقة السكان الاصليين... والبرهان على اننا لسنا امبرياليين، ولن نقبل بأي انحراف في هذا الاتجاه[٣٤٤]».

مهما يكن من تعليلات لينين، فهو لم ينفك يشجع احترام الحقوق القومية وتهدئة الحماس المركزِ الذي كان يعبر عنه عدد من انصاره. خاطب الشيوعيين الاوكرانيين مثلاً، بالشكل التالي: «لما كانت اتجاهات قومية ولّدتها قرون من القمع تتجلى لدى الشرائح المتأخرة من الجماهير الاوكرانية، فعلى أعضاء الحزب الشيوعي الروسي أن يبرهنوا عن أكبر الحذر تجاهها». وحول الموضوع نفسه أيضاً: «ينبغي معاكسة محاولة الرَّوسَنَة بكل الوسائل..» مثلاً، «سوف تؤخذ تدابير لكي تتزوَّد كل المؤسسات السوفياتية بِملاك يتكلم الأوكرانية، يكون عدده كافياً»[٣٤٥]. ويمكن مضاعفة الاستشهادات[٣٤٦].

لقد أظهر لينين استعدادات مماثلة في مشكلة العلاقات بين روسيا السوفياتية وجورجيا المستقلة. فرغم منازعات كثيرة جداً ومآخذ ثابتة، اعترفت الحكومة السوفياتية باستقلال جورجيا في أيار ١٩٢٠. والحال أنه في شباط ١٩٢١، احتل الجيش الاحمر تفليس ووضع حداً لهذا الاستقلال. تقرر غزو جورجيا بدون علم لينين وتروتسكي والمكتب السياسي للحزب البلشفي. وقبل قليل من شن الهجوم السوفياتي، كان لينين أبدى معارضته لأي مشروع غزو. كان ستالين هو الذي تجاوز ذلك[٣٤٧]. وبعد احتلال جورجيا، حاول لينين تخفيف نتائج سياسة اعتبرها مضرة. ففي رسالة إلى أورجونيكيدزه الذي كان يقوم هناك بدور والٍ، كتب يقول: «إنه لذو أهمية قصوى البحث عن تسوية مقبولة لأجل انشاء كتلة مع جوردانيا (رئيس جمهورية جورجيا السابق ـ م. ل.) أو المناشفة الجورجيين من أمثاله الذين... لم يكونوا معادين إطلاقاً لفكرة نظام سوفياتي في جورجيا ضمن بعض الشروط. أرجوك أن تتذكر ان ظروف جورجيا، الداخلية والدولية في آن، لا تتطلب من الشيوعيين الجورجيين أن يطبقوا الصيغ الروسية، بل أن يخلقوا بحذق ومرانة تكتيكاً فريداً، يقوم على موقف اكثر مصالحة تجاه العناصر البورجوازية الصغيرة من كل نوع[٣٤٨]». ولقد أبرق إلى القوات السوفياتية المحتلة تعليمات من النوع نفسه: «التعامل باحترام خاص مع الأجهزة السيدة في جورجيا»، «البرهان على انتباه وحذر خاصين حيال سكان جورجيا»[٣٤٩].

فيما بعـد، حين قاد المـوقف الفظ والشـوفيني لستـالين واورجونيكدزه إلى ازمة بين الشيوعيين الروس والشيوعيين الجورجيين، تدخل لينين بقوة يائسة لصالح هؤلاء الاخيرين. وبواسطة هذه القصة، أدرك لينين، المشلول بالمرض لكن الملقي في المعركة بآخر طاقاته، الحجم الذي كانت اخذته احياناً سياسة الرَّوسنة. عندئذ بالذات أطلق لعنات اخيرة ضد «الـروسي الاصيل»، ضد «الـروسي ـ الكبـير»، هذا «الشـوفيني»، هذا «الـوغـد»، هذا «المضطهد»، هذا «الشرطي». عندئذ قال هذه الجملة المتحررة من الاوهام: هاكم «إلى اي مستنقع انزلقنا»(*).

مستنقع، حقاً؟ وهل يمكن هكذا تلخيص العمل «القومي» الذي تم إنجازه خلال السنوات الاولى للنظام السوفياتي بواسطة الشيوعيين في السلطة؟ في نهاية الحرب الاهلية، كانوا قد جمعوا في جمهورية روسيا الاشتراكية الفدرالية حوالي عشرين كياناً محكوماً ذاتياً يقطنها سكان غير روس. كانت قد ارتبطت فضلاً عن ذلك عن طريق معاهدات ثنائية بسلسلة جمهوريات كان استقلالها بلا ريب اكثر شكلية مما هو حقيقي طالما أن مجمل البنى السوفياتية كان يديرها في الواقع الحزب ـ الوحيد والموحَّد ـ وليس مؤسسات دولة. وحين تأسس، من جهة اخرى، في عام ١٩٢٣ اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية، نجح لينين، رغم مرضه، في كبح المشاريع الروسية الكبرى الخاصة بستالين وفي ترتيب نظام يحتفظ للقوميات «الطارئة» بحظوظ تفتح(**). وإذ يتكلم لويس فيشر على العمل الذي خاضه لينين خلال المرحلة الاخيرة من نشاطه، يذهب إلى القول إنه «لو جرى تبني وجهات نظر لينين وتطبيقها، لكان الاتحاد (السوفياتي ـ م. ل.) انتقل من المركزة إلى اللا مركزية(٣٥)».

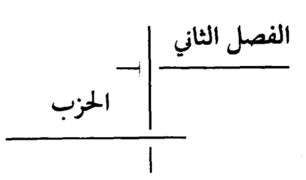
يبقى أنه أمكن اسحق دويتشر أن يكتب وهو يضع جردةً بسياسة القوميات الممارسة في السنـوات الأولى للنـظام السـوفياتي: «مامن واحدة من هذه الجمهوريات (السوفياتية الشرقية) كانت مستقلة أو كان في وسعها أن تكون كذلك؛ لكن كل واحدة منها كانت تتمتع بدرجة عالية من الحكم الذاتي والحرية الداخلية، وتحت قيادة مفوضية ستالين (أي مفوضية الشعب لشؤون القوميات ـ م. ل.) تمتعت كل منها ببعض منافع الحضارة الحديثة. ضمن مناخ البؤس الكثيف الذي كان يميز تلك الفترة، ساهمت المفوضية في بناء آلاف المدارس ضمن مناطق لم تكن تمتلك غير العشرات منها. وضعت خططاً بهدف ري أراضٍ قاحلة ومشاريع كهربة. باتت التترية لغة رسمية مثلها مثل الروسية. ومنع الروس من الاقامة في السهـوب القـرغيزية، المحفـوظـة مذاك للسكان الاصليين. وحررت قوانين تقدمية المرأة

(*) انظر ادناه، ص ٢٨٨.

(**) انظر ادناه، ص ٢٨٧.

الآسيوية من الطغيان القديم البطريركي والقبلي. كل هذا العمل، المحدود بالضرورة، شكّل مثالاً للمستقبل وحتى في حدوده كشف اندفاعاً وإرادة تَقَدُّم أصيلة فتنا العديد من خصوم البلشفية[٣٥١].»

ربما كان إحباط لينين يتعلق أقل بالنتائج المستحصل عليها مما بالطموحات التي غذاها والقلق الذي كان يشعر به إزاء المستقبل. «عن طريق ضمان احترام حقوق الشعوب السوفياتية «الطارئة»، وتشجيع لغاتها وثقافاتها، وتطوير نظام تربيتها»[٣٥٢]، كان النظام المنبثق من ثورة أوكتوبر قد كشف إمكاناته الهائلة وموارده البائسة.



الفصل الثاني

الحزب

من أجل إبراز الفرق بين الحقيقة الاصلية للحزب البلشفي والصورة التي تتكون عنه اليوم، حدث لإسحق دويتشر[1] أن قارن عمل المؤرخ الذي يكلّف نفسه عبء اكتشاف هذا الاعوجاج وإعادة الحقيقة إلى نصابها، بعمل اختصاصي في الرسم ينهمك في أن يعيد إلى لوحة جعلها الزمن تبهت اصالتها الأولى. بعد إنجاز هذه المهمة، تكون الدهشة عظيمة لاكتشاف فروق كانت مجهولة، غنىً لم يكن مشتبهاً به، ضوءٍ اختفى متها بالتدريج. والمقارنة، من حيث الشكل، تبدو متكلفة؛ إلا أنها مبررة كلياً في العمق. فنتيجة خطأ منهجي متواتر تُعكَس في الماضي ظواهر راهنة، أو يجري إعطاؤها قوة ووزناً لم تكن تمتلكها، بحيث يجري هكذا تزييف الوصف والتفسير الخاصين بالوقائع ويتم السقوط في هذا العيب حين يجري تخيُّل أن الحزب اللينيني كان في بداية النظام السوفياتي قابلاً، في وحدته، ومونوليتيته ووظائفه بالذات ومقدرته، للمقارنة بما صار إليه وبما هو عليه اليوم. ويكفي المثال الذي قدمه اختصاصي في التاريخ السوفياتي، هو جايمس بونيان، لتوضيح هذا الكلام. يتحدث هذا المؤرخ، مسترجعاً الجهود التي بذلها الشيوعيون الروس عام ١٩١٨ لبدء التجميع في الارياف(*)، عن تحريك «الآلة الضخمة للدعاوة السوفياتية[2]». ونظراً للضعف الأقصى للسلطة البلشفية في تلك الفترة، ولتواضع البنى التي كانت تستند إليها، ولهشاشة مؤسساتها، فإن فكرة ج. بونيان تلامس العبث. فالطريقة نموذجية في كل حال. وعلى التحليل الجدي أن يصحح خطأ التمييز هذا وتكشف حينئذ نتيجة تقصيه تعقيداً لا يتفق مع الاسقاطات Projections المشوّهة او الكاريكاتورية التي يجري إرباك التاريخ بها.

(*) انظر ادناه، ص ٣٠٨.

دور الحزب وبُناه وطريقة عمله

إن إحدى المشكلات الاكثر تعقيداً التي اضطر الحزب البلشفي لحلها بعد استيلائه على السلطة - هل توصَّل في كل حال إلى ذلك يوماً؟- كانت تحديد المكانة التي قد يشغلها في الدولة الجديدة. كل عمله كان موجهاً نحو كسب المقدرة الدولانية؛ لم يكن اهتم يوماً بتدبير الدولة البروليتارية، ولا شيء يشير إلى أن لينين فكر يوماً في منح الحزب سيادة سياسية ما. وإذا لم تكن ثمة إشارة إليه في **الدولة والثورة**، فذلك مردُّه إلى سبب مزدوج: انعدام التفكير في مشكلة سوف تصبح جوهرية، لكن ماكان يبدو أن لينين يشتبه بوجودها، بالاضافة إلى المكانة الثانوية نسبياً التي كان التنظيم البلشفي، بوصفه كذلك، قد شغلها في ثورة أوكتوبر(*). حين خطا النظام الجديد خطواته الاولى، لم يكن شيء إذاً متوقعاً؛ كل شيء كان يجب حله. بدءاً بصعوبات هائلة لم يكن اقلها ضعف هذه المنظمة البلشفية التي اضطرت، بصورة تجريبية وعبر الارتجال، الى البحث عن مكانتها في المؤسسات السوفياتية الجديدة. لقد أعلن عضو في اللجنة البلشفية للعاصمة، هو أفدوكيموف، قبل الثورة بقليل: «إننا نقول «كل السلطة للسوفييتات»... وفي الواقع لا يمكن أن نحدد سلفاً أي جهاز سيستلم السلطة[3]». ولنلاحظ أن هذا «الكادر» المهم الذي سيصبح عضواً في اللجنة المركزية لم يذكر الحزب حتى كقابضٍ محتمل على السلطة.

في الفترة الاولى من حياة النظام السوفياتي، كانت المكانة التي يحتلها التنظيم البلشفي في مجمل جهاز الدولة محكومة باعتبار فعلي: ضعفه الاقصى على المستوى المحلي، وأكثر أيضاً، في رأس هيئاته المركزية. خلال الأسابيع الاولى، تمتعت اللجنة العسكرية الثورية، المنبثقة من سوفييت بتروغراد والتي كانت المنظم الرئيسي للثورة المسلحة، بسلطة اكبر من سلطة الحزب وأعطت الانطباع احياناً بأنها تريد منافسة مجلس مفوضي الشعب[4]. لقد اختفت اللجنة العسكرية الثورية سريعاً من المسرح السياسي، لكن الحزب لم يستفد من هذا الاختفاء[5]. لم يكن يملك وسائل ذلك. ففي بتروغراد بالذات، كانت اللجنة المركزية تتصرف بخدمات أميني سر مسؤولين سياسياً وأربعة مستخدمين. ولقد كان نمو هذا الجهاز بطيئاً جداً: عام ١٩١٩، لم يكن يضم أكثر من ١٥ شخصاً تقريباً[6]. والوضع لم يكن من وجهة النظر هذه اكثر تشجيعاً على المستوى المحلي حيث لم يكن يملك الحزب عملياً أي جهاز

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

دائم[٧]. وحتى عام ١٩٢٠، في فترة كان الحزب بدأ بمجمله يقوِّم فيها هذا الوضع، لم تكن تمتلك المنظمة البلشفية لمقاطعة سمولنسك المهمة، بسكانها الذين يزيدون عن المليونين، غير ادارة هزيلة تمتلك آلة كاتبة واحدة[٨].

هذا الضعف في الجهاز، وبوجه خاص الجهاز المركزي، كان يخلق فراغاً بين اللجنة المركزية والمنظمات المحلية والمنطقية الخاصة بالحزب. وماكان يقوله في أوكتوبر ١٩١٧ مسؤول ستراتوف كان صحيحاً بلا ريب بالنسبة لأقسام أخرى من البلد: «إن لجنتنا التي كانت تتابع النهاية عن كثب فيما هي تقترب شيئاً فشيئاً، كانت تنتظر بفارغ الصبر التعليمات التي وعدت بها اللجنة المركزية. إلا أنها لم تتلق أياً منها[٩]». ولم يتحسن شيء، في هذا الصدد، خلال السنة الاولى من النظام السوفياتي. فوفقاً لإحصاء رسمي، لم تتلق اللجنة المركزية تقارير في آذار ١٩١٩ إلا من ثلاث منظمات مقاطعات من أصل ٣٦. ومن أصل ٢١٩ لجنة قضاء، كانت ٥٢ فقط على ارتباط منتظم بالمركز الذي كان يجهل كل شيء عن وجود حوالي نصفها[١٠]. شارحاً هذا الوضع في المؤتمر الثامن للحزب، عزاه لينين إلى «افتقاد منظمة خاصة بروسيا... بكل فقرها المخجل[١١]». وقد تدخل عدة خطباء في النقاش فتذمروا من هذا الوضع بمرارة[١٢]. وعلى المستوى المحلي، على العكس، كان يجري استغلال ذلك من أجل التحدي شبه المكشوف لتعليمات اللجنة المركزية إذا وصلت هذه التعليمات إلى المكان الموجَّهة إليه. هكذا حين تلقت لجنة سمولنسك الامر بإرسال كوادر الى موسكو لتعزيز الجهاز المركزي للحزب، رفضت الانصياع[١٣]. كان ذلك هو العهد الذي يتواصل فيه في الهيئات السوفياتية كما في هيئات الحزب، «الحكم المزدهر للمحلية Localisme[١٤]».

ويظهر الضعف البنيوي للحزب البلشفي في تلك الفترة بصورة افضل أيضاً حين نقارنه بقوة المؤسسة الدولانية، النسبية إلى أقصى الحدود في كل حال. في القمة، المقارنة صحيحة: في حين لم تكن اللجنة المركزية البلشفية تستطيع الاعتماد إلا على ملاك من ٦ أشخاص، كان مجلس مفوضي الشعب يتصرف من جهته بإدارة، غير كافية في كل حال، مؤلفة من ٦٥ موظفاً(*). والمشكلة لم تكن كمية فقط، بل كذلك نوعية: كما يلفت النظر إلى ذلك ل. شابيرو، كان أفضل كوادر الحزب مدموجين في الجهاز المركزي والمحلي للسوفييتات[١٥]. كانت المنظمات البلشفية تتبع مالياً المساعدة التي كانت تتلقاها من المؤسسات السوفياتية المحلية، وبصورة إجمالية كانت تبعيتها كاملة[١٦]. حتى أنه إزاء الوضع الجديد حدث أن اقترح بلاشفة مرموقون ـ كانت تلك حالة بريوبراجنسكي ـ أن يقبل الحزب

(*) هذه الارقام الصالحة لعام ١٩١٨، اوردها و. بييتش، مرجع مذكور، ص ١٤١.

بالانحلال بالكامل للذوبان في الجهاز السوفياتي[١٧]. وبصورة عامة، كان يجري التأكيد بأن اللجان المحلية للحزب البلشفي لم تعد إلا «فروع الدعاوة للسوفييتات المحلية[١٨]». إلا أن الشيوعيين بغالبيتهم لم يرضخوا لهذا الوضع وبدءاً بعام ١٩١٩ رفعوا الصوت كي تعاد للحزب حقوقه.

ولقد سهَّلت هذا التقويمَ أزمةُ المؤسسات السوفياتية التي اضعفت إلى حد بعيد استقلال السوفييتات المحلية وعرَّضت وجودها للخطر(*). فبمقدار ماكانت تضيق القاعدة الاجتماعية للنظام الجديد وتصبح الديمقراطية السوفياتية شكلية اكثر، عزز الحزب، الذي كان يبدي مقاومة أصلب للصعوبات الاجتماعية والسياسية بفضل تماسكه الأشد قوة، عزز سلطته وصحح لصالحه اختلال التوازن السابق. وقد جعل ذلك أمراً اكثر ضرورة توضيح وظائفه ودوره داخل الدولة السوفياتية.

لقد أبدى المؤتمر الثامن للحزب، في آذار ١٩١٩، رأياً جازماً بهذا الصدد. فبرأيه كان على المنظمة الشيوعية أن «تتأكد من السيطرة السياسية الكاملة داخل السوفييتات والاشراف العملي على كل نشاطاتها[١٩]». وليس من شك في أنه جرى تحقيق هذا الهدف سريعاً، لاسيما عن طريق تشكيل «خلايا شيوعية» في كل هرم المؤسسات وفي كل حقول الحياة العامة. كانت هذه الخلايا، وفقاً للأنظمة المتبناة عام ١٩١٩، تجمع كل اعضاء الحزب الذين ينتمون للمؤسسات التي لا تحصى للمجتمع السوفياتي، بحيث كانت تكتسب، بمواجهة جمهور مذرَّر غير حزبي، انضباطاً وتجانساً كانا يضمنان لها مواقع اشراف وسيطرة[٢٠]. وقد دفعت السلطة التي اكتسبها هكذا الحزب الشيوعي زينوفييف للاعلان عام ١٩٢٠ بأن «كل عامل واع يجب أن يفهم ان ديكتاتورية الطبقة العاملة لا يمكن أن تتحقق إلا عبر ديكتاتورية طليعتها، أي عبر الحزب الشيوعي[٢١]».

كل مشكلة العلاقات بين الحزب والدولة كانت تسيطر عليها في كل حال ظاهرة كان يلاحظها: الاندماج المتنامي للنموذجين من الأجهزة الذي كان يجعل كامينيف يقول عام ١٩٢٠: «إن الحزب الشيوعي هو حكومة روسيا. أعضاؤه الستمئة ألف هم الذين يحكمون البلد[٢٢]». لقد كان المكتب السياسي للحزب هو الذي عيَّن خلال المؤتمرات الثامن والتاسع والعاشر للسوفييتات اللجان المكلفة بإعداد جدول اعمالها[٢٣]، وإجمالاً كان هنالك بين المؤسستين تشابك شديد جداً في الملاك القيادي: منذ مؤتمر الحزب عام ١٩١٩، كان ثلثا المؤتمرين يشغلون وظائف في المؤسسات السوفياتية[٢٤]. وكما يقول إ. هـ. كار، كان التطور

(*) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢٩ ـ ٣٠.

المتوازي لمؤسستي الدولة والحزب قد تلاقى إلى حد أنه «بات يستحيل التمييز بوضوح فيما بينهما»[٢٥].

إزاء ذلك، كان الموقع المتميِّز والمهيمن الذي يحتله الحزب يتطلب إعادة تحديد وظائفه. كان يعود إليه في المقام الاول أن يواصل المهمة التي كان بدأها منذ ما قبل الثورة: **تنظيم الطبقة العاملة وتربيتها**[٢٦]. كان عليه فضلاً عن ذلك أن يساهم في اختيار جهاز الدولة الاداري. كانت مكلفة بوجه خاص بهذا العمل هيئة تدعى «**الاورغبورو**» (مكتب التنظيم(*)) تعمل بالتنسيق مع مصلحة متخصصة تابعة للجنة المركزية، هي «**الأوشراسبريد**» («فرع توزيع الطاقات المتوفرة»). وكان نشاطها مهمًا: بين شباط **١٩٢٠** وشباط **١٩٢١**، اكثر من ٤٢ الف عضو حزبي جرى تعيينهم بواسطتها[٢٧]. وكان لينين يلخص هكذا الوظائف الرئيسية للحزب بعد أن استولى على السلطة: «مربٍّ ومنظِّم ومرشِد[٢٨]»، موكلاً إليه فضلاً عن ذلك مهمة تأمين التنسيق السياسي بين شتى مؤسسات الدولة[٢٩]. قبل التوصل إلى هذا، كان لينين مع ذلك قد بدأ يعطي مكانة اكثر تواضعاً بكثير للتنظيم الشيوعي. وفي الأشهر الاولى للنظام الجديد لم يخرج بتّاتاً عن الصمت الذي أبداه في **الدولة والثورة**. وهذه الملاحظة تنطبق بوجه خاص على التصريحات التي اطلقها امام المؤتمر السابع للحزب البلشفي، في آذار **١٩١٨**، كما في كراسه **المهام المباشرة لسلطة السوفييتات** العائد للتاريخ ذاته. كان هنالك الكثير من الكلام فيه على الجماهير والمؤسسات السوفياتية، لكن لم يكن ثمة غير ذكر عرضي جداً للحزب.

توجَّب الانتظار حتى المؤتمر التالي، في آذار **١٩١٩**، قبل ان يجري للمرة الاولى اكتشاف تعبير «الحزب الشيوعي القائد[٣٠]» لدى لينين. وبعد أشهر، في آب، خطا خطوة جديدة فأعلن ان «ديكتاتورية الطبقة العاملة يمارسها الحزب البلشفي...[٣١]». ولقد أكد في مرض الشيوعية الطفولي أن «ديكتاتورية الطبقة تتحقق بقيادة الحزب[٣٢]». هذه المرة، كان قد جرى التخلي عن كل تحفظ: «الحزب... يسيطر ويجب أن يسيطر على آلة الدولة الضخمة[٣٤]». كانت المماهاة المتنامية للأجهزة الدولانية والشيوعية والسيطرة دون شريك التي يمارسها الحزب في الحياة السياسية والاجتماعية للبلد تساهمان في جعل بنية السلطة اكثر مونوليتية.

وفقاً للينين، لم يؤد هذا الوضع إلى نتائج مُرْضية. في مداخلته عام **١٩٢٢** أمام المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي، آخر مؤتمر يحضره، اكد ان «علاقات مشوبة بالعيوب قامت بين الحزب والمؤسسات السوفياتية». لكن التحليل الذي قدمه عن الوضع كان مقتضباً جداً،

(*) انظر ادناه، ص ١٠١.

وكـذلـك الـوسـائـل التي اقـترحها لمعالجته. اقترح فقط «تحديد تخوم جهاز الحزب وجهاز السـوفييتـات[٣٥]» و«رفـع سلطة مجلس مفوضي الشعب» اي الدولة حيال الحزب[٣٦]. أما بخصوص الاجهزة الرسمية للحزب، فكان يطالب مراراً بهكذا فصل(*). لكن كل القرارات المصوّت عليها للمطالبة بهذا الفصل بين سلطة الدولة والسلطة الشيوعية بقيت مع ذلك حبراً على ورق. ولو أنها نُقلت إلى حيز الواقع لربما كانت ساهمت في خلق نظام من الفصل والرقابة المتبادلة بين السلطتين، داخل النظام البروليتاري، كان أمكنه أن يليّن مجمل البنى السياسية. كان بعض الشيوعيين فكروا في ذلك بصورة غامضة، كما يبدو، في وقت لم تكن فيه أخطار الوضع السائرة في طريق التبلور قد اصبحت بديهية بعد. فخلال المناقشة التي كرستها اللجنة المركزية لتوقيع صلح بريست ـ ليتوفسك، رد تروتسكي على بوخارين فأعلن ان «الدولة اضطرت للقيام بشيءٍ ما كان الحزب ليقوم به[٣٧]». من جهة اخرى، عبّر شيوعيون يساريون، عام ١٩١٩ عن الرغبة في تشديد التمييز بين الدولة والحزب. كان يبدو لهم أن لدى هذا الاخير اكثر مما لدى الأولى اهتماماً أممياً يستجيب لميلهم الخاص بهم[٣٨].
كان على الحزب، بصورة ما، أن يلعب دور ضمير الحكومة والدولة. لكن هذا «الضمير» ماكان أمكنه إسماع صوته إلا إذا تمتع حيال الدولة وبمواجهتها بدرجة معينة من الاستقلال وامتلك آليات مراقبة. ولا شيء من كل ذلك قد حصل. بات تركُّز السلطة كاملاً في غياب موازنٍ مؤسسي حقيقي(**).

إن وصول الحزب البلشفي إلى السلطة أكّد مبدأ المركزة الذي كان في أساس عمله قبل الثورة، علماً أنه على الصعيد العملي ساد استقلال المنظمات المحلية لمدة طويلة. ولإصلاح هذا الوضع ألحَّ مؤتمر ١٩١٩ على ضرورة أن تسود في الحزب «المركزية الاكثر دقة والانضباط الاشد صرامة[٣٩]». ففي حين كانت الدولة تتزود ببنىً فدْرالية، رفض الحزب من جهته تطبيق المبدأ ذاته وبقي «واحداً وغير منقسم» عبر كل الجمهوريات السوفياتية. وبصدد ما تبقّى، خلقت المنظمة البلشفية، في الوقت الذي أبقت فيه ـ على الأقل مبدئياً ـ للمؤتمر واللجنة المركزية امتيازاتها السيادية، خلقت تحت ضغط الضرورات سلسلةً من الهيئات التي سيكتسب بعضها بالتدريج سلطاتٍ مهمة إلى حد كسف الاجهزة ذات السيادة نظرياً.

لقد خُلق المكتب السياسي بقرار من المؤتمر الثامن، في آذار ١٩١٩. وقد تلقّى كمهمةٍ

(*) لاسيما في مؤتمر ١٩٢٠ ومؤتمر ١٩٢٢. (و. بييتش، مرجع مذكور، ص ١٥٧ وإ. هـ. كار، مرجع مذكور، ج ١، ص ٢٢٣).

(**) عام ١٩٢٨، عزا بوخارين سبب تَسْتَلُن (نسبة الى ستالين) النظام الى مماهاة الحزب والدولة. (إ. دويتشر، **The prophet Armed**، ص ٣٣٦).

اتخاذ قرارات «لا تحتمل أي تأخير». كان مؤلفاً من خمسة اعضاء وعليه تقديم تقرير عن نشاطاته خلال الاجتماعات كل شهرين للجنة المركزية التي كان خاضعاً إليها بموجب النظام الداخلي ـ لكن فقط وفقاً لهذا النظام[٤٠]. وفي الواقع، تزايدت سلطاته سريعاً. ففي المؤتمر المنعقد عام ١٩٢٠، اعترف لينين بأن «المكتب السياسي حسم كل مسائل السياسة الداخلية والخارجية[٤١]» وأن «المكتب السياسي يقود السياسة[٤٢]». ويؤكد تروتسكي، في مذكراته، أن «أهم المسائل كانت تتقرر في المكتب السياسي[٤٣]». وكما يقول اسحق دويتشر، مر وقت قصير قبل أن يصبح المكتب السياسي «مستودع الحكمة الثورية[٤٤]».

في حين عُهد إلى الاورغبورو بمهمة تسوية «كل عمل الحزب التنظيمي[٤٥]» وكلف نفسه بوجه خاص بمسائل اختيار الكوادر الادارية وبوجه خاص السياسية وتعيينها ونقلها، فإن سكريتيرية الحزب، التي خُلقت، تماماً كالاورغبورو، عام ١٩١٩، سوف تزداد وظائفها مع مرور السنوات. إذ تركت السكريتيرية للمكتب السياسي مهمة حسم مشكلات السياسة العليا، إلا أنها ستغدو جهازاً على درجة أولى من الأهمية: كانت تعد جدول أعمال اجتماعات المكتب السياسي، وتقدم إليه الوثائق التي يستند إليها في نقاشاته، وتبلغ قراراته للمنظمات المحلية وتهتم كذلك بقضايا التعيين[٤٦]. وإذ وضع ستالين يده عليها وأصبح في نيسان ١٩٢٢ أمينها العام، فهو بذلك انتزع إحدى الهيئات الاكثر نفوذاً في التنظيم، على الاقل، إذا لم تكن الاكثر مهابة.

وأخيراً لجان الرقابة (المحلية والمركزية)، التي جرى الايصاء بخلقها عام ١٩٢٠ خلال كونفرانس قومي للحزب، تأسست رسمياً في مؤتمر ١٩٢١، بناء لالحاح المعارضة العمالية التي كانت تجد فيها وسيلة للنضال ضد تبقرط الحزب. فإذ كانت مكلفة بـ «تلقي ودراسة الشكاوى من كل نوع» الموجَّهة ضد اعضاء في التنظيم، جرى تصورها في الاصل كوسيلةٍ لتحاشي تجاوزات الهرمية. ولهذا السبب لم يكن يمكن أن يتولى عضويتها أي عضو من لجنة محلية أو من اللجنة المركزية، وكان تعيينها من صلاحيات المؤتمرات المحلية والقومية لا من صلاحيات اللجان. كانت لجنة الرقابة المركزية تشكل مرجعاً أعلى لأعضاء الحزب المقصَيْن خلال التطهيرات المنظمة باستمرار(*). وسرعان ما غدت هذه الهيئة أداةً بين يدي الامين العام وبدأت في الفترة نفسها تقريباً تتعاون منهجياً مع الغيبيو التي خلفت التشيكا عام ١٩٢٢ كمؤسسة قمعية رئيسية(**).

(*) انظر ادناه، ص ١٣٤.

(**) حول لجنة الرقابة، انظر إ. دويتشر، ستالين، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤؛ إ.هـ. كار، مرجع مذكور، ج ١، ص ١٩٦ و ٢١٢. ل. شابيرو، The Communist party، ص ٢٥٦.

إن تطور سلطات وعمل الجهازين «الكلاسيكيين»، اللجنة المركزية والمؤتمر، يعكس بصورة أمينة تطور الحزب عموماً ودرجة الديمقراطية الداخلية التي كانت سائدة فيه. إن اللجنة المركزية، ممثلةً سيادة الحزب بين اجتماعات المؤتمر(*)، عاشت في الاشهر الاولى التي اعقبت الاستيلاء على السلطة، حياة كثيفة بشكل استثنائي. فداخلها نوقشت وتقررت المسائل الحيوية التي كان يواجهها الحزب البلشفي والدولة السوفياتية: مشكلة الائتلاف الحكومي، وبوجه خاص عقد صلح بريست - ليتوفسك. وفي هذا الحقل الاخير، كان دور اللجنة المركزية رئيسياً: خلال نقاشات لا تنتهي، وجدالات حامية كانت تتواجه فيها الاتجاهات دون أدنى مراعاة، وحيث كانت تتكون الاكثريات وتنحل وفقاً لوزن الحجج المقدمة وفي جو من الحرية لا تقدم حياة الاحزاب، عموماً، غير أمثلة قليلة عنه، حدَّدت اللجنة المركزية للحزب البلشفي مصير روسيا السوفياتية. في تلك الفترة، كان تواتر اجتماعات ذلك الجسم يشهد على السلطة التي كان يتمتع بها. فبالنسبة لفترة تمتد على اكثر من ثلاثة أشهر بقليل، جرى الاحتفاظ لنا بمحاضر ١٦ من هذه الاجتماعات، في حين لم يتم العثور على العديد من بينها. وفيما بعد، خلال الحرب الاهلية، تباعدت تلك الاجتماعات: ستة من نيسان إلى تموز ١٩١٨، وبين تموز وتشرين الثاني ١٩١٨، قطعت اللجنة المركزية نشاطاتها كلياً. وقد اشْتُكي من ذلك في مؤتمر ١٩١٩ واعترفت القيادة بذنبها، حيث أقر مقدِّمُ التقرير أن «أفضل موظفي الحزب موجودون في المؤسسات السوفياتية وبسبب ذلك، ليسوا جاهزين لعمل اللجنة المركزية[٤٧]». وفيما بعد، عادت دورية النقاشات اكثر انتظاماً(**)، بما يشهد على السلطة التي كانت لا تزال تحتفظ بها. ووفقاً لـ ل. شابيرو، بقيت (ل. م.)(***) «الهيئة الرئيسية للقيادة الشيوعية» حتى أواسط عام ١٩٢١[٤٨].

إن مؤتمرات الحزب، التي انعقدت سنوياً وفقاً لبنود النظام الداخلي، واستُكْملت بالانعقاد المتواتر لكونفرانسات، احتفظت طويلاً بأهميتها ولم تفقدها حقاً إلا بعد وفاة لينين حين لم تعد تحتفظ إلا باحتفاليتها، فلم تعد بالتالي تضطلع بغير وظيفة طقسية. لاشك أن

(*) رأينا انه قبل الثورة، اكد لينين انه وفقاً لمبادىء المركزية الديمقراطية، كان المؤتمر وحده هو الذي يجسد السيادة (انظر اعلاه، ج ١، ص ٤٧).

(**) من نيسان الى تشرين الاول ١٩١٩، اجتمعت ل.م. ست مرات (مقابل ٢٩ اجتماعاً للمكتب السياسي و١١٠ اجتماعات للاورغبورو)؛ وبين نيسان ١٩٢٠ وآذار ١٩٢١، اجتمعت ل.م. ٢٩ مرة (مقابل ٦٦ اجتماعاً للمكتب السياسي و١٠٢ للاورغبورو). و. بييتش، مرجع مذكور، ص ١٥٣).

(***) اضافة من وضعنا (المعرب).

هذه الهيئة لم تستخدم إلا نادراً جداً السلطة السيادية التي كانت سلطتها حقوقياً. كانت القرارات تؤخذ في مواقع أخرى، في اللجنة المركزية وفي المكتب السياسي. غير أنه لما كان المؤتمر هو الذي ينتخب اللجنة المركزية، فإن تأثيره بقي محسوساً إلى حين نجحت السكريتارية في ملئه بمندوبين كانت قد كلفت نفسها هي ذاتها بتعيينهم. بيد أن وضعاً كهذا لم يظهر إلا بعد عام ١٩٢٢ أو ١٩٢٣.

حتى ذلك الحين، بقيت مؤتمرات الحزب الشيوعي في خطٍّ أفضل التقاليد الاشتراكية. كان يجري فيها نقاش مفتوح، وانتقاد حرٌّ لقيادة الحزب، وللينين بوجه خاص؛ كان المندوبون يتشاتمون فيها دون مجاملة، وكانت تطبَّق الاجراءات الكلاسيكية لجلسات الاحزاب: اجتماعات اللجان واللجان الفرعية، تقديم نصوص اغلبية واقلية، نقاشات تفتتحها تقارير وتقارير مضادة، كتابة اقتراحات توليفية motions de synthèse حيث تحاول مهارات تحريرية مرهفة وتسويات حاذقة أن تؤمِّن اتفاق الاكثرية والاقلية، وأخيراً عقد تحالفات تكتيكية بين شتى التيارات التي يضمها التنظيم. وإذا كان صحيحاً أن الاتفاقات كانت تتم غالباً قبل أن تفتتح النقاشات وأنَّ القرارات المصوَّت عليها كانت تبقى في الغالب حبراً على ورق، فلم يكن في ذلك اي شيء خاص بالمؤتمرات الشيوعية، كما يخبرنا التاريخ ويؤكد لنا الواقع اليومي.

إن جو الحرية الذي كان يسود، في كل حال، خلال الجلسات لم يكن قد فقد شيئاً من كثافته خلال آخر مؤتمر حضره لينين، مؤتمر آذار ـ نيسان ١٩٢٢. فأنطونوف ـ أوفسينكو الذي كانت نهاية الحرب الاهلية قد حررته من أعبائه العسكرية هاجم فيه لينين متهمًا إياه بتشجيع الكولاك وإبداء الكثير من المراعاة حيال الرأسمالية الاجنبية. وندد بوبنوف بما دعاه «الانحطاط البورجوازي الصغير للحزب». واتهم ستوكوف لينين شخصياً، معلناً أنه: «يجب إعطاء الرفاق إمكانية الكلام بحرية في الحزب دون تهديدهم بالإدانة لأنهم قالوا اليوم ماكان لينين يقوله البارحة». وتابع كوسيور، منتقداً «نظام الحزم المفرط الذي لا ادنى علاقة له بالانضباط والذي يجري تشجيعه عندنا». وقد جرى التصفيق للمعارض بامتياز، ريازانوف، مدير معهد ماركس ـ انجلز و«الولد المزعج» للحزب ـ ليس فقط من جانب الضاحكين ـ حين أكد: «يقولون إن البرلمان البريطاني يستطيع أن يفعل كل شيء إلا تحويل الرجل إلى امرأة. إن لجنتنا المركزية أقوى بما لا يقاس: لقد حوَّلت اكثر من ثوري الى امرأة عجوز، وعدد هذه العجائز يتكاثر بصورة غير معقولة[٤٩]».

يتساءل احد كاتبي سيرة لينين الرئيسيين بصدد المؤتمر الحادي عشر: هل كنا أمام مؤتمر شيوعي أو اشتراكي - ديمقراطي[٥٠]؟ ذلك أنه في تلك الفترة، وبصدد هذه النقطة، كان الفرق أقل محسوسية بكثير مما أصبح فيما بعد. وقد تم إدراك ذلك مرة اخرى خلال المؤتمر

الثاني عشر للحزب، الأخير الذي انعقد في حياة لينين، عام ١٩٢٣. إن زينوفييف، الذي كان يعتقد أنه سيكون خليفة الزعيم المشلول، كان قد أدخل النقاشات في أسلوب شاذ آنذاك لكن سيكون له مستقبل زاهر؛ فلقد أعلن: «كل انتقاد موجه ضد الحزب، حتى النقد «اليساري» المزعوم، هو الآن انتقاد منشفي موضوعياً». إلا أنه لم ينجح في إرهاب المؤتمرين. فلقد فضح بريوبراجنسكي مفاقمة النظام التسلطي الذي كانت القيادة تريد فرضه على المناضلين. وعيّن كوسيور، الأكثر دقة، المسؤولين، «زمرة» الأمين العام، ووصف أساليبه الماكرة والبيروقراطية. وهاجم أحد قياديي المعارضة العمالية، لوتوفينوف، «العصمة البابوية» التي كانت تتباهى بها القيادة. إلا أن الانتقادات الاكثر منهجية تناولت موقف العديد من القادة الشيوعيين بصدد مشكلة القوميات. هاجم الشيوعيون الجورجيون ستالين، وفضح راكوفسكي مساوىء سياسة «الرَّوسنة»، مؤكداً أن ستالين يكرر في هذا الحقل السياسة القيصرية. وأكد بوخارين بالذات أن قيام الأمين العام بفضح الشوفينية الروسية الكبرى لم يكن غير نفاق. وطلب كوسيور أيضاً، لكن دون جدوى، أن يلغي الحزب القرار الذي كان قد اتخذه مؤتمر ١٩٢١ وكان يقضي بحظر نشاط التكتلات[51](*). وقد برهن حادث صغير من جهة اخرى على أن هيئة رئاسة المؤتمر كانت تشرف بشكل سيء على المؤتمر. فحين أرادت التصويت على قرار بالثقة بلجنة الرقابة المركزية، التي تعرضت لنقد صارم من جانب العديد من الخطباء، اضطرت للتدخل مرتين قبل أن تصل إلى هدفها، حيث بيّن إحصاء أول أن المؤتمر منقسم جداً[52]. وفي هذا الظرف كما في ظروف أخرى، كانت تنقص الانتقادات والمعارضين نجدةُ زعيمٍ كي يكون لمداخلاتهم وزن اكبر. لكن على امتداد تلك النقاشات المضطربة، فإن تروتسكي الذي كان كسب هذا الموقع منذ عام ١٩٢٢، هذا إذا لم يكن كسب القامة (الخاصة بالزعيم)(**) أيضاً، بقي صامتاً. لن تستعيد المؤتمرات مذاك مناخاً كهذا، وسوف تغوص في حياة طقسية اكثر فأكثر.

(*) انظر ادناه، ص ١٢٦ وما بعدها.

(**) الاضافة من وضعنا (المعرب).

حقائق الديمقراطية الداخلية
وحدودها وزوالها

اتجاهات الحزب: الشيوعيون اليساريون والتيارات المعارضة

خلال السنوات الاولى من النظام السوفياتي، كان الحزب يتسم بسمة غريبة تتمثل في كونه منظمة سياسية مبتورة في الظاهر، تضم جناحاً يسارياً لكنها لا تضم جناحاً يمينياً. ولا علاقة لهذه الظاهرة بعملية جراحة قمعية، بل هي على العكس ناتج تطور طبيعي جعل من لينين، قائد التيار اليساري على امتداد عام ١٩١٧، الناطق الرئيسي بلسان السلطة الجديدة، وبصورة ما - **لكن بصورة ما فقط** - زعيم جناح معتدل، تيار يميني **لم يكن يمينياً حقاً**. إن اليمين الحقيقي، ذلك الذي يضطلع عن وعي أو بصورة لا واعية بمهمة الدفاع عن الامتيازات ووضع نظام اجتماعي بمنجى من التغيرات التي هي شيء غير جملة تدابير محافظة، هذا اليمين - إذا اعتبرنا أنه كان للبلشفية يمين ما - تراجع الى خلفية المسرح السياسي. لم يختفِ لكن، متقوقعاً في الظل، لم يعد يتجرأ على المطالبة باسمه ولا على تقديم برنامجه. وتعود تجلياته العامة والمتماسكة الأخيرة إلى حل الجمعية التأسيسية، حين أدان هذه البادرة التي كانت تسرِّع اندفاع الثورة في الطريق البروليتاري. والحال أن اليمين البلشفي كان قد قال دائماً إن خياراً كهذا خطير وسابق لأوانه. هذا ما ميزه بعد سقوط القيصرية، بين شباط واوكتوبر، قبل الانتفاضة المسلحة التي نظمها الحزب اللينيني وبعدها. ومع قيام النظام السوفياتي، واكثر أيضاً مع انعزاله وتفجير الحرب الاهلية، انضم اليمين البلشفي - الذي كان جزءاً لا يتجزأ من الحزب والذي كان إخلاصه للقضية الاشتراكية والثورية لا يترك مجالاً للشك - إلى الدفاع عن نظام لم يكن قد تمنى ولادته.

مذاك، بات شبه مستحيل، ولينين على قيد الحياة، تحديد تيار يميني داخل الحزب وتمييزه؛ وهذا الوضع استمر طالما لم يضطلع أحد بشكل مكشوف بالدفاع عن مصالح الفلاحين الميسورين والبيروقراطية. وإذا كان الحزب الشيوعي تنظيماً من دون جناح يميني، إلا أنه كان له جناحه اليساري الممثل بتكتلات شتى أو تجمعات شتى. ألا يسعنا مذاك تحديد اليمين a contrario (*) على أنه التيار، الاكثري إلى حد بعيد في كل حال، الذي وقف

(*) بالتضاد، أو على أساس الاستدلال بالضد (المعرب).

في وجه الاتجاهات اليسارية؟ في حالةٍ كهذه، يمكن النظر الى لينين كزعيم يميني، لكن مع بعض التحفظات التي هي من الاهمية بمكان. التحفظ الأول يتمثل في أنه لم يصارع دائمًا الشيوعيين اليساريين. ففي حقلٍ بوجه خاص، كان برنامجه، وفي كل حال، تطلعاته، تتماهى مع برنامج التيارات اليسارية في الحزب وتطلعاتها. كان لينين يرغب مثلهم في إعطاء المؤسسات السياسية والاجتماعية ـ في الواقع كل المجتمع السوفياتي ـ طابعاً بروليتارياً وعمالياً اكثر فأكثر. كان يريد، مثله مثل التيارات اليسارية، إعطاء شغيلة الصناعة، في كل المستويات وفي كل الحقول، مكانة أوسع فأوسع وحتى اكثر هيمنة(*).

ويتعلق تحفظ ثان بالطابع الديالكتيكي العميق لسياسة لينين(**) التي صينت هكذا من مخاطر التصلب والمحافظة. ونجد على سبيل المثال تجلي هذا الديالكتيك في موقف لينين حيال البيروقراطية وبصدد إدخال النيب. فبما يخص البيروقراطية، لا أحد دعا أكثر من لينين إلى تجنيد تقنيين واختصاصيين، الارث البورجوازي من العهد القديم، وإلى منح هذه الشرائح المميزة منافع اجتماعية. لكن لا أحد اهتم اكثر منه بمنع هؤلاء التقنيين وهؤلاء الاداريين من الوصول الى السلطة السياسية؛ لا أحد كان اكثر اهتماماً من لينين بالتحكم بآلية النمو البيروقراطي(***) وسد الطرق أمامها. وبصدد النيب(****)، أعلن ادخالها في آذار ١٩٢١، لكن بعد ذلك بعدة أشهر، كان قد بدأ يفكر بتقويم مجراها وإيقاف التقهقر الذي كان مرادفاً له.

وثمة ملاحظة اخيرة تفرض نفسها من اجل ان نصف بالكثير من الوضوح الطابع «اليميني» الخاص بلينين الذي تعبر عنه هجماته المتواترة والشرسة ضد الشيوعيين اليساريين: إنها المعنى الملتبس لعبارتي «يسار» و«يمين» حين نطبقهما على بعض الاوضاع التي كانت قائمة في روسيا غداة الثورة. وتكفي حالة واحدة للبرهان على ذلك. لقد عبّرت تيارات عديدة في الحزب البلشفي عن رأيها وتصادمت بصدد موضوع القوميات(*****). وقد كان لينين يمثل التيار «الليبرالي»، الراغب ـ ضمن الحدود التي تفرضها مقتضيات الحرب الاهلية ـ في تقديم اوسع التنازلات للتجمعات الاثنية والامم التي كانت خاضعة في السابق للنير القيصري. وقد اصطدمت هذه السياسة بمعارضة اتجاه نافذ وواضح جداً من الناحية الفكرية كان قادته أناساً كبوخارين وبريوبراجنسكي وكانوا يتبنون افكار روزا لوكسمبورغ، في عمومياتها، في

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ٢٦١ وما بعدها.

(**) انظر ادناه، ص ٣١٣ وما بعدها.

(***) انظر ادناه، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(****) السياسة الاقتصادية الجديدة. NEP (المعرب).

(*****) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٩٠.

هذا الحقل. كانوا يعتقدون مع الثورية المشهورة ان اعتدال لينين قد يشجع اتجاهات قومية بورجوازية صغيرة، وبشكل اساسي أكثر أن حق الامم في تقرير مصيرها مفهوم فارغ من المضمون الثوري في اوروبا المصنعة في القرن العشرين(*). لهذا السبب، فإن هؤلاء الناس الذين كانوا ينتمون الى التيار اليساري في الحزب البلشفي، ويتبنون في هذا الموضوع برنامج أقصى اليسار الثوري الأوروبي كانوا يتوصلون إلى الدعوة، أو على الاقل الى تشجيع - أو التسامح مع - سياسة روسنةٍ للقوميات الطارئة، في حين أن لينين إذ كان يكافح هذه السياسة كان متهمًا بتشجيع القوى القومية البورجوازية الصغيرة. كان «اليمين» و«اليسار» يتخذان هنا معاني ملتبسة ومضلِّلة إلى أقصى الحدود.

إذا كان الحزب البلشفي يمتلك يميناً لم يكن يعبر عن نفسه، وفي شخص لينين يميناً يعبر عن نفسه لكن ليس يميناً حقاً، فقد كان عنده في كل حال يساره، أو بالأحرى يساراته، وهي تعبيرات متنوعة وتجسيدات متتالية لإرادةٍ ثابتة في المزيد من «تثوير» المجتمع السوفياتي والعالم الخارجي، بصورة دائمة. والهجوم الاول الخاص بهذه التيارات تم بالضبط على ارض السياسة الخارجية: قرار توقيع صلح بريست - ليتوفسك مع الامبراطوريات المركزية. وليس هذا صدفةً: إن العلاقة بين حماسٍ ثوريٍ مناضل وأمميةٍ ورعة هي ثابتة في الوعي الثوري المعاصر.

ليس ثمة ما يفاجىء في كون رد فعل الغالبية العظمى من الشيوعيين على مقترحات السلام المجحفة، التي قدمها المفاوضون النمساويون والالمان، جاء مزيجاً من الاستهجان والهلع. لاسيما أن الاستراتيجية العالمية للينينية كانت متمحورة بكاملها حول فرضية حتمية الثورة العالمية وحول واجب البلاشفة المتمثل بتسريع اندلاعها(**). ولقد كانت سياسة السلام التي أوصى بها الحزب دائمًا قد تمت بلورتها ضمن هذا المنظور: كان من الضروري أن تساهم في انتفاض الشعوب التي تعبت من الحرب والبروليتاريا التي أنهكتها الرأسمالية(***). إن أول اجتماع عقده الحزب بعد أن اطلع على اشتراطات الامبراطوريات المركزية يدل على التيارات التي كانت موجودة فيه وعلى قوة كل منها. لقد تجابهت منظورات ثلاثة: اقترح لينين القبول بالمقترحات النمساوية - الالمانية وحاز نصه ١٥ صوتاً، إبان انعقاد جمعية في بتروغراد

(*) نجد هذا النقد للسياسة اللينينية بصدد القوميات في الكراس المشهور لروزا لوكسمبورغ حول الثورة الروسية **La Révolution Russe**، باريس، ١٩٦٤، ص ٤٩ وما بعدها. حول موضوع القوميات، انظر اعلاه، ج ١، ص ٩٠ وما بعدها).

(**) انظر ادناه، ص ٢٠٣ وما يليها.

(***) انظر اعلاه، الجزء الاول، ص ٢٥٠ - ٢٥٢.

في ٨ كانون الثاني ١٩١٨؛ ودافع تروتسكي من جهته عن سياسته التي اشتهرت بتسمية «لا حرب ولا سلم»، وكانت تتمثل في رفض التوقيع مع الامبرياليين في برلين وفيينا على أي نوع من الاتفاق، لكن دون شن حرب ثورية ضدهم؛ وقد حاز هذا الطرح ١٦ صوتاً؛ وأخيراً، كان بوخارين يدعو إلى شن الحرب الثورية وحصل على تأييد ٣٢ صوتاً(*). كان تيار «الشيوعيين اليساريين قد ولد. وقد تكرست قوته في الاسابيع التي تلت تلك الاستشارة الاولى. هكذا فإن لجنة بتروغراد البلشفية دعمت بالاجماع إلا صوتاً موقف بوخارين. وفيما بعد، كلما كان السجال يحتدم ويقترب موعد القرار النهائي، كرست الهيئة التنفيذية لهذه اللجنة ذاتها موقفها ووصلت الى حد تهديد اللجنة المركزية بالانشقاق فيما لو قبلت الحكومة بتوقيع «الصلح المخجل(٥٣)». وتبنت اللجنة البلشفية لمدينة موسكو ولجنة منطقة موسكو وجهتي نظر مشابهتين(٥٤). وبلغت معارضتها لسياسة لينين وغالبية اللجنة المركزية أوجها في التصويت على قرار صادر عن مكتب منطقة موسكو حيث ورد أن هذه الهيئة «لا تشعر بنفسها مضطرة للخضوع أياً يكن الثمن لمراسيم اللجنة المركزية التي ستتناول تنفيذ شروط معاهدة الصلح مع النمسا - ألمانيا». أضف إلى ذلك أن هذا القرار الذي صُوِّت عليه بالإجماع، كان يعبر عن «الحذر» حيال اللجنة المركزية(٥٥). إن المعارضة، بالغة القوة في العاصمتين، كانت منغرسة بعمق أيضاً في المقاطعات، وصولاً إلى سيبيريا بالذات حيث رفض الشيوعيون حتى توقيع صلح بريست - ليتوفسك(**). وكان بامكانها الاعتماد على جمهرة من القياديين المشهورين وذوي الموهبة، ولم تكن مواقفها قوية فقط في الحزب، بل وكذلك في إدارة الدولة. فالمجلس الاعلى للاقتصاد القومي، على سبيل المثال، كان تحت اشراف الشيوعيين اليساريين(٥٦).

على أية حجج كانوا يستندون من اجل الدفاع عن برنامجهم؟ كان بوخارين، الناطق الرئيسي بلسانهم يتذرع ببعض الاسباب المتعلقة بالسياسة الداخلية: لما كان مهتمًا بعدم فسخ التحالف مع الاشتراكيين - الثوريين اليساريين، طالب بتقديم تنازل لهم يتمثل بعدم توقيع صلح يرفضونه بحدة. وكان يزعم ايضاً أنه إذا نفذ الالمان تهديدهم وتقدموا في اعماق روسيا، فسوف يثيرون رد فعل شعبياً قوياً في الارياف التي قد تسمح «غريزة البقاء» لديها، وقد تلقت صفعات مفاجئة، بإعادة تشكيل قوى دفاع وبخوض حرب ثورية(٥٧). لكن فريق

(*) ليون تروتسكي، حياتي، ص ٣٩٢. يؤكد تروتسكي ان «نتائج التصويت لا تميز بوضوح الرأي الذي كان سائداً في الحزب. ففي الشريحة العليا من الحزب، اذا لم نقل وسط الجماهير، كان «الجناح اليساري» اقوى مما بدا في ذلك الاجتماع».

(**) انظر اعلاه، الجزء الثاني، ص ٢٩.

الشيوعيين اليساريين كان يؤسس خياره على الاولوية المطلقة التي كان يوليها للثورة العالمية حيال الثورة الروسية وعلى القناعة بأن توقيع صلح مع الامبرياليين النمساويين والالمان قد يضعف نضال البروليتاريا الاممي. كان بوخارين يؤكد في هذا الصدد مايلي: «نقطة واحدة تهمنا: كيف سيكون انعكاس ذلك ضمن الحركة الاممية(٥٨)؟ وأكد دزرجنسكي، قائد التشيكا، مبدأً لم يكن يجادل فيه أحد في الحزب من جهة اخرى: «إننا ندين بقوانا للغرب (أي للبروليتاريا الغربية)(٥٩)». وذهب أوبوكوف، من جهته، خلال مداخلته في إحدى الجلسات العديدة التي كرستها اللجنة المركزية لنقاش المشكلة، ذهب أبعد أيضاً: في حين اعترف بصحة استدلال لينين القائل بأن قوات التدخل الالمانية قد تسحق القوات السوفياتية الهزيلة وتقضي هكذا على النظام الثوري، كان يعتبر أن «اختناقنا بالضبط هو الذي قد يتيح تفجير الثورة في الغرب»(٦٠). اولوية إذاً، وأولوية مطلقة للثورة العالمية، مع ما يعنيه ذلك من خطر التضحية بما هو في المتناول لصالح ماهو ممكن: ذلك كان رأي الشيوعيين اليساريين(*). كان ثمة في ذلك علامة تعلُّقٍ مطلق بمبادىء يجري النظر اليها على انها اساسية، وطُهرية هي بين الميزات الاساسية لهذا التيار ونجدها من جهة اخرى في مجمل برنامجهم.

هذا البرنامج كان يتعلق ببناء مجتمع جديد في روسيا كما بالسياسة الخارجية للحكومة. وبشكل إجمالي، كان الشيوعيون اليساريون يدعون إلى إنجاز الاشتراكية بأكبر سرعة ممكنة عن طريق التأميمات والرقابة العمالية(**). وكانوا يُبْدون مناوأة عنيفة للبورجوازية التي طالبوا بـ «دمارها الكامل»(٦١)، كما كانوا غير مبالين بتطلعات الفلاحين فراحوا يطالبون بالتجميع في الارياف(٦٢). كانت الاشتراكية قضية البروليتاريا الصناعية، وعليها وحدها كان ينبغي الاعتماد، في نظرهم، وعلى «إبداعها» من اجل بناء النظام الجديد(٦٣). كانوا يعارضون إذاً جهود لينين لايجاد ارضية تفاهم مع بعض الاوساط الصناعية. كانت فكرة «رأسمالية الدولة»، التي دافع عنها لينين في ربيع عام ١٩١٨ تثير استفظاع الشيوعيين اليساريين(***). كانوا يضعون موضع الاتهام كل السياسة الاقتصادية للسلطة: وقفوا ضد الترتيبات ـ المقررة

(*) رغم قوة الشيوعيين اليساريين، في البدء، مُنوا في المؤتمر السابع للحزب، في آذار ١٩١٨، بهزيمة قاسية: تمت المصادقة على صلح بريست ـ ليتوفسك بـ ٢٨ صوتاً ضد ٩، وكانت المشاركة الضعيفة من جانب المندوبين ناجمة عن استحالة الوصول الى العاصمة. والحال ان المنظمات الاكثر بعداً عن الجبهة هي التي استمرت في معارضتها لمعاهدة السلام أطول مدة. (أ. لووي، مرجع مذكور، ص ١٠٠).

(**) مجمل برنامج الشيوعيين اليساريين أورده ج. بونيان وهـ. فيشر، مرجع مذكور، ص ٥٦٠ ـ ٥٦٤؛ انظر ايضاً، م. دوب، مرجع مذكور، ص ٩٢.

(***) المرجع ذاته، حول دفاع لينين عن «رأسمالية الدولة»، انظر ادناه، ص ١٧٢.

اكثر مما هي موضوعه موصع التطبيق ـ المتعلقة بنظام العمل وبالمردود؛ كانوا يجدون في دفاع لينين آنذاك عن التايلورية والتسيير الاداري الشخصي بدل أن يكون تسييراً جماعياً(*) أمراً مشيناً. فكل تنازل للعالم القديم الذي كانوا قد اعتقدوا أنه تم إلغاؤه كان يبدو لهم أمراً لا يمكن التسليم به، وبوجه خاص إيلاء مناصب مسؤولية للـ «اختصاصيين» البورجوازيين(٦٤).

وعلى الصعيد السياسي بحصر المعنى، كان الشيوعيون اليساريون أنصار ديمقراطية عمالية تستتبع في نظرهم استقلالاً واسعاً للسوفييتات وخلق جيش بروليتاري. وقد أثار استنكارهم(٦٥) اللجوء الى الضباط القيصريين القدامى والغاء مبدأ انتخاب اصحاب الرتب في الجيش الاحمر. واخيراً، فإن انهاء الجدال حول صلح بريست ـ ليتوفسك لم يصالحهم مع السياسة الخارجية للحكومة، التي كانوا يأخذون عليها «التخلي عن مهاجمة الامبريالية(**)». فمن جهتهم، كانوا يشترطون «سياسة خارجية جريئة قائمة على مبادىء طبقية، وعلى دعاوة ثورية امية، قولاً وفعلاً، وتميل إلى إقامة روابط عضوية، ليس مع البورجوازية بل مع الاشتراكية العالمية(٦٦)». وكما كان يلفت النظر إليه أحد الشيوعيين اليساريين، فقد كانوا يأخذون من جديد الكثير من الافكار التي كان لينين ذاته قد دافع عنها: كانوا هم اللينينيين الحقيقيين(٦٧). ذلك كان التغيير الذي أحدثه الوضع الجديد وانعزال الثورة الروسية: في حين كان البلاشفة الاكثر يمينية يستندون بين شباط ١٩١٧ واوكتوبر الى اللينينية ضد لينين، كان اليسار الآن هو الذي يزعم تجسيد الأمانة المذهبية ضده.

كان التحريض الذي نظمه الشيوعيون اليساريون كثيفاً واهتزت وحدة الحزب بصورة جدية. ومع ذلك فقد كانت اشهر قليلة كافية لتهدئة الضجيج. اختفى تيار الشيوعيين اليساريين، لكن اختفاءه لم يكن ناتج تدبير انضباطي او اداري. لقد كان موته طبيعياً، بصورة ما: لقد أوقف اندلاع الثورة الالمانية السجال حول بريست ـ ليتوفسك وبرهن على أن سياسة لينين لم تشل جهود البروليتاريا الالمانية؛ ومن جهة اخرى، فإن إدخال شيوعية الحرب، بعد بدء الحرب الاهلية، شكّل إلى حد ما إرضاء للشيوعيين اليساريين: كانت روسيا تعطي في الواقع الانطباع المثير بالسير بخطوات عظيمة نحو الاشتراكية، أو بأنها حققتها.

حتى خلال الحرب الاهلية، كانت في الحزب توترات محتدمة بشكل كافٍ لحفز ولادة تيار معارض. هكذا فإن «المعارضة العسكرية» التي هاجمت سياسة القيادة ـ وبوجه خاص

(*) انظر أدناه، ص ١٧٣.

(**) أورد هذا الكلام إ. هـ. كار، مرجع مذكور، الجزء الثالث، ص ١٠٤. كان التأكيد لرادك، احد ممثلي الشيوعية اليسارية الاكثر بروزاً.

سياسة تروتسكي - هاجمتها بشكل مكشوف في مؤتمر ١٩١٩ وبدت قوية بما يكفي لإجبارها على تقديم تنازلات لاعضائها الذين كان يوحدهم العداء ذاته للضباط القيصريين في الخدمة في الجيش الأحمر، والذين كانت تحركهم فضلاً عن ذلك عواطف متناقضة، ديمقراطية تارة، وطوراً ذات طابع حرفوي(*) corporatiste(٦٨) بالأحرى. يبقى أن هجوم هذه المعارضة كان الاستثناء وليس القاعدة. فأمام التهديد الذي كان يتسلط على البلاشفة، تولّد لديهم ارتكاس توحيدي ساهم في إعطاء حزبهم تجانساً وقوة يتعارضان مع الانقسامات التي كانت تمزق المعسكر المضاد للثورة. وسوف ننتظر حتى نهاية الحرب الاهلية حين اكتشف البلد ضخامة الدمار، والنظام اتساع الفوضى السائدة، ليفقد الحزب الشيوعي وحدته وتظهر التيارات المعارضة من جديد، وبقوة بالغة! فدون أن نتكلم حتى على «المعارضة الاوكرانية» التي كانت تقف ضد الاتجاهات الترويسية(**) لدى السلطة المركزية وتشارك لينين العداء العاجز لكل شكل من أشكال الشوفينية الروسية(***)، اجتذب تجمعان اثنان إليهما المستائين الكثر في الحزب: التجمع المسمى تجمع «المركزية الديمقراطية» وتجمع «المعارضة العمالية».

لم تظهر حقاً مجموعة المركزية الديمقراطية، التي تعود اصولها الى عام ١٩١٩، إلا بدءاً من مؤتمر آذار ١٩٢٠، لكنها ظهرت آنذاك بقوة احتفظت بها حتى نهاية حياتها القصيرة. كان لديها تلوين ثقافي يميزها عن «المعارضة العمالية»، بيد أنها نجحت أحياناً في التحالف مع قادة نقابيين، كتومسكي(٦٩). وبين الناطقين الرئيسيين بلسانها، كانت توجد شخصيات مهمة كأوزينسكي الذي كان مديراً لمصرف الدولة ورئيساً للمجلس الاعلى للاقتصاد القومي، وبوبنوف، العضو الاحتياطي للجنة المركزية، وسابرونوف الذي كان قد شغل وظائف سكريتير اللجنة المركزية التنفيذية لمؤتمر السوفييتات وفلاديمير سميرنوف، قائد الثورة البلشفية في موسكو. وفي مؤتمر آذار ١٩٢٠، كان عدد «المركزيين الديمقراطيين» الذين صعدوا إلى المنصة وتكلموا طويلاً جداً من فوقها كبيراً(****). لقد ثاروا على «المركزية

(*) الحرفوية نظرية تقول بايجاد مؤسسات حرفوية نقابية لها سلطات اقتصادية واجتماعية وسياسية (المعرب).

(**) اي الطامحة الى اضفاء الطابع الروسي على القوميات الاخرى (المعرب).

(***) حول «المعارضة الاوكرانية» انظر ر. دانييلز، **The Conscience of the Revolution**، ص ١٠٢ وما بعدها. وحول موقف لينين حيال المطالبات الاوكرانية بالحكم الذاتي، وبصورة اعم، حيال القوميات غير الروسية، انظر اعلاه.

(****) يشغل خطاب اوزينسكي ١٨ صفحة من المحضر الرسمي للمناقشات (موجود في **Arbeiter-demokratie oder parteidiktatur**، هيروسغ. فون ف. كول و إ. أوبرلاندر، اولتن، ١٩٦٧).

البيروقراطية» و«المركزية التسلطية» وحذروا الحزب من خطر «الديكتاتورية البيروقراطية»(*).
هاجم سابرونوف شخص لينين وتسلطية اللجنة المركزية: «إنكم تحولون أعضاء الحزب إلى حاكيات gramophones مطواعة»، هذا ماقاله متوجهاً مباشرة إلى لينين. «لديهم قادة يأمرونهم: افعلوا هذا، افعلوا ذلك، لكنهم لا يتمتعون بحق اختيار لجانهم. هل يمكنني طرح سؤال على الرفيق لينين: من سيعيِّن أعضاء اللجنة المركزية؟ ففي هذه الهيئة ايضاً يسود مبدأ القيادة الواحدة وتَقَرَّر فيها كذلك الخضوع لزعيم واحد[٧٠]». إن «المركزيين الديمقراطيين»، الذين لم تتخطَّ مطالبتهم أبداً إطار الديمقراطية الداخلية للحزب والذين بقيت اقتراحاتهم لإصلاح الوضع غائمة، كانوا نشيطين في الاعداد للمؤتمر العاشر للحزب وفي مساره. ركَّزوا مداخلاتهم من جديد على مشكلة الديمقراطية البلشفية، لكن كَسَفَ دورَهم آنذاك الدور الذي لعبته «المعارضة العمالية».

على غرار مجموعة «المركزية الديمقراطية»، نشأت مجموعة **المعارضة العمالية** عام ١٩١٩، لكن خلافاً للأولى كانت تستند إلى قاعدة بروليتارية وتستقطب الدعم داخل النقابات، الأمر الذي ضمن لها قوة مهمة. وهذا ما ظهر بوجه خاص خلال شتاء ١٩٢٠-١٩٢١ حين استفادت «المعارضة العمالية» من الجدل الواسع الذي كرسه الحزب لموضوع النقابات(**) فأكدت حضورها وتماسكها وسجلت نجاحات مرموقة. هكذا في كونفرانس منظمة موسكو، في تشرين الثاني ١٩٢٠، أيَّد حوالي نصف المندوبين (١٢٤ من أصل ٢٧٨) اطروحات «المعارضة العمالية»؛ ولقد كان الاجتماع من جهة اخرى صاخباً إلى حد أن الطرفين المتنافرين انتهيا بالانفصال بحيث اتخذ كلٌّ لنفسه مَقَرَّات مختلفة[٧١]. وكانت «المعارضة العمالية» قوية أيضاً في سمارا حيث كانت تشرف على الحزب، وفي اوكرانيا، وبما يخص الحركة النقابية، في منظمة عمال التعدين(***). ومع ذلك، ففي المؤتمر العاشر للحزب، في آذار ١٩٢١، حيث كان ينبغي ان يكون حضورها في مركز المناقشات، لم تكن تحوز اكثر من ٤٠ إلى ٥٠ مندوباً من أصل ٦٩٤[٧٢]. ذلك أنه اثناء الاعداد للمؤتمر، تمكنت القيادة

(*) المرجع ذاته، ص ١٢٨ - ١٥٧ حيث نجد مقتطفات واسعة من مداخلات «المركزيين الديمقراطيين».

(**) انظر ادناه، ص ١٨١ وما بعدها.

(***) **The Conscience of the Revolution**، ص ١٣٩ و١٤٣. كانت «المعارضة العمالية» ممثلة ايضا تمثيلاً جيداً في نقابة عمال المناجم. فخلال نقاش تم بصدد المسألة النقابية، داخل الكتلة الشيوعية فيها، حصلت اطروحاتها على ٦٢ صوتاً ضد ١٣٧ لصالح أطروحات لينين، و٨ لصالح اطروحات تروتسكي. (لينين، **الاعمال الكاملة**، الجزء ٣٢، ص ١٠٨).

من تجميع كل قواها من خلال الدعوة إلى وحدة الحزب. فضلاً عن ذلك، إذا كان تمثيل المعارضة في المؤتمرات القومية لا يتناسب مع حجم وجودها في القاعدة، فتلك ظاهرة نجدها في حياة كل الاحزاب السياسية. وعلى العكس، ففي ما يتعلق بإحدى النقاط، كانت الطريقة المطبقة في الحزب الشيوعي في تلك الفترة تتميز (لصالحه) عن الممارسة المعتادة في المنظمات السياسية، بما فيها المنظمات التي تنادي بأوسع ديمقراطية داخلية: فلقد عمدت القيادة الشيوعية، في الواقع، إلى نشر برنامج «المعارضة العمالية» في صحيفتها الرسمية، البرافدا، واكثر من ذلك، نشرت ٢٥٠ ألف نسخة من كراس كانت الكسندرا كولونتاي - قائدة المجموعة مع شليابنيكوف - تعرض فيه أفكارها(*).

تتخذ كولونتاي في هذا النص موقفاً «بروليتارياً» واضحاً وتقدم نفسها، باسم «المعارضة العمالية» كالناطقة بلسان المطالب العمالية. بالنسبة اليها، كانت الطبقة العاملة تلعب دوراً محدوداً أكثر فأكثر في حياة البلد، لاسيما لأن الحكومة السوفياتية، الخاضعة للانتهازية، كانت تنوي التوفيق بين مصالح كل طبقات السكان. أما «المعارضة العمالية» فلم تكن تنوي من جهتها أن تحمي إلا مصالح شغيلة الصناعة. وفي هذا كانت تميز بوضوح بين مؤسسات الدولة وحتى الحزب، من جهة، والمؤسسات النقابية من جهة اخرى، التي كانت ترى فيها المعبّر الوحيد الممكن عن العالم العمالي. إن نظاماً بروليتارياً أصيلاً، كما كانت تنادي به «المعارضة»، كان ينبغي أن يقيم إذاً ديكتاتورية نقابية.

كان ضعف الكراس يكمن في غياب أفكار ملموسة يمكنها أن تلهم وتحفز إنهاض الوضع والتقريب الضروري جداً بين القيادة البلشفية والبروليتاريا الروسية. كانت كولونتاي تكتفي، إجمالاً، بتأكيد ثقتها في «الابداعية العمالية» وبجعل موقفها بمواجهة موقف السلطة التي كانت تزعم القيام بتربية الشغيلة قبل إيلائهم إدارة الامور. فضلاً عن ذلك، كانت تطالب ببلترة الحزب ودمقرطة حياته الداخلية. إن العيب الثاني في برنامج المعارضة - وهو عيب كبير - كان يتعلق بالتناقض الأساسي بين تطلعاته والإمكانات المتوفرة. كانت كولونتاي تعترف، في الواقع، بأن البلد في حالة دمار كامل وإفقار كلي على صعيد الاقتصاد(٧٣). والحال أن البروليتاريا كانت الضحية الاولى لوضع كهذا. وكما سنرى أيضاً، فإن انحدارها الطبقي، وإحباطها وتقهقرها المادي كان يجعل من المحال اي عمل سياسي قائم على التعبئة الفورية للجماهير العمالية. من جهة اخرى، كانت كولونتاي تؤسس برنامجها الخاص

(*) المرجع ذاته، ص ٢٦٧. نُشرت الترجمة الانكليزية لكراس كولونتاي في لندن عام ١٩٢١ بعنوان Workers' opposition ؛ والترجمة الالمانية للنص الكامل في Arbeiterdemokratie oder parteidikt-atur ، مرجع مذكور، ص ١٨٢ - ٢٤٠.

بالانهاض والدمقرطة على النقابات، لكن مع أن المنظمات النقابية كانت اقرب الى الجماهير من الحزب، فقد كانت خاضعة هي بالذات لسيرورة تبقرط حادة. وإذا كانت «المعارضة العمالية» لم تنجح بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢١ في الاستيلاء على قيادة الحزب، فلم يكن ذلك بسبب العوائق الادارية التي كانت توضع في طريقها ولا بسبب التعسف ـ لاسيما أن بعض أفكارها كانت تتلاقى مع افكار لينين ـ بل بسبب غياب الخيار وبسبب الفراغ السياسي اللذين كانا يميزان الوضع العام للبلد.

يبقى أنه في المؤتمر الشيوعي العاشر تم هجوم منهجي على «المعارضة العمالية» وعلى كل التيارات المعارضة(*)، وأن وجودها كتكتلات منظمة تعرض للخطر. لقد بقيت «المعارضة العمالية» بعض الوقت بعد ذلك التدبير. ففي مؤتمر عام ١٩٢٢، تكلمت كولونتاي من جديد كزعيمة اقلية يسارية[٧٤]. اما شليابنيكوف فواصل عمله، من جهته، لكنه تعرض كما سنرى لصواعق القيادة وكاد يُطرد من الحزب. لقد خاطب العديد من قادة «المعارضة العمالية» الذين انضم اليهم مناضلون آخرون بارزون، خاطبوا الاممية الشيوعية عام ١٩٢٢ ليعرضوا لها المآخذ التي يسجلونها ضد الموقف القمعي الذي كانوا يتعرضون له. وقد استغاثوا بسلطتها كي تتم إعادة الديمقراطية الى داخل الحزب الشيوعي الروسي(**). ومن الواضح انه لم يكن بالامكان أن ينتج أي شيء من ذلك المسعى. فالهيئة التنفيذية للكومنترن لم تتهم شرعية العمل الذي بادر إليه «الاثنان والعشرون» ولا صحة بعض تأكيداتهم، لكنها دعتهم للخضوع للانضباط الحزبي.

بقدر ما يهمنا إبراز توجه تيارات اليسار البلشفي، يهمنا أيضا إبراز ردود فعل لينين إزاء هذا الاحتجاج على سياسته. فمنذ الاشهر الأولى من حياة النظام السوفياتي، أظهر السجال حول صلح بريست ـ ليتوفسك بعض الوجوه المعبِّرة لردِّه. إن المآخذ الرئيسية المسجَّلة على «الشيوعيين اليساريين» تقدِّم في الواقع ثوابت نجدها من جديد في كل الحوار بين لينين والعناصر المتطرفة ـ المتمردين ونافدي الصبر من كل الانواع ـ في حزبه. إن «الشيوعيين اليساريين»، الخصوم الشرسين لكل شكل من الاتفاق، أو الهدنة، مع الامبريالية، كانوا يغرقون، وفقاً للينين، في رومانسية لا تطاق. في رأيه انهم «كانوا ينظرون إلى الأشياء من وجهة نظر النبيل البولندي الذي كان يقول، فيما هو يموت بشكل رائع وسيفه

(*) انظر ادناه، ص ١٢٥ وما بعدها.

(**) إن نص «رسالة الاثنين والعشرين» وردّ الاممية الشيوعية موجودان في ج. همبرت ـ دروز، Mémoires, de lénine à Staline; dix ans au service de l,internationale communiste, 1921 - 1931، نوشاتيل، ١٩٧١، ص ٤٨ ـ ٥٠.

في يده: «الصلح هو العار والحرب هي الشرف»[٧٥]، وإذ يفعلون ذلك «يدعون أنفسهم يجرون وراء شعار زاهٍ[٧٦]». ولم يكن المأخذ يفتقر الى اساس إذا حكمنا على ذلك انطلاقاً من موقف بعض القادة الاكثر بروزاً داخل الاتجاه. كموقف الكسندرا كولونتاي بوجه خاص التي كانت تُسِر إلى جاك سادول انه «لجميل جداً أن ينتهي المرء بشكل رائع، وأن يموت مقاتلاً. اجل، هذا ما يجب فعله: الانتصار أو الموت[٧٧]». وبوخارين الذي، إذ كان خارجاً من جلسة اللجنة المركزية للحزب التي تقرر خلالها القبول بالمساعدة المحتملة من جانب الدول الغربية في حال مواصلة الغزو الالماني، انفجر باكياً بين ذراعي تروتسكي وقال: «ماذا نفعل؟ إننا نحوِّل الحزب إلى كومة زبل[٧٨]!».

هذه الرومانسية كانت تعبر عن نفسها بصورة شبه حتمية بواسطة تذوُّق للـ «جملة الثورية» ندَّد به لينين بإلحاح. كانت تلك «الجملة الثورية» محددةً على انها «ترداد شعارات ثورية، دون مبالاة بالظروف الموضوعية. . ، بالوضع الراهن[٧٩]» وعلى ان مضمونها مصنوع من «عواطف، وتمنيات ورعة، وغضب واستنكار»[٨٠]. ولّما كان الشيوعيون اليساريون لا يأخذون كثيراً بالحسبان الاوضاع الملموسة والتبدلات، فقد كانوا يغرقون في «تجريدات[٨١] تتحول حتّماً إلى جمل فارغة». وبسبب اخطائهم كانوا متهمين ايضاً بأنهم «ينفذون موضوعياً أهداف الامبرياليين ويقعون في فخهم[٨٢]. لم يكن لينين يخشى المساجلة، لاسيما أنه كان يعتبر الاتجاه الذي يقوده بوخارين خطراً كبيراً يجب أن يخاض ضده «نضال لا يلين[٨٣]»، وكان مصمـمًا بصورة شخصية على أن يخوض ضده «حرباً لا هوادة فيها»[٨٤]»، وكان يتهم الشيوعيين اليساريين بـ «عميً مخيف»[٨٥]، وبـ «تخلٍّ كامل عن الشيوعية في الممارسة»[٨٦]؛ ويصف جريدتهم بأنها «صحيفة تدعو للرثاء»[٨٧]. وأخيراً، وفقاً لطريقة باتت تقليدية، كان لينين يأخذ على خصومه «روحهم البورجوازية ـ الصغيرة» و«ذهنية المثقفين النموذجية» لديهم[٨٨].

بعد كل الذي قيل وبالرغم من حدة المساجلة، كان لينين يعترف بأنه «بالنسبة للتسعة اعشار نحن متفقون مع بوخارين»[٨٩]. وهذا عنصر مهم في الجدال بينه وبين الشيوعيين اليساريين أسدل عليه المؤرخون السوفيات منهجياً ستاراً من الصمت[*]. والحال أن هذا

(*) هكذا، يؤكد تاريخ الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي الرسمي جداً (اصدار عام ١٩٦٠) (ص ٣١٥) أن «لينين ندد بجماعة «الشيوعيين اليساريين» كشركاء للامبريالية الالمانية وللبورجوازية الروسية». إن لينين لم يأخذ يوماً على الشيوعيين اليساريين اي تواطؤ مع العدو. هذا التواطؤ كان اقصى من جهة اخرى التضامن الذي كان يشد قيادة الحزب الى المعارضين، وهو تضامن عبر عنه لينين مراراً كثيرة. بدل ان ياخذ لينين عليهم «تواطؤهم»، كان يتهم «سذاجتهم» (المرجع ذاته، ص ٣٣٩).

الصمت يخفي هذا المعطى الاساسي: شدد لينين مراراً على انه خلافاً للحال مع الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين والمناشفة، كان يقف هو والشيوعيون اليساريون على أرضية مشتركة، أرضية الماركسية، وأن هذا الظرف يجعل النقاش مع ذلك الاتجاه من اكثر النقاشات اهمية[٩٠]. ولم يكن يفوته أن يمتدح هؤلاء الرجال الذين يستلهمون «أنبل العواطف وأشدها سمواً[٩١]». وحين استقال قادتهم من اللجنة المركزية، قدَّم لينين في المؤتمر السابع للحزب مشروع قرار يدعو المعارضة اليسارية لاستعادة موقعها في القيادة[٩٢]؛ وإذا كان أخذ عليها «عدم استقامة مطلقاً»[٩٣]، فلم يكن ذلك بسبب الافكار التي كانت تدافع عنها، بل لأنها اصرت لبعض الوقت على رفض التمثل في اللجنة المركزية.

إلى حين حصول النقاش حول النقابات، خلال شتاء ١٩٢٠ـ ١٩٢١، وتطور «المعارضة العمالية» القوية داخل الحزب، لم يعد يهتم لينين بالشيوعية اليسارية إلا بمقدار ما توسعت ضمن الاممية الثالثة(*). سوف يهاجم عندئذ مناهضتها للبرلمانية ـ أو بالأحرى الشكل الذي كانت تتخذه ـ ومناهضتها للعمل النقابي وأخطاء تكتيكية أخرى لديها. سوف يعود عندئذ الى بعض التحليلات التي كان قام بها لأصول «اليساروية» خلال أزمة بريست ـ ليتوفسك. أما «المعارضة العمالية» في الحزب البلشفي بالذات فسوف تجد نفسها تُجابَه بموقف يشبه، من بعض الجوانب، الموقف الذي كان قد تبناه لينين حيال الشيوعيين اليساريين عام ١٩١٨: نقد صارم لكن في الوقت ذاته دعوة إلى العمل المشترك والتضامن. إلا أن الامور كانت قد تغيرت منذ مرحلة بريست ـ ليتوفسك. كان «انحراف» بوخارين واصدقائه قد برهن على أن الحركة الثورية تمر بأزمة نمو. أما عام ١٩٢٠ وعام ١٩٢١، فلم يعد الامر يتعلق بأزمة نمو. لقد تم الجدال مع «المعارضة العمالية» إذاً في مناخ مختلف تماماً، ولم يكلف لينين نفسه أبداً بتحليل افكار كولونتاي وشليابنيكوف واصدقائهما، مكتفياً بتصوير برنامجهم على أنه مشبع بتأثيرات نقابوية، وفوضوية أو نصف فوضوية[٩٤]. هذا البرنامج كان يبتعد، في رأي لينين، «عن الحزب والشيوعية بشكل ظاهر»[٩٥]. وهو يفسر اسباب هكذا اتهام بقوله إن «المعارضة العمالية» تنوي أن تنتزع من الحزب صلاحيات مهة، لاسيما بما يخص التعيين في الاطر الادارية، لتكلف بها المنظمات النقابية[٩٦]. وكان هنالك اكثر من ذلك: في حين كان لينين قد بدا لاذعاً ومُصالحاً في الوقت ذاته حيال الشيوعيين اليساريين، جعل من «المعارضة العمالية» الضحية الاولى للتنظيمات اللا ديمقراطية التي جرى ادخالها الى الحزب في المؤتمر العاشر في آذار ١٩٢١. إن حظر التكتلات الذي تقرر آنذاك كان يستهدف في المقام

(*) انظر ادناه، ص ٢٥٣ وما بعدها.

الأول مجموعة كولونتاي وشليابنيكوف التي صممت القيادة الشيوعية، وعلى رأسها لينين، أن تُسكتها عن طريق الاكراه والعسف.

حتى في تلك الحالة، لم يصوِّر لينين أبداً المعارضين اليساريين كأعداء يجب سحقهم أو طردهم من الحزب: وهو لم يدعهم فقط للتعاون في قمة الهرم(*)، بل أخذ بصراحة بعض نقـاط برنامجهم، ولاسيما إرادة بلترة كادرات الحزب والدولة. ففي تشرين الثاني ١٩٢٠، مثلاً، وفي حين اتهم لينين اعضاء «المعارضة العمالية» بالصيرورة «معارضة لأجل المعارضة»، اعترف بصورة متعارضة كفايةً بأن «المعارضة التي لا توجد فقط في موسكو بل كذلك في كل روسيا، تُظهر اتجاهات كثيرة جداً سليمة وضرورية وحتمية بصورة مطلقة في ظروف التطور الطبيعي للحزب[٩٧]». لسوء الحظ، لم يكن الحزب الشيوعي ولا روسيا السوفياتية يمران في نهاية عام ١٩٢٠ في مرحلة تطور. على العكس تماماً، فساعة التراجع كانت تقترب بالنسبة للبـلاشفـة الـذين كانوا يجدون أنفسهم، كما كان يقول لينين، «إزاء الكتلة البورجوازية الصغيرة التي تحاصرنا بعشرات الملايين من افرادها[٩٨]». إن هذه الظروف والتفسير الذي أعطاها إياه لينين هي التي حسمت مصير «المعارضة العمالية» لا انعدام توافق نظري بين المواقف التي كانت تدافع عنها وافكار اللينينية. رغم حدة السجال واهمية الخلافات، كان لينين يبقى فضلاً عن ذلك مرتبطاً بخصومه بتضامن أساسي. وحتى في مؤلفه حول المرض الـطفـولي للشيوعية: اليساروية، اعتبر أن الخطر الرئيسي الذي يجب أن تواجهه الحركة الثورية إنما هو التهديد القديم والابدي للانتهازية، التي تبدو إزاءها «العقائدية اليسارية.. في الوقت الراهن اقل خطورة الف مرة»[٩٩]. لذا فإن النضال الذي خاضه لينين غالباً، بعد الاستيلاء على السلطة، ضد هؤلاء «اليساروين» كان، وبقي حتى النهاية، نضالاً يخاض ضد رفاق يرتكبون الخطأ، لا ضد أعداء أبداً. كان بين الجماعتين المتواجهتين تعارضات تكتيكية مهمة، لكنهما كانتا تخوضان في التحليل الاخير معركة واحدة. ففي فترة بريست ـ ليتوفسك، كان لدى لينين والشيوعيين اليساريين الهمُّ المشترك المتمثل بإعداد حرب ثورية ضد الامبريالية[١٠٠]. وفي عام ١٩٢١، كان لينين يشاطر «المعارضة العمالية» الرغبة في بلترة المجتمع السوفياتي. لما كان هذا وذاك من الخيارين يمثل الميول العميقة لدى لينين والسمات الاساسية للينينية، فإن المواجهة بين اللينينية وبعض تنويعات «اليساروية» احتفظت بطابع خصومة حادة داخل العائلة.

(*) انظر ادناه، ص ١٢٦.

حرية الاتجاهات والتكتلات:

سواء كان حزب ما يمسك بالسلطة أو لا، فالديمقراطية الداخلية فيه ظاهرة استثنائية، مستقلة غالباً عن الأهداف التي يطرح على نفسه تحقيقها. وإذا اعطينا هذا المفهوم معنى اكثر من شكلي، فإن متطلباته عديدة وشروط تحقيقه غير ثابتة وهشة واحياناً متناقضة. إن حالات الازمات والخضات الكبرى يمكن أن تسهل وجود هذه الديمقراطية بإعطائها مناضلي الحزب فرصة أن يدفعوا الروتين بقوة ويهزوا القيادة، ويجبروا هذه الاخيرة على عدم الاكتفاء بما هو مكتسب وعلى هز جمودها الخاص بها، محدثين بذلك تجديداً لتركيبها. هذا ما حدث عام ١٩١٧ داخل الحزب البلشفي. لكن أزمات من نسق آخر يمكن أن تتم ويكون لها نتائج مختلفة. فحين تجد البنى المنبثقة من حركة ديمقراطية جداً نفسها وقد كبحت اشتغالها أحداث بدل أن تؤدي الى المشاركة السياسية النشطة للجماهير تترافق مع جمود هذه الأخيرة، ينضب نبع الديمقراطية. وبالتدريج، تنسحب عندئذ من المؤسسة التي كانت قد أغنتها. إن الاحزاب، المحرومة من اندفاع الجماهير، تخضع حتماً للتشريطات الجديدة التي تصبح مرادفة للروتين والسلطوية والبيروقراطية. والحرب الأهلية التي اكتسحت روسيا من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٠ والكارثة الاقتصادية التي ولَّدتها تنتميان الى هذا النموذج من الاحداث: إن الديمقراطية الداخلية التي كانت قد بثت الحياة في الحزب البلشفي عام ١٩١٧ لم تتمكن من مقاومة آثارها المدمرة. بيد أن اختفاءها لم يكن ظاهرة مواطئة(*) univo-que ولم يتم وفقاً لسيرورة بسيطة. ففي حين كانت بعض شروط الديمقراطية قد اضمحلت بقيت شروط اخرى، على العكس، حية. ومن ذلك بوجه خاص حرية وجود الاتجاهات والتجمعات، من جهة، وحق التعبير العلني عن الشقاقات والخلافات من جهة اخرى.

لاشك أن الاعتراف بالحقوق الفعلية للمعارضة لا يستنفد متطلبات الديمقراطية الداخلية. فإلى جانبها ثمة متطلبات اخرى ليست اقل أهمية: الطابع الأسمى للمؤتمرات كهيئة تحدد سياسة الحزب، وتوضع قراراتها فعلياً موضع التطبيق، وإمكانية قيام المؤتمر بمراقبة نشاط اللجنة المركزية، وانعدام تدخل الهيئات المركزية في انتخاب اللجان المحلية والمنطقية وفي تسمية المندوبين إلى المؤتمر، والتجابه الحر لوجهات النظر وإعلام القاعدة بخيارات القيادة وبالمعطيات الواقعية التي تبررها. والحال أن الحقائق الروسية لم تسمح بتطبيق كل هذه الشروط، ولو جزئياً. لقد كان الشيوعيون أنفسهم يعترفون بأن الحرب

(*) نحافظ على المعنى نفسه في مختلف أشكالها (المعرب).

الأهلية أدت الى «عسكرة منظمة الحزب» وبأن هذه العسكرة تجلت بـ « . . . درجة خارقة من المركزية وبانقباض الأجهزة الجماعية»[١٠١]. لكن قبل أن يتم الوصول إلى هكذا وضع، كان الحزب البلشفي قد مرّ، كما يقول البروفسور كار، بمرحلة من «حرية النقاش العام لم تعرفها غير احزاب قليلة بصدد مسائل ذات اهمية حيوية»[١٠٢].

كانت تلك هي الحال على امتداد النقاشات التي تم تكريسها لمشكلة بريست ـ ليتوفسك حين منحت اللجنة المركزية الشيوعيين اليساريين، بناء على طلب لينين، ورغم أهمية الرهان والخلافات، حق التعبير عن وجهات نظرهم في البرافدا والقيام بالتحريض داخل الحزب[١٠٣]. هكذا حصل الشيوعيون اليساريون على حقوق استخدموها في قضايا شتى ولم توفرها لهم قيادة الحزب. وحين ناقشت الهيئات المركزية للسلطة السوفياتية وضع الدستور، جرى إشراك التيار المعارض في هذه الاعمال، الأمر الذي ادى إلى صدامات بين الاتجاه الممركز بقيادة ستالين والمدافعين عن استقلال واسع للسوفييتات[١٠٤]. وحدث الأمر ذاته بعد عام اثناء بلورة البرنامج الجديد للحزب، لأن بوخارين ولينين كانا يدافعان، بصدد سلسلة من القضايا، عن أطروحات متعارضة؛ جرى تعيين كليهما كمقررين ونجحت لجنة أخيراً في تحرير نص تأليفي(*) de synthese. كانت قد سنحت الفرصة لبوخارين ليعلن عن نظرياته التي كانت تتعارض، في كثير من نقاطها، مع نظريات لينين، وذلك في كراس جرى في أيار ١٩١٨ نشر مليون نسخة منه[١٠٦]. وبين الشيوعيين اليساريين وقيادة الحزب، كان السجال يتناول أيضاً التوجه المعطى للاقتصاد السوفياتي؛ وفي هذا الحقل تجابه الاتجاهان في نيسان ١٩١٨ في نقاش علني أمام اللجنة المركزية التنفيذية للسوفييت، بحضور خصوم الحزب البلشفي. ومرة اخرى، جرى تعيين لينين وبوخارين، أحدهما مقرراً والآخر مشاركاً corapporteur . إلا أن الاتفاق لم يتم بينهما ولم تنجح أي اطروحة في الاخير في فرض نفسها[١٠٧].

هذه الممارسات الديمقراطية لم تختفِ كلها مع تطورات الحرب الاهلية و«عسكرة» الحزب. لاشك ان الهيئات المركزية أخذت لنفسها سلطات غير قانونية، لاسيما في تعيين امناء سر للمنظمات المحلية، وكتمت المعارضة انتقاداتها طوعاً. لكن مؤتمر عام ١٩١٩ شهد منازعة قيادة الحزب في حقول عديدة، لاسيما بصدد المشكلات العسكرية، واصطدم لينين، من جهته، في نقاش البرنامج الجديد للحزب، بوجهات نظر الشيوعيين اليساريين القدامى. ومرة أخرى، جوبه تقرير قائد الحزب بتقرير بوخارين المضاد[١٠٨].

(*) أي يوفّق بين وجهتي النظر (المعرب).

عام ١٩٢٠، كانت المعارضة المتجمعة في التيارين المسمّين تيار «المركزية الديمقراطية» وتيار «المعارضة العمالية»، تتمتع حتى ذلك الحين بوجود رسمي، وقد أشركتها اللجنة المركزية بصورة وثيقة في أعمال لجنة مكلفة بإعادة تنظيم الحزب[١٠٩]. وفي الكونفرانس القومي التاسع للمنظمة الشيوعية، حصلت التيارات اليسارية حتى على انتصار بدا آنذاك حاسمًا: فكما يلفت ر.دانييلز النظر إليه، كانت القرارات المصوت عليها تشبه بشكل غريب النصوص التي نشرتها المعارضة[١١٠]. وقد جعل زينوفييف، الحساس جداً بشكل عام إزاء تموجات الرأي، جعل من نفسه الناطق بلسان تيار التجديد وإعادة الدمقرطة الذي كان يسيطر في الحزب وأعلن: «سوف نقيم احتكاكاً أوثق بالجماهير الكادحة؛ سننظم لقاءات في

الثكنات والمعسكرات والمصانع، ومع الجماهير الكادحة... سوف نفهم عندئذ أنه حين نؤكد أن فجراً جديداً يبزغ، لا يتعلق الامر بمزحة... يسألوننا: ماذا تعنون بالديمقراطية العمالية والفلاحية؟ وأجيب عن ذلك: لا اكثر ولا أقل مما كنا نعنيه عام ١٩١٧. علينا أن نعيد مبدأ الانتخاب... ويجب أن يكون واضحاً انه إذا كنا اضطررنا لأن نحرم نفسنا جميعاً حتى الآن... من كل ما يشكل الحقوق الأولية للديمقراطية العمالية والفلاحية، فلقد آن الأوان لوضع حد لهذه الحالة[١١١]. ويلاحظ ر. دانييلز في مؤلفه The Conscienceof the Revolut-ion أنه في «خريف ١٩٢٠، جرى داخل الحزب الشيوعي بلوغ قمة النقاش المفتوح وحرية معارضة سلطة القيادة»[١١٢]. وفي كراس كولونتاي حول **المعارضة العمالية**، وفي معرض الحكم على الوضع الذي كان سائداً آنذاك في الحزب، قدّرت أنه خلال شهور قليلة من وجود مجموعتها تمكنت هذه المجموعة من «إخراج المنظمة (البلشفية) من حالة ركودها وأجبرت قيادتها على الإصغاء لصوت الشغيلة[١١٣]...».

وقد شهدت حرية التعبير، في الاشهر التي تلت الكونفرانس التاسع، تقدماً جديداً وأخيراً. فالمساجلة حول دور النقابات ومكانتها في المجتمع والدولة السوفياتيين كانت في الواقع مناسبة لنقاش تواجهت فيه تيارات عديدة بشكل مكشوف، وذلك في مقالات وكراسات واجتماعات على كل مستويات الحزب، وفي ندوات عامة، وفصّلت حججها وحاولت أن تحوز الاكثرية داخل الهيئات ذات السيادة(*). صحيح أن لينين كان قد اراد في البدء قصر النقاشات على الهيئات القيادية[١١٤]، لكن الانقسام الذي كان سائداً بين اعضاء

(*) حول جوهر النقاش النقابي، انظر ادناه، ص ١٨٠ وما بعدها. وبصدد اتساعه وطابعه العام، انظر لينين، **الاعمال الكاملة**، الجزء ٣٢، ص ٣٩ ـ ٤٢ و٦٧؛ إ. هـ. كار، **مرجع مذكور**، الجزء الثاني، ص ٢٢٣.

اللجنة المركزية تغلب بسرعة على هذه النية طالما أن دور المؤتمر وكذلك القاعدة، وفقاً للفهم السائد، كان يتمثل في ترجيح الاتجاهات الموجودة في القمة حين يبدو أن هذه متكافئة تقريباً(١١٥). جرى إذاً نقاش المسألة النقابية علانية، داخل الحزب وخارجه وفي مناخ من حرية التعبير حقيقي لدرجة أن المجموعات كانت تمتلك وسائل مادية موضوعة تحت تصرفها لكي تنشر بحرية برنامجها. كان ذلك في بداية عام ١٩٢١، في الاشهر والاسابيع التي سبقت مأساة كرونشتاد وانعقاد المؤتمر العاشر. إلا أن هذا الاخير وافق، في مناخ ازمة وانهزام، على تقييد ممارسة الحريات داخل الحزب، وعلى الحد من حقوق المعارضة ووقف سير الديمقراطية الداخلية. إلا أنه يبقى، قبل تحليل آلية هذا التقهقر، إبراز موقف لينين بالذات حيال المشكلات التي طرحتها الديمقراطية في الحزب.

إن لينين، المستعد دائماً لأن يخوض مع المعارضة سجالاً حاداً، لم ينكر عليها طيلة تلك السنوات لا حقَّ الدفاع عن اطروحاتها ولا وسائل ذلك. ولم تكن تلك هي الحال فقط خلال الجدال حول بريست ـ ليتوفسك، حين تمنى منذ المناوشات الأولى انعقاد جمعية تُمثَّل فيها «كل الآراء، وكل وجهات النظر»(١١٦). وقد تكرس هذا الموقف في احداث اخرى من حياة الحزب. ففي المؤتمر الثامن، مثلاً، طالب لينين بـ «تمثيل المعارضة» في الأجهزة المكلفة بوضع نص البرنامج الجديد(١١٧). وإذ فعل ذلك، كان يؤكد فقط وجهة النظر التي كان عبَّر عنها في المؤتمر السابق حين سلَّم بشرعية «التيارات» و«الاجنحة»: «أغلبية» و«معارضة» في الصراع الداخلي(١١٨). لم يكن تمثيل الاتجاهات من جهة أخرى معتبراً فقط أمراً طبيعياً في المؤتمر، بل كذلك على مستوى اللجنة المركزية التي كان لينين يتمنى أن تكون متجانسة لكن ليس مونوليتية، وحيث لم تكن قاعدة الإجماع جائزة(*). كذلك طالب بحضور المعارضة ـ الشيوعية اليسارية عام ١٩١٨ و«المعارضة العمالية» عام ١٩٢١ـ على هذا المستوى من القرار(**). كان يجب كذلك تطبيق تمثيل الاتجاهات في اختيار القادة الذين قد تنتدبهم المنظمة النقابية إلى اللجنة المركزية(***).

(*) «طلبت ان تكون اللجنة المركزية قادرة على تحقيق سياسة منسجمة. وهذا لا يعني ان يكون من واجب كل اعضائها حمل القناعة ذاتها»: هذا ما اعلنه لينين في المؤتمر السابع للحزب. (**المؤلفات**، ج ٢٧، ص ١٥٠).

(**) بالنسبة لعام ١٩١٨، انظر اعلاه، الجزء الثاني، ص ١١٦، وبالنسبة لعام ١٩٢١، انظر ادناه ص ١٢٦.

(***) لينين، **المؤلفات الكاملة**، ج ٣٠، ص ٤٩٠. صحيح انه في ذلك الظرف، كان لينين يدافع عن تمثيل «الاتجاه العاقل»، ذلك الذي كان... يدافع عن وجهة نظره هو.

في تشرين الثاني ١٩٢٠، خاطب لينين الشيوعيين الايطاليين فكرر أنه يجب إعطاء «كل الاتجاهات (حق) التعبير[١١٩]». كان يعتبر في الفترة ذاتها أن هذه الاتجاهات تمتلك ميلاً طبيعياً وشرعياً إلى التشكل في تكتل عدَّد بعض صلاحياته: الانتخاب إلى الهيئات القيادية على قاعدة التجمع في «تيارين أو تكتلين» و«حضور فاحصين من جانب التكتلين مكلفين بإحصاء الاصوات المستحصل عليها». واضاف لينين أن «التمثيل النسبي» لهذه التكتلات يبدو له أمراً لا غنى عنه».. لأجل الانتخاب الى الاجهزة التداولية، كالمؤتمرات والكونفرانسات، لكن ليس لتشكيل اجهزة تنفيذية، «مكلفة بقيادة النشاط العملي»[١٢٠].

وفي كانون الثاني ١٩٢١، اعلن لينين في إطار الحملة التي سبقت اجتماع المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي حق المجموعات المتشكلة داخلهُ بأن تشكل فيما بينها «كتلاً»، «بوجه خاص، قبل المؤتمر (وكذلك من أجل السعي وراء أصوات»[١٢١].

مرة اخرى، لم يكن الامر يتعلق بمبدأ عام ومجرد. كانت تحدد موقف لينين طبيعة التيارات التي كان ينطبق عليها. وهذه التيارات القائمة على الاحتجاج او المعارضة، وإن بدت للينين مخطئة وحتى خطرة، كانت لا تزال تعبر عن آراء والتزامات **شيوعية**. هذا هو المعنى الذي كان يتلبسه الاطراء الذي وجهه مرتين لبوخارين والذي يمتنع عن إبرازه المؤرخون السوفيات، المهتمون بإظهار المعارضين - أو بعضهم - كخونة. ففي عز الجدال النقابي، في حين كان لينين يخوض ضد مجموعات شتى - «المعارضة العمالية» و«المركزية الذيمقراطية»، لكن كذلك المجموعة التي شكلها بوخارين وتروتسكي - النقاش الأشد قسوة، تحدث لينين عن «رقة» معارضِهِ، «وهي... صفةٌ يُحَبُّ كثيراً بسببها، ولأجلها لا يمكن الامتناع عن حبه(*)». وأضاف بعد قليل مديحاً آخر اكثر سياسية حين أطرى «مواهب (بوخارين، م.ل.) كمنظِّر، واهتمامه بتمحيص كل مسألة حتى جذورها النظرية»[١٢٢].

وفي التحليل الاخير، إن المواهب النظرية لدى بوخارين وشيوعيين آخرين ليسوا أقل موهبة للتحليل كانت قيِّمة جداً لاسيما أن «النضال الايديولوجي» كان يمثل بالنسبة للينين شرطاً أساسياً لحياة الحزب. كان يبدو له «ضرورياً من أجل التقارب»[١٢٣]. لأنه فقط تعميقُ الخلافات النظرية كان يمكنه أن يتيح للحركة الشيوعية صنع وحدة لا تكون وهمية. وهذا الاعلان، الذي صدر عنه قبل قليلٍ من المؤتمر العاشر الذي قيَّد حقوق المعارضة - هذه الحقوق التي لم تتم إعادتها أبداً - يعيِّن الحدود التي كان يجب أن تكون لهذا التدبير في ذهن

(*) لينين، **المؤلفات**، ج ٣٢، ص ٤٦. يتكلم لينين أيضاً على الطبيعة «الغنية» لبوخارين، «العاجز عن خلط.. هجماته بالسم». (المرجع ذاته، ص ٧٥).

بطله الرئيسي. كان يبدو أنه في اللحظة التي كانت تنهار فيها الديمقراطية الداخلية للحزب الشيوعي، المتصدعة بعمق، أصرت على أن تعلن للمرة الاخيرة أحد متطلباتها الاكثر ضرورة.

مؤتمر عام ۱۹۲۱ وما بعده:

إذا كان المؤتمر العاشر للحزب، المنعقد في آذار ۱۹۲۱، ادى كما سنرى إلى انهيار الديمقراطية الداخلية، فلا يجب أن نَخْلص من ذلك إلى انها كانت تتمتع حتى ذلك الحين بصحة مزدهرة، كان الأمر يحتاج إلى الكثير. لقد قلنا إن المنظمة الشيوعية كانت قد خضعت، بسبب الحرب الاهلية، لسيرورة «عسكرة». هذه السيرورة لم تكن تمنع النقد ولا المعارضة؛ كانت تغذيها، على العكس، وتقدم لها مادة لاحتجاجات كثيرة. إن مجموعات مثل «المركزية الديمقراطية» و«المعارضة العمالية» كانت من جهة اخرى تؤسس وجودها وبرنامجها على الثغرات العميقة لديمقراطية كانت تطالب بإعادتها إلى داخل الحزب. لم تكن تنقص حالات العسف، وانتهاكات النظام الداخلي، وأعمال الاكراه، وبصورة أعم الاختلالات في الهرمية؛ وخلال المؤتمر التاسع، في آذار ۱۹۲۰، كان خطباء المعارضة قد وضعوا لائحة بها، طويلة ولا ترحم. لقد فضحوا حالات نقل مناضلين وكوادر لأسباب سياسية، وفي بعض الحالات كان هؤلاء ضحايا تدابير احتجاز اصابت أحياناً لجاناً بكاملها. وبصورة اكثر تواتراً، كانت منظمات محلية ترى هيئاتها التنفيذية وقد استُبدلت بـ«فروع سياسية»، تعينها مباشرة هيئات الحزب المركزية[١٢٤]. واكد عضو في مجموعة «المركزية الديمقراطية» أيضاً ان اللجنة المركزية أبعدت عن روسيا شليابنيكوف، الذي تم إرساله في اللحظة المناسبة في مهمة إلى الخارج بعد أن جرى استبداله على رأس نقابة عمال التعدين، لمنعه من تعزيز المعارضة في المؤتمر. وقد رفض لينين هذا الاتهام، وأضاف انه لو تم فعلاً اتخاذ تدبير كهذا لكان ذلك «عملاً مخزياً»[١٢٥]. والحالة هذه، كانت إنكاراته مبررة على الأرجح[١٢٦]، لكن نظام «النفي» السياسي، وان كان مؤقتاً للغاية، كان موجوداً في كل حال. وإن مراقبين متعاطفين بقدر فيكتور سرج وألفرد روسمر يعترفون بحقيقة ذلك[١٢٧].

لقد كانت ألكسندرا كولونتاي، في كراسها **حول المعارضة العمالية** تهاجم بعنف البيروقراطية الشيوعية وتصف الاساليب التي كانت تلجأ اليها داخل الحزب. كانت نتيجتها «تقييد مبادرة الاعضاء إلى الحد الاقصى» و«إطلاق صفة «الهرطقة» على كل فعل أو كل فكرة أفلتت من رقابة القيادة التي يجب أن «تتوقع» كل شيء و«تصدر التعليمات» بصدد كل

شيء[١٢٨]». وقد أكدت كولونتاي، فضلاً عن ذلك، أن «الخوف من النقد ومن التعبير الحر عن الآراء» كان بصدد اتخاذ «أشكال كاريكاتورية»[١٢٩] وان استبدال انتخاب أمناء السر المحليين من تحت بالتعيين من فوق كان يتسبب بظهور مناخ من التسلطية والزلفى[١٣٠] في منظمات الحزب. ولا شك أن بعض هذه المآخذ كانت تتعارض جزئياً مع واقعة نشرها بشكل واسع، وكانت تدخل فيها فضلاً عن ذلك نية سجالية. لكن من حيث الجوهر، لم يكن بالامكان المجادلة في ملاءمة تلك الانتقادات، وإذ كانت الهيئات الرسمية تعلن عن نواياها الاصلاحية والديمقراطية، كانت تعترف في الوقت ذاته بخطورة الوضع وبالانتهاكات للديمقراطية الداخلية. لقد كلف الكونفرانس التاسع للحزب نفسه، من جهته، في قرار نهائي، وضع جردة بها مطالباً بين ما طالب به بـ «نقد أوسع للمؤسسات الشيوعية، على المستوى المركزي كما على المستوى المحلي، بالاضافة إلى إلغاء «كل اشكال القمع حيال رفاق بسبب الافكار التي يعتنقونها»[١٣١].

كل هذه العيوب كانت حقيقية، وإن عجز المعارضة عن اقتراح علاجات ملموسة لتصحيح الوضع عن طريق الرجوع الى أصل المرض لم يكن يقلل بتاتاً من اهمية هذه الانتقادات. إلا أن إمكانية التعبير عنها على اعلى مستوى واعطائها علنية واسعة، دون إزالة الامراض المندد بها، كانت قادرة على حصر مضارها. لذا فإن التقييد الصارم لحقوق المعارضة الذي يصل الى حد تهديد وجودها، كما تقرر في المؤتمر العاشر، يشكل منعطفاً مهمّاً في تاريخ الحزب اللينيني. وليس كافياً القول إن نتائج ذلك كانت دائمة. لقد تعرضت آليات المراقبة والنقد، ترياق ملامح التسلطية التي باتت قائمة في حياة الحزب، تعرضت للاصابة والتشويه النهائيين في آذار ١٩٢١.

ومن الغريب أنه سبق هزيمة الديمقراطية هذه أحد تجلياتها الاكثر إذهالاً، وهو تجلٍّ مذهل إلى حد انه ساهم عن طريق بعض إفراطاته في تسريع الازمة وخاتمتها المشؤومة. لم يكن الجدال بصدد المسألة النقابية قد بث الحياة في الحزب فقط؛ لقد هزه بشدة، وأمكن تقلباته أن تظهر مقلقة إلى حد أنه كان للمساجلة، من نواحٍ عديدة، طابع مصطنع وشبه عديم الواقعية. وفي معرض الاشارة إلى «البلبلة» التي كانت سائدة بهذا الصدد في اللجنة المركزية، اكد لينين انها «المرة الاولى التي يحدث فيها شيء من هذا القبيل في تاريخ حزبنا منذ الثورة»[١٣٢]. وهذه الملاحظة تفاجىء إذا فكرنا بحدة النقاش الذي كرسته اللجنة المركزية عام ١٩١٨ لمشكلة صلح بريست ـ ليتوفسك. بيد أنه كان بين الحادثتين فرق مهم يبرر، في عودة إلى الوراء، لا مبالاة لينين خلال أولاهما ومخاوفه خلال الثانية. إن القرار الذي اتخذه الشيوعيون خلال مفاوضات بريست ـ ليتوفسك تم في مرحلة كانت الثورة لا تزال تستفيد فيها من الدينامية التي اكتسبتها في الاشهر التي سبقتها، في حين ان النقاشات حول

المسألة النقابية كانت تتم في فترة ازمة وإحباط. من جهة اخرى، كانت المشكلة التي أثارتها عام ١٩١٨ ضرورة وضع حد للحرب تضع وجهاً لوجه اتجاهات متمايزة بوضوح كانت خياراتها تستتبع اصطفاءً لا التباس فيه. إن السجال حول النقابات يعطي على العكس انطباعاً بأنه دار في مناخ خيالي(*) حيث حيوية الأحاديث تجد تفسيرها في انفجار الاهواء التي كُظمت وقتاً طويلاً اكثر مما في عدم توافق المواقف المتقابلة. لقد كان لينين على حق بلا جدال حين نظر إلى «الحقيقة المرة مواجهةً» فأكد أن «الحزب مريض»، أنه «يرتعش من الحمّى»[١٣٣]. وقد توصل أمام مؤتمر لعمال المناجم إلى التعبير عن خوفه من رؤية شقاق يحدث بين الشيوعيين[١٣٤] وخلص من ذلك إلى أنه في الظروف الراهنة كان يمكن لخلق تكتلات جديدة أن تؤدي إلى أكثر النتائج شؤماً[١٣٥].

هكذا كان المدخل المقلق الى المؤتمر العاشر في المنظمة اللينينية بالذات. كانت خطورة الازمة التي يجتازها الحزب تعكس الازمة التي كان يشهدها البلد بأسره والتي كانت احداث كرونشتاد المأساوية وتمردات الأرياف والاضرابات العمالية تقيم الدليل الكافي عليها(**). ولينين لم يصف، بصورة منهجية، في المؤتمر بالذات، هذه الشروط التي كان كل المندوبين يعونها تماماً، من جهة أخرى. لكن بعد عام، في المؤتمر الحادي عشر، أعلن مذكراً بالوضع الذي كانت قد عرفته روسيا في نهاية شتاء ١٩٢٠- ١٩٢١ وبالمخاطر التي كان قد واجهها الحزب الشيوعي: «إن التراجع بعد هجوم عظيم ومظفَّر أمر بالغ الصعوبة؛ فالعلاقات هنا مختلفة جداً؛ وهناك، حتى دون السهر على الانضباط، يندفع الجميع ويطيرون إلى الأمام؛ هنا، ينبغي أن يكون الانضباط اكثر وعياً، وهو أشد ضرورة مئة مرة، لأنه في حين ينكفىء كل الجيش، لا يدرك بوضوح، لا يرى أين يجب أن يتوقف، وتكفي احياناً بضع صيحات ذعر حتى يفر الجميع. إن الخطر هنا عظيم. وحين يكون جيشٌ هو الذي يتقهقر هكذا، يجري نصب رشاشات، وفي اللحظة التي يصبح فيها التقهقر مضطرباً بعد أن كان منظَّماً، يصدر الأمر: «أطلِقوا النار! وهو ما يحدث». وأيضاً: «إذا كان ثمة أناس ينشرون الهلع، حتى لو كان ذلك مع أفضل النوايا، في وقت نقوم فيه بانكفاءٍ بالغ الصعوبة، وحيث يكمن كل شيء في الحفاظ على النظام، من الضروري عند ذاك إنزال العقاب الصارم والقاسي وعديم الرحمة عند ادنى إخلال بالانضباط[١٣٦]».

جين افتتح لينين مؤتمر آذار ١٩٢١، أفهم (الحاضرين) أن قرارات مهمة يجري إعدادها. وإذ استرجع مسار النقاش النقابي، أكد مايلي: «لقد عشنا سنة استثنائية، سمحنا

(*) انظر ادناه، ص ١٨١ وما بعدها.

(**) انظر اعلاه، الجزء ٢، ص ٦٤.

لأنفسنا بترف نقاشات وجدالات داخل حزبنا. وبالنسبة لحزب محاط بالأعداء، أعداءٍ هم بين الأقوى والأكثر قدرة يجمعون كل العالم الرأسمالي، بالنسبة لحزب يتحمل عبئاً لا يُصدَّق، كان هذا الترف مذهلاً حقاً[١٣٧]». وإذا كان الحزب مقصوداً بمجمله، فـ «المعارضة العمالية» هي مع ذلك التي تلقت الهجمات الاكثر مباشرة والاشد عنفاً. فلقد سخر لينين من «احاديثها حول حرية الكلام وحرية النقد... (اللتين) تشكلان تسعة أعشار جوهر خُطَبٍ فارغة من الجوهر[١٣٨]». واكد ان افكارها كانت «التعبير العملي عن التذبذبات البورجوازية الصغيرة.. وتساعد عملياً أعداء الثورة البروليتارية الطبقيين[١٣٩]». وقد ترافق النقد هذه المرة بتهديد: «إذا..، واظبوا على لعب لعبة المعارضة، بسيكون على الحزب أن يطردهم[١٤٠]». وقد كان في ذلك ما يكفي من الهجمات لكي يغتاظ مندوبو «المعارضة العمالية»- كانوا حوالي الخمسين في المؤتمر- ويرفض الناطقون بلسانهم أن يُنتَخَبوا إلى اللجنة المركزية كما كان يتمنى لينين. فألح هذا الأخير عندئذ، مذكِّراً بأن القيادة تبنت بعض مطالب المجموعة، لاسيما فيما يتعلق بالديمقراطية و«المبادرة العمالية»[١٤١]، وابدى لهم «ثقته الاخوية»[١٤٢] وصوَّر انتخابهم كـ «علامة ثقة عظيمة، الاعظم التي يمكن ان يبديها الحزب[١٤٣]». وأخيراً، بعد إيداع مشروع قرار جرى تحريره بوجه خاص لهذه الغاية، تم انتخاب ممثِّلَين «للمعارضة العمالية»، هما شليابنيكوف وكوتوزوف، إلى اللجنة المركزية، في حين جرى انتخاب عضو من مجموعة «المركزية الديمقراطية» عضواً احتياطياً فيها[١٤٤].

كانت جلسات الحزب مستمرة منذ اسبوع وكان يمكن الاعتقاد بأنها ستنتهي عند بادرة التهدئة تلك حين عمد لينين في اليوم الاخير للمؤتمر، وفي حين كان عدة مئات من المندوبين قد غادروا العاصمة، إلى تقديم مشروعي قرار، أحدهما «حول وحدة الحزب» والآخر حول «الانحراف النقابوي والفوضوي في حزبنا». وهذان النصان، اللذان جرى تقديمهما في حين كان اختتام اعمال المؤتمر يقترب، وبات نقاشٌ معمَّقٌ مستحيلاً، هما اللذان أعطيا المؤتمر العاشر معناه الكامل والخطر. المشروع الأول، ذلك المتعلق بوحدة الحزب، نص بعد أن فضح أخطار «الروح التكتلية أياً تكن» و«كل انحراف عن الخط الشيوعي الدقيق» في الظروف التي كان يجتازها البلد[١٤٥]، على انه «في النضال العملي ضد التكتلات، يجب ان تجتهد كل منظمة حزبية بصرامة في عدم السماح بأي عمل تكتلي[١٤٦]» وقضى «بالحل الفوري لكل الجماعات بلا استثناء التي تشكلت حول هذا البرنامج أو ذاك (مجموعات «المعارضة العمالية» و«المركزية الديمقراطية»، الخ)»، موضحاً أن «عدم تنفيذ قرار المؤتمر هذا يجب أن يؤدي حتماً إلى الطرد الفوري من الحزب[١٤٧]». وأخيراً، لحظ بند لم يكن معداً للنشر انه لضمان «أقصى درجات الوحدة» فإن «المؤتمر يعطي اللجنة المركزية كامل الصلاحية لكي تطبق في حال خرق الانضباط أو استئناف العمل التكتلي أو الانخراط به، كل العقوبات

الحزبية بما فيها الطرد، وبما يخص اعضاء اللجنة المركزية إنزال رتبهم إلى صفوف الاحتياطيين، وحتى الطرد من الحزب كتدبير أقصى» على أن يستوجب هذا القرار الاخير موافقة ثلثي اللجنة المركزية[١٤٨]. وقد جرى تبني هذا الاقتراح ضد رأي **٢٥** مندوباً[١٤٩]، وذلك بعد أن أوضح لينين أن البند السري «تدبير أقصى يجري تبنيه بصورة استثنائية»[١٥٠].

وكان القرار الثاني الذي ادخله لينين مخصصاً «للمعارضة العمالية» المصوَّرة كـ «انحرافٍ نقابوي وفوضوي». إن المجموعة التي كانت بقيادة كولونتاي وشليابنيكوف - التي جرى الاعتراف مع ذلك بميزاتها المهمة في بعض الأمور - هذه المجموعة التي تعرضت للنقد لكونها تجاهلت أن «الحزب السياسي للطبقة العاملة، أي الحزب الشيوعي، هو الوحيد القادر على أن يجمع طليعة البروليتاريا (باستثناء النقابات، م. ل.) ويربيها وينظمها»، وجدت نفسها محكوماً عليها بالزوال طالما أن المؤتمر كان يؤكد أن «الدعاوة لهذه الأفكار (الخاصة بـ «المعارضة العمالية»، م. ل.) لا تتوافق مع الانتماء إلى ح. ش. ر. (الحزب الشيوعي لروسيا، م. ل.)»[١٥١]. وقد تم التصويت على القرار بالاجماع، ضد **٣٠** صوتاً[١٥٢].

كانت هذه القرارات جوهرية بالنسبة لمستقبل الحزب وتُلقي الحيثيات التي أحاطها بها لينين الضوء على معناها. كان قد حدد «الروح التكتلية» بأنها وجود «المجموعات التي تقدم برنامجاً خاصاً، ميّالةً إلى الانطواء لحدٍّ ما على نفسها وخلق انضباطها الخاص بها كمجموعات»[١٥٣]. هذه «الروح التكتلية»، المتصورة هكذا، جرى إقصاؤها من ممارسة معظم المنظمات السياسية، سواء كانت شيوعية أو لم تكن. كان يمكن إدانة «كل انحراف عن الخط الشيوعي الدقيق» أن تظهر على العكس أقل تفاهة وأكثر عسفاً وبالتالي اكثر خطورة. ويبدو أن لينين ادرك ذلك وأصر على توضيح أنه «بقول (انحرافات)، نشدِّد على أننا لا نرى فيها بعد أي شيء متشكل نهائياً، أي شيء مطلق ومحدد كلياً، لكن فقط بداية توجه سياسي لا يمكن الحزب الامتناع عن الحكم عليه»[١٥٤] مضيفاً أن «الانحراف» يشكل «خطأ... من السهل إصلاحه»[١٥٥]. وبما أن هذه الشروح لم تكن كافية، بلا ريب، أصر لينين على تقديم تطمينات جديدة وأعلن أنه «إذا وجدنا كلمةً أضعف، قد اقترح وضعها محل كلمة «انحراف» وتخفيف بعض المقاطع الاخرى»[١٥٦]، ووجَّه حتى هذا الاقتراح إلى شليابنيكوف مباشرة[١٥٧].

بالمقابل، كان في مداخلات لينين مقاطع بدل أن تُطَمئن كان فيها ما من شأنه أن يحفز أشد المخاوف. فليس فقط كان القرار المخصص «للمعارضة العمالية» يتخطى حظر التكتلات ويقمع عن طريق أخطر العقوبات الدفاع عن بعض الآراء المعتبرة بصورة تعسفية غير شيوعية (مع انه جرى استلهامها أحياناً بشكل واسع) بل لقد تكلم لينين في الجدال على

تقريره الخاص بـ «حظر المعارضة»[158]. وأضاف بعد قليل أن «الحراس البيض يريدون ويعرفون أن يتخفوا في (شكل) شيوعيين، وحتى شيوعيين من أقصى اليسار»[159]. هل كان يعني بذلك ضمناً أن صفة عضو في الحزب قد لا تضع أحداً بعد الآن بمنجى من الارهاب المعد أصلاً لضرب الثورة المضادة؟ وأياً يكن من هذه التأويلات، فإن مجمل القرارات المتخذة في المؤتمر العاشر وتصريحات لينين كان يعني تعزيز الجهاز البيروقراطي والقمعي داخل الحزب الشيوعي بالذات، على الاقل لبعض الوقت. وأن يكون الاعلان عن هذه التدابير والتصويت عليها ترافقا بوعود مؤثرة حول إعادة الديمقراطية الداخلية(*) ليس برهاناً على النفاق بقدر ماهو دليل على الخفة وانعدام التماسك. ان القرار حول «وحدة الحزب» بالذات كان يتكلم في الواقع على «النقد الضروري بشكل مطلق» الذي كان يجب توجيهه ضد عيوب التنظيم[160]، لكن لينين حين أضاف ان «كل نقد يجب . . . أن يأخذ بالحسبان ـ بما يخص شكل مداخلته ـ وضع الحزب المحاط بالأعداء»[161] كان يثبِّط سَلَفاً همَّة من يقع من الاعضاء تحت إغراء الأخذ بنصيحته الأولى.

إذ يتذكر تروتسكي المؤتمر العاشر وقراراته حول وحدة الحزب، هو الذي تسنى له منذ عام **١٩٢٣** أن يلاحظ مساوئه ويصاب بها، يزعم في **الثورة المغدورة** أن «حظر التكتلات كان . . . متصوراً كتدبير استثنائي يتوقف تطبيقه ما أن يحدث أول تحسن جدي للوضع[162]». وهذا التأكيد كان بدا اكثر إقناعاً لو جرى التعبير عنه في فترة المؤتمر بالذات. والحال انه لا شيء من هذا القبيل جرى إعلانه خلال النقاشات، على الأقل بصورة على هذه الدرجة من الوضوح. هل هذا يعني ـ والمسألة هنا ذات أهمية كبرى لتحليل اللينينية ـ أن التدابير المضادة للديمقراطية المتخذة في آذار **١٩٢١** بطلب من لينين كان لها طابع نهائي؟ إنه ليستحيل إطلاقاً إسناد هكذا تأكيد. لاشك أن لينين لم يكن واضحاً حقاً إلا بصدد البند الذي يلحظ طرد أعضاء في اللجنة المركزية عبر تصويت بأغلبية الثلثين، والذي قدمه كتدبير «استثنائي» ومرتبط بوجود «وضع خطير[163]». من جهة اخرى، اكد في الخطاب الذي ألقاه لختم النقاش حول تقرير النشاط: «لم يعد من حاجة للمعارضة، أيها الرفاق، **ليس الوقت مناسباً!**» وكذلك: «أيها الرفاق، نحن لسنا بحاجة الى معارضة **في الوقت الحاضر**(**)». عدا ذلك، كان لينين قد ألح كثيراً على الشروط الموضوعية التي تحيط بالمؤتمر ـ الحديث باستمرار عن العدو ـ، وهذه الشروط كانت فضلاً عن ذلك خطيرة جداً بحيث لا يمكن أن نشك في

(*) قام بيير برويه بتلخيص هذه التصريحات بصورة واسعة، **Le parti Bolchevique**، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(**) التشديد من وضعنا؛ لينين، **الأعمال الكاملة**، ج ٣٢، ص ٢٠٩

أن قرارات المؤتمر العاشر لم تكن سوى رد، غير مناسب، على وضع **محدد**. **هذا الوضع**، كما رأينا، كان قد جرى تحديده بوضوح وإسهاب كعملية انكفاء كان ينبغي بالضرورة افتراض أنها مؤقتة، إلا إذا جرى التخلي إلى الأبد عن المشروع الثوري. ويمكن أن نجد دليلاً إضافياً على ذلك في رد لينين على مداخلة من ريازانوف، ذلك الرد الذي اعتبر فيه «مفرطاً» و«غير قابل للتحقيق» تَمَنٍّ «منع طرحها (أي «الخلافات الاساسية»، م.ل.) على حكم الحزب بكامله»، وأمراً معقولاً احتمال انتخاب المندوبين إلى مؤتمر لاحق على أساس برامج[١٦٤].

لقد كان ينطبق أخيراً على هذا الموضوع ماكان ينطبق على موضوع أصول الحزب الواحد. فمثلما لم يكن قرار منع وجود أحزاب معارضة أو تحويل هذا الوضع إلى نظام أمراً متصوراً عن عمد، فإن الغاء احد الشروط الاساسية للديمقراطية الداخلية - حق وجود تيارات أقلية ومجادِلة - لم يُطرح كمبدأ، وبوجه خاص لم يتم تقديمه كمَلْمَحٍ ملازمٍ للنظام السوفياتي ولنظرية الحزب. كان لينين قد رد على أزمة استثنائية بتدبير استثنائي. ولاشك أنه كان يتخيله مؤقتاً: وهي قرينة غير حذرة، كان لها وزن مهم في ولادة وتطور امتثالية سلطوية وعقيمة داخل الحركة الشيوعية.

في آب ١٩٢١، وتطبيقاً للبند السري المصوّت عليه في المؤتمر العاشر، طلب لينين طرد شليابنيكوف من الحزب. كان يأخذ عليه مواصلة العمل التحريضي الذي كان قد اندفع فيه داخل «المعارضة العمالية». وقد رجع القرار الى اللجنة المركزية التي تدخلت بالتنسيق مع لجنة الرقابة المركزية. إن اقتراح لينين الذي نال ١٧ صوتاً من أصل ٢٧ عضواً حاضراً، سقط لكونه لم يجمع غالبية الثلثين[١٦٥]. وبعد أشهر، عام ١٩٢٢، لم يفْلت معارض آخر، هو ميازنيكوف، الذي كان يطالب منذ وقت طويل بإعادة حرية الصحافة بالكامل، من عقوبة الطرد، علماً أن هذه العقوبة اتخذت لمدة عام فقط[١٦٦]. وفي مؤتمر آذار ١٩٢٢، تعرض العديد من أعضاء «المعارضة العمالية» للمصير نفسه[١٦٧]. صدر عن لجنة الرقابة المركزية، التي جرى إنشاؤها للنضال ضد تجاوزات البيروقراطية، إعلانٌ يثبت إلى أي حد تبدل معنى مهمتها. لقد أعلنت ان مهمتها ستتمثل بعد الآن في «السهر على ألا يحيد أحد عن خط الحزب، كما حددته اللجنة المركزية (وليس المؤتمر، م.ل.): إنها تتخذ تدابير من شأنها إصلاح الانحرافات وإعادة أصحابها إلى الخط القويم»[١٦٨].

بعد أسابيع قليلة، غدا جوزف ستالين أميناً عاماً للحزب الشيوعي.

الشيوعيون :

منظمين في خلايا أقل فأقل استقلالاً، مجموعين في فروع يسود فيها انضباط اكثر فأكثر قسراً، أعضاء في حزب مدعو للسيطرة على الدولة، من كان أخيراً هؤلاء الشيوعيون، ورثة الهدم القديم، المكلّفون الآن بالبناء والتنظيم والادارة، وكم كان عددهم؟

تتراوح التقديرات بصدد عدد أعضاء الحزب الشيوعي حسب المصادر، على الأقل بما يتعلق بالسنوات الأولى للنظام حين لم يكن يسمح ضعف السكريتيرية والطابع المستقل للعديد من المنظمات المحلية بمركزة الاحصاءات. إن المؤلّف الاكثر دقة والاكثر كمالاً يقدم مع ذلك الأرقام التالية :

	أعضاء	مرشحون(*)	المجموع
١٩١٧	٢٤٠٠٠		
١٩١٨ (آذار)	٣٩٠٠٠٠		
١٩١٩ (آذار)	٣٥٠٠٠٠		
١٩٢٠ (آذار)	٦١١٩٧٨		
١٩٢١ (آذار)	٧٣٢٥٢١		
١٩٢٢	٤١٠٤٣٠	١١٧٩٢٤	٥٢٨٣٥٤
١٩٢٣	٣٨١٤٠٠	١١٧٧٠٠	٤٩٩١٠٠
١٩٢٤	٣٥٠٠٠٠	١٢٢٠٠٠	٤٧٢٠٠٠[١٦٩]

ويفصّل المصدر ذاته التركيب الاجتماعي للحزب الشيوعي كالتالي :

	عمال	فلاحون	ياقات بيض وغيرهم
١٩١٧	٪٦٠,٢	٪٧,٥	٪٣٢,٢
١٩١٨	٪٥٦,٩	٪١٤,٥	٪٢٨,٦
١٩١٩	٪٤٧,٨	٪٢١,٨	٪٣٠,٤
١٩٢٠	٪٤٣,٨	٪٢٥,٨	٪٣١,١
١٩٢١	٪٤١	٪٢٨,٢	٪٣٠,٨[١٧٠]

(*) حول «المرشحين» انظر أدناه، ص ١٣٤ .

لقد رفعت تطهيرات عام ١٩٢٢ نسبة العمال، التي بلغت عام ١٩٢٣ ٤٥٪، مقابل ٢٦٪ من الفلاحين و ٢٩٪ من فئات «متنوعة[١٧١]».

ويكشف هذا الإحصاء الدخول الكثيف للعمال في الحزب الشيوعي. وإن مقارنة للجدولين تبينّ في الواقع انضمام ٢٠٠ ألف إلى المنظمة البلشفية في عام ١٩١٧ حصراً وهذا الرقم لا يأخذ كل معناه إلا إذا أخذنا بالحسبان العدد الهزيل للبروليتاريا الصناعية الروسية الذي لم يكن يزيد أبداً عن ثلاثة ملايين شغيل. وبعد عام ١٩١٧ على العكس من ذلك يستدعي الإحصاء الذي يشير إلى نسبة العمال بين اعضاء الحزب بعض التحفظات، فعموماً كانت المعطيات المستحصل عليها مستندة في الواقع الى المهنة الأصلية للمنتسبين وليس إلى العمل الفعلي. هكذا، بالنسبة لعام ١٩١٩، يكشف الإحصاء وجود ٤٧,٨٪ من العمال بين الأعضاء؛ لكن اكثر من ٦٠٪ بينهم كانوا يشتغلون في إدارات الدولة أو الحزب أو النقابات، وكان ٢٥٪ منخرطين في الجيش الأحمر و١١٪ فقط يشتغلون فعلياً في المصانع[١٧٢]. وكان يحصل من جهة أخرى أن يحاول منتسبون إخفاء اصولهم غير البروليتارية أو يصطنعون ماضياً بروليتارياً[١٧٣]. يبقى أن نسبة العمال كانت مرتفعة جداً بين أعضاء الحزب في فترة عرف فيها عمال الصناعة، كما سنرى، هبوطاً هائلاً[*]. أما عدد الفلاحين، فكان نموه عادياً بالنسبة لحزب كان عشية ثورة اوكتوبر وغداتها غائباً عن الأرياف ولم يظهر فيها حقاً إلا بعد الاستيلاء على السلطة واخذ مسؤوليات على المستوى المحلي. فلنضف إلى ذلك أن الحزب الشيوعي كان إجمالاً حزب رجال وحزب شبيبة. فعام ١٩٢٢، كان ٧,٥٪ فقط من اعضائه نساء وفي نهاية عام ١٩١٩، اكثر من نصف الاعضاء كانوا ما دون الثلاثين عاماً وأقل من ١٠٪ فقط كانوا فوق الاربعين[١٧٤].

كان ثمة اكثر من سبعمئة ألف عضو عام ١٩٢١. حزب جماهيري إذاً يمكن مقارنته من حيث العدد بالمليون منتسب إلى الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الألماني عام ١٩١٤، المنغرس في الحقيقة في بلد أقل سكاناً، لكن المستند بالمقابل الى طبقة عاملة أكبر عدداً بشكل واضح. حزب جماهيري مختلف تماماً، باتساع عدد أعضائه وبطابع نشاطاته وبوظائفه السياسية، عن البدعة القديمة للمتآمرين والثوريين المحترفين والمناضلين السريين. حزب جماهيري يعمل ويُنَسِّب في وضح النهار ويبدو أنه ينتمي، لهذا السبب، إلى النوع ذاته الذي تنتمي إليه التكوينات السياسية الكبرى التي تجمع البروليتاريا وتنظمها في أوروبا الغربية. ومع ذلك، رغم بعض المظاهر، كان الحزب البلشفي، المعاد تعميده باسم «الحزب الشيوعي

(*) انظر ادناه، ص ١٨٧.

(البلشفي)»، عام ١٩١٩، لا يزال مختلفاً بعمق عن الأحزاب العمالية الغربية. فالعدد لا يغيّر شيئاً في الواقع لأن البلاشفة ظلوا بعد وصولهم الى السلطة أوفياء لبعض التصورات الأساسية للينينية، من حيث طبيعة حزب الطليعة ووظيفته. نجمت عن ذلك فرادةٌ أعطى لينين صورة عنها في مقال نشرته البرافدا في تشرين الاول ١٩١٩: «الحزب الحكومي الوحيد في العالم الذي لا يهتم بزيادة عدد أعضائه بل برفع نوعيتهم، وتطهير الحزب من «التسللات»...[١٧٥]».

رغم العدد الكبير لأعضاء الحزب الشيوعي، والتحوّل الكامل في دوره، حاول في الواقع بدفعٍ من لينين أن يحتفظ، مهما يكن الثمن، بطابعه كطليعة بروليتارية. والصعوبات الموضوعية التي اصطدمت بها هذه المحاولة كانت كبيرة وقد أدرك لينين ذلك بسرعة عظيمة. فمنذ شهر كانون الثاني ١٩١٨، وفي مداخلةٍ امام اللجنة المركزية في حين كانت الأذهان مشدودة إلى الجدال الدائر حول بريست ـ ليتوفسك، برهن لينين عبر ملاحظة عرضية في الظاهر، إلى أي حد يشغله التحول الذي كان الحزب مهدداً بالخضوع له بعد الاستيلاء على السلطة. طالب في الواقع «أن يتم التدوين الالزامي، في لحظة تسجيل الاعضاء، لتاريخ دخولهم الى الحزب: قبل ٢٥ أوكتوبر أو بعد ذلك، وأن يعترف المنتسبون الجدد بضرورة التكتيك الذي تأكد الحزب من صحته بالنسبة لثورة اوكتوبر[١٧٦]». ولا يورد المحضر شروح لينين لكن ما من شك أبداً في أن تبريرها ارتبط بالخوف من رؤية الحزب ينفتح غداة انتصاره على الانتهازية والوصولية، وهي أسباب كانت غائبة حتى ذلك الحين عن الذهنية البلشفية. وبعد أشهر، كتب لينين في البرافدا بصورة اكثر صراحة: «لا يمكن استقبال أناس يأتون ليحظوا بمكانة جيدة؛ يجب طردهم من الحزب[١٧٧]». وحتى نهاية حياته، لم يتوقف عن الاهتمام بهذه الموضوعة، فلقد أكد في آذار ١٩١٩، مخاطباً سوفْييت بتروغراد: «لقد طردنا البيروقراطيين القدامى، لكنهم عادوا حاملين علامة «شيوعيين» مزيّفة. إنهم يركزون شريطاً أحمر في عروتهم ويبحثون عن وظيفةٍ يتقاضون لقاءها راتباً دون عمل. ما العمل؟ النضال أيضاً وأيضاً ضد هذه القذارة، وإذا توصلت الى التسلل، التنظيف أيضاً وأيضاً، والتكنيس[١٧٨]...».

تنظيف عناصر القذارة هذه وتكنيسها: سوف يكلف لينين نفسه بأن يدل اعضاء الحزب على أولئك الذين يجب أن تتخذهم عملية الوقاية والسلامة تلك أهدافاً لها. «ثمة أفراد يزعمون أنهم اعضاء في الحزب وهم غالباً غشاشون ينصرفون فيها (في الارياف، م. ل.) الى الابتزازات الاكثر شَيْناً[١٧٩]». «الموظفون السابقون، والملاكون العقاريون الكبار والبورجوازيون وغيرهم من الرعاع الذين تسللوا إلى صفوف الشيوعيين وتصدر عنهم أحياناً أفعال بشعة وشائنة، وأسوأ أنواع الإزعاجات بحق الفلاحين[١٨٠]». وتضاف إلى ممثلي

الطبقات المعادية هؤلاء الذين نجحوا في التسلل إلى الحزب عناصرُ أخرى مُضِرة: «حوالي ٩٩٪ من المناشفة الذين انضموا إلى ح. ش. ر. بعد عام ١٩١٨، أي حين أصبح انتصار البلاشفة مرجحاً أولاً ثم أكيداً»[١٨١]. يضاف إلى هؤلاء «الشيوعيون المتبقرطون[١٨٢]» و«كل الأعضاء المشبوهين ولو قليلاً، وغير الموثوقين أو الذين لم يقدموا البرهان على حزمهم، مع الاحتفاظ في الحقيقة لهذه الفئة الاخيرة بإمكانية العودة إلى الحزب «بعد تَثَبُّتٍ وامتحانٍ مكمِّلَيْن[١٨٣]».

إنه لكافٍ القول إن زيادة عدد أعضاء الحزب لم تكن بالنسبة للينين هدفاً بحد ذاته. ففي ظروف عديدة، كان في وسع ذلك أن يشكِّل خطراً. لقد أعلن في المؤتمر التاسع للحزب في حين كان الوضع العسكري يبدو مستقراً والسلطة السوفياتية موطَّدة، أن «العدد المتزايد لأعضاء حزبنا.. يثير بعض المخاوف» لأن «تربية هذه الجموع من أجل مهامها الراهنة لم تتلازم دائمًا مع النمو السريع لعدد الاعضاء[١٨٤]». بيد أن إرادة الحد من عدد الحزبيين لم تكن قاعدة مطلقة. لما كانت ظرفيةً بشكلٍ أساسي، فقد كان يجري التخلي عنها ما أن يجعل الوضعُ الخوفَ من التسلل الانتهازي أمراً لا جدوى منه. هكذا في خريف عام ١٩١٩، حين أدت انتصارات الثورة المضادة إلى تعريض النظام السوفياتي لتهديد مباشر وحين تعرضت بتروغراد لخطر احتلال «البيض» لها، فتح الحزب أبوابه بشكل واسع للمنتسبين الجدد، المعمَّدين في ذلك الظرف «مرشحين لمشنقة دينيكين[١٨٥]». وقد تم تسجيل ١٣٦٠٠ طالب انتساب في موسكو وحدها، وفي ظرف أسبوع. وعلَّق لينين قائلاً: «إنه لنجاح ضخم، غير متوقع إطلاقاً» لأنه «في هذا النجاح للانتسابات الطوعية إلى الحزب في فترة الصعوبات الأعظم وأدهى الأخطار، كشفت ديكتاتورية البروليتاريا في الواقع عن نفسها.. بمظهر القوة الخاصة للتأثير الأدبي (بأفضل معاني الكلمة) للبروليتاريا.. في الجماهير[١٨٦]». خلال تلك الأسابيع الصعبة، وفي حين كانت السلطة السوفياتية تكشف هشاشتها، لم يسجل الحزب مع ذلك أقل من ٢٠٠ ألف انتساب جديد[١٨٧]. ولم يكن ثمة فقط الغشاشون والانتهازيون والموظفون القدامى المشتاقون للسطوة بالانتساب إلى الشيوعية.

إلا أن المساوىء التي كان يتذمر منها لينين والمخاطر التي كان يفضحها كانت حقيقية جداً. فالصعوبات اليومية، والتوتر الدائم، واستحالة إيقاف جهد مستمر منذ سنوات، والجوع الواخز، والبؤس الذي لم يخفِّف في أية لحظة خناقه، والشك الذي كان يستولي بين الحين والآخر على الأفضلين، كل ذلك لم يكن يمكن إلا أن يؤدي إلى نتائج يغضب إزاءها التقشفُ والمثالية الشيوعيان. كان نوغين قد عبَّر، في مؤتمر آذار ١٩١٩، عن الاستهوال الذي يوحي إليه به «الإدمان، والمجون، والفساد وحالات السرقة والسلوك غير المسؤول التي تُصادَف لدى الكثير من متفرغي الحزب». وأضاف: «حقاً، إن الرأس ليقشعر إزاء مشهدٍ

هذا[١٨٨]» . أما بخصوص وصوليةِ الأكثر طموحاً وانتهازيةِ الأكثر رداءةً و«الواقعية البسيطة» للمواطن المتوسط، فقد كانت الفدية المحتومة للنجاح السياسي الذي خبرته أحزاب أخرى لها تاريخ أقل مهابة من تاريخ البلشفية، والذي لازالت تختبره دون الكثير من الوساوس أو النفور. على العكس، فبالنسبة للثوريين البلاشفة، كانت ملامح الضعف البشري تلك مصدرَ دهشةٍ واهتمام. هكذا روى زينوفييف، أمام مؤتمر آذار ١٩١٨، الحادثة المزعجة لموظف شيوعي إذ كان يستقبل منتسباً تسجَّل حديثاً في الحزب ويطلب منه أن يعود في الغد ليأخذ بطاقة العضوية، أجابه هذا الأخير: «كلا أيها الرفيق، أعطني إياها اليوم، فأنا بحاجة إليها فوراً للحصول على مكان في مكاتب[١٨٩]».

لا الحزب ولا لينين رضخا لهذا الوضع وقد بحثا عن علاجات، لإلغائه أو تخفيف آثاره. ففي آذار ١٩١٩، اقترح لينين على سوفييت بتروغراد عدم السماح بالمشاركة في المؤتمرات إلا فقط للأعضاء الذين مضى على انتسابهم الى التنظيم أكثر من عام و«عدم تسليم البطاقة قبل أن يكون المرشح اجتاز الامتحان. . .[١٩٠]». وكان ذلك يعني اقتراح طريقة سوف يجري إدخالها رسمياً في كانون الاول من العام نفسه، طريقة الترشيحات والتمرينات التي كان على العضو الجديد أن يتآلف خلالها مع برنامج الحزب وتكتيكه ويتيح للمسؤولين الحكم على صفاته الشخصية[١٩١]. وقد أوصى لينين أيضاً بإعادة تسجيل المنتسبين الذين يودون البقاء في الحزب، وهو إجراء كان يسمح للمنظمة بإعادة تفحص حالتهم[١٩٢]؛ واقترح أيضاً الرقابة على الأعضاء بواسطة العمال غير الحزبيين[١٩٣]. لكن الوسيلة التي بدت له الأكثر فعالية واتخذت الطابع الاكثر إذهالاً فكانت **تطهير** الصفوف الشيوعية، وهي عملية في طريقها لتصبح مزمنة، وإذا كانت تستلهم اكثر الاسباب شرعية فسوف تؤدي بعد وفاة لينين إلى أكثر النتائج مدعاة للكره.

منذ عام ١٩١٩، قرر الحزب البلشفي تطهيراً أول لأعضائه من أجل استبعاد مَنْ كان منهم يتعرض لإحدى الاتهامات التالية: الادمان على الكحول، اساءة استخدام السلطة، الفرار، رفض تطبيق تعليمات الحزب وامتناع متواتر عن حضور الاجتماعات وغير مبرر. وقد طال هذا التطهير ١٠ إلى ١٥٪ من الاعضاء المدينيين ونسبة اكثر ارتفاعاً من الاعضاء المقيمين في الأرياف[١٩٤]. أما عملية التطهير التي تقررت عام ١٩٢١ فكانت أشد كثافة أيضاً وأدت إلى تصفية ربع العدد الكلي للأعضاء. ومن بين المطرودين، تم إقصاء ٣٤٪ بسبب «السلبية»، و٢٥٪ بسبب «الوصولية» و«الإدمان» و«طرق حياة بورجوازية» و٩٪ بسبب الفساد. وبين أسباب أخرى جرى التذرع بها المشاركة في ممارسات دينية ورفض الخضوع لتوجيهات الحزب[١٩٥]. وفي آذار ١٩٢٢، دعا لينين اللجنة المركزية لتعزيز قواعد الاصطفاء سارية المفعول، بعد أن اعتبر أن الحزب مهدد بأن يشهد تدفقاً جديداً للأعضاء، إذا حققت

الـدبلومـاسية السوفياتية نجاحاً في مفاوضات جنوى(*). كان يسعى هكذا لتحقيق هدف مزدوج: الحيلولة دون انتساب العناصر الأقل قيمة وتعزيز الطابع البروليتاري للحزب. وإذ اقترح زينوفييف تحديد مدة التدرج بستة أشهر للعمال وسنة لباقي المرشحين، طلب لينين من زملائه تصحيحاً: ستة أشهر للعمال «الذين اشتغلوا فعليـاً في المنشآت الصناعية الكبرى خلال عشر سنوات على الأقل»، وسنة ونصف للعمال الآخرين، وسنتين للفلاحين والجنود وثـلاث سنـوات للباقين. وقد شرح أسباب ذلك كالتالي: «يجري عندنا باستمرار اعتبار أشخاص لم يتبعوا أدنى مدرسة جدية، بمعنى الصناعة الكبرى، بمثابة عمال. وغالباً ما يقع في فئة العمال البورجوازيون الصغار الاكثر أصالة، الذين تحولوا صدفة إلى عمال ولوقت قصير جداً» لكن مع أنه «ألحَّ بصراحة على ضرورة إطالة مدة التدرج»، فلقد ردت اللجنة المركزية اقتراحه(١٩٦). بيد أن المقاييس التي اعتُمدت إبان تطهير عام **١٩٢١** سمحت بزيادة نسبة العمال في الحزب ـ مع التحفظات التي يتطلبها هنا استخدام هذه العبارة ـ التي بلغت **٤٥٪** عام **١٩٢٢**، حيث أن خُمْسَيِ الفلاحين واكثر من ثلث «الياقات البيض» جرى تسريحهم من صفوفه، مقابل سدس العمال فقط(١٩٧).

إذا كان كل ذلـك العـدد من الـرجـال الـذين ليس لهم من الشيوعية غير الاسم يحاولون دخول صفوف الحزب، فذلك لأن هذا الأخير بات مركز السلطة، المؤسسة الأشد نفوذاً في الحياة الاجتماعية والسياسية، تلك التي كانت تضم النخبة الجديدة، وتختار الكوادر والقياديين وتشكل اداة الارتقاء الاجتماعي والنجاح وقناتهما. ولا يجب أن يفاجئنا كون الانتماء الى الحزب سمح فضلاً عن ذلك باكتساب امتيازات لم تكن فقط امتيازات القدرة والنفوذ. لقـد كانت امتيازات مادية ترافقهـا غالباً، مع أن الايديولوجية المساواتية للسنوات الاولى للنـظام ومثال التقشف الذي اعطاه معظم القادة كانا قد خلقا مناخاً يحد من التجاوزات ويجعلها لا تطاق بالنسبة لمناضلي القاعدة. ففي حين كان القادة وعائلاتهم يعيشون ضمن شروط متواضعة وبائسة أحياناً ـ وفاة ابن اخ زينوفييف جوعاً على مرأى من فيكتور سرج؛ وعجـز والـد تروتسكي عن زيارة ولده لأنه لم يكن يمتلك زوج أحذية(١٩٨) ـ، فلقد كانت امتيازات الكوادر المتوسطة والدنيا تثير احتجاجات في صفوف الحزب(١٩٩).

لكن هذه المنافع المادية وحتى النفوذ الاجتماعي وامتلاك شذرة من السلطة كانت شيئاً قليلاً في معـظم الحالات، مقارنةً بالتضحيات المفروضة على الشيوعيين. فلكونهم تلقوا تكوينهم في سِرِّية المرحلة القيصرية، وفي أغلب الأحيان وسط نضالات عام **١٩١٧** الثورية، كانـوا يوضعـون في منـاصب مسؤولية سياسية وادارية تـتطلب تغيراً كامـلاً لدعـوتهم.

(*) انظر ادناه، ص ٢٢٢ وما بعدها.

فكمتآمرين ومناضلين باتوا موظفين ومفوضين وضباطاً، كانوا يتخبطون في اوضاع تتخطاهم غالباً ويحاولون أن يجدوا حلولاً للمشكلات التي كان بقاؤهم مرتهناً بها. ربما كان الاكثر صدقاً بينهم يشعرون فوق كل شيء بالارتباك لاضطرارهم لتطبيق طرائق قليلاً ماكانت تأخذ تطلعاتهم بالحسبان، وبالضيق لكونهم أصبحوا مدراء ومحاسبين وحاسبين ـ وعلى الأرجح مدراء غير أكفاء ومحاسبين رديئين وحاسبين عاطلين ـ والكبت لشعورهم بأن الهوة تتعمق، رغم جهودهم، بينهم وبين الجماهير ليس فقط الفلاحية بل كذلك العمالية.

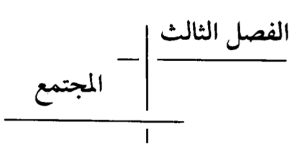
كانت هنالك المهمات العقوق، والمهام المستحيلة، والخيبات، لكن كذلك المخاطر الجمة المترتبة على المبادرة. فخلال الحرب الاهلية، وفي المناطق الواقعة تحت احتلال «البيض»، كان موظفو البارحة الشيوعيون، الذين أعادوا اكتشاف ممارسات السرية القديمة، يصيرون من جديد أنصاراً ومقاتلين ثوريين. والذين وقعوا منهم بين أيدي أعدائهم ـ وكانوا كثاراً ـ دفعوا حياتهم ثمناً للامتياز المخيف المتمثل بالانتساب للحزب. ومقابل عشرات الآلاف من البيروقراطيين والوصوليين المتسللين إلى صفوف الحزب، كان هناك العدد ذاته واكثر، في الإدارات، وعلى الجبهة وفي المصانع، ممن بقوا مناضلين منخرطين في الثورة. خاضعين للانضباط العسكري، معيَّنين ومنقولين وفقاً لحاجات الحرب أو لأحكام رؤسائهم، متعرضين لخطر العقوبات التي كان يستتبعها كلٌّ من نقاط ضعفهم وكلٍّ من اخطائهم، كانوا يشكلون رهطاً خاضعاً لأقسى امتحان: مسيرة طويلة لم تكن غالباً غير مراوَحةٍ لا تنقطع. وقد فهم مؤرخان لا يشعران بأية مودة تجاه القضية التي كان يخدمها أولئك الرجال ما كانت حقيقة عملهم. أعلن ميرل فاينسود: «بمقدار ما يجري التقدم في دراسة ارشيفات الحزب، يندهش المرء أكثر فأكثر ليس فقط لكون الحزب احرز النصر، بل لأنه استطاع ببساطة أن يواصل الحياة[٢٠٠]». ويعطي دافيد فوتمان، في نهاية دراسته حول الحرب الاهلية التفسير التالي للانتصار الشيوعي: «لقد قدَّم الحزب لمجهود «الحُمْر» الحربي تماسكاً كان يفتقرإليه المعسكر الآخر بالكامل، وروح تعاون بين الجبهة والمؤخرة، كما بين الحكام والمحكومين، وحافزاً ومثالاً كانا يتجليان على كل المستويات، واهتماماً متواصلاً بالنضال ضد الميوعة والخيانة وعدم الاستقامة[٢٠١]».

لقد حقق الحزب اللينيني، بجهوده وبانتصاره، وهو الذي خُلق ليستولي على السلطة وكُلِّف بالدفاع عنها وتوطيدها، حقق فتحاً كان وزنه هائلاً وطبع بطابعه كل تاريخ عصرنا.

هذه الجمهرة الظافرة لكن المنهكة كانت مع ذلك عام **١٩٢١** حزباً معزولاً. وقد اعترف شليابنيكوف بذلك حين أعلن ساخراً فيما هو يخاطب لينين خلال مناقشات المؤتمر

الحادي عشر: «لقد اكد فلاديمير إيليتش البارحة أن البروليتاريا كطبقة وبالمعنى الماركسي للكلمة ليست موجودة (في روسيا). إسمح لي إذاً بأن أهنئك على كونك طليعة بروليتاريا غير موجودة[٢٠٢]». وإذ كان زينوفييف يرد على عضو في «المعارضة العمالية» كان يطالب بدعوة «مؤتمر للمنتجين»، اعترف من جهته بأنه لو انعقد هكذا مؤتمر، «لتشكلت الغالبية من لا حزبيين ولتشكل قسم كبير من المندوبين.. من مناشفة واشتراكيين ـ ثوريين». وسأل القائد الشيوعي محاوره: «أيكون علينا أن نتخلى عن كل شيء هذه الجمعية؟[٢٠٣]» وقد خلص إسحق دويتشر إلى القول: «لو اتيح للطبقة العاملة (عام ١٩٢١، م. ل.) ان تعبر عن رأيها وتصوِّت بحرية، لكانت دمَّرت الديكتاتورية (اي ديكتاتورية الحزب الشيوعي)[٢٠٤]». وأيضاً: «كان الحزب البلشفي يصمد في السلطة عن طريق الاغتصاب[٢٠٥]».

في نهاية الحرب الاهلية، كان الشيوعيون، المنهكون بنصرهم، والمعزولون، وإذاً المهزومون وسط انتصارهم بالذات، ضحايا كارثة فعلوا كل شيء لمكافحتها، كانوا يظهرون كما يلي: أدلّاء مجتمع جديد، غني بالوعود ويسحقه البؤس، وبناة ذلك المجتمع.



الفصل الثالث

المجتمع

إن اعتبارات تعليمية بصورة ما وأسباباً تتعلق بالمنهجية أعطت هذه الدراسة ترسيمةَ عرضٍ حيث يحظى تفحص المؤسسات السياسية بأولويةٍ شبه كلاسيكية. لكن في الحقيقة، أليست طبيعة المؤسسات، وتطور الدولة وأجهزتها، والقوة الفعلية لكل منها، أليست محكومة بشكلٍ أساسي بحركات المجتمع بالذات؟ لقد أدى التفسير الذي اقترحناه، مراراً مختلفة، وبدرجاتٍ متتابعة، إلى الظواهر الأكثر عمقاً والأشد لا اختزالية في الحياة الاجتماعية: شرط الطبقات والعلاقات فيما بينها، وضع البروليتاريا، القوى الاقتصادية التي تحرك المجتمع السوفياتي والبلد الروسي، أو على العكس التي تستنفد نفسها وتتركه مدمّراً وخرباً، شبيهاً من بعض النواحي بمنطقة صحراوية شاسعة. هذه القوى الاجتماعية هي التي علينا أن ننظر إليها حالياً. عالم هو في الواقع: تشابك اندفاعات متناقضة وتجديدات جريئة وتقاليد قديمة، وعوامل تجديد وتشريطاتٍ قديمة أقوى مما كان يتصوره الثوريون؛ عالم حيث الاعتداءات الخارجية، مضافةً إلى الخضات الداخلية، تنتهي بجلب الفوضى والدمار.

إن الإمساك في فصل واحد بطبيعة هذا المجتمع هو رهان، مهمة لا يمكن النجاح فيها ولا التهرب منها. ينبغي إذاً الانخراط فيها، متأكدين من العجز إلا عن الرسم الأولي لبعض أصولها تلك التي تبدو الأهم في البرنامج الاجتماعي والسياسي للينينية.

وزن الإرهاب.

«لا يغرب عن بال الماركسيين أبداً أن العنف سيرافق حتمًا انهيار الرأسمالية الكامل وولادة المجتمع الاشتراكي» هذا ماكان يعلنه لينين امام المؤتمر السابع للحزب البلشفي في آذار ١٩١٨[١]. وكان هذا التأكيد يَنْتج في الوقت ذاته من التكهن ومن الملاحظة الموضوعية. كان العنف قد أفلت من قيوده في روسيا في بداية ربيع عام ١٩١٨، إلا أنه سيتفاقم أيضاً ويتخذ اشكال الارهاب المكثَّف والمنهجي، ويُشبع جوّ البلد طيلة الحرب الاهلية ويطبع لوقت طويل سمات المجتمع السوفياتي.

بيد أنه سيكون من الخطأ الاعتقاد أن البلاشفة فرضوا منذ وصولهم الى السلطة حكم الارهاب الموجه ضد النظام القديم، منطلقين (في هذا الاعتقاد*) من حكم نظري حول دور العنف في التاريخ: هو «قابلة كل مجتمع قديم يحمل في احشائه مجتمعاً جديداً» و«الاداة التي ستتغلب بفضلها الحركة الاجتماعية وتمزق الاشكال السياسية المتجمدة والميتة[٢]». على العكس: إن الفترة التي عرفت خلالها الثورة «شهر عسلها» كانت أيضاً فترة اعتدال نسبي لكن حقيقي جداً في قمع العناصر المناهضة للثورة.

اعتدال يقارب احياناً هذا الكَرَم الذي يصاحب أحياناً بهجة الانتصارات الثورية. فعندما استولى «الحراس الحمر» في بتروغراد على قصر الشتاء حيث كان مقر الحكومة المؤقتة، أطلقوا سراح تلامذة الضباط الذين كانوا قد قاتلوهم، مكتفين بكلمة «شرف» أنهم لن يحملوا السلاح ضدهم. وبعد أيام، نظمت فرقة «تلامذة الضباط» ذاتها انتفاضة مسلحة في العاصمة**. وقد تغلب البلاشفة عليها بسهولة. وبعد ذلك، أطلقوا مرة أخرى سراح أسراهم[٣]. وقد حصل الجنرال كراسنوف، قائد القوات المعادية للثورة المكلفة باستعادة بتروغراد، على حريته أيضاً لقاء وعد بأنه لن يعود إلى قتال السوفييتات... وانخرط في الحال تقريباً في صفوف القوات المعادية للبلاشفة التي كانت تتشكل في جنوبي البلاد[٤]. وفي موسكو، حيث كانت الثورة اكثر دموية بكثير، عومل مقاتلو القوات «البيضاء» بالطريقة نفسها، رغم المجازر التي ارتكبوها بحق الأسرى[٥]. وفي المقاطعات، تم استيلاء البلاشفة على السلطة، عموماً، دون انفجار عنف[٦]. ومن جهة اخرى، تم إطلاق سراح أعضاء الحكومة المؤقتة الذين كانوا قد أوقفوا في ٢٦ اوكتوبر ـ او على الأقل اولئك الذين كانوا ينتمون

(*) الاضافة من وضعنا (المعرِّب).

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٥١.

بينهم الى تشكيلات اشتراكية(*)ـ، وذلك بطلب من مارتوف. ولم يكن النظام الجديد أقل رحمه حيال عشرات الآلاف من الموظفين والمستخدمين المضربين بهدف تخريب السلطة السوفياتية. لقد امتنع عن استخدام القوة لايقاف حركتهم[٧].

لاشك انه حصلت، منذ الاشهر الاولى التي تلت الاستيلاء على السلطة ومنذ ما قبل اندلاع الحرب الاهلية بوجه الحصر، مضايقات ومجازر كان من ضحاياها ثوريون ومناهضون للثورة. لكن البلاشفة حاولوا في مناسبات عديدة أن يهدئوا غضب الجماهير المنفلتة من عقالها ويمنعوا تجاوزاتها. هكذا في سارتوف، قبض متظاهرون على أعضاء «لجنة خلاص عام» معادية للشيوعيين وأساؤوا معاملتهم؛ فنجحت السلطات في إطلاق سراحهم[٨]. وبين المجازر التي ارتكبتها الجماهير، صدمت المخيلات بوجه خاص تلك التي جرت ضد الجنرال دوخونين، القائد الأعلى للجيش، والوزيرين السابقين الدستوريين ـ الديمقراطيين شينغاريف وكوكوشكين، وقد جرى اغتيالهما في سريريهما في المستشفى. وقد تم قتل الأول رغم تدخل مفوض الشعب البلشفي كريلنكو الذي كان في المكان ورجا البحارة أن يبرهنوا عن حكمة ورحمة[٩]. أما اغتيال الوزيرين الكاديت فأدانته **الازفستيا**، الجريدة الرسمية للحكومة، التي صورته كـ «جريمة تلطخ شرف الثورة[١٠]»، وأثار لدى القادة البلاشفة انفعالاً واستنكاراً كان الصحفي الانكليزي أرتور رانسوم شاهداً لهما. يروي قائلاً: «أتذكر أني سمعته يتكلم في ثكنات (يتعلق الامر بمفوض الشعب لشؤون الحرب، م.ل.) بعد قليل من مقتل شينغاريف وكوكوشكين، داعياً للنضال الطبقي، لكن مفسراً في الوقت ذاته الفرق بين هذا النضال واغتيال رجال مرضى في سريرهم. تذكر الاغتيال وإذ واصل الكلام قام بحركة رجل يقترب من سرير ويقتل النائم بطلقة مسدس. كان ذلك بالطبع مهارة خطيب، لكن التأثير المِمض والرهيب للحركة «هزّ» كل الحضور برعشة اشمئزاز[١١]». وفي يوم الاغتيال بالذات، طلب لينين، في رسالة هاتفية إلى مفوض الشعب لشؤون العدل «الفتح الفوري لتحقيق متشدد لأقصى الحدود» و«توقيف البحارة الذين ارتكبوا هذا الاغتيال على الفور[١٢]».

كتب ماكسيم غوركي في مؤلَّفه **تمرد العبيد**: « **إن شعباً تربى في مدرسة تذكِّر بفجاجةٍ** بعذابات الجحيم، وتَثَقَّف بقبضات الأيدي، والقضبان والناغاييكا(**)، لا يمكن أن يكون

(*) وفقاً لـ إ.هـ. كار، جرى اطلاق سراح جميع الوزراء الموقفين (**مرجع مذكور**، ج ١، ص ١٥٢). ووفقاً لاسحق دويتشر (ص ٣٣٦، **The prophet Armed**، ول. شابيرو (ص ٧٢، **The origins of the Communist Autocracy**، استفاد من هذا التدبير الوزراء الاشتراكيون وحدهم.

(**) سوط من الجلد كان يحمله القوزاق في روسيا القيصرية (المعرب).

قلبه عطوفاً. إن شعباً داسه رجال الشرطة سيكون قادراً بدوره على السير على أجساد الآخرين[١٣]». ومنذ الفصول الاولى للثورة الفرنسية، لم يقل بابوف شيئاً آخر: «بدل أن يحضِّرنا الأسياد حوَّلونا إلى همج لأنهم هم ذاتهم همج. إنهم يحصدون وسيحصدون ما زرعوه[١٤]».

خلال الأشهر الأولى من حكم البلاشفة، بدل أن يسعِّروا غضب الجماهير، ورغبتها بالانتقام، حاولوا الحدّ من تجلياتها. من جهة اخرى، اتخذ القمع الرسمي أشكالاً حليمة نسبياً. لم يصدر حكم واحد بالاعدام خلال الأشهر الثلاثة الاولى من حياة النظام؛ ولم يتم إعدام واحد؛ لاسيما أن احد المراسيم الاولى للسلطة السوفياتية كان يقضي بإلغاء عقوبة الموت التي اعادتها حكومة كيرنسكي في ايلول ١٩١٧[١٥]. وكما يذكر إ. هـ. كار، «لم يضعف التقليد الثوري المتمثل بمعارضة عقوبة الاعدام ولم يسقط إلا بعد اندلاع الحرب الاهلية وبداية الانتفاض ضد السوفييتات[١٦]». وفي تموز ١٩١٨ أيضاً، خلال الانتفاضة المسلحة التي نظمها الاشتراكيون ـ الثوريون اليساريون(*)، برهن البلاشفة بعد أن سحقوا الانتفاضة، عن اعتدال عظيم في القمع إلى حد أن الحكومة الالمانية ـ التي اغتال المتمردون ممثلها ـ احتجت لدى السلطات الشيوعية[١٧]. وأخيراً إن مراقباً لا يمكن الاشتباه بمجاملته للبلاشفة، هو مندوب الصليب الاحمر الامريكي، هو الذي لاحظ، في بداية ربيع ١٩١٨، «قلة القساوة» التي كانت ترافق أحداث روسيا[١٨].

إن اعتدال البلاشفة أمر مثير للانتباه لاسيما أنه كان يتعارض في تلك الفترة مع الانفجارات الاولى للإرهاب «الأبيض»: المحدود من حيث نتائجه، كالمذبحة التي اقترفها تلامذة الضباط اثناء انتفاضة موسكو في اوكتوبر ١٩١٧، أو المقترف على العكس، على مستوى قومي، كما كانت الحال في فنلندا. فحين تغلبت قوات مانرهايم المضادة للثورة، بعونٍ من الالمان، على الحراس الحمر والعمال، عمدت إلى قتل أسراها، وقد تراوح عدد الضحايا، حسب التقديرات، مابين عشرة آلاف وعشرين ألفاً، يضاف إليهم اكثر من ألفي محتجز جرى اغتيالهم خلال احتجازهم[١٩]. وإزاء هذه الوحشية، بدا البلاشفة يستوحون مبادىء روزا لوكسمبورغ التي كانت ترى أنه «فقط نشاط ثوري حازم متضافر مع عاطفةٍ إنسانيةٍ عميقةٍ يشكل جوهر الاشتراكية[٢٠]». وفي كل حال، كما يقول بوريس سوفارين: «تأخذ التشيكا رهائن، إنها تقمع أيضاً دون تجاوزات في حين أن «البيض» يزرعون حقداً لا يُغتفر، بإعداماتهم الجماعية بالرصاص والمشانق، ويعدّون أنفسهم لأعمال ثأر قاسية[٢١]».

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٦٨.

مع بدايات الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي ـ في نيسان ١٩١٨، نزول اليابانيين في فلاديفوستوك؛ أيار، بدء الصراع بين السوفياتيين والفيلق التشيكي؛ حزيران، تدخل الانكليز في مورمانسك؛ آب، بدء العملية العسكرية الانكليزية ـ الفرنسية في مورمانسك والتمرد الاشتراكي ـ الثوري في موسكو وياروسلاف ـ، اختارت السلطة البلشفية الارهاب بدورها، مستسلمةً لروح المرحلة. وليس من شك أبداً في أن الاعتداءات العديدة ضد بعض قادتهم الرئيسيين ساهمت في التغلب على ترددهم الاخيرة: محاولة اغتيال لينين في اول كانون الثاني ١٩١٨، اغتيال فولودارسكي في حزيران ١٩١٨، المحاولة الفاشلة ضد تروتسكي في بداية شهر آب، وأخيراً في نهاية الشهر ذاته اغتيال اوريتسكي والاعتداء ضد لينين الذي كاد يكلفه حياته وجمّده لعدة أسابيع[٢٢].

منذ شهر آب، كان زينوفييف قد أعلن في بتروغراد بدء الارهاب[٢٣]. لقد أحدث الاعتداء على لينين واغتيال اوريتسكي رداً فورياً. أعلنت **الكراسنايا غازيتا**: «كل نقطة من دم لينين يجب أن تكلف البورجوازيين و«البيض» مئات القتلى.. إن مصالح الثورة تتطلب الابادة الجسدية للطبقة البورجوازية. إنهم عديمو الرحمة، فلنكن بلا شفقة[٢٤]». ومثل باريس، أثناء الثورة الفرنسية، كان لبتروغراد مجازر ايلول الخاصة بها والتي من الصعب وضع جردة بأرقامها. فوفقاً لمصادر رسمية جرى اعدام ثمانمئة «معاد للثورة من الحراس البيض والرهائن» في العاصمة القديمة. وسقطت أيضاً ضحايا عديدة في المقاطعات وفي موسكو[٢٥]. لقد حاولت السلطات فقط «تنظيم» الإرهاب، أي تقنيته. في ٥ أيلول أعلنت **كراسنايا غازيتا**: «لقد تلقت البورجوازية درساً قاسياً. فليدَعْنا اعداؤنا نبن الحياة الجديدة بسلام. وسوف نكف عن مضايقتهم، متجاهلين حقدهم الدفين. لقد انتهى الارهاب الأحمر، حتى الاستئناف القادم للارهاب الابيض[٢٦]». لكن كما يقول فيكتور سرج: «لم يتوقف الارهاب بعد ايام ايلول، بل تباطأ، اصبح نظاماً[٢٧]». ويؤكد إ. هـ. كار: إن ايلول ١٩١٨ «سجّل المنعطف الذي بات بعده الارهاب، المتفرّق حتى ذلك الحين وغير المنظم، اداة سياسية مستخدمة بصورة منهجية[٢٨]».

ثمة ملمحان يميزان، خلال الحرب الاهلية، اللجوء إلى الارهاب. يلاحظ، في المقام الاول، أن اشكال القمع واتساعه كانت تتوقف إلى حد بعيد على الوضع العسكري. فحين لاحظت السلطة السوفياتية في كانون الثاني ١٩٢٠ نهاية المعارك وعلمت ان الدول الغربية العظمى وضعت حداً لحصار روسيا، اعلنت حالاً الغاء عقوبة الاعدام[٢٩]؛ وبعد اشهر، خلال اعتداء بولندا العسكري، جرت إعادة العمل بهذه العقوبة[٣٠]. ومن جهة اخرى وبوجه خاص، كان للارهاب في كلا المعسكرين، طابع طبقي واضح تماماً. فمن جانب البلاشفة، لم يترك القادة أي شك يبقى بهذا الصدد. فقد أعلن تروتسكي مثلاً في

خطاب ألقاه في ايلول ١٩١٨ : «تهدف المعركة التي نخوضها إلى تسوية مسألة معرفة لمن ستكون البيوت والقصور والمدن وحتى الشمس والسماء · للعمال والفلاحين أو للبورجوازيين والملاكين العقاريين[٣١]». وذهب لاتسيس، أحد قادة التشيكا، أبعد أيضاً. ففي اول تشرين الثاني ١٩١٨، أعلن ما يلي: «لا تبحثوا عن براهين لإثبات أن اسيركم عارض السلطة السوفياتية قولاً أو بالأفعال. إن واجبكم الأول هو أن تسألوه إلى أية طبقة ينتمي، ماهي أصوله، ماهي درجة تعليمه وماهي مهنته. هذه الأسئلة هي التي سوف تقرر مصيره. هذا هو معنى الارهاب الاحمر وجوهره[٣٢]». صحيح ان لينين وصف تصريحات لاتسيس بـ «السخافات» في وثيقة لم تنشر في تلك الايام[٣٣]. لكن ممارسة اخذ الرهائن، المختارة منهجياً من البورجوازية والارستقراطية، واعدامها في اوقات التوتر الاقصى أو كأعمال ثأر رداً على التدابير التي كان يتخذها البيض، كانت تستلهم في الواقع المبدأ الذي عبر عنه زعيم التشيكا. وهذه الفلسفة لم تحدد من جهة اخرى اختيار الضحايا فقط بل كذلك وعلى العكس اختيار المشبوهين المطلق سراحهم. هكذا في التقرير اليومي الذي وضعه فرع من التشيكا في ايلول ١٩١٨، نجد الاشارة التالية: «شوستوف، أفدوكيم: مستخدم في مخزن، أوقف لأنه كان بحوزته رخصة حمل سلاح مزورة؛ قرار: يجب اطلاق سراح شوستوف لأنه ينتمي للطبقة البروليتارية[٣٤]». والتقرير ذاته كان يشير إلى إعدامات عديدة لمحامين وضباط، وعموماً لأعضاء في البورجوازية. وفي حالات اخرى، كان رجال التشيكا يتلقون كتعليمات إعادة فحص ملف أسراهم ومنح الموقوفين ذوي الأصل العمالي او الفلاحي معاملة بالافضلية[٣٥].

لم يكن القضاء في المعسكر المقابل اقل عجلة لكن كان يجري اختيار الاهداف بصورة منهجية من ضمن الطبقات البروليتارية. كان قائد عسكري ابيض، يعطي تعليماته إلى مرؤوسيه مثلاً بعدم توقيف العمال ويضيف: «أمر بشنقهم أو إعدامهم بالرصاص». وكذلك في برقية أخرى: «أمر بشنق كل العمال الموقوفين في الشوارع. فليُتركوا معروضين ثلاثة أيام[٣٦]».

ماكان موقف لينين إزاء هذا الاندفاع في العنف؟ غداة الاستيلاء على السلطة، كان قد اعتقد ان بإمكانه التأكيد، محيلاً إلى المقصلة التي استخدمها الثوريون الفرنسيون: «آمل ألا نصل إلى تلك الحدود[٣٧]». علماً أنه انتقد بشدة، وفقاً لشهادة تروتسكي، قرار مؤتمر السوفييتات بإلغاء عقوبة الاعدام. ويقال إنه صاح: «حماقات، حماقات. أثمة اعتقاد بإمكانية صنع ثورة من دون إعدامات؟[٣٨]» وإن رواية تروتسكي قابلة للتصديق. فمنذ الأشهر الاولى للنظام الجديد، دفع لينين السلطات السوفياتية لإبداء أقصى الحزم حيال المعادين للثورة، آخذاً على العمال والفلاحين إبداء «القليل القليل من الصرامة» في القمع[٣٩]،

وانهم لم يكونوا «كتلة حديدية بل بالأحرى عجينة رخوة لا يمكن بناء الاشتراكية فوقها[40]».
وقد عاد باستمرار الى هذه الموضوعة[41] وهاجم غالباً «تباكيات» المثقفين البورجوازيين، الذين كانوا ينتحبون امام اهوال الارهاب، والمناشفة الذين كانوا يطالبون بوقفه[42].

إذا كانت مبررات لينين بديهية ـ الدفاع عن سلطة السوفييتات ضد هجمات الثورة المضادة ـ، والمنطق الذي كان يستلهمه معصوماً تماماً، إلا أن المرء يبقى بالمقابل حائراً إزاء تكاثر الأهداف التي كان يقترحها على الارهاب. فهذا الأخير كان يجب وفقاً له ألا يستهدف فقط المعادين للثورة بوجه الحصر، بل كذلك المضاربين وحتى «صغار المضاربين»[43]، البورجوازيين الذين كانوا يحاولون، فيما تخشى بتروغراد هجوماً ألمانياً، الافلات من واجب العمل وكانوا مهددين بعقوبة الموت[44]، وكذلك اولئك الذين كانوا يحوزون الأسلحة بصورة غير شرعية. وكان لينين يطالب، فضلاً عن ذلك، بـ «إبداء انعدام الرحمة.. حيال العناصر المترددة والمضرة في وسطنا الخاص بنا التي ستتجرأ على إدخال الفوضى إلى مجهودنا الشاق لبناء الحياة الجديدة للشعب الشغيل[45]» وبـ «إعدام... الأفراد غير المنضبطين» في مصالح التموين، التي كانت في أوج انعدام التنظيم، حقاً، وفي فترة مجاعة قصوى[46]. وفي أيام الانتفاضة المعادية للشيوعية في نيجني ـ نوفغورود، اعتبر من الضروري «اطلاق الرصاص على مئات العاهرات اللواتي يُسكرن الجنود ونفيهن (هكذا)[47]». وبعد اشهر قليلة طالب بعقوبة الاعدام في حالة الوشايات الكاذبة[48]. وهذه اللائحة ليست كاملة، ويجب ان يضاف اليها موظفو مصالح التموين المدانون بـ «الشكلاوية» و«البيروقراطية» والعجز عن الهرع لمساعدة العمال الجائعين، والمهددون لهذه الأسباب بعقوبة الموت[49]؛ «العسكريون الذين اقترفوا أعمال النهب والعنف والتنكيدات غير القانونية» والذين يَحْسُن «إطلاق النار عليهم بدون رحمة[50]»؛ والكولاك ـ دون تخصيص آخر ـ الذين ينبغي «إبادتهم دون شفقة»[51] و«العناصر المتذبذبة والمتناقضة ضمن الطبقة الكادحة بالذات» التي لا غنى عن تطبيق «العنف الثوري» ضدها[52]. وإذ ألقى لينين أخيراً نظرة إلى الوراء على هذا الارهاب الثوري، لخص في نيسان ١٩٢٠ منطقه بالصورة التالية: «كل من كان يقدم مصالحه الخاصة (مصالح قريته، جماعته) على المصالح المشتركة كان يعامل كمستفيد ويُعدم[53]».

إزاء تعداد رؤيوي(*) إلى هذا الحد، يمكن التساؤل إذا كان لينين طرح عباراته بما يكفي من الدقة. والسؤال أكثر مناسبة وأقل تبريرية مما يظهر للوهلة الاولى. إننا نمتلك، في كل حال، سلسلة من التصريحات المكتوبة الصادرة عن لينين والتي يستخلص منها، بداهةً، أن بعض العبارات التي كان يستخدمها يجب ألا تؤخذ بحرفيتها. وهاكم بعض الامثلة. فإذ

(*) نسبة إلى رؤيا القديس يوحنا التي تصف نهاية العالم بصورة مذهلة (المعرب).

كتب في نهاية عام ١٩٢٠ «حول التعليم البوليتكنيكي» طلب وضع برنامج «تعليم عام» يضم المواد التالية: شيوعية، تاريخ عام، تاريخ الثورات وثورة ١٩١٧، جغرافيا، أدب. وأضاف هامشاً بهذا الصدد: «إذا كانت هكذا برامج غير موجودة الى الآن، يجب شنق لوناتشارسكي[٥٤] (مفوض الشعب لشؤون التعليم العام، م.ل.)». وفي رسالة موجهة في تموز ١٩٢١ إلى قياديين رئيسيين في الحزب، هما ريكوف ومولوتوف، متخاصمين آنذاك بسبب مسألة تتعلق بالصلاحيات الادارية، وجّه لينين «بتهذيب» ماكان يسميه «تو - بي - خاً» مصاغاً بالشكل التالي: «إذا تخاصمتما مرة اخرى، سوف يجري فصلكما وسجنكما في صندوق[٥٥]». ويمكن إيراد امثلة اخرى[٥٦].

بعد الذي قلناه، وإذا افترضنا حتى ان لينين سمح لنفسه بتجاوزات أسلوبية تتخطى فكرته، سوف نسجل دون مجاملةٍ المسؤولية التي يتحملها عن اندفاع الارهاب والارهاب المضاد. فحتى إذا كانت اللغة التي يستخدمها بصدد معاونيه الاقربين إذا كانت أحياناً من نوع الاستعارة وإذا كان لا يجب أخذ التهديدات المتلفظ بها ضد الخصوم والطبقات المعادية بحرفيتها، إلا أننا نجد فيها ملامح معبرة عن النظام الذي جرى إدخاله الى روسيا السوفياتية بعد اندلاع الحرب الاهلية. ولا يمكن بخس تقدير خطورتها.

إلا أنه لا يجب ان يغيب عن بالنا أن لينين ذاته هو الذي اقترح، في شباط ١٩٢٠، إلغاء عقوبة الموت، طالما كان يعتبر آنذاك ان «مشكلة الحرب جرى حلها من حيث ماهو جوهري فيها[٥٧]». وشرح في الفترة ذاتها للتشيكا انه «من البديهي ان السلطة السوفياتية لن تبقي على عقوبة الاعدام وقتاً اطول مما هو ضروري[٥٨]». وهو أخيراً الذي طالب في كانون الأول ١٩٢١ امام مؤتمر السوفييتات بالحد من صلاحيات التشيكا[٥٩]، في الوقت الذي نادى فيه، من جهة اخرى، كما رأينا، بالقمع الاشد صرامة للنشاطات المنشقية(*).

قال لينين يوماً لماكسيم غوركي: «ماذا تريد، أبالامكان إبداء الانسانية في هكذا صراع؟ فشراسته لا مثيل لها. أين نضع إذاً طيبة القلب والشهامة؟.. فمن كل الجهات، تقترب الثورة المضادة منا كالدب. ونحن، ماذا عسانا نفعل؟ أليس من واجبنا ومن حقنا ان نقاوم، ونثّبت؟ آه، كلا، اسمح لي، لسنا حمقى[٦٠]». ومع ذلك فهو الذي كان يتوجه إليه، في المقام الأخير، غوركي، «الذي كان يشكل وحده نقابة للدفاع عن الحقوق المدنية»: «كان لينين محكمته العليا[٦١]». ويقدر فيكتور سرج، من جهته، ان مجرد التدخل لدى لينين لصالح مناشفة كان يعني الخلاص بالنسبة لهؤلاء[٦٢]، وبناء على طلب لينين بالذات، وافق كروبوتكين على إبلاغه بانتظام بتجاوزات القمع[٦٣].

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٧٩

سيكون هنالك ضرورة لكتابة دراسة بصدد موقف لينين إزاء الارهاب، إذ تتخطى اطار هذا المؤلَّف، تتعلق بعلم النفس بقدر ما بالسياسة. وليس من شك، في كل حال، في أن عمله انطبع بالعنف الذي فجرته سنوات الحرب الاهلية. ولقد غذَّى هذا الواقع النقد الأنسيَ للينينية والشيوعية الذي نجده في كتاب كاوتسكي، **الشيوعية والارهاب**، وعداءَ الاشتراكية ـ الديمقراطية حيال اللينينية. وثمة غالباً نفاقٌ أو افتقاد للإحساس في نقد الحركة الشيوعية الوليد والقادة البلاشفة لكونهم لجأوا إلى الارهاب، كما لو أن العنف الذي كان يتفلت من كل قيد في روسيا يلطخ فترةً من السلام والتقدم. لم تكن الثورة الروسية، عبر مجازر الحرب الأهلية، اكثر أو أقل دموية من الحرب الكبرى التي ملأت مقابر الغرب الواسعة بمباركة من كهنة كل الديانات، دون نسيان كهنة الملَّة الاشتراكية ـ الديمقراطية. وهذه الاخيرة، التي كانت تهدهدها ميلوديا الاناشيد السلمية، لم تطعن في العنف حين جرى استخدامه للدفاع عن الأوطان وأراضيها المقدسة وادانته فقط حين وُضع في خدمة البروليتاريا والاشتراكية. وإننا لنفهم تروتسكي حين يعتقد أنه معفىً من تبرير الارهاب الثوري لأن متهميه مستنفَرون من صفوف «منظمي المجزرة العالمية ومستغليها[٦٤]». وضمن جمهرة ثالمي اللينينية، ثمة الكثير من المدعين العامين الذين يمكن أن يظهروا في الواقع كمتهمين. لكن ثمة آخرون، كروزا لوكسمبورغ، التي اعتبرت في كراسها حول **الثورة الروسية** أن «العقوبات الجائرة (و) حكم الارهاب كلها ملطِّفات» وأن «الارهاب هو الذي يوهن الاخلاق بالضبط[٦٥]».

هكذا ينطرح في الواقع جوهر المشكلة. يعود للأخلاقي أن يؤيد هذا الارهاب أو يدينه. أما مهمة عالم الاجتماع أو المؤرخ فتتمثل في ملاحظة اضراره. إن النظام والمجتمع المنبثقين من ثورة اوكتوبر، وريثي ماضٍ من العسف والجرائم التي رفعتها القيصرية الى مصاف مؤسسات دائمة، انطبعا بعمقٍ بانفجار عنف جديد غالباً ما حوَّل اللجوء إلى الشرعية الاشتراكية واحترام حقوق الفرد ـ وإن كان بروليتارياً ـ إلى مجرد مسخرة. هكذا وُلدت أو تعززت ارتكاسات استمرت الى ما بعد الاوضاع التي أنتجتها بوقت طويل. ألا يستمد الارهاب الستاليني المجاني من نواح عديدة أصوله من العنف غير المتحكم به إلى حد بعيد وغير الممكن التحكم به إلى حد بعيد لسنوات ١٩١٧ ـ ١٩٢٠؟ وليس صدفة في كل حال إذا احتفظ جهاز واحد من بين الأجهزة التي ولدتها الحرب الاهلية بقوة لم تنجح في إضعافها أية محاولة إصلاحية وأي تغيير في التسمية: المؤسسة القمعية المعمَّدة بالتعاقب تشيكا، غيبيو، انكافيدي، وامجيبي.

إن التشيكا، التي لا يمكن، بداهةً، وضعُ ضرورتها موضع الشك والتي لم تنحصر

مهمتها بالقمع(*)، وجدت مهمتها تتوسع كلما امتدت اكثر الحربُ الاهلية. فإذا كانت كُلفت في البدء بمكافحة الثورة المضادة، فقد سعت أكثر فأكثر لتنظيم الدفاع عن البلد، الامر الذي كان يستتبع توسع صلاحياتها من ميدان القمع إلى ميدان الجيش والتموين، والاقتصاد القومي عموماً. وكما كان يقول لاتسيس: «ليس ثمة حقل من حقول حياة البلد تغيب عنه التشيكا[٦٦]». لقد كف (شعار(**)) «كل السلطة للسوفييتات عن ان يكون المبدأ الذي يقوم عليه النظام، وحلت محله قاعدة جديدة: «كل السلطة للتشيكا[٦٧]»: هذا ما أكده عضوٌ في مفوضية الشعب للداخلية. والحال أن هذه المؤسسة كانت تؤسس عملها على بعض الأفكار الأساسية: الذنب الجماعي للبورجوازية(***) وفكرة إلحاح عبر عنها لاتسيس بالقول: «ليست التشيكا لجنة تحقيق، ولا محكمة عدل، ولا محكمة... التشيكا لا تحاكم، إنها تضرب. إنها لا تعرف الغفران وهي تدمر كل اولئك الذين تضع يدها عليهم من الجانب الآخر للمتراس[٦٨]». وأيضاً: «ليس في الحرب الاهلية مكان لإجراء قضائي. اننا نخوض صراعاً من أجل الحياة. إذا لم تَقْتُلْ فأنت الذي سوف تتعرض للقتل[٦٩]».

ثمة مؤسسات سوفياتية مختلفة، صدمتها هذه الطرائق أو جرى الافتئات على صلاحياتها الخاصة بها، عارضت السلطات المتعاظمة للتشيكا. وقد بيَّن تحقيقٌ جرى تنظيمه في تشرين الثاني ١٩١٨ لدى السوفييتات المحلية ان ١١٩ من بينها كانت تطالب بإخضاع فروع التشيكا للهيئات الشرعية، و٩٩ طالبت بحل هذه الفروع؛ ولم يعبر غير ١٩ فقط عن الرضى[٧٠]. وقد انضمت الاوساط القيادية للجيش الاحمر، ومفوضية الشعب للعدل، ومفوضية الشعب للداخلية والمحكمة الثورية العليا إلى هذه الاحتجاجات، واثار رئيس هذه المؤسسة الاخيرة حملة حقيقية في الصحافة ضد تجاوزات التشيكا[٧١]. لكن المستقبل سيثبت ان هذه الانعقادات لن تشدخ جدياً المكانة التي استأثرت بها البؤر البوليسية في المجتمع السوفياتي بسبب الحرب الأهلية والارهاب.

(*) كان من وظائف التشيكا أيضاً السهر على احترام الشرعية في السجون وحماية حقوق الموقوفين. وكان يحدث أن تأخذ هذه المهمة كثيراً على محمل الجد وتقمع بشدة تجاوزات ادارة السجون. (إ. هـ. كار، **مرجع مذكور**، ج ١، ص ١٦١).

(**) الاضافة من وضعنا (المعرب).

(***) انظر أعلاه، ج ٢، ص ١٤٤.

تفجير الحرب الاهلية بفعل البورجوازية الحاظية بدعم الدول الامبريالية؛ انفجار الارهاب والارهاب المضاد؛ تطور المؤسسات القمعية وحضورها الكلي: كانت الصورة بعيدة عن الآفاق التي فتحها لينين في **الدولة والثورة** حيث كان يتوقع انه بعد اخذ البروليتاريا السلطة فإن «الجهاز الخاص، آلة القمع الخاصة، «الدولة»، تبقى ضرورية... لكن... القمع الذي تمارسه غالبيةُ عبيد الأمس ضد أقلية من المستغلِين أمرٌ جدُ سهلٍ وبسيطٍ وطبيعي نسبياً، وانه سيكلف دماً أقل بكثير مما كلفه قمع تمردات العبيد[٧٢]». كان إضعاف الوظائف القمعية هذا أحد الشروط التي كان يقوم عليها اضمحلال الدولة. وكان الشرط الثاني يتعلق بالاستبدال التدريجي للادارة البيروقراطية والقائمة على الاضطهاد بإدارة شعبية، هي قاعدة الديمقراطية السوفياتية. ألم يكن يتعلق الأمر بـ «**تحطيم** الآلة الادارية القديمة دفعة واحدة للبدء الفوري ببناء آلة جديدة والإلغاء التدريجي لكل وظائفية[٧٣]؟» لاشك انه لم يكن وارداً الاستغناء بالكامل عن الكوادر الموروثين من النظام القديم، لكن هؤلاء المهندسين والخبراء الزراعيين والاختصاصيين سيعملون جميعاً لقاء اجرة عمال «وتحت اوامر عمال مسلحين[٧٤]». هكذا سيتم التقدم نحو نظام اشتراكي حيث «**الجميع** يحكمون كلٌ بدوره ويعتادون سريعاً على ألا يحكم أحد[٧٥]».

بعد ثلاث سنوات من كتابة **الدولة والثورة**، اعترف لينين علناً انه ارتفعت على انقاض المجتمع القيصري «دولة عمالية مشوّهة بيروقراطياً[٧٦]». وفي غضون ذلك، وبعده يقع صراع شرس، ومحتدم ويائس ضد نظام بيروقراطي كان يمثل بالنسبة إليه العدو الرئيسي للديمقراطية والاشتراكية. إن تاريخ هذا الصراع لا غنى عنه لفهم اللينينية.

لاشك أن الدعوة الموجهة إلى التقنيين والموظفين كي يتعاونوا مع النظام الجديد منذ إرساء هذا النظام، كانت قد ترافقت مع التأكيد بأن **الدور القيادي** يعود لـ «المنظمين المتمرسين المنبثقين من (الشعب)[٧٧]». لكن منذ ٤ تشرين الثاني ١٩١٧، كان لينين قد سلّم أمام سوفييت بتروغراد: «ليست لدينا النية الآن لحرمان (المهندسين، م. ل.) من وضعهم المتميز[٧٨]». وفي كراسه **المهام الفورية لسلطة السوفييتات**، اعترف بأنه عبر دفع «سعر مرتفع جداً لـ «خدمات» اكبر الاختصاصيين البورجوازيين»، جرى حشر النظام في «نوع من التخلي عن مبادىء كومونة باريس وكل سلطة بروليتارية» وأضاف: «هذا التدبير ليس فقط توقفاً.. إنه أيضاً خطوة إلى الوراء» لأنه، بتوطيد الامتيازات المكتسبة، ستتم «ممارسة تأثير محلِّل.. على السلطة السوفياتية[٧٩]».

كان لينين قد تحدث عن تجربة. فمنذ كانون الأول ١٩١٨، كان لامتداد المؤسسات السوفياتية الى مناطق لم تكن انغرست فيها بعد نتيجة متمثلة في انها وُضعت في احتكاك مع ادارات بلدية عديدة من النظام القديم ومع زمستفوات المقاطعات التي جرى دمج ملاكها في الجهاز الجديد[٨٠]؛ وفي بعض الحالات، كان المنتسبون الجدد يمارسون ضغطاً شديداً وفعالاً على السلطات البلشفية. هكذا من أجل النضال ضد ازمة التموين ـ تورية رائجة كانت تخفق في إخفاء اضرار المجاعة ـ، لزم اللجوء بشكل مُلح إلى اللجان التي انشأتها الحكومة المؤقتة الراحلة. ولم توافق هذه اللجان على التعاون إلا لقاء الشرط الصريح بأن يتخلى المفوض الجديد للشعب لشؤون التموين عن مسؤوليته. وقد اضطر البلاشفة للرضوخ[٨١]. هكذا انطرحت مشكلة العلاقات بين السلطة السوفياتية والطبقة العاملة، من جهة، والادارة التقليدية من جهة اخرى، المتشكلة الى حد مهم من «الاعضاء القدامى للانتليجنسيا البورجوازية أو من طبقة الموظفين[٨٢]». ولم تكن قوتهم الاجتماعية ناجمة فقط عن عددهم، علماً أنهم كانوا في بعض الحالات يسحقون بوزنهم العددي ممثلي البروليتاريا في السلطة(*). وكانت الكوادر المنبثقة من البورجوازية تفرض نفسها أيضاً بتفوقها التقني وبـ «احتكار ثقافي»: «كان بناءُ آلة أو تنظيم مكتب، وضع خطة أو التعليم في مدرسة، أموراً تجبر على استخدام خدمات هؤلاء الناس وغالباً على وضع الادارة الفعلية بين أيديهم[٨٣]».

كانت تلك مشكلة بالغة الاهمية وكان حلها مستحيلاً في إطار الدولة السوفياتية الجديدة. كان لينين يريد أن يحتفظ العمال وممثلوهم بوزن سياسي واجتماعي يتناسب مع دعوة النظام الجديد. إذاً سوف يوضع «الاختصاصيون» المتحدرون من النظام القديم «تحت العين الساهرة للبروليتاريا» وسوف يجري رفض اي «تنازل سياسي» لهم[٨٤]. لكن كان ينبغي للعمال من جهة أخرى ان «يمروا بمدرستهم»[٨٥]. وقد كان المأزق والتناقض يتلخصان هكذا: على العمال أن يمروا بمدرستهم وأن يقودوهم[٨٦]. ولاشك انه كان ثمة وسيلة لتجاوزهما نظرياً. ولقد عبّر لينين في الواقع عن أمله بأنه إذا بدت البروليتاريا على مستوى مهامها، فإن البيروقراطيين من اصول بورجوازية سوف «ينهزمون أدبياً... ويتم اجتذابهم هم بالذات ضمن جهازنا[٨٧]». لكن المهام التي كان النظام يقترحها على البروليتاريا كانت مستحيلة التحقيق عملياً ضمن الشروط الاقتصادية والاجتماعية لتلك الفترة. توجّب إذاً

(*) استناداً لتقرير وضعه ستالين عام ١٩١٩، كانت ادارة منطقة فياتكا تضم مجموعاً مؤلفاً من ٤٧٦٦ موظفاً من بينهم ٤٤٦٧ يأتون من الجهاز البيروقراطي القيصري القديم. (و. بيتش، مرجع مذكور، ص ١٤٥).

الاعتراف بما هو بديهي: ماكان لينين يدعوه في نهاية عام ١٩٢١ «البورجوازية السوفياتية(*)»، المؤلفة من مئات الآلاف من الموظفين، لم يكن يؤمن بالسلطة الجديدة وكان يشعر بالغربة عنها[٨٨]: «إن ٩/١٠ الاختصاصيين العسكريين» قادرون على «خيانتنا في المناسبة الاولى»، كتب لينين في **الضريبة العينية**، واضاف أن الاختصاصيين غير العسكريين ليسوا بأفضل حالاً[٨٩].

وفي الواقع: أكَّد حكمَ لينين تحقيقٌ جرى تنظيمه خلال صيف ١٩٢٢ مع ٢٧٠ مهندساً في خدمة الدولة السوفياتية. جرت قسمة الموظفين الى فئتين، الأولى تضم مَنْ كانوا ينتمون قبل الثورة الى الكوادر العليا للادارة، والثانية تضم من لم يكونوا في ظل النظام القديم اكثر من «مهندسين عاديين». ولدى السؤال حول ما إذا كانوا يتعاطفون مع الدولة السوفياتية، أجاب ٩٪ من المجموعة الاولى و١٣٪ من الثانية بالايجاب(**). ويلاحظ المؤرخ السوفياتي كريتسمان، الذي ندين له بمؤلَّف مهم عن **شيوعية الحرب**، ان ممثلي الانتليجنسيا القديمة كانوا يبرهنون، في عملهم الاداري، عن وقاحة وعداء حيال الجمهور[٩٠].

إن كتلة البيروقراطيين ذوي الأصول البورجوازية، المسيطرين بالعدد وبكفاءةٍ غالباً ماكانت نسبية، لم تكن مستعدة للقبول بالقيادة البروليتارية التي سبق أن فكر البلاشفة بفرضها عليهم. وفي الواقع فإن علاقة من النموذج المعاكس هي التي قامت داخل جهاز الدولة. وفي الخطاب الذي ألقاه لينين في آذار ١٩٢٢ خلال المؤتمر الحادي عشر للحزب، آخر مؤتمر حضره، أعلن بصراحة ووضوح مميِّزين: «إذا نظرنا إلى الآلة البيروقراطية، هذه الكتلة الضخمة، فمن يقود إذاً ومن يُقاد؟ إني أشك كثيراً في إمكانية القول إن الشيوعيين يقودو وفي الحقيقة ليسوا هم الذين يقودون. إنهم يُقادون». وشرح هذه الظاهرة كالتالي: «لقد حدث ثمة شيء يشبه ماكانوا يروونه لنا في طفولتنا، في دروس التاريخ. كانوا يعلِّموننا أنه يحدث أن يُخضِع شعبٌ شعباً آخر، ويكون عندئذ الشعب الذي أخضع شعباً فاتحاً، والشعب الذي أُخضِع شعباً مهزوماً. لكن ما الذي يحصل لثقافة هذين الشعبين؟ ليس هذا بالأمر البسيط. فإذا كان الشعب الفاتح اكثر ثقافة من الشعب المهزوم فرض عليه

(*) لينين، **المؤلفات الكاملة**، ج ٣٢، ص ٣٣. منذ المؤتمر الثامن للحزب (آذار ١٩١٩)، كان لينين تحدث عن «بورجوازية» جديدة مؤلفة من فلاحين وحرفيين ميسورين وكذلك من موظفين (ج٢٩، ص ١٨٨).

(**) ل. كريتسمان، **مرجع مذكور**، ص ٢٣٣. كان سؤال ثان يدور حول فائدة العمل الذي يقدمه المهندسون. اجاب ٣٠٪ من المجموعة الأولى بأنهم يجدون عملهم مفيداً؛ بينما كانت النسبة ترتفع في المجموعة الثانية إلى ٧٥٪.

ثقافته. وفي الحالة المعاكسة، فإن الشعب المهزوم هو الذي يفرض ثقافته على الشعب الفاتح. ألم يحدث شيء مشابه في عاصمة الجمهورية السوفياتية الاتحادية الاشتراكية الروسية (RSFSR) وألم يحصل هنا أن ٤٧٠٠ شيوعي (أي ما يقارب الفرقة، ومن أفضلهم) خضعوا لثقافة أجنبية؟ صحيح أن بالإمكان تولّد انطباع، هنا، بوجود مستوى ثقافي رفيع لدى المهزومين. (هذا) خطأ. إن ثقافتهم بائسة وتافهة. لكن مهما يكن، فهي اعلى من ثقافتنا».

وختم قائلاً: «هل سيستطيع الشيوعيون المسؤولون عن ج. س. ا. ا. ر (RSFSR) وعن الحزب الشيوعي لروسيا أن يفهموا انهم لا يعرفون القيادة؟ وانهم يتخيلون أنهم يقودون الآخرين، في حين انهم هم الذين يقادون في الواقع[٩١]».

ومع ذلك، كانت السلطة السوفياتية قد قامت بجهد مرموق من أجل إشراك اكبر عدد ممكن من العمال في مهام التسيير والادارة. ففي عشرين من اهم اقسام الادارة الاقتصادية للدولة، كان الموظفون من اصل بروليتاري ومندوبو المنظمات العمالية يمثلون ٤٣٪ من العدد الكلي عام ١٩١٨ مقابل ١٠٪ بالنسبة للمستخدمين المتحدرين من اوساط ارباب العمل، و٩٪ من التقنيين و٣٨٪ من البيروقراطيين القيصريين القدامى[٩٢]؛ تضاف إلى ذلك المكانة المهمة التي تشغلها في الحياة الاجتماعية المنظمات العمالية وخاصة النقابات[*]. وسيجري التقليل من بخس قدر المهمة التي قامت بها الدولة الجديدة من هذه الناحية لاسيما أن عدداً كبيراً من العمال كانوا يشكلون فضلاً عن ذلك هيكل الحزب الشيوعي ويناضلون في صفوف الجيش الأحمر. ولم يكلّ لينين، من جهته، عن الالحاح على الضرورة المطلقة لإشراك الجماهير في الوظائف الادارية[٩٣]. لكن ماذا كان يمثل مئات الألوف من العمال هؤلاء، النشيطين حتى البطولة، في الشبكة الهائلة لإدارة وفيرة؟

كان نمو عدد أعضاء البيروقراطية معتدلاً نسبياً خلال السنة الاولى للنظام: بين النصف الاول من عام ١٩١٨ والنصف الاول من عام ١٩١٩، ارتفع عدد الموظفين من ١١٤٥٣٩، بالنسبة لدولة جنينية حقاً، إلى ٥٢٩٨٤١[٩٤]. لكن في نهاية عام ١٩٢٠، لم يكن عدد أعضاء الجهاز الاداري السوفياتي يضم أقل من خمسة ملايين وثمانمئة وثمانين ألف موظف[٩٥]. والحال أنه لم يكن يتناسب في المجتمع الروسي مع هذا التكاثر الهائل تطورٌ اقتصادي بل أزمة عميقة، على العكس، كان من نتائجها تدمير كل قطاعات الاقتصاد. وهذه المفارقة بين النمو الاداري وانهيار القدرة الانتاجية للبلد كانت مذهلة بوجه خاص في قطاع النقل. فهذا القطاع كان يشغّل ٨١٥ ألف شخص عشية الحرب العالمية الاولى. وفي

(*) انظر ادناه، ص ١٩٣.

عام **١٩٢٠**، ارتفع عدد مستخدمي النقل إلى مليون و **٢٩١** ألفاً، **بالنسبة لحركة مرور أقل خمس مرات**[٩٦]. وغالباً ماكان يجري التفكير في تخفيف عدد الموظفين، لكن هذه المشاريع لم تتحقق في كل حال إلى حين إدخال النيب. صحيح أنه في بلد مهدَّم، لم يكن جهاز الدولة يطرح على نفسه القيام بوظيفة إنتاجية بقدر ما يطرح تقديم عمل، ولو إسمي، وأجر ولو بالغ الهزال، لملايين المواطنين المهددين بالبطالة والجوع. لقد أعلن زينوفييف، إذ كان يتكلم في مؤتمر السوفييتات لعموم روسيا، في كانون الأول ١٩٢٠: «عبثاً صوَّتنا على قرارات، لكن إذا.. كان عشرات أو مئات الآلاف من الاشخاص يحاصروننا للحصول على عمل، يصبح من المستحيل أن نكافح تضخُّم البيروقراطية[٩٧]».

لم يحصل يوماً، بلا ريب، لنظام تسيطر عليه البيروقراطية إلى هذا الحد أن كان يقوده رجلُ دولةٍ معادٍ لها لهذه الدرجة؛ لقد أعلن أمام اللجنة التنفيذية المركزية في كانون الثاني **١٩١٩**: «عدوُّنا الداخلي اليوم، إذا تكلمنا على العدو الداخلي... إنما هم المضاربون والبيروقراطيون[٩٨]». وفي الفترة ذاتها: «إن البيروقراطية تقرُضنا[٩٩]» إلا أنه ابتداء من عام **١٩٢١**، وخصوصاً عام **١٩٢٢**، اكتشف اتساع هذا المرض: «إن ماهو جوهري يغرق في مهاوي البيروقراطية[١٠٠]»؛ «البيروقراطية تخنقنا[١٠١]». «كل شيء غرق عندنا في المستنقع البيروقراطي العفن[١٠٢]». لقد كانت البيروقراطية تثير لدى لينين شعوراً بالغضب الشديد كان ناتجاً ربما عن العجز عن مكافحتها بفعالية، العجز الذي كان يتخبط فيه النظام. كتب في كانون الاول **١٩٢١** إلى بوغدانوف: «لا نعرف أن ندين علانية هذه البيروقراطية القذرة، إننا نستحق جميعاً... أن نُشنق لهذا السبب بحبالٍ منتنة. وانا لم افقد الأمل بأن نُشنق يوماً لهذا السبب، **ونِعْمَ الصنيع**[١٠٣]». وسوف يعترف في نهاية حياته بأنه لم يدرس يوماً الظاهرة البيروقراطية بصورة حقيقية. إلا أنه حاول تمييز أسبابها الرئيسية واقتراح بعض الوسائل لوقف تقدمها.

وفقاً للينين، كان وزن البيروقراطية في روسيا السوفياتية ناجماً بشكل أساسي عن «التأخر الثقافي» للبلد، وخاصة عن واقع أن «الرأسمالية لم تتطور ما فيه الكفاية[١٠٤]». وقد زاد من خطورة هذا الظرف تأثير الحرب الاهلية: فبإفسادها أو تدميرها العلاقات بين المدينة والريف، كانت قد حطمت التطور الاقتصادي للبلد وأدت إلى حالة ركود، بحيث كانت تتوالد الإدارة في حالة فراغ كامل[١٠٥]. لهذا فإنَّ إرث الماضي في بلد كانت بيروقراطية الدولة أرخت عليه دائمًا ثقلها الكبير، بات أشد ثقلاً أيضاً وأكثر إثارة للشلل[١٠٦]. وإزاء تشريطٍ قاسٍ إلى هذا الحد، ادرك لينين الصعوبة التي كانت تصادفها بالضرورة كل محاولة لإضعاف سلطات الجهاز البيروقراطي. فلقد أكد وهو يخاطب مؤتمر عمال المناجم في كانون الثاني **١٩٢١** مايلي: «سنناضل سنوات طويلة ضد البيروقراطية، ومن يفكر بصورة أخرى

هو دجال وديماغوجي، لأنه لأجل التغلب على البيروقراطية ينبغي اتخاذ مئات التدابير، ينبغي أن تكون الأمية اختفت تماماً، وتعممت الثقافة. [١٠٧]» وفي حين نادراً ماكان يتردد في نكء الجراح، كان يدرك أن القمع لن يقدم العلاج ابداً لتجاوزات البيروقراطية. «يمكن أن نطرد قيصراً، أن نطرد الملاكين العقاريين، أن نطرد الرأسماليين. ولقد فعلنا ذلك. لكن لا يمكن «طرد» البيروقراطية في دولة فلاحية. لا يمكن (إزالتها من على سطح الأرض)». لا يمكن إلا تخفيض عددها عبر عمل بطيء ودائب. . «إن نبذ «الدملة البيروقراطية». . أمرٌ خاطىء في طريقة طرح المشكلة بالذات. . **فلا يمكن** «نبذ» دملة من هذا النوع. لا يمكن إلا **الاعتناء** بها. فالجراحة لَغْوٌ في هذه الحالة، **استحالة**؛ **فقط معالجة بطيئة**، والباقي تدجيل أو سذاجة[١٠٨]».

لكن إزاء مرض أسبابه بالغة العمق وعلاماته شديدة التنوع، دعا لينين مع ذلك إلى كل المعالجات، بما فيها الاشد قساوة، وحتى إلى الجراحة التي كان يعتبرها قليلة الفعالية. ومن اجل حَجْر السيرورة البيروقراطية، من أجل «إنقاصها»، ضاعف الاقتراحات والخطط والايعازات. دعا بالتناوب الى «إضفاء الطابع العمالي» على الجهاز الاداري[١٠٩] والى خلق عدد صغير من «الادارات النموذجية»[١١٠]؛ واقترح إيلاء الصحافة مهمة إبقاء رقابةٍ نقدية على البيروقراطية[١١١]. حرر مشاريع أنظمة تلحظ إلزام الموظفين بالخضوع لرقابة المواطنين، لاسيما العمال والنساء[١١٢]. ودفع الهمَّ التفصيلي إلى حد تحرير استمارة طويلة تهدف إلى كشف العيوب الرئيسية للادارة ووسائل اصلاحها[١١٣]. وأخيراً وبوجه خاص، بادر الى خلق «الرابكرين» (التفتيش العمالي والفلاحي)، وهي مؤسسة أوحى بها الانشغال الدائم بجعل الادارة شعبية أو على الاقل الرقابة التي ينبغي ممارستها عليها. كان يجب انتخاب اعضاء التفتيش العمالي والفلاحي وألا يبقوا في نشاطهم إلا لمدد قصيرة، بحيث يجري تدريب مجمل السكان في هذه المؤسسة[١١٤]. ورغم الآمال الموضوعة في عمل هيئة المفتشين الشعبيين هذه، لاحظ لينين فشلها منذ نهاية عام ١٩٢٠(*). وفي «وصيته»، أشار مجدداً إلى هذا الفقر: «لقد ظهر أن التفتيش العمالي والفلاحي، الذي كانت هذه وظيفته في البدء (أي «المبادرة للتحقق من جهازنا ولتحسينه وتنقيحه». م. ل.) عاجز عن تأديتها[١١٥]». وفي ذلك الحين، لم يكن الرابكرين يضم أقل من ١٢ ألف عضو، ولم يكن غير جهاز إضافي في آلة البيروقراطية التي كان عليه مكافحتها[١١٦].

(*) «من المؤكد أن التفتيش العمالي والفلاحي غير موجود إلا في حالة تَمَنٍّ؛ لم يكن ممكناً وضعه في التطبيق لأن افضل العمال كانوا في الجبهة ولأن المستوى الثقافي للجماهير الفلاحية لم يكن يسمح بترقية مناضلين بأعداد كبيرة» (لينين، **الاعمال الكاملة**، ج ٣١، ص ٤٣٩).

هذا المثال نموذجي للطرق التي استخدمتها غالبا الدولة السوفياتية لوضع حد لعيوبها.
لما كانت مصابة بمرض عصيٍّ على الشفاء في الظاهر، «مرض المؤسسات»، كانت تحاول تلطيف نقاط ضعف الأجهزة القائمة بخلق أجهزة جديدة لم تكن تلغي دائماً الاجهزة القديمة بل تضاف إليها. وقد اعترف لينين في كانون الثاني ١٩٢٢ : «لديَّ خوف رهيب من إعادة التنظيم». «إننا نعيد التنظيم دائماً ولا ننجز أية مهمة عملية[١١٧]». وفي رسالة إلى كامينيف كتبها في آذار ١٩٢٢، لم يترك للموظفين إلا الخيار بين «نظام الحصص النسبية tan-tièmes» و. . السجن[١١٨]. وبوجه خاص، كان يبدو أن لديه، مثل زملائه، مَسَّ أو هَوَس إنشاء اللجان. هكذا، في معرض رواية آخر حديث دار بين تروتسكي ولينين أثناء مرض هذا الاخير، يقدم الأول هذه الشهادة شبه المؤثِّرة عن الرغبة التي كان يشعر بها مؤسس النظام السوفياتي في تخليصه من ورمه البيروقراطي: «دعاني لينين إليه في الكرملين، وحدثني عن النمو المخيف للبيروقراطية في جهازنا السوفياتي، وعن ضرورة إيجاد رافعة لمعالجة هذه المسألة جدياً. وقد اقترح خلق لجنة خاصة لدى اللجنة المركزية[١١٩]».

كان عجزه عظيماً ومستشعراً به عن وعي كثيراً، لاسيما أنه كان يصطدم بالجمود وانعدام الكفاءة لدى نموذج خاص من البيروقراطيين، «البيروقراطيين الشيوعيين». فهؤلاء الرجال الذين كان عليهم أن يوقفوا المرض كانوا يساهمون على العكس في استفحاله. وقد طاردهم لينين بعقابه. ففي المؤتمر الثامن للحزب، فضح هؤلاء «البيروقراطيين القيصريين» الذين «يتخفون في صورة شيوعيين» والذين «يستحصلون على بطاقة الحزب الشيوعي الروسي[١٢٠]. . ليضمنوا مهنتهم بشكل أفضل». هؤلاء «الأعيان» الجدد، «المفسِدون من كل جمهورية السوفييتات[١٢١]» كانوا يتميزون بـ «عجرفتهم الشيوعية»[١٢٢] و«ادعائهم الثقافي والبيروقراطي»[١٢٣] وبـ «غرورهم الشيوعي». وهذا الغرور يدفع «رجلاً ينتمي الى الحزب الشيوعي ولم يُطرد منه بعد «إلى تخيُّل» . . انه قادر على تأدية كل مهامه، فقط باطلاق مراسيم شيوعية[١٢٤]». وقد أعلن لينين أن هؤلاء «السادة الكبار الشيوعيين[١٢٥]» يجب ان يتعرضوا لعقوبات «أشد ثلاث مرات من (تلك التي يتعرض لها)(*) اللا حزبيون[١٢٦]». كان يحاول شخصياً أن يقف في وجه ذلك «الغرور الشيوعي»: كما يقول لوي فيشر، «حين كان خلافٌ يضع مسؤولاً شيوعياً دون معارف بمواجهة خبير دون سلطة، كان الاختصاصي يمضي مهزوماً سلفاً، إلا إذا علم لينين أو صاحب مقام كبير آخر غير شيوعي (هكذا) بالموضوع[١٢٧]».

إنطلاقاً من كانون الثاني ١٩٢٢، في الاشهر الاخيرة من نشاطه السياسي، اكتشف ان البيروقراطية لم تكن تعني فقط الغرور، والعجرفة، والتجاوزات، والسلطوية التي كان قد

(*) الاضافة من المعرِّب.

فضحها، بل على مستوىً لم يكن يشتبه به بطءَ ركام الورق القديم المُغِير الذي كان يدفع ريكوف لتذكير الموظفين السوفياتيين بأن العمل هو الذي يشكل العلاقة بين الانسان والطبيعة وليس. . الصيغ البيروقراطية[١٢٨]. وقد لاحظ لينين انعدام الكفاءة هذا في كل قطاعات الادارة: في كانون الثاني، في جهاز اللجنة المركزية الذي «لا يعمل»[١٢٩]؛ في شباط، في مصرف الدولة، «شديد البيروقراطية ككل الباقي[١٣٠]» وخلص الى القول: «كل شيء غرق عندنا في المستنقع البيروقراطي الآسن. . الإدارة؟ قذارة، قذارة[١٣١]». وفي آذار **١٩٢٢**: «تسود فوضى كاملة في مفوضية المال[١٣٢]». وفي نهاية عام **١٩٢٢**، خلال الاسابيع القليلة من الراحة التي اعطاه إياها المرض، تسنّى له أيضاً أن يلاحظ «الفوضى المثيرة» التي كانت سائدة في مصالح الكومنترن وفي مصالح الاممية النقابية[١٣٣]. وفضلاً عن ذلك وصف لينين الانطباعات التي تولدت لديه شخصياً خلال رحلة بائسة، تكشف حالة خراب شبكة النقل وتبذير إدارتها. لما كان قد سافر للمرة الاولى، لا «كشخص رفيع المقام» يضع «كل شيء وكل واحد في حالة استنفار عبر عشرات البرقيات الخاصة»، لاحظ أن وضع. . . الشاحنات ذوات المحرك الواحد مثير للرثاء بشكل مطلق. فهي بلا عناية، مخلّعة. . . الفوضى كلية، ويبدو أن الوقود تعرض للسرقة، والبنزين مخلوط بالماء، والمحرك يعمل بصورة بالغة السوء، وحالات التوقف في الطريق لا تنقطع، والتهريب يتم بصورة مخزية». وأكد لينين أن «الحالة هذه ليست معزولة» وأن «كل التنظيم هو في الحالة ذاتها من العار الذي لا مثيل له، والخراب والعجز الكليين. وقد اعترف بأن هذا الاكتشاف أحدث لديه «انطباعاً برزوح بلا أمل[١٣٤]».

إن ما أكمل جعل البيروقراطيه السوفياتية لا تطاق هو إذاً تهاونُها. فلنفكر بوصف ماكس فيبر لإدارة الدولة البروسية التي كانت صفات الكفاءة فيها تشكل بالنسبة إليه النموذج البيروقراطي بامتياز: «الدقة، والسرعة، والوضوح، ومعرفة الملفات، والاستمرار، والكتمان، والوحدة، وروح الخضوع الدقيق، وغياب الصدامات الشخصية، والحد من الكلفة سواء في المواد أو في الملاك، هاكم الصفات التي تبلغ الدرجة المثلى في ادارة بيروقراطية. .[١٣٥]» وقد أرادت تعاسة روسيا السوفياتية انه إذا كان لموظفيها أحياناً عجرفة زملائهم الالمان، فنادراً جداً ماكانت لهم فعاليتهم. هكذا فإن نظاماً ولد في النضال التحريري وفي الأمل الإباحي(*)، اكتسب، بفعل بيروقراطيةٍ بليدة ومستبدة، أحد الملامح الاكثر ديمومة في المجتمع السوفياتي.

(*) من الإباحة، بمعنى إطلاق اقصى درجات الحرية (المعرب).

موجة الإصلاحات (الحقوق، الثقافة، التعليم)

إذا كان «المجتمع اللينيني» انطبع بالعنف وشغلت فيه البيروقراطية منذ ولادة النظام تقريباً مكانةً مهمة، إلا أنه كان قريباً جداً من اصوله الثورية ومن دعوته التحَريرية بحيث يملك غنى المكاسب التي لا تحصى المنتزعة من العالم القديم وتنوُّعَها. كان يبرهن في الحقول الاكثر تنوعاً على أن العلاقة بين الإصلاح والثورة، بدل أن تعيد إنتاج الترسيمة الاشتراكية - الديمقراطية، قلبتها على العكس. لم يكن النضال من اجل الاصلاحات هو الذي ادخل الثورة وهيأها بل الثورة هي التي فتحت الطريق للاصلاحات الاكثر فعلية والاشد عمقاً. وفي الواقع: ادى استيلاء الطبقة العاملة الروسية في اوكتوبر ١٩١٧ على السلطة السياسية إلى تغييرات كثيرة ومهمة، واحياناً إلى خضات كثيفة في حياة روسيا الاجتماعية. إن مطالب مدونة منذ زمن بعيد في برنامج الديمقراطية، وإن كانت تقدمية وبورجوازية، جرى تحقيقها إبان انتفاضة اوكتوبر، ووجدت روسيا نفسها، هي التي كانت بالأمس بالغة التأخر، في طليعة التقدم في بعض المجالات. وإن التشريع في ميدان الأحوال الشخصية يبرز ذلك بوجه خاص.

لم يكن عمر النظام السوفياتي تجاوز الشهر حين أصدر المرسوم الذي بدت الحكومة المؤقتة عاجزة عن وضعه خلال ثمانية اشهر من وجودها: القانون الذي يُقِرّ الطلاق، وبوجه خاص الطلاق بالرضى المتبادل. وفي الفترة نفسها تقريباً، حل الزواج المدني محل الزواج الديني. كان قانون العائلة يحدد عام ١٩١٨ كيفية الطلاق ويحقق اختزالاً أقصى لاجراءاته[١٣٦]. وكان هدف هذا الإصلاح، وفقاً لتعابير أحد المشرِّعين الرئيسيين آنذاك، تحويل مؤسسة يجب أن «تكف عن أن تكون قفصاً يعيش فيه الزوجان عيشة المحكومين بالأشغال الشاقة»[١٣٧]. من جهة اخرى، أعلن قانون ١٩١٨ في مادته ١٣٣ انه «ليس ثمة تمييز بين القرابة خارج الزواج و(القرابة) داخله»[١٣٨]. وقد جرى الغاء أي تمييز قانوني بين الاولاد الشرعيين والاولاد غير الشرعيين. وعموماً، قدَّر هنري شامبر انه في قانون ١٩١٨، «انصاع المشرِّع لاهتمامين ضحّى لأجلهما بكل شيء: تحرير المرأة وزوال اللا مساواة في الحقوق التي تفصل بين الولد الطبيعي والولد الشرعي[١٣٩]». ويحسُن هنا أن نلاحظ الاهمية التي كان يتخذها في نظر لينين التصويت على تشريع يلغي التمييزات التي كانت النساء ضحايا لها ويضمن تحريرهن بتغيير مكانتهن في المجتمع. فمع أن «النساء غالباً ماالتحقن بالحركة (المنبثقة من الثورة، م.ل.) بالصورة الاشد صعوبة[١٤٠]»، فلقد كان يعتبر أن «مهمة جمهورية السوفييتات هي في المقام الاول إلغاء كل تقييد لحقوق المرأة» وكان يرى فضلاً عن

ذلك أن «نجاح الثورة يتوقف على اهمية مشاركة المرأة[١٤١]». وفي ظروف عديدة، أشار إلى أنه حسب فهمه ينبغي لأشكال المشاركة الشعبية في مجمل الحياة الاجتماعية وفي الادارة ان تحتفظ بمكانة مرموقة للمرأة. كان الامر يتعلق بـ «إشراك المرأة في العمل الاجتماعي المنتج، وتخليصها من «العبودية المنزلية»، وتحريرها من النير المَخبِّل والمهين، الأبدي والمانع، نير المطبخ وحجرة الاولاد». وخلص لينين الى القول: «هذه هي المهمة الرئيسية» في موضوع التشريع بصدد المرأة[*].

لقد أضيف إلى التجديدات العديدة للقانون المدني التغيير الكامل للقانون الجزائي. ألغى مرسوم صادر في ٧ كانون الاول ١٩١٧ «كل المؤسسات القضائية الموجودة[١٤٢]»، وإذ يمحو هكذا الماضي، يدشن تصوراً جديداً بالكامل للتشريع الجزائي الذي كانت بعض مظاهره تكتفي باستعادة البرنامج الديمقراطي بينما تبشر أخرى بتنظيمٍ اشتراكي للعدالة. كانت المادة ١٠ من «المبادىء الموجِّهة للقانون الجزائي» الصادرة في كانون الاول ١٩١٩ «تذكِّر بأن العقوبة المفروضة في النظام الاشتراكي يجب ان تكون عقلانية وخالصة من أي عنصر آلام غير عادلة وكريهة، لأن الجرم يولد في مجتمع طبقي من البنية الاجتماعية وليس خطأ مقترفه. ينبغي ألا يكون للعقوبة طابع التكفير عن الخطأ أو طابع الافتداء. ومفهوم الخطأ الموضوعي مستبعد بحزم[١٤٣]». من جهة اخرى، كانت مصادر القاعدة الحقوقية تعطي مكانة مهمةً لمفاهيم «الوعي الثوري» و«وعي طبقة الشغيلة» و«الوعي الاشتراكي»[١٤٤]. وهذا يعني أنه كان للحق السوفياتي، من وجوه كثيرة، طابع طبقي واضح. هكذا، «من اجل تقرير العقوبات التي يجب تطبيقها، تأخذ «المبادىء (الموجِّهة للقانون الجزائي، م. ل.) بالحسبان الخطر الذي يشكله بالنسبة للمجتمع، سواء الجانح: هل ينتمي إلى الطبقة البورجوازية أم لا؟ وسواء الجنحة: هل تم اقترافها من اجل اعادة السلطة للطبقة المضطهدة أو لا؟. وإذا كان الجواب بالايجاب يجري إنزال عقوبات أشد[١٤٥]».

وأخيراً وبوجه خاص، ظهر التصور الجديد للحق في حين كانت الديمقراطية السوفياتية تشهد أوج تطورها وكان يُزْمَعُ إشراك الجماهير بإنفاذ العدالة. كانت المحاكم

(*) المرجع ذاته ج ٣، ص ٤٢١. انظر أيضاً «ملحوظة حول إعادة تنظيم الرقابة على الدولة ج ٣٦، ص ٥١٩، وتوجيه المكتب السياسي حول مسألة الرابكرين، ج ٤٢، ص ١٥٤، «ملحوظة الى ستالين» في آذار ١٩١٩، ج ٢٨، ص ٥١١ والـ «ملاحظة الاضافية المتعلقة بمشاريع تنظيم الرابكرين» حيث يطلب لينين «العمل إطلاقاً على ان تُشرك في هذا العمل (المقصود «الرقابة على جردة المنتجات الغذائية، والسلع، والمستودعات، والأدوات، والمواد، والمحروقات» الخ، الخ. النساء كلهن دون استثناء». (المرجع ذاته، ج ٣٠، ص ٣١١).

الشعبية ـ فضلا عن تلك التي ظهرت بصورة عفوية بالكامل[١٤٦] ـ، تتشكل ابتداء من شباط ١٩١٧ من قضاة منتخبين حصراً. وفي شباط ١٩١٨، تقرر أن تتولى السوفييتات المحلية تعيين القضاة[١٤٧]. إلا أن بعض الأحكام حاولت أن تحتفظ لأصول المحاكمات ببعض ملامح «الديمقراطية الخالصة» المميِّزة لنظام السوفييتات لدى ولادته، لاسيما عن طريق اختيار «المحامين» و«قضاة الاتهام» من لوائح متطوعين متحدرين من الطبقات الشعبية[١٤٨].

إلا أن واقع التغييرات الجذرية التي شهدها المجتمع الروسي يَبْرز من وصف جلسات محاكم شعبية أكثر مما من تعداد بعض النصوص التشريعية. تروي نادجدا كروبسكايا، مثلاً، مسار بعض «الدعاوى» التي اتفق أن حضرتها في الفترة الاولى من النظام السوفياتي. فخلال إحداها، كان رجل متهمًا بالمعاملة السيئة التي كان يُخضع ابنه لها وبمنعه من الذهاب الى المدرسة. تروي امرأة لينين فتقول: «تكلم من بين الجمهور عدة عمال وعاملات وكان لمداخلاتهم أحياناً نبرات ملتهبة. لم يكن «المحامي» يتوقف لشدة ارتباكه عن تجفيف جبهته من العرق، وبعد ذلك وعد المتهم، ووجهه مليء بالدموع، بأنه لن يضرب ولده بعد الآن. وفي الحقيقة، لم يكن الأمر يتعلق بمحكمة بقدر ماكان يتعلق باجتماع شعبي يمارس رقابةً على سلوك المواطنين. كانت الاخلاق البروليتارية، تتجسد تحت أبصارنا[١٤٩]». ويروي شاهد آخر جَوَّ جلسة من النوع ذاته، حيث كان قضاةٌ مرتجلون، واعون جداً لمسؤولياتهم الجديدة، يُبدون علامات عصبية شديدة. «جرى إدخال المتهمين إلى القاعة. وقد قادهم حراس حمر بتهذيب إلى المقاعد التي كانت مخصصة لهم وقدموا لهم سجائر. كانوا يدخنون ويثرثرون. أي فرق بين هذا الجو وجو المحاكم القديمة! وقد خاطب احد القضاة الجمهور. طالباً تعاونه لتطبيق العدالة وأعلن: «هاكم الاصول التي سنستخدمها: كل جهة ستعرض روايتها للوقائع، ثم يحدد الجمهور موقفه؛ وسوف يتدخل شخصان لصالح المتهم وشخصان ضده. .[١٥٠]».

بديهي أن قيمة هكذا عدالة كانت تتوقف على مستوى المواطنين المدعوين لإنفاذها. وفي المدن الكبرى، يبدو أن النتائج كانت في الغالب مُرْضيةً وأنه كان في وسع المتهمين أن يعتمدوا على رأفة قضاتهم[١٥١]. لكن في الارياف أدت المحاكم المرتجلة إلى تصفيات حساب كانت همجيتها تكشف تخلف الموجيك الثقافي. صدرت أحكام بالموت في مجرد حالات سرقة ونُفِّذت أحياناً على الفور. كان «القانون الجزائي» الموضوع في قرية صغيرة من مقاطعة تامبوف يعلن انه «إذا ضرب أحدهم رجلاً آخر، سوف يتلقى من الضحية عشرة أضعاف ما تلقته هذه الاخيرة من ضرباته»؛ وفي مكان آخر، في تلك الفترة التي كان تحرر المرأة تقدم خلالها بخطىً عملاقة، جرى الحكم على قروية متهمة بالزنى بأن يتم دفنها حيَّة؛ وفي مكان آخر أيضاً، جرى استبدال حكم بالإعدام على أحدهم بفلق بعد تدخل كاهن

لمصلحته[١٥٢]. وفي ميدان العدالة كما في حقول أخرى كثيرة، كان تطبيق التشريع الثوري يثبت إلى أي حد لم يكن يمكن النظام الذي خلقته ثورة اوكتوبر ان يؤتي ثماره إلا في وَسَطٍ متقدم، تخلص من عقابيل الروح القروسطية والظلامية.

إذا تطلعنا الآن إلى حقل الفنون والثقافة والتربية، فإن ملاحظة عامة تفرض نفسها على المناخ الذي تطورت فيه تعبيراتها المختلفة. فكما يقول ألفرد ميير Meyer، «جلبت الثورة (في هذه المواضيع، م. ل.) معها درجة قصوى من الحرية في التعبير وفي التجربة». كانت تلك هي الحال في الأدب وفي ميدان الفنون التي عرفت حتى تاريخ متأخر من العشرينيات تطوراً مرموقاً. فلقد مارست في هذا الصدد مفوضية الشعب للتعليم العام، تحت الادارة المستنيرة لأناتول لوناتشارسكي، الذي كان صاحب مزاجٍ غني لفنان ومثقف، «سياسةَ تسامح[١٥٣]» استفادت منها اكثر المدارس والتيارات تنوعاً واشدها تعارضاً. صحيح ان هذا الموقف الليبرالي اصطدم بعوائق عديدة. فلقد أثار احتجاجات متواترة بين الفنانين والإيديولوجيين الاكثر راديكالية، أنصار «اوكتوبر ثقافي جديد» والذين كانوا ينعتون بـ «الانتهازية» نزعة التسامح وسعة الصدر اللتين كان يبرهن عنهما المسؤولون عن هذا القطاع من الحياة العامة[١٥٤]. إن لوناتشارسكي، الحاظي بدعم لينين في هذا المجال، كان يحاول أن يدافع بوجه ماياكوفسكي وغيره من اعداء التقاليد عن كلاسيكيي الادب الروسي والفن عموماً[١٥٥]. وكما يروي مفوض الشعب لشؤون التعليم العام، «كان البعض يتخيلون أنه يجب الاستيلاء على البولشوي تماماً كما كان جرى الاستيلاء على قصر الشتاء. هناك يجري عندئذ إرساء قيادة جديدة، من أصول بروليتارية قدر الإمكان، أو على الأقل تبتسم بلطفٍ للطبقة العاملة[١٥٦]». وقد شهدت (الساحة) في الاخير هذا المشهد الغريب لمسؤول دولة عن الثقافة يدافع عن حرية الخلق ضد هجمات بعض الفنانين والأدباء «اليساروويين». هؤلاء الأخيرون، الذين وصفوا لوناتشارسكي بـ «الرجعي» على أعمدة **البرافدا**، التي كانت مفتوحةً أمامهم بشكل واسع، بفضل دعم بوخارين، سمعوا مفوَّض الشعب للتعليم العام يجيبهم أنه في حين يعتبر من يوجهون إليه الاتهام أن من واجبهم «الدفاع عن الانضباط الحزبي في ميدان الإبداع الشعري، فأنا أعتقد من جهتي أن إحدى وظائفي تتمثل في حماية ثقافة حرة ضد الاعتداءات التي يريد ممارستها ضدها نمّامون حمر[١٥٧]».

في الواقع، لم يكن يعادل الحماس الطليعوي للعديد من الفنانين غير عقوقهم. لأنه إذا كان لوناتشارسكي ومفوضية الشعب للتعليم العام يحميان شتى تعبيرات الفن الكلاسيكي ضد نفاد الصبر الثوري وانعدام التسامح لدى التحديثيين الذين كانوا يريدون أن يُقصوا هذه المخلفات الخاصة بعالم بائد إلى «مزبلة التاريخ»، فلقد كان لوناتشارسكي يتيح لمزدريه اليساريين الاستفادة من ليبراليةٍ ودعم مادي مماثلين على الأقل. كانت تعبيرات

الفن الاقل تقليدية تنعرض هكذا بحرية في شوارع موسكو، ويشير أرتور رانسوم، بصدد احتفالات أول أيار ١٩١٩، إلى «أثرها الكرنفالي». «في كل مكان كانت فيه أكداسٌ من الألواح أمام منزل قيد الاصلاح، جعل الرسامون منها مأطورات ضخمة تمثل وجوهاً رمزية للثورة[١٥٨]». ويواصل الصحفي البريطاني: «لكن أفضل شيء، في رأيي، كان صفاً من الأكواخ الخشبية.. كان قد زَخرف هذه (الأكواخ) مستقبليون أو فنانون من هذا النوع، وكان لذلك تأثير لذيذ حقاً لألوان فاقعة ورسوم ساذجة[١٥٩]». وكانت ليبرالية لوناتشارسكي والسلطات السوفياتية تستحق المديح لاسيما أن حداثية الفنانين الطليعيين لم تكن تثير في الغالب حماس الاوساط الشعبية[١٦٠].

إن العلاقات بين مفوضية الشعب للتعليم العام والمنظمة المعروفة باسم «بروليتكولت» تُبْرز أيضاً الصعوبات التي كانت تصطدم بها السياسة غير العصبوية للسلطة السوفياتية في ميدان الآداب والفنون. كان أتباع «البروليتكولت» (الثقافة البروليتارية)، المتجمعون في جمعية مبنية جيداً، والممتلكون مثلاً لجنتهم المركزية، يقدِّرون حسبما كان يعلن أحد القرارات المصوّت عليها خلال الكونفرانس الذي عقدوه في أوكتوبر ١٩١٧ أن «كل ثقافة الماضي يمكن اعتبارها بورجوازية، وباستثناء العلوم الطبيعية والتقنية ـ وحتى هذه ليس من دون تحفظات ـ لا شيء فيها يستحق إبقاءه قيد الحياة. [١٦١]». وفي الفنون المشهدية والمسرح، كانت لأنصار «البروليتكولت» مواقف صلبة بوجه خاص وكانوا يطالبون السلطات بحظر تمثيل كل الذخيرة الكلاسيكية أو جعل ذلك مستحيلاً[١٦٢]. وقد طالبت منظمة «البروليتكولت»، غير المكتفية بالدفاع عن استقلالٍ جرى الاعتراف لها به، بإعطائها «صلاحيات كاملة في مجال الثقافة»[١٦٣] وكان لابد أن تفسد هذه الاشتراطات بالضرورة علاقاتها بالحكومة. فهذه الاخيرة كانت في البدء قد حظيت بمودة واسعة من جانب أتباع «الثقافة البروليتارية» إلى حد أن لينين انتُخب رئيساً فخرياً للمنظمة خلال المؤتمر الأول لمنظمات «البروليتكولت» لعموم روسيا المنعقد في موسكو في ايلول ١٩١٨[١٦٤]. لكن السلطة السوفياتية، في الوقت الذي سمحت فيه بتظاهرات الجماعة وشجعتها حتى إلى حد بعيد، حاولت أن تدمجها في مفوضية الشعب للتعليم العام[١٦٥].

هذا التطور باتجاه نوع من مركزة التجليات الثقافية والفنية تحت القيادة الليبرالية جداً، وفي كل حال، الخاصة بالدولة، كان مرتبطاً بلا جدال بموقف لينين بصدد الابداع الفني والثقافي. والحال أن هذا الموقف كان يعبر عن مزيج من العداء الشديد والتسامح النسبي. كان يقول مثلاً: «اشعر بعداء لا يرحم لكل الهذيان الثقافي، كل (الثقافات البروليتارية)[١٦٦]». ووفقاً لشهادة لوناتشارسكي، كان لينين يخشى كثيراً أن تتشبث «البروليتكولت».. ببلورة علم و.. ثقافة بروليتاريين»، في حين أن هذه المهمة كانت تبدو

له مبكرة ومستحيلة في آن. وكان يعتقد فضلاً عن ذلك أن «البروليتكولت» ستؤدي إلى قطع البروليتاريا عن دراسة العلم والثقافة الراهنين وعن فهمها «تحت تأثير فانتازيات تستبق شروط المجتمع القادم[١٦٧]». وخلال حديث مع كلارا زتكين، أكد لينين من جهة اخرى: «لديَّ الجرأة لأعلن عن نفسي كـ «همجي». أنا لا أثمّن الأعمال التي انتجتها الانطباعية والمستقبلية والتكعيبية، وكل ما ينتهي بـ . . . ية؛ لا أرى فيها التعبير الأسمى عن العبقرية الفنية. لا أفهمها ولا تمنحني أية متعة . . من جهة اخرى، نحن لا نفهم شيئاً من الفن الجديد ونكتفي بالركض وراءه[١٦٨]».

إن لينين المنغلق على الأشكال الحديثة للفن والمعترف بـ «عدم كفاءته بالكامل في هذا الحقل[١٦٩]»، لم يكن مندفعاً ليطبق في الميدان الثقافي لا صرامة ولا رقابة حقيقية. لا شك أنه كتب إلى لوناتشارسكي قائلاً إنه «لعارٌ التصويت لصالح نشر قصيدة ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ لماياكوفسكي بخمسة آلاف نسخة». لكن بين التسامح «المخجل» الذي كان يأسف له والصرامة التي كان يبدو نصيرها، لم يكن الفرق كبيراً في فترة كان عمل النشر خلالها مأثرةً مع ذلك، لأنه كان يدعو إلى ألا يُنشر من هذا النوع من الادب إلا . . ألف وخمسمئة نسخة[١٧٠]. لقد اعطى تعليماته إلى لوناتشارسكي باتخاذ موقف ضد أنصار الـ «بروليتكولت»، لكن كان يبدو أنه يسلِّم دون كبير صعوبة بأن يجري تجاهل توجيهاته[١٧١]. فقد قدم هو ذاته إلى المكتب السياسي مشروع قرار معادياً لأطروحات «الثقافة البروليتارية»، لكن إزاء الاعتراضات التي صاغها بوخارين، لم يلحَّ وتخلى عن طلب التصويت عليه[١٧٢]. إلا أنه حاول إدخال شيوعيين مسؤولين إلى «القسم الفني» في مفوضية الشعب للتعليم العام، في حين دافع عنه ضد بعض اعضاء الحزب الذين كانوا يطالبون بحله بكل بساطة[١٧٣]. وعموماً، لم يكن يتحمل التسامح الذي كان لوناتشارسكي يبديه حيال كل تجليات الطليعة الثقافية والتشجيعات المادية التي كان يقدمها لهم، لكنه أبقى مع ذلك على ثقته بمفوض الشعب للتعليم العام بالرغم من الهجمات التي كان يتعرض لها غالباً.

كان يمكن ان يظهر تطور الفنون(*) والآداب ترفاً شبه وقح في بلد تسحقه الحرب والتعاسة، أو كرهان في حين كان جمهور المسارح يرتعد من البرد، خلال شتاء موسكو، في قاعات غير مدفأة[١٧٤]، وكانت دور النشر تفتقر إلى الحبر إلى حد أن الكتب كانت تُطبع بصورة كريهة؛ مثيرة للرثاء إلى درجة أن مدرِّساً يروي وهو يتذكر الكتب الجديدة التي كان يتم

(*) حول الانجازات ومشاريع الهندسة المعمارية السوفياتية المرموقة خلال السنوات الاولى من حياة النظام، انظر: أ. كوب، **Ville et Revolution** باريس، ١٩٦٧.

توفيرها له انه «كان ينبغي أن يحزر القارىء النص بدل أن يقرأه، أو أن يهجِّىء كلماتٍ حرفاً فحرفاً، متخلياً عن فهم عشرات الاسطر[١٧٥]». والمرء يفهم انه حين حاولت النيب ان تفرض في كل مكانٍ قواعد ريعية، تأثرت النشاطات الثقافية الصرفة حتمًا، بسبب ذلك، تأثراً شديداً[١٧٦].

مع عمل التربية والتعليم العامين، ندخل على العكس ميْداناً كان الماركسيون الروس اعتبروه دائمًا حيوياً. كان يقول أناتول لوناتشارسكي: «نحن المناضلين الشيوعيين، هل كنا نتطلع يوماً إلى شيء غير تربية الشعب؟[١٧٧]» ولينين: «من اجل المشاركة في الثورة بصورة واعية وذكية وبنجـ ح، ينبغي التعلم». هكـذا كان يبرر مشروعـاً لاعادة تنظيم مكتبات بتروغراد التي كان يطلب تعزيز مِلاكها ويضيف: «يجب ان تكون قاعة القراءة في المكتبة مفتوحة كل الأيام، دون استثناء ايام الاعياد والاحاد، من الثامنة صباحاً حتى الحادية عشرة ليلاً[١٧٨]». ويعود المشروع الى تشرين الثاني ١٩١٧ في حين انه لم تكن أي من المشكلات الحيوية لنظام ولد للتوقد سُوِّيَت(*). وهذه الواقعة تضيء كفايةً الأهمية ذات الاولوية في الغالب التي كان يوليها لينين لقضايا التربية. وقد اضاف من جهة اخرى الى وظائفه كرئيس للحكومة والزعيم الرئيسي في الحزب، وظيفة رئيس لجنة إعادة تنظيم مفوضية الشعب للتعليم العام، مثـلاً، وتـابـع اعـمالهـا يومـاً بيوم. كان من عام ١٩١٧ إلى عام ١٩٢٢ حاضراً في كل الكـونفـرانسات المخصصة لمشكلات التربية، وتكلم كل مرة فيها[١٧٩]. وفي نهاية الحرب الاهلية، حين جرى التشديد على تنظيم الاقتصاد وعلى الركود الذي كان يسود فيه، في آن معـاً، صوَّر لينـين «انطلاق الثقافة» كالعلاج الأساسي لأمراض البيروقراطية[١٨٠]. وبوجه خاص، عاد باستمرار إلى فكرة أن واجب كل المناضلين وكل موظفي الدولة والحزب هو ان يتعلموا في كل مادة وفي كل ظرف[١٨١]. وفي كتاباته الاخيرة، أعلن اخيراً ان «مركز الجاذبية الان في عملنا يتعلق بالعمل التربوي[١٨٢]» وفي حين اعترف بأن اكتساب «ثقافة بورجوازية لا أكثر» قد يشكل تقدماً مهمًا لروسيا، اعتبر أنها بحاجة بشكل أساسي إلى «ثورة ثقافية»(**) لتصبح «بلداً اشتراكياً بالكامل[١٨٣]».

إن بعض التجديدات التي ادخلتها السلطة السوفياتية منذ السنوات الاولى للنظام اعـطت الانطباع في الواقع بإعداد ثورة تربوية حقيقية. لاشك أن مبادىء لوناتشارسكي

(*) سوف نجد إثباتات أخرى على الاهتمام الكبير الذي كان يوليه لينين للمكتبات العامة، انظر المؤلفات، ج ٢٨، ص ٤٧٤؛ ج٤٥، ص ١٢٠ - ١٢١ وفي اماكن اخرى.

(**) حول معنى «الثورة الثقافية» عند لينين، انظر ادناه، ص ١٧٥.

ومعاونيه الاقربين كانت تستلهم طرائق «تقدمية»، وغير توجيهيه دافع عنها بعض المربين والمعلمين الاميركيين والأوروبيين. لكن موظفين مهمين آخرين في مفوضية الشعب للتربية العامة كانوا ينوون الذهاب أبعد وخلق مدارس ـ كومونات حيث يجري الفصل الكامل للأولاد عن المحيط العائلي[١٨٤]. ولقد سمحت حرية التصرف التي تُركت للمؤسسات المحلية بامتحان طرائق جديدة، في هذا الميدان كما في ميادين كثيرة اخرى، بحرية تجريب كبيرة.

ورغم تنوع الاصلاحات المطبقة في روسيا السوفياتية على شتى مستويات التعليم العام وفي مختلف قطاعات التربية الشعبية، يمكن مع ذلك استخلاص خطوطها العريضة. فعملية محو الامية على صعيد سكانٍ أميين إلى حد بعيد استلهمت مرسوماً صادراً في ١٠ كانون الأول ١٩١٨ يعبىء كـ «قرّاءٍ» كل المواطنين المتعلمين ماعدا أولئك المنهمكين بالكامل في المؤسسات السوفياتية. كان على هؤلاء «القراء» أن يتشكلوا في مجموعات ويضطلعوا بتعليم الاميين القراءة مستندين إلى قراءة المراسيم الحكومية، وبصورة أعم الصحف الشيوعية[١٨٥]. ولإكمال هذا التدبير، جرى فرض حضور بعض الدروس في المدارس بالذات على كل المواطنين الأميين بين الثامنة من العمر والخمسين[١٨٦]. إن الرغبة في نشر الأدب وسط الشعب تجلت من جهة أخرى منذ الايام الأولى للنظام السوفياتي، حين قضى مرسوم حكومي بإصدار مؤلفات الكتّاب الكلاسيكيين الكبار في مجموعات شعبية وأوضح ان هذه الكتب يجب ان تباع بسعر الكلفة، وإذا أمكن بسعر أقل[١٨٧].

إن تنظيم التعليم الابتدائي والثانوي تمتع باستقلال واسع. إلا أن السلطات المركزية فرضت عليه بعض التوجيهات العامة. فلقد أدخل مرسوم صادر في ايار ١٩١٨ الاختلاط في كل المدارس، وبعد أشهر قليلة، أذيعت تعليمات أخرى كانت تقضي بدمج العمل المدرسي والعمل اليدوي المنتج وبإعطاء التعليم طابعاً بوليتكنيكياً وجماعياً (تشكيل مجموعات بحث وقراءة)، بالاضافة الى ترك حرية خلق كبيرة للتلامذة[١٨٨]. لقد قرر قادة التعليم السوفياتي، في تشرين الاول ١٩١٨، إلغاء نظام الامتحانات، كما قرروا أن تتم إدارة المدارس بواسطة هيئة جماعية تضم كل الشغيلة العاملين في المنشأة، وممثلين عن المنظمات العمالية المحلية بالاضافة الى ممثلين عن التلامذة الذين تتجاوز اعمارهم الاثني عشر عاماً؛ وأعلنوا أيضاً ان المدرسة يجب ان تصبح «مركزاً سياسياً». حيث يمكن التلامذة أن يدرسوا المشكلات العالمية (الراهنة من أجل تشجيع استيقاظ الوعي الطبقي؛ وهم في كل ذلك كانوا ستبقون مطالب سوف تعممها احداث عام ١٩٦٨(*)، وأحياناً إصلاحات تحتفظ بعد ٥٠

(*) المقصود التحرك الطلابي الجبار الذي تم في ايار ١٩٦٨ في فرنسا، ورأى فيه الكثيرون ثورة (المعرب).

عاماً بطابع ثوري[١٨٩]. وفضلاً عن ذلك تم إلغاء الفروض المنزلية واتخذت تدابير للحد من التكرار غير المفيد عن طريق مطالبة المعلمين بأن يُلغوا قدر الإمكان التمارين التي تتطلب الحفظ الصِّرف غيباً؛ وأعفي التلامذة أخيراً من إبداء علامات الاحترام لأساتذتهم، تلك العـلامات التي كانت كثيرة وقاسرة بوجه خاص في التعليم الاستبدادي لروسيا القديمة؛ وبات لهم الحق الصريح بـ «الرد على معلميهم»[١٩٠]. وهذا عمل تحريري عميق وحقيقي للأذهان جرى هكذا تدشينه.

وعلى المستوى الجامعي، أنجزت مفوضية الشعب للتعليم العام أيضاً عملاً طليعياً. فأناتول لوناتشارسكي، مستبقاً اتهامات عصرنا الاعتراضية، كان قد استشاط غيظاً لكون «الجـامعات ليست غير مصانع لفبركة شهادات[١٩١]»، وهذا الوضع بالذات هو ما أرادت مفوضيته ان تقدم له العلاج. أعلن مرسوم صدر في كانون الاول ١٩١٨ مجانية الدروس وفتح المؤسسات الجامعية بشكل واسع أمام الطلاب الجدد. وإن إصدار هذا المرسوم وحده رفع عدد المسجلين في سنة أكاديمية واحدة، في جامعة موسكو، من ٢٦٣٢ إلى ٥٨٩٢[١٩٢]. ومنذ تشرين الاول ١٩١٨، جرى اتخاذ تدابير لتجديد الجسم التعليمي وإضعاف سلطة المنـادرة mandarins (*) المـوجودين وتصدى احد المراسيم لامتيازات الاساتذة نازعاً منهم احتكار منابر التعليم وسامحاً لأيٍّ كان أثبت معارفه بأن يرشح نفسه للتدريس في الجامعة. جرى إلغاء الرتب الاكاديمية وإخضاع الجسم التعليمي لمحاولة تجديد منهجي، حيث بات على الأساتذة العاملين في التدريس منذ ١٥ عاماً أن يستقيلوا إجبارياً مع حرية أن يقدموا ترشيحهم من جديد. وليس ثمة ما يدهش في المعارضة التي أبداها مجمل اساتذة الجامعة الـروس ضد إدخـال هذه الاصلاحات. وقد كان لعدائهم وزن كبير جداً بحيث سعت الحكـومة السوفياتية للحصول على تعاون الأوساط الاكاديمية في التعليم، واكثر أيضاً في البحث. وقـد جرى إعـلان مبدأ استقلال المنشآت الجامعية؛ وسوف يتم الانتظار حتى تشرين الثاني ١٩٢٠ كي تحاول مفوضية الشعب للتعليم العام إدخال تدابير مراقبةٍ إلى جامعة موسكو، علماً أن ذلك تم دون نجاح كبير[١٩٣].

هكذا رقابةٌ قصوى كانت بالغة الضرورة لاسيما أن عالم التعليم، بمجمله، كان قد بدا شديد المعارضة للثورة البلشفية. فنقابة المدرسين كانت قد شاركت، منذ الأسابيع الاولى التي تلت ثورة أوكتوبر، في الاضراب التخريبي ضد النظام الجديد[١٩٤]. ومن البديهي أن العداء للنظام الجديد كان كذلك أكثر حدة في التعليم العالي. كانت تلك هي الحال، مثلاً،

(*) كلمة mandarins تعني الموظفين الكبار في الامبراطورية الصينية القديمة (المعرب).

في الجامعة الجديدة التي أنشئت في سمولنسك حيث كانت تسيطر «العناصر الرجعية[١٩٥]» لكن كذلك وبوجه خاص في موسكو. كان الجسم الأكاديمي يبدي فيها استعدادات معارضة بوضوح للماركسية، والمدرِّسون النادرون الذين كانوا يتبنونها كانوا يصطدمون بتدابير مضايقة من جانب زملائهم. إن هؤلاء كانوا، من جهة اخرى، يضاعفون المبادرات الاستفزازية، مُسَمِّين لكرسيٍّ للاقتصاد الدستوري ـ الديمقراطي ستروفه، الخصم القديم للينين. ومن جهة أخرى، بعد إلغاء مفوضية الشعب للتعليم العام كليات الحقوق التي تم استبدالها بكليات علوم اجتماعية، وحين قدم بوخارين، المنظِّر الماركسي بقدر ما هو قائد سياسي، ترشيحه لكرسيٍّ للاقتصاد، كتب رئيس جامعة موسكو في هامش رسالة ترشيحه الملحوظة التالية: «أنا لا أعرف هذا الاقتصادي؛ يُرجى ذكر لائحة المنشورات الاكاديمية[١٩٦]». وقد اضطرت السلطات السوفياتية، المواجَهةُ بعداءٍ منهجي إلى هذا الحد، والمصممة على عدم تحطيم هذه المقاومة بالعنف، لأن تساوم مع الجسم الاستاذي وتلطِّف من حماسها الاصلاحي.

يبقى مع ذلك أن العائق الرئيسي الذي صادفته في مشاريعها التربوية كان يتعلق بالوضع العام لبلدٍ كانت الحكومة تطلق فيه مجموعات من الكتب ذات الاسعار الزهيدة لأجل تعليم الجماهير في حين كانت عائلات مضطرة لحرق كتب لأجل التخلص من البرد[١٩٧]، وحيث كانت الحرب الأهلية أعدمت من نواحٍ كثيرة قواعد الثقافة والحضارة. ففي كانون الثاني ١٩٢٣، لاحظ لينين، المتحرر من الوهم، «اننا لا نزال على بعد بعيد عن التعليم الابتدائي المعمَّم وأنه حتى تقدُّمنا بالنسبة للفترة القيصرية.. بطيء جداً[١٩٨]». مع ذلك كان عدد المدارس الابتدائية ارتفع من ٣٨٣٨٧ في النصف الاول من عام ١٩١٧ إلى ٦٢٢٣٨ في السنة الدراسية ١٩١٨ـ ١٩١٩ وعدد المدارس الثانوية من ١٨٣٠ في العام الدراسي ١٩١٧ـ١٩١٨ إلى ٣٧٨٥ في العام اللاحق[١٩٩]. وأياً تكن هذه التطورات محدودةً، فلقد كانت تعبر عن جهد كبير لكن غير كاف، في مجتمع لم يكن يمكن التفكير بإدخال الاشتراكية إليه، طالما أن الغالبية العظمى من السكان كانت أمية حتى ذلك الحين.

المجتمع البروليتاري (ا) : الحرية بواسطة الرقابة العمالية :

مهما تكن تلك الاصلاحات مهمة، والتحولات المنجزة في قطاعات عديدة من الحياة العامة جريئة، إلا أن الامر كان يتعلق، إجمالاً، بتقدمٍ كانت الحركات الديمقراطية بالذات تحاول أن تنجزه. لم يكن لها الآثار التي يمكن توقعها من ثورة بروليتارية ومن وصول حزبٍ

يمثل الطبقة العاملة وينشدُ إلى الاشتراكية. لاشك أنه لم يكن وارداً بالنسبة للينين أن يطبق فوراً مبادىء التنظيم الاشتراكي في بلد كروسيا(*). لكن مرة اخرى، كان ثمة بالضرورة فرقٌ بين المشروع السياسي وتحقيقه، بين الحدود المتصوَّرة نظرياً ودينامية القوى الاجتماعية. إن انتفاضة أوكتوبر، وإرساء نظام دستوري قائم على السوفييتات وبالتالي على «الطبقات الكادحة»، كان ينبغي أن يعطيا البروليتاريا حتمًا مكانة جديدة تماماً في المجتمع الروسي.

لقد برهنت الاشهر الاولى للسلطة السوفياتية ـ أيضاً ودائمًا «شهر عسل الثورة» الذي يتحدث عنه ألفرد ميير ـ على أن تعقيد الظاهرة الثورية كان يضع في الواقع على جدول الأعمال مجموعة من المطالب والانجازات التي كان بعضها يتطابق مع برنامج الديمقراطية البورجوازية، في حين أن اخرى كانت تتخطى هذا الاطار بوضوح. كانت «الثورة الدائمة» بعيدة عن استنفاد آثارها وكان إرساء **الرقابة العمالية** يبين ذلك بصورة كافية.

كان إرساء هذه الرقابة قد وُضع في برنامج الحزب البلشفي قبل الاستيلاء على السلطة بوقت طويل وكانت له مكانة مهمة في دعاوته(**). ففي يوم الاستيلاء على السلطة بالذات، كان لينين قد أكد مرتين امام سوفييت بتروغراد وأمام مؤتمر السوفييتات لعموم روسيا، أن الحكومة البلشفية ستقيم «رقابة عمالية حقيقية على الانتاج»[20]. وبعد أيام، كتب مشروع مرسوم تم نشره في **البرافدا** في ٣ تشرين الثاني وجرى جعله رسمياً في ١٤ تشرين الثاني بعد تدخل اللجنة المركزية التنفيذية للسوفييتات وإدخال الرقابة العمالية في تشريع الدولة الجديدة. إن مشروع لينين ـ الذي استعاد مرسوم ١٤ تشرين الثاني خطوطه العريضة ـ كان يطرح ان «الرقابة العمالية على الانتاج، والحفظ، والبيع والشراء بصدد كل المنتجات وكل المواد الخام» قد أرسيت في «المنشآت التجارية، والمصرفية والزراعية وغيرها» التي تشغِّل على الأقل خمسة عمال والتي يتخطى رقم اعمالها ١٠ آلاف روبل سنوياً(***). وكان ينص أيضاً على أن الرقابة سيمارسها إما العمال والمستخدمون بالذات أو ممثلوهم المنتخبون في المنشآت التي كان اتساعها يتطلب اللجوء إلى نظام الانتداب. كانت موافقة العمال ضرورية للسماح للمالكين بوقف نشاط المنشأة أو «لأي تعديل مهم لمسارها». من جهة أخرى، كانت الرقابة تتناول «كل السجلات والوثائق» الخاصة بالمنشأة، وكذلك «كل المستودعات» إلا أن نص لينين لم يكن يكتفي بتحديد حقوق لجان المصنع والورشة المكلفة بممارسة الرقابة وصلاحيات

(*) انظر ادناه، ص ٢٠٧.

(**) انظر أعلاه، ج ١، ص ٢٤٤ وما بعدها.

(***) اختفى هذا التقييد في النص النهائي للمرسوم. ويوجد مشروع لينين في ج ٢٦، ص ٢٨٤ـ ٢٨٥.

تلك اللجان؛ كان يحدد بشكل أولي أيضاً كيفيات دمجها في مجمل مؤسسات الدولة، قاضياً بعدم إمكانية إبطال قراراتها إلا عن طريق النقابات ومؤتمرات لجان المصنع والورشة، وأن المالكين وممثلي العمال سيكونون «مسؤولين امام الدولة عن النظام الاكثر دقة وعن الانضباط وصيانة الأملاك»؛ وكان منصوصاً على عقوبات بحق «الذين يرتكبون الاهمال، او إخفاء مدَّخرات، أو حسابات، الخ».

لم يعد النص النهائي للمرسوم يحيل إلى الممارسة المباشرة للرقابة بواسطة العمال بالذات في المشروعات الصغيرة، بل فقط بواسطة «منظمات منتخبة، كلجان المصنع والورشة، ومجالس القدامى[*]». كان يقيم فضلاً عن ذلك هرماً من اللجان، انطلاقاً من القاعدة، الموجودة في المنشآت بالذات، وصولاً إلى المؤتمر الروسي الكبير للجان المصنع والورشة، مروراً بالمستوى البلدي، في المدن الكبرى، وبمستوى المقاطعات والمناطق الصناعية. والحال أن اللجان المكلفة بممارسة الرقابة العمالية، في هذه المستويات المختلفة، كانت تُعتبر «أجهزةً للسوفييتات» (المحلية، أو المقاطعية أو المناطقية) وكانت تجلس إلى جانب الممثلين النقابيين ومندوبي التعاونيات العمالية. وعلى المستوى القومي أخيراً، كان أعضاء من الهيئات السوفياتية المركزية يُشْرَكُون في أعمال مندوبي لجان الرقابة، الامر الذي كان يساهم في دمج هذه اللجان أكثر أيضاً في مجمل بنية الدولة. وكان هكذا دمج يلبي الاهتمامات الحكومية التي كانت تقلقها الاتجاهات الفوضوية التي كانت تسيطر اكثر فاكثر على اقتصاد البلد وحياة المنشآت. وكان المرسوم يعلن من جهة اخرى انه تم وضعه «لمصلحة تنسيق منهجي للاقتصاد القومي[٢٠١]». وبالنسبة لما تبقى، كانت الرقابة العمالية معدة لجعل الشغيلة يتآلفون مع سير المصانع: سيفيدهم أرباب العمل والتقنيون الذين كانوا سيراقبونهم كمدربين، شاؤوا أو أبوا[٢٠٢].

إذا لم يكن في وسع ردود فعل ارباب العمل إلا أن تكون سلبية، وقد كانت سلبية في الواقع[**]، فإن موقف العالم العمالي حيال تشريع الرقابة العمالية لم يكن متساوياً أبداً. فبوجه خاص، أدى توتر شديد جداً إلى وضع الاوساط النقابية المعادية عادة للجان المصنع والورشة بمواجهة هذه المنظمات الاخيرة التي كانت ترتكز عليها في القاعدة وظيفة الرقابة والتي كانت *تستفيد من الدعم الحماسي للحركات الفوضوية. وبالنسبة للفوضويين، في الواقع، كانت*

(*) النص الكامل لهذا المرسوم موجود في ج. بونيان وهـ. فيشر، مرجع مذكور، ص ٣٠٨ ـ ٣١٠.

(**) هكذا فإن جمعية صناعيي بتروغراد قررت إغلاق كل المنشآت التي يحاول الشغيلة فيها أن يقيموا الرقابة العمالية. واتخذ زملاؤهم في موسكو القرار ذاته (م. ديوار، مرجع مذكور، ص ٢٣).

اللجان العمالية داخل المنشأة قد وُلدت من الثورة بالذات وكانت بالتالي أقرب إلى الجماهير من كل مؤسسة اخرى. اكثر من ذلك، كانت تشكل في نظرهم «خلايا المجتمع القادم»، وهي بالذات «وليس الدولة يجب أن تمسك بالادارة»[٢٠٣]. لقد كان رد فعل الفوضويين إزاء المرسوم مؤيداً بالأحرى: لقد أثلج صدرهم أن يكتشفوا في نص تشريعي، وإذاً مشبوه، رائحة «فوضوية ـ نقابية» تتجاوب مع ميولهم[٢٠٤]. أما موقف القادة النقابيين، أكانوا بلاشفة أو لم يكونوا، فكان على العكس معارضاً تماماً وامتنع الناطق الرسمي بلسانهم في اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات، لوزوفسكي، أثناء التصويت على تبني (النص المشار إليه). «لا يمكن أن يتولد لدى العمال الانطباع ـ حسبما قال ـ بأن منشآتهم الخاصة بهم، تلك التي يشتغلون فيها، هي ملك لهم[٢٠٥]». واستفاض أيضاً اوزينسكي، رئيس المجلس الأعلى للاقتصاد القومي وأحد قياديي الشيوعيين اليساريين، في هذا المعنى[٢٠٦]؛ وفضح بوخارين، الناطق الرئيسي بلسان هذا الاتجاه، في بعض مظاهر الرقابة العمالية خطراً فوضوياً[٢٠٧]. وهذا يعني أن التحفظات التي كانت تثيرها الرقابة العمالية لم تكن تعكس بالضرورة اتجاهات سلطوية ولا ديمقراطية. فلقد كان لوزوفسكي واحداً من النقابيين ـ وكان قريباً إلى مارتوف ـ الذين عارضوا بأقصى قوتهم تركيز السلطة السياسية بين يدي البلاشفة حصراً؛ وسوف يدفع من جهة اخرى، في كانون الثاني ١٩١٨، ثمن انعدام انضباطه المستمر، بفصله من الحزب. وكان أوزينسكي يمثل داخل الحزب تياراً أقصوياً متعلقاً بالديمقراطية الداخلية وسوف يقود (فيما بعد) المجموعة المسماة مجموعة «المركزية الديمقراطية(*)». ولم يكن لارين، احد الاقتصاديين البلاشفة الرئيسيين أقل نقداً للرقابة العمالية؛ ومع ذلك فالشخص ذاته هو الذي كان يصر على ضرورة احترام حرية الصحافة؛ وأخيراً، فإن ريازانوف، الرجل الذي سيعبر على امتداد تلك السنوات، بأشد قدر من القريحة والعناد، عن روح التمرد وإرادة الديمقراطية بين الشيوعيين، اعتبر من جانبه ان لجان المصنع تمثل «المعارضة الانفصالية للتنظيم الاشتراكي للاقتصاد[٢٠٨]». وكان سبب هذا العداء يعود في الواقع الى القناعة بأن الطابع الاستقلالي والنشاط الفوضوي للجان المكلفة بتطبيق الرقابة العمالية قد يعيقان إرساء اقتصاد مخطط وإذاً إرساء الاشتراكية.

هذا في كل حال ما أشارت إليه بإلحاح الأوساط النقابية التي حاولت الحد من سلطات لجان المصنع والورشة. أما انصار هذه اللجان، اكانوا فوضويين او لم يكونوا، فهاجموا من جهتهم التنظيم النقابي وبلغ بهم الامر حد المطالبة بإلغائه ووصفوه بـ «الجثة الحية»(**). وقد

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ١١١ - ١١٢.

(**) حول التنافس بين النقابويين وأنصار لجان المصنع، انظر ب. أفريش، The Russian Anarc- ◆

تجابه المدافعون عن الرقابة العمالية وخصومها في المؤتمر الاول الروسي الكبير للنقابات السوفياتية، في كانون الثاني ١٩١٨. وقد حقق فيه الانصار النقابويون للمركزة الاقتصادية نجاحاً يدين بالكثير لدعم البلاشفة. طلبت القرارات المصوّت عليها اختزال لجان المصنع والورشة إلى مجرد فروع نقابية في المنشأة وتقييد نشاطها ليقتصر على ميدان الرقابة، باستثناء وظائف التسيير بحصر المعنى[٢٠٩]. إلا أن الحكومة ابدت القليل من الحماس لمركزة عمل اللجان العمالية. وبما أن استخدام القوة كان مستبعداً، حاولت فقط أن تؤثر بواسطة النقابات واستخدمت الإقناع للحد من اتساع الفوضى الاقتصادية[٢١٠].

كان كشف الحساب الملموس للجان المصنع والورشة سلبياً في الواقع. وكيف كان بالامكان حصول شيء آخر في الظروف التي كانت سائدة في روسيا: «العمال القادرون والمتعلمون هم جميعاً تقريباً في خدمة الحزب. إن لجان المصنع، العاجزة، والمحرومة من نصائح تقنية، تتوصل في أبعد حد.. إلى استخدام المخزونات الموجودة. وحتى ربيع ١٩١٨، كان العمل مؤمَّناً كيفما اتفق. ثم بدأت المصانع تقفل الواحد بعد الآخر[٢١١]». حصلت بلا شك بعض الأمثلة على النجاح، لاسيما في موسكو حيث نجح عمال النسيج المتروكون على سجيتهم في مواصلة نشاطات منشآتهم وحتى في تحقيق ارباح[٢١٢]. لكن كان ذلك هو الاستثناء. عموماً، رفضت لجان المصنع الانصياع للتعليمات التي كانت تتلقاها، وإذ كانت تبرهن غالباً عن روح حرفوية corporatiste، سعت للتفاهم مع ارباب عمل المنشأة[٢١٣]. وكانت تلاحظ احياناً تجاوزات اكثر صراحة: كان يحصل أن يبيع مِلاك(*) بعض المصانع الآلات او القطع أو المخزون الموجود ويوزعون حصيلة البيع على العمال[٢١٤]. وكان متواتراً ان يمنح الشغيلة أنفسهم زيادات أجور متتالية وكبيرة[٢١٥].

وثمة سبب أعم للركود كان يكمن مع ذلك في صعوبة إقامة دارات circuits منتظمة للتوزيع والتبادل، الامر الذي تسبَّب بعزلة العديد من المصانع ومراكز الانتاج[٢١٦]. هكذا ظهرت مصانع مشابهة جداً لـ «كومونات فوضوية» تعيش منطوية على ذاتها[٢١٧]، في حين أن كل محطة في سكك الحديد كانت تشبه «نوعاً من الجمهورية وكل رئيس محطة رئيس سوفييت انتخبه مستخدموه[٢١٨]». ومن الواضح ان هذه الشروط لم تكن معدة لرفع مستوى الانتاج. تروي كروبسكايا في مذكراتها، انها تلقت يوماً زيارة عاملة تطلب شهادة من مفوضية الشعب

= **hists**، ص ١٦٨؛ إ. دويتشر، **Soviet Trade - Unions**، ص ١٧-١٨. إ. هـ. كار، مرجع مذكور، ج ٢، ص ٦٧ - ٦٨؛ بونيان وهـ. فيشر، مرجع مذكور، ص ٣٠٤.

(*) ملاك: مجموعة الموظفين او المستخدمين في مؤسسة أو مصنع (المعرب).

للتعليم العـام: «خلال محادثتنا، سألتها إلى أي وقفة pause تنتسب في مصنعها. وكنت أعتقد أنها جزء من فريق يعمل ليلاً كي تستطيع هكذا المضيّ إلى المفوضية خلال النهار. لكني كنت على خطأ. فلقد قالت لي: «كل العاملات لا يشتغلن اليوم» «لقد كان لدينا اجتماع البـارحة مساء، وتأخرت كلٌ منا عن عملها المنزلي. لذا قررنا إغلاق المصنع واخذ عطلة اليوم. فأنتِ تعرفـين، نحن أرباب العمل الآن». وأبدت امرأة لينين الملاحظة التالية: «كانت الحالات المماثلة كثيرة في بداية عام ١٩١٨[٢١٩]».

هكذا وقائع تبرر الجهود التي بذلتها الحكومة والنقابات لإصلاح التجاوزات الفاضحة جداً والافراط في استقلال العديد من لجان المصنع والورشة. وهذه الجهود بدت لزمن طويل غير فعالة ولم تمنع، في كل حال، ظاهرة الرقابة العمالية من أن تتخذ في الاشهر الاولى من عام ١٩١٨ اتساعاً كبيراً. لاشك أن العمال لم يكونوا يتحركون بفعل اهتمامات سياسية أو مذهبية، مع أن بعض التطلعات «الفوضوية» كان بالامكان ملاحظتها أيضاً. هكذا كان منـاضلون يغتـاظون من الانتقادات الموجهة إلى الرقابة العمالية ويدافعون عن هذه باسم «إبداعية الجماهير»[٢٢٠]

أخـيراً ليس على مستـوى الفعالية، ولا على مستوى المردود ينبغي الحكم على هذه الـظاهـرة العفوية إلى حد بعيد المتمثلة باضطلاع العمال بالذات بالمسؤولية عن المصانع. فهكذا اهتمامات كانت غريبة عموماً عن الذهنية العمالية لعامي ١٩١٧ و١٩١٨. وإذ فتح الشغيلة الروس السجلات الحسابية لمنشآتهم، وأخضعوا أرباب العمل لرقابة مالية وتجارية، وانتزعوا بذاتهم تسيير المصانع ووضعوا ايديهم على ورشهم، كانوا ينوون ان يبرهنوا في حياتهم اليومية، وفي امكنة الانتاج والاستثمار الخاصة بهم، على ان مصيرهم قد تبدل وانهم اصبحوا هم السادة. وكان يمكن أن تعاني الانتاجية من ذلك، وأن يتعرض الاقتصاد العام لتراجعات جديدة، ويعبر الحكام الجدد عن قلقهم وتحاول النقابات ان تعيد النظام إلى وضع الفوضى هذا، إلا أن جمهور العمال الروس كانوا يتشبثون بهذه الرقابة وهذا الاستقلال اللذين كانوا يماثلونهما بـ «مكاسب اوكتوبر» وبالحقيقة العميقة والمعاشة للثورة. تشبثوا بهما إذاً، واحتفظوا بهما حيِّنْ لوقت طويل، مستفيدين لأجـل ذلك من ضعف السلطة المركزية. وحتى عام ١٩٢٠، كان بعض المسؤولين النقابيين، إذ يلمّحون إلى لجان المصنع والورشة التي كان من المفـترض ان تكون بقيادتهم، يتذمرون من «ازدواجية السلطات» التي كانت تُضعف المجهود الاقتصادي[٢٢١].

إلا أن الـرقـابـة العمالية، غير الفعالة تقنياً، على الأقل في ظروف تلك المرحلة، والكارثية أحياناً بنتائجها، كانت لها جذور عميقة جداً في الوعي البروليتاري بحيث بقيت لوقت طويل خارج متناول تعديات السلطات السياسية والادارية. كانت قد عبرت بالنسبة

للطبقة العاملة الروسية، في الفترة الاولى من حياة النظام السوفياتي، كما يقول بول افريش، عن «درجة من الحرية وشعور بالقوة كانا فريدين في كل تاريخها[٢٢٢]».

المجتمع البروليتاري (II) : من الحرية إلى الإكراه :

هذا الانفجار الفوضوي وذلك الشعور بالقوة وذيّاك الرفض لكل إكراه، إذا كانت تبين حقيقة انتصارات البارحة، لم تكن معدة لتعزيزها. والحال أن تلك كانت مهمة المرحلة، وبانتظار النجدة التي ستقدمها البروليتاريا العالمية(*) للبروليتاريا الروسية، كان ينبغي تجاوز الازمة الاقتصادية، وتأمين تموين البلد، ولأجل ذلك إعادة المبادلات بين الريف والمدينة عن طريق إنهاض الانتـاج الصناعي. ما أن مرت لحظات النشوة ـ «es schwindelt» «رأسي يدور»، كان قد قال لينين لتروتسكي يوم الاستيلاء على السلطة[٢٢٣] ـ ومن يدري، مفاجأة الانتصـار، باتت الأولوية للمهام العملية. لما كانت الاشتراكية غير قابلة التطبيق فوراً في روسيا، كشفت تصـورات لينـين في مجال تنـظيم العمل صرامة كانت اورثوذكسية مدراء الاعـمال managers تجد فيهـا نفعاً لها اكثر مما حماسة الثوريين. كان يُحْسُنُ في كل حال «مكـافحـة الخـواء دون هوادة[٢٢٤]». وأكثـر أيضـاً: «في كل ثورة اشـتراكية، حين تكون البروليتاريا سوَّت مشكلة الاستيلاء على السلطة. . ، تنتقل مهمة اساسية حتمًا إلى الواجهة: إنها بناء بنية اجتماعية متفوقة على البنية الرأسمالية، أي زيادة إنتاجية العمل، وفي علاقةٍ مع ذلك (ولأجل ذلك) تنظيم العمل وفقاً لنمط أعلى». وذلك مشروع عملاق وشبه شاذ في مجتمع حيث تكاد تكون الرأسمالية الصناعية أعلنت عن ظهورها وحيث الكثير من قطاعات الحياة العامة كانت لا تزال تكشف مخلفات القرون الوسطى.

والحـال انـه لزيادة الانتـاجية والانتقـال الى نمطٍ أعلى لتنظيم العمل، نادى لينين بالوسائل التي كانت وسائل الرأسمالية بالذات. «تعلُّم العمل، هاكم المهمة التي على سلطة السـوفييتـات أن تطرحهـا على الشعب بكل مداها[٢٢٥]». وكان على البروليتاريا أن تتلقى دروسها في «مدرسة الرأسمالية[٢٢٦]». وهو وضع أقل غرابة مما كان يبدو: ألم تعلِّم الماركسية أن الاشتراكية تُبنى على قاعدة الصناعة الكبرى التي خلقتها الرأسمالية؟ لقد قاد منطقٌ عنيدٌ لينين إذاً إلى الدعوة للجوء إلى طرائق كانت الصناعة الكبرى الرأسمالية قد أدخلتها، وكانت تلك الطرائق قد هيجت استياء العمال وتمردهم لأنها زادت من حدة استغلالهم. وفي **المهام المباشرة**

(*) انظر ادناه، ص ٢١٠.

لسلطة السوفييتات، المكتوب في بداية ربيع ١٩١٨، أوصى لينين بأن يجري «عمليا إدخال الأجر على اساس القطعة وامتحانه». وذهب أبعد أيضاً مطالباً بتطبيق التايلورية، وهو ما أثار غضب الشيوعيين اليساريين ومعارضة العديد من القادة النقابيين[٢٢٧]. وفي الواقع، منعت مقاومتهم في تلك الفترة، على الاقل[٢٢٨]، إدخال نظام كان لينين بالذات قال عنه عام ١٩١٤ إنه «استعباد الانسان بواسطة الآلة[٢٢٩]».

بمواجهة الأوساط ذاتها، اراد لينين فرض التسليم بمطلب ليس أقل صدماً للوعي الاشتراكي والثوري: ذلك المطلب الذي كان يعتقده بالغ الضرورة، والمتمثل بـ «السلطة الادارية الشخصية» في تسيير المنشآت والادارة. كان يبدو أنه ينتهك هو أيضاً مبدأ كانت ديمقراطوية النظام السوفياتي افسحت له مجالاً واسعاً، هو مبدأ الادارة الجماعية collégialité. هذا المبدأ، الذي كان يختلط غالباً جداً بحقد الاوتوقراطية، كان قد عبر عن نفسه منذ الايام الاولى للسلطة السوفياتية، بإرساء «هيئة جماعية» تحيط بكل مفوض للشعب وتكون مزودة بصلاحيات مهمة؛ كان بإمكانها بوجه خاص أن تمارس حق النقض على قرارات رؤساء الاقسام «الوزارية»[٢٣٠]. وقد هاجمت صحيفة «الشيوعيين اليساريين» بعنف الطابع «الاوتوقراطي» لأفكار لينين[٢٣١]. ولكي يبرر هذا الاخير نفسه شرح أن المبدأ لم يكن ممكن التطبيق الا على صعيد المهام التنفيذية[٢٣٢]، لكنه أصر على الاستمرار في الدفاع عن «السلطة الادارية الشخصية». وقد فعل ذلك دون مراعاة اسلوبية، متكلمًا بالتناوب على «التنفيذ من دون تحفظ لكل تعليمات القيادي[٢٣٣] وعلى «الخضوع دون تحفظ لارادة واحدة»[٢٣٤]. وقد مضت عدة سنوات قبل أن تسلِّم المنظمات السوفياتية بهذه القاعدة، وحين تبناها مؤتمر الحزب الشيوعي، عام ١٩٢٠، نجحت النقابات في تعديل صياغتها بحيث تجري صيانة حقوق العمال في وجه حقوق الاختصاصيين[٢٣٥].

فيما بعد، مع إدخال النيب، اصر لينين على ضرورات اخرى للنشاط الاقتصادي، واشار الى ضرورة تحويل المناضلين الشيوعيين الى تجار، وهو طموح يصدم (الفكر) لو كان يوجد (هكذا طموح): كان يمكن أتباع الماركسية في الحالة القصوى ان يسلموا بمتطلبات الانتاج الصناعي، المعتبر في الوقت ذاته كقاعدة النمو الاقتصادي وكالتجلي الرئيسي لعبقرية الانسان الخلاقة والمحرِّرة. لكن ان يتم اقتراح نموذج التاجر على حماسهم، ودعوتهم إلى «أخذ دروس لدى الموظف التجاري المبتذل الذي كدَّ عشر سنوات في مخزن بقالة»[٢٣٦] لأن «التجارة هي الآن حجر الزاوية في حياتنا الاقتصادية[٢٣٧]»! هاكم إلى أي شيء وصل تصور «تقني» من بعض النواحي للثورة الاجتماعية ـ «الشيوعية هي سلطة السوفييتات زائد كهربة كل البلد[٢٣٨]» ـ يواجهه مشهد مجتمع عاجز عن حل المشكلات المطروحة عليه.

ألم تكن الشيوعية السوفياتية في مأزق؟ لم تكن مرت أشهر على اضطلاع اللينينية

بالحركة الثورية للجماهير وإطاحتها سلطة البورجوازية، حتى كانت تدعو انصارها للبحث عن أمثلتهم الاقتصادية والاجتماعية في المانيا الرأسمالية: «نعم، ضع نفسك في مدرسة الالماني! فالتاريخ يقوم بلفّات وتعرجات. لقد صدف أن المانيا هي التي تجسد اليوم امبريالية شرسة وفي الوقت ذاته مبادىء الانضباط، والتنظيم والتعاون المنسجم على قاعدة الصناعة الحديثة المؤلّلة، والاحصاء والرقابة الاكثر صرامة[٢٣٩]» كان اقتصاد الحرب في المانيا يقدم في الواقع مثالاً للفعالية كان يترك تأثيره في لينين وقد دفعه إلى امتداح «رأسمالية الدولة» كنظام انتقالي نحو الاشتراكية. في الفترة ذاتها التي كانت روسيا قد انجزت للتوّ قطيعة مزدوجة مع النظام البورجوازي ـ الاستيلاء على السلطة في اوكتوبر ١٩١٧ وحل الجمعية التأسيسية في كانون الثاني ١٩١٨ ـ وفي حين كانت آلية «الثورة الدائمة» تتلقى هكذا تحفيزات جديدة، كان لينين يؤكد أن «رأسمالية الدولة ستكون بالنسبة الينا خطوة إلى الأمام»[٢٤٠] وحتى انها «قد تكون بالنسبة الينا الخلاص لأن رأسمالية الدولة شيء ممركَز ومحسوب ومراقب ومشرك[٢٤١]». وقد أعلن، مثيراً استهجان الشيوعيين اليساريين وذهول عدد كبير من أنصاره (وهو أمر لا يجب الشك فيه)، أن رأسمالية الدولة «قد تشكل في ظل سلطة السوفييتات ثلاثة ارباع الاشتراكية»[٢٤٢]. لقد دمّرت الحرب الاهلية وإدخال شيوعية الحرب كل فرص ذلك النظام. لكن مع إدخال النيب، عاد لينين للحديث عن ضرورته وسعى آنذاك لطمأنة اولئك الذين كان يقلقهم أو يثير انزعاجهم، شارحاً ان مخاطره، وإن كانت حقيقية، يمكن تحاشيها إذا سمحت الرقابة، التي تمارسها الدولة على الرأسماليين الجدد، للطبقة العاملة بإفشال البورجوازية المنبعثة[٢٤٣].

كان المثال الالماني يستتبع في كل حال الالحاح على فضائل الانضباط الاساسية. فمنذ كانون الاول ١٩١٧، وفي مشروع مرسوم حول تأميم المصارف، كان لينين قد اعلن: «ان لعمال والمستخدمين في المنشآت المؤممة مطالبون بتركيز كل قواهم واتخاذ تدابير استثنائية 'تحسين تنظيم العمل وتعزيز الانضباط ورفع مستوى المردود». وزاد لينين موضحاً: سيكون مقترفو التقصير والاهمال مسؤولين امام المحكمة الثورية[٢٤٤]». وفي شباط ١٩١٨، ي حين كان تطبيق الرقابة العمالية لا يزال يزيد من فوضى الانتاج، اشترط لينين «تعزيز لانضباط في كل مجالات الحياة بهدف تأمين الانطلاق الاقتصادي للبلد[٢٤٥]»، وفي مشروع رار قدمه بعد شهر إلى المؤتمر الرابع للسوفييتات لعموم روسيا شدد على أن «المهمة الاساسية كمن في اتخاذ التدابير الاكثر حزماً وانعدام رحمة وتعسفاً لتعزيز روح الانضباط[٢٤٦]».

انضباط، إنتاجية باللجوء إلى الطرائق التي ادخلتها الرأسمالية، إرساء «رأسمالية لة»، سلطة شخصية وشبه ديكتاتورية تم منحها للمسؤولين عن الوظائف التنفيذية ـ .راء الأعمال ـ، هاكم ماكان يندرج في الكتاب الملازم vade-mecum للمناضلين ـ

المدراء. لاشك أن لينين دعا غالباً لانضباط طوعي، «انضباط اخوي لا يكون ذلك الخاص بالثكنات[٢٤٧]». وقد دعا، لاسيما عن طريق امتداح «السبوت الشيوعية(*)»، إلى توجيه النداء إلى أسمى عواطف العمال، والى وعيهم السياسي والى العظمة الاخلاقية التي لا تنفصل عن بناء الاشتراكية[٢٤٨]. لكن إلى جانب هذه الموضوعات التي لم يجر التخلي عنها أبداً، ظهرت موضوعات اخرى وسيطرت، مستلهمةً الحقائق القائمة للوضع الروسي. وفي إحدى كتابات لينين الاخيرة، سيتكلم على «ثورة ثقافية»، لكنه لم يكن يعتمد عموماً على الثورة في العادات لحل المشكلات الحيوية للتنظيم الاجتماعي: تموين السكان الرازحين تحت وطأة المجاعة وإعادة إطلاق الصناعة المهددة بشلل كامل. حين كان يتكلم على «ثورة ثقافية»، كان يفكر بشكل رئيسي باكتساب التقنيات والمعارف الموروثة من الماضي من جانب الطبقات التي كانت قد حُرمت منها؛ كان يفكر في منشأة مصنوعة من «مهام اقتصادية صغيرة»[٢٤٩] حيث «لن يكون النصر ثمرة الحماس والاندفاع وروح التضحية، بل ثمرة عمل يومي رتيب، ودقيق ومبتذل[٢٥٠]». كان في ذلك في التحليل الاخير، الى جانب جواب خاص عن متطلبات وظيفية نوعاً ما، التعبير عن فلسفة تمد جذورها في رؤيةٍ مادية موروثة من نوع من الماركسية ذي مظهر وضعي positiviste، وذلك دون استبعاد استنفار الحوافز المثالية للشخصية الانسانية.

كان ثمة وضعية positivisme، في الواقع، في تصور للتقدم الاقتصادي ولعلاقات العمل يتوقف بدقة على اعتبارات تتعلق بالمردود والنظام والفعالية. إن اللجوء الى «انضباط علمي» كانت التايلورية تدعي ادخاله الى المصنع كان يعبر، بوجه خاص، عن رؤية صناعوية إلى حد بعيد. لاشك ان إلحاح المشاكل المتوجب حلها وحدّة الازمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تضرب روسيا لم يكونا يدفعان الى اختبار طرق مختلفة كلياً عن تلك التي فرضتها الرأسمالية الصناعية، و«السبوتُ الشيوعية» تشكل هنا الاستثناء. لكن تصورات لينين كانت تكشف مع ذلك نوعاً من قصر النظر العقلانوي، وفي كل حال نقصاً في الخيال والجرأة ادى الى اعادة الاعتبار المقصودة لبعض اشكال الثقافة التي ولدتها الرأسمالية. إن انصار الثورة الثقافية، حتى ولو كانوا ماركسيين ـ لينينيين، لن يجدوا لدى لينين حلاً للمشاكل التي يواجهونها ولا حتى صدى حقيقياً للاهتمامات التي تحركهم.

(*) كانت «السبوت الشيوعية» تجمع عمالاً يقبلون التضحية بيوم راحتهم وتكريسه لعمل مقدم مجاناً. والتجربة لم تحتفظ دائماً بالطابع الطوعي الذي كانت تتميز به في بداياتها. (انظر لينين، **المؤلفات**، ج ٢٩، ص ٤١٥ وما بعدها، ج ٣٠، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

إن ارادة وضع حد للفوضى وإعادة اطلاق الانتاج مهما كلف ذلك، والالحاح على ضرورة إرساء الانضباط في العمل سرعان ما ادت الى تدابير إكراه اشد فأشد صرامة. لأنه اذا كان لينين يميل الى الاعتقاد بأن «الانضباط الحديدي البروليتاري(٢٥١)» أمر شبه طبيعي وان «العنصر البروليتاري يبحث عن الانضباط وينتظر الامر(٢٥٢)»، فان احباط الطبقة العاملة(*) وانحطاطها الطبقي سوف يدفعانه الى التقليل تدريجياً من الاعتماد على هكذا استعدادات. فمنذ شهر ايار ١٩١٨، في مؤتمر المجلس الاعلى للاقتصاد القومي، كان خطباء المقاطعات قد تعاقبوا على المنبر ليفضحوا الضغط الذي كان يمارَس على الشغيلة، لاسيما عمال سكك الحديد. أكد احدهم ما يلي: «قبل كيرنسكي، كان يلزمنا تسعة اشهر لإصلاح مِرجل؛ والآن نتعرض لإزعاجات إذا تطلب ذلك منا اكثر من مئة يوم». بالمقابل، كان ممثلون للحكومة يتذمرون من الاتجاهات الفوضوية المصادفة دائماً بين عمال سكك الحديد ويتحدثون عن ضرورة «امركة» العمل في صفوفهم(٢٥٣)!

لم تكن «أمركة» العمل هي ما حصل، بل بالأحرى **عسكرته**، وكانت هذه الظاهرة إحدى اكثر الظاهرات تمييزاً لفترة شيوعية الحرب. لقد فرضتها الظروف إلى أبعد الحدود، وكانت مستقلة عن إرادة القادة البلاشفة واصطدمت حتى بتحفظات العديد منهم وبمقاومتهم(٢٥٤). لكن كيف الافلات من ذلك، طالما أن تنظيم الاقتصاد و، بوجه خاص، سوق العمل، لم يعد يتم تبعاً لقوانين السوق بل تبعاً لتخطيط عقلاني، مبلور علمياً، لكن على قاعدة قرارات ادارية متخذة على عجلة، تحت الاكراه المباشر للاحداث وبواسطة مِلاك كانت كفاءته هزيلة؟ وسط البؤس العام والمجاعة التي كانت الحكومة تنجح فقط في تخفيفها بالنسبة لبعض فئات العمال، وفي مناخ اجتماعي كانت المساواتية لا تزال جائزة فيه(**)، لم يكن في وسع تنفيع المنتجين أن يعطي إلا القليل من النتائج، وكان استنفار الارادة الحسنة يصطدم بالاحباط والانهاك الجسدي. وضمن هذه الشروط، بدا اللجوء الى العنف حتمياً.

تم إعلان العمل الالزامي في كانون الاول ١٩١٨ بالنسبة للمواطنين الذي يعيشون من مداخيل غير تلك الناتجة من العمل. وفي كانون الثاني ١٩٢٠، جرى توسيعه ليشمل كل السكان(٢٥٥). وقد جعل تروتسكي نفسه بطله الرئيسي في كانون الاول ١٩١٩، فقد اقترح تعبئة الطبقة العاملة وعسكرتها. وكان ذلك يعني وفقاً لعبارات مقال نشره تروتسكي في **البرافدا** في كانون الاول ١٩١٩، انه ضمن الشروط القائمة «لا يمكن الانتقال الى نظام

(*) انظر أدناه، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(**) انظر ادناه، ص ١٩٤.

عمل شامل ان يتم إلا بواسطة القسر، اي في نهاية المطاف بواسطة القوة المسلحة للدولة[٢٥٦]. وفي اجتماع مهم لنقابيين، أكد ان «الوضع الاقتصادي اخطر مئة مرة من الوضع العسكري» واقترح جملة من التدابير الجائرة التي (يُفترض ان) تُفرض على الطبقة العاملة للنضال ضد الخواء. ولم يدعمه غير لينين، فقد جرى رفض اقتراحات تروتسكي بستين صوتاً ضد اثنين[٢٥٧]. وإذ عجز قائد الجيش الاحمر عن تحويل العمال الى جنود قرر عندئذ أن يحول العسكريين الى شغيلة. هكذا خُلقت جيوش عمل مكلفة بإطلاق الانتاج من جديد، لكن النتائج لم تتوافق مع الآمال. فجرى التوجه nolens volens نحو عسكرة الطبقة العاملة. وعاد سجل العمل، الذي كان يكرهه جداً بروليتاريو الغرب في الفترة التي كان يُخضعهم فيها لتعسف ارباب العمال، فظهر من جديد في روسيا. جرى تكليف محاكم بإنزال العقاب بسبب التقصيرات في انضباط العمل، والعمال الذين كانوا يغادرون مصنعهم، المعاملون كفارين، كان يمكن أن تطولهم عقوبات تصل الى حد الاحتجاز في معسكرات عمل او اعتقال. وخلال النصف الاول من عام ١٩٢٠، جرت هكذا تعبئة ستة ملايين شغيل وكُلفوا بقطع الخشب الذي اصبح، بالضرورة، الوقود الاكثر استخداماً في روسيا[٢٥٨].

بديهي أن اللجوء إلى طرق إكراه كان الاكثر تواتراً في حالات الالحاح والضيق الشديد. تلك كانت هي الحال في ميدان النقليات التي كانت في تلك الفترة بالذات في وضع كارثي. كان المهندسون يتوقعون انه اذا لم يحصل تبدل مذهل، سوف تنقطع النقليات النهرية بالكامل في مستقبل وشيك. وكما كان يحصل غالباً في هكذا ظروف جرى إيلاء مهمة الانهاض الى موهبة تروتسكي التنظيمية. وهو لم يجد وسيلة غير ان يعزز اكثر الانضباط والاكراه وبالتالي عسكرة الطبقة العاملة. لكن تروتسكي لم يكتف بأن يطبق على الشغيلة تدابير قاسية؛ بل تصدى أيضاً للمنظمات النقابية التي حلها واستبدلها بأخرى جديدة، أقل جموحاً إذا لم تكن أكثر تمثيلاً[٢٥٩]. ولقد نجّى النقل في الاتحاد السوفياتي من الكارثة والشلل، لكنه دفع بمنطق العسكرة إلى أقصى حدوده. هكذا ظهرت «فلسفة عمل قسري» ليست اقل من شاذة في نظام ذي دعوة اشتراكية. لقد اكد تروتسكي ان «الالزام، وبالتالي القمع، هو الشرط الذي لا غنى عنه لكبح الفوضى البورجوازية من جديد وتشريك وسائل الانتاج والعمل، وإعادة بناء النظام الاقتصادي، وفقاً لخطة واحدة[٢٦٠]». كان يعتبر انه «لا يمكن ان تكون لدينا وسيلة للمضي الى الاشتراكية غير قيادة مستبدة للقوى والموارد الاقتصادية الخاصة بالبلد». وبفظاظة اشد أيضاً: «تعتبر الدولة العمالية ان من حقها ان ترسل كل شغيل الى حيث يكون شغله ضرورياً. وما من اشتراكي جدي سيأتي وينكر على الحكومة العمالية حق وضع اليد على الشغيل الذي سيرفض تنفيذ المهمة التي اختير لها[٢٦١]». وكان في ذلك

اكثر من تبرير لتدابير تم اتخاذها تحت ضغط الاكراه، بل ما يشبه مَثْلَنَتها وتمجيدها، تحويل الضرورة الى فضيلة، هذا الامر الذي سيتميز فيه ستالين فيما بعد.

تعرضت سياسة تروتسكي المتطرفة للنقد الشديد من جانب لجنة الحزب المركزية حيث استنكرت اغلبية ثمانية اصوات ـ من بينها صوت لينين ـ ضد ستة، الطرائق الاستعجالية التي كانت المنظمات النقابية ضحايا لها[٢٦٢]. هكذا جرى إدخال المناقشة حول النقابات التي ستهز الحزب البلشفي(*) طيلة اشهر عديدة. كانت ديكتاتورية البروليتاريا قد تحولت في هذا المجال الى ديكتاتورية على البروليتاريا. لأنه إذا كان بالامكان تصوير مجمل التدابير التي فُرضت على الطبقة العاملة الروسية كما لو كانت ثمرة إكراه حتمي وجد القادة الشيوعيون انفسهم مضطرين للاستجابة له رغمًا عنهم، فلا تقاس سعة هذا الخضوع إلا على ضوء اعتبار إضافي: هذه البروليتاريا، الخاضعة للانضباط الاكثر صرامة، وكما سنرى للبؤس الأشد فجاجة، كانت فضلاً عن ذلك محرومة من وسائل الدفاع الحَريَّة بالحد من الدواهي التي كانت ترزخ تحتها. وسائل دفاع لطبقة عاملة وصلت الى السلطة بفعل هزيمة البورجوازية؟ الم تكن الفكرة بحد ذاتها غير ملائمة؟ لقد ظهرت كذلك في الواقع لكثير من الايديولوجيين الذين تبدو تبسيطيتهم، إذا أخذنا بالاعتبار الابتعاد التاريخي، ذات سذاجة كارثية. الم يكن **الفباء الشيوعية**، الذي كان يستخدم ككتاب شعبي خلال السنوات الاولى للنظام، يؤكد ان «عهد الكلام الجميل قد ولى، وآن اوان الجهد الجهيد. لم يعد علينا أن نناضل من اجل حقوق ما في موسكو، او في بتروغراد، فالطبقة تملكها جميعاً...[٢٦٣]». وخلال اول مؤتمر روسي كبير للمنظمات النقابية، في كانون الثاني ١٩١٨، كان مندوب قد اعلن انه «يستحيل ان نقدم مطالب لأنفسنا[٢٦٤]». وبالأحرى، لماذا قد يضطر الشغيلة للجوء إلى الاضراب اذا كان هذا الاضراب «غير المنطقي» في دولة عمالية، يزيد من الركود والصعوبات الاقتصادية؟ هكذا فهمت الامر بالضبط نقابة عمال التعدين، التي قررت منذ كانون الثانى ١٩١٨ حظر الاضراب مذاك على المنتسبين اليها[٢٦٥].

بيد انه لم يكن هنالك أبداً حظرٌ بحصر المعنى للاضراب خلال السنوات الاولى للنظام السوفياتي. فالحكومة لم تتخذ يوماً مرسوماً بهذا المعنى[٢٦٦]. لقد اعلن زينوفييف، باسم الحكومة البلشفية، خلال المؤتمر الاول الروسي الكبير للنقابات، في كانون الثاني ١٩١٨، اعلن حتى ان مجلس مفوضي الشعب قرر المساهمة مالياً في تشكيل صندوق اضراب[٢٦٧]. لكن حين اقترح مندوب بلشفي، في المؤتمر نفسه، التصويت على قرار يعترف

(*) انظر أعلاه، ج ١، ص ١٣٠، وأدناه، ص ١٨٠ وما بعدها.

صراحةً بحق الاضراب، جرى رفض اقتراحه[٢٦٨]. لم يكن ثمة إذاً أي مذهب في الموضوع، ولا أي تشريع، وكل ما هنالك سلسلة من التصريحات التي ادان فيها العديد من القادة النقابيين والسياسيين كل وقف للعمل. هكذا أكد شميدت، مفوض الشعب للعمل، في شباط ١٩١٨ انه «بات تنظيم إضراب أمراً لا يُعقل» ودعا مجمل المنظمات النقابية لاستلهام قرار حظر الاضراب الذي اتخذته نقابة عمال التعدين[٢٦٩]. وكانت هنالك تصريحات اخرى بالمعنى ذاته، من مثل اتخاذ عدة نقابات موقفاً مشتركاً مفاده ان «كل الذين يتوقفون عن العمل، في الظروف الحالية في المنشآت هم اعداء للحركة العمالية. .[٢٧٠]». واعتبر تومسكي، الناطق الرئيسي بلسان العالم النقابي، انه ليس للاضرابات معنى في نظام تقرر فيه النقابات وحدها ما تراه هي نفسها في قضايا الاجور وشروط العمل[٢٧١]. وقد كانت الحجة بدت اكثر اقناعاً لو أن تلك النقابات كانت تمثل إرادة اعضائها. لكن باعتراف اصحاب مشروع قرار جرى إيداعه في المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي ـ وكان بين موقعيه لينين وتومسكي بالذات ـ، كان ثمة إمكانية لإعادة الحياة الديمقراطية للمنظمات النقابية بعد أن اختفت منها[٢٧٢].

بيد ان الاضرابات بقيت ملمحاً دائماً للحياة الاجتماعية في «روسيا اللينينية». فقد كانت هناك اضرابات على امتداد الحرب الاهلية، يتسبب بها تارة الاستياء الذي كانت تحفزه ازمة التموين، وطوراً اسباب مهنية، واحياناً لأجل الاحتجاج ضد تجاوزات قادة المنشآت. إلا أنه من الصعب تكوين فكرة دقيقة عن ردود الفعل التي اثارتها هذه الحركات لدى السلطات. كانت هنالك حالات سجن لمضربين بسبب امتداد إضراب. وفي ظروف اخرى كان العمال المشاركون في الاضراب يُحرمون من أجرهم. ومن المؤكد، من جهة اخرى، ان «المحرضين» المناشفة، النشيطين غالباً في إثارة الاضرابات، كانوا يتعرضون لمعاملة أقسى. لكن كان يحصل ايضاً ان تقرر منظمات نقابية الدعم المالي للشغيلة المضربين وان تتدخل الحكومة بالذات لمعاقبة التجاوزات التي كانت قد تسببت بحركة احتجاج وليس لقمع الاضراب بالذات. هكذا، خلال إضراب في سكك الحديد، في حزيران ١٩١٨، أصدر مجلس مفوضي الشعب بلاغاً يعبر فيه عن نيته «عدم إظهار أية شفقة حيال مأموري السلطة السوفياتية الذين يزيدون من استياء الجماهير الكادحة عن طريق اعمال نزقة وإجرامية» ويتحدث عن «السخط الشرعي» للعمال[٢٧٣]. يبقى مع ذلك ان الاضراب، سلاح البروليتاريا الكلاسيكي، المستخدم والممجَّد حتى ذلك الحين من جانب الثوريين، جرى اعتباره عموماً شكلاً من اشكال تخريب المجهود الاقتصادي، دون ان يؤدي ذلك إلى منعه قانونياً. كما ادانه معظم القادة، وجرى قمعه غالباً وفي افضل الاحوال التسامح حياله،

وذلك في وضع كان استخدامه فيه يبرر نفسه على الاقل بسبب مشقات الشرط العمالي وسلطات البيروقراطيين.

وبما يخص لينين بالذات، لم يأخذ موقفاً قط حول مشكلة شرعية الاضراب. كان واضحاً تماماً، مرتين فقط. الاولى في نيسان ١٩١٩، في الفترة التي كانت الحرب الاهلية تنقلب فيها لغير مصلحة البلاشفة، وقد اكتفى بالتشديد على الآثار الكارثية التي يمكن ان تكون لأي توقيف للعمل على النضال ضد «البيض» وبصورة اعم على سكان يرزحون في البؤس: «إن الاضرابات تُسقِط جنودنا الحمر في الجبهة، فكل يوم من الاضراب يعادل الحرمانات وعذابات الجوع بالنسبة لعشرات الملايين من الناس[٢٧٤]». وقد وقف بسبب الظروف ايضاً مع قمع الحركات الاضرابية مقدراً ان السجن بالنسبة لـ «عدة عشرات او عدة مئات من المحرضين، أكانوا جناة أو لم يكونوا، واعين أو غير واعين» هو افضل من «خسارة آلاف الجنود الحمر والعمال[٢٧٥]». بعبارات اخرى، إدانة للاضراب ليس بسبب الطابع العمالي للنظام بل بسبب الضرورات التي تفرضها الحرب الاهلية.

أعاد لينين دراسة مشكلة حق الإضراب في الظروف الجديدة تماماً التي خلقها ادخال النيب. ففي مقال طويل حول «دور النقابات ومهامها في ظروف السياسة الاقتصادية الجديدة» نشرته **البرافدا** في ١٧ كانون الثاني ١٩٢٢، ايد بوضوح تشكيل صناديق إضراب[٢٧٦] وبرر ذلك بواقع ان منشآت الدولة كانت خاضعة لمبدأ الربحية، الذي تضاف اليه «المصلحة الادارية وتجاوزات الحماس الاداري». كان ثمة في المنشأة إذاً «نوع من التعارض في المصلحة» بين كتلة العمال والقيادة، ويكاد يَنْتجُ من ذلك أن «اللجوء إلى النضال الاضرابي، في دولة تعود فيها السلطة السياسية للبروليتاريا، يمكن تفسيره وتبريره فقط بتشويهات بيروقراطية للدولة البروليتارية وبكل أنواع مخلفات الماضي الرأسمالي في مؤسساتها، من جهة، بالاضافة الى نقص النضج السياسي والتأخير الثقافي للجماهير الكادحة، من جهة أخرى»[٢٧٧]. وفي حالة الاضراب، كانت مهمة النقابات في كل حال أن «تساهم في التصفية السريعة جداً للنزاعات بتدابير خاصة بالنشاط النقابي: تدابير تهدف إلى ازالة الاختلالات والتقصيرات الفعلية والاستجابة للمطالب الشرعية وممكنة التحقيق الخاصة بالجماهير...»، علمًا انه كان يعود للمنظمات النقابية أن «تتفادى النزاعات الكبيرة في منشآت الدولة بواسطة سياسة بعيدة النظر تنزع الى الدفاع الحقيقي وفي كل الحقول عن مصالح جمهور العمال وإلى إزالة أسباب النزاعات في الوقت المناسب»[٢٧٨].

إلا ان مشكلة الاضرابات لم تكن غير وجه لمسألة أعم: مسألة نظام المنظمات النقابية وعلاقاتها بالدولة والحزب وإذاً حرية المناورة لديها في الدفاع عن المصالح العمالية. وهذا الجدال المهم كان ينطرح من جهة أخرى بعبارات شبيهة بعبارات الاضراب: فمثلما أن هذا

الاخير كان يبدو عبثياً في نظام يملك العمال السلطة فيه، كان الاستقلال النقابي يبدو شاذاً في حين ان السلطة البروليتارية كانت تتماهى مع سلطة الدولة. كان البلاشفة قد أدانوا دائماً الحياد النقابي وميَّزوا إرساء علاقات وثيقة مع النقابات: تبعية سياسة وخضوع ايديولوجي. وانطلاقاً من ثورة اوكتوبر، أدانوا كل شكل من الاستقلال النقابي حيال السلطة الحكومية. كان زينوفييف سأل المناشفة إبان المؤتمر الاول الروسي الكبير للنقابات في كانون الثاني ١٩١٨: «حيال من تتمنون الاستقلال؟ حيال حكومتكم الخاصة بكم، حكومة العمال والفلاحين، حكومة سوفييتات العمال والجنود؟ . . . إن استقلالاً كهذا لن يكون غير حق دعم أولئك الذين يقاتلون حكومة العمال والفلاحين»[٢٧٩]. وقد صوَّت المؤتمر ذاته على قرار بموجبه «تتحول النقابات حتماً إلى أجهزةٍ للدولة السوفياتية»[٢٨٠]. واذا كان جرى استبعاد فكرة الاستقلال، فلم يجر استبقاء فكرة الدمج الصرف للمنظمات النقابية في جهاز الدولة إلا ضمن منظور مستقبلي: هدف للتحقيق أكثر مما وضع مكتسب. كانت المكانة التي تشغلها النقابات حالياً في المؤسسات وبالنسبة اليها مفتوحة للنقاش.

•

وقد اهتم المؤتمر النقابي الاول أيضاً بتحديد مهام النقابات في الاطار السياسي والاجتماعي الجديد. عدّد سلسلة من الوظائف، كالنضال ضد التخريب، ومهمة فرض احترام القوانين بصدد الاجور وشروط العمل وتأمين علاقات التعاون مع «الاجهزة المنظمة للانتاج». لكن في هذا التعداد الطويل، لم يكن وارداً بوضوح الدفاع عن مصالح العمال[٢٨١]. كانت غبطة اللحظة تفسر التساؤل عن معنى هكذا عمل بالذات. إن فكرة دولنة النقابات كانت تلاقي من جهة أخرى دعم العديد من المناضلين، حتى في صفوف الاشتراكيين - الثوريين اليساريين[٢٨٢]. إلا ان المجادلات النظرية حَوْل مكانة النقابات في الدولة فقدت أهميتها خلال الحرب الاهلية. ففي تلك الفترة، بدت المنظمات النقابية نشيطة بوجه خاص في عملية تعبئة الطبقة العاملة وفي أصول تثبيت الاجور[٢٨٣]. بيد أن هذه التجريبية وهذه الاكراهات لم تستطع البقاء طويلاً مع نهاية المجابهات العسكرية. فما أن استقطبت المشكلات الاقتصادية الانتباه من جديد وعبأت الطاقات، حتى عاد الجدال حول دور النقابات في النظام السوفياتي وطبيعتها للانبعاث، وقَسَمَ الحزب، وحرّك الاهواء وساهم بذلك بالذات في تعزيز الرغبة في الوحدة والنزوع إلى المونوليتية. صحيح كما رأينا أن هذا الجدال كان مشوشاً من بعض النواحي وخيالياً. فلينين لم يكن على خطأ تماماً حين زعم أن النقاش كان يتطور انطلاقاً من «خلافات غير موجودة»[٢٨٤]. وقد كان الامر على تلك الحال تقريباً، على الاقل إذا نظرنا إلى النصوص المقدمة خلال المؤتمر الحادي عشر للحزب المدعو لحسم السجال. لكن هذه المشاريع لم تكن تعكس إلا جزئياً وجهات النظر الحقيقية

للاطراف. كانت اعتبارات تكتيكية وهمُّ زيادة عدد الانصار تدفع شتى الاتجاهات في الواقع إلى إضفاء المرانة على التعبير عن آرائها.

كان تروتسكي، من جهة، ومجموعة «المعارضة العمالية»، من جهة أخرى، يشكلان المعسكرين المتطرفين. فأصدقاء كولونتاي وشليابنيكوف كانوا يطالبون للمنظمة النقابية بحصة ذات اولوية في القرار وفي التسيير الاداري والاقتصادي. وبالعكس، كان تروتسكي، بعد خلافاته مع نقابات سكك الحديد وإعادتها الى الصواب، نصيراً لاخضاع النقابات بالكامل للسلطة السياسية. كان يهاجم قادتها مباشرة، آخذاً عليهم «روح محدودية نقابية»[٢٨٥] وبصورة أعم أيضاً خضوعهم لمسبقات بورجوازية»[٢٨٦]. كانت السياسة التي طبقها في ميدان النقليات قد أثارت معارضة العديد من النقابيين، وكان ميل تروتسكي للعبارات القوية قد سمَّم المساجلة. فإذ نصح بـ «هز» النقابات، كان قد شحن النفوس وأثار غضب لينين[٢٨٧]. عشية مؤتمر آذار **١٩٢١**، وبعد أن عقد تروتسكي تحالفاً مع بوخارين، طلب تحويل المنظمات النقابية الى «أجهزة إنتاج»، بحيث يتقدم «المنظور الانتاجي» على «المنظور النقابوي». وفي الواقع، كانت هذه السياسة مطبقة منذ وقت طويل، لكنها كانت تتحاشى صراحةً من هذا النوع.

كانت التيارات القصوى مفصولة بمستنقع حيث كان يجري التلذذ بتكرار عموميات حول ضرورة إعادة الديمقراطية العمالية إلى النقابات، لكن مع رفض فكرة «دولنتها» سريعاً. كان ذلك هو التعبير بالذات عن الحذر. وكان لينين بين الموقعين العشرة على قرار يلخص هذا الموقف وحصل في المؤتمر الحادي عشر على أغلبية ساحقة[٢٨٨]. كان يمكن أخذ الانطباع بأن أفكاره حول المشكلة النقابية كانت تختلط برمادية تلك الامتثالية الاغلبية. وبالطبع لم يكن ثمة شيء من ذلك. كان قد أبدى في الفترة الاولى من حياة النظام موافقته على منظور الدولنة التدريجية للنقابات[٢٨٩]. وفي البرنامج المقترح على الحزب الشيوعي خلال مؤتمره في عام **١٩١٩** أدخل صيغة سوف تتلقفها «المعارضة العمالية» لصالحها من أجل منح المنظمات النقابية أوسع الصلاحيات: وفقاً للينين، كانت مدعوة لتصبح «أجهزة تسيير الاقتصاد بكامله»[٢٩٠]. من جهة أخرى، لم تكن تصوراته حول العلاقات بين الحزب والنقابات تقدم جديداً بالنسبة للمذهب المرسى قبل الثورة. بسبب «بعض الملامح الرجعية» لـ «نوع من المحدودية النقابية»، كان يجب أن يقود الحزب النقابات[٢٩١]، علماً أنه في الممارسة كان لينين يبدو مؤيداً لتطبيق مرن لهذه القاعدة(*). إن الوظائف التي كان على النقابات

(*) انظر «مشروع قرار اللجنة المركزية» الذي ينحني فيه لينين أمام رفض التكتل الشيوعي في المؤتمر النقابي قراراً يعكس وجهة نظر قيادة الحزب (**المؤلفات**، ج٤٢، ص ٣١٥)

الاضطلاع بها في المجتمع السوفياتي تتعلق بمهام الانتاج، لكن كذلك التربية، حيث جرى تصوير منظماتها كـ «مدرسة للشيوعية» مكلفة بـ «تعليم الجمهور تسيير الدولة»(٢٩٢). وإجمالاً، كان عليها أن تفيد كـ «صلة وصل بين الحزب وملايين الناس الجاهلين»(٢٩٣)، وأن تضع نفسها «بين الحزب وسلطة الدولة»(٢٩٤). وكلها صيغ كانت تتطابق كما يبدو مع نظرية «النقابة ـ حزام نقل الحركة».

إلا أن تطور النظام دفع لينين لتقديم تصور شخصي وفريدٍ عن دور النقابات ومكانتها في المجتمع السوفياتي. ولقد جعله علنياً خلال جدال حول النقابات، في بداية عام ١٩٢١. إلا انه خلال المؤتمر الحادي عشر، لم يعبرٍ هذا التصور عن نفسه بتقديم مشروع قرار ولا نجد أفكاره في الواقع في أي من النصوص المقدمة إلى المؤتمرين. ذلك أن وجهة نظر لينين اصطدمت بالمقاومة وعدم الفهم العام(٢٩٥) بسبب فرادتها بالضبط ولأنها كانت تقطع مع مبادىء كان قد جرى تحويلها إلى عقائد. ففي مجال تعليق لينين على اطروحات تروتسكي، وقف ضد التأكيد الرائج الذي يعتبر أنه لا يجب الدفاع عن الطبقة العاملة «لأنه لم تعد هناك بورجوازية، ولأن الدولة دولة عمالية». والحال أن هذه الافكار التي كانت تعبر عن ايديولوجية النظام بالذات وتأخذ فيها مقام مسلّمات، كانت تصطدم برفض لينين لها على أساس أنها خاطئة. وقد أضاف قائلاً «إن هذه الدولة ليست دولة عمالية تماماً. . . في الواقع ليست دولتنا عمالية، بل عمالية ـ فلاحية»، مع ظرف يزيد كثيراً من الخطورة ويتمثل في أنها «دولة عمالية مصابة بتشويه بيروقراطي». ويخلص لينين إلى هذه الملاحظة التي لا يؤثر اقتضابها وطابعها المختصر جداً على بعد نظرها وجرأتها: لا يمكن الاستغناء إذاً عن النقابات «للدفاع عن مصالح البروليتاريا المادية والمعنوية». وأيضاً: يجب ان تضطلع النقابات بـ «النضال ضد التشويهات البيروقراطية للجهاز السوفياتي»(٢٩٦). وبعد ادخال السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب)، كرر أنه يوجد «نوع من التعارض في المصالح بما يتعلق بشروط العمل في المنشأة بين جمهور العمال والقيادة» وأنه يَنْتُج من ذلك بالنسبة للنقابات «الواجب المطلق المتمثل بالدفاع عن مصالح الشغيلة. . .، والتقويم الدائم لأخطاء الأجهزة الاقتصادية وتجاوزاتها حين تَصدرُ عن تشويه بيروقراطي لجهاز الدولة»(٢٩٧).

إنه لمميَّز جداً لعبقرية لينين وللطابع الديالكتيكي للينينية ان العلاقة المتناقضة بين مؤسسة الدولة وفرعها النقابي قد تم إدراكها بالرغم من كل فخاخ الايديولوجية المطَمْئِنة الممثّلة بفكرة «الدولة العمالية». ولو أمكن مواصلة هذه المقاربة بعيدة النظر للمشكلة النقابية وتعميقها، لكان أمكن أن تؤدي إلى وضع عقائد أخرى موضع الاتهام. لكن ليس أقل تعبيراً انها لم تستطع فرض نفسها في الوقائع. فبعد نهاية الجدال النقابي، حين تبلورت وجهات النظر الكثيرة جداً التي غذّته في مشاريع قرارات مؤتمر وبرامج مجموعات، لم يكن هنالك من

مكـان وسط هذا الادب الغـزير لأفكـار لينـين. لم يستعـد أحد الصيغة الصحيحة جداً ـ والدرامية جداً ـ صيغة «الدولة العمالية مع تشويه بيروقراطي» في حين كانت تملك غنىً لم يكَن موجوداً لا في التكرار المتواصل للدعوات إلى «عسكرة» العمل و«دولنة» النقابات، ولا في التـذرعات التعزيمية بـ «الديمقراطية البروليتارية» و«الابداعية العمالية». وعلى صعيد الواقع السياسي، بقيت أيضاً حبراً على ورق.

المجتمع البروليتاري (III) : البؤس العمالي:

خلال صيف عام ١٩١٧، كان البلاشفة قد لحقوا بالجماهير الثورية وكسبوها. وهذا الكسب تم على صيحات: «السلام، والارض والخبز!». وبعد عام، في تموز ١٩١٨، كانت حصص الخبز في بتروغراد موزعة بالشكل التالي. ليومين: الفئة الاولى(*): ٢٠٠ غرام؛ الفئة الثانية: ١٥٠ غراماً؛ الفئة الثالثة: ١٠٠ غرام؛ الفئة الرابعة: ٥٠ غراماً[٢٩٨]. وعلى امتداد الحرب الاهلية، لم يتحسن وضع التموين أبداً إلا عرضاً، أثناء موسم الحصاد. لكن الجوع بقي مستوطناً وكان أحد الاسباب الرئيسية لضعف الطبقة العاملة وإحباطها. وعام ١٩٢١، قبل إدخال النيب بقليل، كانت فئة العمال الافضل تغذية تتلقى حصصاً يتراوح مقدار ما فيها من الحراريات بين ١٢٠٠ و ١٩٠٠ وحدة، في حين انه كان على بعض شغيلة النقل ان يكتفـوا بـ ٧٠٠ إلى ١٠٠٠ حرارية في اليوم. وفي حوض الـدونتـز، لم يكن عمال المنـاجم يحصلون على أكثر من نصف الحراريات الضرورية لتغذية طبيعية. وكان يتعلق الامر مع ذلك بـ «شغيلة صداميين». أما الآخرون... لقد حصل أحياناً أن لم يتلق سكان العاصمة أكثر من ٦٠ غرام خبز لمدة يومين[٢٩٩]. ليس مدهشاً إذاً أن «السوق السوداء» كانت مزدهرة ومثلت ٧٥ إلى ٨٠٪ من التموينات الغذائية خلال الحرب الاهلية[٣٠٠]. ويمكن أن نتخيل بسهولةٍ نتائج وضع كهذا. فمنذ شتاء ١٩١٧ ـ ١٩١٨، لاحظ الصحفي الانكليزي فيليبس برايس أن قسماً من الأيام أكثر فأكثر أهمية كان مخصَّصاً للبحث عن الطعام: «لم أعد أفكر إلا في الأكل، كنت أحلم بالأكل ولم أكن أفكر في السياسة إلا عبر اصطلاحات غذاء»[٣٠١]. وبعد ثلاث سنوات، كتب عضو في التشيكا في تقرير له أن عمال سمولنسك، «لاسيما أولئك الذين يشعرون بجوع شديد...، محبطون كلياً ولم يعودوا يفكرون إطلاقاً في العمل»[٣٠٢]. كانت

(*) كان سكان المدن الكبرى مقسَّمين إلى أربع فئات من ناحية التموين: شغيلة يقومون بأعمال شاقة، شغيلة يقومون بعمل جسدي عادي أو عمل فكري كثيف؛ شغيلة ذهنيون؛ عاطلون عن العمل.

مشكلة الجوع، في الواقع، تسيطر على كل الحياة السياسية، من قمة الهرم إلى قاعدته. أعلن لينين أمام جمعية لأعضاء في السوفييتات والنقابات في حزيران ١٩١٨: «علينا الآن أن نتصدى للمسألة الاشد بدائية في كل جماعة إنسانية: إنزال الهزيمة بالجوع»[٣٠٣].

وفي الواقع: روى بوخارين الاستقبال الذي لقيه في أحد المصانع خلال إحدى زياراته. جرى التصفيق للخطاب الذي ألقاه فيه. كانت موهبته الخطابية قد كسبت سامعيه. لكن «تقدمت في تلك اللحظة امرأة ووضعت على الطاولة التي استُخدمت كمنبر وعاء مليئاً بالماء الغالي الذي كان يسبح فيه شيء غير ممكن تحديده. كان هذا ما تتم به تغذية الناس في تلك الفترة. «كيف يمكن العيش عن طريق اقتيات قذارة مماثلة؟» سألت المرأة، وشرعت تطلق صيحات هستيرية حقاً، تتبعها في ذلك كل عاملات المصانع[٣٠٤]».

لم يكن الجوع غير واحد من وجوه أزمة عامة. فقد كانت الآلام التي يسببها البرد والافتقار الى الوقود وجهاً آخر. كان الناس يحرقون الكتب والارضيات الخشبية في الشقق[٣٠٥]. وكان مَنْ في المكاتب يجمدون (من الصقيع). فقد روى موظف كبير في بتروغراد، كان رئيساً للجنة الاشغال العامة، روى لأرثور رانسوم أنه حصل في مصالحه أن كانت ثمة ضرورة للعمل في طقس تدنت درجة الحرارة فيه إلى ما تحت الصفر. واضاف: «كثيرون من معاونيَّ مرضوا. والبارحة بالضبط، جرى اصطحاب اثنين منهم الى بيتهما، وهما تحت وطأة صدمات عصبية ناجمة عن العمل الحضري المديد في غرف غير مدفأة. وقد فقدت القدرة على استعمال يدي اليمنى للسبب نفسه»[٣٠٦]. وعلى صعيد الصحة العامة والوقاية، لم تكن الحالة أقل مأساوية. كانت العقاقير تُحفظ للجيش، أما الاطباء فقد اختفوا جميعاً تقريباً، حيث امتصتهم صفوف الجيش الاحمر أو وقعوا ضحايا للحرب الاهلية. «لا يبقى... أحد لتأمين الخدمات الصحية العادية»[٣٠٧]. علمًا أن خدماتهم جوهرية: «تنتشر الاوبئة بسهولة. فالامراض المُعدية التي لم يَجْرِ القضاء عليها في بداية القرن العشرين تستأنف الهجوم. ومن عام ١٩١٧ الى عام ١٩٢٢، أصاب التيفوس حوالي ٢٢ مليون شخص، وفي ١٩١٨ - ١٩١٩، سُجّلت ١,٥٠٠,٠٠٠ وفاة بسبب هذا المرض، علمًا ان الكثير من الحالات لا تخضع للاحصاء. وأصابت الكوليرا والحمَّى القرمزية سبعة أو ثمانية ملايين روسي، وإن لم تؤديا الى العدد ذاته من الضحايا. أما نسبة الوفيات فبلغت حدوداً ضخمة، كانت في حدها الاقصى في بتروغراد عام ١٩١٩: علمًا أن الكثير من الشبان غادروا المدينة، فلقد كانت هنالك ٨٩,٥ وفاة من أصل ١٠٠٠ من السكان، أي أربعة أضعاف ما كان قبل الحرب. وفي المراكز الاخرى، تضاعفت نسبة الوفيات ثلاث مرات؛ وبالنسبة لمجمل البلد، تضاعفت مرتين. وعلى العكس، نقصت نسبة الولادات بشكل كبير، حيث تكاد تكون بلغت ١٣٪ في الارياف. ومن عام ١٩١٨ الى نهاية ١٩٢٠، قتلت الاوبئة والجوع

والبرد ٧,٥٠٠,٠٠٠ روسي؛ وكانت الحرب الخارجية... أودت بأربعة ملايين من الضحايا»[٣٠٨].

وعلى صعيد الطبقة العاملة، بوجه خاص، حصل انهيار في مستوى المعيشة. ففي عام ١٩٢٢ لم تكن الاجور الفعلية للعمال تمثل ٣٠٪ مما كانت عليه قبل الحرب، تحت النير السياسي للقيصرية. وبالنسبة لعام ١٩١٣، كانت شروط سكنهم فقط قد تحسنت بفضل مصادرة مساكن البورجوازيين[٣٠٩]. وفي قاعدة هذه الكارثة العامة، ازمة اقتصادية قليلةٌ هي شبيهاتها في التاريخ. كانت قد تسببت بها مجموعة من الظروف، حيث احتل قطع الروابط التجارية بين المدينة والريف مكانة مهمة: وضعٌ متعذر حله حيث الفلاحون من جهة يخزنون القمح ويفعلون كل شيء لانقاذه من المصادرة لانهم عاجزون عن الحصول على منتجات منجزة مقابله، وحيث العمال، من جهة أخرى، الذين، كانت تبعثر صفوفهم ويلات الحرب الاهلية، كانوا عاجزين عن اطلاق الانتاج من جديد بسبب افتقارهم للغذاء. فعام ١٩٢٠، إذا استثنينا الحاجات العسكرية وحاجات شغيلة النقل لم تعد التجارة بين المدينة والريف تمثل أكثر من ١٢٪ من تجارة ما قبل الحرب[٣١٠].

لقد كان لفقدان أوكرانيا، وحده، بعد صلح بريست ليتوفسك والحرب الاهلية، أخطر النتائج. ألم تكن تمثل ثلاثة أرباع إنتاج الفحم، وثلثي إنتاج ركاز الحديد، وأربعة أخماس إنتاج السكر، وثلاثة أرباع انتاج المانغنيز، وتسعة أعشار القمح المعد للتصدير، دون حسبان ثلثي إنتاج الملح[٣١١]. كان الالمان انتزعوا أقاليم أخرى أيضاً يمثل إنتاجها من المحروقات، مثلاً، ٨٦٪ من إنتاج عام ١٩١٣[٣١٢]. وحين أمكن استعادة بعض المناطق بعد هزيمة ألمانيا في تشرين الثاني ١٩١٨، أدت الحرب الاهلية إلى دمارات جديدة. فعدا عن التخريبات التي لا تحصى التي تسببت بها في روسيا واوكرانيا، كان لها أثر إضافي يتمثل بقطع الارض القومية عن مصادر تموين بأهمية القوقاز - ونفطه - والتركستان - وقطنها. كانت الحاجات العسكرية، تتمتع من جهة أخرى بأولوية مطلقة: عام ١٩٢٠، كان الجيش الاحمر يمتص نصف الانتاج الصناعي، و ٦٠٪ من الموارد السكّرية، و ٤٠٪ من الدهنيات، و ٩٠٪ من الاحذية الرجالية، و ٤٠٪ من الصابون و ١٠٠٪ من التبغ[٣١٣]. وأخيراً كان الحصار الذي قررته الدول الغربية العظمى في شباط ١٩١٨، قد قطع البلد عن العالم الخارجي.

تلك كانت الاسباب الرئيسية لأزمة تضيء بعض الارقام مدى اتساعها: في شباط ١٩١٨، لم يعد الانتاج الصناعي لروسيا، التي حجّمتها معاهدة بريست - ليتوفسك من حيث مساحة الارض ومن حيث الاقتصاد، يبلغ أكثر من خُمس مستوى ما قبل الحرب. وبعد أشهر، لم تعد تمتلك غير ٨٪ من فحمها ما قبل الحرب و ٢٤٪ من ركاز الحديد. وفي

عام ١٩١٩، لم تعد مصانعها تتلقى غير عشر الوقود الذي كانت بحاجة إليه، وفي نهاية الحرب الاهلية، كان الوضع كما يلي: كانت روسيا السوفياتية تستخرج ١,٦٪ من ركاز الحديد الذي كانت تستخرجه قبل الحرب وتنتج ٢,٤٪ من إنتاجها السابق للفونت. كان الانتاج الكلي لمنتجات ناجزة ونصف ناجزة، مقوَّماً بالروبلات الذهبية، يمثل ١٢,٩٪ و١٣,٦٪ من أرقام ١٩١٣. ومن أصل ٧٠ ألف فرست(*) من شبكة سكك الحديد بقي منها ١٥ ألفاً فقط سالماً. كما كان أكثر من ٦٠٪ من مرآب القاطرات خارج الاستعمال. وفي بعض الفروع الصناعية وفي العديد من المناطق، كانت الانتاجية قد هبطت الى أقل من ١٠٪ من مستواها عام ١٩١٣، ولم تكن تتخطى، إجمالاً، ثلث هذا المستوى بالذات[٣١٤].

اقتصاد منهار بالكامل، وأحياناً مدمر بالكامل، وبالتالي بروليتاريا صناعية شبه مزالة من الوجود، إذا لم يكن عددياً فعلى الاقل اجتماعياً وأدبياً وسياسياً. لاسيما ان الصناعة الثقيلة هي التي كانت مصابة، وأكثر من الصناعة الخفيفة. ففي حين ان الاولى شهدت عام ١٩٢٠ هبوط انتاجها الى ١٨٪ من رقمها قبل الحرب، كانت الثانية لاتزال تحقق ما يقارب نصف إنتاجها عام ١٩١٣[٣١٥]. وكانت تلك نتيجة عودة الى بعض تقنيات الانتاج ما قبل الصناعي: في حين لم يكن الخشب يمثل عام ١٩١٦ إلا ١٤٪ من الوقود المستهلك في روسيا، مقابل ٦٧٪ من الفحم، فهذان الرقمان كانا عام ١٩١٩ ٨٨٪ و٣,٥٪، وكانا عام ١٩٢٠ ٥٠٪ بالنسبة للخشب، و٣٦٪ للفحم[٣١٦]. كان يمكن الفلاحين، المتشبثين بأرضهم والمدافعين عن مخزوناتهم بالاحتيال أو التخريب أو الكفاح المسلح، ان يقاوموا هذه الكارثة. أما الطبقة العاملة فلقد كان مورد بقائها وسبب وجودها الاقتصادي ينهاران على وتيرة السقوط الصناعي. عام ١٩١٧ كانت روسيا تضم ٣,٠٢٤,٠٠٠ عامل صناعة. وقد تطور هذا العدد من ١٩١٨ الى ١٩٢٢ بالشكل التالي:

١٩١٨:	٢,٤٨٦,٠٠٠
١٩١٩:	٢,٠٣٥,٠٠٠
١٩٢٠-١٩٢١:	١,٤٨٠,٠٠٠
١٩٢٢:	١,٢٤٣,٠٠٠[٣١٧]

وهو إحصاء بليغ لكن ناقص نوعياً ويكمله هذا الرقم المتعلق بمصانع بوتيلوف، قلعة الوعي البروليتاري والحماس الثوري: كان قد تركز عام ١٩١٧ عدداً من العمال تتراوح

(*) فرست: مقياس طول روسي قديم يساوي ١٠٦٧م (المعرب).

التقديرات بصدده بين ٣٠ و ٤٠ ألف شغيل، لم يتبق منهم في بداية عام ١٩٢٠ غير ستة آلاف[٣١٨]. ومن الصعب تصوُّر ذهنية هؤلاء الباقين. في كل حال لم يعد لنشاطهم علاقة إطلاقاً بنشاطهم سابقاً. كان التغيب يعيث فساداً إلى أقصى الحدود في الصناعة السوفياتية. وقد كشف تقرير للشرطة ان عمال سمولنسك، المنهكين من التعب والمجبرين على الحصول على الطعام بوسائلهم الخاصة، لم يكونوا يشتغلون غالباً غير ساعة أو ساعتين في اليوم[٣١٩]. وإجمالاً تضاعف التغيب ست مرات بين ١٩١٣ و ١٩٢٠[٣٢٠]. ان العامل السوفياتي الذي غالباً ما كان يفر من المعمل المشرَّك، كان يتوصل أحياناً إلى نهبه. هاكم كيف وصف مساعد مفوض الشعب للعمل، من هذه الناحية، الوضع في أيار ١٩٢١: لم يكن في وسع عامل متوسط يكسب ما بين ٣٠٠٠ و ٧٠٠٠ روبل في الشهر أن يلبي حاجاته. فلتلبيتها كان عليه في الواقع أن يحصل على أجر شهري يتراوح بين ٣٩ ألف روبل و ٤٠ ألف روبل، وكان يجد نفسه مضطراً لإكمال موارده باللجوء إلى السرقة والنهب. كان يحمل من المصنع كل ما يستطيع الاستيلاء عليه: أحزمة نقل الحركة، ومعدات ومسامير، وكل ذلك كان يصل الى السوق السوداء[٣٢١]. ويؤكد فيكتور سرج ما يلي: «كان العمال يقضون وقتهم في المصانع الميتة وهم يحولون قطعاً من الآلات إلى سكاكين وأحزمة نقل الحركة إلى أحذية بهدف مقايضة هذه الاشياء في السوق السِّريـة»[٣٢٢]. وإزاء هذا الوباء، لم يكن لدى المنظمات النقابية غير ان تصوِّت على قرارات تهديدية Comminatoirres وغير فعالة[٣٢٣]. وكان أحد قادتها الرئيسيين يقدِّر، من جهته، أن السرقات في المصانع كانت تتناول نصف الانتاج(*).

على هذه الانقاض كان يرتفع صوت لينين. فقد أعلن في معرض كلامه في المؤتمر الثاني لمصالح التربية في تشرين الاول ١٩٢١: «لقد انحطت البروليتاريا الصناعية طبقياً... بسبب الحرب والخراب والتدميرات الرهيبة... ولم تعد توجد بوصفها بروليتاريا». وختم قائلاً: «لقد زالت البروليتاريا»[٣٢٤].

ألم يكن باقياً شيء إذاً من ديكتاتورية البروليتاريا؟ هل كانت هذه الاخيرة يوماً غير أمل في البدء وأسطورة فيما بعد ـ أو مخاتلة؟ أو أن البؤس الرهيب، وتقهقر روسيا إلى وضع قريب من الهمجية ـ كانت هنالك حالات أكل لحم البشر خلال مجاعة ١٩٢١ ـ، وتدمير الاقتصاد، وانحطاط البروليتاريا الطبقي الظاهر كانت تخفي الاندفاعات المتذبذبة أحياناً والمرتبكة غالباً لكن المتجددة دائماً لحضارة جديدة، لثقافة عمالية، لمجتمع صُنع للشغيلة وبواسطتهم، وذلك دون أن تلغي تلك الاندفاعات مع ذلك؟

(*) يتعلق الأمر بلوزوفسكي. إ. دويتشر **The prophet Unarmed** ص ٧.

المجتمع البروليتاري (١٧) :
واقع ديكتاتورية البروليتاريا وحدودها :

في تشرين الاول ١٩١٩، حين أكد لينين أن «الفلاحين هم الذين كانوا أول من ربحوا، وربحوا أكثر من الجميع، بفضل ديكتاتورية البروليتاريا»[٣٢٥]، كان يلمّح قبل كل شيء إلى وضعهم المادي. وصحيح أنهم كانوا أقل تأثراً بالأزمة الاقتصادية الناجمة بشكل رئيسي عن انهيار الانتاج الصناعي. وإذا اكتفينا بهذه الملاحظة، ربما سنرى في استيلاء البلاشفة على السلطة في اوكتوبر ١٩١٧ ثورة صنعتها الطبقة العاملة لمصلحة الفلاحين الذين تحقق أخيراً مطلبهم القديم المتمثل بتوزيع الارض. لكن هكذا ملاحظة قصيرة وسطحية. لأنه انطلاقاً من علامات كثيرة جداً كان يجري الاعتراف في روسيا بأن الطبقة العاملة، وهي وحدها، استلمت السلطة.

كانت هنالك في المقام الاول احكام دستورية تميل إلى زيادة الوزن العمالي على حساب الفلاحين وإلى إعادة نوع من التوازن على مستوى التمثيل السياسي بين الجمهور القروي الهائل والشريحة الرقيقة نسبياً من البروليتاريا الصناعية. كان دستور عام ١٩١٨ ينص في هذا الصدد على ان المؤتمر الروسي الكبير للسوفييتات سيتشكل على قاعدة مندوب لكل ٢٥ ألف قاطن للمدن ومندوب لـ ١٢٥ ألفاً من سكان الارياف. وكانت تلك إحدى فرادات النظام السوفياتي بالنسبة للكثير من النظم السياسية حيث ينظم القانون الانتخابي بشكل منهجي تمثيلاً برلمانياً زائداً للسكان الفلاحين على حساب الجماهير المدينية.

كان هذا الاجراء الحقوقي يرمز فقط إلى وضع عام. فمجمل المناخ الاجتماعي الذي كان يسود في الواقع في روسيا في السنوات الاولى التي تلت الثورة هو الذي ينبغي سؤاله لقياس المكانة التي كانت الطبقة العاملة تحتلها فيه. لاشك انه كان للبؤس الذي كانت غارقة فيه مكانة مهمة في ذلك؛ لكن اقل تعبيراً مما يتم تخيله للوهلة الاولى طالما ان هذا البؤس كان عاماً وأن الجوع والبرد والفقر والمرض كانت قوانين لا يفلت من سطوتها احد. وهو بحد ذاته لم يكن يكذب الوزن الاجتماعي الجديد الذي اكتسبته البروليتاريا الروسية والذي كان ثقيلاً جداً ومهيباً جداً بحيث أنتج في حقول كثيرة قلباً حقيقياً للقيم. ففي روسيا السوفياتية وفيها وحدها اصبح واقع امتلاك اصول عمالية امتيازاً بالغ الاهمية بحيث كان البعض يخترعون شيئاً من هذا القبيل في الغالب، إما للحصول على مسؤوليات داخل الادارة او للاستفادة من امتيازات داخل الحزب الشيوعي. ألم يكن واقع كون المرء عاملاً ـ أو على الاقل واقع انه كان في السابق عاملاً ـ هو الذي يحمي المنتسبين من التطهيرات ويتيح كذلك تقصير

فترة التدرج؟ وكانت إعتبارات اجتماعية مماثلة تطبق، كما رأينا، في الحقل الجزائي لأن العقوبة كانت تأخذ بالحسبان الطبقة التي ينتمي اليها الجانح وتصيب البروليتاري بصرامة اقل من تلك التي تصيب البورجوازي القديم.

هذه المعطيات القليلة تبين بصورة غير كافية مع ذلك حقيقة الجو الذي كان يطبع المجتمع السوفياتي، حيث كل الايديولوجية، والدعاوة، والتربية، وخطب القادة ومقالات الصحف وإعلانات النوايا والنصوص التشريعية ـ سواء تم تطبيقها أو لم تطبق ـ تنادي بفضائل البروليتاريا، وبدعوتها للسلطة، وحقوقها السامية: باختصار، جلالتها الجديدة. ففي حين كانت السلطة البلشفية لا تزال تأمل الوصول الى صيغة تعايش مؤقتة مع الرأسمالية الروسية وترتيب انتقالات غير مؤلمة نسبياً باتجاه الاشتراكية، كان إرساء الرقابة العمالية قد بين الى اية جهة كانت توجد المقدرة السياسية والاجتماعية. لم يكن الموقف، الذي تبنته حكومة السوفييتات إزاء محاولات التخريب التي كان الملاك القيادي القديم ينصرف إليها، لم يكن موقفاً أقل مثالية. ويروي لوي فيشر، مثلاً، انه «في كانون الاول ١٩١٧، بعد الثورة البلشفية بقليل، لم تكن القيادة المتواجدة في بتروغراد للصناعات المنجمية والتعدينية في الاورال تستطيع، او لم تكن تريد، تحويل الاموال اللازمة لدفع اجور الملاك. فأرسل العمال احدهم الى لينين، الذي تحادث مع المندوب لمدة خمس عشرة دقيقة، ثم امر دزرجنسكي، قائد التشيكا، وشليابنيكوف، مفوض العمل، «بتوقيف مدراء المصانع فوراً، وتهديدهم بالمحكمة (الثورية) لأنهم خلقوا أزمة في الاورال.[٣٢٦]». ونادراً ما أثارت شكاوى عمالية رداً بهذه القوة.

في حين كانت السلطات الحكومية تهاجم البورجوازية وتسحق مقاومتها، كانت البروليتاريا الروسية تجتهد من جانبها لابراز قوتها والاستمتاع بها. ففي شتى الحقول، كانت الجماهير تضطلع بنفسها بفرض شريعتها على البورجوازية. فالمصادرات كانت تصيب الطبقة المسيطرة القديمة: كان عليها أن تخلي المساكن التي تحتلها وتسلمها للبروليتاريين؛ وكان يجري كذلك الاستيلاء على علامات الرخاء والترف والهيبة الاجتماعية التي كانت تشهد على قوتها: الحلي، والاثاث، والاعمال الفنية، لكن كذلك البياض، والفرو، والثياب الدافئة[٣٢٧]. وكان في وضع اليد هذا شيء آخر أيضاً غير الرغبة بانتزاع اشياء مفيدة: كانت هنالك إرادة تبيان من هم اسياد البلد الآن، وتبيان ذلك للنفس ايضاً. كان ذلك هو الامتداد النشط، والتكريس المعيش والساطع للمراسيم السياسية والاقتصادية الآتية من فوق. ذلك ان الاسياد الجدد، في الفترة الاولى من حياة النظام السوفياتي، لم يكونوا كوادر

حزب ضعيف نسبياً وسيء التنظيم(*)، ولا قادة حكومة وادارة اصحاب سلطة حائرة جداً، بل هذا الجمهور المهيب من الفلاحين الذين كانوا يستولون على الاراضي المشتهاة منذ وقت بعيد جداً، ومن العمال المسيطرين على مصانعهم والداخلين بأعداد كبيرة في مؤسسات باتت مؤسساتهم(**).

لاشك أن أزمة التموين أثارت في صفوف البروليتاريا الاستياء والهيجان، وعلى امتداد الحرب الاهلية الشرسة التي اكتسحت البلد، لم تكن الطبقة العاملة بمنأى عن الخيبات. لكن احتجاجاتها ومطالبها، وغضبها وشراستها، لم تكن غير متلائمة مع شعور بالتماهي العميق مع النظام السوفياتي. فطالما دام الصراع ضد «البيض»، لم تعترض السلطة السوفياتية يوماً صعوبة في أن تجد لدى البروليتاريين المتعبين، والمنهكين، والجائعين والمرتعدين برداً، دعماً كان يصل في ظروف كثيرة إلى حد البطولة. وقد قاوم هذا التماهي بين البروليتاريا والنظام السوفياتي الهزائم الاولى والخيبات الكثيرة ووجد في الجيش الاحمر توضيحاً بليغاً.

فحين تم إنشاؤه، سرعان ما حل فيه مبدأ التجنيد محل مبدأ التطوع، لكن اعطيت الاولوية لتنظيم العملية المشار إليها داخل الطبقة العاملة وأعطى ذلك نتائج مرضية عموماً وأحياناً أعلى من التوقعات الاكثر تفاؤلاً[٣٢٨]. كان ثمة مذاك تناسب كاف بين الطبيعة الاجتماعية للجيش الشاب، وصيغة قَسَم المجندين الذي باتوا يحلفون بصفتهم «أبناء الشعب الشغيل ومواطني جمهورية السوفييتات» بأنهم سيكرسون «عملهم وأفكارهم لقضية تحرير الشغيلة الكبرى»، وذلك «أمام الطبقة العاملة الروسية وأمام الطبقة العاملة في العالم أجمع»[٣٢٩]. صحيح أن الجمهور الكبير من جنود الجيش الاحمر كان مؤلفاً من الفلاحين[٣٣٠]، لكن المكانة التي كان يحتلها فيه العمال، كمياً وبوجه خاص بصورة نوعية، كانت في الواقع أهم من مكانة العسكريين الآتين من الارياف. هكذا بموجب قلب «مذهل» للأوضاع التقليدية السائدة في البلدان البورجوازية، بات تلامذة الضباط من اصل عمالي كثرة في المدارس العسكرية حيث كانوا يمثلون عام ١٩١٨ ٣٧٪ من مجمل العدد[٣٣١]- في حين أن المستنفرين الذين انتموا في السابق الى البورجوازية غابوا عن الوحدات المقاتلة وجرى إرجاعهم إلى الخلف للقيام بخدمات ذات طابع اداري بحت[٣٣٢]. فلم يكن من الجائز تسليح أعضاء الطبقات المسيطرة القديمة. اكثر من ذلك، كانت القيمة القتالية للوحدات

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٩٦ وما بعدها.

(**) أمكن تقدير عدد العمال الذين اوكلت اليهم مهام سياسية بحتة بمئة ألف. ب. سورلين، مرجع مذكور، ص ٧٥.

مرتبطة بتركيبها الاجتماعي : فالتي كان عدد العمال فيها هو الاعلى كانت تكشف أيضاً عن اكبر قدر من الحماس في المعركة. هكذا كانت تلك الفرقة من النخبة تضم ٢٦,٤٪ من العمال في صفوفها، في حين أن فرقة من رماة الرشاشات دورها في المعركة محدود لم تكن تضم غير ١٠,٥٪ منهم. وفي حين ان الجيش الاحمر، بمجمله، كان يضم تقريباً ١٥٪ من الجنود المتحدرين من الطبقة العاملة، فإن نسبة العمال بلغت اقل من ٤٪ في صفوف الفارين[٣٣٣].

أخيراً، إذا كان الجيش الاحمر خرج ظافراً من مجابهته مع الثورة المضادة المدعومة خارجياً بشكل هائل، فلقد كان ذلك، وفقاً لأقوال اختصاصي غربي في تاريخه، لأنه كان واعياً فرادته كقوة ثورية تحركها إرادة العنصر البروليتاري والعمالي وتعطي للمجموع تماسكه ووعيه الطبقي[٣٣٤]. هذه الصفات، وهي وحدها سمحت بتجاوز العائق الكبير المتمثل بتجهيز غير كاف وبشروط حياة بائسة، لأن الجنود الذين تمكنوا في خريف عام ١٩١٩ أن يردوا امام بتروغراد هجمات قوات يودنيتش «كانوا يبدون ذوي مظهر بائس. كانوا يرتدون الاسمال البالية، ويلبسون ثياباً مدنية وكذلك ثياباً عسكرية، وإذا كان نصفهم يحتذون جزمات أو سويقيات، فقد اكتفى النصف الآخر بخفافٍ من اللحاء[٣٣٥]».

وهكذا في حين كانت كوادر الجيش، المعقل التقليدي للبورجوازية، تنفتح امام البروليتاريا، حدثت ظاهرة من النوع ذاته في قطاع لم يكن اقل حماية حتى ذلك الحين من اي تسلل لابناء الشعب: إنه عالم الجامعة والثقافة. كان تنظيم «البرولتكولت»، بالرغم من التحفظات التي غالباً ما أثارتها ايديولوجيته، ينجح في تأكيد نفسه في الوسط العمالي، وكان يشكل بنواياه امتداداً في ميدان الفنون والآداب والمسرح للنصر السياسي الذي انتزعته البروليتاريا(*). وقد اضطرت الجامعة، هي أيضاً، للقبول بخلق «كليات عمالية» («الرافباك») كانت تشكل نوعاً من التعليم الاعدادي للطلاب المتحدرين مباشرة من البروليتاريا. هذه التجربة التي تم تدشينها في جامعة موسكو في تشرين الاول ١٩١٩، اصطدمت برفض الأساتذة الموجودين ومعظم الطلاب. فالقادمون الجدد لم يكونوا يجدون مساكن أو مواد (دراسية) ولم يكونوا يصادفون لدى الجسم الاكاديمي غير العداء، وفي افضل الحالات نوعاً من التسامح المتعجرف. وقد أدى ذلك إلى خلق «جامعات عمالية» مستقلة، بمبادرة من السلطات البلشفية ومجموعات عمالية آتية من جهات مختلفة كانت تعمل بصورة عفوية. وفي حالات كثيرة، عرفت هذه المشاريع، الناشئة وسط الفوضى والحماس، مرارات او إخفاقات، حيث ان الشغيلة المندفعين بحماسهم وسذاجتهم توجهوا صوب مثقفين

(*) انظر اعلاه، ج ٢، ص ١٠٥ وما بعدها.

مشكوك بهم، علمياً وسياسياً ـ وحتى نحو لاهوتيين سرعان ماكانوا يكشفون استعداداتهم الذهنية الحقيقية[٣٦]. وقد جرى توسيع الوصول إلى التعليم الثانوي، وكان حكراً أيضاً على البورجوازية، وإذ ألغى برنامجه الجديد الحاجز الطبقي بين الثقافة «الأنسية» والتكوين التقني، حاول أن يعطي العمال المنتسبين إليه ثقافة مفتوحة على كل حقول المعرفة(*).

وما أكد أخيراً، وإنْ على اساس الاستدلال بالضد a contrario ، الهيمنة الاجتماعية التي مارستها الطبقة العاملة، كان الهبوط الطبقي الكلي للنخب القديمة. فالبورجوازية، هدف الإرهاب الأحمر، المهانة في الغالب والمشبوهة دائمًا، لم يكن لها خيار إلا بين الاستسلام في الخضوع والتنازل في النفي. لقد تخلت عن املاكها وهيبتها لصالح منبوذي البارحة الذين باتوا غاصبين ومالكين جداً. إن غياب البورجوازية الروسية اتخذ أيضاً وبوجه خاص شكل مذبحة هائلة، حيث هلك **٣٥٠** ألفاً من اعضاء الطبقات العليا خلال الحرب الاهلية[٣٧].

لقد ظهرت على هذه الانقاض السلطة الاجتماعية لطبقة لم تكن آلامها تمنع التشبث بالمكاسب الثورية. وأن تكون انتفاضة كرونشتاد بالذات، بدل إعادة النظر بالسوفييتات، طالبت على العكس بإعادة فتحها أمام الأحزاب الاشتراكية محتفظة بالحظر الذي كان مفروضاً على البورجوازية، يدل على أن البروليتاريا كانت لا تزال تتماهى مع أسس النظام، حتى في ساعات الهزيمة والتمرد. ولقد كانت المؤسسات الجديدة تساهم من جهة أخرى في المحافظة على ذلك الشعور بالتماهي. كان الامر على تلك الحال مثلاً بالنسبة للنقابات التي شُدِخ استقلالها تدريجياً لكنها لم تصبح مجرد قِطَعٍ في جهاز الدولة إلا بعد عام **١٩٢١**. إلا أن خضوعها المتنامي كان يتلازم مع سلسلة من الامتيازات التي ارتفع مناضلوها وكوادرها بموجبها، بالطريقة نفسها التي يرتفع بها المهندسون والاختصاصيون، إلى مستوى مسيِّرين ومدراء وقادة اقتصاديين. بات يعود لها مذاك أن تحدد مستوى الأجور وشروط العمل وكذلك قواعد الانتاج، حيث اقتصر عمل مفوضية الشعب للشغل على المصادقة على قراراتها. وكان من المفترض من جهة اخرى ان تتولى المنظمات النقابية تعيين مِلاك هذه المفوضية؛ وفضلاً عن ذلك فإن هذه المنظمات كانت ممثلة بشكل واسع سواء في المجلس الأعلى للاقتصاد القومي (كان لها ثلاثون ممثلاً من أصل **٦٩** عضواً) او في اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات حيث كان التمثيل النقابي يتراوح بين ربع أعضاء هذه المؤسسة المهمة وثلثهم[٣٨].

إذا كانت المكانة التي بات يشغلها العمال في بنى الدولة تعبر عن وضعهم الجديد، فلقد كانت الايديولوجية تؤكد من جهة اخرى السطوة التي يمارسونها على المناخ الاجتماعي

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

للبلد. ولاشك أن لينين كان يدفع، كما رأينا، باتجاه تعزيز الانضباط والمردود والانتاج ويدعو إلى اللجوء لبعض طرائق التسيير الرأسمالية(*). لكن هذه الدعوات التي تقف وراءها الرغبة في تجاوز الأزمة الاقتصادية لم تحل دون أن تنشأ وتتطور مواقف وقيم إذ تقطع مع مواقف البورجوازية وقيمها كانت تعكس التطلعات شبه التقليدية للاشتراكية. هكذا كان الامر، مثلاً، مع الاتجاهات المساواتية التي طبعت بشكل عميق المثل العليا والممارسة الاجتماعية الخاصة بالنظام السوفياتي. وقد كان المثال في هذه الامور يأتي من فوق. ومن لينين بوجه خاص الذي تعود إليه المبادرة المتعلقة بتحديد أجر شهري لأعلى شخصيات البلد، مفوضي الشعب، يصل إلى خمسمئة روبل ويمكن مقارنته بأجر العمال الموصوفين، يضاف الى ذلك الواجب الملقى على اعضاء الحزب والمتمثل بإعطاء هذا الاخير ما يزيد عن هذه القيمة من مداخليهم[٣٣٩]. ولم يكن يتعلق الامر في هذا الصدد ببادرة ديماغوجية. فحين تقرر في أيار ١٩١٨ رفع راتب مفوضي الشعب من ٥٠٠ إلى ٨٠٠ روبل، كتب لينين رسالة غير معدة للنشر وموجهة لرئيس المصلحة الادارية في الحكومة، يحتج فيها على «اللا مشروعية البديهية لهذه الزيادة»، «الانتهاك الفاضح لمرسوم مجلس مفوضي الشعب في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٧»، وقد وجه «لوماً صارماً» للمسؤولين عن هذا التدبير[٣٤٠]. أما «الاختصاصيون» الذين كانت السلطة الجديدة تعتقد أنها ملزمة بتقديم تنازلات لهم فحصلوا من جهة أخرى على راتب يزيد ٥٠٪ عن راتب اعضاء الحكومة[٣٤١].

هذا الاندفاع المساواتي تجلى أولاً في مجمل الاقتصاد. ففي حين كانت مروحة الاجور العمالية في آب ١٩١٧ تتراوح بين ١ و ٢,٣٢، حسبما نكون إزاء شغيلة موصوفين أو عمال يدويين، فإن مؤشر التوتر انخفض إلى ١,١٩ في أول حزيران ١٩١٨ وإلى ١,٠٤ عام ١٩٢٠[٣٤٢]. إلا أن هذه المساواتية اصطدمت بإرادة تشجيع الانتاج بالوسائل الاكثر تنوعاً، بما فيها التنفيع المادي، وبوجه خاص بطرائق مكافأة من مثل الاجر على أساس القطعة. وقد لوحظ إذاً في الكثير من القطاعات تمايز متزايد لمداخيل العمل كبحها مع ذلك وحدَّ منها تطلعٌ مساواتي لم يكن أحد ينكره من حيث المبدأ بالاضافة إلى الإحلال المتواتر للأجر العيني محل الأجر نقداً. إن مجانية بعض الخدمات، كالبريد والنقل والكهرباء، كانت تساهم أيضاً في الحد من سيرورة التمايز[٣٤٣]. وأخيراً تراوحت مستويات المكافأة بين واحد و٤ أو واحد وخمسة[٣٤٤]، وهذه الزيادة في حدة التوتر، مهما تكن معتدلة إذا قورنت بالمفارقات الاجتماعية فيما سبق، والتي تميز المجتمعات البورجوازية، اعترفت بها السلطة كإخلال بالمبادىء

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ١٧٠ وما بعدها.

الاشتراكيه. وقد صور لينين استحالة تسوية الأجور كأحد الاكراهات التي فرضها التخلف والأزمة الاقتصاديان، ورأى في ضرورة منح الاختصاصيين أجوراً تفضيلية هزيمة للثورة[٣٤٥]. وفي مشروع البرنامج الذي قدمه إلى المؤتمر الثامن للحزب، كرر أن هدف النظام يبقى إرساء «مساواة كاملة في مكافأة العمل[٣٤٦]». وكان ألفباء الشيوعية، وهو كتاب تبسيطي نشره الحزب، يكرر أنه «من الواضح.. أن سياستنا الاساسية يجب أن تنزع إلى المساواة بين الاجور[٣٤٧]». وفي المؤتمرات النقابية والكونفرانسات الشيوعية، جرت في الغالب استعادة هذه الموضوعة التي كانت تشهد على دوام إحدى القيم التي كانت الطبقة العاملة الاشتراكية متعلقة بها تقليدياً[٣٤٨]. وقد توجّب انتظار النيب لرؤية تمايز مذهل في المكافآت، وصعود ستالين لرؤية هذه الظاهرة وقد تم تقديمها لا كضرورة ظرفية ومؤسفة بل كحاجة للروح البروليتارية[*].

لا يمكن المجادلة جدياً في انه كان هنالك في المجتمع السوفياتي أثر حضور عمالي مهم، وأمكنت ملاحظة تدفق البروليتاريا إلى الواجهة الاجتماعية وعلامات عديدة تشهد على قوتها ونفوذها. ولم يكن حدث شيء من ذلك غداة ثورة فبراير. فمع وصول البلاشفة إلى السلطة، غادرت ديكتاتورية البروليتاريا ميدان التجريدات للدخول في الواقع السياسي. هكذا كان يفهم ذلك على الاقل لينين الذي أكد في معرض كلامه على دولة عمالية وفلاحية، في كانون الاول ١٩١٧، أنه «ينبغي ألا نأمل أن يكون لدى بروليتاريا الأرياف الفهم الواضح والحازم لمصالحها» وخلص إلى القول: «الطبقة العاملة وحدها يمكنها أن تمتلك ذلك.. إن البروليتاريا مدعوة لتصبح الطبقة المسيطرة[٣٤٩]». ولاشك أن إرساء ديكتاتورية البروليتاريا تم على مراحل، حيث أن الشواخص المتعاقبة لتحقيقها كانت قلب الحكومة المؤقتة في تشرين الأول ١٩١٧، وحل الجمعية التأسيسية في كانون الثاني ١٩١٨ وتعميم التأميمات في حزيران من العام عينه، وبالتالي تصفية الرأسمالية في روسيا. وتدل تصريحات عديدة للينين أن مجمل تلك التدابير كان يتماهى بالنسبة إليه مع إرساء ديكتاتورية البروليتاريا[٣٥٠]. لكن ما الذي حصل بالفعل؟ هل عرفت روسيا السوفياتية في تلك الفترة نظاماً يمكن أن تطبّق عليه شرعياً سمة «ديكتاتورية البروليتاريا»؟ ويتوقف أخيراً على الجواب

(*) في عامي ١٩٢٢ و١٩٢٣، بلغ التوتر بين المكافآت القصوى المؤشر ٨٠. (أ. ديوار، مرجع مذكور، ص ٩٤). وفي الفترة ذاتها، اعلن ستالين أن «كل لينيني، اذا كان لينينياً حقاً، يعرف أن سياسة مساواة في ميدان الحاجات اليومية هي فكرة بلهاء وبورجوازية صغيرة ورجعية، جديرة في افضل الاحوال بفرقة زهّاد بدائيين». (أ. افتورخانوف، مرجع مذكور، ص ٨٤).

عن هذا السؤال الحكم الـذي يَحْسُن إطـلاقه على المجتمع الذي بني على **أنقاض النظام القديم**، والذي حاولت اللينينية أن تكيفه بعد انتصار ١٩١٧ رغم كل العقبات.

والحال أن هذا الجواب من الصعوبة بمكان لاسيما أن مفهوم ديكتاتورية البروليتاريا بالذات لم يُحدَّد يوماً بدقة. فلا ماركس ولا انجلز ولا لينين ولا المنظرون الاشتراكيون وصفوا يوماً أواليات هكذا ديكتاتورية وبُناها. فلينين، من جهته، كان اكتفى في **الدولة والثورة** بتبرير الثقة التي يضعها في القدرات السياسية والادارية الخاصة بالطبقة العاملة، وبالرسم الأولي لتخطيط يجعل منظور اضمحلال الدولة الماركسي معقولاً(*). بيد أنه لم يكن ثمة شيء قد قيل عن طرائق الحكم التي قد تجعـل من البروليتاريا بالذات المُمْسِك الحقيقي بسلطة الدولة وتعفيها من اللجوء إلى أي انتدابٍ للسلطة. ومن جهة اخرى، أيُّ شيء كان يجعل سلطان الـدولـة هذا يتعلق بنظام ديكتاتوري بحصر المعنى؟ هل كان هذا الاخير يستتبع ممارسة الارهاب وإنكار كل حق سياسي لدى الطبقة المخلوعة، وتجاهل كل قاعدة شرعية وسيادة العسف الثوري؟ إن إحالات ماركس، وبوجه خاص انجلز ولينين إلى كومونة باريس كشكل أول، ناقص لكـن أصيل، لديكتـاتـورية بروليتـارية، تكفي لرفض هذه الفـرضية. فديكتاتورية البروليتاريا لم تكن تستبعد أياً من هذه الشروط لكنها لم تكن تشترط تحقيقها. كانت تسمح، على العكس، بتحديد واسع وغير دقيق كذلك الذي قدمه لينين في **المرض الطفولي للشيوعية**: «إن ديكتـاتـورية الـبروليتاريا نضال عنيد، دامٍ وغير دامٍ، عنيف وسلمي، عسكـري واقتصادي، تربوي وإداري، ضد قوى المجتمع القديم وتقاليده[٣٥١]». من جهـة اخـرى وبصـورة مكملة، لم يكن إلغـاء الاقـتراع العـام وبالتالي إلغاء الحقوق الانتخـابية للبـورجـوازية، يشكـلان بالنسبـة للينـين ضرورة لا غنى عنهـا لديكتـاتورية البروليتاريا[٣٥٢]. فالشرح الرسمي لبرنامج الحزب الذي قدمه بوخارين وبريوبراجنسكي في **ألفباء الشيوعية** كان يفسر، من جهتـه، أن عبـارة «الـديكتاتورية» في تعبير «ديكتاتورية البروليتاريا» «تعني نمط حكم صارم بوجه خاص والكثير من الحـزم في قمع الاعداء»[٣٥٣]. وكان الماركسيون طبقوا من جهة اخرى على نظام السيطرة البورجوازية عبارة الديكتاتورية في حين أنه لم يكن يستبعد «سيادة القانون»، أو وجود بعض الحريات السياسية التي كان في وسـع الـبروليتاريا بالذات أن تتمتع بها وتستفيد منها كفاية لتعزيز قوتها وتهيئة وصولها إلى السلطة. وهذا يعني أن ديكتاتورية البروليتاريا كانت تحتمل أشكالاً متنوعة. فالظروف كان يمكنها أن تعطيها الشكل الأقسى والتعابير الأشد جوراً. لكن لم يكن مستبعداً أيضاً أن تنتج

(*) انظر أعلاه، ج ١، ص ٢٦٠ وما بعدها.

نظاماً أقل صرامة يكمن شرطه الذي لابد منه sine qua non في تنظيم هيمنة الطبقة العاملة عن طريق تنسيق بُنى سياسية وعلاقات بين الطبقات إذ تنتزع من البورجوازية التأثير والوزن والسيطرة التي كانت تحوزها تحـوِّل احتكارها الى البروليتاريا الظافرة. إن لينين بالذات إذ قبل بهذا التفسـير لديكتاتورية البروليتاريا، صوَّر في كانون الاول ١٩٢٠ «فترة الانتقال من الرأسمالية إلى الشيوعية، كالفترة التي «تعود فيها الهيمنة إلى الطبقة الوحيدة التي ثقفتها الرأسمالية بهدف الانتاج الكبير(*)».

بعـد قول ذلـك، يبقى أن نوضح الدور الذي تمارسه البروليتاريا بالذات في نظام الديكتاتورية هذا. هل ستكتفي بأن تكون المستفيد منه؟ أو أن وظيفة الهيمنة والديكتاتورية الخاصة بها تعني تدخلاً مباشراً في القرار السياسي والتسيير الاداري؟ إن الطابع الديمقراطي العميق وشبـه الفـوضوي للدولة والثورة وكتابات اخرى يكشف فيها لينين الاستعدادات الذهنية ذاتها لا تترك أي شك يحوم حول هذا الموضوع: لم يكن ينبغي أن يوجد بين الطبقة حائزة السلطة وممارسة هذه السلطة عائق تمثيلٍ مؤسَّس ولا حاجز تفويض للصلاحيات. كان الحكم بالذات أمراً يجب أن تمارسه البروليتاريا. وقد أعلن لينين من جهة اخرى في معرض المساجلة مع كاوتسكي أنه «ليس صحيحاً بتاتاً أنه ليس في وسع طبقة أن تحكم، فهكذا حماقة لا يمكن أن تأتي إلا من «أحمق برلماني[٣٥٤]».

ألأن البلاهة الرجعية وحدها كان يمكنها أن تفسر التشكك أو الشك البسيط، لم يهتم لينين أبداً بتبرير رأي ليست بداهته مع ذلك أمراً لا جدال فيه؟ أو لأن التجارب الاولى للثورة الروسية ـ فضلاً عن النوايا السجالية التي عبّرت عن نفسها بالتأكيد الأكثر جزماً ـ منحت نوعاً من الحظوة لفكرة الممارسة المباشرة للسلطة بواسطة الطبقة البروليتارية بالذات؟ والواقع في كل حال هو أن تدخلها كان حاسماً ونوعاً ما لا ينقطع، وأن الجماهير لـم تأبـه كثيـراً بالبنى والأواليات المؤسساتية، ومارست ضغطها دون أي وساطة، سواء في الثكنات أو في الارياف والمصنع حيث ظهرت الرقابة العمالية قبل النص التشريعي الذي منحها قانونيتها وبقيت حية دون أن تأخذ أبداً بالحسبان المحاولات الرسمية لتقنيتها(**). صحيح أخيراً أنه في عام ١٩١٧ وخلال قسم من عام ١٩١٨ مثلت الجماهير القوة السياسية الاكثر اهمية، المتفوقة من حيث الـديـنـاميكية والفعالية على كل عامل آخر من عوامل الحياة العامة. وثمة أمثلة كثيرة على خضوع الحزب البلشفي لهذه القوة الأولية بحيث لا يمكن نكران أن الحكم كان بمعنى ما في تلك الفـترة للبروليتـاريا بالـذات، إذا سحبنا على الأقل من مفهوم «الحكم» هذا أي

(*) لينين، **المؤلفات**، ج ٣٢، ص ١٣. التشديد من وضعنا.

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ١٦٦ وما بعدها.

مضمون شكلي وبالأحرى حقوقي ومؤسسي. فعلى أنقاض الحكومة المؤقتة والبورجوازية، في الفراغ الذي خلقه غياب السوفييتات المبنية structurés وضعف الحزب البلشفي على صعيد التنظيم، لم يكن ثمة قوة فعلية في روسيا غير قوة البروليتاريا في وسع «ديكتاتوريتها»، هي وحدها، التي يكاد يكون تم تأسيسها، أن تقطع آخر الخيوط التي تربط المجتمع السوفياتي إلى العالم البورجوازي القديم.

تلك الفترة التي كانت الثورة لا تزال تستفيد فيها، رغم هزائمها الاولى، من تحفيزاتها الاصلية، لم تدم طويلاً. فديكتاتورية البروليتاريا التي كانت واقعاً ـ على الأقل بالمعنى الذي وصفناه ـ كانت واقعاً هشاً لم يكن في وسعه الصمود طويلاً بعد استنفاد الطاقة السياسية، أو فقط الجسدية للبروليتاريا. ففي آب ١٩١٩ ـ مع قدر من التأخر بلا ريب بالنسبة للحدث ـ سلّم لينين بأن «الحزب البلشفي هو الذي يمارس ديكتاتورية البروليتاريا(٣٥٥)». وللتخفيف من اهمية هذا الاعتراف أضاف مع ذلك أن الحزب «كان قد ذاب في البروليتاريا الثورية بكاملها(٣٥٦)». كانت أطروحة تماهي الطبقة والحزب تُنحّي أطروحة الاستبدال.

ومنذ ما قبل آب ١٩١٩، كان قد اعترف لينين مع ذلك ضمنياً بأن ديكتاتورية البروليتاريا قد ولّت. ففي كراس يعود إلى آذار ـ نيسان ١٩١٩، بعنوان **نجاحات سلطة السوفييتات وصعوباتها**، كان قد أكد أن «العمال المتقدمين فقط يمكن أن يقودوها (الثورة الاشتراكية، م. ل.) واعترف بأن «أفضل قوانا قد استنفدت وأنهكت، واستُهلكت..(٣٥٧)». وكذلك، أثناء جلسات المؤتمر البلشفي الثامن، في الفترة ذاتها: «إن شريحة العمال الذين قادوا البلد في الواقع.. رقيقة بصورة غير معقولة في روسيا»؛ «لا أحد سيكون في وسعه الاعتقاد بأن هذا (قيادة البلد وادارته، م. ل.) أمكن تحقيقه بواسطة قوى عمالية بهذا القدر من الضآلة(٣٥٨)». «إن السوفييتات التي تشكل، تبعاً لبرنامجها، أجهزة حكم **بواسطة الشغيلة**، هي في الواقع أجهزة حكم **لأجل الشغيلة**، تمارسه الشريحة المتقدمة من البروليتاريا لا الجماهير الكادحة(٣٥٩)»؛ «إن شريحة العمال التي تحكم **رقيقة** بصورة مفرطة وغير معقولة(٣٦٠)». وهذا الاعتراف يعود إلى بداية ربيع عام ١٩١٩ وحقيقة هذه الواقعة تسبق هذا التاريخ بالطبع.

إن ديكتاتورية البروليتاريا بوصفها كذلك لم تعد واردة إذاً، ولا حتى ديكتاتورية بروليتاريا لا أكثر. مع ذلك، كان من الصعب التخلي نهائياً عن هذا الوهم المتحول مع الوقت والمرارات المتزايدة إلى تبرير ايديولوجي للنظام السوفياتي. فمراراً مختلفة، أعطى لينين البروليتاريا وظائف وصلاحيات لم تعد تلك الخاصة بها(٣٦١). ومع ذلك، ففي ظرف مهم، خلال جدال نقابي استخلص خلاله بعض السمات الاكثر أساسية لنظام السوفييتات السياسي والاجتماعي أعلن ما يلي: «إن التنظيم الذي يجمعها (البروليتاريا، م. ل.) كلها عاجز عن

أن يمارس ديكتاتورية مباشرة، ليس فقط عندنا، في أحد البلدان الرأسمالية الاكثر تأخراً، بل كذلك في كل البلدان الرأسمالية الاخرى». وخلص لينين إلى القول: «الطليعة وحدها التي امتصت الطاقة الثورية للطبقة، هي التي تستطيع ذلك[٣٦٢]».

في الفترة ذاتها تقريباً تكلم لينين على «الانحطاط الطبقي» للبروليتاريا وظن، ليس من دون بعض التهويل، أن في وسعه ملاحظة «اختفائها»(*). كان الحزب، الذي لم تعد مماهاته ممكنة مع بروليتاريا «منحطة طبقياً»، يحاول الآن أن يملأ فراغاً سياسياً كانت تهدده الفوضى الكاملة أو القوى المخاصمة الخاصة بالمنشفية المنبعثة، وبالرجعية أيضاً. كانت بعض اشكال هيمنة اجتماعية للطبقة العاملة باقية وحدها على أنقاض ديكتاتورية بروليتارية استعارت أشكال اندفاع أولي وغير رسمي ولم تكن أية محاولة مؤسسية قد سعت لصيانتها. وكان سحق البورجوازية مستمراً في الشهادة بذلك. إن وجود بيروقراطية سوفياتية تختلط مصالحها بإلغاء الرأسمالية وتحتفظ العناصر البروليتارية فيها بمكانة مهمة كان يشكل نفياً لها وفي الوقت ذاته، وبصورة غريبة، حفاظاً عليها. فوق كل شيء مع ذلك فإن العمال المنهكين لكن الظافرين، حراس ثورة كانوا قد ضمنوا وحدهم إنقاذها، كانوا يحتفظون بإخلاصهم لنظام بروليتاري. كانت خيباتهم بالذات بمستوى المكاسب التي سبق أن انتزعوها والتي منعهم انعزال روسيا في التحليل الاخير من قطف ثمارها.

ذلك انه كانت لمسرح الثورة أبعاد العالم، وكان مصير المشروع اللينيني يُلعَب في النهاية على المستوى العالمي في خنادق الغرب المتأزم ومصانعه بقدر ما في أرياف روسيا المدمَّرة ومدنها.

(*) انظر اعلاه، ج ٢، ص ١٨٨.



القسم الرابع

اللينينية خارج روسيا



الفصل الأول

الثورة الروسية والثورة العالمية

كانت روزا لوكسمبورغ قد كتبت في الكراس الذي خصصته للثورة الروسية: «كان يمكن طرح المشكلة في روسيا، لكن لم يكن بالإمكان حلها»[1]. هل كان ذلك واحداً من انتقادات عديدة وجهتها الثورية السبارتاكية لمشروع لينين؟ كلا على الاطلاق. فحول هذه النقطة الاساسية، لم يحدث أي خلاف بينهما وكان في وسع مؤسس النظام السوفياتي أن يعلن تبنيه صيغة لوكسمبورغ بالكامل ودون شروط. فاللينينية لا تنفصل في مشروعها الثوري عن الأممية.

وفي الواقع، كان لينين يعلن أن «الاشتراكية الناجزة لا يمكنها أن تَنْتُج إلا من التعاون الثوري لبروليتاريي جميع البلدان وبعد محاولات عديدة ستكون كل منها، منظوراً إليها على حدة، وحيدة الجانب وتعاني من نوع من انعدام التناسق[2]». مذاك لم تكن الثورة الروسية غير حلقة عملية أوسع؛ وكما كان يقول لينين في كانون الاول ١٩١٧، لا شيء غير «بدء الثورة الاشتراكية العالمية[3]» والجماهير التي قامت بها «فصيلاً من.. (الـ) جيش العالمي[4]» المكوَّن من البروليتاريا العالمية. كانت «الطبقات الكادحة والمستغَلة في روسيا طليعة الثورة الاشتراكية العالمية..: لقد بدأ الروسي، وسوف يكمل الالماني والفرنسي والانكليزي وستنتصر الاشتراكية[5]». ليس مدهشاً إذاً أن يكون عمل الطليعة الروسية ومبادراتها الهجومية ومجمل استراتيجيتها قد خضعت لوضع «الجيش العالمي». كان الجزء يتوقف على الكل والنقاشات التي تمت في الحزب البلشفي حول ملاءمة تفجير ثورة اوكتوبر تناولت

الاستعداد الثوري للبروليتاريا الغربية بقدر ما تناولت الاستعداد النفسي للجماهير الروسية، في حين برر اليمين حذره بـ خمولها الظاهر بينما كان لينين يندد بتردد كامينيف وزينوفييف وقادة آخرين وبرفضهم الهرع لنجدة الفصائل النشطة للاشتراكية الثورية في أوروبا(*). وفي اليوم الذي تم فيه الاستيلاء على السلطة بالذات اكد علانية ثقته بالحركة العمالية العالمية «التي ستساعدنا في هذا النضال»[٦].

إن قلب الحكومة المؤقتة وإرساء النظام السوفياتي لم يضعا حداً لهذا النقاش. والقرارات الكبرى التي كان على البلاشفة أن يتخذوها خلال الاشهر الاولى التي تلت الانتفاضة كانت، هي أيضاً، مرتبطة بشكل وثيق بالوضع الاجمالي للحركة الثورية. كانت هذه هي الحال، بصورة بديهية، بالنسبة لصلح بريست ـ ليتوفسك حين دافع الشيوعيون اليساريون عن فكرة حرب ثورية عن طريق التذرع بالنزعة الاممية وبواجبات البلاشفة حيال البروليتاريين الغربيين، وبرر لينين تكتيكه الخاص انطلاقاً من حالة انعدام الاستعداد لدى الجماهير الثورية الالمانية(**). وقد توسّع السجال حول مشكلة الائتلاف ـ الذي كان يرتبط في الظاهر بالسياسة الداخلية ـ توسَّع أيضاً إلى الأبعاد العالمية. كانت تلك بوجه خاص حالة مفوض الشعب للصناعة والتجارة، نوغين، الذي إذ أعلن أن «الغرب يسكت بصورة مخزية»، أثار غضب لينين، الذي تدخل في النقاش ضد نوغين وأنصاره واعلن بعد أن امتدح بشدةٍ نضال «البحارة الثوريين للاسطول الالماني» ونضال السبارتاكيين: «إننا نؤمن بالثورة الغربية، ونعرف أنها حتمية[٧]». وحين كان يجري التعبير في تلك الفترة عن وجهة نظر متشككة بصدد الاستعدادات الثورية للطبقة العاملة الاوروبية، رد لينين بحيوية لدحض هذا التشاؤم(***).

هذه الثقة لا يمكن بخس تقديرها. فكرافد أساسي من روافد الاستراتيجية الثورية اللينينية، كانت في القلب بالذات من مشروع عام ١٩١٧ وحكمت إلى حد بعيد قرار خوض المعركة الحاسمة ضد البورجوازية الروسية. وقد اعترف لينين بذلك في عودةٍ إلى الوراء ودون أدنى التباس. فبمناسبة الذكرى الثالثة للاستيلاء على السلطة، أكد مثلاً: «لم نكن بدأنا عملنا إلا لأننا كنا نعتمد بالكامل على الثورة العالمية[٨]». وبوجه خاص أمام المؤتمر الثالث

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ١٨٨.

(**) انظر أعلاه، ج ٢، ص ١٠٩.

(***) انظر رده على ستالين (**البلاشفة وثورة اوكتوبر**، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩). وعلى الفوضوي غي Gué (لينين، **المؤلفات**، ج ٢٧، ص ٣١٩).

للأممية الثالثة، في تموز ١٩٢١: «حين «باشرنا.. **الثورة العالمية**(*)، لم نفعل ذلك مع فكرة أن في وسعنا استباق تطورها، لكن لأن تضافر ظروفٍ حثنا على البدء. فكرنا كالتالي: **إما أن الثورة العالمية ستهرع لمساعدتنا، وحينئذ ستكون انتصاراتنا مضمونة بصورة مطلقة، أو** أننا سنحقق مهمتنا الثورية المتواضعة مع الشعور بأننا، في حال الهزيمة، نكون خدمنا مهما يكن قضية الثورة وتفيد تجربتنا ثورات اخرى. كنا نفهم تماماً أنه من دون دعم الثورة العالمية، يستحيل انتصار الثورة البروليتارية. وقبل الثورة كما بعدها كنا نقول: **إما أن الثورة ستندلع في البلدان الرأسمالية الاكثر تقدماً، على الفور، وإلا في مدى قريب، أو أننا سنهلك**(**)».

ذلك كان الرابط الوثيق والحاسم، في البدء، بين الاستيلاء الشيوعي على السلطة في روسيا بالذات والقناعة بأن هذا العمل الجريء لم يكن له معنى إلا في سياق هجوم عالمي. هذا الرابط لم يرتخ بمقدار ما اضطر المشروع السوفياتي للرد على تحفيزات داخلية وجعل حدود انغراسه الاقليمي إطاراً لعمله المباشر. فكما شدد لينين حوالي نهاية حياته، «كان الدعم السريع والمباشر والفوري (من جانب «الجماهير العاملة في العالم أجمع»، م. ل.) أساس كل سياستنا»[٩]. وباستمرار ملحوظ أوقف لينين النصر النهائي للاشتراكية في روسيا، في الواقع، على اتساع النطاق الثوري، وبوجه خاص على امتداده إلى العالم الرأسمالي المتقدم. ويمكن من هذه الناحية مضاعفة استشهادات أهميتها أعظم بمقدار ما ترتبط المشكلة التي تثيرها بمشكلة «الاشتراكية في بلد واحد» التي غذت كثيراً المساجلة بين الستالينيين والتروتسكيين.

- **كانون الثاني ١٩١٨**: «ليس من شك في أن الثورة الاشتراكية في اوروبا يجب أن تأتي وستأتي. كل آمالنا بالنصر **النهائي** للاشتراكية ترتكز على هذه القناعة.[١٠]»؛ **وبالتضاد**: «يستحيل النصر النهائي للاشتراكية في بلد واحد[١١]».

- **شباط ١٩١٨**: «نحن نراهن على انتصار الاشتراكية في أوروبا... هذه حقيقة فلسفية وتاريخية لا جدال فيها، إذا عانقنا عصر الثورة الاشتراكية بمجمله».

- **آذار ١٩١٨**: «إذا نظرنا للأمور على المستوى العالمي، من المؤكد بشكل مطلق أن انتصار ثورتنا النهائي سيكون يائساً... إذا اضطرت للبقاء معزولة. فإذا كان الحزب البلشفي اضطلع لوحده بالموضوع، فقد كان ذلك مع القناعة بأن الثورة تنضج في كل البلدان وأنه في نهاية النهايات - وليس في بداية البدايات -... سوف تأتي الثورة الاشتراكية العالمية[١٣]»

(*) التشديد من وضعنا.

(**) لينين، **المؤلفات**، ج ٣٢، ص ٥١١؛ التشديد من وضعنا.

وأيضاً: «في كل حال، أياً تكن التقلبات التي يمكن تصورها، سوف نهلك إذا لم تأت الثورة الالمانية[14]».

ـ تموز ١٩١٨: «إن الشرط الذي لا غنى عنه والمقدمة المنطقية الأساسية... لانتصار البروليتاريا الروسية إنما هو التدخل الموحد لعمال العالم بأسره، أو لبعض البلدان المتطورة من وجهة النظر الرأسمالية[15]».

ـ **كانون الاول ١٩١٩**: «لا يمكن اعتبار انتصار الثورة الاشتراكية نهائياً إلا حين يصبح (هذا الانتصار) انتصار البروليتاريا على الأقل في عدة بلدان متقدمة[16]».

ـ **تشرين الثاني ١٩٢٠**: طالما لن تمتد الثورة إلى «كل البلدان، بما فيها الاشد غنىً والأكثر تحضراً»، «لن يكون انتصارنا إلا نصف انتصار، وربما أقل أيضاً»[17]؛ وفي الموضوعة ذاتها: من دون هذا «الانتصار للثورة البروليتارية في كل البلدان الرأسمالية أو، على الأقل، في العديد من البلدان الرأسمالية الرئيسية، لا يمكن أن يكون ثمة «انتصار دائم» «بالنسبة إلينا[18]».

كان لدى لينين إذاً قناعة بأن الثورة البلشفية، ولاسيما «جهودها» و«تضحياتها» لم تكن غير «**الانتقال** من اجل التحول الى الثورة العالمية(*)». لكن كان ثمة شيء آخر أيضاً: كان الارتباط بين الثورة الروسية والثورة البروليتارية العالمية مُدْرَكاً بصورة جد وثيقة ومتصوَّراً بصورة صارمة إلى حد أنه جرى تقديم الاطوار الرئيسية للسياسة **الداخلية** السوفياتية كردود على التطور الاجمالي للحركة الثورية الاوروبية. فمنذ تشرين الثاني ١٩١٧، مثلاً، شرح لينين للمؤتمر الروسي الكبير لسوفييتات الفلاحين أن «التطبيق الكامل» للمراسيم حول الأرض التي اصدرتها السلطة الجديدة كان يتوقف على «التحالف الوثيق للفلاحين الكادحين والمستغَلين مع الطبقة العاملة، البروليتاريا، في كل البلدان المتقدمة[19]». وفي كانون الاول ١٩١٨، أكد من جديد في خطابه امام المؤتمر الاول للفروع الزراعية، وللجان الفلاحين الفقراء ولكومونات روسيا أن تقدم تشريك الأرياف الروسية مرتبط بتقدم الثورة العالمية[20]. وبعد نهاية الحرب الأهلية، حين أدت الأزمة الاقتصادية إلى تغيير عميق في السياسة السوفياتية وإلى التراجع نحو النيب، جرى عزو هذه «الصعوبات الكبرى» إلى واقع أن «الرأسماليين الغربيين نجحوا في وضع حد للحرب عن طريق تأجيل الثورة[21]». ولقد كان تأخر الثورة العالمية هو السبب في أن السلطة السوفياتية وجدت نفسها مضطرة لتطبيق الاقتصاد السياسي الجديد[22] ولـ «**وضع نفسها في مدرسة رأسمالية الدولة الالمانية**[23]». ولقد

(*) لينين، **المؤلفات**، ج ٢٨، ص ١٥٨. التشديد من وضعنا.

بدا لنا من جهة اخرى ان التراجع الواضح لتفاؤل لينين، والتخلي عن افكاره «الفوضويه» والشعور بأنه تلت فترة الهجمات والفتوحات الثورية حقبة انكفاءات كانت النتيجة المباشرة لصلح بريست ـ ليتوفسك(*). وإن أول هزيمة بلشفية إنما حدثت على المستوى العالمي. وقد ظهرت نتائجها في كل قطاعات الحياة العامة في روسيا السوفياتية بالذات.

وهذا يعني أن زعم بناء نظام اشتراكي ناجز في بلد واحد لا يمكن إلا أن يكون غريباً عن اللينينية، حيث أن مؤسسه أعلن بصراحة أنه «من المستحيل أن تنجز (روسيا) بقواها الخاصة، وبصورة كاملة، الثورة الاشتراكية»[24] وكرر خلال الاحتفال بالذكرى الاولى للاستيلاء على السلطة أن «النصر النهائي للثورة الاشتراكية أمر لا يمكن تصوره في بلد واحد»[25]. والأمر كان كذلك بالأحرى منذ اللحظة التي حوّل فيها التاريخ إلى قلعة ثورية بلداً لم يكن لينين ينفك يشدد على تأخره الثقافي والاقتصادي(**)، طالباً من مواطنيه ألا «يلعبوا لعبة الضفادع» عن طريق «نفخ.. أهميتهم» وإلا تعرضوا لـ «هزء العالم بأسره»[26].

صحيح أنه في كراسه حول **الضريبة العينية**، المنشور في ربيع عام ١٩٢١، كان يتصور بفضل الكهربة «الانتقال المباشر» من «نصف الهمجية» القائمة في روسيا إلى مجتمع اشتراكي. فلقد كتب: «إذا قدمنا الطاقة الكهربائية إلى كل القرى.. وإذا كان لدينا كمية كافية من المحركات الكهربائية وآلات اخرى، لن نكون بحاجة، أو على وجه التقريب لن نكون بحاجة لدرجات انتقالية، ولحلقات وسيطة من اجل العبور من النظام البطريركي الى الاشتراكية». لكنه كان يضيف في الحال أن «هذا الشرط (وحده) يتطلب عشر سنوات على الاقل لاعمال الشريحة الاولى وحدها»[27]. وأكد في مقاله الأخير أنه «من الافضل فعل الاقل شرط أن يكون أحسن»: «لسنا متحضرين كفاية لنستطيع الانتقال فوراً الى الاشتراكية[28]».

وفي الواقع فان المقاييس التي كان لينين عددها على أنها تؤسس المجتمع الاشتراكي وتضمن تفوقه على الرأسمالية وهي تتناول الثقافة قدر ما تتناول الاقتصاد ـ تضاف إليها السيرورة السياسية الخاصة باضمحلال الدولة ـ كانت واضحة وآمرة. ولم يكن لها معنى إلا بالنسبة لاشكال عليا من الحضارة تشكل الرأسمالية المتقدمة المقدمة المنطقية الضرورية إزاءها. ولقد كان تخيل «الاشتراكية في بلد واحد» يعني افتراض انه بالامكان بناء سور على امتداد الحدود يفصل البلد المشار اليه عن النظام العالمي الذي لم يكن أيٌّ من روافده غير القسم الخاضع بصورة وثيقة لكل. وفقط مَثْلنة الانعزال السوفياتي ـ التي لم يستسلم لها لينين أبداً، مثلما لم

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٢٥ وما بعدها.

(**) انظر أدناه، ص ٢٧٠، وما بعدها.

يمثلن الإكراهات التي كانت نتائج ذلك ـ واحتقار ستالين للنظرية يمكن أن يفسرا كيف أن مبدأً متعارضاً إلى هذا الحد مع اللينينية أمكنت نسبته إليها بعد اختفاء مؤسسها وإخراس أنصاره الأكثر أصالة.

من أجل الاعتقاد بإمكانية خلق مجتمع اشتراكي بالكامل ضمن حدود روسيا حصراً، كان ينبغي فضلاً عن ذلك إدارة الظهر لمنظور الثورة العالمية هذا الذي كانت اللينينية تتماهى معه. صحيح أن تفاؤل الثوريين الروس الذين كانوا يرون في مبادرتهم الخاصة بهم مدخلاً إلى حريق عالمي شامل أمر كذبته الوقائع. ومن بعض النواحي، ليست الستالينية غير إيديولوجية نزع هذه الأوهام وهذه الهزيمة. أما لينين، من جانبه، فلم يفكر بالاستسلام لذلك.

فبعد أن اعتقد في كانون الثاني ١٩١٨ ان حتمية الثورة الاشتراكية في أوروبا «توقع علمي»[٢٩]، وأعلن في نيسان ١٩١٩، في فترة الثورة الهنغارية، أن «أشهراً قليلة تفصلنا عن الانتصار على الرأسمالية في العالم بأسره»[٣٠]، أخذ علماً بالتأخر الذي سجله نمو الحركة الثورية الاوروبية. ولاشك أن ذلك لم يُمِضَّه بقدر ما أمضَّ آخرين لأنه باستثناء ظروف نادرة جداً، كان قد امتنع عن توقع السقوط الوشيك للرأسمالية العالمية. على العكس، ففي حين كان بعض رفاقه في القتال يعتبرون أن امتداد الحريق واندلاع الثورة في اوروبا أمر وشيك، كان هو يقول إنه «ليس بالامكان إطلاقاً توقع الوقت المرجَّح للانفجار الثوري ولقلب حكومة امبريالية اوربية ما[٣١]». وقد كان هذا الحذر اساس سياسته عام ١٩١٨ وحفَّزه للقبول بالشروط التي فرضتها معاهدة بريست ـ ليتوفسك. فبعد أن اعترف بأن الثورة البروليتارية قد تتم بصورة أصعب في أوروبا الوسطى والغربية مما في روسيا لأن «البورجوازية هناك أقوى وأشد ذكاء» ولأن «العمال يتمتعون ثمة ببعض الرفاه[٣٢]»، لا يبدو أنه شارك في تشرين الثاني ١٩١٨ في الابتهاج الذي استولى على الشيوعيين الروس لدى التبشير بسقوط الامبراطورية الالمانية. لاشك أنه أطلق في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ هذه الجملة: «إننا نعيش أياماً سعيدة[٣٣]»، لكن هذه الصيحة من القلب، التي لم يكن معتاداً عليها، تجد تفسيرها في الاهمية الاستثنائية التي كان يوليها لألمانيا وحركتها العمالية. فإذ كان مقتنعاً بأنه «من وجهة نظر الثورة العالمية، الحلقة الرئيسية في هذه السلسلة هي الحلقة الالمانية[٣٤]» وبأن «ثورة بروليتارية ظافرة في المانيا، قد تحطم دفعة واحدة، وبسهولة كبرى، كل توقعات الامبريالية... وتضمن انتصار الاشتراكية العالمية»[٣٥]، شارك في الفرح والحماس اللذين طبعا لبعض الوقت مناخ العاصمة السوفياتية. وكما تذكر كروبسكايا، فخلال تلك الايام الحماسية، «كان يخاطب الجماهير باستمرار ووجهه يشع سعادة... لقد كانت تلك الايام «أسعد أيام حياته»[٣٦]. إلا أنه لم يتخل عن بعض الحذر، وحين التقاه الصحفي الانكليزي

فيليبس برايس في تلك الفترة، وأجرى معه لقاء طويلاً، اذهله أن يلاحظ أن لينين لا يشعر بالتفاؤل الذي كان يجري إبرازه في موسكو باستمرار بصدد قرب الثورة العالمية[٣٧].

لم تسقط الرأسمالية الغربية. فلقد منيت الحركة الثورية الالمانية في كانون الثاني ١٩١٩ بهزيمة أولى. لكن ثقة لينين في المسيرة إلى الأمام للحركة الثورية العالمية تغذت بتقدم الأممية الشيوعية. هكذا أعلن في آذار ١٩٢٠: «إن الأممية الثالثة تسير من نصر إلى نصر». وقد كان يعتقد، إزاء كل شيء وضد كل شيء، بالتضامن الأساسي للعمال الغربيين مع الثورة الروسية ويمنح هذا التضامن أعظم الأهمية. كان يجد فيه السبب الرئيسي لفشل التدخل الامبريالي في روسيا: «لقد كان العمال إلى جانبنا، الأمر الذي كان لابد أن يقرر مصير الحرب[٣٩]». وجرى اعتبار العصيانات القليلة التي حدثت في صفوف القوات المتحالفة القادمة لنجدة الثورة المضادة الروسية كإثباتات على التحالف بين ثوريي روسيا والبروليتاريا الغربية[٤٠]. هذا الإلحاح على تضامنٍ كان ينبغي أن تعبر الاممية البروليتارية عبره عن نفسها ألم يكن يسعى للحد من الآثار التي قد يؤدي اليها فشل الثورة العالمية في تفكير الشيوعيين الروس، والحيلولة عن طريق ذلك بالذات دون تلازم انعزال روسيا مع طفرة قومية؟ إن النضال الذي واصله لينين ضد الشوفينية الروسية الكبرى وضد عقدة التفوق التي كانت تترصد البلاشفة(*) يعطي هذه الفرضية قدراً من الصحة.

إذا كانت الثقة بالفضائل الثورية للبروليتاريا الغربية وبقدرتها على استغلال أزمة الرأسمالية التي أثارتها الحرب تشكل اساس استراتيجية لينين بالذات، فلقد كذبت الاحداث التي حصلت في أوروبا بعد عودة السلام التفاؤل الذي كان يدعو الى الاعتقاد باحتضار المجتمع البورجوازي. وإذا كان لينين استمر يعتقد في نيسان ١٩١٩ بأنه قادر على تصوير الرأسمالية العالمية كـ «شيخ في أقصى درجات العجز، محتضر، ولا يمكن شفاؤه[٤١]»، فلقد اعترف بعد عام بأن هذه الرأسمالية ذاتها، «مأخوذة» على النطاق العالمي، لا تزال اليوم أقوى من السلطة والنظام السوفياتيين»، مضيفاً أن هذه «ملاحظة أولية»[٤٢]. وقد أكد هذا الرأي في تشرين الثاني ١٩٢٠[٤٣] وأصدر خلال خريف ١٩٢١ حكمًا أكثر تشاؤماً أيضاً؛ فقد كتب: «يتطور العالم بأسره، بسبب الوضع القائم، بصورة أسرع مما نتطور نحن[٤٤]». وليس من شك في أن فشل الهجوم السوفياتي، الذي رد في بولندا على عدوان بيلسودسكي، كان خيبةً كبرى بالنسبة للينين. فلقد كان راهن خلال الاندفاع العسكري للجيش الاحمر على دعم البروليتاريين البولنديين وساهم هذا الخطأ في الحكم في تبديد الآمال التي كان لا يزال يعقدها

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٩٣، وص ١٧٨ وما بعدها.

بالنسبة لقرب الثورة العالمية. لاشك انه استمر حتى نهاية حياته يعتقد أن هذه الثورة مكتوبة في العلاقات بين العالمين وأن تطورهما سيضعها عاجلاً أو آجلاً على جدول الاعمال[٤٥]. لكنه بقي على الحذر الذي بات يحس به منذ فترة بريست ـ ليتوفسك. ومذاك حكم ذلك الحذر الاستراتيجية المعقدة للسياسة الخارجية التي اعتمدها النظام السوفياتي(*)، هذه الاستراتيجية التي يمكن اختصار ضروراتها الأشد اهمية كالتالي: تأمين «ثبات» القلعة البروليتارية التي تشكلها روسيا السوفياتية مع تقديم دعم متعدد الاشكال، في الوقت نفسه، للحركة الثورية العالمية.

في كانون الثاني ١٩١٨، في الفترة التي كان فيها قسم كبير من القيادة البلشفية لا يزال يعتقد بحزم بالقوة التوسعية للثورة السوفياتية، كان لينين قد أعلن ان الأمر يتعلق بإيجاد وسيلة للسلطة العمالية كي «تصمد في بلد واحد حتى الحين الذي ستنضم فيه بلدان اخرى اليها». ولم تخامره بتاتاً فكرة قدرة الشيوعيين الروس على تطوير تجربتهم الاشتراكية الخاصة وبناء مجتمع بروليتاري، هو مرحلة لا غنى عنها باتجاه الشيوعية، من دون قيام الثورة البروليتارية العالمية. على العكس تماماً: طالما أن إبلال الرأسمالية العالمية كان يبقي روسيا في عزلة كاملة، كان من الضروري إحلال مشروع اكثر تواضعاً بكثير محل طموحاته الاصلية؛ طالما أن بلد الثورة الشيوعية كان يبدو أكثر فأكثر كـ «قلعة في حالة حصار[٤٦]»، لم يعد وارداً إطلاقاً أكثر من «صيانة (هذه القلعة)... مهما تكن ضعيفة ومتواضعة[٤٧]»، و«الصمود في المكان حتى تكون حليفتنا، البروليتاريا العالمية، قد قويت بشكل كافٍ[٤٨]». «الثبات»، «الصمود في المكان»، «التذاؤب(**) والتراجع إلى الخلف[٤٩]»، هكذا كانت تتلخص السياسة الدفاعية التي اضطرت لاعتمادها روسيا السوفياتية والتي كان تقويمها يتوقف بشكل جوهري على نجدة خارجية: «الثبات حتى الحين الذي سوف يقدم لنا فيه العمال الثائرون في البلدان الاخرى دعماً عظيماً[٥٠]». كانت الفكرة واضحة وتتكرر باستمرار، احياناً بعبارات شبه مُشْجِيَة: «يتطلع الينا عمال كل البلدان بأمل. انتم تستمعون الى صوتهم يقولون: «اصمدوا قليلاً أيضاً... سوف نهرع لنجدتكم[٥١]». لم يكن يتعلق الأمر أخيراً بشيء غير «كسب الوقت في حين يهيىء رفاقنا الاجانب ثورتهم بنشاط[٥٢]». وهو طموح أقل تواضعاً وتحقيقه أقل سهولة مما يبدو لأن هذا التحقيق كان يبدو للينين محفوفاً بالاحتمالات. ألم يكتب في مقاله الاخير: «من الافضل أقل شرط أن يكون أحسن»: «ليس سهلاً علينا أن نثبت حتى انتصار الثورة

(*) انظر أدناه، ص ٢١٣ وما بعدها.

(**) Louvoyer من Loup أي الذئب. وبالتالي التلوي مع الريح كما يفعل الذئب (المعرب).

الاشتراكية في البلدان الاكثر تقدماً[٥٣]»؟ وقد طرح السؤال المفعم بالحيرة: «**هل سيكون في وسعنا الصمود. . حتى اليوم الذي تكون فيه البلدان الرأسمالية لأوروبا الغربية قد انجزت تقدمها باتجاه الاشتراكية؟**[٥٤]».

انتظار كهذا لم يكن يستتبع مع ذلك من جانب الثوريين الروس القبول بسياسة انتظارية. فلقد كان الرد على التطويق الرأسمالي يكمن على العكس في مواصلة سياسة خارجية مرنة وحذرة، لكن جاهزة لاستغلال كل نقاط الضعف والتناقضات في المعسكر المعادي(*)، وعن طريق محاولات متجددة تقديم دعم ملموس للحركة الثورية الاوروبية. وينبغي عدم الاندهاش لذلك لأن مصالح الثورة الروسية كانت خاضعة لمصالح الثورة العالمية، كان الجزء خاضعاً للكل: «إننا نسير نحو المعركة الاخيرة. . ليس لأجل الثورة الروسية بل لأجل الثورة الاشتراكية العالمية[٥٥]»، هذا ماكان لينين يقوله عام **١٩١٨**. كان ينبغي إذاً أن تطلق السلطة السوفياتية، «مِشْعل الاشتراكية» هذا، «اكبر قدر ممكن من الشرر على الحريق المتعاظم للثورة الاشتراكية (العالمية، م. ل.)[٥٦]». وقد تزايدت إذاً إعلانات الدعم للعمل الثوري للبروليتاريا الاوروبية - وبوجه خاص البروليتاريا الالمانية(**). وبالرغم من طابعها العام، لم يكن الامر يتعلق بتمارين بلاغة. ففي رسالة خاصة وجهها لينين إلى سفردلوف في **١٠** تشرين الثاني **١٩١٨**، ورد ما يلي: «نحن جميعاً مستعدون للموت من أجل مساعدة العمال الالمان على جعل قضية الثورة التي بدأت في المانيا تتقدم(***)». وكما سنرى، اتخذت المساعدة بالفعل أشكالاً ملموسة ومتعددة، مبينة الروابط العضوية الاشد صلابة والاكثر وثوقاً بين المشروع البلشفي ومشروع الاشتراكية الثورية في العالم(****).

وفي التحليل الاخير، لم يكن لسياسة السلطة البلشفية حيال العالم الخارجي - العالم المعادي للرأسمالية والعالم المنقسم للحركة الاشتراكية العالمية - من هدف غير إعادة عقد

(*) انظر أدناه، ص ٢١٦.

(**) انظر مشروع القرار الذي قدمه لينين في المؤتمر السابع للحزب: «سوف تدعم البروليتاريا الاشتراكية لروسيا بكل قواها وبكل الوسائل التي بمتناولها الحركة الثورية للبروليتاريا الشقيقة في كل البلدان». (لينين، **المؤلفات**، ج ٢٧، ص ١١٦. انظر أيضاً ج٢٧، ص ١٦ و١٥٤؛ ج٢٨، ص ٢٨، ١٠١-١٠٢، ج ٢٩، ص ١٠١ وفي أمكنة اخرى).

(***) **المرجع ذاته**، ج ٣٥، ص ٣٧٢. على هامش الرسالة تشديد لهذه الجملة بواسطة ثلاثة خطوط. إن فكرة ضرورة موافقة روسيا السوفياتية على «أعظم التضحيات» بما فيها «أعظم التضحيات القومية» تتكرر غالباً في نصوص لينين. (انظر مثلاً، ج ٢٧، ص ١٨٩؛ ج ٢٨، ص ١٩١)

(****) انظر أدناه، ص ٢٣١ وما بعدها.

السلسلة المقـطوعـة لاستراتيجية هجومية حيث كان لابد من إعادة لحم الحلقة الروسية، المفصولة لفترة من الوقت، إلى مجمل (الحركة).

الفصل الثاني

الدبلوماسية اللينينية

سياسة لينين الخارجية

في معرض الحديث مع عضو في الحزب البلشفي بعد تعيين تروتسكي بقليل مفوضاً للشعب للشؤون الخارجية، حدد الاخير المهام «الدبلوماسية» التي كان مزمعاً الاضطلاع بها بالشكل التالي: «سوف أصدر بعض البلاغات الثورية ولا يعود عليّ سوى أن أقفل الحانوت[1]». كانوا لا يزالون في الحقبة البطولية للثورة الروسية المتصورة كمشروع عالمي يغذيه هجوم الجماهير والحماس البروليتاري. ألم يكن هذان يجعلان شيئاً من الماضي الأساليب التقليدية للقنصليات وحتى فكرة «علاقات دولية»؟ كان ينبغي أن تمتد الثورة الاشتراكية إلى أوروبا بأسرها، وأن تتخطى هذا الاطار ـ لقد انصرمت إلى الأبد الازمنة التي كانت فيها قضيتا الديمقراطية والاشتراكية مرتبطتين فقط بأوروبا[2]» ـ وأن تؤدي، بعد تشنجات قاسية، إلى سقوط الرأسمالية وتوليد تلك «الولايات المتحدة العالمية (وليس الاوروبية)» التي كان لينين تحدث عنها منذ اب ١٩١٥[3]. وخلال الاشهر التي سبقت الاستيلاء على السلطة في اوكتوبر، كان قد اوضح، فضلاً عن ذلك، الخطوط العريضة لاستراتيجية من شأنها جر الشعوب إلى النضال الثوري: ما أن يتم إرساء السلطة السوفياتية، ستقترح على الدول المتحاربة سلاماً ديمقراطياً؛ وبما أن الامبريالية تجعل سلاماً كهذا مستحيلاً، فالأمم ـ وبوجه خاص البروليتاريات ـ التي سيلهبها المثال الروسي، سوف تختار طريق الثورة من اجل وضع حد للمذبحة. وبقدر ماكان يقترب استحقاق الانتفاضة، ودون إعادة النظر بشكل أساسي

بهذه الترسيمة الجريئة والخطية Linéaire ، بدا مع ذلك أنه أضاف إليها بعض التلطيف(*). ففي الحين الذي وصل فيه بالضبط إلى السلطة، توجب عليه تحديد سياسة خارجية ممحورة بكاملها حول مشكلة السلام، وارتجال تلك السياسة.

أمام المؤتمر الثاني الروسي الكبير للسوفييتات، كانت الحيثيات التي احاطت بـ «المرسوم حول السلم»، هذا المرسوم المهم، تعكس حيرة لينين وتردده: هل كان ينبغي تنظيم تحريض ثوري موجه نحو الشعوب، وبذلك بالذات تسهيل انتهاء الحرب، أو التفاوض على العكس مع الحكومات القائمة، أو العمل في الاتجاهين معاً؟ كانت المشكلة تتخطى من بعيد الظرف القائم: طالما أن البلشفية الظافرة كانت تخاطر بإدخال روسيا البروليتارية في «وفاق الأمم»، هل كانت الثورة التي اصبحت سلطة دولة ستختار الطرائق الملتبسة التي تتحكم بالعلاقات العالمية؟ أو أنها بإدارة ظهرها للأعراف والروتين كانت ستتجاوب مع أماني الشيوعيين اليساريين فتشن وتطور ضد العالم القديم صراعاً تتخلص شراسته من كل شكل من أشكال التشريط الدبلوماسي؟ إن السؤال المطروح هكذا يلخص مأزق السياسة الخارجية السوفياتية؛ وقد سعى لينين للرد عليه ديالكتيكياً حتى اختفائه من على المسرح السياسي.

ففي معرض الكلام على «مرسوم السلام»، أعلن في ليل **٢٥ ـ ٢٦ تشرين الاول ١٩١٧** ما يلي: «يجب توجيه ندائنا الى الحكومات والشعوب في آن معاً». وشرح **موقفه هكذا**: «لا يمكننا أن ننحّي الحكومات جانباً، لأنه عندئذ سوف يتباطأ عقد الصلح، **وهو ما لا** يمكن أن تفعله حكومة شعبية(٤)». وأضاف: «كما أن اقتراحنا الهدنة لا يجب أن **يكون** آمراً، لأننا لن نعطي أعداءنا إمكانية أن يُخْفوا الحقيقة بكاملها عن الشعوب عن **طريق التحصن** خلف تصلبنا(٥)». بعد قول ذلك، كان من المستحسن أيضاً «مساعدة **الشعوب** على التدخل في مسائل الحرب والسلام(٦)»، لاسيما أن «الحكومات والبورجوازية ستبذل كل جهودها للتوحد وخنق الثورة العمالية والفلاحية في الدم(٧)».

كان تاريخ السياسة الخارجية اللينينية في البدء تاريخ مفاوضات بريست ـ ليتوفسك التي بدأت في **٩** كانون الاول **١٩١٧**. ولقد قادها تروتسكي، من الجانب السوفياتي مجتهداً في جعلها تأخذ وقتاً طويلاً. وقد أيد لينين هذا التكتيك التسويفي: ففي مشروع قرار كتبه لتقديمه امام مجلس مفوضي الشعب، اختصر هكذا وجهات نظره في هذا الصدد: «مواصلة مفاوضات السلام ومعارضة قيام الإلمان بتسريعها»؛ «دعاوة لصالح حرب ثورية(٨)». ذلك ان الحكومة الجديدة كانت ممزقة بين متطلبين اثنين ومتناقضين عند الاقتضاء. كان عليها،

(*) انظر أعلاه، ج ١، ص ٢٤١.

بصورة بالغة الالحاح، ان تبرهن للجماهير الروسية ان وعدها بوضع حد للحرب سوف **يتحقق في أقرب وقت ممكن** - أعلن لينين فيما بعد أمام المؤتمر الحادي عشر للحزب[٩]: «الخروج من الحرب؛ كل الشعب كان يشترط ذلك، وكانت لهذا الاولوية المطلقة؛ لكن كان الامر يتعلق في الوقت ذاته بإعطاء البروليتاريا الغربية الوقت لتقوية استعداداتها الثورية، واعطاء تمرد الشعوب الفرصة للتخمر والنمو». لذلك فإن لينين، إذ أعطى الأولوية لضرورة إعادة السلام، أبقى نظره على امتداد المفاوضات محدقاً بالمانيا التي كان نمو التحريض السلمي فيها يؤكد دعوتها الثورية. ففي ٩ كانون الثاني ١٩١٨، اقترح على زملائه في اللجنة المركزية للحزب البلشفي أن يرسلوا طيارين إلى برلين «لمعرفة ما يجري بالضبط في المانيا[١٠]». وفي محاجته ضد انصار الحرب الثورية إلى أبعد حد وضد تروتسكي الذي كان يرفض التوقيع على صلح جائر يفرضه الالمان، فالوضع الالماني، مرة اخرى، هو الذي تذرع به لينين لتبرير سياسته الخاصة به: فيوفي، الممثل البلشفي الرئيسي في بريست - ليتوفسك في غياب تروتسكي، أطلعه على واقع أنه «لا تُرى في ألمانيا أدنى بداية للثورة[١١]». وبعد شهر، في حين كانت انفجرت في برلين إضرابات جماهيرية وغير شرعية، تخلى لينين في الحال عن مواصلة تحريضه لصالح صلح فوري واختار مماطلاتٍ جديدة في مسيرة المفاوضات[١٢]. لكن بما أن الإضراب طال، وتأخرت الثورة البروليتارية في الاندلاع، لم يكن امام الدولة السوفياتية من خيار غير السعي للحصول على «استراحة»[١٣]. وحين أكد ريازانوف في المؤتمر السابع للحزب المدعو لنقاش مشكلة الصلح، حين أكد في معرض وصفه تكتيك لينين أنه يتخلى عن «المساحة ليكسب الوقت»، تلقى التأييد الحار من جانب الزعيم البلشفي[١٤].

كانت ساعة الاستراحة هي أيضاً ساعة الدبلوماسية، المصنوعة من المهارات في المناورة ومن التلوثات التي كان الشيوعيون اليساريون ينتفضون ضدها. وحين وجدت اللجنة المركزية للحزب نفسها مضطرة، إزاء التهديد بهجوم ألماني جديد، لاتخاذ قرار بصدد طلب مساعدة عسكرية من الدول الغربية الكبرى، عمد لينين، الذي لم يكن يحضر المداولات، إلى تمرير بطاقة إلى رفاقه يقول فيها: «الرجاء ضم صوتي لصالح الحصول على بطاطا وأسلحة من لصوص الامبريالية الانكليزية - الفرنسية[١٥]». هذه الصيغة المقتضبة كانت تكشف من جديد أحد الحوافز الرئيسية التي ستستوحيها السياسة الخارجية للسوفييتات: الاستفادة من كل الخصومات بين الدول الامبريالية لتعميق الانقسام فيما بينها ومنع تشكل تحالف معادٍ للبلشفية. وقد كان العقد السريع لصلح بريست - ليتوفسك، ضمن تصور لينين، منطلَقاً لتفادي تصالح المتحاربين على حساب الثوريين الروس(*). هذه الخشية، التي سيكذبها

(*) «إذا عقدنا صلحاً منفصلاً، ستتحرر.. من المجموعتين الامبرياليتين المتعاديتين، مستفيدين من

تطور الاحداث، بشكل إجمالي، لم تكن مع ذلك خيالية بتاتاً. ولا تنقص الشواهد التي تبين على العكس مبررها. فمن جهات مختلفة، كان يجري التفكير آنذاك بصلح قائم على مساومة ينعقد بين الدول المركزية ودول التفاهم تقدم هذه الأخيرة بموجبه لخصومها تفويضات واسعة على صعيد الاراضي على حساب روسيا السوفياتية[١٦]. وصلح فرساي، بالرغم من بنوده الجائرة، سمح للجيوش الالمانية بأن تحتفظ لبعض الوقت بالمقاطعات البلطيقية التي كانت احتلتها لتكون متراساً ضد الشيوعية[١٧]. ولقد كان البلاشفة على بعض الحق حين تخوفوا من اتفاق ضمني بين التحالف الانكليزي ـ الفرنسي والالمان، يقدم الطرفان بموجبه دعماً سخياً لزمر متنوعة من القوى المعادية للثورة في روسيا[١٨]. ولقد كانت القناعة بأن الامبريالية تُفضي إلى «مفاقمة للصراع من أجل تقاسم العالم» وبأن «التحالفات (بين الامبرياليين). . ليست حتمًا، وأياً تكن أشكالها، . . سوى (هُدَنٍ) بين حروب[١٩]»، هذه القناعة كانت تشكل مع ذلك القاعدة والتبرير النظريين لسياسة مهتمة بصورة يائسة بأن تستفيد من معسكر إمبريالي ضد الآخر. ففي **المهام الفورية لسلطة السوفييتات**، المكتوب في بداية ربيع عام ١٩١٨، اكد لينين في كل حال أن «ضمانتنا الوحيدة لسلم حقيقي، وغير وهمي، تكمن في التنافس بين الدول الامبريالية[٢٠]». وقد اكد في الفترة نفسها ما يلي: «لاشك أنه لن تحمينا معاهدة لها قيمة خرقة من الورق أو «حالة السلام»، بل استمرار تذابح الامبرياليين[٢١]». والامر يتعلق هنا بإحدى ثوابت السياسة الخارجية التي مارستها روسيا السوفياتية في حياة لينين[٢٢].

لقد اصبحت معرفة الانقسامات داخل المعسكر المعادي، وحفز انقسامات جديدة إذا أمكن، وتوسيعها واستغلالها، اصبحت ضرورات لاستراتيجية إجمالية تعمل مباشرة ومداورة، وتلجأ إلى كل حيل السياسة، وتنحي أفخاخ الطهرية الثورية وإغراءاتها وتحزم أمرها لجعل القلعة السوفياتية تصمد أطول وقت ممكن. وإذا كان على الشيوعيين أن يتعلموا داخل هذه القلعة الادارة والتجارة، كان من الضروري أن يتلقنوا في علاقاتهم مع العالم الخارجي فناً كان حماسهم الهجومي ودعوتهم التخريبية يدفعانهم لازدرائه بالقدر نفسه. وكما كتب لينين في برقية مرسلة الى البلشفي الجورجي شاوميان في شباط ١٩١٩: «إن الصعوبات جمة. وما ينقذنا في الوقت الراهن إنما فقط التناقضات والصراعات بين الامبرياليين. إعرفوا كيف تستغلون هذه النزاعات: في الوقت الحاضر، ينبغي تعلم الدبلوماسية(*)».

= العداء فيما بينهما ومن الحرب التي تمنعهما من التفاهم ضدنا» (لينين، **الاعمال**، ج ٢٦، ص ٤٦٨).

(*) **المرجع ذاته**، ص ٣٥٥، ص ٣٣٤؛ التشديد من وضعنا.

هل كان ذلك نفي أطروحات الفترة السابقة، نفي القناعة المعبر عنها غالباً بأن العمل الثوري وحده هو القادر على إعادة السلام وتأمين حرية الشعوب في التصرف بحقوقها القومية؟ هل كان التخلي عن الممارسات التي سبق أن أفضت بالبلشفية الى السلطة؟ سرعان ما توصل أنصار لينين الاكثر جذرية الى الاعتقاد بذلك؛ وقد غذى إحباطهم وغضبهم احتدام النقاشات بصدد صلح بريست ـ ليتوفسك. وقد كانت هنالك، في السياسة الخارجية التي مارستها روسيا السوفياتية في ظل لينين، مبادرات من شانها ان تدهش الثوريين الشيوعيين(*) وتثير سخطهم. هل كانت السياسة تحل محل الصوفية، وهل كانت الواقعية ـ السياسة الواقعية Realpolitic أو داعي المصلحة العليا raison d'Etat(**) ـ تتغلب على الرغبة الحماسية بقلب العالم؟ ولقد ووجه لينين خلال المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي بشكوك بعض المناضلين وقلقهم، فبذل جهوده في آذار ١٩١٩ لطمأنتهم. وفي «مشروع البرنامج» الخاص به، نادى بـ «شعار القمع الكلي الذي لا رحمة فيه بحق المستغلين. شعار النضال حتى النصر على بورجوازية العالم بأسره، سواء في الحروب الاهلية الداخلية او في الحروب الثورية بين الامم(٢٣)». وخلال النقاشات بالذات، ذهب أبعد من ذلك وأعلن: «نحن لا نعيش فقط في دولة، بل في نظام دول وإن وجود الجمهورية السوفيأتية بجانب دول امبريالية أمر غير ممكن تخيله خلال فترة طويلة. ففي النهاية، سوف ينتصر أحد الطرفين وقبل أن تصل هذه النهاية، لا سبيل لتفادي عدد من النزاعات الرهيبة بين الجمهورية السوفياتية والدول البورجوازية(٢٤)». وقد استمر لينين إذاً في التمييز بين الحروب الامبريالية و«الحرب الوحيدة المشروعة والعادلة، والثورية حقاً»، أي «حرب المضطهَدين ضد المضطهدين، حرب الشغيلة ضد المستغِل، الحرب لأجل انتصار الاشتراكية(***)». لم يكن نصير الانهزامية الثورية قد التحق بالنزعة السلمية، ومثلما كانت الحرب بالنسبة لكلاوزفيتز استمراراً للسياسة بوسائل أخرى، فإن اللجوء إلى الدبلوماسية بدا للينين كمجرد لحظةٍ من مشروع ثوري مطبوع بعدم التوافق الأساسي في المصالح وبالتضادات العميقة التي لا يمكن الحد منها.

(*) انظر ادناه، ص ٢٢٤ وما بعدها.

(**) فضّلت أن أعرِّب raisond'Etat، أو السبب (الذي تتذرع به) الدولة (لتبرز أعمالها غير القانونية)، بداعي المصلحة العليا، تماماً كما هو وارد في قاموس المنهل (المعرب)

(***) لينين، الأعمال، ج ٢٩، ص ٣٩٦. كذلك كان لينين يؤكد في كانون الأول ١٩٢١ أنه «تكون شرعية وعادلة الحروب الثورية، اي تلك التي تخاض للدفاع عن الطبقات المضطَهدة ضد الرأسماليين، ودفاعاً عن الشعوب التي يضطهدها امبرياليو عدد صغير من الدول، ضد المضطهدين، ودفاعاً عن الثورة الاشتراكية ضد الغزوات الخارجية». (ج ٣٣، ص ١٣٠)

فضلاً عن ذلك، لم تكن النبرة العدائية إلى هذا الحد أو ذاك، أو المصالحةُ إلى هذا الحد أو ذاك، في خطابات لينين حول السياسة الخارجية، لم تكن دون علاقة بتطور الصلات بين روسيا السوفياتية والعالم الخارجي.

في شباط ١٩٢٠، وفي معرض مخاطبة اللجنة التنفيذية المركزية، تكلم لينين على «التخلي عن العنف، في الوقت المقصود وطواعيةً، للانتقال إلى سياسة سلام[٢٥]». وأضاف، بصورة أكثر وضوحاً: «إننا نمثل المصلحة السلمية بالنسبة إلى غالبية سكان الكرة الأرضية، ضد القراصنة العسكريتاريين والامبرياليين[٢٦]». وليس صدفةً إذا كان جرى الإدلاء بهذه التصريحات في حين كانت الدول الغربية قد أعلنت للتو نهاية الحصار الذي كان يضغط على روسيا. مذاك كان الامر يتعلق بالنسبة لهذه الاخيرة بالحصول على «مساعدة تقنية لا غنى عنها»[٢٧] وبـ «بدء مبادلات تجارية مع البلدان الغربية[٢٨]». وخلص لينين إلى القول: «على كل الحكومات أن توقف القتال إزاء سياسة السلام لسلطة السوفييتات[٢٩]». ألم تكن تلك، من حيث الجوهر، سياسة التعايش السلمي التي نادت الحكومة السوفياتية فيما بعد بضرورتها، والتي سوف تحاول تبريرها في نظر نقادها اليساريين عن طريق ربط ممارستها ونجاحاتها بتقدم النضال ضد الدول الامبريالية؟ وفي تشرين الثاني ١٩٢٠، كان لينين ألحَّ من جانبه على فكرة مشابهة، معلناً ما يلي: «تحت تأثير نضالنا الباسل تمكّنا من التواجد إلى جانب الدول الرأسمالية الكبرى، المضطرة الآن لأن تقيم معنا علاقات تجارية[٣٠]».

هل هذا يعني أن سياسة «التعايش السلمي» التي نادى بفضائلها العديد من خلفاء لينين والتي حاولت «الخروتشوفية» أن تتماهى معها، تجد أصلها بالفعل في الممارسة اللينينية؟ لقد غذت المشكلة السجال بين الإخوة المنقسمين في «العائلة الاشتراكية» ومنحها الجدال الصيني - السوفياتي، في أثنائه، مكانة مهمة. ولقد استطاع السوفياتيون أن يستندوا في هذا الصدد إلى الواقع الأكيد المتمثل في أن لينين استخدم مراراً عديدة هذه العبارة التي يبدو فضلاً عن ذلك أنه كان صاحبها. فلقد استخدمها للمرة الأولى في شباط ١٩٢٠ في مقابلة منحها لمراسل وكالة صحافة امريكية لكنه تكلم في تلك المناسبة على «تعايش سلمي مع الشعوب، مع العمال والفلاحين من كل الامم...(*)». لكن جرى توسيع الفكرة لتشمل العلاقات بين الدول. ففي كلام لينين امام المؤتمر التاسع للسوفييتات في كانون الاول

(*) المرجع ذاته، ج ٣٠، ص ٣٧٧. ومن جهة اخرى استخدم تعبير «التعايش السلمي أيضاً تروتسكي الذي اعتبره في خطاب له امام المؤتمر الحادي عشر للحزب عام ١٩٢٢ ممكناً «لفترة طويلة». (إ. دويتشر، النبي المسلح، ص ٣١).

١٩٢١، عبر عن رأيه بالشكل التالي: «هل إن وجود جمهورية اشتراكية وسط التطويق الرأسمالي أمر ممكن التصور بصورة عامة؟ كان يبدو هذا أمراً غير محتمل التصوُّر، سياسياً وعسكرياً. وأن يكون هذا ممكناً، على الصعيدين السياسي والعسكري، فتلك نقطة تم البرهان عليها، ذلك واقع قائم[٣١]». وبعد عام، في تشرين الثاني **١٩٢٠**، كان قد أوضح أنه يرى أن العلاقات بين روسيا السوفياتية والدول الامبريالية تسمح بأكثر من «هدنة بسيطة»، أنها تقدم «حظوظاً جدية.. للانصراف إلى البناء الجديد خلال وقت أطول[٣٢]».

إذا كان تعبير «التعايش السلمي» يشمل فكرة أن علاقة قوى محددة يمكن أن تجعل بالامكان علاقات غير عنيفة ـ وفي كل حال، علاقات عدم احتراب ـ بين روسيا السوفياتية والعالم الرأسمالي، فليس ثمة شك انه يتطابق في آن معاً مع فكر لينين والتجربة التي أمكنه أن يمارسها خلال حياته. لكن ليس أقل تأكيداً أنه لا يمكن تقويل هذا الفكر أكثر مما يقوله. فبوجه خاص، لم يؤكد لينين يوماً أن ثمة إمكانية جدية لإقامة سلام نهائي بين المعسكرين. فالأعمال العدوانية يمكن أن تخلي المكان لعلاقات تعاون تكون اكثر من «هدنة» وتمتد على فترات طويلة نسبياً. لكن بوجه أساسي و ultima ratio، لم يكن يمكن أن تكون هذه الفواصل السلمية إلا هشة، والعداوة بين النظامين غير قابلة للإنقاص. هل يمكن في الواقع أن يكون (المرء) أكثر وضوحاً؟ ففي معرض الحديث، في كانون الاول **١٩٢٠**، أمام جمعية من المناضلين في موسكو، عبَّر لينين عن رأيه بالشكل التالي: «كنت أقول.. إننا انتقلنا الآن من الحرب إلى السلم، لكن دون أن ننسى أن الحرب ستعود. فطالما تستمر الرأسمالية والاشتراكية، لا يمكنهما العيش بسلام: فإحداهما سوف تتغلب في النهاية.. وهذا ليس سوى تأجيل للحرب[٣٣]». وبعد أيام، فصَّل الفكرة ذاتها أمام المؤتمر الثامن لسوفييتات روسيا، «لسنا نعتقد لحظة واحدة بعلاقات تجارية صلبة مع الدول الامبريالية: ستكون هذه استراحة مؤقتة. فتجربة تاريخ الثورات، والنزاعات الكبرى تُعْلمنا بأن الحروب، بأن سلسلة من الحروب أمر حتمي. أما وجود الجمهورية السوفياتية بجانب بلدان رأسمالية ـ الجمهورية السوفياتية المحاطة ببلدان رأسمالية ـ فهو أمر غير مقبول لدى الرأسماليين إلى حد أنهم سيتمسكون بأقل إمكانية لاستئناف الحرب[٣٤]». وفي كانون الاول **١٩٢١**، كتب في وثيقة مخصصة للاطروحات التي بلورها الحزب الشيوعي الفرنسي حول المسألة الزراعية: «ليس من شك في أن **ثورة البروليتاريا وحدها**(*) يمكن أن تضع وستضع حتماً حداً لكل الحروب بوجه عام[٣٥]».

(*) التشديد من وضعنا.

إنه لجائز أخيراً للشارحين الرسميين وغير الرسميين أن يبحثوا في هذا التصريح للينين أو ذاك عن تبرير السياسات الأكثر تناقضاً، إذ أن عملهم التقريظي أسهل وأكثر شبهة بمقدار ما يعتمد على سلسلة من الاستشهادات المنتقاة بعناية اكثر مما بتوسوس وتدقيق. وفي الواقع، فإن قيادة «الشؤون الخارجية» استلهمت في ظل حكومة لينين اعتبارات فرضتها الظروف، وبوجه خاص، كما سبق وقلنا، الرغبة في استغلال الانقسامات داخل المعسكر الرأسمالي، يضاف إلى ذلك مُعطىً إضافي وليس أقل أهمية: الامتداد الذي كان لينين ينوي إعطاءه للحركة الشيوعية العالمية التي إذ تخطت الإطار الاوروبي الذي انحشرت فيه الاشتراكية ـ الديمقراطية، كان لابد أن تتوسع على المستوى العالمي، وإذ كفّت عن أن تكون معادية فقط للرأسمالية اتخذت طابعاً معادياً للامبريالية بوضوح.

هاكم في النهاية معطىً أساسياً للاستراتيجية التي طبقتها اللينينية على علاقاتها مع العالم الخارجي. كان العداء حيال الرأسمالية يستتبع مهاجمتها في قواها الحية وحتى في الامبراطوريات التي اقتطعتها لنفسها في العالم. فضلاً عن ذلك كان ضعف روسيا السوفياتية يستتبع سعيها في مقاومتها للدول الامبريالية للحصول على نجدة الشعوب المستعمرة المدعوة لفتح «جبهة ثانية» ضد الرأسمالية. هكذا كان يقوم رابط حيوي بين الثورة الروسية والثورة المعادية للاستعمار التي كان لينين يراقب تجلياتها الأولى بحماس يزداد طرداً مع ملاحظته إخفاقات الثورة الاشتراكية في الغرب. والتقرير الذي أرسله إلى المؤتمر الثاني للمنظمات الشيوعية لشعوب الشرق في تشرين الثاني ١٩١٩ منير جداً من وجهة النظر هذه. فلقد حلل فيه الآثار التي قد تترتب على جهود روسيا السوفياتية، وبوجه خاص آثار الجيش الاحمر بالنسبة لتلك الشعوب. كانت النجاحات التي حققها الشيوعيون الروس في نضالهم العسكري ضد الرجعية الحاظية بدعم الدول الغربية تبرهن حسب رأي لينين على أن «تحرير شعوب الشرق هو اليوم ممكن التحقيق تماماً. [٣٦]». وأضاف أن الثورة الاشتراكية لن تكون فقط، ولا بشكل رئيسي، نضالاً من جانب البروليتاريا الثورية في كل بلد ضد بورجوازيته؛ كلا، سوف تكون نضال كل المستعمرات وكل البلدان المتعرضة لاضطهاد الامبريالية[٣٧]». وقد لاحظ لينين فضلاً عن ذلك أن الحرب العالمية كانت قد «انتزعت الشرق من خَدَره[٣٨]» وخلص إلى اعتبار أن «على جمهورية السوفييتات الخاصة بنا أن تجمع الآن حولها كل شعوب الشرق التي تستيقظ بهدف خوض النضال معها ضد الامبريالية العالمية[٣٩]». وإذ اعتبر لينين نضال البورجوازيات القومية في البلدان المستعمَرَة «مبرراً تاريخياً»، دعا شيوعيي الشرق لتقديم دعم نشط لها. لكنه أنهى مداخلته بإعلان أنه «يمكن البروليتاريا، وحدها، في كل البلدان المتقدمة أن تحقق النصر النهائي»، لكنها لن تستطيع الوصول الى ذلك «من دون

مساعدة الجماهير الكادحة لكل الشعوب المستعمرة المضطهَدة، ولشعوب الشرق في المقام الاول(*)».

وبعد عام، إذ كان لينين يخاطب جمهوراً روسياً خالصاً، كرر انه يرى في روسيا الثورية «الممثل المباشر لكل كتلة الشعوب المضطَهَدة في الكرة الارضية». كانت الدولة السوفياتية قد غدت بالنسبة لتلك الشعوب «مركز جذب» وبات ينبغي ان تحل الآن محل الشعار «يا عمال كل البلدان اتحدوا» نسخة اكثر شمولاً: «يا بروليتاريي كل البلدان وأيتها الشعوب المضطَهَدة، توحدوا»، وهي نسخة قليلة التناسب مع قوانين الماركسية الاصلية لكنها «سليمة من وجهة نظر السياسة الحالية[40]». إن الأهمية البالغة التي أولاها لينين للنضال ضد الامبريالية العالمية ولدور الثورات المناهضة للاستعمار وجدت تعبيرها الاخير في ملاحظة كتبها في كانون الاول ١٩٢٢، خلال الطور الاكثر حرجاً من مرضه. كان يربط فيها النضال الواجب خوضه داخل الاتحاد السوفياتي بالذات ضد الشوفينية الروسية الكبرى بالدعم الذي كان على هذه الدولة ذاتها أن تقدمه للشعوب المستعمَرَة. كانت الملاحظة تنتهي بالشكل التالي: «إن يوم غد، في التاريخ العالمي، سيكون بالضبط يوم الاستيقاظ النهائي للشعوب التي تضطهدها الامبريالية، ويوم ابتداء معركة طويلة ومحتدمة من اجل تحررها[41]».

وليس من دون بعض الغرابة، أجبر هذا البعد الجديد المعطى للمعركة ضد الرأسمالية، التي وصلت مع الامبريالية كما كان يعتقد لينين إلى أوجها، أجبر الدبلوماسية السوفياتية على التحالف مع أنظمة قومية - بورجوازية معادية جداً للشيوعية(**). وقد كانت تقاربات كهذه تشكّل في الشرق الادنى وآسيا، مثيل السياسة التي مارستها موسكو حيال المانيا الامبراطورية ثم حيال جمهورية وايمار(***) بعد انهيار الأولى. لكن المناورات والمهارات التي تميزت بها الدبلوماسية السوفياتية في ظل لينين، دون أن تربك نفسها دائماً أو بصورة مفرَّطة بالمبادىء الاشتراكية، لم تنجح أبداً في محو طابعها. وإذا ماثلنا هذه المبادىء بإرادة تشجيع اندلاع الثورة العالمية وتطورها وبالدفاع عن الافكار اللينينية حول الدور الضروري للعنف، كرد بروليتاري على الاضطهاد البورجوازي، وحول الإزالة الضرورية لما تنطوي عليه الايديولوجية الأنسية والسلموية من غش، نلاحظ مدى اهتمام لينين بألا يضحي أبداً

(*) لينين، **المؤلفات**، ج ٣٠، ص ١٦١. وحول المجادلات التي دارت حول هذا الموضوع في الاممية الثالثة انظر أدناه، ص ٢٦٢.

(**) انظر أدناه، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(***) انظر أدناه، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

بالمتطلبات المذهبية لصالح ضرورات اللعبة الدبلوماسية. ولقد كانت هذه هي الحال بوجه خاص في ربيع عام ١٩٢٢، في مؤتمر جنوى التداولي، إبان المواجهة المفتوحة الأولى بين الممثلين الرسميين لروسيا الثورية وممثلي الدول الرأسمالية الرئيسية في أوروبا الغربية.

لقد كانت للحدث أهمية بالغة، فالدول الكبرى كانت قد رضخت، كما يبدو، لوجود دولة وُلدت من التخريب وتقوم على أساس مشروع ثوري. وروسيا السوفياتية، من جهتها، بدا أنها اعترفت بفشل الثورة العالمية، واستخلصت النتائج من ذلك عن طريق عقد نمط للعيش modus vivendi مع «العدو الطبقي». ألم تكن فترة مجابهات شرسة وتصلب متبادل تصل إلى نهايتها لمجرد حدوث تلك اللقاءات؟ إن الدقة التي هيأ بها لينين مؤتمراً تداولياً لم يسمح له وضعه الصحي بحضوره تبرهن في كل حال على أنه كان يفهم مدى أهميته. ونَشْرُ عدة ملحوظات كُتبت أثناء المرحلة التمهيدية للكونفرانس وخلال انعقاده ذو قيمة كبيرة من هذه الناحية. فهو يحدد، بادىء ذي بدء، الحوافز التي كان لينين يرى أن يستلهمها المفاوضون السوفياتيون تشيتشرين وليتفينوف وكراسين. مرة أخرى، كان الامر يتعلق بـ «وضع شتى البلدان بعضها بمواجهة بعض وإحداث الشقاق فيما بينها[٤٢]» وإكمال هذا العمل التقسيمي بمحاولة فصل «الجناح السلموي...ونصف السلموي» من البورجوازية عن معسكر هذه الاخيرة، ذلك الجناح الذي كان يضم مجمل الاشتراكيين اليمينيين والوسطيين. وأوضح لينين أنه من أجل ذلك ينبغي «تملق» الجناح المشار إليه، «إعلان أننا نوافق بالكامل، من وجهة نظرنا، على عقد اتفاق معه لا يكون تجارياً فقط بل كذلك سياسياً، لا بل نتمنى ذلك (رائين في هذا إحدى الفرص النادرة للتطور السلمي للرأسمالية نحو النظام الجديد، وهو ما لا نؤمن به بتاتاً، نحن الشيوعيين، لكننا موافقون على المساعدة في محاولة التجربة، معتبرين أن هذا واجبنا بوصفنا ممثلين لدولة يواجهها عداءُ معظم الدول الاخرى)[٤٣]». وبعد قول ذلك، أوصى لينين بالتمييز بوضوح بين البرنامج «ذي الطابع السلمي - البورجوازي» الذي على الوفد السوفياتي أن يكون مستعداً للتوقيع عليه و«برنامج شيوعي هو وحده الذي يتفق مع آرائنا» ومن الضروري «الاشارة إليه ببضع كلمات». وأضاف لينين بصدد البرنامج «السلمي - البورجوازي» أن الامر لم يكن يتعلق إلا بـ «مهدئات» يمكن «رغم كل شيء أن تؤدي إلى تلطيف الوضع الصعب الراهن»، لكن «المخرج الأكيد» الوحيد لا يمكن أن يَنْتج إلا من قطع نهائي مع «كل مبادىء الملكية الرأسمالية[*]».

(*) لينين، **الأعمال الكاملة**، ج ٤٢، ص ٤١٨ - ٤١٩. كذلك طلب لينين أيضاً من مولونوف، في مكالمة

من جهـة اخرى، اذا كانت روسيا السوفياتية تذهب الى جنوى في وضع ضعيف بسبب الـدمار الذي نجم عن الحرب الاهلية، وحالة الضيق الشديد والحاجة للجوء إلى اشكال تعاون مع العالم الرأسمالي، فلقد كان على وفدها أن يعوِّض من هذه الدونية الفعلية بموقف بالغ الحزم. وحين جرى الاعتقاد في الاسابيع التي سبقت الكونفرانس أن تنظيمه قد أفسد وتأجل عقده، طلب لينين من تشيتشرين أن يكتب ملحوظة «ذات لهجة بالغة الوقاحة والسخرية بحيث يشعر (الجماعة) في جنوى بأنهم يتلقون صفعة» مشدِّداً على «أنه لا يمكن التـأثير حقاً إلا بواسطة وقاحة أكبر(٤٤)». ومن جهة أخرى، حين عزز عقد معاهدة رابالو الالمانية - السوفياتية موقف الروس، قرر لينين، بعد أن اعتبر موقف المندوبين السوفياتيين إلى مؤتمر جنوى التداولي مصالحاً جداً، قرر أن يرسل إليهم «**طلقة إنذار**»، فطلب أن يتخذ القـطع المحتمل مع الغربيين «رفض إعادة الملكية الخاصة(٤٥) سبباً (لهذا القطع)، وذلك بوضـوح وصراحـة». كانت تلك، في التحليل الاخير، مشكلة مبدأ كان لينين يرغب في وضعها في الواجهة لتبرير فشل المفاوضات أو تأجيلها. صحيح أن هذه المسألة - الابقاء على إشراف الدولة على التجارة الخارجية - كانت تهمه جداً وأن الدفاع عنها أوحى إليه بإحدى هجماته السياسية الاخيرة(*).

هكذا إذاً، كان انتصار الثورة البلشفية في روسيا قد أضاف إلى كل الأعباء التي كان على الشيوعيين أن يضطلعوا بها أعباء العلاقات الخارجية والمسؤوليات الدبلوماسية. فبالرغم من آمـالهم الاولى، لم يكـونـوا قد استـطاعوا «قفل الحانوت، الخاص بالشؤون الخارجية واضطروا على العكس لتقوية جهازه وتنويع مبادراته. إلا أن ما يميز لينين هو كونه حافظ على أولويات العمل الثوري ومنظوراته الاساسية وسط مرحلة التقهقر بالذات. وقد ولدت من الضغط المتناقض للحوادث الممكنة العارضة وللحوافز الدائمة المحاولةُ الديالكتيكية المتمثلة بالتوفيق بين العمل الدبلوماسي والإعماري ومواصلة مشروع الهدم والتخريب. وهكذا محاولة تلخص السياسة التي طبقتها بشكل ملموس السلطة السوفياتية في ظل حكومة لينين.

= هاتفية، ألا «يجري في أي من الحالات استخدام صيغ مخيفة من هذا النوع (حول «حتمية حروب عالمية جديدة»، م. ل.)، لأن ذلك يعني الانجرار للعبة الخصم». كان ينبغي «الاقتصار على الإشارة إلى ان مواقف الشيوعيين لا تتفق مع الآراء السلموية للدول التي نتفاوض معها، أو لرجال دولة كهندرسون وكينز، الخ». (**المرجع ذاته، ص ٤٣٤**).

(*) **انظر أدناه، ص ٢٨٤ وما بعدها**.

السياسة الخارجية لروسيا السوفياتية

لن نقوم هنا بتحليل كامل للسياسة الخارجية التي انتهجتها روسيا الثورية في السنوات الاولى التي تلت انتصار البلشفية. فمقصدنا اكثر انحصاراً، وهو أن نراقب على أرض الواقع محاولة لينين والسلطة السوفياتية منح الحياة لديالكتيك دبلوماسية حذرة ومناورة تهتم بالحفاظ على المكتسب وبعمل من شأنه أن يزيد من الاحتياطي الدينامي للثورة. وقد بدت المهمة خارقة التعقيد وغالباً ما ولّدت المرارة والخيبة بعد الآمال الكبرى بأيام نصر قادمة.

ذلك أن النظام السوفياتي كان قد اهتم باستمرار، في الفترة الاولى التي تلت الاستيلاء على السلطة في اوكتوبر، بأن يبرهن للعالم الخارجي على فرادته القصوى ونبذه لكل امتثالية. لم يكن وارداً آنذاك الانصياع لعادات السفارات، ولم يكن للحاجة إلى الاعتراف (بالقادة السوفياتيين) او للسعي وراء المحترمية أية مكانة في تحفيز القادة المذكورين. ففي أحد الإعلانات الاولى الصادرة عن تروتسكي بوصفه مفوضاً للشعب للشؤون الخارجية، اهتم بأن يؤكد أنه «لا حاجة لدى الثورة الظافرة إلى اعتراف الدبلوماسيين المحترفين وممثلي الرأسمالية(٤٦)». وقد جعل هذه النوايا ملموسةً النشرُ الذي تم في الصحافة الرسمية للمعاهدات السرية التي كانت تربط روسيا القيصرية بحلفائها الغربيين وفضح المشاريع الامبريالية التي كان هذا التحالف يستند إليها. إلا أنه كان لتلك البادرة اكثر من قيمة رمزية. فإذ كانت تقطع مع الأعراف السائدة، كانت كذلك، وبوجه خاص، تحدياً سياسياً إذ يكشف زيف البلاغة الديمقراطية لدول التفاهم يسعى لتعزيز الحيوية السلموية والثورية لدى الجماهير الغربية.

وقد كان موقف المفاوضين الشيوعيين خلال مفاوضات بريست ـ ليتوفسك ينطلق من الحافز ذاته: كان رفض كل تمسك بالتقاليد يشير إلى الطبيعة البروليتارية العميقة للنظام السوفياتي ويشكل خميرة تحريض بالنسبة للشعوب التي أنهكتها الحرب. ولقد كان لتركيب الوفد السوفياتي بالذات قيمة برهانية من هذه الناحية. فإذا كان قادهُ كامينيف ويوفي في المرحلة الاولى من النقاشات، فقد جرى استكماله بجندي وبحار وعامل لم يكن لحضورهم من هدف غير تسجيل الطابع العامّي للحكومة البلشفية. والحال أنه حين كان المندوبون الشيوعيون مُطْلَقو الصلاحيات يمضون في سيارة إلى المحطة التي كان سينقلهم قطار منها الى بريست ـ ليتوفسك، لفت أحد المندوبين الانتباه إلى الغياب المؤسف لممثل شرعي للفلاحين الروس. ولإصلاح ذلك، جرت مناداة موجيك كان يمر في أحد شوارع بتروغراد وطُلب إليه الانضمام الى الجماعة التي كانت تمضي للتفاوض حول الصلح مع الالمان. وقد وافق الفلاح

بعد أن فارقته الدهشة، وحضر بالفعل المفاوضة التاريخية حيث تركت قدراته على ابتلاع الكحول من شتى الأنواع اعمق الاثر لدى النمساويين والالمان[٤٧]. ولم يكن ذهول هؤلاء الدبلوماسيين بالذات اقل ازاء الموقف الذي اتخذه رادك حين وصول الوفد السوفييتي الى محطة برست ليتوفسك. كان كبار المسؤولين الامبراطوريين حاضرين هناك بالاضافة الى قادة الجيشين النمساوي والألماني في حين كان حرس عسكري مصطف على رصيف المحطة يقدم التحية. إلا أن رادك المصمم على عدم تضييع الوقت ادار ظهره للشخصيات الحاضرة وشرع يوزع بيانات ثورية على الجنود والضباط بالصورة الاكثر طبيعية[٤٨]. كان لهذه الفكاهات(*) الظاهرية معنى عميق اهتم تروتسكي بجلائه للالمان. فخلال النقاش لفت نظر محاوريه الى ما يلي: «بما يخصنا كل ماضينا يشير إلى أننا لا ننتمي الى المدرسة الدبلوماسية ومن الافضل ان يُرى فينا هنا جنود الثورة[٤٩].» إلا أن البلاشفة قدموا أنفسهم بصفتهم اكثر من جنود، بصفتهم دعاويين وحتى وكلاء اتهام. فعشية رحيل تروتسكي أكد لسوفييت بتروغراد أنه خلال المفاوضات، سوف تجد الحكومتان الالمانية والنمساوية «نفسيهما في قفص الاتهام». وأضاف: «كونوا على ثقة بأن النيابة العامة، بشخص وفد روسيا الثوري، ستكون كذلك في مكانها وستطلق في الوقت المناسب قرار اتهام لاهباً ضد دبلوماسية كل البلدان الامبريالية[٥٠]». وقد اتخذ العمل الدعاوي أشكالاً متعددة، وأثار احتجاجات شديدة من جانب قادة الوفد الالماني. لكن اقتصر رد تروتسكي على دعوته للقيام بدعاوة من النوع نفسه بين القوات والجماهير الروسية[٥١]. وعموماً اصطدم ممثلو الامبراطوريات المركزية برفض البلاشفة التقيد بالأصول أو بالبلاغة الدبلوماسية. هكذا حين قدم الألمان المشروع الأول الذي ستولد منه المعاهدة اللاحقة، ضمَّنوه صيغةً تقليدية حول ضرورة إقامة علاقات سلام وصداقة بين الأطراف المتعاقدة. فرد تروتسكي على الفور بأن وفده لم يأت إلى بريست لعقد صداقة مع الامبريالية بل فقط لعقد صلح هناك[٥٢]. وكما يذكر أ. أولام، من جهة اخرى، فإن بعض الطلبات التي قدمها المفاوضون الروس مطلقو الصلاحيات «عرِّضت لامتحان قاسٍ صبر الدبلوماسيين الاكثر لطفاً وأدباً». كانت تلك هي الحال مثلاً حين طلب رئيس الوفد البلشفي، دون الكثير من الأوهام حول الجواب الذي قد يُعطاه، أن يتمكن من الذهاب إلى فيينا من أجل التداول هناك مع العمال النمساويين المضربين[٥٣]. وإذ أطلق

(*) حسب جورج كينان كان رادك يتسلى فضلاً عن ذلك خلال المفاوضات بأن ينفخ دخان غليونه في وجه الممثل العسكري الالماني الجنرال هوفمان (ج. ف. كوفمان، **روسيا السوفييتية والغرب**، باريس، ١٩٦٢، ص ٤٩). نزق بريء لثوري مشتاق إلى التسلية.

تروتسكي أخيراً خلال الجدال الصيغة قليلة الأورثوذكسية «لا حرب ولا سلم» أضاف فقط فظاظة دبلوماسية أخيرة ـ لا أكثر من تحد واستفزاز في الواقع ـ إلى كل الفظاظات التي كان قد راكمها الثوريون البلاشفة.

إن عقد صلح بريست ـ ليتوفسك وإبطاء الهجوم الثوري ثم ركوده لم تكفِ لتحويل البلاشفة نحو احترام حسن التصرف. فلقد تم تبادل السفراء بين روسيا السوفياتية والمانيا الامبراطورية، من هذه الناحية، في مناخٍ كان الشيوعيون ينوون أن يعتمدوا فيه الصراحة أكثر مما يعتمدون الرقة واللطف. ففي حين رفض ممثلهم تقديم أوراق اعتماده[٥٤] لغليوم الثاني، جرى استقبال مطلق الصلاحيات الألماني، لدى وصوله إلى موسكو بافتتاحية في البرافدا وُصف فيها «لا كممثل للطبقات الكادحة لشعبٍ صديق، بل كمطلق الصلاحية لزمرة عسكرية تقتل وتغتصب وتنهب في كل بلد، بوقاحة لا حدود لها[٥٥]». ولم يحتكر الألمان، من جهة اخرى، هكذا معاملة. فحين بعث الرئيس ولسون في آذار ١٩١٨ إلى المؤتمر الرابع الروسي الكبير برسالة لم تكن أي دولة غربية أخرى تفكر آنذاك بتوجيهها الى النظام الجديد، اتخذ الرد البلشفي شكل دعوة إلى «الشعب وبوجه خاص إلى الطبقات الكادحة والمستغلة في الولايات المتحدة» من أجل «نقض نير رأس المال وإرساء تنظيم اشتراكي للمجتمع». هذا ما سماه زينوفييف ـ ليس من دون حق ـ «صفعة موجهة الى الرئيس الامريكي[٥٦]».

بعد أربع سنوات، في جنوى، وصل المندوبون الشيوعيون الى الكونفرانس مرتدين جاكيتات ومعتمرين قبعات تشريفات. فلقد كانت ممارسة السلطة علمت بعضهم اللياقات. وبوجه خاص، بسبب التراجعات والاخفاقات، كانت قد علمت القادة البلاشفة، بالاضافة الى حس المجاملات فن الدبلوماسية واستخدام المساومات. ومن المؤكد أن هذا التغيير لم يكن عائداً إلى السوفيات فقط. فتصلُّب الشيوعيين المتعجرف، الذي كانت تغذيه مبادئهم الثورية، كان يرد في الغالب على العداء غير المشروط الذي أبداه الغربيون حيال النظام السوفياتي. وإذا كان عام ١٩١٩، بوجه خاص، العام الذي كشفت السياسة الخارجية لروسيا البلشفية خلاله وجهها الأشد صرامة فلم يكن ذلك فقط لأن بعض الاحداث بدت تقرِّب استحقاق الثورة العالمية، بل كذلك لأن الدول الكبرى بذلت جهدها آنذاك لسحق النظام الجديد وخنقه. ولقد اصطدمت المحاولات القليلة الهادفة لتخفيف التوتر في العلاقات مع الغرب بالرفض. وكانت تلك هي الحال مثلاً في كانون الثاني ١٩١٩ حين قرر الغربيون عقد مؤتمر تداولي تحضره «كل الزمر الروسية» ليتم فيه درس الوضع الذي كان سائداً في امبراطورية القياصرة القديمة، فسعت الحكومة البلشفية للحصول على دعوة لحضوره وأبدت نوايا مصالحة، لاسيما بما يخص مشكلة الديون التي كانت اقترضتها الدولة

الروسية ، لكنها لم تحصل على جواب[٥٧]. وغالباً ما جرى التأكيد بهذا الخصوص على أن رفض الشيوعيين الاعتراف بـ «التزاماتهم المالية» حيال دائني الحكومة القيصرية والحائزين على سندات وأملاكاً روسية يفسر التصلب الذي أبدته الدول الغربية حيال روسيا السوفياتية. ويتحدث ليونارد شابيرو، من بين آخرين، عن «رفض الشيوعيين أية تسوية، أياً تكن، لمشكلة الديون التي اقترضها النظام القديم[٥٨]». والحال أنه منذ كانون الثاني ١٩١٩، كانت الحكومة السوفياتية أعلنت رسمياً أنها «لا ترفض الاعتراف بالالتزامات المالية حيال الدائنين من رعايا الدول الحليفة[٥٩]». وبعد ثلاثة أشهر، قام دبلوماسي امريكي، هو وليم بوليت، بزيارة سرية للينين، فأعلمه هذا الاخير بأنه إذا جرى رفع الحصار الاقتصادي المفروض على روسيا، فهذه الاخيرة «ستعترف بمسؤولياتها بالنسبة للموجبات المالية للامبراطورية الروسية القديمة[٦٠]». لكن حين عاد بوليت من مهمته وأراد أن يقدم تقريره للرئيس ويلسون، «تحجج هذا بصداع، ورفض استقباله[٦١]». وفيما بعد جرى تجديد اقتراحات مصالِحَة على الصعيد المالي، مراراً عدة، لاسيما خلال مؤتمر جنوى التداولي. إلا أن السوفياتيين ربطوا مشكلة الاعتراف بالديون ودفع تعويضات بالحصول على قروض من دونها كان يستحيل عليهم مواجهة الالتزامات التي كانت ثمة نية لجعلهم يعترفون بها[*]. كان ثمة ابتعاد، في كل حال، عن الفسخ دون قيد أو شرط للديون والالتزامات المترتبة على النظام القديم، الذي تقرر بعد استلام السلطة بقليل.

سجّل عام ١٩٢٠ أول انفراج بين المعسكرين. فمنذ بداية العام، تخلى الغربيون عن مواصلة حصار روسيا وجرى توقيع اتفاق أول بين هذه الاخيرة وبريطانيا كان يتناول إعادة الأسرى إلى الوطن[٦٢]. لكن قَطَعَ هذا التطور عدوان بولندا، في حين كانت الحكومة السوفياتية ضاعفت بادرات المصالحة وعروض التفاوض[٦٣] في الأشهر التي سبقت الهجوم البولندي. وبعد إنهاء الحرب الروسية ـ البولندية والتخلي عن الوهم الذي غذاه لينين لبعض الوقت والمتعلق برؤية الثورة الاوروبية تتلقى دفعة حاسمة بفضل نجاحات الجيش الاحمر[**]، جرى من جديد فتح الطريق أمام انفراج نسبي. ولقد أدى في وقت قصير إلى عقد اتفاق تجاري مهم بين روسيا السوفياتية وبريطانيا. كان للوثيقة التي تم توقيعها في لندن

(*) المرجع ذاته، ص ٢٤٥؛ إ. هـ. كار، مرجع مذكور، ج ٣، ص ٣٧٤. حتى كينان (مرجع مذكور، ص ١٩٧) يعتبر موقف الحكومة السوفياتية في هذا الموضوع معتدلاً «ويمكن تفهمه».

(**) في تلك المناسبة بالذات، وضد رأي رادك وتروتسكي، خرج لينين عن حذره المعتاد، وأيد الدخول الى بولندا من جانب القوات السوفياتية التي إذ ردت الجيش البولندي رأت نفسها وقد أوكلت اليها مهمة ثورية بقدر ما هي عسكرية. (إ. هـ. كار، مرجع مذكور، ج ٣، ص ٢٠٩ـ ٢١٠).

في ١٦ آذار ١٩٢١ معنى يتجاوز مع ذلك الميدان الاقتصادي وحده. فإذ شكلت شكلاً أول من الاعتراف بالدولة الثورية من جانب دولة غربية كبرى، كانت تضم فضلاً عن ذلك بنداً يتعهد بموجبه الطرفان بـ «الامتناع عن أعمال أو مبادرات عدائية موجهة ضد احدهما» وبالتخلي عن «كل دعاوة رسمية، مباشرة أو غير مباشرة، تستهدف مؤسسات الامبراطورية البريطانية أو روسيا السوفياتية». وبصورة أوضح أيضاً، كان الاتفاق ينص على أن «الحكومة السوفياتية ستمتنع عن كل عمل عسكري أو دبلوماسي، أو عن كل دعاوة تنزع إلى تشجيع شعوب آسيا على العمل ضد مصالح الامبراطورية البريطانية، لاسيما في الهند وفي دولة أفغانستان المستقلة[٦٤]».

ألم يكن جوهر المشروع الثوري بالذات هو الذي تم تكذيبه هكذا في أحد وجوهه الاكثر اهمية: النضال ضد الامبريالية؟ لاسيما أن السوفيات لم يكتفوا بعد عام، في جنوى، بتقديم عروض مصالحة جداً بما يخص تسوية المسائل المالية. فإذ تخلوا عن انتقاداتهم اللاذعة القديمة ضد الاوهام السلمية، أيدوا عقد مؤتمر تداولي حول نزع السلاح، وذلك بالتوافق مع البرنامج «الديمقراطي البورجوازي الصغير» الذي قدمه لينين في تلك المناسبة. وقد طلبوا كذلك حظر «الاساليب الاكثر همجية» في ادارة الحرب، ومنع اللجوء إلى الارهاب ضد المدنيين(*). واقترح الروس حتى المشاركة في مراجعة نظام عصبة الامم والتي كانوا نددوا بها حتى ذلك الحين بصورة مستمرة كمؤسسة تخفي السياسة الامبريالية للدول الكبرى. وقد كتب رادك، معلقاً في الصحافة الشيوعية الأممية على الروح التي ذهب بها السوفيات إلى جنوى: «إن روسيا السوفياتية، وحكومتها وجماهيرها، تتبع سياسة واقعية realpolitik باردة.. فحكومة السوفييتات تعرف... أن الاقتصاد الروسي لا يمكن أن يعاد بناؤه من دون دعم الاقتصاد الاوروبي... لذا فهي تعلن: «نحن بحاجة إلى رأس المال العالمي ونمنحه الربح الذي يطلبه... ولكي نداف عن الحقوق التي سفحت الطبقة العاملة دمها من أجلها، لن نتحالف مع الشيطان فقط، بل كذلك مع جدته، إذا دعت الحاجة»».

كانت الامور على هذا المنوال، في حياة لينين، وبعد أربع سنوات على انفجار اوكتوبر. في الوقت ذاته، الذي كانت الحكومة السوفياتية تقترح فيه نزع سلاح الشعوب وتصطدم برفض الدول الكبرى، اتخذت ترتيبات سرية للمساهمة في إعادة تسليح نفسها

(*) المرجع ذاته، ص ٣٧٣، ل. فيشر، **The Soviets in World affairs**، ص ٢٤٥. وفي كانون الاول ١٩٢٢، تولت الحكومة السوفياتية تنظيم كونفرانس مناطقي حول نزع السلاح، في موسكو. لكنه انتهى الى الفشل. (ل. فيشر، **The Soviets in world affairs**، ص ٢٧٣ وما بعدها).

وتسليح المانيا الفايمارية(*). والعلاقات التي اقامتها مع هذه الاخيرة تبين من جهة اخرى، على طريقتها، الرهافة والصلافة اللتين طبعتا اللعبة الدبلوماسية التي اضطر الثوريون الروس لممارستها، فيما هم يتراجعون ويتذاءبون. فعشية توقيع معاهدة بريست ـ ليتوفسك، اشتبه تروتسكي بأن الالمان يريدون غزو روسيا وسحق النظام الجديد، فعمد بالاتفاق مع لينين واللجنة المركزية إلى سبر نوايا الفرنسيين والانجليز والامريكيين ودعاهم حتى للتدخل عسكرياً في روسيا عن طريق فتح جبهة جديدة على الأورال، كما في شمالي البلاد[٦٦]. وبعد أشهر، وإثر تحول مركز الخطر بفعل التدخل العسكري للحلفاء ودبيب الضعف في المانيا، تقاربت موسكو مع برلين واقترحت على حكومة غليوم الثاني أن تدخل قوة المانية ـ فنلندية شمال روسيا لإنزال الهزيمة بالقوات الانكليزية. وقد تمت الاشارة الى امكانية هكذا عمل في بند سري ضمن الاتفاقات الموقعة في نهاية آب ١٩١٨ بين المانيا وروسيا السوفياتية. فمقابل وعد الالمان بألا يقدموا بعد ذلك الحين أي دعم للجيوش «البيضاء»، تعهد السوفيات من جانبهم بأن يقدموا لشريكتهم شحنات من النفط ودفعات ذهبية[٦٧].

إن سياسة الرَّجّاحة(**) هذه، المعبرة عن الاهتمام بمنع قيام تحالف للدول الرأسمالية الجامع بينها عداؤها للشيوعية، مهما بدت صادمةً للكثير من البلاشفة، كانت تجد تبريرها في الوضع اليائس الذي كانت تعيشه روسيا السوفياتية وفي ضرورات عسكرية كان من المستحيل إفلاتها منها. ومن الميدان العسكري، انتقلت هذه السياسة ذاتها بعد نهاية الحرب الاهلية الى الميدان الدبلوماسي والاقتصادي، وفي هذه المرة أيضاً، ظهرت المانيا كمحاور روسيا المميز. ولقد كشفت مفاجأة رابالو الصاعقة إمكانات الدبلوماسية السوفياتية: ففي حين كان كونفرانس جنوى مستمراً، نجح الدبلوماسيون الروس، إذ عقدوا اتفاقاً مع المانيا، بأن يجعلوا من بلدهم «حَكَم الوضع»[٦٨] حسب تعبير التايمز. لكن إذا كان هذا الاتفاق يفتح مجالاً واسعاً للتعاون الاقتصادي بين البلدين، فثمة اتصالات المانية ـ سوفياتية اخرى، أقل اتساما بالطابع الرسمي، كانت قد تمت سراً واتسمت بطابع أكثر إحراجاً. فمنذ نيسان ١٩٢١، كان خبراء ألمان في صناعة التسلح قد أتوا إلى موسكو. وكان هذا الوفد، بقيادة عقيد، قد زار بصحبة نائب مفوض الشعب للشؤون الخارجية سلسلة من

(*) نسبة إلى فايمار، حيث انعقدت الجمعية التأسيسية التي وضعت دستوراً جديداً لالمانيا التي أصبحت جمهورية، وذلك بعد سحق ثورة السبارتاكيين في كانون الثاني ١٩١٩. (المعرب).

(**) Politique de bascule، والرجّاحة bascule لعبة للأطفال تكون بالترجح على طرفي عارضة. (المعرب).

المصانع السوفياتية بهدف تهيئة تعاون تقني على صعيد انتاج الاسلحه. هذا الاتصال الاول، الحائز موافقة لينين، لم يؤد إلى نتيجة ملموسة، لكن مفاوضات أخرى جمعت ابتداء من كانون الاول ١٩٢١ ممثلين سوفياتاً وخبراء عسكريين ألماناً. وفي حين كان يبدو أن حكومة برلين بالذات كانت تجهل وجود هكذا مفاوضات، أبدت الحربية الالمانية، بدفع من الجنرال فون سيكت، اهتماماً بالغ الشدة، على العكس. فإذ كانت تتمنى التخلص من الالزامات الكثيرة التي فُرضت على الجيش الالماني بموجب معاهدة فرساي، لم تتردد في تنظيم تعاون تقني وعسكري مع روسيا السوفياتية. وقد انخرطت هذه الاخيرة في المشروع بحماس مماثل. وفي ٢٩ تموز ١٩٢٢، جرى عقد اتفاق سري في برلين تقوم بموجبه داخل روسيا مدارس ضباط المان، بالاضافة الى مراكز تدريب طيارين مفتوحة أمام السوفيات والالمان. وقد أقيم مصنع طيارات تابع لشركة جونكرز قرب موسكو، في حين فتحت شركة كروب في الاورال وفي منطقة قازان مصانع قذائف ودبابات[٦٩]. كما كانت ذهنية «واقعية» تتحكم أيضاً بالسياسة التي مورست، ابتداء بعام ١٩٢١، حيال الولايات المتحدة. ففي حين كانت حكومة واشنطن، برئاسة هاردينغ، تمر بواحدة من نوبات التعصب الرجعي والتوحش المعادي للشيوعية التي ترصِّع مذاك التاريخ الامريكي، اقترح ليتفينوف على رئيس الولايات المتحدة إرساء علاقات سياسية طبيعية بين البلدين بالاضافة الى علاقات تعاون تجارية. وبالطبع فلقد رفض الامريكيون[٧٠].

كانت نقاوة الشيوعيين المذهبية تخضع من نواحٍ أخرى أيضاً لامتحان قاس. فعلى عكس الاممية الاشتراكية القديمة، كانت حركتهم قد بدأت تمد تشعباتها ما وراء اوروبا، وقد طرح نشوء بعض الاحزاب الشيوعية غير الاوروبية، منذ بداية العشرينيات، مشكلة جدية سواء بالنسبة للحكومة السوفياتية أو بالنسبة للاممية الثالثة. كانت تلك هي الحال، بوجه خاص، بما يخص الحزبين الشيوعيين، التركي والفارسي، اللذين تأسسا، كلاهما، خلال صيف ١٩٢٠. كان الامر يتعلق بالنسبة للسلطة السوفياتية بتقديم دعمها لأي عمل موجَّه ضد الدول الكبرى الامبريالية وبأن تعطي هكذا مضموناً فعلياً لشعار «يا عمال العالم ويا أيتها الشعوب المضطهدة اتحدوا»، الذي رفعه لينين. لكن هذه الشعوب التي كانت قد بدأت تقف ضد الامبريالية الاوروبية ـ وبوجه خاص، ضد الامبريالية البريطانية ـ كانت تقودها في نضالها قيادات أو حركات بورجوازية أو بورجوازية صغيرة لا تشعر بأية مودة حيال الشيوعية. ومنذ اللحظة التي كان يُطرح خلالها أن «مشكلة الثورة الاجتماعية العالمية لا يمكن أن تُحل من دون مشاركة الشرق[٧١]» وأن العداء للرأسمالية الغربية يمر بالهجوم على المواقع التي تحتلها في العالم، اضطرت روسيا السوفياتية لتقديم دعمها سواء لتركيا كمال أتاتورك أو لفارس رضا خان. وحين حاول الأول تصفية الحزب الشيوعي التركي الصغير ودفع إلى

اغتيال سبعة عشر من قادته الرئيسيين، بقي السوفيات بلا حراك. وكما كتب البروفسور كار «أعطي هكذا الدليل، للمرة الأولى لكن ليس للمرة الاخيرة، على أن الحكومات القائمة يمكن أن تعامل الأحزاب الشيوعية في بلدانها معاملة جائرة دون أن تخاطر بخسارة رأسمال الإرادة الطيبة للحكومة السوفياتية، بمقدار ماكانت هذه الأخيرة محقة بعض الشيء في منحها إياه[٧٢]». ورغم كوارث التحالف التركي ـ السوفياتي، أعلن بوخارين في نيسان ١٩٢٣ أنه «بالرغم من كل الاضطهادات الممارسة ضد الشيوعيين، فإن (تركيا). . تلعب دوراً ثورياً لكونها أداة تدمير للنظام الامبريالي بمجمله[٧٣]».

ولقد أبدت روسيا السوفياتية القدر نفسه من الإرادة الطيبة حيال فارس. فمثلما تخلت عن أي مطلب يتعلق بالمضائق، فضحت المعاهدة التي كانت تمنح الدولة الروسية منذ عام ١٩٠٧ سلسلة من الامتيازات داخل الامبراطورية الفارسية القديمة. وقد منحت فضلاً عن ذلك دعمها للحركة الفتية القومية والمعادية للبريطانيين، بقيادة رضا خان. وبالمقابل، فإن جمهورية جيلان السوفياتية الصغيرة، التي أقيمت في شمال فارس بعد طرد الانكليز من هناك، لم تحظ بتاتاً بمساعدة موسكو؛ فالقادة البلاشفة، المهتمون بعدم إفساد علاقاتهم الطيبة بالحكومة «القومية البورجوازية» في طهران، ثنوا الشيوعيين الفرس وحلفاءهم الراديكاليين عن الزحف الى العاصمة. كانت ضرورات استراتيجية إجمالية مبلورة في مركز الحركة الشيوعية بالذات ـ بدأت تتغلب على أي اعتبار آخر[٧٤].

سياسة رجّاحة تؤدي الى تقاربات ومساومات مع الدول الرأسمالية، ومرونة قائمة على المناورات تستتبع التخلي عن البرنامج الثوري، والتوصية بـ «ملطِّفات» ذات طابع انتهازي، وتضحيات مفروضة على بعض «الأشقاء الصغار» بهدف تعزيز الحركات القومية ـ البورجوازية المعادية بحزم للشيوعية. هل هذه هي موازنة السياسة الخارجية التي مارستها السلطة اللينينية ما أن تبدد فرح الانتصارات الاولى؟ وماذا حصل للرسالة الثورية الموجهة الى البروليتاريا العالمية ما وراء الحدود الروسية؟ ألم تكن غير خطاب ايديولوجي من شأنه إخفاء الاكراه الآسر لمصالح الدولة ومبرراتها؟ تكفي العلاقات المقامة بين روسيا السوفياتية والحركة الثورية الالمانية لتصحيح رؤية بهذه الفظاظة. ولا يتعلق الأمر هنا بإعلانات نوايا ولا بتشدق لفظي أممي، بل بمساعدة ملموسة وبتضامن فعلي أبدته دولة ثورية كانت سياستها تكشف مزيجاً خارقاً من الضعف المؤثر والجسارة الاستفزازية.

فبمجرد ولادة هذه الدولة، ورغم إملاقها الأقصى، أعلنت على الملأ وضع مليوني روبل تحت تصرف مفوضية الشعب للشؤون الخارجية من أجل «تغطية حاجات الحركة الثورية[٧٥]». صحيح أن هذه الامكانات المالية كانت تهدف إلى إضعاف قوة الجيوش الالمانية عن طريق إخضاع جنود غليوم الثاني لدعاوة سلمية اتخذت الاشكال الاكثر تنوعاً. لكن حين

جعل صلح بريست ـ ليتوفسك هذا التحريض دون موضوع، لم يتوقف الجهد البلشفي (في هذا السبيل). وقد لعبت السفارة السوفياتية المقامة في برلين دوراً أساسياً من هذه الناحية. فلقد كانت بالنسبة للمناضلين الراديكاليين الالمان مكان تجمّع ومركزاً كانت تصدر عنه معلومات جرى شراؤها من موظفين ألمان بأسعار خيالية، ومساعدات مالية وحتى بعض التموينات بالأسلحة. وقد اضطلع يوفي، الممثل الدبلوماسي للسوفييتات في العاصمة الالمانية، حتى بإرسال «خبراء في الدعاوة» إلى مناطق شتى من المقاطعات، لأجل تعزيز الشّبكات الثورية. وليس من قبيل الصدفة أن يكون كارل ليبكنخت غادر السجن الذي كان معتقلاً فيه، يوم إطلاق سراحه بالذات، للذهاب مباشرة إلى السفارة السوفياتية التي استقبلته بصورة احتفالية. والأرقام المتعلقة بضخامة الاموال التي وضعها بتصرف الاشتراكيين ـ الثوريين الالمان المثلون السوفيات، هي بلا ريب غير دقيقة، لكن ليس ثمة أدنى شك في أن هذه المساعدة المالية كانت كبيرة جداً. وحين طردت الحكومة الالمانية السفير السوفياتي في ٦ تشرين الثاني ١٩١٨، وضع هذا الاخير، مثلاً، مبلغ عشرة ملايين روبل تحت تصرف الاشتراكي المستقل أوسكار كوهن الذي تلقى التعليمات بجعل أقصى اليسار الالماني يستفيد منها. وحتى حصول هذا الطرد، كانت اكثر من عشر صحف اشتراكية يسارية استفادت هكذا من سخاء السفير الروسي مطلق الصلاحيات[٧٦].

في تشرين الاول ١٩١٨، دفعت العلامات الأولى المنذرة بانفجار وشيك القادة البلاشفة للنظر في الوسائل التي قد تسمح بالمساهمة في قلب امبراطورية آل هوهنزولرن، وحتى في إطاحة البورجوازية الالمانية. كان لينين كتب الى سفردلوف في اول تشرين الاول، كما سبق وقلنا، ما يلي: «سوف نضحي بكل حياتنا لمساعدة شغيلة المانيا في جعل ثورتهم تتقدم(*). وفي الرسالة ذاتها، أعطى توجيهاته بـ «مضاعفة الجهود عشر مرات للحصول على القمح: جمع كل المخزونات، سواء لأجلنا نحن أو **لأجل العمال الالمان**[٧٧]». وفي نص آخر، موجّه في تلك الفترة، إلى اجتماع مشترك للجنة التنفيذية المركزية، وسوفييت موسكو ومجموعات نقابية، ألحّ لينين على هذه النقطة ذاتها: «فلنقرر خلق مخزون من القمح في كل هُرْي كبير لمساعدة العمال الالمان إذا وضعتهم الحالة في ظرف صعب خلال نضالهم لأجل التحرر من مسوخ الامبريالية ووحوشها المفترسة[٧٨]». وقد جرى أيضاً التفكير بمساعدة عسكرية: «كنا قررنا أن ننشىء في الربيع جيشاً من مليون رجل. ونحن الآن بحاجة الى

(*) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢١١.

جيش من ثلاثة ملايين رجل(*)». وأخيراً، كان لينين يدفع باتجاه التطوير الفوري والضخم لعمل الدعاوة باتجاه اوروبا. ففي رسالة كتبها في تشرين الاول ١٩١٨، طلب توظيف مترجمين و«إصدار (كمية) أكبر عشر مرات». وأصر على ما يلي: «معكم **الكثير** من المال.. وسوف نعطيكم منه **أيضاً وأيضاً دون حساب**... ينبغي النشر مئة مرة اكثر، بلغات أربع (الفرنسية، والالمانية، والانكليزية والايطالية، م.ل.)(**)». وبعد أيام، اعلنت اللجنة التنفيذية المركزية للسوفييتات على الملأ أن «روسيا السوفياتية ستضع كل قواها وكل مواردها في تصرف الحكومة الثورية الالمانية». واضاف النص أنه من واجب العمال والفلاحين الروس أن يقدموا للبروليتاريا في المانيا وفي النمسا ـ المجر مساعدة تموينية وتسليحية لدعمها في صراعها ضد «اعدائها الداخليين والخارجيين[٧٩]». وفي الواقع، في حين كانت روسيا الثورية تشهد في بداية شتاء ١٩١٨ إحدى ازماتها الاكثر حدة وفي حين كانت المجاعة تحصد فيها السكان، ارسلت الحكومة السوفياتية على وجه السرعة في منتصف تشرين الثاني قطارين من القمح باتجاه المانيا. وقد اوقفت السلطات الالمانية الجمهورية الجديدة هذا الموكب ورفضت تسلمه. وجهت شكرها بسبب البادرة، لكنها ازدرت نجدة اعتبرتها ملوَّثة. وبالنسبة لرادك، كان ذلك «رابعاً من آب ثانياً» اقترفه الاشتراكيون ـ الديمقراطيون في برلين[٨٠].

بعد سنوات قليلة، بدت الأزمة الاقتصادية وتطورات حزب شيوعي الماني، مصمم على تدشين تكتيك هجومي، تعيد للثورة في المانيا راهنيتها. والحال انه في حين كان الشيوعيون الالمان يستعدون بنشاط لمجابهة كانوا يعتقدونها حاسمة، برهن جو الحمى الذي ظهر فجأة في موسكو والاستعدادات التي اتخذها القادة السوفيات للهرع لمساعدة الشيوعيين الالمان أن السلطة السوفياتية كانت أقل تعقلاً مما أوحت به ممارساتها الدبلوماسية، وبقيت على العكس جاهزة لاندفاعة جديدة للثورة العالمية.

ففي أيلول ١٩٢٣، جاء عدة قادة شيوعيين المان الى موسكو للتداول مع القادة السوفيات وتركيز ترتيبات عمل انتفاضي متوقع للشهر اللاحق. فاكتشفوا مدينة «بدَّلها الحماس الثوري الذي يثيره اقتراب الاوكتوبر الالماني. كانت المدينة مغطاة بالملصقات الداعية الشبيبة الروسية لتعلم الالمانية لخدمة الثورة الوشيكة. وفي المصانع، والمدارس والجامعات،

(*) لينين، **الاعمال الكاملة**، ج ٢٨، ص ١٠٢. وقد ورد ذكر هذا المشروع ذاته أيضاً في الرسالة الى سفردلوف. (ج ٣٥، ص ٣٧٢).

(**) المرجع ذاته، ج ٤٤، ص ١٣٨. كذلك كتب الى يوفي، السفير في برلين، بعد ثمانية ايام: «يجب النشر مئة مرة اكثر. المال متوفر. يجب توظيف مترجمين ونحن لا نفعل شيئاً! إنها فضيحة!» (المرجع ذاته، ص ١٣٩. انظر أيضاً، ج ٤٤، ص ١٤٥).

تنعقد يوميا لقاءات محتدمة حول موضوع المساعدة الضرورية للعمال الالمان. الطلاب يهتفون لبوخارين الذي دعاهم لالقاء الكتب من اجل حمل البنادق[٨١]». وحتى ستالين، في رسالة نشرتها صحيفة الحزب الشيوعي الالماني، أكد آنذاك ان «الثورة التي تقترب في المانيا هي الحدث العالمي الاهم في عصرنا. فسيكون لانتصار الثورة الالمانية اهمية اكبر أيضاً، بالنسبة لبروليتاريا اوروبا وامريكا، من انتصار الثورة الروسية قبل ست سنوات. ان انتصار الثورة الالمانية سينقل مركز الثورة العالمية من موسكو الى برلين[٨٢]».

والحال انه جرى الانهماك بنشاط في روسيا السوفياتية، لتقديم العون لهذه الثورة التي كان ثمة اعتقاد بأنها وشيكة. وكما كتب مؤرخ للحركة الشيوعية في المانيا، «تحول واقعيون هادئو الاعصاب. . الى حالمين عاطفيين[٨٣]». لكن «حالمين» مستعدين للعمل. ولهذه الغاية، جرى انشاء صندوقين خاصين: احتياطي من الحبوب واحتياطي ذهبي، ودُعيت النساء الروسيات لتقديم محابسهن لتغذية الصندوق الثاني. وقد جرى إحصاء كل اعضاء الحزب الذين يعرفون الالمانية. وتم إنشاء منظمة سياسية وعسكرية لم يلتحق بها فقط مناضلون من الاممية الثالثة، بل كذلك تقنيون سوفيات. وكما يؤكد بيير برويه، إذا «جرى غالباً تضخيم عدد الضباط والتقنيين الروس المرسلين الى المانيا لتأطير الانتفاضة المزمعة[٨٤]» يبقى أنه جرى تعزيز الكوادر الشيوعيين الالمان، للمناسبة، بـ «إرسال مدربين، واختصاصيين، وشيوعيين أجانب تلقوا في روسيا تكويناً مناسباً وخرجوا من أُطر الجيش الأحمر، أو كذلك شيوعيين روس[٨٥]». وجرى من جهة اخرى ضم السفير السوفياتي في برلين، نيقولا كريتينسكي، إلى اللجنة التي كلفت بالاشراف على مجمل العمل الانتفاضي[٨٦].

هكذا لم تكن سنوات عدة من السياسة الخارجية الحذرة والمصالِحة، والاهتمام بتأمين مكان لروسيا الجديدة في اللعبة الدبلوماسية، لم تكن كافية لتلم نصل الارتكاسات الثورية التي كان البعض يعتقدون انها قد خمدت. ففي حين كان لينين يمّحي من الساحة السياسية، كانت السلطة السوفياتية تكشف هكذا أن التناقض بين رسالتها الهدّامة وممارستها «الواقعية» لم يكن عائداً للتخلي عن دعوتها الثورية بل إلى ديالكتيك اكثر تعقيداً حيث كان «نفي الأضداد» («هدم» - «تفاوض») يحاول مرة أخرى استخلاص تأليف يتناسب مع وضع دولة عمالية مفصولة عن معظم جيش البروليتاريا. وبديهي أن هكذا تأليفاً كان صعباً بوجه خاص. لم يكن ممكناً إلا إذا نجحت العوامل المتنوعة ونجح الممثلون المتنوعون للسياسة السوفياتية، رغم اختلاف التشريطات التي كانوا يخضعون لها، في الاحتفاظ بوعي حاد لأهداف الحركة، وعبر تعرجات السياسة اليومية، بالوعي الذي لا يقل عمقاً للأولويات الاستراتيجية على الاعتبارات التكتيكية. كان يجب ان يبقى ادراك المشروع الاجمالي حياً في

القمة .وبالتالي صالحاً للعمل، وألا تغرب عن البال، حتى في فترات التراجعات المتكررة والركود الطويل، متطلبات عدم التضحية إطلاقاً بالجوهري لصالح الثانوي، وذلك على المدين الطويل والقصير. ولقد توجب في النهاية على اللينينية بالذات الاضطلاع بهذا الدور السياسي والايديولوجي الذي كان يتطلب من المضاء والمرانة السياسيين القدر نفسه الذي يتطلبه من الحزم على صعيد المبادىء الثورية(*). كان على اللينينية، بخُطَبها كما بممارستها، أن تستخلص انطلاقاً من الوضع الراهن المبلبل، الحسَّ التوحيدي والتعبوي الذي من دونه كان تورَّطَ المشروعُ السوفياتي في رمل التجريبية العقيمة والنزعة القومية الضيقة.

إلا أنه ماكان بالامكان الاضطلاع بهكذا وظيفة إلا بمقدار ما تلعب بُنى مؤسسية دور أداة لها. فمتطلبا الدفاع والهجوم المزدوجان، والضرورات المتناقضة المتمثلة في حماية المكتسب والإبقاء على حيوية الحركية الثورية، كانت تستتبع ازدواجاً مؤسَّسياً حاول النظام السوفياتي جاهداً إقامته. ففي الاسابيع الاولى التي تلت إرساءه، اعتقد أن في وسعه الاستغناء عن جهد كهذا. ولقد كان ذلك في الحقبة التي كانت الدولة تضطلع فيها بنفسها بعبء مجمل القطاعات السياسية وتسعى لأن تنفذ بصورة غير متميزة، العمليات الأصعب تلاؤماً (فيما بينها). ففي حين اوكلت إلى مفوضية الشعب للشؤون الخارجية مهمة التفاوض مع الدول الاجنبية، كانت تستفيد في الوقت ذاته من إعانات مالية كان عليها تخصيصها لإطاحة تلك الحكومات. وقد كشف مسار مفاوضات بريست ـ ليتوفسك واختتامها بشكل معاهدة تربط دولتين وتفرض عليهما التزامات جازمة بـ «الاحترام المتبادل» صدعاً سعى البلاشفة في الحال لسدِّه. ففي حين أعلن تشيتشرين، كرئيس للدبلوماسيةالسوفياتية، عن إرادته فرض احترام بنود المعاهدة، تكلم سفردلوف في آذار ١٩١٨ امام المؤتمر السابع للحزب الشيوعي فشرح لمناضلين جاهلين القانون الدولي العام، قائلاً: «بوصفنا حكومة وسلطة سوفياتية، لن نكون قادرين بعد الآن على أن نخوض كما فعلنا حتى الآن حملة واسعة من التحريض الأممي. وهذا لا يعني مع ذلك أننا نتخلى عن هذه الحملة. لكن بدل أن نخوضها باسم الحكومة، سوف نعهد بمسؤوليتها إلى اللجنة المركزية للحزب[٨٧]».

لم يكن هذا غير حل أول ومؤقت لمشكلة صعبة. وقد سمح خلق الاممية الثالثة، عام ١٩١٩، بوضع صيغ أكثر بلورة جعلها التماهي التدريجي للدولة السوفياتية والحزب الشيوعي، للحكومة واللجنة المركزية صيغاً لا غنى عنها. وفي عام ١٩١٩، في حين كانت

(*) في كتاب جوليوس برونتال حول تاريخ الامميات العمالية يعترف رغم تحيزه المعادي للشيوعية بأن «لينين اخضع مصالح روسيا لمصالح العمال بصورة اجمالية، كما كان يتصورها، أي لمصالح الثورة العالمية». (ج. برونتال، **History of the International (1914 - 1943)**، لندن، ١٩٦٧، ص ٢٦١).

تدور الحرب الاهلية والتدخل الخارجي في روسيا، إذا كان الحزب الشيوعي (أو الأممية) والحكومة السوفياتية استخدما عموماً اللهجة المتصلبة أيضاً التي كانت تفسرها حدة المعركة، فقد جرى تدشين سيرورة «ازدواج وظيفي» عام ١٩٢٠ في حين كان يجري تحسين الجهاز الدبلوماسي للدولة وتنظيم الاممية الثالثة في الوقت ذاته. الا انه منذ عام ١٩١٩، كان تشيتشرين قد اعلن ما يلي: في حين «تعتمد الدبلوماسية السوفياتية سياسة الدفاع وتضطر لإبداء حس حاد بالمسؤوليات، وإذ نتكلم على المهام الايجابية للأممية الثالثة، علينا أن نتفادى مماهاة الأحزاب الشيوعية التي تنتسب إليها مع الحكومة السوفياتية التي يسيطر الشيوعيون فيها أيضاً[88]». هذه اللغة الغامضة فقدت غموضها تدريجياً وقام نوع من «قسمة العمل» بين الدولة السوفياتية والمنظمة الشيوعية الأممية. وهذا ما يعبر عنه، بصورة متكلفة بعض الشيء، أرثور روزنبرغ في كتابه Histoire du Bolchevisme: «من عام ١٩٢١ إلى عام ١٩٢٣، غدا تناقضٌ خطير محسوساً بين الممارسة التحريفية للحكومة السوفياتية والخطب الثورية «على الطريقة الروسية» للأممية الشيوعية[89]». وهاكم بعض الأمثلة.

عام ١٩٢١، عُقد بين روسيا السوفياتية وبريطانيا العظمى اتفاق تجاري كان أحد بنوده يحظر على الفريقين أي لجوء إلى تحريض أو دعاوة هدّامين. لكن لم تكد تمر بضعة أشهر بعد توقيع المعاهدة حتى احتجت الخارجية البريطانية لدى موسكو على الانتهاكات المتكررة لهذا الشرط. وقد رد السوفيات ملقين مسؤولية الوقائع التي جرَّمها البريطانيون على مأمورين في الاممية الشيوعية. وكان يمكن ألا تكون شكلية محاجّة كهذه مقنعة في الوقت الذي تبدو فيه مفيدة جداً في بعض الظروف[90]. وبعد عام، أيَّد المفاوضون السوفيات في جنوى عقد مؤتمر تداولي حول نزع السلاح وكلّفت الحكومة السوفياتية نفسها تنظيم لقاء إقليمي يلاحق الهدف نفسه. إن استعدادات سلمية إلى هذا الحد لم تكن تتفق مع مبادىء الماركسية الثورية. لكن إذا كانت الهيئات الرسمية السوفياتية تسعى لتوطيد ركائز النظام ولتعزيز مواقع روسيا في العالم عن طريق تشجيع نزع السلاح العسكري، فلقد كانت الاممية الثالثة تضطلع من جهتها بمهمة حماية المناضلين ضد مخاطر نزع سلاح سياسي. ففي حين كان الدبلوماسيون يستخدمون لغة الاعتدال ويخضعون للانتهازية البورجوازية الصغيرة، كانت صحافة الاممية الثالثة تعلن أن «نزع السلاح مستحيل طالما تبقى البورجوازية في السلطة وطالما لا تكون الثورة البروليتارية قد انتصرت[91]». وإذا كانت روسيا السوفياتية برهنت في علاقاتها مع المانيا عن مرانة عظيمة إلى حد التوصل للتعاون مع الاوساط العسكرية والصناعية الالمانية، لم يكن يفوت الاممية الشيوعية أن تضع في الوقت ذاته إمكاناتها المهمة في خدمة عَمَلٍ هَدْمٍ موجه مباشرة ضد الطبقة المسيطرة في المانيا الفايمارية.

هكذا إذاً، سعت السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي، عبر خليط من التنازلات

التكتيكية والمبادرات الجريئة أحياناً وبفضل ازدواج مؤسساته الخاصة به وزائدته الاممية، إلى إضعاف العالم الرأسمالي وتهيئة الهجوم الذي قد يؤدي إلى انهياره، وذلك حتى في ظروف عزلته. كان هكذا مشروع يتطلب مع ذلك بلورة استراتيجية ثورية إجمالية وأداةٍ من شأنها وضعهـا موضع التنفيذ. لم يكن الأمر يتعلق بغير قيام البلاشفة وحلفائهم بكسب الحركة الاشـتراكية التي كانـوا يريدون أن يكـونـوا ممثليهـا الشرعيين الوحيدين. ولما كان انضمام الـبروليتـاريا العالمية إلى الهجوم الثوري الروسي، مكمِّلاً انتصارات عام ١٩١٧، لما كان الوحيد القادر على ضمان انتصار الاشتراكية، أضافت اللينينية هذه المهمة إلى كل المهمات التي كانت بدأتها.

الفصل الثالث

الأممية اللينينية

بما أنه جرى تصور الثورة الروسية كحلقة ومرحلة من الثورة الاشتراكية العالمية وكان الحزب البلشفي يظهر كفصيل من جيش بروليتاري اوسع ، كان على اللينينية بالضرورة أن تجعل جهدها يشمل مجمل الحركة الاشتراكية الاممية. وإذا كان لينين قد تصوَّر عمله قبل عام ١٩١٤ في إطار مقاومة التحريفية والانتهازية التي كان يماثل المنشفية بها، فإن إفلاس الاممية الثانية في معارضتها للحرب وكل مستتبعات هذه الهزيمة كشفت له ضرورة خرط مجمل الطبقة العاملة المنظمة في طرق جديدة تماماً. فبعد أن كسبت نظرية لينين الثورية الحزب البلشفي ، حددت لنفسها هدفاً هو هداية الحركة الاشتراكية بكاملها وكسبها.

وطموح كهذا كان يعني اكثر من هجوم على الاصلاحية التي كانت احداث آب ١٩١٤ كشفت اتساعها غير المشتبه به: سرعان ما ادت الى الانهيار الكامل للوحدة الاشتراكية. واللينينية، المحاكمة على المستوى العالمي ، قدَّمت نفسها مذاك في نظر مهاجميها كعملٍ انقسامي كانت له نتيجة وخيمة هي إضعاف البروليتاريا وإفادة البورجوازية. هذا الاتهام، الذي بات كلاسيكياً، سمَّم النقاش بين الأجزاء المتعادية مذاك للحركة العمالية. لقد جرى تقديم خلق التنظيم الشيوعي العالمي ، تارة كإثم(*)، وطوراً كخطأ(**) أو حدث

(*) وهذه هي الاطروحة التي طلع بها جوليوس برنتال، من ضمن اطروحات عديدة أخرى، وهي تقول: «انها (أي الشيوعية) اضعفت الاشتراكية عن طريق شق الحركة العالمية وزجها في صراع داخلي قاتل، وذلك عند منعطف من التاريخ.» (مرجع مذكور، ص ١٨١.)

(**) هذه هي وجهة نظر أني كريغل (. انظر **Aux origines du communisme francais,** باريس، ١٩٦٤.)

عارض لكن دائماً ـ إذا استثنينا اللينينيين من ملاحن متنوعة ـ كأحد التقلبات المؤسفة للتاريخ. ويضاف إلى ذلك، في الخانة السلبية للينينية، أنها أقامت مؤسسة، سرعان ما غرقت في التوتاليتارية، تحت غطاء الاشتراكية؛ وتحت غطاء الأممية، قدمت للدولة السوفياتية أداة خاضعة ومزيِّفة. وإن أي تحليل لعمل لينين يجب أن يبرز هذه الاتهامات بالضرورة ويثمِّن مدى صحتها.

اللينينية القسَّامة؟

منذ الأشهر الأولى للحرب، وبعد أن لاحظ لينين في بداية ايلول ١٩١٤ أن «قادة الأممية.. خانوا الاشتراكية[١]»، توقع انشقاق الاشتراكية ـ الديمقراطية الالمانية. إلا أنه في آذار ١٩١٥، طرح المشكلة بتعابير اكثر عمومية وأكد ما يلي: «إن من يحلم بـ «الوحدة» بين الاشتراكيين ـ الديمقراطيين الثوريين والشرعويين Légalistes الاشتراكيين ـ الديمقراطيين «الاوروبيين» جماعة الأمس واليوم لم يتعلم شيئاً ونسي كل شيء؛ إنه في الواقع حليف للبورجوازية وعدو للبروليتاريا[٢]». وقد اعتبر، من جهته، في **الاشتراكية والحرب** المكتوب في تموز ١٩١٥، أن «الانفصال عن الانتهازيين والشوفينيين هو الواجب الأول للثوري[٣]». بعد قول ذلك، كان ثمة مجال للتساؤل «إذا كانت الشروط قد غدت ناضجة لتشكيل أممية جديدة. إن الحزب البلشفي، ضمن هذه الفرضية ـ أضاف لينين ـ «سوف ينتسب بفرح إلى هذه الاممية الثالثة، المطهَّرة من الانتهازية ومن الشوفينية[٤]».

إذا كان تأسيس أممية جديدة يطرح إذاً مشكلة ملاءمة(*)، فلقد لاحظ لينين في شباط ١٩١٦ أن «انشقاق الحركة العمالية والاشتراكية واقع ناجز في العالم بأسره» وأنه من «المضحك.. إغماض العينين على هذا الصعيد[٥]». كان الأمر يتعلق فقط باستخلاص النتائج من ذلك ما أن يصبح هذا ممكناً، ولقد راح يبذل جهوده من أجل إقناع التيارات المعتدلة في الحركة الزيمرفالدية بذلك، حتى اندلاع الثورة في روسيا. وما أن وصل إلى بتروغراد حتى طلب من أنصاره «أخذ المبادرة لخلق أممية ثورية[٦]» موضحاً من جهة أخرى أن الحزب «يجب ألا ينتظر ويجب أن يؤسس الاممية الثالثة في الحال[٧]». ومع أن لينين أصر كثيراً

(*) هكذا كان لينين يقدِّر أن إدانة الانتهازية وفضحها «لا يعنيان أن القطع الفوري (مع هذا التيار).. أمر مرغوب فيه، ولا حتى ممكن فقط في كل البلدان». (لينين، **الأعمال الكاملة**، ج ٢١، ص ٤٦١).

على العودة إلى المشكلة، حتى بعد وصول البلاشفة إلى السلطة[8]، فقد اضطر للصبر حتى عام ١٩١٩ قبل أن يتمكن من وضع هذا المشروع موضع التنفيذ، إذ إن مواصلة الحرب جعلت من المستحيل إعادة العلاقات بين اشتراكيي البلدان المتحاربة.

من المؤكد إذاً أن لينين حكم على انشقاق الحركة العمالية الاممية، كما كانت موجودة قبل الحرب، حكم عليه على طريقة صراع الطبقات، كأمر واقع وفي الوقت ذاته كضرورة من شأنها تسهيل العمل الثوري الأوروبي. وإذا كان هذا التقدير الأخير ذاتياً، وبالتالي قابلاً النقاش، فالفكرة الأولى ليست، على العكس، غير ملاحظة فرضتها الاحداث المنبثقة من الحرب. فانفجار هذه الأخيرة و، أكثر أيضاً، ردود الفعل المتناقضة التي أحدثتها فاقمت العلاقات الصعبة التي كانت قائمة بين الاتجاهات الاشتراكية. بات التيار اليميني في الاشتراكية ـ الديمقراطية الاوروبية اكثر اندماجية(*) وخطا في هذا الاتجاه خطوات حاسمة: حتى في دول، كألمانيا، لم يدخل فيها الاشتراكيون حكومات «وحدة قومية»، استفاد تعاون الطبقات، إيديولوجياً وبالملموس، من تشجيعات قيِّمة. وفي الطرف الآخر من مروحة الاتجاهات الاشتراكية، باتت الراديكالية اكثر راديكالية. وقف في وجه حس «الدولة» والـ «مسؤوليات» لدى الأولين، خليط أكثر فأكثر تفجراً من نفاد الصبر والسخط والتصلب. فمنذ ما قبل عام ١٩١٦، وحتى قبل أن تؤدي الثورة الروسية وتطورات البلشفية إلى زيادة الانقسام بين اليمين الإصلاحي واليسار الثوري، حدث انشقاق في صفوف الحركة العمالية السويدية وفي صفوف الاشتراكية ـ الديمقراطية الالمانية. وبالنسبة لهذه الأخيرة، تسببت هذه القطيعة، تنظيمياً، بطلاقٍ كانت علاماته تتزايد بقدر ما كانت تطول الحرب. فبين الاشتراكيين اليساريين «بات مسألة شرف أن يجري الشعور تجاه الخونة (خونة الحزب، م.ل.) بكراهيةٍ أشد مما حيال «أي كان» وأن يجري خوض معركة ضدهم ذات طابع أولوي[9]». أما الاشتراكيون اليمينيون فلم يتردد معظم ممثليهم في التشارك مع محافظي الرايخستاغ للتصويت على رفع الحصانة البرلمانية عن رفيقهم ليبنخت، مسلّمينه هكذا إلى زنازين غليوم الثاني[10].

كان التوتر بين الاشتراكيين المستنفَر بعضهم ضد البعض الآخر، قد غدا فوق الاحتمال، في كل مكان. ففي فرنسا، حيث عمل ضعف اليسار الثوري على جعل التيار اليميني متسامحاً بعض الشيء، تعرض النقابي الأقلي ميرهايم للكثير من التهديدات بحيث لم يعد يذهب إلى اجتماعات تنظيمه إلا بحماية كلبيه[11]. وبالنسبة للاشتراكيين الروس، إذا لم

(*) المقصود الاندماج في الأمر الواقع البورجوازي والتكيف معه لا الانقلاب عليه، (المعرب).

يكن الصراع بين الإخوة جديداً فقد اتخذ مع اندلاع الحرب العالمية شكلاً أكثر احتداماً أيضاً. فحين حضر البلشفي كريلنكو، الذي سيبرز أثناء ثورة أوكتوبر، حين حضر في سويسرا محاضرة ألقاها بليخانوف، الملتحق بالنزعة الوطنية، لم يتمكن من كبح دموعه وغضبه الشديد، إزاء شوفينية الزعيم الاشتراكي العجوز. فصرخ في وجه «أبي الماركسية الروسية[١٢]»: «سوف يجيء وقتنا، أيها القذر». صحيح أن هذا الاخير، الذي كان يعترف بتفضيله انتصار الرجعية القيصرية في روسيا على اخذ البلاشفة السلطة، كان قد أعلن لأنجليكا بالابانوفا، بعد بدء النزاع بقليل: «من جهتي، إذا لم أكن مريضاً فسوف أتطوع. فغرز حربة في جسم أحد رفاقك (الاشتراكيين ـ الديمقراطيين، م. ل.) الألمان، سوف يعطيني لذة قصوى[١٣]».

كانت الأمور وصلت إلى هذا الحد في معسكر الاشتراكية الدولية حين أنبتت احداث روسيا ١٩١٧ وبدايات الثورة الالمانية رُشَيْمات حقد وانقسام جديدةً. إن الظروف التي احاطت بسقوط آل هوهنزلرن وولادة جمهورية فايمار كشفت بوجه خاص إلى أي حد لم يعد لوحدة الحركة الاشتراكية قيمة الاسطورة. ففي حين كان السبارتاكيون يَجْهَدُون في الواقع، بفضل ضغط الجماهير البروليتارية المستهابة، لإعطاء ثورة تشرين الثاني أهدافاً اشتراكية، تبدّىَ تيار الاكثرية في الاشتراكية ـ الديمقراطية، على العكس، كقوة محافظة اجتماعية مستعدة لاستخدام أعنف الوسائل لإيقاف الهجوم المعادي للرأسمالية. وقد وقَّع القادة النقابيون الالمان، من جهة اخرى، مع قادة ارباب العمل اتفاقاً يتعلق بخلق «وحدة عمل[١٤]»، واستحقت قيادة الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي، وفقاً لكلام شيدمان بالذات، اعتراف اليمين المطروح أرضاً بأنها «عامل خلاص بالنسبة للدولة[١٥]». ولم يكن ينقص إلا القليل كي ينجح الاشتراكيون الالمان الاكثريون في إنقاذ الدولة الامبراطورية بالذات. وذلك كان في كل حال هدف فريدريك إيبرت الذي كوفىء بلقب الرئيس الأول للجمهورية على حماسٍ ملكي غير فعال مع ذلك. وحين أعلن فيليب شيدمان نهاية الملكية من على شرفة الرايخستاغ، مستبقاً مبادرة اليسار وسط صخب المظاهرات الثورية، استدار إيبرت، الذي جعل منه موت بيبل الزعيم الاكبر للحزب الاشتراكي الالماني ـ ايبرت هذا بالذات الذي كان قد اعترف للتو للأمير ماكس دوباد بأنه يكره الثورة «كما يكره الخطيئة[١٦]» ـ استدار نحو رفيقه في الحزب وشتمه فيما «وجهه مُصْفَرّ من الغضب»: «لم يكن من حقك إعلان الجمهورية.. ماذا سيكون مصير المانيا الآن؟..[١٧]». وكما يقول المؤرخ بيترغاي «لقد جرى فرض الثورة (الديمقراطية ـ البورجوازية) على الاشتراكية ـ الديمقراطية فرضاً تقريباً[١٨]».

إن الاشتراكيين الاكثريين، الشرعويين حتى المحافظة، والمعادين للثورة إلى حد البقاء

أطول وقت ممكن بمعزل عن حركة جماهير كانت تهدف مع ذلك إلى إرساء نظام جمهوري سبق أن نادوا به مبدئياً، أبدوا القدر نفسه من الحماس للنضال كأعداءٍ للثورة ضد السبارتاكيين، الذي كانوا أبدوه، كوطنيين ألمان، في قتال فرنسا أو روسيا. وإن واحداً منهم، نوسكه، هو الذي قبل، حسبما كان يقول، «وظيفة جلّاد»[19] أو «Bluthund» بصورة أدق، عن طريق قيادة عمل القوى النظامية وفرق المتطوعين من أقصى اليمين. فقد استعرض، بصحبة إيبرت، في بداية شهر كانون الثاني ١٩١٩، قوات الهجوم، المكوَّنة من متطوعين نافدي الصبر للاشتباك مع العمال الثوريين. وقد صرخا: «جنود حقيقيون!» بإعجابٍ إزاء اولئك العسكريين الذين سيبرزون في القمع الدموي للانتفاضة البروليتارية[20]. ونوسكه بالذات، هو الذي أمر الجيش، دون أن يلومه حزبه إطلاقاً، بـ «إطلاق النار فوراً على كل شخص يكون حاملاً السلاح[21]».

ولم يكن الامر يتعلق فقط برجل. فطالما أن الصحافة الاشتراكية ـ الديمقراطية كانت تندد بـ «قُطّاع الطرق المسلحين من عصبة سبارتاكوس» وتصورهم لقرّائها كـ «مجانين» و«مجرمين»، ليس ما يدعو للدهشة إذا كان إخفاق الحركة الانتفاضية ـ وهي حركة تيار اشتراكي، مع ذلك، وإن كان متطرفاً ـ أدى الى ذبح الاف العمال، خلال المعارك وبعدها، وقتل كوكبة من القادة الاشتراكيين الثوريين والمناضلين البارزين، الأعضاء هم أيضاً في حركة عمالية منقسمة على نفسها: روزا لوكسمبورغ وكارل ليبنخت، لكن أيضاً، ليفيني، ولانداور، وجوغيشز Jogisches، وإيجلهوفر، وغاندورفر، ومولر، وفيرنباش، وغيرهم، الذين استفاد قَتَلَتُهم، في ظل نظامٍ كان الاشتراكيون ـ الديمقراطيون يمسكون فيه غالباً بزمام القيادة السياسية، من مراعاةٍ لا حدود لها.

بات هنالك مذاك، بين الاشتراكيين والشيوعيين، الأخوة المنقسمين في عائلة كانت موحدةً سابقاً، أكثر من قطيعة سياسية: التجربة المعيشة لامتحان حاسم جرى خلاله تجريب الهجوم البروليتاري ضد الرأسمالية وشهدهم يصطفون في معسكرين تفصل واحدهم عن الآخر حفرة ملأى بالدم. يضاف إلى ذلك، في النزاع الاشتراكي ـ الشيوعي، ذلك الاستقبال الذي أعده الاشتراكيون الاكثريون الألمان لروسيا البلشفية.

بما أن مؤتمر مجالس برلين العمالية طلب إلى الحكومة الاشتراكية المتجانسة بقيادة إيبرت أن تعيد العلاقات الدبلوماسية مع روسيا السوفياتية التي كان قطعها النظام الامبراطوري الزائل، قطع السفير السوفياتي يوفي رحلة العودة إلى موسكو وانتظر على الحدود أن يستدعيه إلى برلين الوزراء الجمهوريون ـ والاشتراكيون ـ الألمان. كان في ذلك عدم أخذٍ بالحسبان للعداء الحاد للشيوعية التي باتت تكنّه السلطة الجديدة. ولقد أعلمت هذه الاخيرة الحكومة السوفياتية، بادىء ذي بدء، بأن استئناف العلاقات الدبلوماسية يجب أن يكون مدار

مفاوضات. وقد أوصى احد الوزراء الجدد، وكان مع ذلك اشتراكياً مستقلاً ومصنَّفاً إلى اليسار، بسياسة مماطلة. أما كارل كاوتسكي، الذي غدا بفضل ثورةٍ لم يكن يتمناها، مستشاراً ليس فقط في الماركسية النظرية بل كذلك في الدبلوماسية العملية، فأكثر من الحديث بهذا المعنى. قال: «يجب تأجيل القرار النهائي لأن الحكومة السوفياتية لن تستطيع الصمود وستسقط حتماً خلال أسابيع قليلة». وقد اتُّخذ القرار أخيراً بعدم إعادة العلاقات الدبلوماسية مع النظام السوفياتي[22]. . اكثر من ذلك، منعت الحكومة الاشتراكية الالمانية كريستيان راكوفسكي، سفير السوفييتات لدى الجمهورية النمساوية، من الالتحاق بمركزه في فيينا[23]. وبعد قليل، أرسلت الحكومة ذاتها ممثلاً إلى البلدان البلطقية هو النقابي وينيغ. فعقد اتفاقاً هناك مع الانكليز يقاتل بموجبه الجيش الثامن الالماني والقوات البريطانية، خصوم الأمس المتصالحون بمواجهة عدو اليوم، جنباً إلى جنب ضد الجيوش البلشفية. وهذا هو في كل حال مضمون اتهام أطلقته روزا لوكسمبورغ خلال مؤتمر تأسيس الحزب الشيوعي الالماني، وهو ما أكده البروفسور كار وأرتور روزنبرغ[24]. فيما بعد، استفادت قوات الجنرال الالماني فون در غولتز، النشطة جداً في الصراع ضد البلاشفة، لاسيما في فنلندا حيث تدخلت بشكل حاسم في عملية سحق البروليتاريا الفنلندية، استفادت من المساعدة المالية التي استمر فريدريك إيبرت بمنحها إياها[25]. وفي المجابهة بين الغرب الرأسمالي وروسيا الشيوعية، فضَّل اشتراكيو فايمار، الذين كان لديهم مع ذلك ما يبرر الوقوف موقف التحفظ بسبب إذلال مؤتمر فرساي (للدولة الالمانية)، فضلوا على فضائل الحياد إغراءات تورط لا تحفظ فيه. وكان ذلك، بعد كل شيء، أمراً منطقياً: لما كان الدفاع عن النظام البورجوازي استفاد من دعمهم النشط، فإن السياسة الخارجية التي مارسوها اتخذت الوجهة نفسها.

تكلم لينين في المؤتمر الثاني للاممية الثالثة على التيار الاشتراكي الذي كان ينتسب إليه الاكثريون الالمان، فأعلن ان الأمر يتعلق ثمة بـ «اشتراكية غير بروليتارية بل بورجوازية»، مؤلفة من «أفضل المدافعين عن البورجوازية[26]». هذا التأكيد، المغلوط سوسيولوجياً، كان منيعاً من الناحية السياسية. وسنرى كم كانت غير كافية محاولة لينين التعبير عن القواعد الاجتماعية للاشتراكية اليمينية(*). لكن أن يكون هذا التيار اختار موضوعياً - وذاتياً - الدفاع عن المجتمع البورجوازي في الوقت الذي كان معرضاً فيه للخطر، كان لابد أن يؤدي إلى صَفِّه، خلال فترات صراع طبقي حاد، في المعسكر المعادي للبروليتاريا والمعارض بعنف في كل حال للبروليتاريا الثورية. بهذه الطريقة انطرحت بشكل رئيسي مشكلة الوحدة الاشتراكية عشية ثورة أوكتوبر وغداتها.

(*) انظر أدناه، ص ٢٩٥ وما بعدها.

لكن قد يكون من الخطأ بخس تقدير جسارة مواقف لينين حين دعا إلى استخلاص نتـائـج تنظيمية نهائية من هذا الانقسام البديهي للحركة الاشتراكية. لأنه إذا كان صراع الطبقات يرسم الآن حدّاً داخل الحركة الاشتراكية بالذات، وإذا كان انفلات الأحقاد، من جهة كما من الأخرى، يعبِّر عن عمق الخلافات وعن عدم إمكانية إيجاد قاسم مشترك للكتل، فإن الأمر كان يحتاج إلى الكثير كي يرضخ الجميع لوضع حد على المستوى المؤسَّسي للوحدة العمالية. إن لينين، الذي هيأه لهذا التمزق الصراع ضد المناشفة وتكوين حزب بلشفي مستقل، كان يستشعر أقل بكثير من قادة ثوريين آخرين، ليسوا أقل راديكالية، الطابع المأساوي وشبه الخارق للقدسيات لانشقاق وبادرة قطيعة. فروزا لوكسمبورغ وكارل ليبنخت والسبارتاكيون الألمان الأقل تسلحاً لمواجهة امتحان كهذا، اظهروا على امتداد سنوات ترددهم وتناقضاتهم. غير أنه لم يكن ثمة أثر لديهم لأدنى مراعاة للحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي وقادته الرسميين الذين كانت لوكسمبورغ، من ناحيتها، تصوِّرهم كـ «الأوغاد الأشد نذالة الذين عرفهم العالم يوماً[٢٧]»، وتصف المنظمة الاشتراكية ـ الديمقراطية ذاتها بـ «الجثـة المثيرة للتقيؤ[٢٨]». لكن كان لابـد من التمييز بين وصف القـادة الأكثـريين بـ «الكلاب» وأن تُسْتَمْطَر ضدهم العقوبات العادلة التي قد تنزلها بهم يوماً البروليتاريا الألمانية[٢٩]. كما أنه كان شيئاً آخر تماماً أن يتم استنفاد العمل الانقسامي الذي بوشر مع ذلك به إلى أبعد الحدود، عن طريق الاضطلاع بمسؤولية خلق منظمة ثورية جديدة والتخلي عن العالم الاشتراكي القديم إلى الأبد. لقد كان هناك، بين المناضلين السبارتاكيين الأكثر جذرية، تعلق كبير بالمؤسسة القديمة وخشية عظيمة من الانشقاق لدرجة أنهم ترددوا في مغادرة الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الأكثري إلى حين غادره الوسطيون بالذات أو طُردوا منه وتهيأوا لتشكيل ح. ا. د. م (الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي المستقل). ولقد فكر السبارتاكيون في البدء في النضال ضمن هذا وذاك من التشكيلين[٣٠]. وهذا ما قرروه في كانون الثاني ١٩١٦، في اليوم ذاته الذي أيدوا فيه إعلاناً من جانب روزا لوكسمبورغ لصالح خلق أممية جديدة «تمسك بالقيادة في كل مكان وبتنسيق صراع الطبقات ضد الامبريالية[٣١]».

إن انعدام التماسك هذا يعبر عن إيديولوجية وحدوية كانت قوتها تقاوم الهجمات الأشد عنفاً. ففي آذار ١٩١٦، كان كارل ليبنخت يشرح في الـ **Spartakusbriefe** أن رفاقه يحددون لأنفسهم هدفاً هو «استعادة الحزب من أعلى إلى أسفل[٣٢]». لكن روزا لوكسمبورغ والتي كتبت فيها بدورها، وفي الفترة ذاتها، سخرت من «السذاجة السياسية» لدى القادة الوسطيين الذين يعتقدون أن في وسعهم أن يوقظوا يوماً الاشتراكية ـ الديمقراطية العجوز والجديرة

بالاحترام[٣٣]. والحال انها هي ذاتها كانت قد عارضت تشكيل الـ «Arbeitgemeinschaft» وهو تجمع مؤقت سيولد منه سريعاً الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي المستقل الذي انضمت إليه فيما بعد[٣٤]. وهذا الفقدان للاتساق لم يختفِ في تشرين الثاني ١٩١٨ عندما انفجرت الثورة. فلقد وقف السبارتاكيون يومذاك ضد خلق منظمة شيوعية واعتبروا أن في الامكان الحصول على الاكثرية داخل الحزب الاشتراكي المستقل، إذ سيتيح اللجوء إلى الاجراءات الديمقراطية العادية (في نظرهم) إنزال الهزيمة بالقادة الوسطيين المندِّد بهم دون هوادة. وسينبغي الانتظار أخيراً حتى كانون الأول لتقرر أكثرية السبارتاكيين، وضد رأي روزا لوكسمبورغ، أن يتم التشكُّل في حزب شيوعي. لكن في العديد من المراكز الالمانية، سيتم الانتظار حتى آذار ١٩١٩ لتحصل فيها إعادة تجمع حقيقية للثوريين[٣٥]. في تلك الفترة، كانت الجماهير المتجذرة قد منيت بهزائم لن تنجح في النهوض منها أبداً. وعجز كهذا لم يكن يمكن تفسيره فقط بالتعلق بالوحدة التنظيمية للطبقة العاملة، مع أن هذا الشعور كان بين اقوى المشاعر وكانت تلهمه القناعة بأن قوة ارباب العمل والبورجوازية لا يمكن هزيمتها إلا بتضامن البروليتاريا الفاعلة. لقد كان التردد في تأسيس حزب جديد يتعلق أيضاً بالخوف من الانقطاع عن الجماهير العمالية. فمنذ عام ١٩٠٨، كانت لوكسمبورغ قد حاولت ثني صديقتها هنرييت رولان ـ هولست التي كانت قررت، هي واشتراكيون هولنديون آخرون، ترك الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الإصلاحي لخلق منظمة جذرية. كتبت روزا لوكسمبورغ تقول: «أود أن أمنعك من ذلك بكل قواي.. فليس في وسعنا أن نكون خارج التنظيم، بعيداً عن الاحتكاك بالجماهير. **إن أسوأ الأحزاب العمالية أفضل من عدم وجود حزب إطلاقاً**[٣٦]».

لم يكن لينين ليدحض هكذا رأياً. فالقطع التنظيمي للوحدة الاشتراكية لم يكن بالنسبة إليه مسألة مبدأ وحسب، بل مسألة ملاءمة وضرورة وظيفية. وإن إرادته خلق حركة شيوعية دون أية علاقة مع الاصلاحية القديمة الاشتراكية ـ الديمقراطية، حتى إذا كان يغذيها شعور بالقرف والسخط، كانت تتعلق قبل كل شيء بحكم سياسي لا يُضحى فيه بالواقعية لصالح الطُّهْرية الثورية. لقد كان تأسيس الاممية الثالثة ناتجاً على العكس من حساب استراتيجي وصادراً عن منطق صارم. فمنذ اللحظة التي سمح فيها تطور الرأسمالية في مرحلتها الامبريالية، واندلاع الحرب العالمية وتطور الأزمة التي ولَّدتها بالاضافة الى النجاحات الاولى للثورة الروسية، بالاعتقاد بأنه تُقدَّم للبروليتاريا الاوروبية فرصة تاريخية ينبغي أن تلتقطها في أسرع وقت، كانت تنطرح مسألة الأداة الثورية. وقد كان مستبعداً بشكل طبيعي أن تتمكن الأممية الثانية أو الأحزاب التي تتألف منها من العمل على إزالة بورجوازية كانت قد جعلت من نفسها حليفةً لها. فلا شيء في ايديولوجيتها، وفي مِلاكها

القيادي، وفي بُناها وطرائق عملها، كان يعدها لمواجهة امتحان الثورة. ولقد كانت أحداث ألمانيا تبرهن من جهة اخرى على أن الطاقات الاخيرة التي كان قـادراً عليها قادة اشتراكيون - ديمقراطيون، فاقدون جداً للحظوة في كل حال، كانت تنقلب في النهاية ضد البروليتاريا الثائرة. وكان لابد أن تولد من القناعة المزدوجة بأن صراع الطبقات في العالم دخل في مرحلة احتـدام وبـأن الثورة الروسية جزء من سيرورة هجومية أوسع، إرادة خلق المنظمة الاممية الثورية القادرة على إنجاح المعركة ضد البورجوازية.

مشروع كهذا، مبرر وظيفياً، كان يبدو في الوقت ذاته ممكناً تاريخياً. «لم يتمَّ بعدُ دفنُ الاشتراكية القديمة. . ، لكنها باتت قتيلاً في كل بلدان العالم، باتت ميتة[٣٧]»، هذا ما أعلنه لينـين في آذار ١٩١٨، ثم بعـد قليل: «لقد أطلقت البلشفية رصاصة الرحمة على الأممية القديمة المهترئة[٣٨]». وفي تموز ١٩١٩ تحدث من جديد عن «الوفاة المخجلة للاممية الثانية[٣٩]» ولاشك أنه كان في تلك التأكيدات عيار ما من المبالغة السجالية. لكن واقع خروج المنظمة العالمية للاشتراكية - الديمقراطية من الحرب بالغة الضعف أمر كانت تؤكده مغادرة صفوفها، من جهة، والشعبية التي كانت تتمتع بها الثورة الروسية(*)، من جهة اخرى. فما كاد وقف الاعمال الحربية يسمح بإعادة تصور إرساء جديد للعلاقات بين الاحزاب الاشتراكية، حتى كان الحزب الاشتراكي الايطالي، الذي كان الاقل معاناة بينها من اضرار النزعة القومية في اوروبـا الغـربية، يقرر الخروج من الاممية الثانية. وهو ما ستحذو حذوه فيه عدة أحزاب أخـرى. كان الانقسـام قد بات مقيماً داخـل صفوف الأممية القديمة، حيث أن الاحقاد والضغائن التي ولدتها الحرب لم تكن قد استنفدت آثارها - وهو أمر كان يلزمه الكثير- في صفوف الاشتراكيين الملتحقين بالنزعة الوطنية. حتى في البدان التي كانت تبدو بمنأى من العدوى الثورية، كان يحدث فضلاً عن ذلك تجذر للذهنيات وينمو اضطراب معبر وغني بالـوعـود. كانت الأسبـاب الكـبرى تعبر عن نفسها بآثار صغيرة: ألم يقبل حزب العمال البريطاني تعديل قاعدته البرنامجية وتضمينها للمرة الاولى مبادىء الاشتراكية الجماعية؟ في كل مكان، كانت الأكثرية الحاشدة أو المريحة التي طبعت الاحزاب الاشتراكية - الديمقراطية بتـوجـه يميني وشوفيني على طريق الانهيار أمام اندفاع اليسار والوسط، وبعد أن شهدت مواقعها تُخْتَرَق.

والحال أن هذه الانقلابات على صعيد الاكثرية وهذه الهزات السياسية كانت علامة ارتجـاجـات أعمق يشهد عليها قبل كل شيء هجوم الجماهير. فلقد كان لإضرابات فيينا

(*) انظر أدناه، ص ٢٦٦ وما بعدها.

وبودابست الكبرى، في كانون الثاني ١٩١٨، ما سماه المؤرخ الاشتراكي ـ الديمقراطي برونتال، الذي لا يمكن الاشتباه بأنه يبالغ في هذا الصدد، «صبغية ثورية عظيمة»[٤٠]. وحين تكررت الحركة بالاتساع ذاته في برلين، كان (المرء) يجد نفسه إزاء ما يسميه فرانز بوركو، الذي مثله مثل برونتال لم يكن ثمة ما يدفعه إلى التضخيم الثوري، «أكبر حركة ثورية بروليتارية بحصر المعنى في كل التاريخ المعاصر[٤١]». وذلك لم يكن غير مقدمة للثورة الالمانية التي اندلعت في نهاية العام نفسه.

بعد ثلاثة أشهر، وُلدت الاممية الثالثة في موسكو، في مقر جرى الاعتقاد بادىء ذي بدء بأنه مؤقت. وقد كرس تأسيسها قطعاً ظهر أولاً في الأفكار وانتهى في المعارك بين الإخوة. واللينينية لم تتسبب بهذا القطع، بل تحملت مسؤوليته، وإذ اضطلعت به بالكامل وجدت فيه الشرط الذي يتيح للـ «صراع النهائي»، المندفع أخيراً في قلعة الرأسمالية بالذات، أن يقضي في كل مكان على مُلْكِها.

الأممية واليساريون

«إذا كانت الاممية الأولى توقعت التطور اللاحق وطريق التقدم الذي قد تسلكه، وإذا كانت الاممية الثانية جمعت ملايين البروليتاريين ونظمتهم، فالأممية الثالثة هي أممية نضال الجماهير المفتوح، أممية الانجازات الثورية. إنها أممية العمل[٤٢]». هذا ماكان يقوله، في نهاية المؤتمر الأول (للأممية الثالثة) في آذار ١٩١٩، البيان الذي أصدرته المنظمة الجديدة لتسجيل فرادتها وخصوصيتها بالنسبة إلى سابقتيها اللتين لم تكن ترفض بالكامل إرثهما. وكأممية للعمل، سوف تحدد نفسها بعد وقت قصير، بمزيد من الدقة ومن الطموح أيضاً، على أنها «حزب الانتفاضة الثورية للبروليتاريا العالمية» وستعلن في آن معاً: «من الضروري إطلاقاً أن تنهض البروليتاريا وتباشر النضال لأجل السلطة[٤٣]». وقد أعلن رئيسها الأول، زينوفييف، بالقدر ذاته من المغالاة، خلال المؤتمر الثاني في تموز ـ آب ١٩٢٠: «نحن نقاتل البورجوازية العالمية، نقاتل أعداء مدججين بالسلاح ونحتاج إلى منظمة بروليتارية أممية حديدية»، «مجهَّزة بانضباط عسكري»[٤٤]. كانت القدرة إذاً على تنظيم الثورة والمضي بها إلى النجاح المطلب الذي ينبغي أن تلبيه الاممية الشيوعية. كان أسلوب عملها، وبُناها ونمط التنسيب إليها محددة تبعاً لهكذا مهمة. وكانت تستتبع قطيعة كاملة مع نموذج عمل الأممية الثانية التي لم تكن قوتها يوماً إلا ظاهرية والتي استمدت هيبتها بوجه خاص من التألقات التعزيمية الصرفة التي تميز بها أشهر ممثليها.

كان لابد أن يتناسب مع المهام الجديدة تركيب وتنسيب مجدّدَيْن بالكامل. ولقد كان بديهياً ألا يعود للاصلاحيين مكان في هذه المنظمة المنبثقة من المعركة والمتصورة لأجل المعركة. إلا أن هذه البداهة كانت تخفي مشكلة اضطرت الأممية الثالثة لحلها في الفترة الاولى من وجودها. فكأفراد، لم يكن القادة اليمينيون، المتلوثون بالنزعة الوطنية وبالتعاون الطبقي، واقعين بالتأكيد تحت إغراء المشاريع الثورية التي كانت الاممية الثالثة تنوي التخصص بها. لكن كأعضاء في أحزاب على طريق التجذر، كان بالإمكان أن ينضموا، ضمن فرضية موافقتهم على الخضوع لقانون الاكثرية، إلى منظمة غريبة عنهم بالكامل من حيث أهدافها وروحها.

هكذا انطرحت، ابتداء بعام ١٩٢٠ مسألة أثارت السجالات والأهواء الاكثر حدة: مسألة شروط عضوية الاممية الثالثة، ومسألة حالات الطرد والاستبعاد الملازمة. وكان يُعقِّدها أيضاً واقع أن تحديد الاصلاحية بالذات كان يفتح باباً للاضطراب. فهل كان واقع الخضوع لها في فترة الحرب، الحاسمة حقاً، يشكل غلطة لا يمكن إصلاحها؟ إن حالة مارسيل كاشين، رسول الشوفينية الفرنسية(*) وداعيتها، الذي انضم لاحقاً إلى الشيوعية، كانت تثبت، لوحدها، أن الامر لم يكن كذلك بالضرورة. ثم إن الاصلاحية كانت تحتمل أشكالاً شتى. فحين قرر قادة الاممية الشيوعية أنه يجب استبعاد «كل القادة الذين تورطوا مباشرة أو مداورة في التعاون مع البورجوازية(٤٥)»، ومع أنهم ابدوا تصلباً، إلا أنهم لم يلغوا مع ذلك صعوبات التفسير. لاسيما أنه ضمن مروحة التيارات المتخاصمة التي كانت تتجابه داخل الحركة الاشتراكية، كان يفصل اليمين غير المجادَل في اصلاحيته وعدائه للثورة واليسار غير المشكوك في ثوريته والانتفاضي أحياناً مستنقع واسع كانت الجغرافيا السياسية تطبق عليه آنذاك الوصف بالوسطية. ماذا سيكون عندئذ من أمر تلك العناصر العديدة والحائرة التي كان صدق مشاعرها الاشتراكية فوق الاتهام لكن كان ثمة شك على الأقل في قدرتها على العمل الجذري؟ كان لينين يوماً في الكرملين بصحبة كلارا زتكين، وكان يريد استعمال مصعد لم يكن يستجيب لمحاولاته، فاستدار نحو رفيقته وقال لها: «إنه مثل كاوتسكي: معصوم على صعيد النظرية، لكنه عاجز تماماً عن الحركة(٤٦)». ولقد كان بالامكان قول الشيء نفسه بصدد الكثيرين من أعضاء التيار الوسطي. وحين تسارعت حركة الانفكاك عن

(*) كان كاشين قد ذهب الى ايطاليا خلال الحرب، مكلّفاً بحفز الاشتراكيين الايطاليين لدعم دخول بلادهم في النزاع العالمي، في حين أنه بالنسبة لايطاليا اكثر مما بالنسبة لأي دولة مقاتلة لم يكن لتلك الحرب من هدف غير احتلال الأراضي.

الأممية الثانية ـ التي أعيد تشكيلها في بداية ١٩١٩ ـ شغلت مشكلة الانضمامات في كل حال كل الأذهـان واكد الرئيس زينوفييف، من جهته، أنه من الضروري «إحكام قفل أبواب الأممية الشيوعية» لأنه كان يخشى من أن «ينحط» الدخول إليها إلى نوع من الدُّرجة mode (٤٧)». ولقد كان وضع «الشروط الواحـد والعشرين» المشهورة، التي حررها لينين بكاملها، يهدف إلى منع انحطاط كهذا.

مهما تكن صارمة الشروط التي وضعت للانضمام الى الحركة الشيوعية الاممية، الا انها كانت تنـطبق على المنـظمات لا على الافـراد. فإذ كانت تستهـدف الاحزاب بصورة شبه حصرية، كانت تشترط عليها أن «تخلق في كل مكان، بالتوازي مع المنظمة الشرعية، جهازاً سرياً، قادراً على الاضطلاع في اللحظة الحاسمة بواجبه حيال الثورة(٤٨)» (الشرط الثالث)؛ وأن تقود عملاً دعاوياً منهجياً في الجيش، لاسيما من أجل المجابهة داخله لأي تدخل موجه ضد روسيا السوفياتية أو ضد الشعوب المستعمَرَة (الشروط ٤، ٨، ١٤)؛ وأن تنظم «ألوية شيوعية» في النقابات، وتكافح أممية النقابات الاصلاحية وتعزز أممية «النقابات الحمراء» التي كان تقرر للتو خلقها، في موسكو (الشرطان التاسع والعاشر). وعلى صعيد المبادىء، جرى التشـديد على ضرورة نشر فكـرة ديكتاتورية البروليتاريا: كان يجب أن «تتضح ضرورتها بالنسبـة لكـل شغيل، ولكل عاملة، ولكل جندي، ولكل فلاح من وقائع الحياة اليومية بالـذات، التي تشير اليها صحافتنا بصورة منهجية» (الشرط الأول). وكان مشترطاً أيضاً «انضبـاط حديدي» (الشرط ١٢)، وكـذلـك تطبيق مبـادىء مركزة صارمة: لم يكن من الضروري فقط عرض البرامج الجديدة للأحزاب المنضوية على الأممية (الشرط ١٥)، بل كان ثمة تأكيد بصورة عامة على أن «كل قرارات مؤتمرات الاممية الشيوعية (و)اللجنة التنفيذية إلزامية بالنسبة لكل الاحزاب المنتسبة» (الشرط ١٦).

لم يكن وارداً أي ذكر لموضوع الاشخاص، ولقد كانت صرامة الشروط أخف مما يبدو للوهلة الاولى. لاشك أن النص كان يطرح أن «الاممية الشيوعية لا يمكن ان تقبل التسليم بحق إصلاحيين مؤكدين، من مثل توراتي وكاوتسكي وهيلفردينغ، ولونغيه، وماكدونالد، ومـوديغلياني وغيرهم، في اعتبار أنفسهـم اعضاء في الاممية الثالثة وفي أن يتمثلوا داخلها» (الشرط السابع) ولم يكن الامر يتعلق هنا بلائحة شاملة، لانه كانت مذكورة فيها أيضاً وفقط شخصيات مصنفة، بحق أو بدون حق، في التيار الوسطي داخل الحركة الاشتراكية. إلا أنه يمكن الاستنتاج، بصورة غير مباشرة، بأن تعداد الشروط، بدل أن يطرح كقاعدة صارمة إقصـاء أي اصـلاحي وخصـوصـاً أي وسطي من الصفوف الشيوعية، كان يترك المجال للاعتقـاد، على العكس، بالسـماح بوجودهم في احزاب مجددة ومحوَّلة، شرط اتخاذ بعض الاحتياطات. لاشك انه كان مفروضاً على الاحزاب واجب «اللجوء الى تطهيرات دورية...

بهدف.. إقصاء العناصر ذات المصلحة والبورجوازية الصغيرة» (الشرط ١٣). لكن من جهة اخرى كان نص الشروط يتضمن الالزام بابعاد «الاصلاحيين والوسطيين» عن «المراكز التي تفترض قدراً ولو قليلاً من المسؤولية داخل الحركة العمالية» (الشرط الثاني). من جهة اخرى، كان الشرط العشرون ينص على ضرورة ان تكون القيادات المركزية للأحزاب المنتسبة مؤلفة في ثلثيها على الاقل من قادة مؤيدين، منذ ما قبل مؤتمر موسكو في تموز - آب ١٩٢٠، انضمام منظمتهم الى الاممية الثالثة. كما ان هذا التدبير كان ينص على امكانيات السماح باستثناءات لصالح «ممثلين عن الاتجاه الوسطي». ألم يكن الأمر يتعلق مذاك بحماية الحركة الشيوعية من تأثير الاصلاحية بدل إقصائها منها بالكامل؟

إن كتابة الشروط الواحد والعشرين وموافقة المؤتمر الثاني عليها لم تضعا حداً للمساجلات. وقد تجلى ذلك في كانون الاول ١٩٢٠ حين توجب على الاشتراكيين الفرنسيين، المجتمعين في تور، أن يتخذوا قراراً بصدد انضمامهم الى الاممية الثالثة. فلقد جرى تكريس قسم كبير من النقاشات لمشكلة الاقصاءات ولتطبيق الشروط الواحد والعشرين. وكان استثنائياً موقف ليون بلوم الذي تذرع بأسباب مذهبية وبالخلافات النظرية الحاسمة بين اشتراكية «البيت القديم» والشيوعية لرفض الالتحاق بـ«موسكو» في جميع الاحوال، ونبذ قاعدة الاكثرية سلفاً[٤٩]. لأنه فيما كان الرئيس اللاحق لحكومة الجبهة الشعبية يضطلع بصراحة بمسؤولية وضع حد لوحدة الاشتراكية الفرنسية، لأسباب مذهبية، تذرعت الغالبية الكبرى من المؤتمرين المعادين للشيوعية بشروط الانضمام الى الاممية الثالثة من أجل تجنب المشكلات الاساسية: بدل أن يتصدوا لهذه الاخيرة، أكدوا أنه كان يجري رفض دخولهم في المنظمة الثورية. حتى برقية زينوفييف[*] المشهورة لم تمنع أنصار الانضمام من ان يؤكدوا لأصدقائهم الوسطيين أنه لا شيء في الشروط الواحد والعشرين يستتبع تحريمات مرتكزة على زيغانات الماضي[**]. وفي «رسالة مفتوحة» موجهة الى العمال الالمان

(*) في تلك البرقية إلى مؤتمر تور، أعلن رئيس الاممية الثالثة أنه لا يمكن منظمته أن تلتقي في أي شيء مع صاحبي مشروع قرار اعتبر أنه لا يمكن القبول به، وهما بول فور و جان لونغيه، الممثلين الرئيسيين للتيار الوسطي.

(**) وجّه فروسار، الذي سيصبح اول امين عام للحزب الشيوعي، نداء إلى «الأصدقاء في الوسط» يقول لهم فيه: «نحن بحاجة اليكم». وأكد بول فايان - كوتورييه أن قواعد القبول في الاممية الشيوعية ليست صالحة إلا للمستقبل واضاف «بالصورة الاكثر وضوحا ان حالات الفصل المنصوص عليها في مادتي موسكو (هكذا) السابعة والثامنة لن يمكن تطبيقها على أي عضو في الحزب ينحني أمام قرار المؤتمر الحالي». لا بل أودع انصار الانضمام مشروع قرار ورد فيه أن الوسطيين «صنّاع جيدون للاشتراكية». (مؤتمر تور، ص ٣٨٥، ٤٣٧، ٤٨٢ - ٤٩٣).

والفرنسيين، كان لينين شدد على إمكانية ترتيب استثناءات للقواعد المنصوص عليها، وذلك لصالح «قادة الجناح اليميني». وأضاف: «بما أن ثمة استثناءات معتبرة ممكنة، بصورة صريحة، فلن يكـون وارداً المنع المطلق لدخول هذه الشخصية أو تلك. وهذا يعني الاعتراف تماماً بضرورة أن يؤخذ بالاعتبار الحاضر، لا الماضي، وأن تؤخذ بالحسبان التغيرات الطارئة على التصورات وعلى سلوك بعض الاشخاص، وبعض القادة[٥٠]».

في الواقع، رغم كراهية لينين القصوى للاصلاحية والوسطية[*] وارادته أن يجعل من الاممية الثالثة منظمة قتال ثورية، كان يبدي من المرانة اكثر مما يبديه زينوفييف، ذو الميول الاكثر «يساروية». كانت مشكلة حالات الفصل تنطرح من جهة اخرى بشروط لم يكن القادة السوفيات يتحكمون بها وحدهم. ففي حين كان هؤلاء قد قرروا أن تتم مفاوضات قبل انعقاد المؤتمر الثاني للاممية وأثناءه مع ممثلين عن الحزبين الوسطيين الفرنسي (S.F.I.O) والألماني (الاشتراكيون المستقلون)، كان شيوعيون سبق أن انضموا يضغطون على اللجنة التنفيذية للاممية الثـالثـة، كي ترفض اي مساومة مع هذه العناصر المترددة والتوفيقية[**]. وأخيراً، وبوجه خاص، كانت كل مسألة الانضمامات وحالات الاقصاء تقع ضمن إشكالية اوسع لم تكن قيادة الاممية الشيوعية تملك حلاً جاهزاً لها. كان الامر يتعلق، في العمق، بتحـديد طبيعة الاحزاب التي قد تشكل الحركة الشيوعية في اوروبا الغربية. لاشك أنها ستكـون، من حيث تحديدها، منظمات ثورية ـ من هنا الاصرار، بين أمور اخرى، على استعـدادهـا الضروري للعمـل السري؛ ولاشـك أنها ستقبـل، بعد إدخال التلطيفات المناسبة، بالتوجيهات الصادرة عن اللجنة التنفيذية المركزة. وبالتالي بهيئة خاضعة مباشرة لتأثير الحزب الشيوعي السوفياتي[***]. لكن ما وراء هذه العموميات، كان هنالك ضغط الاحداث بالذات: كانت الثورة العالمية تتأخر في الاندلاع؛ وكان تجذر الجماهير يؤدي إلى تشكيل احـزاب كبرى وسـطية حيث يجاور إصـلاحيون يكـادون يكونون مقنّعين ثوريين صادقين. وكان منطق الحياة السياسية في اوروبا الغربية والوسطى يشجع فضلاً عن ذلك ظهور أحزاب شيوعية جماهيرية قادرة على منافسة الحركة الاشتراكية ـ الديمقراطية. ولما كان تدمير هذه الاخيرة سرعان ما بدا مستحيلاً، كان ينبغي الآن منافستها وانتزاع الولاء الذي

(*) انظر أدناه، ص ٢٩٦.

(**) انظر **Protokoll des II. Welt congresses**، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨. وفي آذار ١٩٢١، كان انطون بانيكوك، اليساروي الهولندي، لا يزال يأخذ على قادة الاممية الثالثة «السعي وراء انضمام اكبر عدد ممكن من الانتهازيين». (**Pannekoek et les conseils ouvriers**، باريس ١٩٢١، ص ٢١٥).

(***) انظر أدناه، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

يكنه لها أكبر عدد ممكن من العمال. ومن وجهة النظر هذه، كان تشكيل الحزب الشيوعي الالماني الموحَّد بعد مؤتمر هال(*) في تشرين الاول ١٩٢٠، يمثل منعطفاً في أقصى الأهمية. كان الحزب الموحد، الذي يضم عشرات الالوف من اعضاء الحزب الشيوعي المؤسس في كانون الاول ١٩١٨ والكتلة الكبيرة لمنتسبين سابقين الى الحزب الاشتراكي الالماني الموحَّد (USPD)، يشكل منظمة جماهيرية تضم حوالي ٣٥٠ الف عضو. وقد تزعزعت فيه جدياً روح العصبة الضيقة التي كانت تهدد التشكيلات الشيوعية الأولى في الغرب.

كانت عوامل أخرى تحيط من جهة ثانية بهذه العصبوية، ولاسيما التركيب المتنافر للأحزاب الشيوعية الاولى، والتنوع الايديولوجي لاعضائها وحرية الاتجاهات الواسعة التي كانت سائدة داخلها. كانت تلك المنظمات التي تهزها نقاشات مستمرة وسجالات متواصلة أبعد ما تكون شبهاً بالتشكيلات المونوليتية التي ستخلفها. وإذا كان من قبيل التعسف أن يُرى في اللينينية سبب انقسام الحركة الاشتراكية العالمية، فليس أقل تعسفاً أن تُعزى إلى الاممية الثالثة، كما تطورت في السنوات التي تلت تأسيسها، وإلى روافدها المختلفة، الصرامة الدوغمائية والتسلطية الاستبدادية الخاصتان بالستالينية.

كان التنوع الايديولوجي الذي ميز بدايات الاممية الشيوعية ناتجاً بوجه خاص من واقع أن هذه المنظمة، التي ألهمها وقادها ثوريون ذوو قناعات ماركسية واضحة كانوا قد حصلوا على خبراتهم الأولى ضمن الحركة الاشتراكية «الاورثوذكسية»، مارست إغراءاتها الاولى على عائلات سياسية متنوعة للغاية. فبجانب اشتراكيين يساريين، كالسبارتاكيين، الذين كانوا يخوضون منذ وقت طويل نضالاً ثورياً داخل تكوينات تسيطر عليها الاصلاحية، كان ثمة بين المنتسبين الأوائل للحركة الشيوعية الاممية اناس ذوو ماض أقل جذرية بما لا يقاس سوف يقدمون لها مجلوب التراث الاشتراكي. كان لودوفيك فروسار ينتمي إلى هذا التيار الاخير وإذا كان مروره في الحزب الشيوعي الفرنسي قصير الامد، فلقد اصبح ممثلون آخرون للاتجاه ذاته ـ كاشين (في فرنسا)، وسيراتي في ايطاليا، وكان من اتجاه اقل يمينية ـ شخصيات بارزة في الاممية الثالثة. لكن التنسيب الى الاممية الشيوعية، بالنسبة الى ماكانت عليه الحال في سابقتها، كان يقدم بوجه خاص فرادة مزدوجة: كان في نيتها توسيع إطارها ليتخطى الاطار الاوروبي، ولقد نجحت في ذلك إلى حد بعيد؛ كما أنها خاطبت أوساطاً ومجموعات بروليتارية كانت بقيت حتى ذلك الحين خارج المنظمات الاشتراكية بحصر المعنى. كانت تلك بوجه

(*) خلال هذا المؤتمر، قررت الغالبية الساحقة في ح. ا. ا. م. (U.S.P.D) الانضمام إلى الأممية الثالثة.

خاص حال تجمعـات وحركات تقبل grosso modo (*) بالمذاهب النقابوية، والنقابوية ـ الثورية، والفوضوية ـ النقابوية وحتى الفوضوية بوجه الحصر.

«إن عدداً كبيراً من العمال الفوضويين يصبحون الآن الأنصار الاكثر صدقاً لسلطة السـوفييتات، وبما أن الأمر هكذا، فهذا هو البرهان إذاً على أن هؤلاء هم أفضل رفاقنا وأصدقائنا، أفضل الثوريين الذين لم يكونوا معادين للماركسية إلا بسبب سوء فهم أو بصورة ادق. . لأن الاشتراكية الرسمية. . كانت قد خانت الماركسية وسقطت في الانتهازية(٥١)». هكذا عبر لينين عن رأيه في رسالة وجهها في آب ١٩١٩ إلى «اليساروية» الانجليزية سيلفيا بانكهورست. وفي الواقع، حين وُجِّهت الدعوات في بداية عام ١٩١٩ إلى المؤتمر التأسيسي للاممية الثالثة، ضمت لائحة المنظمات المدعوة الفروع البريطاني والاميركي والاوسترالي للـ «Industrial workersof the world» (**)، ذات الاتجاه الفوضوي ـ النقابوي، بالاضافة إلى «العنـاصر الثورية» في الحركة البريطانية الخاصة بالـ «Shop stewards» (***) المتأثرة بتيارات من النموذج نفسه(٥٢). وبعد أشهر، أكد تعميم صادر عن اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية أن التنظيم الجديد «يستقبل بالصورة الاشد مودة» «الجماعات الفوضوية ـ النقابوية وأولئك الذين يتبنون فقط السِّمة الفوضوية(٥٣)». إن مشكلة وجود هؤلاء الاشتراكيين الهرطقيين في المنظمة الشيوعية الأممية قفزت من جديد عشية المؤتمر الثاني في تموز ١٩٢٠. ففي حين كانت قد أُرسلت دعوة إلى «كل جماعات النقابويين الثوريين» وإلى فروع الـ «Industrial workers of the world» (٥٤)، وضع رادك، بوصفه سكرتير الأممية هذا القرار موضع الاتهام. وبدعم من الشيوعي الالماني بول ليفي والايطالي سيراتي، عبر عن تمنيه رؤية هذه التيارات الفوضوية النقابوية او الفوضوية وقد أقصيت من الاممية الثالثة. وقد فشلت وجهة نظره. ليس هذا فقط، بل عمدت اللجنة التنفيذية إلى معاقبته، فلقد سحبت من رادك حسب الفرد روسمر وكالته كسكرتير وعهدت بها إلى أنجيليكا بالابانوفا(٥٥).

في شباط ١٩٢٢ أيضاً، وبالرغم من التوتر المتنامي بين شيوعيين في وضع الانتقال، بدورهم، إلى الاورثوذكسية، و«اليساروين» من اتجاهات متنوعة، أصَّرت اللجنة التنفيذية للأممية الثـالثـة لدى قيادات الاممية الثانية و«الاممية الثانية ونصف(****)» كي تتمكن «المنظمات

(*) اي إجمالاً (المعرب).

(**) «العمال الصناعيون في العالم» (المعرب).

(***) الـ shop steward ممثل نقابة عمالية في مصنع او مؤسسة (المعرب).

(****) كانت «الاممية الثانية ونصف» تجمِّع احزاب ومجموعات اشتراكية تبحث عن التنظيم خارج الاممية الثالثة الشيوعية والاممية الثانية الاصلاحية. وقد التحقت منذ عام ١٩٢٢ بهذه الاخيرة.

النقابية الفوضوية» من المشاركة في الكونفرانس المشترك الذي كان سينعقد في برلين(٥٦). وفي تشرين الثاني ١٩٢٢، في المؤتمر الرابع للاممية، سيقول زينوفييف بصدد التنسيب الشيوعي في فرنسا: «إنه لأمر غريب أن يكون علينا البحث عن عدد من العناصر الضرورية للحزب الشيوعي خارج الحزب وفي صفوف النقابويين(٥٧)». وكما يشهد الفرد روسمر، المتحدر هو ذاته من الحركة النقابوية الثورية، «ماكان يعجب بوجه خاص الثوريين، النقابويين والفوضويين، ويدفعهم باتجاه البلشفية» إنما كان، بالاضافة إلى بعض نصوص لينين، لاسيما الدولة والثورة، «حيث كان في وسعهم ان يجدوا لغة قريبة من لغتهم، تصوراً للاشتراكية قريباً من تصورهم»، «الادانة دون هوادة للانتهازية، سواء انتهازية الانتهازيين المعلنين، والاشتراكيين الشوفينيين الذين دعموا حكوماتهم الامبريالية خلال الحرب، أو انتهازية اولئك الذين إذ وقفوا في منتصف الطريق كانوا ينتقدون السياسة الحكومية لكنهم لم يكونوا يتجرؤون على استخلاص النتائج المنطقية من انتقادهم(٥٨)».

وليس مدهشاً مذاك أن تكون قامت روابط وثيقة بين مندوبي الأممية الثالثة المرسلين إلى اوروبا الغربية والأوساط النقابوية والفوضوية ـ النقابوية. فجول هومبرت ـ دروز، الذي أرسلته الاممية الشيوعية الى باريس والذي سيقوم على امتداد سنوات بدور «عين لموسكو»، تلقى توجيهاً صريحاً بالاتصال بهذه الاوساط التي كان يشعر نحوها، حسب شهادته الخاصة، بـ «الكثير من المودة»(٥٩). وفي بلد كفرنسا حيث كان يوجد تراث نقابوي ثوري أقل إصابة بآكلة النزعة الوطنية والتعاون الطبقي مما كانت حال «الاشتراكية الرسمية»، كان إسهامه بالغ الاهمية في تشكيل الحزب الشيوعي. فأناس كروسمر بالذات، وبيير مونات، ومونموسو وسيمار، لعبوا دوراً أساسياً خلال التطور الأول للحزب الشيوعي الفرنسي، كانوا قد اتوا من تلك الاوساط النقابوية. ولقد كان في وسع جاك فوفيه ان يقول إنه «إذا كان المسار الذي قاد اقلية من النقابويين الى الحزب الشيوعي أطول بصورة فريدة، واكثر اضطراباً، وأشد رزانة ايضاً من ذلك الذي قاد إليه ـ على الاقل لفترة من الوقت ـ غالبية الاشتراكيين. . فلقد كان أخيراً أشد ضمانة(٦٠)». ومن جهة اخرى، إذا كانت الشيوعية الالمانية جنّدت من الوسط الاشتراكي «الاورثوذكسي»، ففي اسبانيا تمكنت الاممية الثالثة، منذ عام ١٩١٩، من الاعتماد على انضمام «الكونفدرالية القومية للشغل»، القوية وذات التوجه الفوضوي ـ النقابوي. وحتى في بريطانيا والولايات المتحدة وهولندا، كان المتعاطفون والمنتسبون الشيوعيون الأوائل يكشفون الولاءات المذهبية ذاتها(٦١).

كانت حالة الفوضويين وذوي الميول الفوضوية، والنقابويين الثوريين والفوضويين ـ النقابويين ناتجة مع ذلك من كلٍّ وظاهرةٍ أكثر اتساعاً: ذينك الخاصين بالـ «يساريين» وبالمكانة التي احتلوها في الاممية الثالثة أيام لينين. وإن مثال الشيوعية الالمانية معبر من وجهة

النظر هذه بصورة فريدة عن غنى الاتجاهات التي كانت موجودة داخل الحركة الشيوعية. فخلال مؤتمر الـ KPD(S) (الحزب الشيوعي لألمانيا ـ سبارتاكوسبوند) التأسيسي، كان هذا الحزب قد أظهر دفعة واحدة توجهات فريدة، سواء على مستوى المبادىء أو في حقل التنظيم. كان قد أخذ مسافة حيال السياسة البلشفية، معتبراً أن في وسع الثورة البروليتارية الاقتصاد في العنف، وبالتأكيد في الإرهاب[٦٢]. من جهة أخرى، بدا الشيوعيون الالمان الأوائل، تحت تأثير اللوكسمبورغية، معادين للمبادىء التنظيمية التي دافعت عنها اللينينية وتحققت في البلشفية. فخلال الحرب، كانت روزا لوكسمبورغ قد أكدت أن «التنظيم القوي» بالضبط، وبالضبط الانضباط الذي طالما مجدته الاشتراكية ـ الديمقراطية الالمانية، هما اللذان أتاحا لحفنة من البرلمانيين أن يأمروا هذا الجهاز المؤلف من أربعة ملايين إنسان فيغيِّر موقفه بالكامل خلال ٢٤ ساعة[٦٣]». لقد قرر مؤسسو الحزب الشيوعي، المستلهمون هذا التفسير السريع لـ «خيانة الرابع من آب»، الحد من سلطة المتفرغين، وإنقاص عددهم، وتقليص الموارد المالية الموضوعة في تصرف القيادة المركزية واقتطاع صلاحيات منها لصالح المنظمات المحلية[٦٤]. ودفعة واحدة أيضاً، كشف الحزب الشيوعي الألماني إلى أي حد كان مطبوعاً بوجهات نظر يساروية قليلة التوافق مع قوانين اللينينية. ولقد قرر، ضد رأي قادته الاكثر بروزاً، وخلال مؤتمره التأسيسي، مقاطعة الانتخابات إلى الجمعية التأسيسية التي كانت ستتم في شباط ١٩١٩.

هذه «الحساسية اليساروية» ستطبع تاريخ الشيوعية الالمانية خلال السنوات الاولى التي تلت تكوينها. ولقد أدت إلى خلق تشكيلٍ منشق جمع بدءاً من نيسان ١٩٢٠ التيار المعادي للنقابية والمناهض للبرلمانية، والنشاطوي بشكل خاص في اقصى اليسار، وذلك تحت اسم KAPD (Kommunistischer Arbeiterpartei Deutschlands). ولقد كان خلق هذا الحزب نتيجة مبادرة من القيادة الـ KPD (الحزب الشيوعي الالماني). فبول ليفي، الذي أثارت سخطه قوة اليساروية داخل منظمته، طلب إلى مؤتمر هايدلبرغ الشيوعي في تشرين الاول ١٩١٩ طرد المندوبين الذين يعارضون المشاركة في الانتخابات وفي الوقت ذاته المشاركة في الحركة النقابية المعتبرة إصلاحية بشكل أساسي وغير قابلة للاستعادة، وتمت الاستجابة لطلبه[٦٥]. وقد طرح الـ KAPD (حزب العمال الشيوعي الالماني) نفسه هكذا منافساً للمنظمة «الاورثوذكسية»، كاشفاً ملامح تميزه بوضوح شديد عن اللينينية وتضعه بمواجهتها من نواح عدة. لم يكن يكتفي في الواقع بالتعبير عن مواقف مناهضة للبرلمانية وللنقابية بصورة غير مشروطة، بل كان يستسلم كذلك لميول فوضوية. كان يؤكد مثلاً أن «عمله الاساسي سيكمن في دعم تحرر البروليتاريا من كل قيادة[٦٦]». وكانت نشاطويته القصوى تصل أخيراً إلى حد المغامرة وتغرق فيها احياناً. فأحد مناضليه الاشد بروزاً، ماكس هولز، الذي

انتسب اليه بعد فصله من الحزب الشيوعي الالماني (KDP) لم يكن غير زعيم عصابة مسلحة، مفتون بالعمل الانتفاضي ومعاد لأي شكل من الانضباط[٦٧].

والحال أنه رغم هذه الخلافات العديدة وهذه التنافرات القليلة، برهنت الأممية الثالثة طويلاً عن تسامح صبور حيال متطرفي الـ KAPD. فرادك، الاختصاصي الرئيسي في اللجنة التنفيذية في الشؤون الالمانية، كان قد دعا أولاً بول ليفي إلى الحذر وحاول تفادي فَصْل اليساريين[٦٨]. وقد تدخل لينين ذاته في الخلاف وأيد مصالحةً بين المنظمتين[٦٩]. ومع أنه ضرب عرض الحائط بهذه النصائح، ورغم العداء المتزايد بين الـ KDP والـ KAPD، استمر هذا الاخير يحظى بمراعاة الامية له. فقد دعي لإرسال وفد إلى المؤتمر الثاني في تموز - آب ١٩٢٠ وجرى قبوله عام ١٩٢١ في المنظمة الاممية الشيوعية بصفة «حزب متعاطف»، وهو ما جعله يحظى لبعض الوقت بدعمها المادي[٧٠].

لكن إذا كانت اليساروية ذات الميول الفوضوية قد التجأت إلى الـ KAPD، فهي لم تغادر بالكامل صفوف الحزب الشيوعي الالماني «الاورثوذكسي». فلقد كان هذا يضم جناحاً متطرفاً مهمًا كان بين قادته الرئيسيين أركادي ماسلو وروث فيشر. كانا يخوضان فيه عملاً منهجياً بهدف إعطاء الحزب قوة وروحاً قتالية كانتا تنقصانه في رأيهما. وكان تذوقهما للعمل يدفعهما إلى تطرف في اللغة وإلى زيغانات تكتيكية عبر عنها ماسلو تماماً حين أكد، أن «حزباً في موقع الدفاع هو حزب اشتراكي - ديمقراطي[٧١]». وكان يقول أيضاً، بصدد الهجوم الشيوعي الجهيض في آذار ١٩٢١: «يجري التساؤل عما كان هناك من جديد بصورة خاصة في عمل آذار؛ وينبغي الإجابة: بالضبط، ما يأخذه علينا خصومنا، أي أن الحزب اندفع في الواقع الى المعركة دون أن يحاول معرفة النتائج التي قد تترتب على ذلك[٧٢]». لقد ساهمت نظرية «الهجوم مهما يكن الثمن» والإخفاقات المحتومة التي أدت إليها، في التسبب بفقد اليساروية داخل الاممية الثالثة حظوتها. فلقد أعلن تروتسكي، في معرض رده على ماسلو، من على منبر المؤتمر الثالث في تموز ١٩٢١ أن «فلسفة الهجوم هذه هي . . خطر أقصى و. . تطبيقها العملي هو أسوأ الجرائم السياسية[٧٣]». في البداية، كان قد تفاهم مع لينين وقرر الرجلان توحيد جهودهما لمكافحة التيار اليساروي في المؤتمر. فالخوف الذي كانت توحي به اليهما التجاوزات المغامرة لنوع من اليساروية لم يكن دون أساس. وفي ألمانيا، لم يكن اكتفى (النوع المشار إليه(*))، في الواقع، بالمناداة بالهجوم بصورة مفرطة. وخلال أحداث آذار ١٩٢١، كانت بعض المجموعات الشيوعية قد فكرت في اللجوء إلى أعمال استفزازية لدفع

(*) إضافة من المعرب.

البروليتاريا إلى الهجوم الثوري؛ وكانت انتقلت حتى أحياناً إلى الأفعال، دون أن تنجح مع ذلك إلا في زيادة عزلتها(٧٤). وأمام تطورٍ بهذه الخطورة، ربما فكر لينين وتروتسكي بانتهاك انضباط الأممية، وحتى في إحداث انشقاق فيها إذا لم يتوصلا لوقف تقدم اليسارية ـ المتطرفة(٧٥).

إلا أنه منذ ما قبل عام ١٩٢١، كان لينين قد حدد موقفاً من اليساروية ولم تقتصر انتقاداته على ممثليها الروس وحدهم، بل هاجم أيضاً يساروي الحركة الشيوعية الأممية. لكن هذا النقد كان أخوياً، ومعتدلاً ومهدِّئاً. فالرسالة التي كتبها إلى سيلفيا بانكهورست في آب ١٩١٩ والتي جرى الاستشهاد بها اعلاه(*) كانت قد أشارت إلى الخلاف الذي كان يفصل لينين عن مناقضيه بصدد المسألة البرلمانية. اعترف لينين في رسالته إلى المناضلة البريطانية بأن «نقد البرلمانية ليس شرعياً وضرورياً فقط. . ، بل هو صحيح إطلاقاً» ودون أن يتخلى عن وجهة نظره المؤيدة للمشاركة الشيوعية في النشاطات البرلمانية، اعتبر أن «هذا التباين هو الآن قليل الأهمية بحيث قد يكون أصح ألا يتم الانشقاق بسببه(٧٦)». وفي تشرين الاول ١٩١٩، في مقال صدر بعنوان «تحية الى الشيوعيين الايطاليين والفرنسيين والالمان»، عاد لينين للحديث عن العداء المنهجي للبرلمانية لدى اليساروين وكرر أنه يعتبر هذه المسألة «مسألة قليلة الأهمية». ففي حين كانت تثير نقاشات حادة، اعتبر هذه النقاشات «مرض نمو» وأنه «ليس ثمة شيء مخيف(٧٧)». وابتداء بعام ١٩٢١، حين اتخذت اليساروية شكلاً اكثر عنفاً وأدت الى اعمال مغامرة بقدر ما كانت مرتبكةً بصدد التطور العام للوضع في ألمانيا، خاض لينين ضدها حملة عنيفة، وكان المؤتمر الثالث للأممية مسرحها. لكن لما كان لينين أساء معاملة القادة اليساروين الذين كان بعضهم ـ ولاسيما بيلاكون ـ يعيشون في المنفى، فقد سارع لإرسال كتاب اعتذار إليهم يقول فيه إنه «من الطبيعي أن يكون المهاجرون غالباً (متطرفين يساراً)» وعبَّر عن مودته حيال «ثوريين مرموقين، ومخلصين وأمناء وذوي جدارة إلى ذلك الحد(٧٨)». وهذه الرسالة مهمة، فهي تؤكد ملاحظة أوحى بها الينا موقف لينين حيال «اليساروين» السوفيات: كان النقد الذي وجهه إلى اليساروية قارصاً في الغالب وكانت هجماته عنيفة أحياناً، لكن الأمر يتعلق دائماً بجدال، مهما كان محتدماً، إلا أنه كان يخاض ضد رفاق منخرطين في معركة واحدة. وتُستخلص ملاحظة مماثلة من المؤلف المهم الذي كرسه لينين للظاهرة اليساروية والذي أصدره في حزيران ١٩٢٠ عشية المؤتمر الثاني للأممية الثالثة: **المرض الطفولي للشيوعية («اليساروية»)**.

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٧٢.

هذا الكتاب الصغير يستحق شهرته. فنحن نكتشف فيه مساجلا تتفادى موهبته، هذه المرة، فخ تجاوزات اللغة، ومحلِّلاً صارماً، ومراقباً عميقاً للحياة السياسية. لينين الأفضل: ذلك الذي يجمع واقعية حادة إلى ثبات المبادىء الثورية. إن مرض الشيوعية الطفولي هو قائمة شاملة بالأخطاء المأخوذة على اليساروية. وكان بين هذه الأخطاء الجمود الذي قادتها إليه طهريتها. فكـ «عَقَدِيِّين(*) doctrinaires للثورة(٧٩)» - للثورة، وليس للثورة المضادة كما ستؤكد فيما بعد الأهجية الستالينية وما بعد الستالينية -، يقف اليساريون ضد كل مساومة وهذه «صبيانية من الصعب أخذها على محمل الجد(٨٠)». وفي الواقع، كيف نحكم بشكل آخر على هذه الجملة لسيلفيا بانكهورست التي أوردها لينين: «يجب ألا يعقد الحزب الشيوعي مساومة.. يجب أن يحتفظ بصفاء مذهبه وبطهارة استقلاله حيال الاصلاحية. رسالته تقضي بأن يسير في المقدمة، دون أن يتوقف ودون أن ينحرف عن طريقه، أن يسير بصورة مستقيمة باتجاه الثورة الشيوعية(٨١)»؟ وكان لينين ينتقد أيضاً نوعاً من الديماغوجية الفوضوية التي تميز في المانيا الـ KAPD والتي إذ تستبق عيوباً ستكون حقيقية جداً، كانت تعارض «الجمهور» بالـ «قادة» بصورة منهجية(٨٢). كان نقد هذا الموقف يدفع بلينين إلى الإشارة بإلحاح استثنائي إلى الحاجة لحزب قوي ومنضبط تقاوم سلطته الآثار المنهكة للتراجع الثوري(٨٣).

لقد حدد بعدئذ **مرض الشيوعية الطفولي**، عن طريق نقد لليساروية، العلاقة التي ينبغي أن يقيمها الحزب الثوري مع الجماهير. فبدون الانحناء «إلى مستوى الشرائح المتخلفة في طبقةٍ ما»، كان الأمر يتعلق بـ «مراقبة (تقوم بها) عين بصيرة للوضع الفعلي للوعي والاستعداد لدى الطبقة بكاملها (وليس فقط طليعتها الشيوعية)، لدى الجمهور الشغيل بأسره وليس فقط عناصره المتقدمة». إن ضرورة الاحتكاك بجماهير واسعة والاهتمام بعدم الانفصال عنها فوق الحد، - «الالتصاق» بها ما يكفي بالضبط لجعلها تتقدم، ولرفع وعيها وتجذيرها - أمران كانا بالنسبة للينين بالغي الأهمية، وقد عاد للحديث عنهما مراراً عديدة(٨٤). ولأن اليساريين كانوا يجهلون هذه الضرورات فقد كانوا يرفضون فكرة تقارب مع بعض التيارات الاشتراكية التي إلى يمين الشيوعيين. ويذكر لينين حالة «المستقلين» الألمان الذين بدل أن يستحق جناحهم اليساري الازدراء الذي يكنُّه له الـ KAPD، يمكن المجيء به إلى الشيوعية ويجب ذلك(٨٥). لكن لينين ذهب أبعد من هذا، وإذ تحدى «طهرية» اليساريين كان يدعو إلى «نوع من الدعم البرلماني» قد يستفيد منه جماعة حزب العمال البريطانيون الذين

(*) عقد بين من عقدي أي المتمسك بعقيدة أو مذهب (المعرب).

كان يعرف مع ذلك أنهم أقرب إلى تشرشل ولويد جورج مما إلى الثوريين. لكن يتعلق الأمر، كما أوضح لينين في صيغة ستصدم خصومه الاشتراكيين ـ الديمقراطيين، بدعمهم «تماماً كما يدعم الحبل المشنوق[٨٦]»؛ إن حذق الشيوعيين التكتيكي، ضمن احتمال عدم التضحية مع ذلك بمبادئهم، ينبغي أن تكون نتيجة كشف النزعة المحافظة العميقة والعجز الاساسي لدى الاصلاحية(*)، امام الجماهير وفي الوقائع لا فقط في الاحاديث والخطب.

أخيراً، كان لينين يهاجم رفض العديد من اليساريين المشاركة في النقابات الإصلاحية: «إن عدم الاشتغال (فيها).. يعني ترك الجماهير العمالية ناقصة التطور أو المتخلفة عُرضةً لتأثير القادة الرجعيين وعملاء البورجوازية[٨٧]». وأكثر أيضاً، (كان يهاجم) عداءهم الدوغمائي للبرلمانية. كان رفضهم المشاركة في الانتخابات والجلوس في البرلمان ناجماً، في رأي لينين، عن ازدرائهم للجماهير البروليتارية الواسعة أو جهلهم بها. هكذا كان شيوعيو الـ KAPD يعتبرون أن «أشكال النضال البرلمانية.. عفا عليها الزمن[٨٨]». لكن كان لينين يلاحظ أن اليساريين الألمان، المستسلمين لميل مميز، كانوا يتعاملون مع رغباتهم على أنها وقائع لأن قسمًا مهمًا من البروليتاريا كان لا يزال يؤمن بفضائل البرلمان والنشاطات البرلمانية[٨٩]. ويردّ لينين: «إنه لسهل للغاية إبداء المرء (روحه الثورية) بالاكتفاء بشتم الانتهازية البرلمانية، وتطليق المشاركة في البرلمان[٩٠]». كانت الصعوبة ـ والواجب الثوري ـ يكمنان في استخدام البرلمان كمنبر للتحريض والدعاوة. وكان البلاشفة نجحوا في فعل ذلك في الدوما القيصري القديم دون الانجرار إلى اوهام المشاركة، لكن لينين كان يتكهن بأن «خلق كتلة برلمانية اصيلة في ثوريتها في برلمانات أوروبا أمر أصعب بها لا يقاس مما في روسيا[٩١]». أصعب في الواقع بما لا يقاس.

إن **مرض الشيوعية الطفولي** قائمة منهجية بالخلافات التي كانت تضع لينين بمواجهة اليساريين، لكنه لا يغرق أبداً في المهاترة. لأن العدو كان إلى اليمين، بالنسبة للينين، حتى إن كان في وسع الخطأ أن يكون إلى اليسار. وحين قدَّم البلاشفة المفصولين من الحزب عام ١٩٠٨ على أنهم أسلاف الـ KAPD والتيارات «المتطرفة»، اعترف بأنه كان بينهم «عدد مهم من الثوريين الممتازين[٩٢]». لاشك أنه كان ينتقد اليساروي الايطالي بورديغا لكن لم يَفُتْه أن يشير إلى بعض ميزاته[٩٣]. كما أن لينين لم يكن يائساً من اليساروين الذين قد يؤدي

(*) لينين، **الأعمال الكاملة**، ج ٣١، ص ٨٠ ـ ٨١. فلنلاحظ هنا البراعة التي يبديها لينين حين يدعو إلى تحالف انتخابي بين حزب العمال والشيوعيين، في حين كان التعارض بين قوة الاول وضعف الآخرين بارزاً بوضوح بفعل أحكام القانون الانتخابي الانكليزي.

بهم تطرفهم إلى مغادرة الحركة الشيوعية: «سرعان ما ستعلمهم التجربة[٩٤]». وإذا كانت اليسـاروية، من جهة أخرى، مرضاً، فلقد كانت مرضاً «يمر دون خطر ويصبح الجسم بعـدهـا أشد صلابة[٩٥]». وفي هذا الكتاب الذي تعتقد الاورثوذكسية الستالينية وما بعد الستـالينية أن في وسعها أن تجعل منه كتابهاالنموذجي، كانت روح التحريم غائبة تماماً، بصورة معبّرة. فالعيوب الصارخة أحياناً التي اتصفت بها اليساروية لم تكن تمنع لينين من أن يلاحظ إلى جانب المخاطر التي تنطوي عليها والتي يعززها عدم الفهم والمهاترة، إلهام هذا التيار، السليم بشكل أساسي، من نواح كثيرة. ففي معرض حديثه عن نسخته البريطانية وعن الاستعداد الذهني الذي يفعم العديد من الشبان الشيوعيين الانكليز، أكد في الواقع ما يلي: «إن هذا الاستعداد الذهني مشجع وقيِّم إلى أبعد الحدود، فيجب أن نعرف كيف نثمِّنه ونغذيه، لأنه من دونه ربما جرى اليأس من انتصار الثورة البروليتارية في انكلترا، كما فضلاً عن ذلك في أي بلد آخر[٩٦]».

وإذا راقبنا المعاملة التي فرضها على اليساروين ورثةُ اللينينية الرسميون ربما كان ثمة سبب لليأس من ذلك، بالفعل.

يؤكـد دومينيك ديزانتي في كتابه حول **الاممية الشيوعية**، أن مؤتمراتها الاولى «كانت تستحق اسمها لقاءات نقاش: فالاعتراضات وتنوع المواقف بقيت حقيقية، وكانت تصل إلى الأسماع ويمكن أن تعكس أفكار لينين، المفتوحة دائماً[٩٧]». وكان قد تم تنظيم العادات منذ مؤتمر آذار ١٩١٩ الذي قررت فيه المنظمات السوفياتية إعلان تأسيس المنظمة الجديدة. مع ذلك، ورغم غياب أية شخصية غربية مرموقة ـ لم تكن المجموعات الغربية الممثلة غير تكتلات اشتراكية أقلية ـ، فلقد جرى إفشال سلطة القادة منذ بداية المؤتمر. فمندوب الحزب الشيوعي الالماني الفتي أعلن، في الواقع، باسم تنظيمه، أنه يعارض تأسيس الأممية. لما كان يعتـبر ذلـك مبكراً، اقترح الاقتصار على عقد كونفرانس إعدادي وانتظار عدة أشهر قبل تأسيس الأممية الثـالثة لإتاحة الوقت للشيوعية للانغراس بصلابة في أوروبا[٩٨]». وقد كان زينوفييف هو الذي رد عليه: «يؤكد حزبنا أن الوقت قد حان لتأسيس الاممية الثالثة، وأن علينـا تأسيسهـا في هذا الكـونفـرانس. لكن بما أن اصدقاءنا الالمان، الحزب الشيوعي الالمـاني، يصرون على ألا نرى هنا غير مجرد كونفرانس إعدادي، نرى أنه من الضروري القبول مؤقتاً بهذه الاقتراحات من جانب الشيوعيين الالمان[٩٩]». وحتى التدخل الشخصي من جانب لينين، الذي كان يرى أن للحدث أهمية كبرى، بقي دون جدوى[١٠٠]. إلا أن واقعـة جديدة حدثت في اليوم التـالي مع الـوصـول المفـاجىء لممثـل للحـزب الشيوعي النمساوي. وقد وصف هذا الحماس الذي أخذ بتلابيب حزبه وطالب بتأسيس اممية جديدة كان يبررهـا، في نظره، الحمـاس الثـوري لدى الجـماهـير الذي كان شاهداً له في أوروبا

الـوسـطى[١٠١]. وهكـذا أعيد النـظر بقرار البارحة، وبناء على اقتراح الحزبين الشيوعيين النمسـاوي والمجـري بالاضافة الى الحزبين الاشتراكيين اليساريين السويدي والبلغاري، جرى إعلان تأسيس الاممية الثالثة بالإجماع إلا خمسة أصوات، هي أصوات الوفد الالماني.

انطلاقاً من عام ١٩٢٠، وعلى امتداد سنوات، كانت مؤتمرات الاممية الشيوعية تشبه كل الجمعيات من النـوع نفسـه. لما كانت تجمع مئات المندوبين، كانت مسرح نقاشات حادة، وأحياناً عنيفة. وكـ «برلمان» للحركة الشيوعية الاممية، فإن المؤتمر، مستودع السيادة داخل المنظمة، بوصفه جمعية تداولية حقيقية، لم يكن يملك مع ذلك السلطة الحقيقية. لكن إذا كانت القرارات تؤخذ غالباً في مكان آخر، فلقد كانت موضع نقاش محتدم في المؤتمر، وكـانت تتعرض للانتقاد علانية، دون أن يحاول القادة أن يقدموا للمؤتمرين صورة جماعة إجماعية، وأقل أيضاً مونوليتية. فبدون احترام مفرط لسُلطة الثوريين السوفيات ذوي الهيبة والنفوذ، انتقد مندوبون أجانب، مثلاً، الطابع «الروسي» جداً للترسيمات والاطروحات التي قدمتها قيادة الأممية. فوفقاً للايطالي بورديغا، والبريطاني غالاشر والهولندي ويجنكوب، كان ذلك الميل لتحليل مشكلات الثورة العالمية بالاحالة الدائمة إلى تجارب الثورة الروسية يزيّف الاستراتيجية التي نادت بها الأممية الثالثة[١٠٢]. وقد انتُقد كذلك بصورة مكشوفة وزن الوفد الروسي المبالَغ به داخل الهيئات القيادية[١٠٣]. ومن جهة أخرى، أدت مجابهة حرة إلى وضع أنصار الأطروحات المقدمة إلى المؤتمرين وخصومها بعضاً في مواجهة البعض الآخر. فتقرير لينـين حول المسـألـة القومية عورض، مثلاً، بالتقرير المضاد الذي قدمه المندوب الهندي روي[١٠٤]. وعرض خصوم المشاركة في الحياة النقابية وفي النشاطات البرلمانية وجهات نظرهم باستفاضة، وفي عام ١٩٢٠ جرى توزيع برنامج المعارضة اليسارية داخل الحزب الشيوعي السوفياتي على المؤتمرين بهمة المنظمين بالذات[١٠٥]. وبعد عام، ورغم التدابير التي اتخذها الحزب البلشفي ضد أقليته المعارضة(*)، انتقدت الكسندرا كولونتاي دون هوادة من على منبر المؤتمر الثالث سياسة القيادة اللينينية، ولم يكن المناخ العام للقاء أقل صراحة من مناخ عام ١٩٢٠. وعمد الوفد الألماني، بوجه خاص، إلى عرض خلافاته بصورة مكشوفة، وانصرف حتى إلى ما سماه بيير برويه «نشراً حقيقياً لغسيل وسخ[١٠٦]»، واستؤنفت السجالات حول وضع الشيوعية في ألمانيا في المؤتمر الرابع عام ١٩٢٢، وكانت المحاجات عديدة فيه، حيث تدخلت روث فيشر باسم الاتجاه اليساري في الـ RPD، في حين خاض رادك مساجلة قاسية تارة مع المندوبة الالمانية، وطوراً مع الرئيس زينوفييف بالذات[١٠٧].

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ١٢٧ وما بعدها.

لم تكن حرية الاحـاديث وعلنية المنـاقشات أقل داخل المنظمات القومية. ففي نقد الهيئـات التنفيذية للاممية والسياسـة التي نادى بها القادة السوفيات، استهدف الشيوعيان الايطاليان بورديغا وغرامشي الأنظار بشكل خاص. فلقد هاجم الأول علانية قرارات المؤتمر الرابع لعام ١٩٢٢ وأبدى نيته نشر وجهات نظره في شتى الأحزاب الشيوعية دون المرور بالمنظمة المركزية. وهو ما لم يَحُل دون انتخابه في تنفيذية موسكو خلال مؤتمر عام ١٩٢٥[١٠٨].
وفي تشرين الاول ١٩٢٦ أيضاً، قال أنطونيو غرامشي للقادة السوفيات في رسالة وجهها إليهم بصـدد الصراعـات التكتلية التي كانت تمزقهم: «أنتم اليوم بصدد تدمير عملكم. إنكم تخفضـون الـوظيفـة القيادية التي اكتسبهـا حزبكم بفضـل لينـين، وتخـاطـرون بتدميرها بالكامل[١٠٩]». وفي المانيا، ليس بول ليفي هو الوحيد ـ كان وجوده في الحركة الشيوعية قصير الأمـد ـ الـذي كان ينتقد بعض المبادرات المتخذة في موسكو، وقد كتب في كانون الاول ١٩٢٠ باسم الحزب الشيوعي الالماني وفي جريدته الرسمية: «إن أياً من أحكام أنظمة الأممية الـشيوعية لا يجبرنـا على الاعـتراف بكـل قرارات تنفيذية الاممية الشيوعية كومضـات عبقرية[١١٠]». ورفض تالهايمر، من جهته، اقتراحات لينين الذي كان يتمنى إعادة توحيد الـ KDP (*) و KAPD (**) وشرح ذلك علانية[١١١]. وعام ١٩٢٤، ساجل مع زينوفييف على أعمدة الصحافة الشيوعية الأممية، في وقت كان فيه رئيس الاممية الثالثة في ذروة القوة[١١٢].
فضلاً عن ذلك، لم يكن النقد المكشوف لوجهات النظر وحتى القرارات الصادرة عن المنظمة الشيوعية الأممية بادرة جسارة، بأي شكل من الاشكال، في فترة كانت لجنتها التنفيذية تكتفي فيها بمطالبة الحزب الشيوعي الفرنسي بالامتناع عن تقديم انتقاداته للقرارات المتخذة في موسكو بشكل افتتاحيات غير موقَّعة وملزمة بهذه الصفة مجمل التنظيم[١١٣].

كانت الحياة الداخلية لشتى الاحزاب الشيوعية تتسم بالسمات ذاتها. ففي المانيا، كما يكتب بيير برويه، «الجهاز الأعلى.. هو (الـ).. مؤتمر، المنعقد مرة في العام على الأقل، والـذي يُنتخب المنـدوبـون إليه على قاعـدة نقاشات تمهيدية، تتواجه فيها عند الاقتضاء اتجـاهـات تقـدم برنـامجهـا ومرشحيها في الوقت ذاته، وتمتلك أوسع الحقوق للتعبير عن تبايناتها، بما فيه في لقاءات لمجموعات محلية حيث قد لا يكون لها أي نصير». من جهة اخرى، «إن ممارسة جمعيات الموظفين... أو أعضاء يناقشون مشكلات سياسية كبرى، (هذه الممارسـة) الحيوية جداً، تميِّز الحـزب وديمـومة التراث السبارتاكي في آن[١١٤]».

(*) KPD، الحزب الشيوعي الألماني.

(**) KAPD، الحزب العمالي الشيوعي الألماني.

في كل حال ، في وسع الحزب الشيوعي الالماني أن يتباهى بمأثرةٍ ينبغي أن تحسدهُ على ميزاتها، على صعيد الديمقراطية الداخلية، معظم التشكيلات السياسية المعاصرة. فليس من سابقة إطلاقاً للحدث الذي جرى إبان انعقاد مؤتمره التأسيسي. ففي حين كان كل قادته، ومن بينهم وجوه بهيبة روزا لوكسمبورغ وكارل ليبنخت، قد تعاقبوا على المنبر للمطالبة بأن يشارك الحزب في انتخابات الجمعية التأسيسية، رفض المؤتمرون، بروح استقلال اكثر مما بحكمة، هذا الهجوم من جانب القياديين: أيدوا الامتناع بأكثرية ٦٢ صوتاً ضد ٢٣. وعلى امتداد تلك السنوات، لم يفقد مناخ مؤتمرات الحزب الشيوعي الالماني KPD ، الانعكاس الأمين لحياة الحزب، شيئاً من حيويته. وفي كانون الثاني ١٩٢٣، مثلاً، كانت الحوادث متعددة فيه، واضطر الرئيس لبذل جهود جبارة من أجل تهدئة النفوس وتلطيف الصراع[١١٦]. وبين المؤتمرات، لم يكن تَجَابُهُ الاتجاهات أقل احتداماً؛ وكان يجد عاقبته في تصويتات متراصة ويتغذى من سجالات تخاض بشكل مكشوف في صحافة الحزب والأممية[١١٧]. أما الحزب الشيوعي الفرنسي فكان أقل معاناة من امتثالية لم تكن تمارس بعد غير أضرار قليلة، مما من حرية كلام وفوضى كانتا تهددان بإغراقه في انعدام التماسك وفي الشلل. لقد كان مؤتمر تشرين الاول ١٩٢٢، بين مؤتمرات أخرى، مناسبة لأقوال قارصة متبادلة، وحوادث عنيفة وتصفية حسابات تتم عادة في الكواليس في أحزاب أفضل تنظيماً[١١٨].

كانت الممارسة الحرة لحق الاتجاهات داخل الامية وروافدها السبب والنتيجة في آن معاً لحرية النقاش والانتقاد هذه. فإذ خاطب لينين العمال الغربيين، أعلن في تشرين الاول ١٩١٩ أن «الخلافات بين شيوعيين. . هي خلافات بين ممثلي حركة جماهير متنامية بسرعة. . (و) لا يجب الخوف منها: إنها مرض نمو وليست عجزاً ناجماً عن الشيخوخة[١١٩]». لم يكن مدهشاً مذاك أن تتبلور الآراء، بعد أن تكون تحددت، إلى حد تشكيل اتجاهات وحتى تكتلات. واللجنة التنفيذية للامية الثالثة لم تجد في ذلك بدايةً أي شيء تقوله من جديد. ففي التقرير الذي أوصله إليها مندوبها إلى فرنسا، في ٣٠ أيار ١٩٢٢، ورد أن «اليسار (في الحزب الشيوعي الفرنسي، م. ل.). . منظَّم في تكتل وهو يريد الاتفاق مع الأممية في كل النقاط[١٢٠]». والحال أنه، في تلك الفترة، كان التسامح، الذي تبديه القيادة المركزية للأممية الشيوعية حيال التكتلات التي كانت تتجابه في الأحزاب، يقارب نهايته. فضلاً عن ذلك، لم يكن ذلك التسامح ثمرة فقط لانفتاح فكري واسع وديمقراطوية عميقة. كان ناتجاً أيضاً من المصلحة التي كانت تجدها موسكو في القدرة على الاستناد إلى يسار منظم، قادر على أن يواجه داخل ح. ش. ف. بوجه خاص تيارات الاستقلال والاعتدال القوية، لا بل تيارات الانتهازية، التي كانت تعرِّض للخطر وحدة الامية وسلطة منظمتها المركزية. من جهة أخرى، كان التوازن الموجود بين تيارات شتى متبلورة بصورة متساوية وحريصة على

صلاحياتها قد جعل أية محاولة للحد من ممارستها مليئة بالمخاطر والاحتمالات. وكان قادة الأممية الثالثة يُبْدون من جهة اخرى رغبة في المصالحة تجعلهم مهتمين بحماية الاقليات وتأمين تمثيلها، إما في قيادة الاحزاب القومية(*)، أو في مؤتمرات الاممية الشيوعية. ولقد كان الأمر على هذا المنوال، مثلاً، في المؤتمر الرابع، في تشرين الثاني ١٩٢٢، حين أراد الحزب الشيوعي الالماني، الذي كان يسيطر عليه آنذاك تيار معتدل، تصفية اليسار من الوفد المرسل الى موسكو وزعم هكذا معاقبة نشاطاته التكتلية. ولقد تمكن اليسار من إرسال ممثليه الى المؤتمر بناء على تدخل لينين شخصياً[١٢٦].

منذ شهر أيلول ١٩٢٢، مع ذلك، طلب رئيس الاممية في رسالة موجهة الى ح. ش. ف أن يحقق هذا الاخير في مستقبل قريب «الحل الفوري والمطلق لكل التكتلات[١٢٧]». هذا الإخطار كان ينبىء بإنذارات اكثر تهديداً أيضاً. كان عهد يقارب نهايته كانت خلاله الاتجاهات، المتجمعة أو غير المتجمعة في تكتلات والممارسة غالباً أوسع الحريات مع قواعد الانضباط الداخلي، قد تمتعت بحقوق مرموقة. وفي المانيا بوجه خاص، حيث كان «يمين» جعلته خيبات الثورة حَذِراً و«يسار» فاقمت هذه الخيبات ذاتها نفاد صبره، تعاقبا على قيادة الحزب، كانت الاكثرية والاقلية تصارعان بأسلحة متكافئة تقريباً(**)، في حين كانت تتناوب تقارير وتقارير مضادة في مناقشات المؤتمرات[١٢٣]. إلا أن تطور الحزب الشيوعي السوفياتي لم يكن يستطيع البقاء دون تأثير على الاممية وعلى «الأحزاب الشقيقة». كان الفرق قد بات واضحاً بين التقييدات الدقيقة التي كانت تفرغ، منذ عام ١٩٢١، الديمقراطية الداخلية للمنظمة البلشفية من جوهرها، ومناخ الحرية التي استمر سائداً في الحركة الشيوعية خارج روسيا. وكان لابد لغياب لينين، والصراع من أجل خلافته وتفاقم العلاقات بين قيادة الحزب الشيوعي السوفياتي ومعارضته اليسارية، من أن تؤدي إلى إعادة الاحزاب الشيوعية «إلى الصواب» وإلى انحطاط ممارساتها السياسية.

في تموز ١٩٢٤، في المؤتمر الخامس للاممية الثالثة، قررت إحدى الاطروحات المتبناة «بلشفة» المنظمات الشيوعية وحددت هكذا أحد متطلبات ذلك الرئيسية: «يجب أن يكون الحزب ممركزاً، وألا يسمح لا بتكتلات ولا باتجاهات، وأن يكون مصهوراً في قالب واحد[١٢٤]». كانت الاممية الشيوعية قد دخلت لتوها فترتها مابعد ـ اللينينية.

(*) هذا ما سعى إليه ـ لكن عبثاً ـ مندوبو تنفيذية الاممية الثالثة لدى ح. ش. ف. خلال مؤتمره في باريس في تشرين الاول ١٩٢٢. (ج. هومبرت ـ دروز، مرجع مذكور، ص ١٠٣).

(**) كانت التصويتات، حتى على المسائل الاكثر اهمية، متقاربة غالباً وتؤدي الى ظهور اكثريات ضعيفة جداً احياناً. (انظر مثلاً ب. برويه، **La Révolution en Allemagne**، ص ٦١٩ و٦٦٨ ـ ٦٦٩).

النزعة الأممية والرَّوسنة

«لا تحتاج الاممية الثالثة إلا لأن يكون لديها أعضاء يعترفون بديكتاتورية موسكو، ليس في روسيا فقط، بل كذلك في بلدانهم»: هذا ما أعلنه كارل كاوتسكي، عام ١٩٢٠[١٢٥]. هذه الملاحظة السجالية، التي تستبق إلى حد بعيد الوضع الذي سيسيطر في الاممية الثالثة فيما بعد، لم يكن يأخذ بالاعتبار كما سنرى حقائق تلك الفترة. يبقى أنه منذ تأسيس المنظمة الشيوعية الاممية أعطت هذه الاخيرة مقاماً مرموقاً للحزب الذي كان يمسك بزمام السلطة في روسيا السوفياتية. ولاشك أن الأمور ماكان يمكن أن تكون غير ذلك. فالبلاشفة لم يكونوا يستفيدون فقط من المهابة التي كانت تمنحهم إياها النجاحات المستحصل عليها عام ١٩١٧ وإبان الحرب الاهلية؛ ففضلاً عن انهم كانوا الوحيدين، بين كل الاحزاب الثورية، الذين الغوا الرأسمالية، كانوا الوحيدين ايضاً في الكوكبة الشيوعية الذين يحوزون إمكانات استضافة الاممية الثالثة وتقديم مقومات الوجود إليها. يضاف الى ذلك اعتبار أخير: لم تكن سلطتهم مادية فقط أو معنوية، بل كانت سياسية أيضاً. فلما كانوا الوحيدين الذين حطموا قوة البورجوازية، كانوا اغنياء بتجربة قيمة، ومجهزين بفهم نظري مرموق وحائزين في الظاهر موهبة فعالية استثنائية. ألم يكن طبيعياً البحث لديهم عن اسرار نجاح كانوا لا يزالون يحتكرونه؟

كلما كانت تتعطل أكثر فأكثر في اوروبا آلية الثورة الاشتراكية كانت عزلة الثورة السوفياتية وحزبها الشيوعي تزيد من الافتتان الذي تمارسه على النفوس. كان الاعجاب ينبثق من الدهشة ويتحول الى ورع. فالاشتراكيون الغربيون الذين أضعفتهم الحرب والواعون عجزهم عن الاستفادة من الأزمة التي ولَّدتها إطالة النزاع ثم نهايته، كان يلزمهم الكثير من رباطة الجأش - ربما بعض العجرفة؟- كي ينتقدوا الثورة البلشفية، المنتصرة، والمطوقة، والمنزوفة والبطولية. حتى القادة الاصلاحيون، رغم تحفظاتهم أو عدائهم، كانوا يخاطرون بصعوبة بالوقوع عرضةً لانعدام الشعبية عن طريق مهاجمة روسيا السوفياتية. فلقد أعلن لونغيه، مثلاً، أحد الخصوم الأكثر شراسة للالتحاق الاشتراكي بالأممية الثالثة، «إنه من السهل انتقاد الثورة الروسية في هذه النقطة أو تلك». لكنه أضاف: «إلا أن ثمة واقعة هائلة، واقعة فريدة يشعر بها كل البروليتاريين ويفهمونها: للمرة الأولى، مالم يكن يظهر.. إلا كرجاء غامض.. تحول إلى واقع. أي أنه خلال عامين بات العمال والفلاحون يمتلكون السلطة في روسيا، وقُلبت البورجوازية عن عرشها. هذه هي الثورة الروسية[١٢٦]». وأكد رينوديل، الذي كان ينتمي إلى يمين الفرع الفرنسي للأممية العمالية

(SFIO) (*)، انه كان «من أولئك الذين لم يكتبوا يوماً سطراً واحداً ضد البلشفية(١٢٧)». وفي ألمانيا، كان الوسطيّ هيلفردينغ، الذي لم يكن ثمة شك في عدائه للشيوعية، يعلن من جانبه أن «أية ضربة توجَّه إلى الثورة الروسية إنما نحس بها كما لو كنا نحن الذين تلقيناها(١٢٨)». وفي مؤتمر الحزب الاشتراكي الالماني الموحد USPD المنعقد في هال، حاول مارتوف الوقوف في وجه التيار الذي كان يدفع اكثرية كبرى من الاشتراكيين المستقلين الالمان باتجاه الاممية الثالثة، شرح كيف أنه صعَّب مهمته التحفظ في نقد البلشفية الذي لم يكن يشهد عليه الحزب الشيوعي الالماني وحسب، بل كذلك صحيفة الوسطيين(١٢٩).

كان في ذلك ما يكفي من الأسباب لتفسير السلطة غير المنازع فيها التي كان يتمتع بها القادة السوفيات داخل منظمة أممية كانوا ساهموا في خلقها اكثر من أي (طرف) آخر.

وبما أنه لم تكن عبقريتهم الثورية وحدها هي التي كان ينظر اليها كمثال من يأملون حذو حذوهم يوماً ما، فغالباً ماكانت تجربتهم بالذات، أي بعض الملامح الاساسية للثورة الروسية، معتبرةً كترسيمة يتجاوز صلاحها الإطار الجغرافي الذي كانت قد تحققت فيه. وقد وصل لينين، في هذا الصدد، إلى حد القول إبان المؤتمر الاول للاممية الثالثة أن «المجرى العام للثورة البروليتارية هو ذاته في العالم اجمع». وشرح ذلك كالتالي: «في البداية، التشكيل العفوي للسوفييتات، ثم امتداد هذه وتطورها، ثم ينطرح السؤال عملياً: السوفييتات أو الجمعية القومية، أو الجمعية التأسيسية، او البرلمانية البورجوازية(١٣٠)». والحال أنه لو كانت الامور على هذا المنوال، ألم تكن الوسائل التي سمحت للبروليتاريا الروسية بالانتصار والأدوات التي صنعتها للتغلب على البورجوازية قابلة للتصدير؛ ألم تكن للأفكار والإبداعات البلشفية أهمية شاملة؟ لقد اعتقد لينين في البدء أن الأمور هي هكذا بالفعل: «باتت البلشفية نظرية البروليتاريا الأممية وتكتيكها في العالم بأسره»؛ هذا ما أعلنه في نهاية شهر تشرين الأول ١٩١٨. وفي تشرين الثاني وكانون الاول من العام نفسه، ووسط البهجة التي ولَّدها اندلاع الثورة الالمانية، في الحقيقة، تكلم مراراً على «البلشفية العالمية(١٣١)». وفي معرض مساجلته مع المنظِّر الاشتراكي - الديمقراطي العجوز في**الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي**، أكد هذا الحكم: «تدرك الجماهير البروليتارية في كل البلدان، بصورة أوضح مع تعاقب الأيام، أن البلشفية عينت الطريق الصحيحة التي ينبغي سلوكها(١٣٢)».

كان الامر يتعلق بتوضيح هذه الطريق. كانت تمر قبل كل شيء، في رأي لينين، بخلق الشكل المؤسسي الخاص بثورتي ١٩٠٥ و١٩١٧: السوفييتات. لذا أكد في مؤتمر

(*) تسمية الحزب الاشتراكي الفرنسي من عام ١٩٠٦ إلى عام ١٩٧١ (المعرب).

تأسيس الأممية الثـالثة أن على الشيوعيين السعي لإقناع الجماهير الغربية بـ «**ضرورة نظام السوفييتات**[١٣٣]»، وللمندوبين إلى المؤتمر الثامن للحزب البلشفي، المنعقد في الفترة نفسها، أن سلطة السوفييتات هي «**الشكل الأممي، الشامل لديكتاتورية البروليتاريا**[١٣٤]». والحال، إذا كانت ضرورة هذه الديكتاتورية تشكل مبدأ بلشفياً آخر للتطبيق العام، إلا أن تنوع أشكـالها لم يكن أمـراً قابـلاً للإنكار. فبوجه خاص، كان لينين سلَّم بأن «تقييد الحق الانتخـابي مشكلة خاصة بهذه الأمة أو تلك» لأن «المسألة العامة للديكتاتورية (العمالية، م.ل.) يجب أن يجري تناولها «عن طريق دراسة **الشروط الخاصة** للثورة الروسية، **المسار** الخاص لتطورها[١٣٥]». يبقى مع ذلك أنه إذا «كان ينبغي لديكتاتورية البروليتاريا أن تنطوي حتماً على بعض الخصوصيات بالنسبة إلى البلدان المتقدمة، بسبب التأخر المحسوس والسيطرة البورجوازية الصغيرة في بلدنا» «فالقوى الاساسية ـ والاشكال الاساسية للاقتصاد الاجتماعي ـ في روسيا هي ذاتها في أي بلد رأسمالي، بحيث لا يمكن ربط هذه الخصوصيات إلا بما ليس رئيسياً[*]».

لكن ماذا كان ذلك «الاساسي» وماكان يمثل هذا «الرئيسي»؟ هل كانا يشملان أكثر من عموميات، كهذا التحديد الذي اقترحه لينين لديكتاتورية البروليتاريا: «المؤشر الضروري، شرط الديكتاتورية الصريح، هو القمع **العنيف** للمستغِلين، **كطبقة**، وبالتالي **انتهاك** «الديمقراطية الخالصة»، أي المساواة والحرية **حيال هذه الطبقة**[١٣٦]»؟ أو كذلك هذه الدعوة الموجهة الى المندوبين إلى المؤتمر الرابع للأممية الثالثة ـ آخر مؤتمر حضره لينين ـ: «الأهم بالنسبة لنا جميعاً، سواء الروس منا أو الرفاق الاجانب، إنما هو أن علينا، بعد خمس سنوات على الثورة الروسية، أن نتثقف[١٣٧]». وفي مكان آخر، كان لينين أشار فضلاً عن ذلك إلى أنه بين «الشروط الخاصة» بالثورة الروسية، كان بعضها، وهو في اقصى درجات الاهمية (الربط بين المطالب الثورية ومشكلة السلام؛ الظرف العالمي الذي خلقته الحرب وخلقه الانقسام إلى كتلتين امبرياليتين؛ اتساع البلد ووجود فلاحين مستعدين لدعم عمل البروليتاريا، لقاء بعض الشروط)، يفسر لماذا «كان من السهل في روسيا بدء الثورة الاشتراكية، في حين سيكون استئنافها والمضي بها الى نهايتها اكثر صعوبة بالنسبة اليها مما بالنسبة لبلدان اوروبا[١٣٨]». على العكس، ورغم الاختلافات العميقة في الاوضاع، كان

(*) لينين، **الاعمال الكاملة**، ج ٣٠، ص ١٠٤. وفي **مرض الشيوعية الطفولي**، اكتفى لينين، الاكثر حذراً، بأن يقول: «إن بعض الملامح الاساسية لثورتنا لها هذه الاهمية (العالمية، م.ل.) (لينين، **الاعمال**، ج ٣، ص ١٥).

لينـين يقـدِّر في نهاية عام ١٩٢٠ أنـه في **العالم الصناعي المتقدم كما في روسيا،** «لا تزال الـبروليتاريا مقطَّعة، ومهانة، ومفسَدةً هنا وهناك. . بحيث أن المنظمة التي تضمها كلها عاجزة عن ممارسة ديكتاتوريتها مباشرة. تستطيع ذلك حصراً الطليعة التي امتصت الطاقة الثورية للطبقة[١٣٩]». كان يعني ذلك في الواقع وإن بصورة ضمنية ـ لكن بشكل محدود جداً ـ إعطاء مفهوم ديكتاتورية البروليتاريا معنى كان لينين يريده عاماً وقاسراً: معنى ديكتاتورية يمارسها، في الواقع، الحزب الشيوعي.

ما وراء هذه التصريحـات، المتنـاقضة احياناً وغير الدقيقة في الغالب، كان الاتجاه لاعـطاء التجـارب الثورية الروسية ـ وبالتالي النظريات البلشفية ـ أهمية عالمية، ينبع من سلسلة من التماثلات التي اذهلت العقول. فلنبدأ بهذا التماثل، الاساسي: حين اندلعت الثورة في المانيا، وكانت عفوية بتجلياتها الاولى قدر ماكانت كذلك ثورة شباط ١٩١٧، تجمَّع جمهور العمال والجنود في «رات RATE»، مناظِرة للسوفييتات من نواح عديدة كاملة، وجعلوا منها ترجمان مطالبهم. وكما الأسلاف الروسية للمجالس الالمانية، قبلت هذه فضلاً عن ذلك بأن تسلم سلطاتهـا الى حكومة مؤقتة بورجوازية اجتماعياً أو سياسياً، وكما كانت الحال في روسيا غداة ثورة اوكتـوبر، اضطرت ألمانيا الجمهورية لتسوية مسألة الاختيار بين الطريق السوفياتي والطريق الدستوري (سلطة الـ «Rate» أو سلطة الجمعية التأسيسية؟) في حين كان أقصى اليسار الألماني يكرر في هذا الحقل خيار أقصى اليسار الروسي.

إلا أن لينين اعتقد أن في وسعه المضي أبعد. فلقد أعلن في تشرين الثاني ١٩٢٠: «حين نلقي نظرة على اوروبا الغربية، نرى أن الظاهرات التي عرفناها تعيد إنتاج نفسها فيها، نرى تاريخنا يتكرر فيها[١٤٠]» لم يعد يتم الاكتفاء إذاً ببعض البديهيات المستمدة من الوقائع؛ بل جرى إكمالها بمقارنات تقريبية دائمًا وخادعة عموماً، لكن كانت تتميز بتغذية الـوهم بأن التعرجات الروسية موجودة في أمكنة أخرى من اوروبا وستصب في النهاية في السيل الجـارف نفســه. وقـد كان القـادة الاشـتراكيون ـ الـديمقـراطيون الألمان شبيهين بكـيرنسكي مبشِّراً بلينـين غير محدد بعد لكن بات موجوداً؛ ولقد كانت هجمات الرجعية الألمانية ـ كمحاولة الانقلاب التي نظمها كاب في آذار ١٩٢٠ ـ تذكِّر بهجمات أقصى اليمين الروسي، لاسيما بمحاولة انقلاب كورنيلوف التي منيت أخيراً بالفشل بنتيجة الرد العمالي، تماماً كما حصل بالنسبة لـ «نسختها الألمانية». وأخيراً وبوجه خاص، ولّد الوضع الراهن أو صُدَف التـاريخ المقـارنة، الغنية بالآمال، بين أحداث تموز ١٩١٧ في بتروغراد ـ الهجوم الجهيض للجـماهـير من أجـل إطاحة سلطة البورجوازية، الذي استبق المحاولة الناجحة للبلاشفة ـ واندفاعات الحمّى الثورية في المانيا، عديمة الفعالية زمنياً بقدر ماكانت كذلك أيام تموز في روسيا. لقد بدا تموز ١٩١٧، في الواقع، قابلاً في ألمانيا لأشكال عديدة ـ كانون

الثاني ١٩١٩، اذار ١٩٢١، تشرين الاول ١٩٢٣ ـ ووجد شباط (١٩١٧) مُعادِله في تشرين الثاني (١٩١٨). هذه التشابهات الكثيرة كانت تشكو من ثغرة واحدة، لكنها ثغرة مهمة: إذا كانت المانيا شهدت في خريف عام ١٩١٨ «شباطاً عفوياً» خاصاً بها، فهي لم تعرف يوماً أوكتوبرها الظافر.

إلا أن هذه الملاحظة الاخيرة هي فعل مؤرخين يراقبون الواقع بعد انقضائه لا فعل مناضلين يعيشونه. لقد أمكن الشيوعيين إذاً أن يتغذوا على امتداد سنوات الحماس والقلق تلك بمقارنات ومقايسات كان يبدو أنها تعطي وزناً أكبر أيضاً للمثال الروسي وبالتالي ثقة أعظم للقادة البلاشفة. ومع ذلك، وبالرغم من منطق لا يقاوَم في الظاهر ـ نفوذ الثورة الروسية، والسلطة المعنوية لصُنّاعها البلاشفة، وغنى تجربتهم، وفعالية استراتيجيتهم، ومصداقية نظرياتهم والقوة النسبية لوسائلهم ـ فإن ملاحظة كاوتسكي حول خضوع الأممية لديكتاتورية موسكو كانت تتعلق عام ١٩٢٠ بالمساجلة حتمًا وربما بالاستباق، لكن ليس بالمراقبة بتاتاً، وإن تكن نقدية. لقد كانت تصطدم في الواقع بسلسلة طويلة من التكذيبات.

تكذيب الإيديولوجية أولاً، وبوجه خاص الايديولوجية الأممية التي كانت تطبع اللينينية والتي أشرنا إلى تجلٍّ أول وأساسي لها: إخضاع الثورة الروسية لضرورات الثورة العالمية(*). هذه النزعة الاممية التي كانت تتغذى من ينابيع الماركسية بالذات لم تزعزعها نجاحات البلشفية. فوفقاً لمذهب ماركس، كان لينين قد اعتقد دائمًا بتفوق المجتمع الصناعي الغربي على العالم الروسي، ما قبل الرأسمالي وشبه القروسطي من بعض النواحي. ولم يغير هذا الرأي انتصار الثورة في روسيا. فبالنسبة إليه، كانت روسيا لا تزال «بلداً متخلفاً»(١٤١)، ليس فقط بسبب الطابع المتأخر لاقتصادها، بل كذلك بسبب الضعف العام لبروليتارياها العمالية. فرغم انتصار هذه البروليتاريا الروسية وأبعد من هذا الانتصار، بقيت (البروليتاريا المشار اليها) «أسوأ وأضعف وأقل تنظيمًا من «غيرها(١٤٢)»؛ بقيت «متأخرة بالنسبة للبلد الاكثر تخلفاً في أوروبا بما يخص.. المستوى الثقافي ودرجة.. الاستعداد لـ «إرساء» الاشتراكية في حقل الانتاج المادي(١٤٣)». وقد أعلن لينين في تشرين الثاني ١٩١٨: «إذا كنا بدأنا الثورة..، فذلك لم يكن بتاتاً بسبب ميِّزات معينة للبروليتاريا الروسية، أو لأنها كانت متقدمة على غيرها؛ على العكس، فإذا كنا وقفنا في طليعة الفصائل الاخرى.. فذلك عائد حصراً لضعف خاص، وللوضع المتخلف للرأسمالية، وبسبب ظروف عسكرية واستراتيجية قاهرة بوجه خاص(١٤٤)». فضلاً عن ذلك، فإن ذلك التقدم لم يكن معداً للدوام: ففي مرض

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٢٠٣ وما بعدها.

الشيوعية الطفولي كتب لينين أنه «بعد انتصار الثورة البروليتارية، حتى إذا لم تتم إلا في بلد واحد من البلدان المتقدمة، سيحدث على الأرجح تبدُّلٌ مفاجىء: ستغدو روسيا من جديد، بعد ذلك بقليل، لا بلداً نموذجياً، بل متأخراً[١٤٥] (من وجهة النظر «السوفياتية» والاشتراكية)».

هذا الغياب لأي كبرياء روسية كان يتلازم مع تواضع قومي كان ميّالاً للتزايد بمقدار ما تتطور التجربة السوفياتية. فمنذ شهر آذار ١٩١٨، اعتبر لينين أن خلق «نموذج جديد للدولة» في روسيا «مهمة تكاد تكون بُدئت، وقد بُدئت بشكل سيِّيء». وأضاف: «سوف نُظهر هذه الحقيقة للبروليتاريين الأوروبيين ونقول لهم: هاكم ما يجب فعله، من أجل أن يقولوا: الروس يصنعون هذا وذاك بشكل سيِّيء، سوف نصنعه بشكل أفضل![١٤٦]»؛ «لم يبدأ الروس بشكل جيد ماكان يجب القيام به[١٤٧]». إلا أن المأساة لم تكن كبيرة، لأن ميزات الثورة العالمية ستصلح أخطاء الثورة الروسية. «ربما نقترف أخطاء ـ قال لينين في المؤتمر الثامن للحزب ـ لكننا نأمل بأن تصلحها بروليتاريا الغرب. ونحن نرجو البروليتاريا الاوروبية أن تساعدنا في عملنا[١٤٨]». كل ماكان يصدر عن الطبقة العاملة والثورة الغْربيتين ـ وحتى الغربيتين بشكل نسبي للغاية ـ كان يتمتع، على ما يبدو، بحكم مسبق في مصلحته، بنظر لينين. فإذ كان يتكلم في نيسان ١٩١٩، بعد الاستيلاء سريع الزوال على السلطة من جانب شيوعيي بودابست، أعلن مثلاً: «أعرف أن لدينا كمية هائلة من الاخطاء؛ وأعرف أن السلطة السوفياتية ستكون أفضل في المجر مما عندنا[١٤٩]». وبعد قليل، (تلفَّظ بـ) هذه الجملة الأكثر لفتاً للنظر بتواضعها كما ببعد نظرها: «إذا قورنت المجر بروسيا فهي بلد صغير، لكن الثورة المجرية ستلعب في الظاهر دوراً في التاريخ أكبر من دور الثورة الروسية[١٥٠]» وقد كان أمكن الخيبات التي تسبب بها تأخر الثورة الاوروبية وتخبطات البروليتاريا الغربية أن تضع هذه التقديرات الأولى موضع الاتهام. على العكس، يبدو أنه كان للخيبات المسجَّلة في روسيا بالذات على صعيد المجتمع الجديد أثر معزز لها.

كيف كان يمكن أن تأخذ الامور منحى آخر، بما أن لينين كان يكتشف أكثر فاكثر نقاط ضعف الدولة السوفياتية، وبما أن نقده للبيروقراطية اتخذ شكلاً أكثر فأكثر حدة(*)، لاسيما انطلاقاً من عام ١٩٢١. هل كان في وسع روسيا الثورية أن تدل على الطريق أوروبا أو الحركة الشيوعية العالمية في حين أن «كل شيء غرق (فيها)... في المستنقع البيروقراطي الآسن[١٥١]» وأن «جهاز الدولة عموماً» كان فيها «سيئاً بصورة مخزية»[١٥٢]؟ هل كان في وسعها

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

أن تكون مثلاً يُحتذى في حين كانت تتميز بسمات قومية غير ملائمة لمهام البناء: **«الإهمال** الوقح السوفياتي بشكل خاص[153]»، و«التهاون»[154]، والميل إلى «الارتباك»[155]، وعجزٍ كان يدفع لينين إلى القول: «من أجل أن يقوم الروس بفعل أبسط شيء كما يجب، يجب شتمهم أولاً **٢٠** مرة، ثم مراقبتهم **٣٠** مرة[156]»؛ دون نسيان هذه «الظاهرة الروسية الاصيلة» المتمثلة في رأيه بالرشوات[157]. إن الشخصية الأدبية التي كانت، أخيراً، تمثل الروسي أفضل تمثيل، في نظر لينين، إنما كانت شخصية أوبلوموف، المأخوذة من رواية غونتشاروف، والتي كانت تجسد في الوقت ذاته اللامبالاة وغياب الحس العملي والميل إلى اللجوء للتأمل العاجز وأحلام اليقظة المثيرة للرثاء. ويصب لينين جام غضبه على «العادة الملعونة للأوبلوموف الروسي المتمثلة **بتنويم** كل شيء، أناساً وأشياء[158]»، وينفجر قائلاً: «لقد قامت روسيا بثورات ثلاث، ورغم ذلك بقي الأوبلوموفون. . يكفي النظر إلى اللجان وهي تعمل للقول **إن أوبلوموف العجوز لا يزال هنا، وإنه يجب غسله، وتنظيفه، وهزّه وضربه طويلاً كي يخرج منه شيء ما**[159]». لقد كانت في هذا الغضب شبه العاجز ثمرة تجربة طويلة ومرة، غنية بالحوادث التي تروي لنا كروبسكايا مثلاً عنها، بين أمثال كثيرة أخرى بلا ريب. إذ كانت تتنقل في سيارة في ضواحي موسكو بصحبة لينين، وصلت أمام جسر كان يقف قربه فلاح. فأوقف لينين السيارة واقترب منه وسأله إذا كان الجسر متيناً. فهز الرجل رأسه وأجاب بضحكة خفيفة: «لست متأكداً. فأنت تعرف ـ مع احترامي لك ـ أن هذا ليس سوى جسر سوفياتي[160]».

كتبت روزا لوكسمبورغ في مؤلَّفها حول **الثورة الروسية**، معلقة على عمل القادة البلاشفة: «بموقفهم الثوري الحازم، وقوتهم المثالية على العمل، وإخلاصهم المنيع للاشتراكية الاممية، فعلوا حقاً ماكان يمكن فعله ضمن شروط صعبة. والخطر يبدأ عند النقطة التي يتم فيها جعل الضرورة فضيلة وتحويل التكتيك الذي أكرهتهم عليه هذه الشروط المشؤومة إلى نظرية مصطنعة، يريدون توصية البروليتاريا العالمية باحتذائها، كما لو كانت مثال التكتيك الاشتراكي[161]».

إنها وجهة نظر كان أمكن أن يتبناها لينين طوعاً، رغم إيمانه بالقيمة المثالية لبعض المبادىء البلشفية. وفي الواقع، لقد أعلن قبوله بها مراراً عدة. ففي معرض كلامه في مؤتمر الحزب البلشفي عام **١٩١٩**، قال: «سيكون من المضحك تصوير ثورتنا كنوع من المثل الأعلى لكل البلدان، وتخيُّل أنها قامت بسلسلة من الاكتشافات العبقرية وأدخلت كمية من الابتكارات الاشتراكية. . لدينا تجربة الخطوات الأولى لتدمير الرأسمالية في بلد علاقة البروليتاريا بالفلاحين فيه خاصة. ليس ثمة اكثر من ذلك. إذا لعبنا دور الضفادع بنفخ أنفسنا لإظهار أهميتنا، سوف نكون مَضْحكةً للعالم بأسره. .[162]». وفي آذار **١٩٢١**: «ليس

الروس مدهونين بزيت خاص و. . . إذا أرادوا تطويب أنفسهم، قد يصبحون مثار السخرية[١٦٣]». وشهادةً على ذلك، أرسل في آذار ١٩١٩ إلى بيلاكون، زعيم الثورة المجرية، برقية يشدد فيها على أنه «لاشك إطلاقاً بأن تقليداً غير مشروط لتكتيكنا الروسي في كل التفاصيل سيكون خطأ، بسبب الشروط الخاصة بالثورة المجرية[١٦٤]»؛ وقد خاطب الشيوعيين القوقازيين في نيسان ١٩٢١، فطلب منهم فهم «ضرورة عدم نسخ تكتيكنا، بل تعديله بعد تفكير ناضج، تبعاً للشروط الملموسة المختلفة[١٦٥]». ولا جدال أخيراً في أن القناعة بأنه يوجد «مثال بلشفي» كانت تنطبق على الاستراتيجية الثورية التي سمحت بالاستيلاء على السلطة أكثر بما لا يقاس مما على ترسيمات البناء الاشتراكي المعترف بأنها ناقصة للغاية.

كان من المهم الاشارة الى تلك الاستعدادات الأممية بصورة عميقة، الخاصة باللينينية، وتحليلها. فلقد كان تأثيرها على تكوين بنى الأممية الثالثة وعلى الروح التي طبعتها في بداياتها أمراً لا يمكن نكرانه. يبقى أن بُنى الاممية الشيوعية واستعدادها الذهني وممارساتها خضعت لتشريط عنيد يمكن تلخيصه هكذا: بعد التسليم بضرورة تحويل الاممية الجديدة إلى جسم ممركز بوضوح، وبضرورة جعل مقرِّها في روسيا السوفياتية، كان لابد أن تكون المكانة التي يحتلها القادة البلاشفة راجحة في المنظمة الشيوعية الاممية. ولقد أعلن لينين في هذا الصدد في نيسان ١٩١٩: «من البديهي أن الهيمنة في الاممية البروليتارية الثورية انتقلت إلى الروس لفترة قصيرة من الزمن[١٦٦]». لكن المؤقت، في هذا المجال كما في مجالات أخرى، سوف يطول ويتوضح أبعد من اكثر التوقعات تشاؤماً.

إن مبدأ المركزة بالذات كان يظهر كشرط لا غنى عنه لنجاح المشروع الثوري في العالم. ولم تكن هذه القناعة ناجمة فقط عن الالتحاق بالنظرية اللينينية حول الحزب، بل كانت تستند أيضاً إلى الدرس الذي كان يستخلصه من أحداث الحرب كل الذين هزَّهم إفلاس الاممية الثانية هزاً. ألم يكن انهيار آمالها الاكثر حماساً وقراراتها الأكثر تهديداً في الظاهر نتيجة ضعف بنيوي كان يجعلها عاجزة عن إملاء إرادتها على الاحزاب التي كانت تتألف منها؟ فلما كانت صلاحيات مكتب الاممية محدودة إلى أقصى الدرجات ـ إعلام وإدارة ـ ولما كانت وظيفة المؤتمرات مقتصرة على أن تكون منبراً وميداناً للنقاش، كانت الاممية الاشتراكية إزاء استحالة اتخاذ قرارات وفرضها على الاحزاب. كانت قد تخصصت إذاً بالشطحات الغنائية والتمنيات الورعة. ومع انفلات الامبريالية الاكثر شراسة واندفاع صراع الطبقات، كان هناك مبرر لاعتبار أن تلك الغنائية وذاك الورع عفا عليهما الزمن. وإذا كان ثمة اعتقاد فضلاً عن ذلك بأن ساعة الثورة قد أزفت، كان يجب أن ينطلق الهجوم الأممي ضد الرأسمالية

العالمية من استراتيجية مشتركة، يضعها جهاز يمتلك صلاحيات مهمة، ويكون مركز قتال لمشروع قتالي، قادراً على فرض انضباطه على فصائل الجيش البروليتاري.

لقد أعلنت الأممية الثالثة إذاً أن «عليها حقاً تشكيل حزب شيوعي وحيد في العالم بأسره[١٦٧]» وبصورة متلازمة، أن القرارات التي تتخذها الهيئات القيادية ـ وبالتالي المركزية ـ يجب أن تكون «إيمان كل المنظمات الشيوعية»[١٦٨]. بهذه الروح، جرى تحرير أنظمة عام ١٩٢٠، وأكثر أيضاً، عام ١٩٢٢.

في المؤتمر الثاني المنعقد في تموز ـ آب ١٩٢٠، منحت البنود النظامية التي صوّت عليها المندوبون سلطات مهمة للجنة التنفيذية، مركز السيادة في الفترة الفاصلة بين اجتماعات المؤتمر. إن التنفيذية، المؤلفة من خمسة ممثلين للبلد الذي يشكل مركز الأممية، ومن ١٠ مندوبين إلى ١٣ مندوباً لأهم المنظمات غير الروسية، كان لها الحق، مثلاً، في مطالبة الأحزاب المنتسبة بفصل «مجموعات أو أفراد ينتهكون الانضباط الأممي» وكان في وسعها هي بالذات أن تقرر فصل الأحزاب التي «تنتهك قرارات المؤتمر». كان يجب أن تؤمّن الطابع الممركز للمنظمة سلسلة من الأحكام، من بينها ذلك الذي ينص على أن العلاقات بين الأحزاب الأعضاء يجب أن تتم بالضرورة عبر الهيئات المركزية. وهذه المركزة كانت تسهّل طبعاً سيرورة رَوْسَنة إذا لم تكن تعبّر عن نوايا واعية إلا أنها كانت تطبع تطور الاممية الشيوعية. هكذا إذا لم يكن المندوبون الروس يحوزون في الحد الأقصى أكثر من ثلث المقاعد في التنفيذية، فلقد كان لهم، بالمقارنة مع الوفود الأخرى، امتياز النفوذ والتجانس المزدوج. كان على اللجنة التنفيذية بالذات، من جهة أخرى، أن تعيِّن مجلس رئاسة (بريزيديوم) من خمسة أعضاء، من ضمنهم ثلاثة مندوبين للحزب الشيوعي في روسيا[١٦٩]. ولم يُخْفِ مقرر لجنة الأنظمة أن هذا الحزب يمكن «أن يشكل مثالاً ونموذجاً بسبب سياسته الواضحة، وطابعه الماركسي الدقيق، وتنظيمه الصلب وانضباطه الحديدي[١٧٠]». وكان حضور القادة الثوريين الروس ومداخلاتهم قد أعطت النقاش كل ألقه، ولم يفت بعض المندوبين أن يعبروا عن القلق الذي كان هذا الحضور الكثيف والتمثيل الوازن يوحيان به إليهم[١٧١]

بعد عامين، في المؤتمر الرابع، حققت المركزة تقدماً جديداً. فالأنظمة الجديدة التي تبناها المؤتمرون عززت في الواقع سلطة التنفيذية سواء حيال المؤتمر ـ الذي لم يعد عليه الانعقاد إلا مرة كل عامين، لا سنوياً كما كان قد تقرر عام ١٩٢٠ ـ أو حيال الأحزاب الأعضاء. كان ثمة تأكيد صريح بأن اللجنة التنفيذية تضع «توجيهات إلزامية يجب أن تخضع لها كل الاحزاب وكل المنظمات المنتسبة إلى الأممية»؛ كانت التنفيذية مكلفة، فضلاً عن ذلك، بـ «مراقبة نشاطها»: وكان يجب تطبيق قراراتها «فوراً». وجرى الاعتراف هنا أيضاً بحق إلغاء قرارات اتخذتها مؤتمرات الأحزاب الاعضاء أو لجانها المركزية، أو تعديل تلك

القرارات. من جهة أخرى، في حين كانت قرارات الفصل عائدة حتى ذلك الحين للأحزاب الأعضاء التي يمكن أن «تشترط» عليها اللجنة التنفيذية إصدار تحريمات، بات من حق التنفيذية الآن أن تفصل هي ذاتها «أشخاصاً أو جماعات يعملون منتهكين البرنامج أو الأنظمة أو قرارات المؤتمرات العالمية أو قرارات اللجنة التنفيذية(*)».

هذا التدبير الحقوقي لا يعطي مع ذلك غير صورة ناقصة عن الروابط الفعلية بين القيادة المركزية للأممية الثالثة، التي كان للسوفيات فيها دور مسيطر، والأحزاب الشيوعية المنتسبة إليها. فالأنظمة، المعدة في موسكو والمصوَّت عليها في موسكو، كانت تعكس في الواقع روحاً لم يكن ثمة استعداد دائمًا، بعيداً عن العاصمة السوفياتية، لاستلهامها وكان يجري أحياناً حتى رفض تطبيقها. في كل حال، كان الواقع اكثر تلويناً بكثير مما كانت توحي به النصوص والانظمة. فوضع قرارات اللجنة التنفيذية موضع التطبيق كان يتوقف بوجه خاص، وإلى حد بعيد، على الشخصية المختارة لتمثيلها لدى الاحزاب الأعضاء. والحال أن النصوص التي اصدرها جول هومبرت ـ دروز تبينِّ أنه في نقطة التلاقي بين التوجيهات الصادرة عن المركز والمنظمات التي كان مفترضاً أن تنفذ «قانون» الأممية الشيوعية، كانت القاعدة ميالةً أحياناً للتليين، والإرادة المركزية للالتواء والتنوع. كان ممثل الأممية الثالثة في فرنسا مضطراً هكذا، كما يقول جاك فوفيه، لوضع «الكثير من الماء في خمره(١٧٢)». وكان هومبرت ـ دروز يقدِّر في كل حال أن عليه أن يقنع اكثر مما أن يأمر، وأن ينصح بدل أن يقود(١٧٣). ففي الاحتكاك بالوقائع، كان يرى غالباً أن من المفيد الابتعاد قليلاً عن منتدبيه. وقد كتب في هذا الصدد: «علمتُ أن قرارات المؤتمرات العالمية والمقررات التي تتخذها تنفيذية الأممية لم يكن قادة الأحزاب يعرفونها إلا قليلاً، وكانت غير قابلة للتطبيق أحياناً، وأن دور «عين موسكو» لم يكن يقتصر على إعلام التنفيذية، بل كان يتمثل أيضاً في اقتراح حلول لا تتفق أحياناً مع القرارات المتخذة في موسكو، دون معرفة دقيقة بالوضع المتبدل دائمًا(١٧٤)».

صحيح أن كل مندوبي الاممية الشيوعية لم يكونوا يتصرفون بفطنة ممثلها في فرنسا وبمرانته. ففي المانيا، مثلاً، أثار نشاطهم مراراً اتهامات وانتقادات. فبول ليفي كان يؤكد بصددهم أنهم «لا يعملون أبداً مع مركزية البلد، بل من خلف ظهرها دائمًا، وغالباً ضدَّها(١٧٥)». كانوا يظهرون كـ «موجهين خفيين» يجري إرسال تقاريرهم من موسكو دون

(*) ج. دوغرا، مرجع مذكور، ج ٢، ص ١١٩. للتعويض من واقع أن المؤتمرات لم تعد تنعقد إلا مرة كل عامين، جرت زيادة عدد أعضاء التنفيذية وتم إدخال ممارسة «لجان تنفيذية موسعة»؛ كما جرى تعزيز وظائف البريزيديوم بـ (٧ أعضاء بدل (٥) أيضاً).

إطلاع الحزب القومي عليها، ويثيرون احياناً احتجاجات علنية، كذلك النداء الذي حرره في كانون الاول ١٩٢١ بعض القادة الشيوعيين الالمان وكان فيه احتجاج ضد «التأثير المؤذي الذي يمارسه بعض أعضاء التنفيذية[١٧٦]».

فيم كانت تكمن أخيراً ممارسة النزعة الامية، وأية أشكال ملموسة اتخذها، في السنوات الاولى للأممية الثالثة، تدخل القادة المستقرين في موسكو في حياة المنظمات القومية؟ أية مشاكل كانت تخضع هكذا لضغطهم أو لإشرافهم: هل كان الأمر يتعلق بمسائل مبدئية أو بصيغ تكتيكية؟

كان الشكل الأكثر رواجاً في تلك المداخلات هو النقد العلني من جانب تنفيذية الأممية للأحزاب الاعضاء، حيث كانت التنفيذية تقدر أنه «خلافاً للأممية الثانية، لا تكتفي الاممية الشيوعية بإرسال تهانيء وإطراءات إلى فروعها. إن واجبها يكمن في تبيان أخطائها لها والسعي لتصحيحها، بالعمل معها بروح تفاهم وثيق وباستلهام مصالح الثورة العالمية حصراً[١٧٧]». جرى إذاً انتقاد الاحزاب الشيوعية باستمرار وبصرامة، وهذا النقد، الصادر عن قادة بلاشفة مهيبين او عن معاونيهم الاقربين، كان، في ذاته، وسيلة ضغط فعالة بقدر ماكان بعض القادة الشيوعيين المحليين، لاسيما في المانيا، «مستعدين دائماً للاعتراف بأخطاء لا يعتقدون أنهم اقترفوها، لتفادي أزمة مع التنفيذية[١٧٨]». وصحيح أن نقداً كهذا، بمقدار ماكان ثمة إمكانية لأن يصدر عن الجانبين، لم يكن ينطوي على أي شيء يتنافى مع الروح الاممية.

إذا كان وضع الحزب الشيوعي الفرنسي، في عام ١٩٢٢، مدار مداولات عديدة لتنفيذية الأممية الثالثة، ونوقش خلال اجتماعات المؤتمر، فلأنه كان يخاض بين باريس وموسكو ما سمّاه جاك فوفيه «حرب استنزاف»[١٧٩]، حيث استدعت التنفيذية ممثلاً للـ ح. ش. ف. خمس مرات دون الحصول على جواب واحد منه. فمنذ السنة الاولى من وجود (الأممية) كان الشيوعيون الفرنسيون تعاملوا «بخفة سواء مع الشروط الأحد والعشرين التي طرحها المؤتمر الثاني للاممية أو مع الأطروحات التسع والخمسين للمؤتمر الثالث[١٨٠]» في حين كانت الحملة التي خاضها العديد منهم ضد بوريس سوفارين، الذي انتدبه الحزب لدى الجهاز المركزي، «تستهدف في الواقع تنفيذية الأممية[١٨١]». سوف يعلن فروسار فيما بعد، بعد خروجه من ح. ش. ف. أن هذا الحزب الفتي لم يكن يسلّم بأن «تدعي الأممية حق التدخل في الحياة الداخلية للحزب[١٨٢]». أما الأنظمة التي كان هكذا تدخل لازماً وفقاً لها، فكانت توحي للأمين العام للـ ح. ش. ف. بملاحظة لم يكن من شأن وقاحتها أن تذلل الصعوبات: «عندما قرأناها، قلنا في ذات أنفسنا: «عجباً! هذه أنظمة، سوف نطبقها إلى هذا الحد أو ذاك، سوف نتكيف معها كيفما اتفق. كل شيء يتدبر[١٨٣]». لسوء حظ فروسار

والناس الذين كانوا من اتجاهه، لم تكن البلشفية تتساهل أبداً مع هكذا تدبُّرات. فضلاً عن ذلك لم تكن تقبل بأن تتعرض الأممية الثالثة، على صفحات جريدة يقودها عضو في ح. ش. ف. ، لحملة عدائية منهجية[١٨٤]. أكثر من ذلك، كان الشيوعيون الفرنسيون رفضوا جازمين القبول باستراتيجية «الجبهة المتحدة» التي قررتها عام ١٩٢١ اللجنة التنفيذية للأممية، والتي كانت تسعى، للمرة الأولى، للتقريب بين الاشتراكيين والشيوعيين. وبما أن ح. ش. ف. كان يضيف إلى انعدام الانضباط الضعف والفوضى(*)، اعتقدت الهيئات المركزية أن من حقها التحقيق في قضيته والإيعاز له كي يغير نفسه بعمق.

هكذا في حزيران ١٩٢٢، اعلن تروتسكي في تنفيذية الاممية الثالثة: «يجب أن يبدأ تقويم جديد، عهد جديد بالنسبة للشيوعيين الفرنسيين. يلزم تغيير كبير في الطريق وفي الطريقة[١٨٥]». وكانت تلي ذلك إيعازات لا التباس فيها تتعلق بتركيب أجهزة قيادة ح. ش. ف («من الضروري بشكل مطلق أن يكون أكثر من نصف أعضائها (اللجنة القيادية، م. ل.) عمالاً . . . »)، ومضمونَ صحافة الحزب[١٨٦]. وفي ظروف أخرى، وجهت الأممية إلى الحزب الشيوعي الفرنسي أمراً بأن يطرد البنّائين الاحرار من صفوفه[١٨٧].

بالنسبة لما تبقى، كان مندوبو اللجنة التنفيذية في الخارج يسعون أحياناً بنشاط لتشجيع قيام الأحزاب الشيوعية بتعيين قياديين يؤيدون توجهها، دون أن تكلل جهودهم دائماً مع ذلك بالنجاح. فغرامشي، مثلاً، الذي طُلب منه ذلك رد بأنه لا يريد التورط في «دسائس من هذا النوع[١٨٨]». وأبعد من هذه المناورات، ثمة أهمية اكبر للإشارة الى ان قرارات أساسية تُلزم مجمل الأممية الثالثة وفروعها المختلفة وتربط سياستها كانت تتخذها التنفيذية أحياناً، في موسكو. حصل هكذا على صعيد التكتيك المسمى تكتيك «الجبهة المتحدة»، مع أن أصله يمكن أن يُعزى الى مبادرة من جانب الحزب الشيوعي الالماني. كذلك الامر، حين اضطر الشيوعيون الالمان لتحديد موقفهم تجاه شروط الدعم الذي كانوا ينوون تقديمه لحكومة الساكس الاشتراكية ـ الديمقراطية، جرى تجاوز ترددتهم في العاصمة السوفياتية، بعد نقاش شارك فيه لينين وتروتسكي ورادك وزينوفييف[١٨٩]. وبعد عام، أشرك

(*) هاكم كيف صوّرت لومانيتيه، مثلاً، مناخ مؤتمر كانون الأول ١٩٢١: «جرى بصورة غامضة وسط الجلبة سماع مندوبين يدلون بتصريحات متناقضة. . إن وصف الجلبة مستحيل، فمن أدنى القاعة إلى اقصاها كانت الردود تتصادم، مصحوبة بتشجيعات وباحتجاجات». (ج. والتر، **Histoire du parti communiste francais** ص ٧٤ـ ٧٥).

قرار إعداد انتفاضة عمالية في المانيا في المداولة ممثلي الحزب الشيوعي الالماني وأعضاء المكتب السياسي السوفياتي(*).

فضلاً عن ذلك، فإن مداخلات القادة الشيوعيين الروس أو الهيئات المركزية للأممية الثالثة غالباً ما كانت تهدف إلى تهدئة النزاعات التي كانت تدور داخل الأحزاب الشيوعية القومية التي تهددها روح العصبة. فلقد دعي الشيوعيون الألمان للبحث عن أرضية تفاهم مع يساريي الحزب العمالي الشيوعي الألماني ومع الاتجاه الراديكالي للاشتراكيين المستقلين: جرى السعي لإيجاد تسوية حبية لنزاعاتهم الداخلية، لاسيما عن طريق تمثيل الاتجاهات الأقلية داخل الأجهزة القيادية[190]. وفي فرنسا، سعى مندوبو الأممية أيضاً لدفع القادة «الوسطيين» للـ ح. ش. ف. لإشراك العناصر اليسارية في قيادة الحزب[191]. وفي مكان آخر، كانت التنفيذية أو كان ممثلوها يضطلعون بتذليل النزاعات والخصومات بين الاتجاهات المتنوعة لحركة شيوعية كانت لا تزال متنافرة، وكانوا يسعون للتوحيد في حال الانقسام، ولمنع الانشقاقات حين تبدو مهدِّدة(**). وكان الأمر يتعلق أيضاً، في بعض الظروف، بتلطيف احتدام شيوعيين نافدي الصبر للقطع مع البورجوازية. إن الثوريين الروس الذين غالباً ما اتهمهم خصومهم الاشتراكيون ـ الديمقراطيون بـ «الانقلابية»، اجتهدوا مراراً في جعل الشيوعيين الغربيين يقبلون بتعليمات بالحذر. فخلال ثورة تشرين الثاني في ألمانيا، عمد يوفي وبوخارين اللذان كانا على اتصال دائم بالسبارتاكيين في برلين، إلى دعوتهم للحذر[192] وفعل رادك الشيء ذاته ـ لكن عبثاً ـ في كانون الثاني ١٩١٩[193]. لم يكن ثمة مع ذلك موقف منهجي، بل بالأحرى إرادة توفيق التكتيك مع الظروف المحلية. ففي خريف ١٩٢٠، حين هزت إيطاليا الشمالية، ولاسيما منطقة تورين حركة واسعة للاضرابات واحتلال المصانع، دفعت الاممية باتجاه تجذير العمل ودعت العمال الايطاليين للتسلح والحزب الشيوعي لـ «سلوك الطريق الذي يؤدي إلى الانتفاضة. .[194]». أما التأثير الذي كان لتنفيذية الأممية الثالثة على العمل الذي بادر إليه الحزب الشيوعي الإيطالي في شهر آذار ١٩٢١، فيبقى قليل الوضوح. طبعاً، لا جدال في أن بيلاكون، الذي كان يعمل بوصفه ممثلاً للمنظمة المركزية، وكان معروفاً باتجاهاته اليساروية، شجع القادة الشيوعيين الالمان الاكثر نشاطوية؛ لكننا نجهل إذا كان تدخل، في ذلك الظرف، بوكالة صريحة من التنفيذية أو أنه أساء استخدام النفوذ الذي كانت تمنحه إياه وظائفه[195]. لقد علق لينين بعد ذلك بقليل على ذلك التدخل

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(**) كانت تلك هي الحال مثلاً في بلجيكا والنروج وبريطانيا والولايات المتحدة.

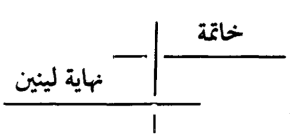
البائس: «أعتقد دون صعوبة أن ممثلاً لتنفيذية الأممية اقترح تكتيكاً أحمق، يسارويا للعمل الفوري. . في رأيي أن عليكم، في حالات من هذا النوع، عدم الخضوع، بل الاحتجاج ورفع المسألة فوراً إلى الاجتماع الكامل للجنة التنفيذية[196]».

مرة أخرى، كان هنالك الكثير من التجريبية في تكتيك كان لا يزال يبحث عن نفسه وفي وضع كان لا يزال غامضاً. وعلى الصعيد الاستراتيجي، كانت الحركة الشيوعية الاممية تبقى جاهزة، وكان عملها الذي يسعى إلى المرانة يلامس انعدام التماسك أحياناً. وعلى صعيد بُناها، كانت «الروسنة» تتقدم بلا ريب، تسهِّلها شروط موضوعية؛ لكنها لم تكن تصدر عن إرادة واعية، ولم تكن تقدم نفسها كخيار نهائي. وفي الشروط الحائرة لحقبة غنية بالإمكانات ولحركة غنية بالممكنات لم يكن أي شيء بعد أولياً ولا نهائياً. كانت الأممية الثالثة التي مقرها موسكو تخضع بالتأكيد للتشريط الروسي؛ لكن قادتها بالذات كانوا قد فكروا في البدء في جعل مقرها في الغرب، ولو في السِّرية[197]. فكما تقول المؤرِّخة جين دوغرا: «كانت لدى القادة السوفيات، كما يتضح من مقالاتهم وخُطبهم في تلك الفترة (آذار ١٩١٩، م.ل.) النية الحازمة والأمل في نقل مقر الاممية باتجاه أوروبا الغربية، وذلك ما أن تسمح الظروف[198]». وقد أمضى هذا الأمل سنوات عديدة لينطفىء في حين أن تحقيقه المتمنى كثيراً كان عنى إضعافاً للتأثير الروسي داخل الحركة. وكان هذا التأثير يصطدم من جهة ثانية بكوابح أخرى أيضاً، كطموح الحزب الشيوعي الالماني للعب دور مهم في تحديد الاستراتيجية الثورية الأممية. فبديهي أن روزا لوكسمبورغ فكّرت في فترة تأسيس الحزب الشيوعي الالماني في الحد من إشعاع المثال السوفياتي[199]. ولم يكن هذا الهم يتسم بأي هرطقة، لأن لينين بالذات كان يعتبر تطور الثورة الالمانية مهمة لها الأولوية بالنسبة لكل الأممية، ونجاحها الشرط الأساسي للانتصار على الرأسمالية(*). ويذكر الممثل الالماني في مؤتمر تأسيس الاممية الثالثة، في هذا الصدد، بأنه «وفقاً لتصورات لينين حول العصبة السبارتاكية»، جرى انتخابه لكل لجان المؤتمر كما إلى رئاسته[200]. وفي نهاية عام ١٩١٩، ورغم الإخفاقات التي كان مني بها الشيوعيون الالمان، لم يكفّوا عن الظهور بمظهر أدِلاّء للحركة الثورية الاوروبية. ألم يكن تالهايمر يعلن على المكشوف أن «بيئة ألمانيا التاريخية أقرب إلى بيئات البلدان الغربية من البيئة الروسية»، واستخلص من ذلك أن «التجارب الالمانية في موضوع التكتيك ستكون لها بالتالي قيمة خاصة بالنسبة إلى الغربيين[201]». لكن كان

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

ينقص تالهايمر، ليكون مقنعاً تماماً، أن يتمكن من التباهي ببعض النجاحات الشبيهة بنجاحات الشيوعيين الروس.

لم يكن شيء ثابتاً نهائياً إذاً في منظمة أممية غالباً ما كان الانضباط فيها نظرياً أكثر منه حقيقياً، وكانت تصطدم القرارات الأهم بمعارضة الأحزاب الشيوعية في فرنسا واسبانيا وتشيكوسوفاكيا وإيطاليا، وداخل الحزب الشيوعي الألماني بتحفظات قوية جداً[٢٠٢]، كما كانت الحال حين تبني استراتيجية «الجبهة المتحدة». لم يكن شيء ثابتاً طالما كان عمق المشاعر الأممية يساهم في تبطيء تقدم الروسنة، وكان لينين يحرص من على رأس الحركة على الحد من آثارها. وقد ذهبت مداخلته خلال آخر مؤتمر للأممية حضره، في تشرين الاول **١٩٢٢**، في هذا المنحى. تأسّف في تلك المناسبة بسبب الطابع «الروسي بشكل أساسي، أو تقريباً» لبعض القرارات التي صوّت عليها المؤتمر الثالث عام **١٩٢١** وأخذ على بعض المندوبين الأجانب توقيعهم عليها «دون قراءة ولا فهم». وأضاف: «حتى إذا فهمها أجنبي، بصورة استثنائية، فهو قد لا يكون قادراً على تطبيقها[٢٠٣]». وفي التحليل الأخير، كانت «الروسنة» قد ولدت من انعزال الثورة الروسية. أما اللينينية فكان يبدو أنها تملك ما يكفي من الموارد النظرية واليقظة الأممية، لكبح تقدمها بانتظار الحدث الوحيد القادر حقاً على وقف آثارها: نهاية تلك العزلة المأساوية بتوسيع الحركة الثورية الذي كان مبرر وجود الأممية الشيوعية بالذات.



خاتمة

نهاية لينين

مع أن هذا المؤلَّف يفسح مكاناً للينين كفرد، فهو قد ابتعد منهجياً عن النوع السِّيري إلا أنه يرضخ لهذا النوع في اللحظة التي يصل فيها إلى نهايته ولأسباب تتعلق بالمعنى بالذات الخاص بمشروع المؤلَّف: إبراز أصالة المشروع اللينيني. والحال أن هذا الاخير يتخذ في الاشهر الاخيرة من حياة لينين وضوحاً مأساوياً يجد فيه المؤرخ السياسي مصدراً لملاحظات أخيرة وحاسمة(*).

إنها هيئة مأساة من المذهل ألا يكون أي أديب أو مسرحي قد لاحظ عظمتها. صحيح أنه بمقابل تروتسكي، ليس لدى لينين إلا القليل مما قد يغريهم: أسلوبه نثري للغاية، وواقعيته رزينة جداً، وفعاليته لا تشجِّع. صحيح أيضاً أن مسيرته كانت مظفرة وأن المأساة تتغذى بهزائم اكثر مما بانتصارات. لكن مسيرته لم تظهر منتصرة بالكامل إلا بسبب الصمت الذي أحاط طويلاً بالأشهر الاخيرة من حياته. ينبغي الذهاب ما وراء المظاهر: مظاهر مؤسس روسيا السوفياتية، الظافر في أوكتوبر والحرب الاهلية، الثوري السعيد والبنّاء الفعّال. هذه الصورة الرائجة ليست دون مستتبعات سياسية. ففكرة لينين منتصر لا تدعم فقط الأورثوذكسية الماركسية - اللينينية، بل كذلك حكم كتابة التاريخ البورجوازية المستعجلة دائماً لعدم رؤية أكثر من إرادة قوة في اللينينية. بعد وصول هذه إلى هدفها وتوطيده، رقد لينين في المجد والرضى الذاتي.

هذه هي الأسطورة. وهاكم الوقائع.

في **٢٥ أيار ١٩٢٢**، أصيب لينين بنوبة أولى لتصلب الشرايين، الأمر الذي أدى إلى شلل اليد والساق اليُمْنَيين وأنقص قدرته على لفظ الكلمات. وبعد نقاهة طويلة، استأنف

(*) هذا ما يجعل كتاب موشي ليفين **le Dernièr Combat de lénine)**، باريس ١٩٦٧) قيّماً بشكل خاص. وهذا الفصل يحيل إليه غالباً.

نشـاطاته في الايام الاولى من تشرين الاول ١٩٢٢ . وفي ١٣ كانون الأول، أجبرته نوبة جديدة على انسحاب نهائي . وفي ١٠ آذار، أخيراً، بعد نوبة كانت بدأت في السابع منه، فقد نهائياً قدرته على النطق . اما الوفاة فحدثت في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٤ . ما وراء هذه النشرة الصحية، مع ذلك، ثمة «معركة لينين الأخيرة» التي لم تكن فقط نضالاً ضد المرض، بل كذلك وبوجه خاص نضالاً من أجل اللينينية ولأجل الاشتراكية . تكشف الحوادث إنساناً يتآكله القلق، لكنه يواجه فخاخ اليأس بالموارد الاخيرة لطاقة موضوعة أكثر مما في أي وقت مضى في خدمة القضية الثورية . ولم يقاتل لينين ـ المقاتل قدر ما فعل وفي ظروف أقسى مما في تلك الاشهر من التمزق والوحدة والوضوح .

لقد قاربت عزلته حد الاحتجاز. فحين اضطرته النوبة التي اصابته في ١٣ كانون الأول ١٩٢٢ لإيقاف نشاطه السياسي الذي كان فضلاً عن ذلك متباطئاً، حَظَّرت عليه اللجنة المركزية للحزب، أو بالأحرى ستالين ذاته الذي كُلِّف بمهمة السهر على المريض، حظرت عليه تلقي أية زيارة . وبعد قليل، حُظِّر على المحيطين بلينين أن «ينقلوا إليه أية رسالة أو أن ينبئـوه بالشؤون الجارية للدولة، كي لا يتم إعطاؤه مادة للتأمل والهموم» . وفي ٢٤ كانون الأول، استكمل المكتب السياسي هذا التوجيه وقرر أن على «الأصدقاء والخدم ألا يبلغوا لينين بأي شيء يتعلق بالسياسة، من أجل عدم التسبب (بإعطائه) موضوعاً للتفكير والاضطراب[1]» . وكما يشير م . ليفين، «هكذا بدأت معركة لينين المنهكة لإبقائه على علم بما يهمه، ولصياغة آرائه وإيصالها إلى من يهمه الأمر[2]» . وقد اشترط تمكينه من أن يملي على أمناء سره لمدة خمس دقائق يومياً . وبعد أن حصل على ذلك طالب بحق كتابة مذكراته . (لكن) الأطباء الذين كانوا يعملون بالتنسيق مع المكتب السياسي، ردوا بالرفض . عندئذ هدد لينين : إذا استمر هذا الرفض، سوف يمتنع عن تلقي العلاج . فانصاع الاطباء، لكن المكتب السياسي ـ أي ستـالـين ـ أضاف هذا التوضيح : «لا يمكن أن يكون للملاحظات (المذكرات، م . ل .) طابع المراسلة ولا يمكن أن تستدعي أية إجابة[3]» . ضمن هذه الشروط جرى تحرير الصفحات المعروفة تحت تسمية «وصية» لينين، وإملاؤها، لقاء جهد كبير[4] .

من كانون الأول ١٩٢٢، حتى النكسة النهائية في ٧ آذار ١٩٢٣، لم يُسمح بزيارة المريض إلا لزوجته وأخته وسكريتاراته الأربع والملاك الطبي فقط . لكن هذه الاتصالات نُظِّمت بشكل دقيق . فأمينات السر وحتى كروبسكايا بالذات تعرضن للمراقبة الدقيقة من جانب الامين العام للحزب ومعاونيه، الامر الذي تسبب بحادثة بالغة العنف بين ستالين وزوجة لينين، سوف نتطرق إليها فيما بعد . وكما تذكر إحدى أمينات السر في ١٢ شباط ١٩٢٣، في اليوميات المشتركة التي كتبتها خلال مرض لينين، «يبدو أن اطلاع الأطباء هكذا (على اهتمام المريض بالاحصاء الذي نظمته الإدارة السوفياتية، م . ل .)، أثار غضب

فلاديمير إيليتش الشديد. فضلاً عن ذلك، تولّد لدى فلاديمير ايليتش انطباع بأن الأطباء لا يقدمون توضيحات إلى اللجنة المركزية، بل اللجنة المركزية هي التي تعطي توجيهات إلى الأطباء(*)». وبعد عدة أيام، أبدى لينين قلقه من الرقابة التي يمارسها ستالين. كانت إحدى معاونات لينين نقلت له أن «ستالين سأل إذا كنت أروي لفلاديمير إيليتش أشياء غير مفيدة». واستفهم ستالين: «كيف جرى إطلاعه (لينين، م. ل.) على القضايا الجارية؟(٦)».

كانت «القضايا الجارية»، من بين قضايا أخرى، لكن بوجه رئيسي، تطور الوضع في جورجيا حيث كانت إرادة الحكم الذاتي لدى الشيوعيين الجورجيين تصطدم بالسياسة الفظة، المركزة والقمعية لستالين ومساعده أورجو نيكيدزه(*). فلفرط الحيلة والعناد، توصل لينين للحصول على معلومات عن هذا الموضوع كان يجري التفنن في إخفائها عنه. وللوصول إلى أهدافه، نظم، وحده ضد الجميع، ما سماه هو ذاته بالـ «مؤامرة»(٧). فلما كان طلب من المكتب السياسي تسليمه سلسلة من الملفات، اصطدم بإرادة سيئة مستمرة. في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣، سجلت إحدى امينات السر في الدفتر: «ناداني فلاديمير ايليتش ليعرف الجواب (جواب المكتب السياسي عن طلبه للمعلومات، م. ل.) وقال انه سيقاتل من أجل أن يقدموا له الوثائق(٨)».

وقد قاتل في الواقع، منتزعاً معلومات وتنازلات ومهيئاً، قطعة فقطعة، تقريراً ضخماً كان يعده للمؤتمر الذي كان سيعقده الحزب بعد وقت قصير؛ وكل ذلك تحت رقابة ستالين المدققة والاستقصائية. وحين كانت السكريتيرة فوتييفا تقدم المعلومات للينين، لابد أنها كانت تتظاهر بالقيام بذلك سهواً(٩). وحين نجح لينين، بقدرة معجزة، في إملاء مقالات وملاحظات، كان عليه أن يقاتل أيضاً لإجبار قيادة الحزب على نشر النصوص التي كان يعدها للبرافدا. وقد جرى التفكير حتى، في المكتب السياسي، بطبع نسخة وحيدة معدة للمريض حيث يظهر المقال الذي كان يطالب بنشره، لكن الذي لم يكن ثمة اهتمام بإيصال جوهره إلى الجمهور الواسع(١٠). صحيح أن الأمر كان يتعلق بهجوم حسب الاصول ضد الرابكرين، التفتيش العمالي والفلاحي الذي كان يتولى ستالين شخصياً قيادته. مقطوعاً هكذا عن العالم الخارجي، محتجزاً ومراقباً، كان لينين يخوض المعركة الاكثر استبسالاً والاكثر يأساً، لكن الاشد تعبيراً، وذلك ضد شخص ستالين وسياسته. ولم يكن الرهان غير تقويم المسار الذي تتبعه الدولة السوفياتية في بعض الموضوعات الاساسية: الانحطاط

(*) انظر أدناه، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

البيروقراطي، تجاوز حد السلطة من جانب الديكتاتور اللاحق، الأشكال الأولى لقمع الأقليات القومية.

كانت مشكلة غير مؤذية في الظاهر قد أدت إلى المشادات الأولى. فتحت غطاء النيب، كان بعض مسؤولي الاقتصاد السوفياتي اعتبروا من الضروري تلطيف احتكار الدولة للتجارة الخارجية، لكن لينين كان قد أبدى معارضته للقرارات التي اتخذتها بهذا الصدد اللجنة المركزية للحزب في تشرين الاول ١٩٢٢. فمنذ آذار، كان قد أعلن: «لا يمكننا أن نحيد عن احتكار التجارة الخارجية.. وإلا فإن الأجانب سيعيدون شراء كل ما له قيمة ويخرجونه[١١]». وكان قد أرسل أيضاً ملحوظة إلى ستالين لتأكيد معارضته لمشاريع «نزع الاحتكار» أو «نزع الدولنة». فبالنسبة للينين، كان احتكار التجارة الخارجية ضرورياً لإقامة سور حول روسيا السوفياتية يكون في وسعها أن تبني في حماه اقتصاداً مركّزاً على الصناعة الكبرى وعلى قوة البروليتاريا[١٢]. أما ستالين فكان يعتبر، على العكس، أن «إضعاف (الاحتكار بصدد التجارة الخارجية، م.ل.) بات محتوماً[١٣]». وقد عقد لينين تحالفاً، في هذا الصدد، مع تروتسكي الذي كان يشاطره أفكاره والذي كلفه بالدفاع عن مواقفهما المشتركة. وقد استحصلا معاً على مراجعة القرارات التي اتخذتها اللجنة المركزية سابقاً وعلى إعادة نظر كاملة في المشكلة. كتب لينين إلى تروتسكي: «أعتقد أننا اتفقنا بالكامل، وأرجوك أن تعرض تضامننا في الدورة التي ستنعقد بكامل هيئتها». وأضاف: «وإذا لم يتم تبني حَلّنا، على غير ما هو متوقع، سوف نتوجه إلى الكتلة (الشيوعية، م.ل.) في مؤتمر السوفييتات، ونعلن أننا سنطرح المسألة أمام المؤتمر[١٤]». وقد تتوّج هذا الهجوم بالنجاح، وجرى فسخ تدابير «نزع الاحتكار» في كانون الأول ١٩٢٢. وبعد قليل، أعلن لينين في رسالة جديدة موجهة الى تروتسكي: «يبدو أننا نجحنا في انتزاع الموقع دون إطلاق رصاصة واحدة، بحركة تكتيكية لا أكثر. أقترح عدم الوقوف عند هذا الحد، ومواصلة الهجوم..[١٥]».

كانت مشكلات أهم أيضا تتطلب في الواقع تدخلاً حازماً. وفي المقام الأول، مسألة جهاز الدولة. وقد استفاد لينين من خلوته النصفية ليدرك بصورة كاملة أخطاءه الضخمة. ألم يكن أكد، في الاشهر الاولى من عام ١٩٢٢، أن «البيروقراطية تخنقنا» وأن «كل شيء غرق لدينا في المستنقع البيروقراطي الآسن[*]»؟ وفي كانون الاول ١٩٢٢ وكانون الثاني ١٩٢٣، أكد هذه التقديرات المتشائمة في ملحوظات أملاها على سكريتيراته: «نطلق تسمية جهازنا على جهاز (لإدارة الدولة، م.ل.) لا يزال في الواقع غريباً تماماً عنا ويمثّل خليطاً

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ١٥٥.

مشوّشاً من المخلفات البورجوازية والقيصرية»، جهاز «استعرناه من القيصرية مقتصرين على زخرفته بشكل خفيف بطلاء سوفياتي»[16]. وأيضاً: «إن جهازنا الاداري.. لا يصلح لشيء إطلاقاً[17]». وخلص إلى القول في مقاله «حول التعاون» الذي أملاه في ٦ كانون الثاني **١٩٢٣** ولم يُنشر إلا بعد ثلاثة أشهر في البرافدا: «إن إعادة صياغة هذا الجهاز تشكل مهمة أساسية بالنسبة للحزب[18]» وبالغة الصعوبة لاسيما أن المرض، كما رأينا، كان عميقاً؛ وقد اعترف لينين من جهة أخرى: «هذه مسألة لم نتمكن إلى الآن من دراستها[19]». إلا أنه، مهما يكن، كان يَحْسُن بصورة ملحة، «تقليص (حجم) الجهاز السوفياتي بصورة منهجية» و«خفض كلفته عن طريق خفض عدد أفراده». ذلك كان مضمون رسالة وجهها إلى مؤتمر نقابة الكوادر السوفياتيين في نهاية شهر تشرين الثاني **١٩٢٢**[20]. إلا أن **المسألة** كانت سياسية بشكل أساسي. فلقد عُهد بالنضال ضد البيروقراطية إلى التفتيش العمالي والفلاحي الذي كان بقيادة ستالين. والحال أنه في المقال الأخير للينين، «من الأحسن أقل لكن أفضل»، أكد ما يلي: «إن مفوضية الشعب للتفتيش العمالي والفلاحي لا تتمتع حالياً بأدنى هيبة. الجميع يعرفون أنه ليس هناك مؤسسات أسوأ تنظيماً من المؤسسات المتعلقة بتفتيشنا العمالي والفلاحي[21]». وقد وصف لينين الرابكرين بـ «المشروع الميئوس منه[22]».

في **٢٣** كانون الثاني **١٩٢٣**، أملى لينين على امينات سره ملحوظة بعنوان «كيف نعيد تنظيم التفتيش العمالي والفلاحي» لتتم مناقشتها في المؤتمر الثاني عشر للحزب الشيوعي. وقد اقترح فيها تقليص هذا الجسم الهائل الذي يضم اكثر من عشرة آلاف موظف إلى مجموعة صغيرة من ثلاث إلى أربعمئة عضو[23]. وكان قد أشار فضلاً عن ذلك إلى أن هؤلاء الباقين من الرابكرين يجب أن يفقدوا أية استقلالية: لن يكونوا غير «المساعدين» للجنة مركزية مجددة أوصى من جهة أخرى بتوسيعها عن طريق إدخال عشرات الاعضاء الجدد المختارين من بين شيوعيين من أصل عمالي أو فلاحي[24]. ولو أمكن تنفيذ هكذا قرار، لأدى إلى اختفاء إحدى المؤسسات التي كان يعتمد عليها السلطان المتعاظم لستالين. مرة أخرى، كان لينين يصطدم بشخص الامين العام: كانت مشكلة إدارية في الظاهر تبدو محمَّلةً بوزن سياسي كبير. ولخوض هذه المعركة، اقترب لينين من جديد من تروتسكي. تشهد على ذلك مراسلة لاشك أننا لا نملك كل موادها، لكنها، في الوضع الراهن للمعلومات المتوفرة، تشهد كفايةً على وحدة وجهات نظرهما كما على النمو المتزايد لعلاقاتهما الودية(*). ولابد من أن نلاحظ في

(*) انظر مثلاً لينين، **الأعمال الكاملة**، ج ٤٥، ص ٦٢١-٦٢٢، ٦٢٤-٦٢٥، ٦٢٧-٦٢٨. وتنتهي الرسالة المؤرخة في ٥ آذار **١٩٢٣**، إحدى الرسائل الاخيرة التي أملاها لينين، بصيغة حارة جداً، وغير معتادة عنده: «أفضل تحياتي الاخوية».

هذا الصدد أن علامات الثقة هذه لاحقة للتقويم الإطرائي والنقدي في ان معا الذي عبر عنه لينين في «وصيته» حيال تروتسكي وحيث إذا كان يتكلم على «الصفات الرفيعة» للرجل الذي «ربما يكون الأقدر في اللجنة المركزية الحالية»، فهو يأخذ على مؤسس الجيش الأحمر «فرط ثقة بالنفس» و«شغفاً مبالغاً به بالجانب الاداري الصرف للأمور[٢٥]».

أياً يكن من أمر هذه التقويمات، فقد كان للينين، حوالي شهر تشرين الاول ١٩٢٢، لقاء مع تروتسكي نقل هذا الأخير فحواه في مذكراته. (حسب هذه الرواية) صرخ لينين قائلاً آنذاك: «البيروقراطية مخيفة عندنا.. لقد أرعبتني حين عدتُ إلى العمل». وقد اقترح على محاوره «التكتل» معه للنضال ضد هذا الجرح في النظام ومهاجمته سواء على مستوى الدولة أو على مستوى الحزب[٢٦]. وعلى الأقل في نقطة واحدة، انضم لينين إلى أفكار تروتسكي التي كان رفضها في البدء: اعترف بضرورة زيادة صلاحيات **الغوسبلان**، الجسم المكلّف بالتخطيط الاقتصادي. كان يحسن، بوجه خاص، كما سبق أن طلب تروتسكي، منحه صلاحيات تشريعية واسعة[٢٧]. وبصورة أعمّ، اعترف لينين بصحة آراء تروتسكي الذي كان يريد صيانة حظوظ التخطيط والتصنيع وزيادتها، وذلك في إطار النيب ورغم التفسير الذي كان يعطيها إياه العديد من القادة السوفيات. وفي رسالةٍ أملاها لينين في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٢٢، أوصى بأن تصدر في كراس النظريات التي كان تروتسكي بلورها في هذا الحقل[٢٨]. لكن بما أن التعارض بين تروتسكي وستالين كان قد غدا شديداً، وكان يهدد كما يقول لينين في «وصيته» ـ بخلق بذور انشقاق في الحزب[٢٩]، فإن «الكتلة» التي تشكلت هكذا ضد البيروقراطية، ولأجل مقاربةٍ اقتصادية اكثر تحسساً لحاجات التخطيط والتصنيع، إذ قربت لينين من تروتسكي، كانت تبعده اكثر أيضاً عن ستالين.

الدفاع عن احتكار الدولة في التجارة الخارجية؛ إدراك أكثر فأكثر حدة للانحطاط البيروقراطي وتوجيه الاتهام إلى جهاز الدولة المتضخم وعديم الكفاءة: تلك كانت الأهداف الأولى للمعركة التي خاضها لينين خلال الأشهر الأخيرة من نشاطه. إلا أنه في الأسابيع الاخيرة، اتخذ النضال شكلاً أكثر حدة؛ باتت المواجهة مع ستالين اكثر مباشرة. وقد توضح قلق لينين واتسع؛ ألقى قواه الأخيرة في المعركة من أجل حماية المشروع السوفياتي في وجه أضرار «شوفينية القوة العظمى» التي تعرّف الى قوتها الوبيلة وهو على فراش الاحتضار.

٣٠ كانون الاول ١٩٢٢. أملى لينين على أمينات سره نصاً يتعلق بـ «مسألة القوميات او «الحكم الذاتي»». وهاكم كيف قدمه: «أعتقد أني مذنب للغاية، أمام عمال روسيا، لكوني لم أتدخل بما يكفي من الحزم والفظاظة في مسألة الحكم الذاتي..[٣٠]» كيف توصل لينين إلى اعتراف، استثنائي إلى ذلك الحد بريشته، وإلى شعور بالذنب استثنائي إلى تلك الدرجة؟ يكمن أصل ذلك في العلاقات بين السلطة السوفياتية المركزية والجمهوريات الطارئة التي

كانت تنظم داخل الدولة الأقليات القومية غير الروسية. فحتى عام ١٩٢٢، كانت تحكم هذه العلاقات اتفاقات ثنائية تربط روسيا إلى روسيا البيضاء، وإلى جورجيا، وإلى أذربيجان وإلى أرمينيا، وتعطي هذه الجمهوريات الاخيرة ما يشبه الاستقلال(*). والحال أنه في عام ١٩٢٢، كانت هذه الترتيبات تتعرض لتغير مزدوج. فبالرغم من معارضة الشيوعيين الجورجيين، وُلد مشروع خلق «فدرالية ما وراء القوقاز» التي تضم جورجيا وأذربيجان وأرمينيا. من جهة اخرى، وبصورة أعم، خضع مجمل الروابط بين روسيا والأمم الطارئة للمراجعة وكُلِّفت لجنة بقيادة ستالين بوضع مشروع دستوري جديد. وفقاً لهذا المشروع، تندمج الجمهوريات الخمس في فدرالية روسية تكون حكومتها حكومة الجمهورية الروسية بالذات. وقد عارضت هذه الخطة المركِزَة أربع من اصل الجمهوريات الطارئة الخمس برفض لم يؤخذ بالحسبان: في نهاية أيلول ١٩٢٢، تبنت اللجنة المختصة مشروع ستالين. أما لينين، الذي كان يتابع القضية دون أن يتدخل مباشرة، فوجه تحذيراً لأعضاء المكتب السياسي: «في رأيي أن هذه المشكلة في أقصى درجات الأهمية. ربما كان لدى ستالين بعض الميل لاستعجال الامور[٣١]». مرة أخرى، كان الاتهام موجهاً إلى الأمين العام. وقد عارض لينين مشروع ستالين بمشروعه هو: استبدل دمج الجمهوريات الطارئة في جمهورية فدرالية روسية بفكرة توحيد مجمل الجمهوريات، بما فيها روسيا، في «اتحاد للجمهوريات السوفياتية الاوروبية والآسيوية[٣٢]». فإذ فهم لينين الخطر الذي تنطوي عليه نوايا ستالين بالنسبة للقوميات غير الروسية، أطلق عندئذ هجوماً حسب الاصول ضد السياسة الجديدة. وفي بطاقة موجهة إلى المكتب السياسي، لم يُخْفِ شيئاً من استعداداته القتالية: «إنني أعلن حرباً شعواء ضد الشوفينية الروسية الكبرى. وحالما أتخلص من سِنّي الملعونة، سوف أفترسها بكل أسناني السليمة». وأضاف أن «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاوروبية والآسيوية» الذي كان يفكر فيه، ينبغي أن يترأسه «قَطْعَاً»، بالتناوب، روسي، فأوكراني، فجورجي[٣٣]، الخ.

إلا أن ستالين لم يرضخ. فخلال اجتماع للمكتب السياسي، سلّمه كامينيف هذه الملاحظة: «لقد انطلق لينين إلى القتال من اجل الدفاع عن الاستقلال (استقلال الامم الطارئة، م. ل.)». ورد عليه الامين العام: «في رأيي أنه يجب إبداء الحزم تجاه إيليتش[٣٤]». وقبل أيام، كان قد هاجم «الليبرالية القومية[٣٥]» لدى لينين. إلا أن الهجوم المضاد لهذا الأخير، في تشرين الأول ١٩٢٢، كان قوياً كفاية. لقد نجحت «ليبراليته القومية» في التصدي لمشاريع ستالين الذي رضخ رغمًا عنه.

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٨٧ وما بعدها.

بقي موضوع جورجيا ومعارضته لمشروع الفدرالية ما وراء القوقاز. بات ضغط ستالين أشد فظاظة، وذهب ممثله في تفليس، أورجو نيكيدزه، إلى حد استخدام وسائل عنف ضد عضو اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي الجورجي. فاستقالت اللجنة بكاملها. وتسممت القضية إلى حد أنه تم تعيين لجنة تحقيق، برئاسة دزرجنسكي. وبعد إقامة في القوقاز، في كانون الأول ١٩٢٢، برأت ستالين واورجونيكيدزه من الاتهامات التي وجهها ضدهما الشيوعيون الجورجيون. بيد أن لينين دفع أمينات سره لكي يجمعن بأنفسهن وثائق تسمح له بإصدار حكم موضوعي في هذا الصدد. ولما كان مفعمًا بالحذر حيال الهيئات الرسمية، قرر العهد بمهمة شخصية إلى ريكوف الذي ذهب بدوره إلى جورجيا. وقد قدم تقريراً إلى المريض في ٩ كانون الاول. ودون كشف مدى اتساع الأزمة، قال بصددها ما كان كافياً لإغراقه في الاضطراب الأشد عمقاً والغضب الأكثر حدة. وقد كتبت إحدى أمينات سر لينين أن هذا اللقاء مع ريكوف «رزح عليه بشدة»[٣٦].

من هذا الرزوح خرجت الملحوظة حول «مسألة القوميات أو (الحكم الذاتي)»: «إذا كانت الامور وصلت إلى حد أن أورجو نيكيدزه ترك نفسه يستخدم العنف.. يمكن أن تتخيلوا جيداً أي مستنقع انزلقنا إليه». ومرة أخرى، حدد لينين ذلك الذي كان يعتبره المسؤول الرئيسي عن هذا الوضع: «أعتقد أن دوراً مشؤوماً لعبه هنا تسرُّع ستالين وميله للإدارة، بالاضافة الى غيظه تجاه «الاشتراكي - القومي» ذائع الصيت[٣٧]». وقد هاجم أيضاً «الروسي الأصيل»، «الروسي - الكبير»، هذا «الشوفيني»، هذا الوغد، «ذلك المضطهد الذي يمثله في الواقع البيروقراطي الروسي النموذجي» وذلك الذي كان يسميه «اوقيانوس الرعاع الروسي - الكبير الشوفيني[٣٨]» وفي اليوم التالي اذ كان لينين يملي ملحوظة جديدة مخصصة للمشكلة ذاتها، اعتقد أن من الضروري اعادة تأكيد المبادىء التي وجهت دائمًا سياسته بصدد القوميات لما كان يرفض «طرح قضية القومية بصورة تجريدية»، ميز «بين قومية الامة التي تضطهد وقومية الأمة المضطَهدة، بين قومية الامة الكبيرة، وقومية أمة صغيرة» وطرح أنه «بالنسبة للقومية الثانية نتحول دائمًا تقريباً، نحن مواطني الامة الكبيرة، الى مذنبين، عبر التاريخ، بما لا يحصى من المظالم والاغتصابات دون ان نشعر بذلك» وخلص الى أن «الاممية من جانب الامة التي تضطهد أو الأمة المسماة «كبيرة» (مع انها ليست كبيرة الا بممارساتها العنيفة، كبيرة كما يكون مراقب المساجين مثلاً) لا يجب أن تكمن فقط في احترام التساوي الشكلي بين الأمم، بل كذلك في لا مساواة تعويضية من جانب الأمة التي تضطهد، الأمة الكبيرة، من اللا مساواة التي تتجلى عملياً في الحياة. وأوصى لينين بما يخص العلاقات مع جورجيا ومع مجمل الاقليات القومية، بـ «المبالغة باتجاه روح المصالحة والدماثة[٣٩]».

وفي ملحوظة أخيرة، بتاريخ ٣١ كانون الأول كالسابقة، طالب لينين بعقوبات ضد القادة السوفيات المذنبين بالاستسلام لسياسة شوفينية وقمعية حيال الجورجيين. لكن إذا كان يجب «انزال عقوبة نموذجية بالرفيق أورجونيكيدزه» فلقد اعتبر أن «ستالين ودزرجنسكي هما اللذان جعلا من نفسيهما مسؤولين سياسياً عن . . (الـ) حملة القومية الروسية ـ الكبرى بشكل أساسي[٤٠]».

ربما لم تكن صرامة لينين حيال ستالين تتعلق فقط بالدور الذي كان قد لعبه هذا الاخير في المسألة الجورجية. وقد أدى حادث وضع الأمين العام بمواجهة نادجدا كروبسكايا الى تعزيز الكراهية المتنامية التي كان يشعر لينين بها حيال خليفته. فبما أن ستالين عرف في ٢٢ كانون الاول أن زوجة لينين قبلت بأن تخط رسالة قصيرة بإملاء منه، أوسعها «شتائم مهينة وتهديدات[٤١]»، حسب تعبير كروبسكايا بالذات. ولم يكن غضب ستالين دون سبب: لم تكن الرسالة التي أخذ على كروبسكايا كتابتها غير تلك التي اقترح فيها لينين على تروتسكي مواصلة الهجوم الذي كانا بدآه معاً وتوسيعه(*). ولقد كان للحادثة ذيول. ففي ٥ آذار، قبل يومين من النوبة التي قضت نهائياً على مقاومة لينين الجسدية، كتب الرسالة التالية الموجهة الى ستالين والتي أرسل نسخة عنها إلى كامينيف وزينوفييف:

«لقد كانت لك فظاظة الاتصال بزوجتي هاتفياً وشتمها. ومع أنها أعلنت موافقتها على نسيان ماكان قد قيل، فهي أطلعت زينوفييف وكامينيف على الحادثة مع ذلك. وأنا لا أنوي نسيان ما جرى اقترافه ضدي بهذه السهولة، ولا جدوى من القول إني أعتبر ما ارتُكب ضد زوجتي كما لو كان مرتكباً ضدي. لذا أطلب منك أن تقول لي، بعد التفكير، إذا كنت موافقاً على سحب ما قلته والاعتذار، أو تفضل أن تنقطع العلاقات بيننا(**)».

تعود قبيحة ستالين إلى ٢١ كانون الاول ١٩٢٢. وليس مؤكداً أن لينين اطلع عليها فوراً. إلا أنه املى في ٢٤ كانون الاول ملحوظةً ـ «الوصية» ذائعة الصيت ـ يستعرض فيها الشخصيات الرئيسية في القيادة البلشفية. وقد أعلن فيها: «لقد ركَّز الرفيق ستالين، الذي أصبح اميناً عاماً، سلطة غير محدودة بين يديه، وأنا لست واثقاً من أنه يستطيع استخدامها دائماً بما يكفي من الاحتراز[٤٢]». وفي ٤ كانون الثاني ١٩٢٣، وجد لينين من المفيد إملاء

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٢٨٥.

(**) لينين، **الأعمال الكاملة**، ج ٤٥، ص ٦٢٨ ـ ٦٢٩. وفقاً لشهادة إحدى أخوات لينين، قدم ستالين اعتذاره بالفعل. لكن بما أن هذا التصريح جاء عام ١٩٢٦ في فترة الصراع المكشوف بين ستالين و«المعارضة اليسارية» وفي إطار هذا الصراع، فهو يستدعي تحفظات بديهية.

«ملحق» لهذه الملحوظة. وكان مخصصاً بكامله لستالين. «ستالين بالغ الفظاظة، وهذا العيب المتسامح به تماماً في وسطنا وفي العلاقات فيما بيننا، نحن الشيوعيين، لم يعد كذلك في وظائف الأمين العام. أقترح إذاً على الرفاق أن يدرسوا وسيلة لإقالة ستالين من هذا المنصب وتعيين شخص آخر مكانه لا يميزه في كل شيء عن الرفيق ستالين غير كونه أكثر تسامحاً، وأكثر استقامة، وأشد تهذيباً وأشد مراعاة حيال الرفاق، ويكون ذا مزاج أقل نزقاً[٤٣]، الخ».

كان لينين قد طلب عدم إطلاع الحزب على هذه الوثيقة إلا بعد وفاته. وفي مؤتمر نيسان ١٩٢٤، جرى نقل هذه التوصية إلى المؤتمرين. لكن مع أنه، على قبر لينين، «أقسم الحزب (و)الشعب السوفياتي بتحقيق توصياته حتى النهاية[٤٤]» وأنه، وفقاً لكاتبي سيرة لينين السوفيات، اعتبر الحزب نصائح لينين كقانون[٤٥]»، لم يتم فعل أي شيء لتنفيذ مضمون «الوصية». وفي بلد اللينينية، في الدولة التي حُوِّلت فيها عبادة لينين إلى دين رسمي، مرت ثلاثون سنة قبل نقل رغبات الزعيم الأخيرة إلى العلن.

بعد تحرير «الوصية»، واصلت القضية الجورجية مسارها. تحولت سكريتيرات لينين الأربع، بناء على طلبه، إلى «لجنة سرية» مكلفة باستكمال ملف بات منهكاً. وفي ٣ آذار، أودعت اللجنة استنتاجاتها. ونحن لا نعرف محتواها، لكن لابد أنها بررت مسارعة لينين إلى إطلاق هجومه الأخير. في ٥و٦ آذار، أملى على التوالي ثلاث رسائل قدمها إلى أطبائه كرسائل «جارية»، لكن أهميتها أساسية. في الرسالة الأولى يطلب الى تروتسكي الذي كان يشاطره آراءه حول الموضوع، أن يضطلع «بالدفاع عن المسألة الجورجية أمام لجنة الحزب المركزية». وأضاف لينين: «إذا كنت توافق على الاضطلاع بالدفاع، يمكن أن اكون مطمئناً[٤٦]». وفي اليوم ذاته، طلب أن ترسل إلى ستالين الرسالة التي يهدده فيها بقطع علاقاتها نهائياً(*). وأخيراً في ٦ آذار، وجه ملحوظة «سرية جداً» إلى القادة الشيوعيين الجورجيين. كانت الأولى من هذا النوع، والأخيرة أيضاً. «أنا أتابع قضيتكم من كل قلبي»، هذا ما أعلنه فيها لينين. «أنا مغتاظ من فظاظة أورجونيكيدزه ومن تواطؤ ستالين ودزرجنسكي . وأنا أعد لأجلكم ملاحظات وخطاباً[٤٧]».

وكما يلاحظ موشي ليفين، كان لـ ٥و٦ آذار ـ اليومين الاخيرين من حياة لينين النشطة ـ «طابع معركة حسب الاصول. لكن قوى لينين المتهافتة لم تسمح له بأن يعيش طويلاً توتراً معنوياً كهذا وعصبياً. لقد فاقم ذلك مرضه بصورة مشؤومة[٤٨]». وفي ٦ آذار

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٢٨٩.

يضاً، أنبأت كروبسكايا كامينيف بأن لينين قرر «سحق ستالين سياسياً»[٤٩]. وفي اليوم لتالي، السابع من آذار، أوقفت نوبة جديدة لتصلب الشرايين مسيرة لينين. لقد أنقذ موته السياسي مسيرة ستالين وضيَّع اللينينية..

لا تكمن عظمة لينين في انتصاره، بل أكثر بكثير في هذه النهاية المضطربة والمقاتلة وشبه اليائسة. إن أصالة تطلعه الديمقراطي إنما يجري التعرف إليها في الاسابيع الاخيرة والايام الاخيرة لمعركته، انطلاقاً من إرادته شبه منزوعة السلاح ومن طاقته المشلولة. عاجزاً حيال ستالين الذي «ركَّز بين يديه سلطة غير محدودة»، هاجم عدوه الدائم، العسف القومي والبيروقراطي. ولا يمكن أن ننكر أبداً أن سياسته الخاصة به ساهمت أحياناً في تعزيز قوة (هذا العدو). لكن يبقى الأمر التالي: بالنسبة للينين، هذا «المستنقع» الذي تورطت فيه روسيا السوفياتية، المعزولة والمنزوفة، البروليتارية من بعض النواحي والبورجوازية أيضاً من نواح أخرى كثيرة، يجب تقليص اتساعه ومكافحة آثاره. وهو يعرف أن هذا المشروع مفعم بالمخاطر والاحتمالات. ولاشك أنه يستمر حتى نهاية حياته في الاعتقاد بحتمية الأزمة التي ستطيح الرأسمالية. لكن في مقاله الأخير، «من الأحسن أقل، لكن أفضل»، الذي أملاه في ٢ آذار ١٩٢٣، يعود إلى طرح السؤال القديم الذي تهجس به نفسه منذ عام ١٩١٨ ويحدد استراتيجيته: «هل ستتمكن من الصمود بإنتاجنا الفلاحي الصغير، والصغير جداً، وبحالة الخراب في بلدنا، حتى اليوم الذي تكون فيه البلدان الرأسمالية في أوروبا الغربية قد أنجزت تطورها نحو الاشتراكية؟[٥٠]». وهو سؤال لم يجب عنه.

ليس من أثر في أقواله الأخيرة ليقين ظافري. لكن حيث قد يرى البعض ملاحظة إخفاق واعترافاً بالضعف، فقط، ثمة كذلك رد لينين واللينينية على ثالبيهما. ففي قلق الصراعات الاخيرة ويأسها، في شك الاستفهامات الاخيرة وحيرتها، تكشف اللينينية في الواقع طبيعتها الحقيقية وتُفْحم بذلك بالذات جمهرة مزدريها. لاشك أن حوادث «معركة لينين الاخيرة» لا تنزع سلاح النقد الذي يستدعيه عمله. إنها توضح مع ذلك معناه وأهميته: يجب أن يُكبَّ أخيراً، دون مجاملة ودون تحيز، على وضع جردة بمشروع ديمقراطي بصورة سامية.



خلاصة

حدود اللينينية وتبريرها:

في نظر التاريخ، يظهر لينين كمؤسس الحزب البلشفي وزعيمه، ومحقق نصر أوكتوبر، وباني المجتمع السوفياتي، والمثال المكرَّس للقائد الثوري ورجل الدولة الاشتراكي: أحد عمالقة العالم المعاصر الذي يشكل مذهبه فضلاً عن ذلك مادة إيمان في بعض أوسع بلدان الأرض. كشف حساب مهيب يبرر حسبما يبدو ظافرية الشارحين الرسميين للماركسية - اللينينية.

بيد أنه في نهاية هذه الدراسة، يستحيل اعتماد هذا التقويم الذي يستند تفاؤله إلى بديهيات سهلة جداً وبالغة السطحية. ويكفي التذكير، من أجل إقناع النفس بذلك، بالأهداف الأساسية للمشروع اللينيني: أن يتم، على أنقاض الرأسمالية والامبريالية العالميتين، بناء نظام اشتراكي يتيح السير بالبشرية نحو حاضرةٍ يعمها السلام والانسجام مماثَلَةٍ مع الشيوعية. والحال أنه حين اختفى لينين من المسرح السياسي، تغلبت الظلال في هذا العمل الجبَّار على الأنوار. وبعد خمسين عاماً على وفاته، لا يمكن أن نزعم جادّين بأن الأمر غير ذلك. فالرأسمالية والامبريالية تحتفظان في العالم بسلطة هائلة عاتية ومدمِّرة. والشيوعية لم تقم في أي من الأمكنة، وفي روسيا بالذات، لا يزال ثمة بُعْدٌ شاسع عن مجتمع اشتراكي حيث الإكراه في طريقه إلى الزوال، تحديداً، وأكثر من ذلك وفقاً للتحديد اللينيني. وإذا كانت الرأسمالية، التي تمت إطاحتها بفضل ثورة أوكتوبر، لم تُرْسَ من جديد، وإذا كانت القوة الاقتصادية تضاعفت فيها بفضل ميّزات النظام الذي انبثق (من هذه الثورة)، فالديمقراطية السوفياتية لم تتحقق، والعَسَفُ الدولاني الذي كانت ماركسية ماركس ولينين تهاجمه، هو والبيروقراطية، يبدو أشد وأقوى مما في أي وقت آخر.

وطبيعي أنه من الظلم عزو هذا الفشل إلى عمل رجل وزيغانات مذهبه في حين أن عملهما لم يستطع أن يتطور إلا خلال مرحلة قصيرة من تاريخ الحركة الشيوعية. ومهما تكن

تبريرات هذا النتاج ـ وهي كثيرة ـ، وانتصاراته ـ وهي مهمة ـ وميزاته، يبقى أن اللينينية أدت إلى عجز مزدوج. لم تنجح في المشروعين اللذين يجب أن تحلهما، بشكل اساسي، الحركة العمالية، تحت طائلة الفشل: خلق الأداة القادرة على إطاحة الرأسمالية في المجتمعات الصناعية المتقدمة وتنظيم ديمقراطية وثقافة اشتراكيتين وتطويرهما على أنقاض السلطة البورجوازية. ومن المؤكد أن في وسع المدافعين عن اللينينية التذرع بالصعوبات الجمة التي واجهتها تلك المهمة: خصوصية «الحالة الروسية»، وانعزال البلشفية بسبب «التخلي» الاشتراكي ـ الديمقراطي، وظروف أخرى كثيرة غير مناسبة أيضاً وقاسرة. لكن الوقائع واضحة للعيان: إلى الآن لا تمتلك المجتمعات الصناعية المتقدمة القوة الثورية القادرة على انتزاع السلطة من الرأسماليين القابضين عليها، ولم يثبت النموذج اللينيني فعاليته من هذه الناحية، إطلاقاً.

هذا العجز الخاص باللينينية ليس غريباً عن الأحكام القاصرة التي أطلقتها بصدد المجتمع الغربي عموماً والديمقراطية البورجوازية بوجه خاص. لاشك أن نقدها للأنظمة البرلمانية في **الدولة والثورة** كان يساهم في فضح آليات السلطة في الوقت ذاته الذي كانت الاشتراكية ـ الديمقراطية تقدم لها فيه دعمها وكفالتها، عن طريق الاندماج فيها. ولقد برع لينين في فضح شكلاوية الحريات السياسية أو تركيزها في أيدي البورجوازية(*)، لكن الصحة اللاذعة لملاحظاته لا تلغي مع ذلك تناقض تحليل بقي مختصراً. فمن جهة، كان لينين يقدِّر أن «الجمهورية البورجوازية الاكثر ديمقراطية ليست غير جهاز يتيح للبورجوازية قمع الطبقة العاملة، ويسمح لحفنة من الرأسماليين بسحق الجماهير الكادحة[1]»؛ وأن «(الحرية) في الجمهورية الديمقراطية البورجوازية» ليست «في الواقع غير الحرية من أجل **الأغنياء**» وأن «الجماهير الكادحة، عموماً، لم تتمكن يوماً من الاستفادة حقاً من الديمقراطية في النظام الرأسمالي[2]». وخلص مذاك إلى القول، في كتابه **الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي**، إن الديمقراطية البورجوازية هي «ديمقراطية للأغنياء، وتضليل للفقراء[3]»، «جنة للأغنياء، وفخ وخديعة للمستغَلين، للفقراء[4]». مع ذلك، كان لينين يعتبر من جهة أخرى أن «استخدام أشكال الديمقراطية البورجوازية أمر لا غنى عنه بالنسبة إلينا[5]»، مضيفاً أنه لا يجب، في أي من الأحوال، «أن يبدو علينا أننا ننكر أية قيمة للمؤسسات البرلمانية

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨. عام ١٩١٣، كان لينين مع ذلك يعتبر سويسرا وبلجيكا والنروج من بين امم اخرى، «امماً حرة تعيش نظم ديمقراطية فعلية». (التشديد من وضعنا). لينين، **الأعمال الكاملة**، ج ١٩، ص ٨٥).

البورجوازية. إنها تشكل تقدماً هائلاً بالنسبة لما سبقها[٦]». وهو لم يوضح هذه النقطة أبداً. كيف يمكن الحركة العمالية الثورية أن تأمل استخدام نظام ديمقراطية لمصلحتها طالما أن هذا النظام هو «فخ» و«خديعة» و«تضليل» بالنسبة للفقراء وأن الحريات التي ينظمها ليست حريات «إلا للأغنياء». وفي غياب تحليل اكثر استفاضة وتبرير أشد صرامة، كان لابد لأحكام جازمة بهذا القدر أن تقود لينين إلى الخلاصات ذات المنحى الفوضوي التي كان يأخذها على اليساريين.

إن تقريب approximation تأملاته بصدد المجتمع الرأسمالي الغربي انعكس فضلاً عن ذلك في تحليله للظاهرة الإصلاحية التي كانت تصيب العالم العمالي. ولاشك أنه لم يدرك مدى اتساع الخطوات التي خطتها، قبل الحرب العالمية الاولى، إلا القليل من المراقبين، إذ إن حيل البلاغة ونجاحات التنظيم أفلحت في تمويه أضرار الانتهازية. في كل حال، لقد أساء لينين فهم طبيعة الاشتراكية ـ الديمقراطية الالمانية، وخلط بين أورثوذكسيتها وإخلاصٍ للماركسية الثورية[٧] ودافع عن التكتيك الدفاعي الصرف لقيادتها الوسطية حتى تشرين الثاني ١٩١٠، في وقت كان يسار الحزب تخلى فيه عن كل وهم بصدد نوايا أمثال بيبل واضراب كاوتسكي(*). وقد جاء استيقاظه في آب ١٩١٤ ممضاً للغاية وحقده لا على الاشتراكيين الملتحقين بالشوفينية وحسب بل كذلك على الوسطيين بالغ العمق. وقد كان «المرتد كاوتسكي» الهدف الرئيسي (لذلك الحقد). لكن ما من قيادي وسطي أفلت من صواعق لينين[٨]. بات التيار الإصلاحي، المصفوف في الحقيقة في المعسكر المعادي للثورة في المانيا(**)، معتبراً مذاك كـ «عدو طبقي مباشر للبروليتاريا[٩]». وقد عُزيت قوته المستمرة ـ بعد التخلي عن الأمل بألا تقاوم الاشتراكية ـ الديمقراطية الغربية تلوثات الحرب وتطورات الثورة ـ إلى وجود ارستقراطية عمالية حللها لينين ترسيمياً بصورة بالغة ومفرطة. لقد اعتبر أن الأرباح الفائضة للبورجوازية الامبريالية هي التي تسمح لها بـ «إفساد شريحة عليا من البروليتاريا لتحويلها إلى بورجوازية صغيرة إصلاحية، وانتهازية، تخاف الثورة[١٠]». وقدَّر لوقت طويل بأن هذه الأقلية ضحلة العدد، مع أنها مهمة[١١]، لكنه اعترف عام ١٩٢١ بأن «نسبة العمال والمستخدمين الذين يعيشون حياة بورجوازية صغيرة» بفضل الاستغلال

(*) كان لينين يؤيد في الواقع التكتيك الاشتراكي ـ الديمقراطي الالماني الذي «يُكره» «خصمه.. المقيد بشرعيته الخاصة به» على «ان يكون البادىء بإطلاق النار» (لينين، الاعمال، ج ١٦، ص ٣٢٩).

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢٤٢ وما بعدها.

الكولونيالي «عالية جداً[١٢]». ولم يتم يوماً دفع الملاحظة (المشار إليها) أبعد من إدراكٍ مبّرر للقدرات الإفسادية لدى البورجوازية والمؤسسات الاصلاحية[١٣].

أما الوسطية، التي يجب ملاحظة كونها تتحمل اكبر المسؤولية في سحق الثورة الالمانية، فقد وصفها لينين منذ عام ١٩١٥ كالـ «خصم الأخطر للأممية[١٤]» لأن «الانتهازية المؤكدة بصورة مكشوفة أقل رهبة واقل ضرراً من هذه النظرية الوسط تماماً التي تبرر الممارسة الانتهازية بألفاظ ماركسية[١٥]».

وعلى امتداد سنوات، خاض ضد هذا التيار الاشتراكي المعركة الأشد قساوة واضطر مراراً إلى التغلب على تردد انصاره غير المهتمين بقطع كل الجسور مع رفاق قدامى(*). وفي تموز ١٩١٩، كان لينين أشار مع ذلك إلى أن التحالف مع الاشتراكية ـ الديمقراطية ليس مقبولاً «كشر مؤقت» إلا في «وضع غير ثوري جهاراً»[١٦]. هل كانت تلك هي الحال عام ١٩٢١ حين قدَّر أن هذه «المطاردة للوسطيين» التي سبق أن خاضها بحماس لم يعرفه غيره، آن أوان انقضائها وأن «المبالغة في النضال ضد الوسطية تعادل إنقاذ الوسطية»[١٧]؟ كان لينين إذاً بين الدعاة الرئيسيين والأوائل لتكتيك «الجبهة المتحدة» الذي بره منذ تموز ١٩٢١، على الأقل في حالة المانيا[١٨]. هكذا كانت ترتسم السياسة التي ستقود، عبر ألف تعرج وألف صعوبة إلى «الجبهات الشعبية» التي سيجرب الاخوة المتعادون بواسطتها مصالحة نشطة وفي الغالب سريعة العطب. ولاشك أنه لا يمكن تحميل لينين مسؤولية كوارثها. لكن مشكلة العلاقات بين الشيوعيين والاشتراكيين عانت دائماً من التحليل السطحي الذي قامت به اللينينية بصدد الاصلاحية. وإذا كان ثمة ميدان لم ينجح فيه لينين في أن يتجاوز ديالكتيكياً التناقض بين اتهام لا غنى عنه وتعاون ضروري، فهو ميدان العلاقة بين الاصلاحيين والثوريين، وهو ميدان مهم جداً مع ذلك في وضع استراتيجية اشتراكية للاستيلاء على السلطة.

كما أنه لم ينجح أكثر في حل مشكلتي ديكتاتورية البروليتاريا والديمقراطية الاشتراكية. ومن المشكوك به جداً، حتى، في هذا المجال الاخير، أن يكون طرحهما يوماً بشكل صحيح. فكقوة ثورية للهدم والبناء، لم تحصل المنظمة البلشفية، في كل حال، على النصر إلا في مجتمع مختلف جداً عن ذلك الذي تنوي الماركسية كسبه كي تقيم فيه المقدمات المنطقية للشيوعية الناجزة. إن استيلاء البلشفية على السلطة في روسيا القيصرية، الفلاحية والمتأخرة ولَّد على العكس الفكرة، الشاذة بالضبط، القائلة إنه لا يمكن إدخال الاشتراكية إلا إلى بلدان فقيرة حيث تقوم قبل كل شيء مقام طريقة تطور اقتصادي.

(*) انظر أعلاه، ج ١، ص ١٦٠ ـ ١٦١.

تصـطدم اللينينية إذاً بهذه السيئـة المـزدوجة. اكثر من ذلك، ربما أمكن عزو هذا الاخفاق إلى الخطأ الاساسي الذي تكشفه استراتيجية لينين بالذات: لما كان قد راهن، أثناء الانتفاضة البروليتارية في روسيا، على القدرات الثورية للطبقة العاملة الغربية وعلى حظوظ الثورة العالمية، اصطدم في السنوات التي تلت انتفاضة اوكتوبر بتكذيب الوقائع. وفي هذا الميدان، يبدو أن التقدير المتشائم لليمين البلشفي، وبصورة أعم للمنشفية ـ التي كان اليمين البلشفي يشكـل تنـويعـاً من تنـويعاتها من بعض النواحي ـ كان تقديـراً صحيحاً. وكل المرارات، كل الخيبات والتراجعات والانكفاءات التي عانت منها السلطة السوفياتية، ألم تكن في التحليل الاخير النتائج العُضال لهذا التكذيب؟

إلا أن هذا الاستـدلال الـذي يدين اللينينية كطوبى(*) كريمة، ودامية، يصـطدم باعتراضات مهمة. فمن السهل في الواقع، ومع الابتعاد الزمني، الاستحواذ على كل حكمة التاريخ وشهرها ضد أولئك الذين أرادوا، وسط الحيرة المتحركة للوقائع، تسريع مجراه. بيد أن هذه الحكمة ربما كانت أفلتت من مأخذ التعجرف والحذلقة، لو أن المشروع الثوري العالمي الذي قادته البلشفية كان محكوماً عليه بالاخفاق، بصورة بديهية تماماً ومنذ البداية، ولو أنه لم ينبثق إلا من الارادوية ونفاد الصبر اللينينيين. والحال أن اوروبا شهدت بالفعل خضات عميقة كان الغليان الروسي مثالها الاكثر إذهالاً والأشد ديمومة، في حين شكلت الثورات الالمانية والنمساوية والمجرية والازمات الاجتماعية في فرنسا وإيطاليا تجليات اخرى لها.

هكذا ينطرح هذا السؤال الذي يقع الجواب عنه في قلب الاشكالية الثورية بالذات: ماذامت الجماهير البروليتارية تتحرك ويحل الغضب نافد الصبر محل سلبيتها النسبية؛ ومادام الانفجار المكتسِح والمحرِّر يتم من دون نجدة أي حزب وعلى عكس ما ينتظر الجميع؛ ومادام طفح اجتماعي هائل يغوص فيه الملايين وعشرات الملايين من الرجال والنساء يكنس أنظمة كان أفضل المراقبين يظنون أنها متماسكة؛ وأخيراً، مادامت الثورة التي يتخيلها أو يحلم بها آلاف المناضلين ويُعِدُّونها عبر سنوات من الجهود، تصبح حقيقة، ماذا يجب أن يكون موقف الحزب الثوري امام هذا الاندفاع لقوى غير متحكم بها جيداً ويصعب الاشراف عليها؟ إن التجربة عظيمة وربما تكون ثمة أسباب ملحة لإعلان الهجوم المبكر والمغامر، ولكي تُرى في الجماهير قوة «بدائية» و«عمياء» يهدد نزفها بإفساد المكاسب المراكمة بفضل جهود أقل إذهالاً لكنها منهجية وخصبة. إن رد الفعل هذا هو ما قررت اعتماده المنشفية، ليس في روسيا فقط

(*) طوبى: مكان خيالي مثالي (المعرب).

بل كذلـك في كل أوروبا. لأنه كان هنالك، على هذا الصعيد، تشابه مذهل بين أمثال تسيريتلي وتشخيدزه ومارتوف في الاشتراكية ـ الديمقراطية الروسية ورفاقهم الغربيين. إن فريدريك أدلر، الوجه البارز في «الوسطية النمساوية» هو الذي اعترف غداة الحرب العالمية بما يلي: «لقد وصلنا، نحن الذين وضعنا انفسنا دائمًا ولا نزال نضع انفسنا على ارض الثورة الاجتماعية، إلى هذا الوضع المأساوي المتمثل في كبح تصميم الجماهير، في الوقت الذي فهمت فيه هذه الجماهير هدفنا بهذا القدر من الوضوح[19]».

إن موقف اللينينية مختلف. فهو يكمن في الاعتراف بأنه، ضمن شروط تاريخية لا تجتمع إلا بشكل استثنائي، تقف الجماهير «مئة مرة اكثر الى اليسار» من الحزب الأشد ثورية؛ وانـه ضمن ظروف كهـذه، يختار التاريخ لأجل الحزب ويكرهه على القبول بهذا الإغراء واللحاق به؛ وان هذا الاختيار ليس من دون مخاطرة وانه حتى ضمن فرضية وضع مؤات موضوعياً تبقى الثورة مغامَرَةً ومجهولة. لكن الخيار في النهاية بسيط إذاك بساطة عنيدة: إما أن يعتبر التنظيم الثوري المخاطر عظيمة جداً والاحتمالات مهمة للغاية ويدير ظهره لاندفاع شعبي معتبر فوضوياً؛ أو أن التنظيم يضطلع بمخاطر العمل الثوري ويقبل في الوقت ذاته بأن يلحق باندفاعـه ويؤمن قيادتـه. ولاشك أن الحذر والحكمة ـ والاهتمام بالمحافظة على المكتسب، «البيت القديم» الخاص بليون بلوم ـ هما فضيلتان سياسيتان ينبغي أن يمارسهما حزب ثوري بالـذات. لكن رفض الاصـطفاف الى جانب البروليتاريا حين ينفجر تمردها الحاشد وتندلع ثورة ينطوي على عقوبة لا يمكن أن يفلت منها حزب اشتراكي. فحين يهمل الاضطلاع بوظيفته الثورية في الوقت الذي تضعها فيه الأحداث، وبصورة اكثر دقة أيضاً، الـبروليتـاريا، على جدول الاعـمال، يكف عن أن يكـون حزبـاً للثورة. هكذا فالمنشفية والاشتراكية ـ الديمقراطية استطاعتا لوقت طويل أن تصورا نفسيهما كحزبين مهتمين بالدفاع عن مصالح الطبقة العاملة. لكن موقفهما حيال الظاهرة الثورية الفعلية وضع حداً لالتباس استمتعتا به زمناً طويلاً حين أنكر عليهما كل زعم بأنهما تجسدان الثورة الاشتراكية.

لقد استطاعت اللينينية على العكس، على امتداد عام ١٩١٧، اقتراف أخطاء في الحسـاب ـ ولا شيء ترتبت عليه عواقب اشـد جسـامـة من فرط تقديرها للقوى الثورية للبروليتاريا الغربية وبخس تقديرها لقدرة الرأسمالية العالمية على المقاومة ـ لكن تبرير موقفها وظيفي بصورة من الصور. ففي وسع الثوري أن يتذاءب، ويؤجل الاستحقاق الحاسم، ويعـد نفسه له بدقة، ويتسلح بالصبر والحذر. لكن عليه، في التحليل الاخير، ان يختار أسلحـة اخـرى ايضاً، لاسيما حين تضعها البروليتاريا بالذات بين يديه: أسلحة المعركة الثورية. هذا هو بالذات معنى وظيفته السياسية والاجتماعية. وإذا كانت البلشفية الروسية ،اكمت الأخطاء ومنيت بضربات مهمة، فالمنشفية انهارت دون قيد أو شرط امام امتحان

الثورة. لقد ادت هذه الاخيرة الى ضياعها بصورة لا تعوَّض. ففي بعض فترات التاريخ ليست كلمة الفصل للحكمة والواقعية الانتظار الحَذِر، بل قبول المخاطر والسباق في المجهول. وكما قال تشي غيفارا في كلمة جامعة ليست من قبيل تفسير الماء بالماء إلا في الظاهر، إن واجب الثوريين هو أن يقوموا بالثورة. وحتى لو جرى سحق ثورة اوكتوبر، فإن هذه الهزيمة ماكانت أدت بالضرورة إلى جحدها، مثلما لا يُدين الأسبوع الدامي أبطال كومونة باريس.

إذا كانت السنوات التي شهدت نهاية الحرب العالمية الأولى وتلت إرساء السلام أدت من جهة اخرى الى قطع الوحدة العمالية، فكما رأينا ليس ذلك بسبب النوايا المقصودة للمنظمات والناس. لم يكن في وسع التباسات الاشتراكية ان تقاوم تحدي الثورة. ففي الوقت بالذات الذي قدمت فيه الاحداث للحذر الاشتراكي ـ الديمقراطي نوعاً من التبرير، وفي حين خاب الانتظار الشيوعي للثورة، يمتلك التمايز بين التيارين المتقابلين والمتعادين داخل الحركة العمالية أساساً أعمق من مجرد اختلاف في التقدير بصدد حظوظ الثورة الاشتراكية وقرب وقوعها. لقد تطابقت القطيعة بين الاشتراكيين والشيوعيين مع بداية مرحلة تاريخية جديدة باتت المجابهات الطبقية خلالها أشد شراسة وأدت إلى قطيعة داخل البروليتاريا. وكان لينين قد فهم ذلك حين اعلن في أيار ١٩١٩: «لقد ولت أيام الاشتراكية الساذجة، والطوباوية، والآلية، والثقافية، حين كانت تُقَدَّم الأمور بالشكل التالي: سوف نقنع غالبية الناس، ونرسم اللوحة الجميلة للمجتمع الاشتراكي، فتتبنى الاكثرية وجهة النظر الاشتراكية[٢٠]». فمع اندلاع الحرب العالمية وعقابيلها في حياة الشعوب والعلاقات الطبقية، وُلدت اشتراكية جديدة وأشد صلابة: «إذا لم يعرف المرء كيف يتكيف، وإذا لم يكن مستعداً للزحف على البطن، وفي الوحل، فهو ليس ثورياً، بل ثرثار» هذا ما أعلنه لينين أيضاً[٢١].

مذاك، ولفترة تاريخية طويلة، بات ثمة فرق أساسي بين المناضلين الاشتراكيين والمناضلين الشيوعيين. كان بين الأولين عدد من الاداريين الاكفاء، والنقابيين الفعالين، والبرلمانيين الفصحاء، المخلصين جميعهم بالقدر ذاته للطبقة العاملة، وغير الاقل استعداداً في فترات الأزمة، واكثر فاكثر في الفترات العادية، للتعاون مع البورجوازية. لكن من الجهة الاخرى للحاجز الذي كان يفصل الإخوة المتعادين، كان مناضل ألماني في الاممية الثالثة على حق تقريباً حين أعلن: «نحن الشيوعيين اموات مع وقف التنفيذ». ولاشك أن مثال المناضل المنضبط سوف يخلف بعد قليل في المعسكر الشيوعي مثال المقاتل المسلح؛ مع ذلك، فإن تجربة الحرب العالمية الثانية والمقاومة بيَّنت ان الشيوعية احتفظت بعد ٢٥ عاماً بشيء من إلهامها الأصلي. وإذا لم يفت التمايز بين المناضل الاشتراكي ذي الدعوة الإدارية والمناضل

الشيوعي ذي الدعوة الهدمية أن يتطور، فهو احتفظ براهنيته ما بعد السنوات التي تشكلت خلالها الامية اللينينية. لقد أعادت اللينينية إذاً للحركة العمالية مضموناً ثورياً يتناسب مع وضع البروليتاريا المستلَب في المجتمع الرأسمالي وكفت الاشتراكية الاصلاحية عن تغذيته. أما هذا المضمون فهو لا يتعلق فقط بامتداح العنف وممارسته في النضال ضد البورجوازية. فما وراء التغييرات في الظرف والمواربات التي تسير وفقاً لها التكتيكات والاستراتيجيات، تذكّر اللينينية بأنه ليس للعمل السياسي للبروليتاريا الاشتراكية من معنى ومن تبرير إلا إذا كان يستهدف **الاستيلاء على السلطة السياسية**. ذلك أمر تخلت عنه التجريبية الاشتراكية - الديمقراطية منذ زمن طويل: إن المشاركة في سلطة تمتلكها البورجوازية، سواء تمت لخدمة المصالح العمالية أو لغير ذلك، تلخص طموحها وتبين تواضعها.

إن **الاستيلاء على السلطة** الذي يعبر عن الهدف الرئيسي للينينية قبل عام ١٩١٧ يستتبع فضلاً عن ذلك وجود منظمة ثورية والالحاح على توطيدها الضروري. وفي هذا الحقل ايضاً، قدمت اللينينية إسهاماً حاسمًا ودائمًا. فمن بعض النواحي، باتت أهمية حزب الطليعة أهم مما في الفترة التي وضع فيها لينين نظريته. فالتطور المقترن للامبريالية والرأسمالية الاحتكارية والنظام الدولاني الموجه عزز في الواقع التأثير الايديولوجي للبورجوازية على الطبقة العاملة؛ وتساهم الاشتراكية - الديمقراطية، من جهتها، في ممارسة هذا التأثير وتلعب، ليس من دون نجاح، دور أداة وسيطة. ومادامت تتزايد فضلاً عن ذلك داخل البروليتاريا بالذات عوامل تمايز، يصبح تحررها **الذاتي** اكثر احتمالية مما في أي وقت مضى. وليس صدفة، بعد كل شيء، وفي حين كانت تنتهي الحرب العالمية الاولى التي عززت الى حد بعيد اختراق الايديولوجية البورجوازية الحركة العمالية، إذا كانت روزا لوكسمبورغ بالذات وجدت نفسها مضطرة للاعتراف بأن «غياب القيادة، وعدم وجود مركز مكلف بتنظيم الطبقة العاملة البرلينية(*) أمران لا يمكن أن يدوما. فإذا كان على قضية الثورة أن تتقدم، إذا كان يجب أن يكون انتصار البروليتاريا، وأن تكون الاشتراكية شيئاً غير مجرد حلم، ينبغي أن يرسي العمال الثوريون الاجهزة القيادية القادرة على أن توجه الطاقة القتالية لدى الجماهير وأن تستخدمها(٢٢)».

لاشك أن سنوات طويلة من الركود الثوري وتجربة الحركة الشيوعية العالمية ابرزت المخاطر التي تنطوي عليها مركزة مفرطة وينطوي عليها الخضوع الأقصى لتوجيهات «حزب الطليعة». يبقى ان الاشتراكية الثورية لا يمكن أن تفلت من ضرورة تنظيم نفسها في حزب

---

* برلينية نسبة الى برلين عاصمة المانيا (المعرب).

قادر على الـرد على هجوم البورجوازية الايديولوجي وعلى إعداد الهجوم المطلق زمنيا ضد رأسمالية قوية لكنها فانية، وذلك دون تعجيله ودون إيهانه. وبمقدار ما يمكننا هكذا تلخيص معنى اللينينية، يبدو لنا أمراً لا يرقى إليه الشك أنها ـ دون أن تكون حلت أي شيء ـ لم تفقد راهنيتها ولا ملاءمتها.

اللينينية والستالينية

ينتهي هذا الكتاب مع موت مؤسس روسيا السوفياتية. مع ذلك ليس من غير المشروع الزعم بأن اللينينية تبدأ في الواقع تاريخها في الوقت الذي يتوارى فيه مؤسسها، وفي حين يُحكم على مذهبه كعقيدة، ويباشر ورثته عملية تقديس لم تستنفد آثارها. وربما كان من الممكن أيضاً أن نؤكد أن دراسة هذا الارث جزء من دراسة اللينينية بالذات وان طبيعته العميقة تكشف مع تقدم إنجاز مواصلي العمل أُسُسَه وتوضيحهم إياها. وكما قلنا في بدايات هذا الكتاب، تبرر خصوصية نظرية لينين وعمله إزاء المذهب المسمى «ماركسياً ـ لينينياً»، تبرر مع ذلك انتهاء التحليل مع غياب الزعيم الثوري الكبير. أما إرث اللينينية الاصيلة وغناها وتعقيدها فتتطلب معالجة خاصة.

إلا أن كتاباً عن سياسة لينين وايديولوجيته ربما يكون ناقصاً إذا لم يحاول الاجابة عن سؤال لم ينفك النقاد الأقل سوء نية يطرحونه على انفسهم ويبدو أن كثيرين منهم لم يجدوا بعد الجواب. هذا السؤال الأساسي ـ والملائم ـ يتعلق بالبنوة بين اللينينية والستالينية. ويمكن تلخيصه هكذا: رغم الاختلافات الحقيقية جداً بين لينين وستالين كما بين عملهما السياسي، أليست الستالينية استمراراً للينينية؟ ألا تشكل شكلاً ناجزاً لها، نسخة محسنة، بصورة ما، مؤداها المنطقي وبهذه الصفة ربما اكثر «لينينية» من لينينية لينين بالذات؟

مع ان الدراسة الطويلة جداً التي انصرفنا اليها هي، من نواح كثيرة، جواب ضمني عن هذا السؤال، فليس من غير المجـدي، في لحظة الختـام، أن نستعيد بصراحة فحواه ونستكمل معطياته الرئيسية. وسوف نسلم باديء ذي بدء لنقاد اللينينية بأن تاريخ الانحطاط البيروقراطي والكلياني للنظام السوفياتي لا يبدأ مع وفاة لينين ولا حتى مع وصول ستالين إلى مراكز قيادة مهمة للدولة السوفياتية. فلقد عالج هذا الكتاب هذه المشكلة باستفاضة شديدة بحيث لا حاجة للعودة الى ذلك طويلاً. فولادة البيروقراطية الشيوعية سابقة لظهور تأثير ستـالـين ولتزايده. كما أن ولادة المونوليتية سابقة ايضاً، ومسؤولية لينين ذاته في هذه المادة الاساسية أكيدة وكبيرة. تضاف الى ذلك بالضرورة بعض ملامح العصبوية التي بشرت في

حياة لينين وخلال فترات الازمات الثورية بتيهانات المستقبل وزيغاناته(*). إن تأكيد الدور الاساسي الذي لعبه تنظيم الطليعة في إعداد الثورة وتوطيدها والاصرار على فضائل الانضباط، مهما يكونا مفهومين وضروريين، كانا يحتويان ايضاً على بذور أدى نموها الى اكثر النتائج شؤماً، علماً ان التنظيم اللينيني بالغ القوة نجح في الامحاء بصورة ما أمام الجماهير في فترات الصعود الثوري، الأمر الذي كان بطولة تاريخية استثنائية جداً وضرورية للغاية. انطلاقاً من هذه التذكيرات القليلة، كيف لا نستنتج أنه يجب البحث عن أصل ظاهرة معقدة كالستالينية في قرابة أسلاف تاريخية تتواجد فيها العوامل والاحداث الاكثر تنوعاً وحيث تحتل اللينينية مكانة لا يمكن إهمالها.

بعد قول ذلك، ربما لا يمكن التشديد على الفروق الاساسية التي يقوم عليها انعدام التوافق الحاسم بين اللينينية والستالينية. ألا تتماهى هذه الاخيرة مع القدرة الكلية للعسف البيروقراطي، وسيطرة تجريبية غير متماسكة غالباً حيث الضربات الجريئة المفاجئة تقطع ممارسة سياسة محافظة بوضوح، وبوجه خاص مع ممارسة ديكتاتورية شخصية لا حدود لها؟ والحال أن لينين سعى عبثاً للحد من سلطات بيروقراطية كانت تجاوزاتها تصدم في الوقت ذاته تطلعاته الديمقراطية وإرادته إعطاء السياسة الاقتصادية إلهاماً علمياً. لقد حاول، فضلاً عن ذلك، خلق الانسجام في سياسة الدولة السوفياتية والتغلب على التناقضات المنبثقة من الوظائف المتنوعة التي كان ينوي الاضطلاع بها لاسيما في علاقاته بالعالم الخارجي ووضع المتطلبات الصعبة للديالكتيك(**) في الممارسة. وأخيراً وبوجه خاص، لا شيء أقل شبهاً بالاوتوقراطية الديكتاتورية للستالينية غير نموذج السلطة الذي مارسه لينين داخل الحزب البلشفي والدولة السوفياتية.

هذه النقطة الاخيرة تستحق الوقوف عندها: ففي الواقع يمكن تحديد اللينينية بالتناوب كمذهب وممارسة للمركزة السياسية؛ كمشروع هدم يستند إلى عمل طليعة؛ كتقنية بناء اشتراكي تقوم على دولة مستبدة أو (و)على المشاركة النشطة للشعب في المهام الادارية. ولاشك أنها تحتمل تحديدات أخرى ايضاً. مع ذلك، لا تُصوَّر كشكل لسلطة ديكتاتورية شخصية إلا بوأسطة توسل فظ للوقائع. إن كتابة التاريخ اللينينية لم تتراجع أبداً مع ذلك، في الغرب، عن تصوير لينين كديكتاتور: «الديكتاتور»: هكذا يُعَنْون أحد «دارسي لينين»،

(*) كانت تلك هي الحال بعد هزيمة ثورة ١٩٠٥ (انظرأ اعلاه، ج ١، ص ٥١ وما بعدها) وفي المناخ السيِّء الذي ميّز بدايات النيب (انظر اعلاه، ج ٢، ص ١٢٩).

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢٣٤ وما بعدها.

الأكثر شهرة، آدام أولام، الاستاذ في جامعة هارفارد، أحد فصول السيرة التي خصصها لمؤسس روسيا السوفياتية والتي تعتبر حجة(*). إن مسألة السلطة التي ركزها لينين بين يديه تتخطى من جهة اخرى إشكالية الثورة الروسية او الماركسية ـ اللينينية. لما كانت ذات اهمية اكثر عمومية، تسمح بتفحص إلى أي قدر تنطبق نظرية ويبر عن السلطة الكاريسمية على حالة زعيم اشتراكي يقود ثورة شعبية وحركة بروليتارية[٢٣].

لاشك أن ويبر يعتبر أن الظاهرة الكاريسمية «قدرة خلاقة وثورية في التاريخ»[٢٤]، وأنها تظهر في حالة ازمة اجتماعية مستعصية في الظاهر وتترافق مع اندفاع أقصى للراديكالية. ويضيف أن سلطة الزعيم الكاريسمي تعتمد على تلاقي نواة من المخلصين الذين يذكّرون، إلى حد ما، بحزب الطليعة، لكن يختلفون بعمق عن انصار لينين بالطابع غير المشروط وغير العقلاني لتبعيتهم للزعيم. بجانب هذه التشابهات قليلة السطحية إلى هذا الحد أو ذاك، تذهلنا مع ذلك التباينات بين الكاريسمية التي حللها ماكس ويبر وشخصية لينين. ففي حين تبدي السلطة الكاريسمية ازدراء عميقاً للاعتبارات الاقتصادية ـ «إنها سلطة مضادة للاقتصادية أو لا ـ اقتصادية»، في رأي ويبر[٢٥] ـ يدفع لينين، على العكس، اهتمامه بالتطور الاقتصادي إلى حدود «صناعوية» مصبوغة بالوضعية(**). وفي حين يؤسس الزعيم الكاريسمي الافتتان الذي يمارسه على كراهيته لكل مساومة، يدافع لينين على العكس عن ضرورتها في وجه الطهرية الثورية. وتعارض التوجه اللا عقلاني بصورة خاصة نوعياً والديني غالباً للسلطة الكاريسمية مادية لينين وتعلقه بالاشتراكية العلمية. أيضاً وبوجه خاص، لا شيء في أسلوبه يذكّر بالديماغوجية التي يلجأ إليها الزعيم الكاريسمي، أو بغروره الذي لا يرتوي، أو بالاعتقاد، المغذى بعناية، بالطابع المقدس لرسالته. ولا أدنى أثر أخيراً لدى لينين لتنظيم عبادةٍ شخصية ما.

ربما أمكن تقشفه الاسطوري أن يتوافق مع الصورة التي يود الزعيم الكاريسمي أن يعطيها عن نفسه، علماً أنه ثمة أمثلة قليلة على زعيم دولة، وإن يكن كاريسمياً، يكتفي بما يسميه فيكتور سرج «شقة صغيرة لخادم قصر[٢٦]» ويعترض في رسالة لا يعدها للنشر على الزيادة التي تُفرض عليه بصدد مرتب بالغ التواضع في المحصلة، مرتب عامل

(*) أ. اولام، مرجع مذكور، ص ٥٠٩. هذا لا يمنع مع ذلك المؤلف ذاته من الاعتراف بأنه «داخل حزب لينين، كان خصومه الاكثر استبسالاً اعتبروا الزعم بأنه يمارس ديكتاتورية شخصية كالافتراء الاشد خساسة». (المرجع ذاته، ص ٦٠٩).

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

متخصص[٢٧]. لكن بساطة لينين الاستثنائية وتواضعه الاستثنائي هما اللذان يوجدان على طرفي نقيض مع الاسلوب الكاريسمي. فبوصفه رئيساً للحكومة السوفياتية، كتب في ايلول ١٩٢٠ إلى مسؤول مكتبة متحف روميانتسيف رسالة يلتمس فيها الإذن بأن يستعير لليلة واحدة، «في ساعات الاقفال»، مراجع هو بحاجة إليها. وقد أكد لمراسله: «سوف اعيدها صباحاً[٢٨]». رئيس حكومة «كان ينتظر دوره ـ وفقاً لشهادة فيكتور سرج أيضاً ـ حين يذهب الى الحلاق، معتبراً من غير اللائق أن يمّحي أحد أمامه[٢٩]»، وإذ يلاحظ أنه لم تعد هناك أمكنة شاغرة في صالة المسرح حيث يود متابعة عرض مسرحي، يستعد للعودة الى بيته[٣٠].

ما من أثر، فضلاً عن ذلك، لعبادة الشخصية حول هذا الرجل الذي سوف يحنّط جسمه وتقدس أفكاره. مع ذلك، لابد أن الإغراء كان عظيماً بتنظيم هكذا عبادة، هي اللازمة المحتومة للمخاتلة الايديولوجية التي قد يلجأ اليها نظام ثوري يتعرض لخطر الموت. لكن لينين لم يرتض يوماً عملية من هذا النوع. لما كان يرفض أي إخراج، «كان يدخل الاجتماع ببساطة، دون أن يلاحظ الرفاق المنهمكون في النقاش وصوله[٣١]». إن غياب التكلف هذا لم يعجب ستالين، وكان يتناقض في رأيه مع متطلبات الكرامة، أكانت كاريسمية أو لم تكن. فإذ كان ستالين يسترجع خلال خطاب القاه بعد وفاة لينين بقليل جو مؤتمر بلشفي، أعلن ما يلي: «كم كانت خيبتي حين علمت ان لينين حضر إلى الاجتماع قبل المندوبين وأنه كان يتابع، في إحدى زوايا القاعة، بالصورة الاكثر بساطة، محادثة عادية جداً مع المندوبين الاكثر عادية... لن أخفي عليكم ان هذا بدا لي آنذاك كنوع من الانتهاك لبعض القواعد المرساة[٣٢]». من جهة اخرى، حين قرر الحزب البلشفي الاحتفال بميلاد لينين الخمسين، لم يكتف (هذا الاخير) بالاحتجاج. فخلال الاجتماع المنظم بهذه المناسبة، حين «بدأت المدائح تزدهر على المنبر، نهض لينين وخرج من القاعة. وبعد أن عاد إلى مكتبه في الكرملين، كان يتصل هاتفياً كل خمس دقائق ليعرف إذا كان هذا الموج الخطابي قد توقف عن التدفق، وهو ما كان ينتظره للعودة إلى الجلسة[٣٣]». ويعترف مراقب ناقد إلى أقصى الحدود للنظام السوفياتي بأن «التحفظ والحذر (حيال شخص لينين، م. ل.) كانا يرجحان، حتى في لحظات الحماس، خلال الاحتفالات التي تختم المؤتمرات[٣٤]»، وذلك في منظمة الشبيبة الشيوعية، حيث كانت عبادة الزعيم حَريةً بوجه خاص بممارسة إغرائها.

سوف يتذكر عالم الاجتماع أن أحد الرجال الذين ساهم عملهم اكثر من أيٍّ غيرهم في صياغة العالم المعاصر وكان تأثيرهم على شعبهم وعلى التاريخ كبيراً، أن سياسياً صنع تدخله الشخصي، حسب التعبير المكرس، مصير أمة ومصير طبقة، يفلت من قوانين السلطة الكاريسمية. هذه السلطة تتجسد بصورة متنوعة لكن بشكل متساو في وجوه كموسوليني وهتلر ونكروما وعبد الناصر وديغول، لكنها لا تتجسّد إطلاقاً في وجه لينين. ويعود ذلك على

الارجح إلى واقع أنه، على عكس هؤلاء القادة ذوي الكاريسمية الفتانة أحياناً، تماهى لينين، في اللحظات التي ساهم فيها اكثر ما يكون في وسم التاريخ، مع إرادة طبقة، وذلك دون الاعتقاد يوماً بأية رسالة شخصية. وبدل أن يجعل من نفسه سيد تلك الطبقة ويستخدمها لصالح أهدافه، اكتفى بتوجيه عملها وبالتعبير عن قدرتها. ليس للكاريسمية مكان في الفتوحات الكبرى للاشتراكية.

تبقى مشكلة السلطة الديكتاتورية التي تُعزى للينين، والتي تجعل منه في النهاية، في نظر كثيرين، رائد الستالينية أو طليعتها. لاشك أن سلطته داخل الحزب والدولة كانت هائلة وكانت تثير احياناً الانتقاد حتى داخل الصفوف الشيوعية. فخلال مناقشات المؤتمر العاشر، في آذار ١٩٢٠، أخذ مثلاً أحد ممثلي المعارضة، سابرونوف، على لينين كونه أرسى سلطانه الشخصي داخل اللجنة المركزية[٣٥]. ووجه قائد بلشفي آخر، هو أ. يوفي، الاتهام نفسه في رسالة الى لينين عام ١٩٢١[٣٦]. والجواب الذي أرسله إليه لينين يستفيض بصدد الغيظ الذي كان يحفزه لديه تأكيد من هذا النوع: «يستحيل تعداد الحالات التي لم ينتصر فيها رأيي، بصدد المسائل المتعلقة بالتنظيم أو بالاشخاص» وأضاف: «لماذا تخرج عن طورك إلى حد كتابة **جملة غير معقولة إطلاقاً، غير معقولة إطلاقاً**، ترى فيها ان اللجنة المركزية هي أنا؟ هذه نتائج الارهاق[٣٧]».

وعلى امتداد هذا الكتاب، تغزر الامثلة على مجابهات بين لينين وقسم من أنصاره، كانوا أكثرية احياناً. وغالباً ما تغلب على هذه المعارضة، بفضل الوزن المتحد لقوة إقناعه ولضغط الوقائع. لكنه حُشر مراراً في مواقع الاقلية واضطر آنئذ الى التخلي عن السياسة التي كان يريد جعل الحزب أو الدولة يقبلان بها. هل يجب التذكير بالنقاشات التي دارت داخل القيادة البلشفية بصدد مشكلة التحالف وانتهت الى متابعة المفاوضات بين الشيوعيين والاشتراكيين المعتدلين، بالرغم من ارادة لينين تسريع قطعها؟[*] او بالتنازلات التي اضطر لينين لتقديمها، على امتداد حادثة بريست ـ ليتوفسك، لخصومه اليساريين[**]؟ وليس من مجال لم تعترف فيه «الديكتاتورية»، مضطرة، بهزيمتها إزاء مقاومة هيئات شتى في الحزب أو في الدولة. فخلال النقاش حول المسألة النقابية[***]، حُشِر في وضع الاقلية في اللجنة المركزية للحزب[٣٨]. وفي الموضوع الاقتصادي، طلب مرتين إلى المجلس الروسي الكبير للنقابات أن

(*) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٤٤ وما بعدها.

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢١٤ وما بعدها.

(***) انظر اعلاه، ج ٢، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

يتبنى مبدأ «السلطة الادارية الشخصية»: وفي المرتين، في كانون الثاني وفي اذار ١٩٢٠، تعرَّض لفشل مرير[٣٩]. وفي الفترة ذاتها تقريباً، امام الكتلة البلشفية في المجلس النقابي، قدم بالتضافر مع تروتسكي مشروع قرار لصالح «عسكرة» اليد العاملة. فتم رفض المشروع بما يشبه الاجماع[٤٠]. وحين اقترح، من جهة اخرى، في أيار ١٩٢٢ على اللجنة المركزية التنفيذية للسوفييتات بأن يتم تقليص عدد أفراد الجيش الأحمر بنسبة الربع، هُزم مرة اخرى[٤١]. وهو ما حصل أيضاً داخل الحكومة حين أراد حظر قيام الدولة بدفع ثمن العلف الذي تحتاج إليه بسعر السوق[٤٢].

يمكن مضاعفة الامثلة. وفضلاً عن ذلك يُبرز حادثٌ وَضَعَ لينين بمواجهة انجليكا بالابانوفا، ردود الفعل التي كان في وسع لينين أن يتخذها إزاء مواقف المعارضة او الرفض من جانب بعض معاونيه. فخلال المؤتمر الاول للاممية الثالثة، سلم بطاقة الى الاشتراكية الايطالية المشهورة يسألها فيها ان تعلن جهاراً انضمام حزبها الى المنظمة الجديدة. فرفضت انجليكا بالابانوفا: كان على الحزب الاشتراكي بالذات أن يتخذ هكذا قراراً ويعلنه. فألح لينين: «هذا واجبك. فأنت ممثلتهم الرسمية في زيمرفالد. انت تقرئين أفانتي وتعرفين ما يحصل في ايطاليا(*)». وتروي بالابانوفا: «اكتفيت في تلك المرة بالنظر اليه وهززت رأسي[٤٣]». والحال أنها عُيِّنت في نهاية المؤتمر ذاته، بموافقة من لينين، سكريتيرة للأممية الثالثة.

انظروا، فضلاً عن ذلك، كيف كان رد فعل «الديكتاتور» حين كان مناضلون أو مسؤولون يطالبونه بقرارات لا صلاحية لديه لاتخاذها. فحين توجه يوفي، سفير السوفييتات في برلين، إلى لينين مباشرة وطلب منه تعليمات، رد قائلاً: «أنا اقدِّر تماماً عمل يوفي وأؤيده دون تحفظ، لكن أشترط إطلاقاً أن يتصرف يوفي كسفير موضوع تحت سلطة مفوض الشعب للشؤون الخارجية[٤٤]». وبعد عامين، رفض أيضاً طلب ستالين إعلان رأيه بصدد المشكلة التي عرضها عليه والتي تتعلق بالعلاقات مع اذربيجان: «من دون اجتماع المكتب السياسي، لا يمكنني إعطاؤك أي جواب[٤٥]».

هل يجب التذكير أخيراً بأن لينين كان في ظروف عديدة، داخل حزبه الخاص به، هدفاً لانتقادات حادة أحياناً وعلنية في الغالب. كانت تصدر عن اكثر البلاشفة بروزاً أو عن مناضلين مغمورين. فتروتسكي هو الذي اكد في النقاش النقابي في خريف وشتاء

(*) كان الحزب الاشتراكي الايطالي في الواقع احد الاحزاب الاولى التي انضمت بصورة جماعية الى الاممية الشيوعية.

١٩٢٠ أن «لينين يريد أياً يكن الثمن إلغاء النقاش حول جوهر المسألة وإجهاضه[٤٦]». وبوخارين هو الذي اعلن في الفترة ذاتها أن «لينين جحد الخط الذي رسمه المؤتمر التاسع[٤٧]». وإن أحد ممثلي المعارضة البلشفية هو الذي هتف خلال المؤتمر ذاته، موجهاً كلامه الى لينين، بأن ما يقوله «خاطىء إطلاقاً»[٤٨]، وخلال مؤتمر ١٩٢١، بأن مشروع القرار الذي قدمه للمشاركين بصدد المعارضة العمالية «افترائي[٤٩]». وقد لا ننتهي إذا أردنا ايراد هذه الملامح الكاشفة للوضع الذي كان يشغله لينين في الحزب الشيوعي وفي الدولة السوفياتية: وضع زعيم إذا كانت سلطته مرموقة فلقد كانت تصطدم بانتظام بالاعتراضات والانتقادات والمعارضات، الامر الذي كان يضطره غالباً للمساومة مع أصدقائه كما كان يساوم مع الخصم ومع الواقع.

ماذا كان فعل لينين؟

إذا لم يكن لينين ديكتاتوراً ولا زعيماً كاريسمياً، فهو يتمايز إذاً **بشكل مطلق**، في طرائق حكمه، عن الرجل الذي خلفه على رأس النظام السوفياتي. إلا أن ملاحظة كهذه لا تكفي لقفل النقاش حول نسب اللينينية والستالينية. أليس ممكناً، في الواقع، الادعاء بأنه بالرغم من التباينات الضخمة والتعارضات الكثيرة، وبالرغم من كل ما يفصل بين الشخصين ويضعهما الواحد بمعارضة الآخر، فإن الستالينية، دون أن تتماهى مع اللينينية، تشكل امتداداً لها وأنه، رغماً عن الفروق في الأطباع ـ المزاج، والتطلعات، وأنماط التفكير، والمبادىء الاخلاقية، وردود الفعل السلوكية ـ، كان اضطر لينين لاتباع سياسة شبيهة جداً بسياسة ستالين. كان منطق النظام، مثله مثل ضرورات الأوضاع التاريخية، تغلّب على النوايا والوساوس التي من المعروف أنها ليست بين المحركات الرئيسية للتطور الاجتماعي.

إلا أن هذه الطريقة في طرح مسألة العلاقات بين اللينينية والستالينية، دون أن تكون غير شرعية، تجر المراقب إلى ميدان التأملات. يمكن أن نبين، بواسطة جهد رصين، أن لينين، بعكس ستالين، لم يكن ديكتاتوراً؛ وأنه فضح مساوىء البيروقراطية وخاض ضد تجاوزاتها معركة يائسة؛ كما يمكن إطالة لائحة الخلافات التي أدت أخيراً، ورغم تعاون طويل ووثيق، إلى الطلاق النهائي والمجابهة الحاسمة بين الرجلين[*]. يستحيل، بالمقابل،

(*) انظر أعلاه، الخاتمة.

أن نثبت اي شيء ما بعد موت لينين حول ما كان امكن روسيا السوفياتية ان تصير تحت قيادته. إلا أن هذه الاستحالة لا تقفل مع ذلك النقاش. فثمة معطيات موضوعية تغذيه، على العكس، وتسمح باستنتاجات هي فرضيات أو قرائن أو ترجيحات.

يتعلق المعطى الأول بإحدى الحلقات الاساسية في سياسة ستالين: التجميع القسري في الأرياف. لقد أدى ما سمي «الثورة الثانية» إلى تفجير حرب أهلية جديدة: فولب الارهاب الجماعي الذي رافقه روسيا السوفياتية في الثلاثينيات وساهم احياناً في مفاقمة الملامح الاكثر كلّيانية في النظام الستاليني، إلى حدود العبث. والحال أن إنجاز سياسة كهذه لم يصبح ممكناً إلا بالتخلي الكامل عن الموقف الذي كان لينين تبناه بصورة منهجية حيال الفلاحين.

كما رأينا، كان أحد الإسهامات الحاسمة لتكييف لينين للماركسية إحلال فكرة تحالف بين الطبقة العاملة والفلاحين محل فكرة معاهدة تُعقد بين البروليتاريا الصناعية والبورجوازية التقدمية(*). وبعد ثورة اوكتوبر، بدا مهتمًا دائمًا بصيانة هذا التحالف. و«مرسوم الأرض»، الذي تم إعلانه يوم انتصار الانتفاضة بالذات، إذ منح الفلاحين الأفراد الاستمتاع بالأرض المؤممة، كان في الوقت ذاته تشويهاً للمبادىء الاشتراكية وتنازلاً أساسياً مقدماً للفلاحين الروس. لاشك أن السلطة السوفياتية حاولت منذ عام ١٩١٨ تشجيع مشاريع تجميع (تشكيل «سوفخوزات» و«كولخوزات» وأرتيلات(**))، لكنها فعلت ذلك ضمن دائرة محدودة جداً. وفي نهاية الحرب الاهلية وإذاً في نهاية مرحلة من «شيوعية الحرب» مشجّعة مع ذلك للتحولات الاكثر جذرية، كان وضع الارياف يتميز بـ «تراصف على أساس الفلاح المتوسط(٥١)» وبرجحان الملكية الخاصة الصغيرة أو المتوسطة، في حين أن عدد المزارع الجماعية، المحدود جداً باستمرار، كان يتبع منحنى متناقصاً(٥٢). هذه السياسة المعتدلة، غير المتناسبة كثيراً مع قوانين الماركسية والتي كانت روزا لوكسمبورغ قد انتقدتها بصرامة في بحثها حول **الثورة الروسية**(٥٣)، كانت تعبر بشكل أمين عن ارادة لينين التوفيقية. فلقد كان هذا **الاخير يعتبر في الواقع أن «مشكلة الموقف حيال الفلاح المتوسط»** كانت «إحدى المشكلات الأشد صعوبة بالنسبة لبناء الشيوعية في بلد فلاحين صغار(٥٤)» وعموماً أن «العمل في الريف هو في الوقت الراهن المسألة الأساسية لكل البناء الاشتراكي(٥٥)». لقد كان لينين يُخضع من جهة اخرى الانتصار النهائي للاشتراكية لشرط مزدوج: نجاح الثورة البروليتارية الغربية

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ٨٦ وما بعدها.

(**) شركات تعاونية تكون الملكية فيها لجمعيات من الشغيلة (المعرب).

و«التفاهم بين البروليتاريا التي تمارس ديكتاتوريتها أو تمسك بسلطة الدولة، وغالبية السكان الفلاحين[٥٦]». وفي كتاباته الاخيرة، سوف يكرر أن «النظام الاجتماعي (في روسيا السوفياتية، م. ل.) يقوم على تعاون طبقتين، العمال والفلاحين[٥٧]» وأنه لا غنى عن «بناء دولة يمارس فيها العمال القيادة على الفلاحين (و)يحتفظون بثقة هؤلاء الاخيرين[٥٨]». وفي «وصيته» أخيراً، حذر الحزب من الخطر الذي يهدد وحدته: «إن حزبنا يستند إلى طبقتين؛ لذا فتفككه قد يصبح ممكناً وسقوطه محتوماً إذا لم يمكن إقامة التوافق بين هاتين الطبقتين[٥٩]».

كان الحذر الاقصى حيال الغالبية الفلاحية، وبوجه خاص حيال الفلاحين المتوسطين، ناتجاً من هذه المعطيات الاساسية، وفي حين كان لينين يدعو إلى نضال عنيد غالباً ضد «الكولاك»، كان يعلن ضرورة قيام تفاهم مع مجموعة الفلاحين المتوسطين[٦٠]، وذلك بالرغم من الدعم الذي كانت هذه الأخيرة تقدمه أحياناً لممارسات الفلاحين الميسورين والأغنياء[٦١]. كان يتبع ذلك أن سياسة التجميع الزراعي يجب أن تقوم، في رأي لينين، على القوة المزدوجة للمثال والإقناع[٦٢]: «ليس ثمة ما هو اكثر حمقاً - أكد لينين في آذار ١٩١٩ - من فكرة العنف بالذات ممارساً حيال العلاقات الاقتصادية الخاصة بالفلاح المتوسط[٦٣]». وكذلك، في كانون الأول من العام نفسه: «قد يكون أخرق بشكل مطلق تحويل (إلى القطاع الجماعي، م. ل.) هذه الاستثمارات (الزراعية، م. ل.) عن طريق إجراء سريع ما، مرسوم ما[٦٤]». طبعاً بقي لينين مقتنعاً بأن «المخرج الوحيد هو الاشتغال الجماعي للأرض[٦٥]» وأن «الانتقال إلى الاستثمار الجماعي للأرض» هو «الوسيلة الوحيدة لإعادة الزراعة التي خربتها الحرب ودمرتها[٦٦]». لكن كان ينبغي العمل في هذا الحقل عن طريق «شغل تدريجي طويل الأمد[٦٧]» و«إبداء اقصى الحذر في كل التجديدات[٦٨]». وكل شيء يشير أخيراً إلى أن لينين، في الوقت الذي كان لاحق فيه هدف التجميع في الارياف الذي يفترضه العمل التشريكي للنظام السوفياتي، كان تحاشى تماماً أن يفرض عليه الوتيرة المسرَّعة التي حددها ستالين. وإنه لأكثر من عديم الترجيح، من جهة أخرى، لا بل شبه غير متصور، أنه كان أعطاه يوماً شكل موجة عنف هزت أسس النظام الاجتماعي والاقتصاد السوفياتيين بالذات، وجعلت انتصار الديكتاتورية البيروقراطية والمونوليتية الارهابية محتوما على أنقاض قوة الكولاك.

أكان همُّ مراعاة الفلاحين وصل إلى حد أن يجعل من لينين، في سجالات اعوام ١٩٢٥ - ١٩٣٠، نصيراً لـ «خط بوخارين»، الممالىء للفلاحين وحتى المشجع للكولاك، الحذر وحتى المحافظ؟ ربما وقعنا للوهلة الاولى تحت إغراء الاعتقاد بذلك إذ نقرأ النصائح التي أغدقها على أنصاره في كتاباته الاخيرة. ففي مقاله الأخير، ذي العنوان المعبر جداً: «من الأفضل أقل لكن أحسن» يعبر عن رأيه بالشكل التالي: على صعيد البناء، «التسرع والمزايدة

من اكثر الامور ضرراً»؛ و«بما يخص جهاز الدولة، علينا أن نستمد من التجربة الماضية هذا الاستنتاج الذي مفاده أن من الأفضل السير ببطء أشد. آن أوان أن نكون عاقلين. يجب أن نتشبع بحذر شافٍ حيال اندفاع أرعن، حيال كل نوع من التبجح»؛ الاكثر «ضرراً. . ، إنما هو الاستعجال». وأخيراً: «لأجل وضعه في مكانه (جهاز دولة «جديد حقاً»، م. ل.)، لا يجب الاقتصاد في الوقت، فسوف يتطلب ذلك الكثير، الكثير، الكثير من السنوات[٦٩]».

إذا فكرنا من جهة أخرى بالتكتيك الذي أوصى لينين به أنصاره باستمرار بعد ثورة اوكتوبر - التراجع والتذاؤب(*) - يقع المرء تحت إغراء أن يرى في هذه الاستعدادات السياسية استباقاً للمواقف اليمينية لبوخارين الذي لم يناد بشيء، بعد انقضاء مرحلته اليساروية وبدء الصراع على خلافة لينين، غير حماية مصالح الفلاحين في روسيا ومسيرة بطيئة جداً باتجاه بناء الاشتراكية.

إلا أن ثمة أسباباً حاسمة لعدم اللجوء بصدد لينين واللينينية إلى المقولات التبسيطية من مثل: «اليساروية» و«البوخارينية اليمينية». يحسن في الواقع ملاحظة أنه في الوقت ذاته الذي كانت فيه الاخفاقات التي منيت بها الحركة الثورية الاممية وعزلة روسيا السوفياتية تقود مؤسس (هـذه الأخيرة) للدعوة إلى تنظيم الانكفاء، كان يكشف استعداداً فريداً للعمل الثوري الهجومي. أليس في فترة جنوى ورابالّو بالذات، حين قام نمط تعايش modusv-ivendi مع الامبريالية الغربية وحين كانت روسيا الشيوعية تبدي أكثر من أي وقت مضى رغبتها في الحصول على القبول بها داخل «تفاهم الامم» وتضاعف من البراهين على اعتدالها، (أليس في تلك الفترة) أعلن لينين، مخاطباً أعضاء المكتب السياسي، في مذكرة تعود إلى الرابع من شباط ١٩٢٢ ومكرسة للنضال ضد الحرب: «فقط حزب ثوري مجرب، معد سلفاً ومجهز بجهاز سري جيد، في وسعه أن يقود هذا النضال إلى النجاح»؛ وقد طالب لينين بـ «تشكيل خلايا ثورية داخل الجيوش المتحاربة وإعدادها للقيام بالثورة[٧٠]».

إن الموقف الذي تبناه لينين خلال المؤتمر الثالث للأممية الشيوعية يكشف بصورة أفضل أيضاً أن هذا الاستعداد للعمل الثوري بقي حاضراً لديه حتى حين كان يجد نفسه منخرطاً في صراع صعب ضد يساروية بعض الشيوعيين وكان يحاول أن يهزم أنصار الهجوم إلى أبعد حد، داخل الاممية الثالثة. فخلال صيف ١٩٢١، غداة هزيمة الحزب الشيوعي الألماني، كان قد قرر لينين، بالاتفاق مع تروتسكي، استخدام كل ثقله لمكافحة التيار الثوري»(**).

(*) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢١٠.

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

لكن في حين كان يهاجم ممثليه، في نقاشات لاذعة، كان يساجل أيضاً مع الشيوعي التشيكي سميرال، المشهور باتجاهاته اليمينية. ففي اجتماع لإحدى اللجان، كان سميرال قد أصر في الواقع على الصعوبة التي تصادفها الحركة الثورية في بلده؛ وكان عبّر أيضاً عن خشيته من رؤية الاممية الثالثة تدفع البروليتاريا الاوروبية إلى العمل الهجومي. وكان سير النقاشات هدّأ مخاوفه. لكن ما أن عبر سميرال عن رضاه حتى رد عليه لينين، الذي كان يخوض مع ذلك الصراع ضد اليسار: «إن خطأ اليسار هو مجرد خطأ، فهو ليس خطراً ومن السهل إصلاحه. لكن خطأ يعيد النظر بقرار المبادرة إلى العمل، لم يعد خطأ صغيراً. إنه خيانة. ليس ثمة ما يجمع بين هذين النوعين من الخطأ[٧٢]». وما يهم هنا ليس فقط تفاصح هذا الإعلان، بل كذلك وبوجه خاص الوقت الذي تم فيه.

من الصعب عدم الاستخلاص بأن السياسة التي كان لينين طبع بها روسيا السوفياتية والمنظمة الشيوعية الاممية كانت أخذت مؤكداً بالحسبان الامكانات الضخمة التي كان العالم الرأسمالي مستمراً في امتلاكها. وأنها كانت استخدمت كل شيء لتجنيب الحركة الثورية إغراءات المغامرة أو الهجوم المبكر. وكانت استمرت عند الاقتضاء في «التذاؤب» و«التراجع» و«الانكفاء». لكن اكثر من ستالين بما لا يقاس، كان لينين بقي متنبهاً على الأرجح لتبدلات الظرف العالمي. كان راقب التواءه وترصد انقلابه. والأحداث الملتبسة والحائرة في البدء، التي تشهد عليه وتؤكد انفتاح إمكانات ثورية جديدة وتَوَضُّحَها، كانت استُقبلت على الأرجح بمزيج من برودة الدم والكفاحية، وبحيث لا يفوت هذه الأخيرة أن تتغلب على الأولى، ضمن شروط مشجعة. ضمن هذا الاستعداد النفسي استقبل لينين، مثلاً، الازمة الاجتماعية والسياسية التي انفجرت في إيطاليا خلال خريف عام ١٩٢٠ والتي عبرت عن نفسها بالتقدم سريع العطب لـ «حركة المجالس».

كان الجيش الأحمر قد انهزم للتو في بولندا. هكذا انهار الأمل برؤية الارتباط يقوم بين روسيا السوفياتية والبروليتاريا الالمانية. وفي كل مكان آخر، كانت الحركة الثورية تعطي الانطباع بأنها تراوح في المكان: ففي فرنسا، مثلاً، كانت هجمات حركة نقابية متجذرة قد انتهت بالهزيمة والإحباط. وإذ استخرج لينين دروس تلك الاحداث، كتب مؤلَّفه **مرض الشيوعية الطفولي**، وكان هجوماً أخوياً لكن قوياً على اليسارية(*). لكن في أيلول ١٩٢٠، أخذ عمل عمال تورين، الذي بدأ في نهاية شهر آب، اتساعاً اعظم وأدى الى احتلال مصانع عديدة. وإذا كان أمد تلك الانتصارات قد طال، فالبلد لم يستعد مع ذلك هدوءه؛ لقد

(*) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢٥٩ وما بعدها.

استمرت الأزمة. ضمن هذه الشروط، قدَّر لينين، في رسالة إلى الشيوعيين الايطاليين، أنه «ينبغي دفع الأمور باتجاه اليسار في الوضع الحالي-لايطاليا. ولأجل ان ينجز الحزب الايطالي الثورة ويصونها، يجب أن يخطو خطوةً ما أيضاً باتجاه اليسار[٧٣]».

هل يمكن أن نشك جدياً في أن تطورات الثورة الصينية، والهزة الاجتماعية التي أحدثتها الازمة الاقتصادية العالمية، والتجذر الذي أدى إليه صعود الفاشية في فرنسا واسبانيا، وفي هذا البلد الاخير، انفجار حرب أهلية ذات إمكانات ثورية، كانت ستؤدي بلينين، قدر أحداث أيلول ١٩٢٠ في إيطاليا واكثر، إلى أن «يدفع نحو اليسار» الحركة الشيوعية، ويمتنع عن التقوقع في الموقف الحذر على الدوام والدفاعي باستمرار الذي ميز عمل الستالينية الأممي بين الحربين؟ بعبارات أخرى، وأخيراً، (كانت ستؤدي به) إلى أن يترك اندفاع الجماهير الهجومي (يجرب) حظه، وإلى أن يدعم دينامية ثورية تستأنف سيرها إلى الأمام بعد سنوات من التراجع والركود، وإلى أن يساند اندفاعة تتماهى، كما في عام ١٩١٧، مع تفتح حركة بروليتارية غنية بالآمال الديمقراطية، وقاتلة بالنسبة للسلطات البيروقراطية وبنى السلطة القائمة؟

هذا «الاستعداد الثوري»، الذي كان يبرره ويغذيه التلازم الوثيق الذي شدد عليه لينين(*) بين تقدم البناء الاشتراكي في روسيا وتقدم الثورة العالمية، ليس من جهة أخرى غير وجه لظاهرة أعم. إنه يعبر عن طابع للينينية، يميزها عن الستالينية ويضعها بمعارضتها، ربما اكثر من أي طابع آخر. فخلافاً لعمل ستالين، يكشف عمل لينين في الواقع استيعاباً مرموقاً وأساسياً لطريقة الفلسفة الديالكتيكية في الممارسة السياسية. لأنه إذا كان مؤسس روسيا السوفياتية منظماً عبقرياً، ونموذجاً للقائد الثوري، ورجل دولة ذا أهمية استثنائية، إذا كان جمع بنجاح منقطع النظير بين فضائل المحرِّض وصفات الباني، فلقد كان يدين بذلك للظرف التالي: إن لينين، رجل التنظيم والثورة، كان كذلك الرجل الذي فهم بالصورة الاشد ذكاء المعنى الملموس للديالكتيك وأهميته في الحركة المعيشة والحية للتاريخ والعمل السياسي.

(*) انظر أعلاه، ج ٢، ص ٢٠٥ وما بعدها.

اللينينية: السياسة والديالكتيك

«إن الديالكتيك. مدموجاً بوعي إنسان كلينين يصبح فناً للعمل... ؛ يغدو ذكاء، عبقرية ليست صوفية، بل ذروة الحس السليم»: هذا ما كتبه هنري لوفيفر ونوربرت غوترمان[٧٤]. وليس في هذا التأكيد أي مديح مبالغ به، بل فقط الاعتراف بميزات فريدة ينبغي أن نتفحصها الآن.

إن لينين رجل ديالكتيك، وبصورة أدق أيضاً نصير للفلسفة الديالكتيكية ومستوعب وممارس لها: ثمة في نتاجه حقل لم يعدّه له نشاطه كفاعل ثوري والتزامه السياسي بصورة جوهرية - بمعنى أن عمله وأفكاره تدور حول مشكلة **السلطة** -، وتكوينه الأصلي كحقوقي واقتصادي، إلا قليلاً أو بشكل سيِّىء. وفي الواقع، فإن دخول لينين العابر الأول إلى عالم الفلسفة لم يكن نجاحاً: إن كتابه **المادية والنقد التجريبي**، المنشور عام ١٩٠٩، هو عمل يتأثر بنواياه التجريبية والسجالية بشكل رئيسي. وإن عنوانه الفرعي لمعبر: «ملاحظات نقدية حول فلسفة رجعية». كانت كتابته، كما غالباً في نتاج لينين، تستجيب لاهتمامات ملموسة لا تتعلق فقط بإرادة أخذ موقف في نقاش فلسفي. لاشك أن هذه الارادة كانت مهمة: كانت تطورات الفيزياء في بداية القرن العشرين ترتكز على مشكلة العلاقات بين المادة والوعي، وكان اكتشاف المتناهي في الصغر يتيح هجوماً ضد المادية[٧٥]. لكن إذا كان للسجالات المستثارة تأثير كهذا على الخصومة السياسية التي يتواجه فيها ماركسيون أورثوذكسيون - وإذاً «ماديون» - وتحريفيون، فلا يبدو أن لينين أدرك ذلك سريعاً. كان كتابه يهاجم بشكل رئيسي البلشفيين لوناتشارسكي وبوجه خاص بوغدانوف الذي كان يستلهم النتاج الفلسفي الخاص بماش وأفيناريوس المهتمين باكتشاف طريق ثالث بين المادية والمثالية. والحال أن بوغدانوف كان قد سلم عام ١٩٠٤ الجزء الأول من نصه **الواحدية التجريبية Empiriomonisme** إلى لينين الذي اطلع عليه دون اعتراض وأقام على العكس علاقات ممتازة مع المؤلف. وفي عام ١٩٠٦ أيضاً، كان لينين قد رد برسالة حارة[٧٦] على إرسال بوغدانوف إليه الجزء الثالث من مؤلفه. وما دفعه إلى إعلان الحرب على «مثالية» رفيقه في القتال، إنما كان الموقف **السياسي** لبوغدانوف، المنتقل ليصبح قائد الاتجاه اليساروي في الحزب والذي سوف يطرد بعد قليل بسبب مسايرته لنزعة التطرف(*). إن انشغالات بعيدة

(*) انظر اعلاه، ج ١، ص ٥٩.

إلى هذا الحد عن موضوع الجدال بالذات بين مثاليين وماديين وحسّويين Sensualistes لم يكن من شأنها أن تنتج مساهمة فعلية في تقدم العلم والفلسفة، مع أن لينين، بجديته ودقته المعتادة، أعد هجومه بعناية وعلى مدى زمني طويل، غائصاً خلال سنة بكاملها في فرز أدب متخصص وفير.

كان مقصد لينين الصريح بسيطاً: «تبيان. . أن الادعاء العلمي الكاذب والفارغ إرادة تجاوز المثالية والمادية يضمحل[٧٧]» وأنه فقط «الحل المادي يتطابق بالفعل مع معطيات علوم الطبيعة[٧٨]». لكن لأجل حاجات القضية كان يماثل دون قيد أو شرط بين الحسّوية والمثالية وبين هذه الاخيرة و«الايمانية» ذات الطبيعة الدينية بشكل أساسي[٧٩]. **إن المادية والنقد التجريبي** يحمل من جهة اخرى في العديد من مقاطعه آثار نية مؤلفه السجالية. وتكتشف فيه، من جانب رجل يسعى لبدء خطواته الأولى في الفلسفة، غياب عُقَدٍ من النوع الأجود، لكن كذلك سفاهة تقارب العجرفة(*). وطرائقه من اكثر الاساليب قابلية للمنازعة فيها: فتارة يعزو إلى أفيناريوس تصريحات وأفكاراً لم تصدر عنه يوماً[٨٠]؛ وطوراً يقاتل ماش وتلامذته مستعيناً باستشهادات مأخوذة من فلاسفة وعلماء آخرين، يعتبر لينين كلاً منهم حجة[٨١]؛ والمحاكمات على النوايا كثيرة[٨٢]، وإذا كان قرار الاتهام، حيال الخصم، يحل أحياناً محل التحليل[٨٣]، فلينين، بالمقابل، يبدي حيال إنجلز، «المعلم»[٨٤] احتراماً يقارب البُدِّية(**) Fétichisme. وليس من شك بتاتاً في أن الدوغمائية «الماركسية» وجدت في هذا العمل للينين مصدر إلهام.

المادية والنقد التجريبي عمل معزول في انتاج لينين الوفير. فبعد إصداره إياه، ترك الحقل الفلسفي وعاد إلى أنواع كانت اكثر ألفة بالنسبة إليه. إلا أنه عاد إلى الفلسفة بعد سنوات وذلك في ظروف غير ملائمة بوجه خاص للتأمل المجرد. وثمة في ذلك واقعة مبلبلة، ليس معناها واضحاً تماماً، لكن اهميتها كبيرة في كل حال. فانطلاقاً من ايلول ١٩١٤، وفي حين كان اندلاع الحرب وإفلاس الاممية الثانية يجعلان من معركة لينين السياسية ضرورية اكثر من اي وقت مضى ويعطيانها بعداً جديداً، غاص في قراءة هيغل، وهمّش نتاجه ولخصه وشرحه بغزارة، وبصورة خاصة ماكان يتعلق بالديالكتيك في كتب الفيلسوف الالماني. هل كان ذلك هرباً أمام واقع بالغ القتامة؟ لا يمكن القبول بهذه الفرضية في حالة شخص كلينين

(*) إذ يهاجم لينين فلاسفة متنوعين، يضاعف العبارات من نوع «هذر»، و«المنافق افيناريوس»، و«لا يفهم أي شيء مما يقرأه». (لينين، **الاعمال**، ج ١٤ وغيره).

(**) البديه: تقديس مفرط (المعرب).

بذل جهده على العكس لتقويم الوضع الكارثي للحركة العمالية العالمية. إن التفسير الأولي الذي قدمه هنري لوفيفر اكثر إقناعاً: «لقد قرأ لينين هيغل أو أعاد قراءته في حين كانت تنفجر.. كل تناقضات المجتمع الرأسمالي.. إنه يستعيد إذاً منظّر الطريقة الديالكتيكية، وذلك للتحقق من صحة نظريته حول التناقضات، لأجل امتحانها». وبوجه خاص، لكن بصورة عامة جداً، «إذ أعاد لينين قراءة هيغل، سعى للتحقق من صحة أطروحته السابقة: إن عصر الامبريالية والحروب العالمية هو أيضاً عصر الثورات[٨٦]».

أياً يكن أمر هذه الفرضية ومع أن هذه القراءات الغزيرة ـ ليس فقط قراءات هيغل بل كذلك العديد من كاتبي السيرة والشارحين[٨٧]ـ، لم تنتج أي مؤلف، فإن تحشياته الغنية لـ علم المنطق، ودروس تاريخ الفلسفة والدروس حول فلسفة التاريخ هي البرهان على الاهمية المتقدة التي أعطاها لينين لهذا الاكتشاف للطريقة الديالكتيكية او لتعميقها. فرغم الطابع المقتضب غالباً لهذه الملحوظات، تسمح من جهة اخرى بفهم المعنى الذي كان يعطيه شخصياً للمفاهيم الرئيسية للديالكتيك الهيغلي. لن نضع هنا مدونة(*) فيها ولا تهمنا المسألة في كل حال إلا بمقدار ما تضيء ما قد نسميه الالهام المنهجي والفلسفي لممارسة سياسية مطبوعة بعمق بالديالكتيك. فلْنستبْق مع ذلك ما يقوله لينين بصدد مفاهيم كالحركة، والتناقض والقفزة (النوعية). إنها كما سنرى في القلب بالذات من إدراك لينين لبعض الظاهرات السياسية والاجتماعية الحاسمة في زمانه.

فبصدد الحركة، أعلن ما يلي: «لا يمكننا أن نمثل الحركة ونعبر عنها ونقيسها ونصورها دون أن نقطع المتواصل، دون أن نجعل الحي اكثر بساطة وأشد فظاظة، دون أن نقسمه، دون أن نجمده كالموت. إن تمثيل الحركة بالفكر، هو دائماً جعل كل مفهوم Concept ... وليس الحركة فقط، فظاً، وتجميده كالموت». ويخلص الى القول: «في هذا يكمن جوهر الديالكتيك[٨٨]».

وبصدد التناقضات: «الديالكتيك هو نظرية الطريقة التي يمكن ان تكون بها الاضداد وتكون بها عادة (تصبح بها) متماثلة ـ الشروط التي تكون متماثلة ضمنها بأن يتحول احدها إلى الآخر ـ الاسباب التي لأجلها لا يجب أن ينظر بها الفكر الانساني الى هذه الاضداد على أنها ميتة، متجمدة، بل (يجب أن ينظر اليها على انها) حية، مشروطة، متحركة، ويتحول احدها الى الآخر[٨٩]». إن التناقض والحركة مترابطان من جهة اخرى. ففي الواقع: «التناقض.. هو جذر كل حركة وكل حيوية، وفقط بمقدار ما يتضمن شيء ما تناقضاً في ذاته، فهو يتحرك، يمتلك نزوة Pulsion ونشاطاً[٩٠]».

(*) المدوّنة npmenciature مجموعة الاصطلاحات في علم او فن (المعرب).

وأخيراً، بما يخص القفزة النوعية: «بماذا يتميز انتقال ديالكتيكي عن انتقال غير ديالكتيكي؟ بالقفزة. بالتناقض، بقطع التدرج. بوحدة (هوية) الكائن واللا كائن[٩١]».

إن ما هو معبر هنا، هو قبل كل شيء همٌّ إعطاء مفاهيم الديالكتيك معنى يمّحي فيه التجريد ويزول، آخذاً الدوائر الأشد وضوحاً ومخلياً المكان للواقع الحي. تضاف إلى ذلك، بداهة، الاهمية الكبرى التي اعطاها لينين للتحليل الديالكتيكي. الكبرى لدرجة أنه، بالرغم من العداء الذي ظل يكنه لمثالية هيغل[٩٢]، لم يتوان عن إبداء إعجاب متنام بالفيلسوف[٩٣]. هل يجب أن نعزو إلى هذه الاغارة الاشد عمقاً، والأقل سجالية داخل الفلسفة او الى هذا الوعي الاكثر حدة بمستتبعات الديالكتيك، التلوين الذي أسبغه لينين على معارضته المتصلبة والدوغمائية سابقاً لكل شكل من اشكال المثالية. إنه ليفاجئنا في كل حال أن نجد لديه هذه الملاحظة التي تختلف تماماً عن الصيغ الجلية **للمادية والنقد التجريبي**: «إن المثالية الذكية أقرب إلى المادية الذكية من المادية الحمقاء». ويضيف لينين أن «المثالية الذكية» هي في الجوهر «مثالية ديالكتيكية»[٩٤]. وكذلك: «**ليست** المثالية الفلسفية غير حماقة من وجهة نظر المادية الفظة، البسيطة، الما ورائية. وعلى العكس، فالمثالية الفلسفية، هي من وجهة نظر المادية **الديالكتيكية**، التطور (التضخم، الانتفاخ) **أحادي** الجانب، المبالغ به... لأحد الملامح الصغيرة، لأحد الوجوه، لأحد المظاهر الخاصة بالمعرفة إلى مطلق **منفصل** عن المادة... المثالية هي عبادة متزمتة. لكن المثالية الفلسفية هي... **الطريق** نحو العبادة المتزمتة عبر **أحد تلاوين المعرفة** (الديالكتيكية) البشرية المعقدة إلى أبعد الحدود[٩٥]».

إذا كانت «الممارسة - كما يقول هنري لوفيفر - هي نقطة انطلاق المادية الديالكتيكية ونقطة وصولها» فيحسن في كل حال أن نبحث على مستوى نشاط لينين السياسي عن إدراج حسه الحاد وفهمه للديالكتيك وإبرازهما. والحال أن سلسلة من الوقائع والاحداث في مسيرته تسمح بهكذا مقابلة بين النظرية والممارسة. وسوف نلاحظ فضلاً عن ذلك ان هذه التقريبات تقع بشكل رئيسي في القسم الاخير من حياة لينين خلال الاستيلاء على السلطة وبعده، وإذاً بعد تعميق الفلسفة الديالكتيكية الذي انصرف إليه من عام **١٩١٤** إلى عام **١٩١٦**.

يتعلق مَثَلٌ أول بمفهوم القفزة النوعية الذي يشغل مكاناً مهمًا في الديالكتيك والذي كان لينين أولاه انتباهاً عظيمًا في أبحاثه النظرية. إنه يعني أن تبدلاً يبدو ضئيلاً حين يكون معزولاً، يمكن أن تكون له النتائج الأشد خطورة وأن يؤدي إلى تحول في **طبيعة** ظاهرة اكثر مما إلى تغيير في قوتها. بهذا الصدد يتكلم هيغل على «قطع للتدرجية»[٩٦]. والحال، أليست هذه الفكرة الخاصة بـ «قطع التدرجية»، المنطوية هي ذاتها على مفهوم القفزة النوعية، ووعي أهميتها، أليسا هما اللذان جعلا لينين متنبهاً بوجه خاص للعواقب التي قد تترتب على «مبالغات»، حتى خفيفة وذات مظهر غير مؤذ؟ فلقد حذَّر أنصاره مراراً من مخاطر هكذا

«مبالغة». أعلن بصدد لجوء الادارة السوفياتية إلى موظفي الدولة القيصرية: «لوحظ منذ زمن طويل أن عيوب الناس ترتبط في قسم كبير منها بصفاتهم. هكذا هي عيوب العديد من القادة الشيوعيين. لقد حققنا خلال عشرات السنين عملاً عظيمًا، كرزنا بإطاحة البورجوازية، وعلمنا الحذر حيال الاختصاصيين البورجوازيين، كنا نفضحهم، انتزعنا السلطة منهم، وقمعنا مقاومتهم. كان ذلك عملاً تاريخياً ذا أهمية شاملة. لكن **تكفي مبالغة خفيفة** ونرى كيف تتأكد الحقيقة القائلة إنه ليس ثمة غير خطوة واحدة من السامي إلى المثير للضحك(*)».

لقد قادت «المبالغة» بعض الشيوعيين إلى رفض اللجوء إلى الموظفين البورجوازيين أو إلى جعل عملهم مستحيلاً. (بينما) سمح ذهن لينين الديالكتيكي له على العكس بملاحظة حضور معطيات متناقضة في هذا الحقل: ضرورة استخدام البيروقراطيين، ووجود انحراف وخطر بيروقراطيين بسبب هذه الضرورة بالذات.

إن موقف لينين حيال التيار «الوسطي» للاشتراكية ـ الديمقراطية العالمية ليس أقل إنارة. فلا أحد هاجمه بقوة أشد خلال الحرب العالمية الاولى وفي الفترة الاولى من السلطة السوفياتية. لكن تطور الظرف السياسي دفعه الى تعديل موقفه وتفسير ذلك امام أنصاره بالشكل التالي: «إن بعض وحدات الاممية الشيوعية، من بين الافضل والاكثر تأثيراً، لم تفهم تماماً هذه المهمة، وبالغت قليلاً في «النضال ضد الوسطية»، **تجاوزت قليلاً** الحد الذي يصبح هذا النضال ما بعده رياضة، ويبدأ يعرض للخطر الماركسية الثورية» وأضاف لينين: «إن المغالاة في النضال ضد الوسطية، إنما هي **إنقاذ** للوسطية، **وتعزيز** لموقعها وتأثيرها على العمال(٩٧)».

ثمة أخيراً موقف لينين خلال أيام نيسان(**) ـ وهذا مثل مستمد من العمل الثوري بالذات ويوضح الصعوبة القصوى لتحديد تكتيك يتناسب مع متطلبات إحدى تلك اللحظات. ففي حين كان «يساروياً» في الظاهر قدر أنصاره الأكثر نفاد صبر، وهزم قيادة الحزب اليمينية، حثت مظاهرات جماهير بطرسبورغ أقصى اليسار البلشفي على دعم المحاولة المبكرة لاطاحة الحكومة المؤقتة. لكن لينين، «يساروي» الأمس، قدر عندئذ أن «الانعطاف **أكثر قليلاً** إلى اليسار(***) جريمة بالغة الخطورة». إن ذلك سيؤدي الى تحويل

(*) التشديد من وضعنا. لينين، **الأعمال**، ج ٣٢، ص ١٤٩ـ ١٥٠.

(**) انظر أعلاه، ج ١، ص ٢٢٠.

(***) التشديد من وضعنا.

سياسة الحزب: فالراديكالية الثورية، تكون قد تحولت نوعياً إلى سياسة مغامرة، وذلك عبر حركة غير مؤذية بحد ذاتها ـ لا شيء أكثر من مواصلة تكتيك جرى اعتماده سابقاً.

يؤكد هيغل في «موسوعته» أن «موضوعاً من دون تناقض ليس. . غير تجريد صرف للادراك يحتفظ بنوع من العنف بأحد التحديدين déterminations ويخفي عن الوعي التحديد المعاكس الذي يتضمن التحديد الأول»[٩٨]. والحالة هذه، أليس من قبيل اليقظة ـ الديالكتيكية ـ لدى لينين أن يدرك في «موضوع» ما تناقضه الذي يفسر اهتمامه بأن يحمي في قلب عمل سياسي بالذات حظوظ ضده. ففي معرض كلامه في المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية في تشرين الثاني ١٩٢٢، أكد مثلاً أن على «كل الاحزاب التي تستعد في مستقبل قريب للانتقال الى الهجوم المعلن ضد الرأسمالية أن تفكر أيضاً منذ الآن بتدبير تقهقر[٩٩]». ويقدم موقفه حيال النيب إبرازاً آخر للاستعداد النفسي ذاته. فهو الذي كان تحمل مسؤوليتها (أي النيب، أو السياسة الاقتصادية الجديدة ـ المعرب) في آذار ١٩٢١. وفي السنة اللاحقة وحتى نهاية حياته السياسية لم يعد النظر بتطبيقها واستمر يبرر ضرورتها. لكن منذ شهر آذار ١٩٢٢، كان قد أعلن موجهاً كلامه إلى المشاركين في المؤتمر الحادي عشر للحزب: «لقد تراجعنا طيلة عام. وعلينا أن نقول الآن باسم الحزب: كفى! . . لقد وصلنا الآن الى مرحلة جديدة[١٠٠]».

كان لينين قد طرح، مُحَشِّياً خلال خريف عام ١٩١٤ علم المنطق لهيغل، أن «الديالكتيك هو نظرية الطريقة التي يمكن ان تكون بها الاضداد وتكون بها عادة (تصبح بها) متماثلة[١٠١]». ومعروف فضلاً عن ذلك أن فكرة تجاوز هذه الاضداد، هذه التناقضات، وتأليفها Synthèse، فكرة جوهرية في النظرية الديالكتيكية. كان هيغل يقول في هذا الصدد: «إن شيئاً متجاوَزاً لا يزال ينطوي. . في ذاته على التحديد الذي يأتي منه[١٠٢]». وقد أشار لينين في صيغة إيجازية:

«التجاوز = الخلاص من (والحفظ في آن معاً)

= الابقاء على(*)».

وإذا حاولنا نقل هذه المفاهيم الى حقل سياسة لينين، نلاحظ أن بعض أفكاره الاكثر إنارة أو اسهاماته الاشد حسماً في التاريخ، ليست دون علاقة بهذا التصور الديالكتيكي لوجود الاضداد وتجاوزها. ولقد سبق أن ألمحنا الى ذلك: يبدو وجود الأممية الثالثة وتطورها

(*) لينين، دفاتر حول ديالكتيك هيغل، ص ١٦٤. إن طبعة موسكو للمؤلفات الكاملة تعطي النص الأصلي لهذه الصيغة التي كتبها لينين بالالمانية. (لينين، المؤلفات، ج ٣٨، ص ١٠٥).

كمحاولة فريدة وجريئة لتجاوز التناقض بين ضرورة صيانة مصالح الدولة السوفياتية، ضمن حدود روسيا القديمة، وضرورة تشجيع اندلاع الثورة العالمية وتقدمها. إن فكرة لينين القائلة بأن النظام المنبثق من نجاح الثورة الروسية ومن العجز الذي وجدت نفسها فيه عن تجاوز حدودها القومية ولَّد نظاماً سياسياً واجتماعياً تتواجد فيه الحقائق المتضادة لبيروقراطية طاغية ولسلطة عمالية حقيقية، هذه الفكرة الديالكتيكية بالضبط وجدت التعبير عنها في صيغة «الدولة العمالية المشوهة بيروقراطياً» التي استخلصها لينين، المنعزل، وسط بلبلة النقاش النقابي في شتاء ١٩٢٠-١٩٢١.

أخيراً وبوجه خاص، كيف لا نلاحظ أن إحدى مساهمات لينين الاساسية في الواقع السياسي المعاصر تَنتُج، من نواح عدة، من ظاهرة ديالكتكية بعمق: تجاوز حدين Deux termes متناقضين يفعلان الواحد في الآخر فيما ينفيان نفسيهما. هكذا يولد «الحد الثالث (الذي ينقلب نحو الحد الأول.. يستخلص (منه) مضمونه...، بأن ينتزع منه ما كان به ناقصاً، محدوداً، معداً لأن يُنفى.. هكذا يجري تدمير أحادية الجانب وتجاوزها»[١٠٣]. فلنُعد الآن، مسلحين بهذه «الشيفرة»، قراءة التاريخ، وبوجه خاص تاريخ الحزب البلشفي.

لقد رأينا أن الظاهرة الاساسية في عام ١٩١٧ كانت تحوُّل المنظمة اللينينية، الطليعة المغلقة والمتراتبة التي كان ولَّدها النضال ضد القيصرية **وتجاوزها** إلى حزب جديد تكمن ميزته التاريخية في أنه حقق تماهياً سريع العطب لكن مرموقاً مع الطبقة التي كان يؤمِّن تمثيلها(*). لأن الحزب البلشفي اصبح عام ١٩١٧ نقيض سابقه في فترة ما قبل الثورة واستمراره في الوقت ذاته. وما حاول لينين أن يفعله ديالكتيكياً خلال الأسابيع الاولى من حياة النظام السوفياتي، إنما كان حماية المكتَسَب من التجاوز. مذاك فالحزب الشيوعي السوفياتي، بعد وصوله إلى السلطة، قدَّم نفسه كالطليعة المغلقة لبدايات اللينينية وكنقيضها: انفتح على الجماهير لكنه حاول الاحتفاظ ببعض ملامح «نُخْبَويَّتـ»ـه الأصلية وحماية نفسه من أخطار الانتهازية.

كان ذلك بالذات معنى سياسة الانتقاء، والتمرين والتطهير التي نادى بها لينين(**). ومن جهة أخرى، إذا كان «الحد الأول» للتناقض والتجاوز الديالكتيكيين يمكن أن يمثِّل، في المساجلة الكبرى بين أنصار التنظيم وانصار العفوية، بلوكسمبورغية مدفوعة إلى أقصاها وتختلط بالايمان المطلق بتحرر الجماهير الذاتي - وهو موقف لم تتبنَّه روزا لوكسمبورغ، من

(*) انظر اعلاه، ج ٢، ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(**) انظر اعلاه، ج ٢، ص ١٨٣.

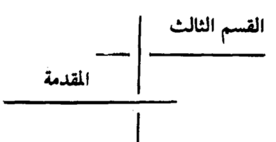
جهتها، يوماً بالكامل ـ، و«الحد الثاني» بتصورٍ نخبوي خالص للحزب والطليعة الثورية تجسده البلانكية أفضل من اللينينة حتى الأولية، ألا يمكن أن نقع على «الحد الثالث» في واقع الحزب البلشفي كما تطور في المرحلة الصاعدة لثورة ١٩١٧، عشية أوكتوبر وغداته؟ يظهـر إذاك كتـأليف تذوب فيه وتتفـاعـل الخصـوصيات المحفـوظـة للبلشفية الأصلية ـ بانضباطها، وإرادة التماسك لديها، ونزعتها إلى المركزية، واهتمامها بالفعالية ـ والميّزات التي تلازم الحركات الشعبية الكبرى والتي تتحدى التأطيرات، والتعليمات الآتية من القمة وحتى تنبؤات الاستراتيجيين الاكثر ثورية.

سواء تعلق الأمـر، في التحليل الأخيـر، بأعظم لحظات اللينينية أو بإنجازاتٍ أقل إذهـالاً، يبـدو الـديالكتيك كالسلاح الذي استخدمه لينين والذي أتقنه اكثر من أيٍّ من مساعديه. أما إيلاؤه إياه أهمية حاسمة فنحن نجد ـ عند الاقتضاء ـ برهاناً أخيراً على ذلك في تقويمه النهائي لبوخارين. ففي «وصيتـ»ـه لم يوفر المدائح لقائد الشيوعيين اليساريين سابقاً: «ليس بوخارين فقط منظِّراً بين الأكثر بروزاً في الحزب وذا قيمة بالغة السمو، بل هو يتمتـع بحق بمحبة الحزب بكامله». لكن لينين أضاف: «لكن وجهات نظره النظرية لا يمكن أن تُعتبر ماركسية تماماً إلا مع الكثير من التحفظ، لأن فيه شيئاً من السكولاستيكية (لم يدرس الديالكتيك يوماً، وأعتقد أنه لم يفهمه أبداً بشكل كامل)(١٠٤)».

ويمكن أن نقول الشيء ذاته وأكثر عن ستالين والستالينية. لاشك أنهما تحلّيا بزخارف الديالكتيك وجعلا من «الديالكتيك المادي» الحقيقة الرسمية للحركة الشيوعية. لكن إذا كانت الممارسـة الستـالينية تذرعت غالبـاً بالـديالكتيك، فالتناقضات التي انطوت عليها والقفـزات المتتـابعة التي قامت بها لم تقدم يوماً مثالاً على أي تجاوز، أو أي تأليف. كان ديالكتيكها فقط التبرير الإيديولوجي والمخادع الذي كانت تختفي تحته زَيَغانات تجريبية قصيرة النظر. وإذا كانت الستالينية، أخيراً، هي اللينينية التي **شوهتها** النزعة القومية، إذا كانت اللينينية **زائد** العسف الاداري، إذا كانت اللينينية زائد الارهاب البيروقراطي؛ فهي أيضاً اللينينية **ناقص** الديالكتيك. إنها إذاً اللينينية وقد **أُنقصت** منها الخميرة التي جعلت منها، حتى في أخـطائهـا ورغم إخفـاقـاتها، أحد مصادر الإلهام الأكثر غنىً للمعركة من أجل الاشتراكية، إحدى المساهمات الأشد خصباً في نضال البشر من أجل تحررهم.

انتهى

المراجع



(١) لينين، **الأعمال**، ج ٢٦، ص ٥٠١ـ٥٠٣.
(٢) المرجع ذاته، ص ٤٨٠.
(٣) المرجع ذاته، ج ٣١، ص ٤٧٢.
(٤) المرجع ذاته، ج ٢٧، ص ٩٨.
(٥) المرجع ذاته، ص ٤٥٧.
(٦) إ. هـ. كار، مرجع مذكور، ج ١١، ص ١٣٤ـ١٣٧.
(٧) ف. سرج، **L'An I de la Révolution russe**، ج١، ص ٩٨، باريس، ١٩٧١.
(٨) ج. سادول، **Notes sur la Révolution bolchevique**، باريس، ١٩٧١، ص ١٤٥.
(٩) ج. يونيان وهـ. فيشر، **The Bolshevik Revolution (1917-1918) Documents and Materials**، ستانفورد، ١٩٣٤، ص ٢٢٦.
(١٠) ب. سوفارين، مرجع مذكور، ص ١٨٧.
(١١) ج. ج. ماري، مرجع مذكور، ص ١٣٣.
(١٢) لينين، **الأعمال**، ج٢٧، ص ٤٢٢.
(١٣) المرجع ذاته، ص ٥٤٧.
(١٤) المرجع ذاته، ج٢٨، ص ٤٦٢.
(١٥) المرجع ذاته، ج ٣٠، ص ٢٣١.
(١٦) المرجع ذاته، ص ٢٣٢.
(١٧) المرجع ذاته، ص ٥٣٧.
(١٨) المرجع ذاته، ج ٣١، ص ٥٢١.
(١٩) المرجع ذاته، ج ٣٢، ص ٣٠٥.
(٢٠) المرجع ذاته، ص ٤٧٥.

الفصل الأول

(١) إ. هـ. كار، مرجع مذكور، ج٢، ص ٤٦.

(٢) ج. شارابوف، مرجع مذكور، ص ١٨٩؛ ف. برايس، My Reminiscences of Russian Revolution، لندن، ١٩٢١، ص ٢٦٥.

(٣) ج. شابوروف، مرجع مذكور، ص ١٤٢.

(٤) لينين، الأعمال، ج٣٣، ص ٣٠٩.

(٥) إ. هـ. كار، مرجع مذكور، ج٣، ص ٢٦؛ ف. سرج، مرجع مذكور، ج١، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٦) أو. رادكلي، The Sickle under the Hammer, the Socialist Revolutionnists in the early months of the Soviet rule نيويورك، لندن، ص ٨٨، و٣٤٣ـ ٣٤٤.

(٧) أ. نوف، An Economic History of the USSR، لندن، ١٩٦٩، ص ٥٤؛ ل. كريتزمان، Die heroische periode der grossen russischen Revolution، فرانكفورت، ١٩٧١، ص ٦٢؛ إ. هـ. كار، مرجع مذكور، ج٢، ص ٨١ ـ ٨٣.

(٨) م. دوب، Soviet Economic Development since 1917، لندن، ١٩٥١، ص ٩٠.

(٩) أ. رانسوم، Six semaines en Russie en 1919، باريس، ١٩١٩، ص ٣٥.

(١٠) ف. سرج، مرجع مذكور، ص ١٠٠.

(١١) س. فيتزباتريك، The Commissariat of Enlightenment, Soviet organization of Education and the Arts under Lunacharsky, October (1917- 1921)، كامبردج، ١٩٧٠، ص ٢٦.

(١٢) ت. هـ. ريغبي، Communist party Membershipin the USSR (1917 - 1967)، برينستون، ١٩٦٨، ص ٦٩.

(١٣) أورد الاستشهاد إ. غيتزلر، مرجع مذكور، ص ١٧٢.

(١٤) ج. ريد، مرجع مذكور، ص ١٨١.

(١٥) ب. برايس، مرجع مذكور، ص ١٥٥.

(١٦) المرجع ذاته، ص ١٩٢.

(١٧) او. آنويلر، مرجع مذكور، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥، ٢٩٨.
(١٨) إ.هـ. كار، مرجع مذكور، ج١، ص ١٣٠.
(١٩) ب. برويه، مرجع مذكور، ص ١٠٨.
(٢٠) إ.هـ. كار، مرجع مذكور، ج١، ص ١٤٦.
(٢١) ل. كريستسيان، مرجع مذكور، ص ١٢٨.
(٢٢) أ. ميير، **Leninism**، نيويورك، ١٩٦٢، ص ١٨٥.
(٢٣) لينين، الاعمال، ج ٢٦، ص ٢٦٩.
(٢٤) المرجع ذاته (م. ذ.) ص ٢٦٩.
(٢٥) م. ذ.، ص ٣٠٠.
(٢٦) م. ذ.، ص ٣١١.
(٢٧) م. ذ.، ص ٣٣١.
(٢٨) م. ذ.، ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧.
(٢٩) م. ذ.، ص ٤٨٩.
(٣٠) م. ذ.، ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩.
(٣١) م. ذ.، ج ٢٧، ص ١٣٥.
(٣٢) م. ذ.، ج ٢٦، ص ٤٨٧.
(٣٣) م. ذ.، ج ٢٧، ص ١٢٦.
(٣٤) م. ذ.، ص ١٤٨.
(٣٥) م. ذ.، ص ١٤٩.
(٣٦) م. ذ.، ج ٢٩، ص ٣٥٩.
(٣٧) م. ذ.، ص ٣٩٤.
(٣٨) م. ذ.، ج ٣١، ص ١٩٢.
(٣٩) م. ذ.، ج ٢٧، ص ١٣٢.
(٤٠) م. ذ.، ص ١٣٣.
(٤١) م. ذ.، ص ١٦٥.
(٤٢) م. ذ.، ص ٢٨٢.
(٤٣) م. ذ.، ص ١٦١.
(٤٤) م. ذ.، ص ٢٨٣.
(٤٥) م. ذ.، ص ١٤٩.
(٤٦) أ. روسمر، **Moscou Sous lénine, Lesorigines du communisme**. باريس، ١٩٥٣، تقديم البير كامو، ص ١٢.
(٤٧) ج. بونيان وهـ. فيشر، مرجع مذكور، ص ٦٥١.
(٤٨) م. ذ.، ص ٦٥٢.
(٤٩) سوبوليف، **History of the October Revolution**، موسكو، ١٩٦٦، ص ٣٩٢.
(٥٠) م. ذ.، ص ٣٩٢.
(٥١) أ. نوف، م.م. (مرجع مذكور)، ص ٥٥.

(٥٢) إ. هـ. كار، م.م.، ج٢، ص ١١٩.
(٥٣) ج. سادول، م.م.، ص ٣١٨.
(٥٤) إ. هـ. كار، م.م.، ص ١٩٣.
(٥٥) لينين، **الاعمال**، ج ٢٨، ص ٦٨.
(٥٦) م. ذ.، ج ٢٩، ص ١٠٣.
(٥٧) س. فيتزباتريك، م.م. ص ٢٨٨.
(٥٨) لينين، **الاعمال**، ج٢٨، ص ١٤١.
(٥٩) م. ذ.، ص ٤٠٠.
(٦٠) م. ذ.، ص ٤٠١.
(٦١) م. ذ.، ج ٢٩، ص ٦٩.
(٦٢) م. ذ.، ج ٢٧، ص ٢٥٣.
(٦٣) م. ذ.، ص ٤١٨- ٤١٩.
(٦٤) م. ذ.، ص ٤٢٦.
(٦٥) م. ذ.، ص ٤٦٦.
(٦٦) م. ذ.، ص ٥١٧.
(٦٧) م. ذ.، ج٢٨، ص ٩٧.
(٦٨) م. ذ.، ج٣٠، ص ٢٣٣.
(٦٩) م. ذ.، ج٢٧، ص ٤٢٠.
(٧٠) م. ذ.، ج ٤٢، ص ١٦٥.
(٧١) م. ذ.، ج ٢٧، ص ٤٠.
(٧٢) م. ذ.، ص ٤١.
(٧٣) م. ذ.، ص ٩٦.
(٧٤) م. ذ.، ص ١٠٦.
(٧٥) م. ذ.، ص ٩٧.
(٧٦) م. ذ.، ص ٢٥٤.
(٧٧) م. ذ.، ص ٣٤٥.
(٧٨) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٣٠.
(٧٩) م. ذ.، ص ١٣١.
(٨٠) م. ذ.، ج ٢، ص ١٨٠.
(٨١) أور الاستشهاد، و. بيتش، م.م.، ص ٧٦.
(٨٢) م. ذ.، ص ٨٠.
(٨٣) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٣٢.
(٨٤) و. بيتش، م.م.، ص ٧٧.
(٨٥) م. ذ.، ص ٧٩.
(٨٦) و. بيتش، م.م.، ص ٩٤.
(٨٧) أورد الاستشهاد إ. دويتشر، **Stalin, a political biography**، لندن، ١٩٦٧، ص ٢١٤.

(٨٨) و. بيينش، م.م.، ص ١٠٢.

(٨٩) ل. شابيرو، **The Origins of Communist Autocracy**، ص ١٧٢.

(٩٠) لينين، **الأعمال**، ج ٣٠، ص ٢٤٣.

(٩١) ف. بوخارين وإ. بريوبراجنسكي، **L'ABC du communisme**، باريس، ١٩٦٣، ص ١٩٤.

(٩٢) اورده او. آنويلر، م.م.، ص ٢٩٧.

(٩٣) أ. رانسوم، م.م.، ص ٦٥.

(٩٤) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ١٨٢.

(٩٥) و. بيينش، م.م.، ص ١١٦-١١٧.

(٩٦) المرجع ذاته، ص ١٢٠-١٣٦.

(٩٧) إ. غيتزلر، م.م.، ص ٢٠١.

(٩٨) لينين، **الأعمال**، ج ٢٦، ص ٢٥٣.

(٩٩) م.ذ.، ص ٥٢٩.

(١٠٠) م.ذ.، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(١٠١) م.ذ.، ص ٢٧٠.

(١٠٢) م.ذ.، ج٤٢، ص ٥٢٨.

(١٠٣) م.ذ.، ص ١٩.

(١٠٤) أو. آنوايلر، م.م.، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(١٠٥) أو. رادكي، **The Elections**، ص ١٦ - ١٧.

(١٠٦) **Les Bolcheviksetex la Révolutions d'October**، ص ٢١٢.

(١٠٧) أو. رادكي، **The Elections**، ص ٤٩.

(١٠٨) م.ذ.، ص ٥٦.

(١٠٩) د. فوتمان، **Civil War in Russia**، لندن، ١٩٦١، ص ٣٦.

(١١٠) **Les Bolcheviks et la Révolution d'Octobre**، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(١١١) لينين، **الأعمال**، ج ٢٦، ص ٣٩٦ - ٤٠٠.

(١١٢) م.ذ.، ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(١١٣) م.ذ.، ص ٣٩٩.

(١١٤) م.ذ.، ص ٤٠٠.

(١١٥) إ. هـ. كار، م.م.، ص ١١٧ - ١٢٠.

(١١٦) أو. آنوايلر، م.م.، ص ٢٧٣.

(١١٧) م.ذ.، ص ٢٦٢، او. رادكي، **The Elections**، ص ٢٤ - ٢٦، ص ٣٦، ص ٥٦.

(١١٨) او. رادكي، **The Elections**، ص ٧٠.

(١١٩) او. رادكي، **The Sickle Under the Hammer**، ص ٢٨٢ - ٢٨٧، ص ٣٥٣-٣٥٤.

(١٢٠) م.ذ.، ص ٣٥٧.

(١٢١) م.ذ.، ص ٢٩٠.

(١٢٢) ب برويه، **La Revolution allemande (1917- 1923)**، باريس ١٩٧١، ص ١٦٩.

(١٢٣) م.ذ.، ص ٢٧٣.

(١٢٤) اورد الاستشهاد ج - ب. نيتل، م.م.، ج٢، ص ٧٢٧.
(١٢٥) م.ذ.، ص ٧٢٨.
(١٢٦) لينين، **الأعمال**، ج ٣٣، ص ٤٩٣.
(١٢٧) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٥١٨.
(١٢٨) م.ذ.، ج ٣٣، ص ١٠٧.
(١٢٩) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٩٨، انظر أيضاً ج ٣٣، ص ١٢.
(١٣٠) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٣٠٩.
(١٣١) م.ذ.، ج ٢٩، ص ١٥٥.
(١٣٢) ل. شابيرو، **The Communist party**، ص ١٨١.
(١٣٣) سوخانوف، م.م.، ص ٦٣١.
(١٣٤) م.ذ.، ص ٦٣٢.
(١٣٥) م.ذ.، ص ٦٣٦.
(١٣٦) م.ذ.، ص ٦٣٧.
(١٣٧) م.ذ.، ص ٦٣٩ - ٦٤٠.
(١٣٨) م.ذ.، ص ٦٤٤ - ٦٤٥.
(١٣٩) م.ذ.، ص ٦٤٦.
(١٤٠) **Les Bolcheviks et la Révolution d'octobre**، ص ١٨١.
(١٤١) م.ذ.، ص ١٨٢.
(١٤٢) م.ذ.، ص ١٨٢.
(١٤٣) لينين، **الأعمال**، ج ٢٦، ص ٢٧٦.
(١٤٤) **Les Bolcheviks et la Révolution d'Octobre**، ص ١٨٩.
(١٤٥) ب. بروبه، **Le Parti Bolchevique**، ص ٩٩.
(١٤٦) **Les Bol.. et la Rév. d'octobre**، ص ١٩٣.
(١٤٧) م.ذ.، ص ٣٣٨.
(١٤٨) م.ذ.، ص ١٩٧.
(١٤٩) ر. ف. دانييلز، **The Conscience of the Revolution**، ص ٦٤.
(١٥٠) م.ذ.، ص ٦٥.
(١٥١) او. رادكي، **The Sickle Under the Hammer**، ص ١٠.
(١٥٢) م.ذ.، ص ٦٦.
(١٥٣) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ١٩٩.
(١٥٤) او. رادكي، **The Sickle Under the Hammer**، ص ٧٢.
(١٥٥) لينين، الاعمال، ج ٢٦، ص ٤٧٦.
(١٥٦) م.ذ.، ج ٢٨، ص ١٧٩.
(١٥٧) م.ذ.، ج ٣٣، ص ١٥٥.
(١٥٨) اورد الاستشهاد م. ليبمان، م.م.، ص ٢٧٢.
(١٥٩) م.م.، ص ٢٧٢.

(١٦٠)أ او. رادكي، **The Sickle Under the Hammer**، ص ٨.

(١٦١) م.ذ.، ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

(١٦٢) م.ذ.، ص ٤٩١.

(١٦٣) إ.هـ.كار، م.م.، ج٢، ص ٤٧.

(١٦٤) أو.رادكي، **The Sickle Under the Hammer**، ص ٢٠٠.

(١٦٥) ج.ر. كينان، **Soviet- American Relations (1917- 1920) Russia leaves the war**، لندن، ١٩٥٦، ج١، ص ٥٢، ٥٦ وما بعدها.

(١٦٦) او. رادكي، **The Sickle Under the Hammer**، ص ٨٨.

(١٦٧) م.ذ.، ص ٣٣٢.

(١٦٨) م.ذ.، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

(١٦٩) ج. بونيان، **Intervention, Civil War and Communisme in Russia (April - December 1918)** بلتيمور، ١٩٣٦، ص ١٨٠.

(١٧٠) ل. فيشر، **Lénine**، ص ١٨١.

(١٧١) ج.بونيان، م.م.، ص ١٨٧.

(١٧٢) م.ذ.، ص ٣٦٤.

(١٧٣) د.فوتمان، م.م.، ص ٢٠٣.

(١٧٤) م.ذ.، ص ١١٧.

(١٧٥) ج. سادول، م.م.، ص ٢٨٧.

(١٧٦) إ.هـ.كار، م.م.، ج١، ص ١٦٤؛ ل. شابيرو، **The Origins of Communist Autocracy**، ص ١٦٤.

(١٧٧) ج. بونيان وم. فيشر، م.م.، ص ١٩٠.

(١٧٨) إ.غيتزلر، م.م.، ص ١٦٨.

(١٧٩) أو.آنوايلر، م.م.، ص ٢٧٠.

(١٨٠) ل. مارتوف وت. دان، **Geshichte der Russischen Sozial Democratie**، ص ٣١١.

(١٨١) ف.سيرج، م.م.، ج١، ص ٩٦.

(١٨٢) إ.فيتزلر، م.م.، ص ١٨٠.

(١٨٣) م.ذ.، ص ١٩٢.

(١٨٤) ل. شابيرو، **The Origins of Communist Autocracy**، ص ١٩٢.

(١٨٥) او. آنوايلر، م.م، ص ٢٨٩.

(١٨٦) م.ذ.، ص ٢٨٩.

(١٨٧) م.ذ.، ص ٢٩٤.

(١٨٨) م.ذ.، ص ٢٩٤.

(١٨٩) د.فوتمان، م.م.، ص ١٠٣ و١١٢.

(١٩٠) إ. غيتزلر، م.م.، ص ١٨٤.

(١٩١) م.ذ.، ص ١٨٩.

(١٩٢) ل. مارتوف وت. دان، م.م.، ص ٣١٣؛ حول كونفرانس تشرين الأول ١٩١٨، انظر أيضاً او. آنوايلر، م.م.، ص ٢٩٤؛ إ. غيتزلر، م.م.، ص ١٨٦ - ١٨٨، وإ. هـ. كار، ج١، ص ١٧١.

(١٩٣) ل. مارتوف وت. دان، م.م. ص ١٧١.

(١٩٤) إ. غيتزلر، م.م. ص ١٨٥.

(١٩٥) و. بيينش، م.م.، ص ١١٦؛ ل. غيتزلر، م.م.، ص ١٩٩؛ إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٧٨.

(١٩٦) او. آنوايلر، م.م. ص ٢٩٤؛ إ. غيتزلر، م.م.، ص ١٩٨.

(١٩٧) أو. آنوايلر، م.م.، ص ٢٩٥.

(١٩٨) أ. رانسوم، م.م.، ص ١٦٥.

(١٩٩) ل. مارتوف وت. دان، م.م.، ص ٣١٨.

(٢٠٠) م.ذ.، ص ٣١٨.

(٢٠١) إ. غيتزلر، م.م.، ص ٢٠١.

(٢٠٢) ل. شابيرو، **The Origins of Communist Autocracy**

(٢٠٣) ب. أفريش، م.م.، ص ١٧٣.

(٢٠٤) م.ذ.، ص ١٧٧ و١٨٧.

(٢٠٥) ف. كابلان، م.م.، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٢٠٦) ب. أفريش، م.م.، ص ١٩٦.

(٢٠٧) م.ذ.، ص ١٨٧.

(٢٠٨) فيشر، م.م.، ص ١٦٥.

(٢٠٩) ب. أفريش، م.م.، ص ١٥٩.

(٢١٠) ف. سيرج، م.م.، ج٢، ص ١١.

(٢١١) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٦١.

(٢١٢) ب. أفريش، م.م.، ص ١٨٤.

(٢١٣) ف. سيرج، **Mémoires d'un Révolutionnaire**، باريس ١٩٥١، ص ٨٥.

(٢١٤) ب. أفريش، م.م.، ص ١٨٨

(٢١٥) ف. سيرج، **L'An I de la Révolution Russe**، ج ٣، ص ١٣٣.

(٢١٦) ف. سيرج، **Mémoires**، ص ١٥٣.

(٢١٧) ب. أفريش، **Kronstadt, 1921**، برينستون، ١٩٧٠.

(٢١٨)* لينين، **الأعمال**، ج ٣٢، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢١٩) م.ذ.، ص ٢٥١.

(٢٢٠) م.ذ.، ص ٢٨٩.

(٢٢١) م.ذ.، ص ٢٩٠.

(٢٢٢) م.ذ.، ص ١٨٤.

(٢٢٣) ل. شابيرو، **The Origins of Communist Autocracy**، ص ٢١٨؛ ب. برويه، **Le parti Bolchevique**، ص ١٥٣.

(٢٢٤) ب. أفريش، **Kronstadt**، ص ٨٩.

(٢٢٥) م.ذ.، ص ٦٤.

(٢٢٦) فولين، م.م.، ص ٢٠٠.

(٢٢٧) ب. أفريش، **Krostadt**، ص ١٢٧.

(٢٢٨) م.ذ.، ص ١٢٤-١٢٥.

(٢٢٩) م.ذ.، ص ١٢٨.

(٢٣٠) م.ذ.، ص ١٤٦.

(٢٣١) **Les Bolcheviks et la Révolution d'October**، ص ١٩٣ و ٢٠١.

(٢٣٢) او. رادكي، **The Sickle Under thé Hammer**، ص ١٤٤.

(٢٣٣) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١١٠.

(٢٣٤) ف. سيرج، **L'An I de la Révolution russe**، ج٢، ص ٦٥.

(٢٣٥) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٢٧ - ١٢٨؛ او. رادكي، **The sickle under the Hammer**، ص ٩٩ - ١٠٠.

(٢٣٦) إ. هـ. كار، م.م. ج١، ص ١٦٣؛ او. رادكي، **The Sickle Under the Hammer**، ص ١٠٨، ج. يونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٣٦٧.

(٢٣٧) هـ. شامبر، **Le Marxisme en union Soviétique**، باريس ١٩٥٥، ص ١٧٤.

(٢٣٨) انظر أدناه.

(٢٣٩) ب. برايس، م.م.، ص ٢٤٦.

(٢٤٠) ل. شابير، **The Origins of Communist Autocracy**، ص ١٠٤.

(٢٤١) ب. برايس، م.م.، ص ٢٦٩؛ إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٤٩.

(٢٤٢) أ. أولام، م.م.، ص ٥٥٤.

(٢٤٣) ب. برايس، م.م.، ص ٢٧٧.

(٢٤٤) م. دوب، م.م.، ص ١٠٧؛ سوبولين، م.م.، ص ٣٧٨.

(٢٤٥) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٦٤.

(٢٤٦) ل. فيشر، م.م.، ص ١٨٢.

(٢٤٧) م.ذ.، ص ١٨٣.

(٢٤٨) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٥٨٥.

(٢٤٩) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ١٨٤؛ ج ٢٨، ص ٥١٦؛ ج ٢٩، ص ٥٣٩؛ ج ٣٢، ص ٥٣٨ وهنا وهناك.

(٢٥٠) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٢٩٤.

(٢٥١) م.ذ.، ص ٢٩٧.

(٢٥٢) ب. برويه، **Le Parti Bolchevique**، ص ١٠٠.

(٢٥٣) لينين، **الاعمال**، ج ٢٧، ص ٢٩٧.

(٢٥٤) ج.ب. نيتل، م.م.، ج٢، ص ٦٤٥ و٦٥٥.

(٢٥٥) م.ذ.، ص ٧٣٢.

(٢٥٦) ب. برويه، **La Révolution Allemande**، ص ١٧٥.

(٢٥٧) ج.ب. نيتل، م.م.، ج٢، ص ٧٧٧ - ٧٧٨.

(٢٥٨) ب. برويه، **La Revolution allemande**، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٢٥٩) إ.هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٧٠.

(٢٦٠) لينين، **الأعمال**، ج٢٧، ص ٢٦٣

(٢٦١) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٩٧.

(٢٦٢) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٥٦٧.

(٢٦٣) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٤٣٢.

(٢٦٤) م.ذ.، ج ٣١، ص٢٠٤.

(٢٦٥) ب. أفريش، **Kronstadt**، ص ١٧٧.

(٢٦٦) ب. أفريش، **The Russian Anarchists**، ص ٢٣٣.

(٢٦٧) ف. سيرج، **Mémoires**، ص ١٣٤؛ انظر أيضاً أ. روسمر م.م.، ص ١٤٢.

(٢٦٨) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ٥٦٣ (إعلان آب ١٩١٩).

(٢٦٩) ل. فيشر، م.م.، ص ١٨٣.

(٢٧٠) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ٥٣٩ وما بعدها.

(٢٧١) م.ذ.، ص ٥٣٩ و ٥٤٣.

(٢٧٢) ج. سادول، م.م.، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٢٧٣) ل. فيشر، م.م.، ص ١٨٤.

(٢٧٤) ف. سيرج، **LÁnl**، ج٣، ص ٣١.

(٢٧٥) ب. برايس، م.م.، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٢٧٦) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ٢٦٧، ٢٩٧، ٤٥٧، ٥٦٣ وهنا وهناك.

(٢٧٧) م.ذ.، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٢٧٨) م.ذ.، ص ٢٩٧. انظر أيضاً ص ٢٨١ وهنا وهناك.

(٢٧٩) م.ذ.، ج ٢٨، ص ١٩٤.

(٢٨٠) م.ذ.، ص ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢٨١) م.ذ.، ص ٢٠٣.

(٢٨٢) م.ذ.، ص ٢١٩.

(٢٨٣) أورد الاستشهاد إ. دويتشر، **The Prophet Armed**، ص ٤٤٧.

(٢٨٤) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ١٨٠.

(٢٨٥) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٢٣٨.

(٢٨٦) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٣٨٣.

(٢٨٧) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٤٥٩ و ٤٦١.

(٢٨٨) م.ذ.، ج ٤٢، ص ٤٣١.

(٢٨٩) م.ذ.، ص ٤٤٣.

(٢٩٠) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٤٦٩، وج٢٩، ص ٥٤٢.

(٢٩١) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٤٦١.

(٢٩٢) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٢٩٣) م.ذ.، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧، ٢٩٩، ٣٠٣.

(٢٩٤) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٣٨٥.

(٢٩٥) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٢٠، ٢٧١ ـ ٢٧٢، ٣٦٢، ٤٥٤، ٣٢٤، ج ٢٨، ص ٦٤.

(٢٩٦) م.ذ.، ج ٣١، ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٢٩٧) م.ذ.، ج ٢٩، ص ١٤٨.

(٢٩٨) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٢٤١.

(٢٩٩) ب. بروية، **Le Parti Bolchevique**، ص ١٧١.

(٣٠٠) ف. سيرج، **Mémoires**، ص ١٨٠.

(٣٠١) م. ليفين، **Le Dernier Conbat de lénine**، باريس ١٩٦٧، ص ١٠١.

(٣٠٢) لينين، الأعمال، ج ٢٧، ص ٢٢٨.

(٣٠٣) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٥٠٨.

(٣٠٤) م.ذ.، ص ٥٤٨ - ٥٤٩.

(٣٠٥) أ. لوناتشارسكي، **Révolutionnary Silhouettes** (الترجمة الانكليزية، لندن ١٩٦٧)، ص ١٣٧.

(٣٠٦) إ. غيتزلر، م.م.، ص ٢٠٧.

(٣٠٧) ج. لونغيه، (العدد ٢٧٧، في ١٩-٢٥ نيسان ١٩٢٣ **La vague**).

(٣٠٨) إ. غيتزلر، م.م.، ص ٢٠٨.

(٣٠٩) ن. كروبسكايا، **Reminiscences on lénin**، موسكو ١٩٥٩، ص ٩٩.

(٣١٠) إ.هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ١٨٣.

(٣١١) ف. سيرج، **Mémoires**، ص ١٢٧.

(٣١٢) ر. بايبس، **The formation of the Soviet Union, Communism and Nationalism (1917-1923)**، كامبريدج (ماس)، ١٩٥٣، ص٢.

(٣١٣) لينين، الأعمال، ج ١٩، ص ١١٣.

(٣١٤) م.ذ.، ج ٢٠، ص ٢٣١.

(٣١٥) م.ذ.، ج ١٩، ص ٤٦٢.

(٣١٦) م.ذ.، ج ٢٠، ص ٤٣٤.

(٢١٧) م.ذ.، ص ٤٧٨.

(٣١٨) م.ذ.، ص ٤٣٦.

(٣١٩) م.ذ.، ص ٤٤٨.

(٣٢٠) م.ذ.، ج ٢١، ص ١٧.

(٣٢١) م.ذ.، ج ٣٥، ص ١٥٠.

(٣٢٢) م.ذ.، ج ٢١، ص ٣٠٤، ٣٢٧، ٣٢٨، ٤٢٩؛ ج٢٢، ص ١٥٨ - ١٦٠، ١٧٩، ٣٧٣؛ ج ٢٣، ص ٥٩ وهنا وهناك.

(٣٢٣) م.ذ.، ج ٤١، ص ٣٧٥.

(٣٢٤) م.ذ.، ج ٢٣، ص ٧٤.

(٣٢٥) ف. سيرج، **L'An I de la Rev. russe**، ج ١، ص ١١٨.

(٣٢٦) لينين، الأعمال، ج ٢٦، ص ٣٦٠ - ٣٦١.

(٣٢٧) إ.هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٢٨٧ - ٢٨٨.

(٣٢٨) م.ذ.، ص ٢٩٤ - ٢٩٧؛ ور. بايبس، **The Formation of the Soviet Union**، ص ٢١١.

(٣٢٩) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٢٦٥.

(٣٣٠) م.ذ.، ص ٢٦٦؛ إ. دويتشر، **Stalin**، ص ١٨٥.

(٣٣١) ر. بايبس، **The Formation of the Soviet Union**، ص ٢١١.

(٣٣٢) م.ذ.، ص ١٨.

(٣٣٣) ر. لوكسمبورغ، **La Révolution russe**، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٣٣٤) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٣٣٨.

(٣٣٥) لينين، **الأعمال**، ج ٣٦، ص ٥٥٨ و٧٢٦.

(٣٣٦) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ٣٦٨.

(٣٣٧) م.ذ.، ص ٣٦٩.

(٣٣٨) م.ذ.، ج ١، ص ٣٧٤.

(٣٣٩) ر. بايبس، **The Formation of the Soviet Union**، ص ١٩٠.

(٣٤٠) م.ذ.، ص ١٧١.

(٣٤١) م.ذ.، ص ١٦٤.

(٣٤٢) م.ذ.، ص ١٧٩.

(٣٤٣) لينين، **الأعمال**، ج ٣٩، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

(٣٤٤) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٢٨٥.

(٣٤٥) م.ذ.، ج ٣٠، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٣٤٦) انظر م.ذ.، مثلاً: ص ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦ وهنا وهناك.

(٣٤٧) ر. بايبس، **The Formation of the Soviet Union**، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧

(٣٤٨) لينين، **الأعمال**، ج ٣٢، ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

(٣٤٩) م.ذ.، ج ٤٥، ص ١٠١.

(٣٥٠) ل. فيشر، **Lenin**، ص ٤٦٠.

(٣٥١) إ. دويتشر، **Stalin**، ص ٢٤٤.

(٣٥٢) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٢٨٥.

الفصل الثاني

(١) إ. دويتشر، **The Age of permanent Revolution** ، نيويورك ١٩٦٤، ص ٣٤.

(٢) ج. بونيان، م.م.، ص ٤٨٢.

(٣) اورد الاستشهاد و. بييتش، م.م.، ص ٢٨.

(٤) انظر في هذا الصدد المرجع ذاته، ص ٤٢ وما بعدها.

(٥) م.ذ.، ص ١٤١.

(٦) ب. برويه، **Le parti Bolchevique** ، ص ١٢٨.

(٧) ل. شابيرو، **The Communist party** ، ص ٢٤٣.

(٨) م. فاينسود، **Smolensk under Soviet Rule** ، كامبريدج (ماس)، ١٩٥٨، ص ٣٩.

(٩) اورد الاستشهاد ج. كيب، - **«October in the Provinces» (in p. price, Revolutionnary Russia, p189)** .

(١٠) ت. ريغبي، م.م.، ص ٦٨ - ٦٩.

(١١) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ١٦٠.

(١٢) و. بييتش، م.م.، ص ١٤٢.

(١٣) م. فاينسود، م.م.، ص ٣٨.

(١٤) م.ذ.، ص ٦.

(١٥) ل. شابيرو، **The Communist party** ، ص ٢٤٢.

(١٦) م.ذ.، ص ٢٤٣؛ ب. برويه، **Le parti Bolchevique** ، ص ١٢٩.

(١٧) ل.شابيرو، **The Communist party** ، ص ٢٤٢.

(١٨) م.ذ.، ص ٢٤٣.

(١٩) **Histoire du parti Communiste de l'Union Soviétique** ، موسكو، ١٩٦٠، ص ٣٥٩.

(٢٠) إ.هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٢٢٢.

(٢١) او. آنوايلر، م.م.، ص ٣٠٢.
(٢٢) و. بيتش، م.م.، ص ١٤٧.
(٢٣) م.ذ.، ص ١٤٩.
(٢٤) ت. ريغبي، م.م.، ص ٧٥.
(٢٥) إ.هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٢١٩.
(٢٦) ب. مايسنر، **Das partei programmder KPDSU (1903-1961)** كولوني، ١٩٦٥ (الطبعة الثالثة)، ص ١٢٢ - ١٢٣.
(٢٧) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٢٢٩.
(٢٨) لينين، الاعمال، ج ٣١، ص ٣٨٢.
(٢٩) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٤٥٨ وج ٣١، ص ٣٨٣.
(٣٠) م.ذ.، ج ٢٧، ص ١٤١.
(٣١) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٥٦٤.
(٣٢) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٣.
(٣٣) م.ذ.، ص ٤٤.
(٣٤) م.ذ.، ص ٣٨٥.
(٣٥) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٣١٢ - ٣٢٠.
(٣٦) م.ذ.،
(٣٧) و. بيتش، م.م.، ص ٧٣.
(٣٨) م.ذ.، ص ١٤٤.
(٣٩) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ١٩٤.
(٤٠) م.ذ.، ج ١.
(٤١) لينين، الأعمال، ج ٣٠، ص ٤٥٩.
(٤٢) م.ذ.، ص ٤٧٩.
(٤٣) تروتسكي، **Mavie**، ص ٣٦٨.
(٤٤) إ. دويتشر، **Stalin**، ص ٢٢٦.
(٤٥) إ.هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ١٩٤.
(٤٦) إ. دويتشر، **Stalin**، ص ٢٣٢.
(٤٧) و. بيتش، م.م.، ص ١٤٢.
(٤٨) ل. شابيرو، **The Origins of Communist Autocracy**.
(٤٩) إ. دويتشر، **The prophet Unarmed**، ص ٣١؛ ل. فيشر، م.م.، ص ٤١٦؛ ب. سوفارين، م.م ص ٢٧٣ - ٢٧٤.
(٥٠) أ. اولام، م.م.، ص ٧١٨.
(٥١) ب. بروبه، م.م.، ص ١٨٠ - ١٨١؛ إ. دويتشر، **The prophet Unarmed**، ص ٩٦ - ٩٨.
(٥٢) ر. دانييلز، **The Conscience of the Revolution**، ص ١٦٥-١٦٦.
(٥٣) **Les Bolcheviks et la Révolution d'October**، ص ٢٤٥.
(٥٤) م.ذ.، ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٥٥) م. ذ.، ٢٥٥- ٢٥٩.

(٥٦) ر. دانييلز، The Conscience of the Revolution، ص ٨٤.

(٥٧) أ. ج. لووي: Die Weltgeschichte ist das Weltgericht; Bucharin: Vision des Kommunismus، فيينا، ١٩٦٩، ص ٩٩.

(٥٨) Les Bolcheviks et la Révolution d'Octobre، ص ٢٣٦.

(٥٩) م. ذ.، ص ٢٣٩.

(٦٠) م. ذ.، ص ٢٣٨.

(٦١) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٥٦٤.

(٦٢) ر. دانييلز، The conscience of the Revolution، ص ٩٤.

(٦٣) م. ذ.، ص ٩٥.

(٦٤) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٨٩- ٩٠، ٩٧، ١١٠- ١١١، ١١٤ ور. دانييلز، The Conscience of the Revolution، ص ٨٤- ٨٦.

(٦٥) و. بييتش، م.م.، ص ٩٩، ور. دانيلز، The Conscience of the Revolution، ص ١٠٤.

(٦٦) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٥٦٣.

(٦٧) ر. دانييلز، The Conscience of the Rev.، ص ٧٩.

(٦٨) ب. برويه، Le parti Bolchevique,، ص ١٣٩؛ ل. شابيرو، The Origins of the Communist Autocracy، ص ٢٣٩- ٢٤٥.

(٦٩) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ١٩٥.

(٧٠) Arbeiter demokratie oder parteidiktatur، هيروسغ، فون ف. كول، ص ١٣٩.

(٧١) ر. دانييلز، The Conscience of the Revolution، ص ٣٨.

(٧٢) ل. شابيرو، The origins of..، ص ٣١٤.

(٧٣) Arbeiter demokratie oder partei diktatur، ص ١٩٢.

(٧٤) ل. شابيرو، The Origins..، ص ٣٣٢.

(٧٥) لينين، الأعمال، ج ٢٧، ص ١٠٢.

(٧٦) م. ذ.، ج ٢٦، ص ٤٧١.

(٧٧) ج. سادول، م.م.، ص ١٨١.

(٧٨) ل. تروتسكي، Ma vie، ص ٣٩٨.

(٧٩) لينين، الأعمال، ج ٢٧، ص ١١.

(٨٠) م. ذ.، ص ١٣.

(٨١) م. ذ.، ص ٤٣.

(٨٢) م. ذ.، ص ٣٤١.

(٨٣) م. ذ.، ص ٣٣.

(٨٤) م. ذ.، ص ٥٩.

(٨٥) م. ذ.، ص ٧٩.

(٨٦) م. ذ.، ص ٣٦٤.

(٨٧) م. ذ.، ص ٧٧.

(٨٨) م.ذ.، ص ٢١ و٣٤٣.

(٨٩) م.ذ.، ص ١٠٧ و٣١٨.

(٩٠) م.ذ.، ص ٢٩٧ و٣٥٤.

(٩١) م.ذ.، ص ٢٩.

(٩٢) م.ذ.، ص ١٥١-١٥٢.

(٩٣) م.ذ.، ص ٢٠٨.

(٩٤) م.ذ.، ج ٣٢، ص ١٨٤، ٢٠٦، ٢٥٦.

(٩٥) م.ذ.، ص ١٠٧.

(٩٦) م.ذ.، ص ١٠٨.

(٩٧) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٣٩.

(٩٨) م.ذ.، ص ٤٤٠.

(٩٩) م.ذ.، ج ٣١، ص ٩٩. (انظر أيضاً ص ٢٥ و٨٦).

(١٠٠) م.ذ.، ج ٢٧، ص ١٢.

(١٠١) قرار جرى التصويت عليه في المؤتمر العاشر (١٩٢١). (أ. أفتورخانوف، م.م.، ص ١٠١).

(١٠٢) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٨٨.

(١٠٣) **Les Bolcheviks et la Rév. d'Oct.**، ص ٣٠٥؛ ن. كروبسكايا، Rem. on lenin ص ٤٤٣.

(١٠٤) و. بيتش، م.م.، ص ٨٨.

(١٠٥) ب. مايسنر، م.م.، ص ٣٠-٣٣.

(١٠٦) أ. لووي، م.م.، ص ١١١.

(١٠٧) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ٨٨ و٩٥.

(١٠٨) لينين، الأعمال، ج ٢٩، ص ١٦٩ و١٨٥-١٨٦ وإ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ٢٦٨-٢٦٩.

(١٠٩) ر. دانييلز، **The Conscience of the Rev.**، ص ١١٦.

(١١٠) م.ذ.، ص ١١٧.

(١١١) ل. شابيرو، **The Origins of the Communist Autocracy**، ص ٢٧٠.

(١١٢) ر. دانييلز، **The Conscience of the Revolution**، ص ١٢٩.

(١١٣) **Arbeiterdemokratie oder parteidiktatur**، ص ٢٣٩.

(١١٤) لينين، الأعمال، ج ٣٢، ص ٣٥.

(١١٥) م.ذ.، ص ٢١٤.

(١١٦) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٥٣٢.

(١١٧) م.ذ.، ج ٢٩، ص ١٩٦.

(١١٨) م.ذ.، ج ٢٧، ص ١٠٨ و١٢٣.

(١١٩) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٠٤.

(١٢٠) م.ذ.، ص ٤٤٤.

(١٢١) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٤٦.

(١٢٢) م.ذ.، ص ٩٠.

(١٢٣) م.ذ.، ج ٣٢، ص ١٠٧.

(١٢٤) ر. دانييلز، The Conscience of the Revolution ، ص ١١٣ و١١٧؛ Arbeiter demokratie oder parteidiktatur ، ص ١٣٧ .

(١٢٥) م.ذ.، ص ١٣١؛ لينين، الأعمال، ج ٣٠، ص ٤٧٩ .

(١٢٦) ل. شابيرو، The Origins of Communist Autocracy ، ص ٢٢٨، إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ٢١٣ .

(١٢٧) ف. سيرج، Vie et Mort de Trotsky ، باريس ١٩٥١، ص ١٣٣؛ أ. روسمر، م.م.، ص ١٧١ .

(١٢٨) Arbeiter demokratie oder parteidiktatur ، ص ٢٢٨ .

(١٢٩) م.ذ.، ص ٢٢٩ .

(١٣٠) م.ذ.، ص ٢٣٣ .

(١٣١) ر. دانييلز، The Conscience of the Rev. ، ص ١٧٧ .

(١٣٢) لينين، الأعمال، ج ٣٢، ص ٢٧ .

(١٣٣) م.ذ.، ص ٢٦ .

(١٣٤) م.ذ.، ص ٦٢ .

(١٣٥) م.ذ.، ص ٣٨ .

(١٣٦) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٢٨٦-٢٨٧ .

(١٣٧) م.ذ.، ج ٣٢، ص ١٧٤ .

(١٣٩) م.ذ.، ص ٢٥٩ .

(١٤٠) م.ذ.، ص ٢٠٩ .

(١٤١) م.ذ.، ص ٢٥٤ .

(١٤٢) م.ذ.، ص ٢٧٢ .

(١٤٣) م.ذ.، ص ٢٧٢ .

(١٤٤) ل. شابيرو، the Origins of the Communist Autocracy ، ص ٢ .

(١٤٥) لينين، الأعمال، ج ٣٢، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(١٤٦) م.ذ.، ص ٢٥٤ .

(١٤٧) م.ذ.، ص ٢٥٥ .

(١٤٨) م.ذ.، ص ٢٥٥ .

(١٤٩) ل. شابيرو، ...The Origins ، ص ٣١٩ .

(١٥٠) لينين، الأعمال، ج ٣٢، ص ٢٧٠ .

(١٥١) م.ذ.، ص ٢٥٨-٢٥٩ .

(١٥٢) ل. شابيرو، ..The Origins ، ص ٣١٩ .

(١٥٣) لينين، الأعمال، ج ٣٢، ص ٢٥٢ .

(١٥٤) م.ذ.، ص ٢٦١ .

(١٥٥) م.ذ.، ص ٢٦٣ .

(١٥٦) م.ذ.، ص ٢٧١ .

(١٥٧) م.ذ.، ص ٢٧٣ .

(١٥٨) م.ذ.، ص ٢٠١ .

(١٥٩) م.ذ.، ص ٢٥٣.
(١٦٠) م.ذ.، ص ٢٥٤.
(١٦١) م.ذ.، ص ٢٥٤.
(١٦٢) ل. تروتسكي، «La2 Révolution Trahie» (in De la Révolution p. 506)
(١٦٣) لينين، الأعمال، ج ٣٢، ص ٢٧٠.
(١٦٤) م.ذ.، ص ٢٧٤.
(١٦٥) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٢٠٤.
(١٦٦) م.ذ.، ص ٢٠٨.
(١٦٧) ر. دانييلز، The Consc. of the Rev.، ص ١٦٣.
(١٦٨) م.ذ.، ص ١٦٧.
(١٦٩) ت. ريغبي، م.م.، ص ٥٢.
(١٧٠) م.ذ.، ص ٨٥.
(١٧١) ل. شابيرو، The Communist Party، ص ٢٣٥.
(١٧٢) م.ذ.، ص ٢٣٧.
(١٧٣) م.ذ.، ص ٢٣٤.
(١٧٤) م.ذ.، ص ٢٣٣.
(١٧٥) لينين، الأعمال، ج ٣٠، ص ٥٨.
(١٧٦) Les Bolcheviks et la Rév. d'Oct.، ص ٢٦٤.
(١٧٧) لينين، الأعمال، ج ٢٨، ص ٥٦.
(١٧٨) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٢٧.
(١٧٩) م.ذ.، ص ٢٦٨.
(١٨٠) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٣٧٨.
(١٨١) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٣٣.
(١٨٢) م.ذ.،
(١٨٣) م.ذ.، ج ٤٢، ص ٣٩٥.
(١٨٤) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٤٩٧.
(١٨٥) ت. ريغبي، م.م.، ص ٨٢.
(١٨٦) لينين، الأعمال، ج ٣٠، ص ٦٧.
(١٨٧) ت. ريغبي، م.م.، ص ٨٤.
(١٨٨) و. بييتش، م.م.، ص ١٢١.
(١٨٩) م.ذ.، ص ١٣٣.
(١٩٠) لينين، الأعمال، ج ٢٩، ص ٢٧.
(١٩١) ت. ريغبي، م.م.، ص ٧٥.
(١٩٢) م.ذ.، ص ٧٠، لينين، الاعمال، ج ٣٢، ص ٢٥٧.
(١٩٣) م.ذ.، ص ٣١. «Sur l'épuration du parti»، أيلول ١٩٢١.
(١٩٤) ت. ريغبي، م.م.، ص ٨٤.

(١٩٥) ل. شابيرو، **The Communist party** ، ص ٢٣٢ .

(١٩٦) لينين، **الأعمال**، ج ٣٢، ص ٢٥٧ ؛ ت. ريغبي، م.م.، ص ١٠٣ .

(١٩٧) ت. ريغبي، م.م.، ص ٩٧.

(١٩٨) أ. بالابانوف، **Impressions on lenin** ، آن آربور، ١٩٦٨، ص ١٣٣ . ف. سيرج، **Mémoires d'un Révolutionnaire** ، ص ٩٠.

(١٩٩) ت. ريغبي، م.م.، ص ٧٥؛ ل. شابيرو، **The origins...** ، ص ٢٢١ .

(٢٠٠) م. فاينسود، م.م.، ص ٣٨.

(٢٠١) د. فوتمان، م.م.، ص ٣٠٤.

(٢٠٢) إ. دويتشر، **The Prophet Unarmed** ، ص ١٥

(٢٠٣) إ. دويتشر، **Soviet Trade - unions, Their place in Soviet labour policy** ، لندن، ١٩٥٠، ص ٥٤.

(٢٠٤) إ. دويتشر، **The prophet Armed** ، ص ٥٠٦ .

(٢٠٥) إ. دويتشر، **The prophet Unarmed** ، ص ٩ .

الفصل الثالث

(١) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ١٢٩.
(٢) ف. انجلز، **L'Anti- Duhring**، باريس، ١٩٥٠، ص ٢١٦.
(٣) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٥٢؛ ج. ريد، م.م.، ص ١٩٧.
(٤) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٥٢.
(٥) ف. سيرج، **L'An I de la Rév.russe**، ج١، ص ٨٠.
(٦) ج. كيب، **October in the provinces**، ص ١٩٠.
(٧) ف. كابلان، م.م.، ص ٦٢.
(٨) م.ذ.، ص ١٩٩.
(٩) ج. ريد، م.م.، ص ٢٩١.
(١٠) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٣٨٧.
(١١) أ. رانسوم، م.م.، ص ١٠٠.
(١٢) لينين، **الأعمال**، ج٤٤، ص ٢٧.
(١٣) اورد الاستشهاد ب. سوفارين، م.م.، ص ٢٣٧.
(١٤) اورد الاستشهاد م. فوفيل، **La Chute de la Monarchie (1789 - 1792)**، باريس، ١٩٧٢.
(١٥) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٥٣.
(١٦) م.ذ.
(١٧) ل. شابيرو، **..The Origins**، ص ١٢٢-١٢٣.
(١٨) ج.و. بيزيمر، **De Russische Revolutie in Westerse ogen**، امستردام، ١٩٥٦، ص ٢٧٨.
(١٩) ف. سيرج، **L'An I**، ج١، ص ٢١٤.
(٢٠) اورد الاستشهاد ب. فروليش، **Rosa luxemburg**، لندن، ١٩٤٠، ص ٢١٦

(٢١) ب. سوفارين، م.م.، ص ٢٠٧.

(٢٢) سوبوليف، م.م.، ص ٣٢٨؛ ل. فيشر، م.م.، ص ١٨١؛ ف. سيرج، **Vie et Mort de Trotsky**، ص ١١٠.

(٢٣) ف. سيرج، **L'An I de la Rév**، ج٢، ص ٩٣.

(٢٤) م.ذ.، ص ٩٨.

(٢٥) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٦٨.

(٢٦) ف. سيرج، **L'An I**، ج٢، ص ٩٩-١٠٠.

(٢٧) م.ذ.، ص ١١٨.

(٢٨) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ١٦٨.

(٢٩) إ. دويتشر، **The prophet armed**، ص ٤٥٩.

(٣٠) ف. سيرج، **Mémoires d'un Révolutionnaire**، ص ١١٤.

(٣١) ج. بونيان، م.م.، ص ٣٠٤.

(٣٢) م.ذ.، ص ٢٦١.

(٣٣) لينين، **الأعمال**، ج ٢٨، ص ٤٠٦.

(٣٤) ج. بونيان، م.م.، ص ٣٠٤.

(٣٥) م.ذ.، ص ٢٦١.

(٣٦) ف. سيرج، **L'An I**، ج٣، ص ٢٣.

(٣٧) لينين، **الأعمال**، ج ٢٦، ص ٣٠٦.

(٣٨) ل. تروتسكي، **Lénine**، باريس، ١٩٧٠، ص ١٣٠.

(٣٩) لينين، **الأعمال**، ج٢٦، ص٤٢٥.

(٤٠) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٢٤٠.

(٤١) م.ذ.، ج٢٧، ص ٣٦٠؛ ج ٣٥، ص ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٩٨؛ ج٤٤، ص١١٨ وهنا وهناك.

(٤٢) **«Lettres à Maxime Gorki»** في ١٩١٩/٩/١٥، ج٤٤، ص ٢٨٤؛ انظر أيضاً ج ٢٦، ص ٤١٩.

(٤٣) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤١٠.

(٤٤) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٢٥.

(٤٥) م.ذ.، ص ٢٤٠.

(٤٦) م.ذ.، ص ٤٣١.

(٤٧) م.ذ.، ج ٣٥، ص ٣٥٦.

(٤٨) م.ذ.، ج ٤٢، ص ١٠٥.

(٤٩) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٥١٤.

(٥٠) م.ذ.، ج ٤٤، ص ٢٧٥.

(٥١) م.ذ.، ص ١٢٥.

(٥٢) م.ذ.، ج ٢٩ ص ١٦٥.

(٥٣) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٥١٥.

(٥٤) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٥٥٠.

(٥٥) م.ذ.، ج ٤٥، ص ١٨٣.

(٥٦) م.ذ.، ج ٣٥ ص ٣٧٣ـ ٣٧٤، ج ٣٦ ص ٥٧٣.

(٥٧) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٥٤٢.

(٥٨) م.ذ.، ج ٤٢ ص ١٦٢.

(٥٩) م.ذ.، ج ٣٣، ص ١٧٧.

(٦٠) م. غوركي، لينين والفلاح الروسي، باريس ١٩٢٤، ص ٨٦.

(٦١) ل. فيشر، مرجع مذكور، ص ٢٤٧.

(٦٢) ف. سيرج **Mémoires d'un révolutionnaire** ص ١٤٤.

(٦٣) د. شوب، مرجع مذكور، ص ٣٨٧.

(٦٤) ل. تروتسكي **Ma vie** ص ٤٣٠.

(٦٥) ر. لوكسمبورغ **La Révolution russe** ص ٦٥.

(٦٦) **E. H. Carr**، مرجع مذكور، ج١، ص ١٤٩.

(٦٧) **W. Pietsch**، مرجع مذكور، ج١، ص ٩٥.

(٦٨) ج. بونيان، مرجع مذكور، ص ٢٦١.

(٦٩) م.ذ.، ص ٢٣٢.

(٧٠) **W. Pietsch**، مرجع مذكور، ص ٩٦.

(٧١) م.ذ.، ص ١١٤.

(٧٢) لينين الأعمال، ج ٢٥، ص ٥٠١.

(٧٣) م.ذ.، ص ٤٦٠.

(٧٤) م.ذ.، ص ٤٦١، ٥١١.

(٧٥) م.ذ.، ص ٥٢٧.

(٧٦) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٤١.

(٧٧) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٢٩ـ ٤٣٠.

(٧٨) م.ذ.، ص ٣٠٧.

(٧٩) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٤٥٩.

(٨٠) او. آنوايلر، م.م.، ص ٢٧٦.

(٨١) و. بيتش، م.م.، ص ٦٠.

(٨٢) إ. هـ. كار، م.م.، ج٢، ص ١٨٧.

(٨٣) أ. ستاوار، **Libres essais marxistes**، باريس ١٩٦٣، ص ٥٥

(٨٤) لينين، الأعمال، ج ٢٩، ص ١٧٩.

(٨٥) م.ذ.، ص ٧١.

(٨٦) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٤٢٧.

(٨٧) م.ذ.، ج ٢٩، ص ١٧٩.

(٨٨) م.ذ.، ج ٣١، ص ١٨٠.

(٨٩) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٣٨٧.

(٩٠) ل. كريتسمان، م.م.، ص ٢٣٤.

(٩١) لينين، الأعمال، ج ٣٣، ص ٢٩٣ـ ٢٩٤.

(٩٢) إ. هـ. كار، م.م.، ج٢، ص ١٨٣-١٨٤.

(٩٣) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ١٥٦؛ ج ٣٠، ص ٣١٠ وهنا وهناك.

(٩٤) ف. سيرج، **L'An I**، ج ٣، ص ٥٤.

(٩٥) و. بيبتش، م.م.، ص ١٣٧.

(٩٦) أ. ستاوار، م.م.، ص ٥٣.

(٩٧) ف. كابلان، م.م.، ص ٢٩٨.

(٩٨) لينين، **الأعمال**، ج ٢٨، ص ٤١٣.

(٩٩) م.ذ.، ص ٤٢٥.

(١٠٠) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٨٠.

(١٠١) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٢٤٣.

(١٠٢) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٥٧٨.

(١٠٣) م.ذ.، ص ٥٧٢.

(١٠٤) م.ذ.، ج ٢٩، ص ١٧٧ و١٨١.

(١٠٥) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٣٧٤.

(١٠٦) م.ذ.، ص ٤٤٠.

(١٠٧) م.ذ.، ص ٦٣.

(١٠٨) م.ذ.، ج ٣٥، ص ٥٠٦.

(١٠٩) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٤١٦.

(١١٠) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٣٤٤.

(١١١) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٥١١.

(١١٢) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٣٦٢-٣٦٥ ومذكرة إلى ستالين في آذار ١٩١٩ (م.ذ. ص ٥١١).

(١١٣) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٤٠٠-٤٢٦.

(١١٤) إ. هـ. كار، م.م.، ج ١، ص ٢٢٦؛ لينين، **الأعمال**، ج ٣٠، ص ٣١٠.

(١١٥) لينين، **الأعمال**، ج ٣٦، ص ٦٠٩.

(١١٦) إ. هـ. كار، م.م.، ج١، ص ٢٢٧.

(١١٧) لينين، **الأعمال**، ج ٤٥، ص ٤٤٧.

(١١٨) م.ذ.، ص ٥١١.

(١١٩) ل. تروتسكي، **«La révolution défigurée»** في **De la Révolution** ص ١٦٥.

(١٢٠) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ١٨١.

(١٢١) م.ذ.، ج ٣٢، ص ١٣٦.

(١٢٢) م.ذ.، ص ١٤٦.

(١٢٣) م.ذ.، ص ١٥٠.

(١٢٤) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٧٢.

(١٢٥) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٥٧٩.

(١٢٦) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٤٨٥.

(١٢٧) ل. فيشر، م.م.، ص ٤١٠.

(١٢٨) ج. بونيان، The origin of forced la bor in the Soviet state (1917- 1921) «Documents and Materials» ، بلتيمور، ١٩٦٧، ص ٨٣.
(١٢٩) لينين، الأعمال، ج ٤٥، ص ٤٥٣.
(١٣٠) م.ذ.، ص ٤٨٣.
(١٣١) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٥٧٨.
(١٣٢) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٥٣٤.
(١٣٣) م.ذ.، ص ٦٢٠.
(١٣٤) م.ذ.، ص ٤٣٣.
(١٣٥) م. ويبر، Essays in Sociology ، نيويورك، ١٩٥٨، ص ٢١٤-٢١٥.
(١٣٦) هـ. شامبر، م.م.، ص ٦١ و٦٩٠.
(١٣٧) م.ذ.، ص ٦٢.
(١٣٨) م.ذ.، ص ٧١.
(١٣٩) م.ذ.، ص ٧٢.
(١٤٠) لينين، الأعمال، ج ٢٨، ص ١٨٤.
(١٤١) م.ذ.، ص ١٨٥.
(١٤٢) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٢٩١.
(١٤٣) هـ. شامبر، م.م.، ص ١٧٥.
(١٤٤) م.ذ.، ص ١٧٣.
(١٤٥) م.ذ.، ص ١٧٦.
(١٤٦) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٢٨٨.
(١٤٧) او. آنوايلر، م.م.، ص ٢٧٨.
(١٤٨) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٢٩١.
(١٤٩) ن. كروبسكايا، Reuiniscences on lenin ، ص ٣٩٦-٣٩٧.
(١٥٠) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م.، ص ٢٨٩.
(١٥١) م.ذ.، ص ٢٩٠ - ٢٩١.
(١٥٢) أ. ميير، م.م.، ص ١٨٦.
(١٥٣) س. فيتزباتريك، م.م.، ص ٢٨٨.
(١٥٤) م.ذ.، ص ١٣٩ و١٥٦ - ١٥٧.
(١٥٥) م.ذ.، ص ١٢٥.
(١٥٦) م.ذ.، ص ٢٣٩.
(١٥٧) م.ذ.، ص ١٥٧.
(١٥٨) أ. رانسوم، م.م.، ص ٣٩ - ٤٠.
(١٥٩) م.ذ.، ص ٤٠.
(١٦٠) م.ذ.، ص ٤٠.
(١٦١) س. فيتز باتريك، م.م.، ص ٩٢.
(١٦٢) م.ذ.، ص ٩٦.

(١٦٣) م.ذ.، ص ٩٢.
(١٦٤) م.ذ.، ص ٩٦.
(١٦٥) م.ذ.، ص ١٠٦.
(١٦٦) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ٣٧٦.
(١٦٧) س. فيتزباتريك، م.م.، ص ١٧٨.
(١٦٨) ك. زيتكين، **Reminiscences of lenin**، لندن ١٩٢٩، ص ١٤.
(١٦٩) لينين، **الأعمال**، ج ٣٣، ص ٢٢٦.
(١٧٠) م.ذ.، ج ٤٥، ص ١١٤.
(١٧١) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٣٢٧.
(١٧٢) س. فيتزباتريك، م.م.، ص ١٧٧.
(١٧٣) م.ذ.، ص ١٧٩ - ١٨٠.
(١٧٤) م.ذ.، ص ٢٧١.
(١٧٥) م.ذ.، ص ٤٩.
(١٧٦) م.ذ.، ص ٢٧٦ وما بعدها.
(١٧٧) م.ذ.، ص ٢٨٩.
(١٧٨) لينين، **الأعمال**، ج ٢٦، ص ٣٤٧.
(١٧٩) س. فيتزباتريك، م.م.، ص ٣٠٧.
(١٨٠) لينين، **الأعمال**، ج ٣٣، ص ٧٠.
(١٨١) م.ذ.، ص ١٠١، ٢٤٨، ٣١٤، ٣١٧ وهنا وهناك.
(١٨٢) م.ذ.، ص ٤٨٨.
(١٨٣) م.ذ.، ص ٥٠١.
(١٨٤) م.ذ.، ص ٢٩ - ٣٠.
(١٨٥) ج. بونيان، م.م.، ص ٥٤٣.
(١٨٦) م. ديوار، **labour policy in the USSR (1917-1928)**، لندن، نيويورك، ١٩٥٦، ص ٦٩
(١٨٧) ج. بونيان، م.م.، ص ٥٩٥ ٥٩٦.
(١٨٨) م.ذ.، ص ٥٣٢ - ٥٣٣.
(١٨٩) م.ذ.، ص ٥٣٨ - ٥٣٩.
(١٩٠) م.ذ.، ص ٥٩٦.
(١٩١) م.ذ.، ص ٥٩٩.
(١٩٢) م.ذ.، ص ٥٣٤ - ٥٣٥؛ س. فيتزباتريك، م.م. ص ٧٧.
(١٩٣) س. فيتزباتريك، م.م.، ص ٧٤ و٨٥.
(١٩٤) م.ذ.، ص ١٢ و ٣٥.
(١٩٥) م. فاينسود، م.م.، ص ٣٤٣.
(١٩٦) س. فيتزباتريك، م.م.، ص ٧٤، ٧٨ و٨٥.
(١٩٧) لينين، الأعمال، ج ٣٣، ص ٤٧٤ - ٤٧٥.
(١٩٨) ف. سيرج، **Mémoires d'un Révolutionnaire**، ص ١٣٠.

(١٩٩) ن. بوخارين وإ. بريوبراجنسكي، م.م.، ص ٢٣٩.
(٢٠٠) لينين، **الأعمال**، ج ٢٦، ص ٢٤٦ و٢٥٣.
(٢٠١) ج. بونيان وهـ. فيشر، م.م. ص ٣٠٨.
(٢٠٢) ف. كابلان، م.م.، ص ٦٦ و٦٧.
(٢٠٣) إ. دويتشر، **Soviet Trade- Unions**، ص ١٦؛ ف. كابلان، م.م.، ص ١٦٣.
(٢٠٤) ب. أفريش، **The Russian Anarchists**، ص ١٦١.
(٢٠٥) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ٦٨.
(٢٠٦) **Arbeiterdewokratie oder parteidiktatur**، ص ١٠٩.
(٢٠٧) ف. كابلان، م.م.، ص ١٤٥.
(٢٠٨) ف. كابلان، م.م.، ص ١٨٢. م. ديوار، م.م. ص ٢٠.
(٢٠٩) أ. لوزوفسكي، **The Trade- Unions in Soviet Russie**، موسكو، ١٩٢٠، ص ٢٣ - ٢٤.
(٢١٠) ف. كابلان، م.م.، ص ١٧٢، ١٧٩، ١٨١.
(٢١١) ب. سورلين، م.م.، ص ٦٢.
(٢١٢) سوبوليف، م.م.، ص ٣٠٠ - ٣٠١.
(٢١٣) ف. كابلان، م.م.، ص ١٢٩.
(٢١٤) أ. نوف. م.م.، ص ٥٠؛ إ. هـ. كار، م.م. ج٢، ص ٧٠؛ **Labour Conditions in Soviet Russia, International labour Office**، لندن، ١٩٢٠، ص ٢٤١.
(٢١٥) ر. لابري، **L'Industrie et la Révolution**، باريس، ١٩١٩، ص ١٨٠.
(٢١٦) **International labour office**، م.م.، ص ٢٤١.
(٢١٧) ب. برايس، م.م.، ص ٢١٢.
(٢١٨) ر. لابري، م.م.، ص ١٩٤.
(٢١٩) ن. كروبسكايا، **Reminiscences on lenin**، ص ٤٦٠ - ٤٦١
(٢٢٠) م. ديوار، م.م.، ص ١٩؛ ف. كابلان، م.م.، ص ١٧٥ و١٩٢؛ ب. أفريش، **The Russian anarc- hists**، ص ١٦٢.
(٢٢١) ف. كابلان، م.م.، ص ٣٢٧.
(٢٢٢) ب. أفريش **The Russian Anarchists**، ص ١٦٢.
(٢٢٣) ل. تروتسكي، **Ma vie**، ص ٣٤٦.
(٢٢٤) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ٢٠٦.
(٢٢٥) م.ذ.، ٢٦٦، ٢٦٨.
(٢٢٦) م.ذ.، ص ٣٠٨.
(٢٢٧) م.ذ.، ص ٢٦٨، ٢٦٩؛ انظر أيضاً م.ذ.، ص ٣٢٩ وج٤٢ ص ٧٢؛ ب. برايس، م.م.، ص ٢٨٢ - ٢٨٣؛ ... **Arbeiterdemokratie**، ص ١٠٣ - ١٠٤.
(٢٢٨ ب. أفريش، **Kranstadt**، ص ٢٩.
(٢٢٩ لينين، **الأعمال**، ج ٢٠، ص ١٥٥.
(٢٣ ب. برويه، م.م.، ص ١١٠.
(٢٢ ا. هـ. كار، م.م.، ج٢، ص ١٨٨.

(٢٣٢) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ٢٨٥ .

(٢٣٣) م.ذ.، ص ٢٢٠ .

(٢٣٤) م.ذ.، ص ٣٣٠، انظر أيضاً ج ٢٩، ص ٤٤٢، وج ٣٠، ص ١٣٩ .

(٢٣٥) ف. كابلان، م.م.، ص ٣٢٨، إ. دويتشر، **Soviet trade- Unions** ص ٣٤ .

(٢٣٦) لينين، **الأعمال**، ج ٣٣، ص ٢٨٠ .

(٢٣٧) م.ذ.، ص ١٧١ .

(٢٣٨) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٣٥ .

(٢٣٩) م.ذ.، ج ٢٧، ص ١٦٤ .

(٢٤٠) ج.ذ.، ص ٣٠٤.

(٢٤١) م.ذ.، ص ٣٠٥.

(٢٤٢) م.ذ.، ص ٣٠٦.

(٢٤٣) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٣١٥، و٥٢٢ .

(٢٤٤) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤١١ .

(٢٤٥) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٥٦؛ انظر أيضاً م.ذ. ص ٥٩ و٧٣ .

(٢٤٦) م.ذ.، ص ١١٥ .

(٢٤٧) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٥٢٣. انظر أيضاً ج ٢٧، ص ٢٣٢ و٤٤١؛ ج ٢٩، ص ٣٧٦ و٤٤٥

(٢٤٨) انظر بوجه خاص م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٢٣ -٤٣٢ .

(٢٤٩) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤١٦ .

(٢٥٠) م.ذ.، ص ٤٧٣ .

(٢٥١) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٣٤٣ .

(٢٥٢) م.ذ.، ص ٣٢٦ .

(٢٥٣) ب. برايس، م.م.، ص ٢٨٠ .

(٢٥٤) م. ديوار، م.م.، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢٥٥) م.ذ.، ص ٤١ و٤٤ .

(٢٥٦) هـ. شامبر، م.م.، ص ١٠٠ .

(٢٥٧) إ. دويتشر، **The prophet Armed** .

(٢٥٨) م. دوب، ص ١٠٧؛ م. ديوار، م.م. ص ٤٧؛ إ. هـ. كار، ج٢، ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢٥٩) إ. دويتشر، **The prophet armed** ، ص ٥٠١ - ٥٠٢ .

(٢٦٠) ل. تروتسكي، **Terrorisme et Communisme** ، ص ٢١٢ .

(٢٦١) م.ذ.، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٢٦٢) ب. برويه، **Le parti bolchevique** ، ص ١٤١ .

(٢٦٣) ن. بوخارين وإ. بريوبراجنسكي، م.م.

(٢٦٤) ف. كابلان، م.م.، ص ٢٥٠ .

(٢٦٥) م. ديوار، م.م.، ص ٢٨ .

(٢٦٦) م.ذ.،

(٢٦٧) إ. هـ. كار، م.م.، ج٢، ص ١٠٥ .

(٢٦٨) إ. دويتشر، **Soviet Trade- Unions** ، ص ٢٤.

(٢٦٩) ف. كابلان، م.م.، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٢٧٠) ج. بونيان، م.م.، ص ٤٠٢.

(٢٧١) إ. هـ. كار، م م.، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢٧٢) إ. دويتشر، **Soviet Trade- Unions** ، ص ٤٨.

(٢٧٣) ج. بونيان، م.م.، ص ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢٧٤) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ٢٦٧.

(٢٧٥) م.ذ.، ص ٣٠٣.

(٢٧٦) م.ذ.، ج ٣٣، ص ١٨٦.

(٢٧٧) م.ذ.، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢٧٨) م.ذ.، ص ١٨٩.

(٢٧٩) ف. كابلان، م.م.، ص ٢٠٦.

(٢٨٠) إ. هـ. كار، م.م.، ص ١٠٦.

(٢٨١) **International labour office** ، م.م. ص ١٨٨ ـ ١٩٠.

(٢٨٢) إ. دويتشر، **Soviet Trade- Unions** ، ص ٢٢.

(٢٨٣) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٢٨٤) لينين، **الأعمال**، ج ٣٢، ص ٧٨.

(٢٨٥) م.ذ.، ص ٤٩.

(٢٨٦) ر. دانييلز، م.م.، ص ١٢٢.

(٢٨٧) لينين، **الأعمال**، ج ٣٢، ص ٣٧.

(٢٨٨) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ٢٢٥

(٢٨٩) م.ذ.، ص ٢٢٦.

(٢٩٠) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ١٠٩.

(٢٩١) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٥ ـ ٤٦.

(٢٩٢) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٤٤٨ وج ٣١، ص ٤٥.

(٢٩٣) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٧٢.

(٢٩٤) م.ذ.، ج ٣٢، ص ١٢.

(٢٩٥) أ. ستاوار، م.م.، ص ٥٠.

(٢٩٦) لينين، **الأعمال**، ج ٣٢، ص ٣١ ـ ٣٤.

(٢٩٧) م.ذ.، ج ٣٣، ص ١٨٧.

(٢٩٨) ف. سيرج، **L'An I** ، ج ٢، ص ٥٢.

(٢٩٩) م. دوب، م.م.، ص ١٠٠، إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ٢٤٢؛ ب. أفريش، **Kronstadt** ، ص ٢٣.

(٣٠٠) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ٢٤١.

(٣٠١) ب. برايس، م.م.، ص ٢٠٨.

(٣٠٢) م. فاينسود، م.م.، ص ٤٣.

(٣٠٣) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ٤٥١ .

(٣٠٤) أ. ج. لووي. م.م.، ص ١١٦ .

(٣٠٥) ف. سيرج، **Mémoire d'un Révolutionnaire** ، ص ١٣٠ .

(٣٠٦) أ. رانسوم، م.م.، ص ٩١.

(٣٠٧) ب. سورلين، م.م.، ص ٧٤ .

(٣٠٨) م.ذ.

(٣٠٩) ل. كريتسمان، م.م.، ص ٢٨٦؛ م. ديوار، م.م.، ص ٩٤ .

(٣١٠) ل. كريتسمان، م.م.، ص ٢٧٣ .

(٣١١) ف. سيرج، **L'An I** ، ج ١، ص ١٢٦ .

(٣١٢) م.ذ.، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٣١٣) ل. كريتسمان، م.م.، ص ٢٦٥ و٢٧٣ .

(٣١٤) م. ديوار، م.م.، ص ٣٧؛ و. بيبتش، م.م.، ص ١٠٥؛ ب. افريش، **Kronstadt** ، ص ٢٦، إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ١٩٢ ـ ١٩٥ .

(٣١٥) ل. كريتسمان، م.م.، ص ٨٩ .

(٣١٦) م.ذ.، ص ٨٤.

(٣١٧) م.ذ.، ص ٢٥٢، إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ١٩٤، إ. دويتشر، **Soviet Trade- Unions** ، ص ١٧٢ .

(٣١٨) ب. أفريش، **Kronstadt** ، ص ٤٢ .

(٣١٩) م. فاينسود، م.م.، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٣٢٠) ل. كريتسمان، م.م.، ص ٢٩٧ .

(٣٢١) م. ديوار، م.م.، ص ٨٠.

(٣٢٢) ف. سيرج، **Mémoires d'un Révolutionnaire** ، ص ١٣٠ .

(٣٢٣) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ٢٤٣ .

(٣٢٤) لينين، **الأعمال**، ج ٣٣، ص ٥٩ .

(٣٢٥) م.ذ.، ج ٣٠، ص ١٠٨ .

(٣٢٦) ل. فيشر، م.م.، ص ١٩٢ .

(٣٢٧) ل. كريتسمان، م.م.، ص ٢٩٠ .

(٣٢٨) ج. ايريكسون **The origins of the Red Army in Revolutionary Russia** ، ص ٢٤٨ .

(٣٢٩) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٦٦.

(٣٣٠) ل. شابيرو **The Origins of the Communist Autocracy** ، ص ٢٤٠ .

(٣٣١) د. فيدوتوف ـ وايت، **The Growth of the Red Army** ، برينستون، ١٩٤٤، ص ٥٦ .

(٣٣٢) م.ذ.، ص ١٠٦ .

(٣٣٣) م.ذ.، ص ١٠٥ .

(٣٣٤) ج. ايريكسون، م.م.، ص ٢٥٨ .

(٣٣٥) د. فيدوتوف ـ وايت، م.م.، ص ١١٥ .

(٣٣٦) س. فيتزباتريك، م.م.، ص ٧٩ ـ ٨٠ و٨٧.

(٣٣٧) ب. سورلين، م.م.، ص ٧٥.

(٣٣٨) إ. دويتشر، **Soviet Trade- Unions**، ص ٢٢؛ International labour office، م.م.، ص ١٧٧ ـ ١٧٨؛ م. ديوار، م.م.، ص ٧٢؛ لوزوفسكي، م.م.، ص ٣٣؛ كار، م.م.، ج ٢، ص ١٩٩.

(٣٣٩) إ. ش. كار، م.م.، ج ٢، ص ١١٣؛ لينين، **الأعمال**، ج ٤٢، ص ١٩، كان المسكن الذي يحوزه مفوضو الشعب محدوداً بغرفة للشخص (المرجع ذاته).

(٣٤٠) لينين، **الأعمال**، ج ٣٥، ص ٣٣٩.

(٣٤١) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٢، ص ١١٣.

(٣٤٢) كريتسمان، م.م.، ص ٣٣٧.

(٣٤٣) إ. هـ. كار، م.م.، ج٢، ص ٢٠٧، ٢٦٠، ٢٦٣.

(٣٤٤) م. ديوار، م.م.، ص ٣١.

(٣٤٥) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ٣٠.

(٣٤٦) م.ذ.، ص ١١٠.

(٣٤٧) ن. بوخارين وإ. بريوبراجنسكي، م.م.، ص ٢٨٠.

(٣٤٨) أ. أفتوخانوف، م.م.، ص ٨٣؛ كار، م.م.، ج ٢، ص ٣٢٠.

(٣٤٩) لينين، **الأعمال**، ج ٢٦، ص ٣٨٢.

(٣٥٠) م.ذ.، ص ٤١٩، ج ٢٧، ص ١٤٠؛ ج ٢٨، ص ٢٤٣، ـ ٢٤٤ وهنا وهناك.

(٣٥١) م.ذ.، ج ٣١، ص ٣٩.

(٣٥٢) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٣٥٣) ن. بوخارين وإ. بريوبراجنسكي، م.م.، ص ٩٧.

(٣٥٤) لينين، **الأعمال**، ج ٢٨، ص ٢٥٠.

(٣٥٥) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٥٦٤.

(٣٥٦) م.ذ.

(٣٥٧) م.ذ.، ص ٧٩.

(٣٥٨) م.ذ.، ج ٢٨، ص ١٥٦.

(٣٥٩) م.ذ.، ص ١٨٢.

(٣٦٠) م.ذ.، ص ٤٤٧.

(٣٦١) م.ذ.، ص ٣٠٢، ج ٣٠، ص ١٢٥، ج ٣٢، ص ١٢٠.

(٣٦٢) م.ذ.، ج ٣٢، ص ١٣.

القسم الرابع

الفصل الأول

(١) ر. لوكسمبورغ، م.ذ.، ص ٧١.
(٢) لينين، **الأعمال**، ج ٢٧، ص ٣٦١.
(٣) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٠٦.
(٤) م.ذ.، ص ٤٩٢.
(٥) م.ذ.، ص ٤٩٤.
(٦) م.ذ.، ص ٢٤٦.
(٧) م.ذ.، ص ٣٠٣.
(٨) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤١١ - ٤١٢.
(٩) م.ذ.، ج ٣٣، ص ١٤٣.
(١٠) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٦٣.
(١١) م.ذ.، ص ٤٩٢.
(١٢) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٦٠.
(١٣) م.ذ.، ص ٩١.
(١٤) م.ذ.، ص ٩٥.
(١٥) م.ذ.، ص ٥٨٠.
(١٦) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٢١٠.
(١٧) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤١٣.
(١٨) م.ذ.، ص ٤٢٦.
(١٩) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٣٤٠.
(٢٠) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٣٥٠ وما بعدها.

(٢١) م.ذ.، ج ٣٢، ص ١١٥.
(٢٢) م.ذ.، ص ٢٣٦.
(٢٣) م.ذ.، ص ٣٥٥.
(٢٤) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٤٣٨.
(٢٥) م.ذ.، ج ٢٨، ١٥٣.
(٢٦) م.ذ.، ج ٢٩، ص ١٩١.
(٢٧) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٣٧٢.
(٢٨) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٣١٥.
(٢٩) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٦٣.
(٣٠) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٣٠٤.
(٣١) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٦٢.
(٣٢) م.ذ.، ص ٥١٧.
(٣٣) م.ذ.، ج ٢٨، ص ١٦٨.
(٣٤) م.ذ.، ص ١٢٣.
(٣٥) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٣٥٥.
(٣٦) ن. كروبسكايا، **Reminiscences on lenin**، ص ٤٨٩.
(٣٧) ب. برايس، م.م.، ص ٣٤٥.
(٣٨) لينين، **الأعمال**، ج ٣٠، ص ٤٣٠.
(٣٩) م.ذ.، ص ٥٠٩؛ انظر أيضاً ج ٣٣، ص ١٤٣.
(٤٠) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٩ وج ٣٣، ص ١١٦.
(٤١) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٢٦٠.
(٤٢) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٥١٨.
(٤٣) م.ذ.، ج ٣١، ص ٣٨١.
(٤٤) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٦٦.
(٤٥) انظر مثلاً ج ٣٣، ص ٣٥٦ و٥١٣ ـ ٥١٥.
(٤٦) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٤١٣.
(٤٧) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٣٠٠.
(٤٨) م.ذ.، ص ٤٢٤.
(٤٩) م.ذ.، ص ٣٩٠.
(٥٠) م.ذ.، ص ٣٢٩.
(٥١) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٤٨؛ انظر أيضاً م.ذ.، ص ٣٧٢.
(٥٢) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٥٢٣.
(٥٣) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٥١٢.
(٥٤) م.ذ.، ص ٥١٤.
(٥٥) م.ذ.، ج ٢٨، ص ١٥٢.
(٥٦) م.ذ.، ص ١٩.

الفصل الثاني

(١) ل. تروتسكي، **Ma vie**، ص ٣٥٠.

(٢) لينين، **الأعمال**، ج ٢١، ص ٣٥٤.

(٣) م.ذ.

(٤) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٢٥٨.

(٥) م.ذ.، ص ٢٦٣.

(٦) م.ذ.، ص ٢٥٨.

(٧) م.ذ.، ص ٢٥٩.

(٨) م.ذ.، ص ٤١٤.

(٩) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٣٠٨.

(١٠) م.ذ.، ج ٢٦، ص ٥٣٢.

(١١) م.ذ.، ص ٥٤٨.

(١٢) م.ذ.، ص ٤٧٠.

(١٣) م.ذ.، ج ٢٧، ص ١٠٢.

(١٤) م.ذ.، ص ١٠٧.

(١٥) م.ذ.، ج ٤٤، ص ٤٢.

(١٦) انظر إ. هـ. كار، م.م. ج ٢، ص ٢٤ ـ ٢٥.

(١٧) ل. فيشر، **The Soviets in world affairs**، ص ١٣٥.

(١٨) د. فوتمان، م.م.، ص ٢٦ و٧٠.

(١٩) لينين، **«L'impérialisme, stade supreme du capitalisme»**، الأعمال، ج ٢٢، ص ٢٧٥ و٣١٩.

(٢٠) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٢٤٦.

(٢١) م.ذ.، ص ٣٠١.

(٢٢) انظر ج ٢٩، ص ٣١٨؛ ج ٣٠، ص ٤٦٠ وج ٣١، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٢٣) م.ذ.، ج ٢٩، ص ١٢٦.

(٢٤) م.ذ.، ص ١٥١.

(٢٥) م.ذ.، ج ٣٠، ص ٣٢٩.

(٢٦) م.ذ.، ص ٣٣٣.

(٢٧) م.ذ.، ص ٣٤٦.

(٢٨) م.ذ.، ص ٣٥٦.

(٢٩) م.ذ.، ص ٣٦١.

(٣٠) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٢٧.

(٣١) م.ذ.، ج ٣٣، ص ١٥٠.

(٣٢) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٢٩.

(٣٣) م.ذ.، ص ٤٧٥.

(٣٤) م.ذ.، ص ٤٩١.

(٣٥) م.ذ.، ج ٣٢، ص ١٢٩.

(٣٦) م.ذ.، ج ٣٠، ص ١٥٢.

(٣٧) م.ذ.، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٣٨) م.ذ.، ص ١٥٨.

(٣٩) م.ذ.، ص ١٥٩.

(٤٠) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٧٠ - ٤٧١.

(٤١) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٦٢٤.

(٤٢) م.ذ.، ج ٤٢، ص ٤١٣.

(٤٣) م.ذ.، ص ٤٢٦.

(٤٤) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(٤٥) م.ذ.، ص ٥٥٣ - ٥٥٤.

(٤٦) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ١٧.

(٤٧) م. ليبمان، م.م.، ص ٣٥٢.

(٤٨) م.ذ.، ص ٣٥٣.

(٤٩) ج. ويلر - بينيت، **Brest-litovsk, the forgotten peace**، لندن، ١٩٣٩، ص ٩١.

(٥٠) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٢٦.

(٥١) ل. تروتسكي، **Ma vie**، ص ٢٧٣.

(٥٢) ل. فيشر، **The Soviets in world affairs**، ص ٢٤.

(٥٣) أ. أولام، م.م.، ص ٥١٢.

(٥٤) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٧٦.

(٥٥) ج. سادول، م.م.، ص ٣٢٢.

(٥٦) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٦٩.

(٥٧) م.ذ.، ص ١١٠ - ١١١؛ ل. فيشر، **The soviets in world affairs**، ص ١١٥ - ١١٦.
(٥٨) ل. سفابيرو، **The Communist party of the soviet union**، ص ٢١٨.
(٥٩) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ١١١.
(٦٠) ل. فيشر، **The Soviets in world Affairs**، ص ١١٩.
(٦١) ج. كينان، م.م.، ص ١٣١.
(٦٢) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ١٥٧.
(٦٣) م.ذ.، ص ١٥٩ و١٦٢. ج. كينان، م.م.، ص ١٦٣.
(٦٤) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٢٨٨.
(٦٥) ج. دوغرا، م.م.، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.
(٦٦) ج. سادول، م.م.، ص ٣٠٠ و ٣٠٥.
(٦٧) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٨٣؛ ل. فيشر، **The Soviets in world affairs**، ص ٨٥ - ٨٩.
(٦٨) م.ذ.، ص ٢٤٤.
(٦٩) ل. كوشان، **Russia and the weimar republic**، كامبردج، ١٩٥٤، ص ٦٠ - ٦١، إ. هـ. كار، ج٣، ص ٣٦٢ - ٣٧١ و٣٤٤ - ٤٧٣.
(٧٠) ل. فيشر، **The soviets in world affairs**، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.
(٧١) قرار جرى التصويت عليه في المؤتمر التاسع للحزب (١٩١٩)؛ إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٢٣٦.
(٧٢) م.ذ.، ص ٣٠١.
(٧٣) م.ذ.، ص ٤٨٤.
(٧٤) م.ذ.، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ و٢٩٢؛ ل. فيشر، **The Soviets in world affairs**، ص ٢٠٨ - ٢١١؛ ل. فيشر، **Lénine**، ص ٣١٠.
(٧٥) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣ ص ١٨٨.
(٧٦) م.ذ.، ص ٧٦ - ٧٧؛ ج. ب. نيتل، م.م.، ص ٧٠٩. ل. فيشر، **The Soviets in world affairs**، ص ٤٨؛ ب. برويه، **La Révolution en allemagne**، ص ١٢٦؛ ف. سيرج، **L'An I**، ج٣، ص ٢١.
(٧٧) لينين، **الأعمال**، ج ٣٥، ص ٣٧٢.
(٧٨) م.ذ.، ج ٢٨، ص ١٠١.
(٧٩) ج. بونيان، م.م.، ص ١٥١ - ١٥٢.
(٨٠) إ. هـ. كار، م.م.، ج٣، ص ٩٨.
(٨١) ب. برويه، **La Révolution en Allemagne**، ص ٧٢١ - ٧٢٢.
(٨٢) م.ذ.، ص ٧٥٧.
(٨٣) و. أنغريس، **Stillborn Revolution, The Communist Bid for power in Germany (1921-1923)**، برينستون، ١٩٦٣، ص ٣٩٦.
(٨٤) ب. برويه، **La Révolution en Allemagne**، ص ٧٣١.
(٨٥) م.ذ.،
(٨٦) و. أنغريس، م.م.، ص ٣٩٥.
(٨٧) إ. هـ. كار، م.م.، ج٣، ص ٧٢.

(٨٨) ج. دوغرا، م.م.، ص ٣٤٤.

(٨٩) أ. روزنبرغ، م.م.، ص ٢٥٨.

(٩٠) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٩١) ج. دوغرا، م.م.، ص ٣٤٦.

الفصل الثالث

(١) لينين، **الأعمال**، ج ٢١، ص ١٢.

(٢) م.ذ.، ص ٩٦-٩٧.

(٣) م.ذ.، ص ٣٤١.

(٤) م.ذ.، ص ٣١٢.

(٥) م.ذ.، ج ٢٢، ص ١٣٦.

(٦) م.ذ.، ج ٢٤، ص ١٤.

(٧) م.ذ.، ص ٧٦.

(٨) انظر م.ذ.، ج ٢٦، ص ٤٩٦؛ ج ٢٧، ص ١٢٦ وهنا وهناك.

(٩) ج. ب. نيتل، م.م.، ج ٢، ص ٦١٤.

(١٠) م.ذ.، ص ٦٤٩.

(١١) إ. دوليبان، **Histoire du mouvement ouvrier (1930-1946)**، باريس، ١٩٤٨، ج٢، ص ٢٢٥.

(١٢) أ. ج. لووي، م.م.، ص ٥٠.

(١٣) س. بارون، **Plekhanov, the father of russian marxism**، لندن، ١٩٦٣، ص ٣٢٤ و٣٢٨.

(١٤) ب. برويه، **La Révolution en Allemagne**، ص ١٧٤.

(١٥) ب. شايدمان، **Memoiren eines sozial demokraten**، درسدن، ١٩٢٨، ج٢، ص ٢٣٦.

(١٦) أ. بيرلو، **The German social-Democratice party (1914-1921)**، نيويورك، ١٩٤٩، ص ٢٠٤.

(١٧) ج.ب. نيتل، م.م.، ج ٢، ص ٧١١.

(١٨) ب. غاي، **The Dilemma of Democratic Socialism: Eduard Bernstein's Challenge to Marx**، نيويورك، ١٩٦٢، ص ٢٣٦.

(١٩) ب. برويه، **La Révolution en Allemagne**، ص ٢٣٦.

(٢٠) م.ذ.، ص ٢٣٧.

(٢١) م. ذ.، ص ٢٧٣.

(٢٢) إ. هـ. كار، م. ذ.، ج٣، ص ٩٩ - ١٠٠، ل. تروتسكي، **Terrorisme et Communisme**، ص ١٦٧.

(٢٣) إ. هـ. كار، م. م.، ج٣، ص ١٠٠.

(٢٤) ر. لوكسمبورغ، **Rede Zum programm gehalten auf dem grundungs parteitage der kommunistischen parter deutschlands,** برلين، ١٩١٩، ص ٢٠ - ٢١، أ. روزبرغ **Entstehung und geschichte der weimarer republik**، فرانكفورت، ١٩٥٥، ص ٣٥٧؛ كار، م. م.، ج ٣، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٢٥) ل. فيشر، **The soviets in world affairs**، ص ١٣٥.

(٢٦) لينين، الأعمال، ج ٣١ ص ٢٣٨.

(٢٧) ر. لوكسمبورغ، **Rede zum programm**، ص ٣٧.

(٢٨) ج. ب. نيتل، م. م.، ج٢، ص ٦٥٨.

(٢٩) م. ذ.، ص ٦١٤.

(٣٠) م. ذ.، ص ٦٣٩.

(٣١) م. ذ.، ص ٦٤١.

(٣٢) م. ذ.، ص ٦٤٦.

(٣٣) م. ذ.، ص ٦٥٧.

(٣٤) م. ذ.، ص ٦٥٨.

(٣٥) م. ذ.، ص ٧٢٥، و٧٥٢.

(٣٦) م. ذ.، ص ٦٥٦.

(٣٧) لينين، الأعمال، ج ٢٦، ص ٤٨٦.

(٣٨) م. ذ.، ج ٢٨، ص ٣٠٣.

(٣٩) م. ذ.، ج ٢٩، ص ٥٠٩.

(٤٠) ج. برونتال، م. م.، ص ٩٩.

(٤١) ف. بوركنو، **World Communism**، آن آربور، ١٩٦٣، ص ٩٥.

(٤٢) ج. دوغرا، م. م.، ج ١، ص ٤٧.

(٤٣) م. ذ.، ص ١٨١.

(٤٤) **Protokoll des II. Welt kongresses der kommunistischen internationale; protokoll der verhardlungeu vom 19 Juli in petrograd und vom 23 juli bis 7 August in Moskau**، هامبورغ، ١٩٢١، ص ١٣ و٦٩.

(٤٥) ج. دوغرا. م. م.، ج ١، ص ١٨١.

(٤٦) ج. ب. نيتل، م. م.، ج ٢، ص ٦٢٦.

(٤٧) **Protokoll des II. Welt kongresses**، ص ١٢.

(٤٨) النص الكامل للاطروحات في **Le phare**، الجريدة الرسمية للاممية الثالثة في سويسرا الرومانية، كانون الأول ١٩٢٠، ص ١٤٦ - ١٥٣.

(٤٩) parti socialiste (SFIO). XVIII[e] congrès national tenu à tours (20-26 Décembre 1920) ، محضر مختصر جداً، باريس، ١٩٢١ . وبصدد خطاب ليون بلوم، انظر ص ٢٤٥ وما بعدها.

(٥٠) لينين، الأعمال، ج ٣، ص ٢٩٠ .

(٥١) م. ذ. ، ج ٢٩، ص ٥٦٧.

(٥٢) ج. دوغرا، م.م. ، ج١، ص ٤ .

(٥٣) م. ذ. ، ص ٦٦.

(٥٤) م. ذ. ، ص ١٠٣ .

(٥٥) أ. روسمر، م.م. ، ص ١١٦ - ١١٩ .

(٥٦) ج. هومبرت - دروز، De Lénine à staline, dix ans au service de L'internationale commun-iste (1921-1931) ، نوشاتيل، ١٩٧١، ص ٤٧ .

(٥٧) ج. والتر، Histoire du parti communiste français ، باريس، ١٩٤٨، ص ١١٦ .

(٥٨) أ. روسمر، م.م. ، ص ٧٣ .

(٥٩) ج. هومبرت - دروز، م.م. ، ص ٢٠ .

(٦٠) ج. فوفيه، Histoire du parti... ، باريس ١٩٦٤، ج ١، ص ٤٩ .

(٦١) ف. بوركنو، م.م. ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٦٢) روزا لوكسمبورغ، Bericht über den gründungsparter tag der kommunistischen partei deutschlands ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٦٣) ب. برويه، La Révolution en Allemagne ، ص ٨١ .

(٦٤) م. ذ. ، ص ٩٤ .

(٦٥) م. ذ. ، ص ٣٠٩ - ٣١٢، ج. دوغرا، م.م. ، ج ١، ص ٦٦؛ إ. هـ. كار، م.م. ، ج ٣، ص ١٣٧ .

(٦٦) ب. برويه، La Révolution en Allemagne ص ٣٦٧ .

(٦٧) م. ذ. ، ص ٤٨٢ .

(٦٨) ج. دوغرا، م.م. ، ج ١، ص ٦٦ .

(٦٩) لينين، الأعمال، ج ٣٠، ص ٨٢ - ٨٥ .

(٧٠) ب. برويه، La Révolution en Allemagne ، ص ٤٠٦ و٤٥٠ - ٤٥٢ .

(٧١) م. ذ. ، ص ٥٠٦ .

(٧٢) بيير برويه، La Rév. en All. ، ص ٥٠٦ .

(٧٣) Protokoll des III. Welt kongresses der kommunistischen Internationale moskau, 22 Juni bis 12 juli 1921 ، هامبورغ، ١٩٢١، ص ٦٤٦ .

(٧٤) ج. برونتال، م.م. ، ص ٢٢٧ .

(٧٥) ل. تروتسكي، De la revolution في «La Révolution défigurée» ، ص ١٣٩ - ١٤٠؛ إ. دويتشر، The prophet Unarmed ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٧٦) لينين، الأعمال، ج ٢٩، ص ٥٦٩ - ٥٧٠ .

(٧٧) م. ذ. ، ج ٣٠، ص، ص ٥٥ و٤٨ .

(٧٨) م. ذ. ، ج ٤٥، ص ١٨٤ .

(٧٩) م. ذ. ، ج ٣١، ص ٥٧ .

(٨٠) م. ذ. ، ص ٣٢.

(٨١) م. ذ. ، ص ٧٩.

(٨٢) م. ذ. ، ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٨٣) م. ذ. ، ص ٣٨ ـ ٣٩.

(٨٤) م. ذ. ، ص ٨٩ و ٩٥.

(٨٥) م. ذ. ، ص ٧٠.

(٨٦) م. ذ. ، ص ٨٤.

(٨٧) م. ذ. ، ص ٤٨.

(٨٨) م. ذ. ، ص ٥١.

(٨٩) م. ذ. ، ص ٥٣.

(٩٠) م. ذ. ، ص ٥٩.

(٩١) م. ذ. ، ص ٥٩.

(٩٢) م. ذ. ، ص ٢٩.

(٩٣) م. ذ. ، ص ٦١ و١١٠.

(٩٤) م. ذ. ، ص ١٠٦.

(٩٥) م. ذ. ، ص ٤٠.

(٩٦) م. ذ. ، ص ٧٥.

(٩٧) د. دايزانتي، **L'Internationale Communiste** ، باريس ١٩٧٠، ص ٨٦.

(٩٨) ب. لازيتش، **Lénin et la III[e] Internationale** ، نوشاتيل، ١٩٥١، ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٩٩) م. ذ. ، ص ١٠٩.

(١٠٠) م. ذ. ، ص ١٠٨.

(١٠١) م. ذ. ، ص ١٠٩. إ. هـ. كار، م.م. ، ج ٣ ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(١٠٢) **protokoll des II. weltkongresses** ، ص ١٨٨، ٤٢٢ و٤٣٥.

(١٠٣) م. ذ. ، ص ٥٨٣.

(١٠٤) م. ذ. ، ص ١٤٥ وما بعدها.

(١٠٥) م. ذ. ، ص ٥٩.

(١٠٦) ب. برويه، **La Rév. en All.** ، ص ٥٢١.

(١٠٧) **Protokoll des IV. weltkongresses der kommunistichen Internationale, petrograd-Moskau vom 5 November bis 5Dezember 1922** ، هامبورغ، ١٩٢٥، ص ٨٢، و١٠٠ وما بعدها.

(١٠٨) ج. م. كاميت، **Antonio Gramsci and the origins of Italian communism** ستانفورد، ١٩٦٩، ص ١٦٥، ١٦٩.

(١٠٩) م. ذ. ، ص ١٨١.

(١١٠) ب. برويه، **La Rév. en All.** ، ص ٤٥٢.

(١١١) م. ذ. ، ص ٣٣٤ وما بعدها.

(١١٢) م. ذ. ، ص ٧٨٠.

(١١٣) ج. والتر **Histoire du parti communiste français**، ص٩٩.

(١١٤) ب. برويه، **La Rév. en All.**، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧.

(١١٥) **Bericht uber des Grundungsparteitag der Kommunistischen partei deutschlands**، ص ١٠ ـ ١٣.

(١١٦) ب. برويه، **La Rév. en All.** ص ٦٥٠.

(١١٧) انظر، مثلاً، م. ذ.، ص ٣٧٠، و٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(١١٨) ج. والتر، **Histoire du parti Com. Fr**، ص ١٠٣ ـ ١١١.

(١١٩) لينين، **الأعمال**، ج ٣٠ ص ٤٩ ـ ٥٠.

(١٢٠) ج. هومبرت ـ دروز، م.م.، ص ٧٩.

(١٢١) ب. برويه، **La Rév. en All.**، ص ٥٥٩.

(١٢٢) ج. هومبرت ـ دروز، م.م.، ص ٩٥.

(١٢٣) م. ذ.، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣.

(١٢٤) ج. دوغرا، م.م.، ج ٢، ص ١٥٤.

(١٢٥) اورد الاستشهاد ب. لازيتش، م.م.، ص ١٢٧.

(١٢٦) **Parti Socialiste SFIO: XVII e congrès national tenu à strasbourg (25- 29 Février 1920)**، محضر مختصر جداً، باريس ١٩٢٠، ص ٣٦٢.

(١٢٧) م. ذ.، ص ٣٦٣.

(١٢٨) **Protokoll über die verhard lungen des ausseordentlichen parteitages der USPD in leipzig vom 30 November bis 6 Dezember 1919**، برلين، ص ٣١١.

(١٢٩) إ. غيتزلر، ص ٢٠٩.

(١٣٠) لينين، **الأعمال**، ج ٢٨، ص ٤٩٥.

(١٣١) م. ذ.، ص ٢٢٥ وهنا وهناك.

(١٣٢) م. ذ.، ص ٣٠٣.

(١٣٤) م. ذ.، ج ٢٩، ص ١٤١.

(١٣٥) م. ذ.، ج ٢٨، ص ٢٦٥.

(١٣٦) م. ذ.، ص ٢٦٥.

(١٣٧) م. ذ.، ج ٣٣، ص ٤٤٣.

(١٣٨) م. ذ.، ج ٣١، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١٣٩) م. ذ.، ج ٣٢، ص ١٣.

(١٤٠) م. ذ.، ج ٣١، ص ٣٨٢.

(١٤١) م. ذ.، ج ٢٧، ص ٢٩٤.

(١٤٢) م. ذ.، ص ٣٠٠.

(١٤٣) م. ذ.، ص ٣٦١.

(١٤٤) م. ذ.، ج ٢٨، ص ١٣٨.

(١٤٥) م. ذ.، ج ٣١، ص ١٥.

(١٤٦) م. ذ.، ج ٢٧، ص ١٣٣، ١٣٧.

(١٤٧) م.ذ.، ص ١٩٣.

(١٤٨) م.ذ.، ص ١٣٩.

(١٤٩) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٣٠٢.

(١٥٠) م.ذ.، ص ٣٢٥.

(١٥١) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٥٧٨.

(١٥٢) م.ذ.، ص ٦٠٠.

(١٥٣) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٣٥٠.

(١٥٤) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٤٢٥.

(١٥٥) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٣٠١.

(١٥٦) م.ذ.، ج ٤٤، ص ٤١١.

(١٥٧) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٦٩.

(١٥٨) م.ذ.، ج ٣٥، ص ٥٣٦.

(١٥٩) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٢٢٦.

(١٦٠) ن. كروبسكايا، **Reminiscences on lenin**، ص ٤٨٩.

(١٦١) ر. لوكسمبورغ، **La Révolution russe**، ص ٦٩.

(١٦٢) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ١٩١.

(١٦٣) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٢٩٤.

(١٦٤) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٢٢٨.

(١٦٥) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٣٣٦.

(١٦٦) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٣١٣.

(١٦٧) **Protokoll des II. Weltkongresses**، ص ٦٠٢.

(١٦٨) ج. دوغرا، م.م.، ج ١، ص ٧١.

(١٦٩) م.ذ.، ص ١٦٥، **Protokoll des II. Weltkongresses**، ص ٤٧٩.

(١٧٠) **Protokoll des II. weltkongresses**، ص ٥٧٢

(١٧١) م.ذ.، ص ٥٨٣.

(١٧٢) ج. فوفيه، م.م.، ص ٤٤.

(١٧٣) ج. هومبرت ـ دروز، م.م.، ص ٢٨ و٩٢.

(١٧٤) م.ذ.، ص ٢٨.

(١٧٥) ب. برويه **La Rév. en Allemagne**، ص ٤٩٥.

(١٧٦) م.ذ.، ص ٥٥٠.

(١٧٧) ج. والتر، **Histoire du parti Communiste français**، ص ٦٥.

(١٧٨) ب. برويه، **La Rév. en All.**، ص ٥٩٤.

(١٧٩) ج. فوفيه، م.م.، ج١، ص ٤٣.

(١٨٠) م.ذ.، ص ٤٠.

(١٨١) م.ذ.، ص ٤١.

(١٨٢) ج. والتر، **Histoire du parti communiste français**، ص ٧٩.

(١٨٣) م.ذ.، ص ١٠١.

(١٨٤) ج. دوغرا، م.م.، ج ١، ص ٣٢٤.

(١٨٥) ج. والتر، Histoire du…، ص ٩٨.

(١٨٦) م.ذ.، ص ٩٩.

(١٨٧) م.ذ.، ص ١٢٠.

(١٨٨) ج. كاميت. م.م.، ص ١٦٣.

(١٨٩) ب. برويه، La Rév. en All.، ص ٦٢٨.

(١٩٠) م.ذ.، ص ٤٩٨، ٦٤٩-٦٥٠؛ ج. دوغرا، م.م.، ج١، ص ١٠٢.

(١٩١) ج. هومبرت - دروز، م.م.، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(١٩٢) أ. لووي، م.م.، ص ١٠٦ - ١٠٧.

(١٩٣) ج. ب. نيتل، م.م.، ج ٢ ص ٧٦٥.

(١٩٤) ج. دوغرا، م.م.، ج ١، ص ١٩٣.

(١٩٥) إ. هـ. كار، م.م.، ج ٣، ص ٣٣٤ وما بعدها؛ ب. برويه، La Rév. en All، ص ٤٧٨ - ٤٨١.

(١٩٦) م.ذ.، ص ٤٩٨.

(١٩٧) لينين، الأعمال، ج ٤٢، ص ١١٠.

(١٩٨) ج. دوغرا، م.م.، ج ١، ص ٣٧.

(١٩٩) ج. ب. نيتل، م.م.، ج ٢، ص ٧١٨.

(٢٠٠) ب. لازيتش، م.م.، ص ١٠٧.

(٢٠١) ب. برويه، La Révolution en Allemagne، ص ٣٣٦.

(٢٠٢) أ. روسمر، م.م.، ص ١٧٧؛ ج. دوغرا، م.م.، ج١، ص ٣٠٧ - ٣٠٨.

(٢٠٣) لينين، الأعمال، ج ٣٣، ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

خاتمة

(١) م. ليفين، **Le Dernier Combat de lénine** ، باريس، ١٩٦٧، ص ٧٩، ١٥١.
(٢) م. ذ. ، ص ٧٩.
(٣) م. ذ. ، ص ٨٢.
(٤) م. ذ. ، ص ٨٣.
(٥) دفتر خدمة امينات سر لينين. (لينين، **الأعمال**، ج ٤٢، ص ٥٢١ - ٥٢٢)
(٦) م. ذ. ، ص ٥١٣.
(٧) م. ليفين، م. م. ، ص ١٤.
(٨) دفتر خدمة. (لينين، الأعمال، ج ٤٢، ص ٥١٣).
(٩) م. ليفين، م. ذ. ، ص ١٠٠.
(١٠) ل. تروتسكي، **«La Révolution défigurée»** (في De la Révolution ، ص ١٦٤).
(١١) لينين، **الأعمال**، ج ٤٥، ص ٥٠٨.
(١٢) م. ذ. ، ج ٣٣، ص ٤٧١.
(١٣) م. ليفين، م. م. ، ص ٤٨.
(١٤) لينين، **الأعمال**، ج ٤٥، ص ٦٢٤ - ٦٢٥.
(١٥) م. ذ. ، ص ٦٢٧.
(١٦) م. ذ. ، ج ٣٦، ص ٦١٩.
(١٧) م. ذ. ، ج ٣٣، ص ٤٨٧.
(١٨) م. ذ.
(١٩) م. ليفين، م. م. ، ص ١٢٧.
(٢٠) لينين، **الأعمال**، ج ٣٣، ص ٤٥٧.

(٢١) م.ذ.، ص ٥٠٤.

(٢٢) م.ذ.، ص ٥٠٦.

(٢٣) م.ذ.، ص ٤٩٦.

(٢٤) م.ذ.، ص ٤٩٦ و٥٠٥، ج ٣٦، ص ٦١٦ - ٦١٧.

(٢٥) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٦٠٧.

(٢٦) ل. تروتسكي، **Ma Vie**، ص ٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢٧) لينين، **الأعمال**، ج ٣٦، ص ٦١١.

(٢٨) م.ذ.، ج ٤٥، ص ٦١٣.

(٢٩) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٦٠٧.

(٣٠) م.ذ.، ص ٦١٨.

(٣١) م.ذ.، ج ٤٢، ص ٤٤٦.

(٣٢) م. ليفين، م.م.، ص ٦١.

(٣٣) لينين، **الأعمال**، ج ٣٣، ص ٣٧٩.

(٣٤) **Lénine, Vie et oeuvre**، موسكو، ص ٥٦٨.

(٣٥) ل. تروتسكي، **«La Rév. Défigurée»** في **De la Révolution**، ص ١٦١.

(٣٦) م. ليفين، م.م.، ص ٧٨.

(٣٧) لينين، **الأعمال**، ج ٣٦، ص ٦١٨ - ٦١٩.

(٣٨) م.ذ.، ص ٦١٩.

(٣٩) م.ذ.، ص ٦٢٠ - ٦٢١.

(٤٠) م.ذ.، ص ٦٢٣.

(٤١) م. ليفين، م.م.، ص ٨٠.

(٤٢) لينين، **الأعمال**، ج ٣٦، ص ٦٠٧.

(٤٣) م.ذ.، ص ٦٠٨.

(٤٤) **Histoire du parti Communiste de l'Union soviétique**، ص ٤٣٥.

(٤٥) **Lénine, sa vie, son oeuvre**، ص ٥٩٧.

(٤٦) لينين، **الأعمال**، ج ٤٥، ص ٦٢٨.

(٤٧) م.ذ.، ص ٦٢٩.

(٤٨) م. ليفين، م.م.، ص ١٠٣.

(٤٩) إ. دويتشر، **The prophet unarmed**، ص ٩٠.

(٥٠) لينين، **الأعمال**، ج ٣٣، ص ٥١٤.

الخلاصة

(١) لينين، **الأعمال**، ج ٢٨، ص ٤٨٣.
(٢) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٣١٥.
(٣) م.ذ.، ج ٢٨، ص ١٠٦.
(٤) م.ذ.، ص ٢٥١.
(٥) م.ذ.، ص ٤٣٥.
(٦) م.ذ.، ج ٢٧، ص ١٤٦.
(٧) م.ذ.، ج ١٣، ص ١٧٢.
(٨) هكذا، مثلاً، يوصف فيكتور ادلر واوتو باور بـ «خائنين مبتَذَلين». (م.ذ.، ج ٣٠، ص ٣٧١).
(٩) م.ذ.، ج ٣٠ ص ١٠٠.
(١٠) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٤٥٥.
(١١) م.ذ.، ج ٣١، ص ١٩٦.
(١٢) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٤٨٦.
(١٣) م.ذ.، ج ٣١، ص ٢٣٦.
(١٤) م.ذ.، ج ٢١، ص ١٦٥.
(١٥) م.ذ.، ص ٢٦٤ وج ٢٢، ص ١٧٦.
(١٦) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٥٥٠.
(١٧) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٥٠٥ و٥٥٤.
(١٨) م.ذ.، ج ٤٢، ص ٣٣٢.
(١٩) **USPD- Protokoll über die ver haudlungen des susserordeutliches parteitags in lei-pzig von 30 November bis 6 Dezember 1919** برلين، دون تاريخ، ص ٧٢.
(٢٠) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ٣٥٨.

(٢١) م.ذ.، ج ٢٧، ص ٩٨.

(٢٢) اورد الاستشهاد ب. برويه، La Rév. en All.، ص ٥٥٢.

(٢٣) بالنسبة لتحليل م. ويبر للسلطة الكاريسمية انظر: Wirtschaft und Gesellschaft، الطبعة الثالثة، ١٩٤٧ بالاضافة الى بحث تأليفي مفيد: PJA ter Hoeven Alphen aan den rijn, charisma en politieke vernieuwing، ١٩٧١.

(٢٤) م. ويبر، م.م.، ص ٧٥٩.

(٢٥) م.ذ.، ص ٧٥٤.

(٢٦) ف. سيرج، Mémoires d'un Révolutionaire، ص ١١٥.

(٢٧) لينين، الأعمال، ج ٣٥، ص ٣٣٩.

(٢٨) م.ذ.، ص ٤٦٧.

(٢٩) ف. سيرج، Mémoires، ص ١١٥.

(٣٠) أ. بالابانوف، Impressions of lenin، آن آربور، ١٩٦٨، ص ٦٨

(٣١) ك. زيتكين Reminiscences of lenin، لندن ١٩٢٩، ص ٣٤.

(٣٢) Lénine tel qu'il fut, souvenirs de contemporains، موسكو ١٩٥٩، ص ٦٨.

(٣٣) ذكرى لكروبسكايا استفادها فيشر، Lénine، ص ٣٠٥.

(٣٤) ر. ت. فيشر، Pattern for soviet youth, a study of the congresses of komsomols (1918-1954)، نيويورك، ١٩٥٩، ص ٣٦.

(٣٥) Parteidiktatur oder Arbeitu demokratie، ص ١٣٩.

(٣٦) لينين، الاعمال، ج ٤٥، ص ٧٢.

(٣٧) م.ذ.، ص ٧٣.

(٣٨) م.ذ.، ص ٣٠ و٣٨.

(٣٩) إ. هـ. كار. م.م.، ج٢، ص ١٩٠.

(٤٠) إ. دويتشر، The prophet armed، ص ٤٩٣.

(٤١) ل. فيشر، Lénine، ص ٤٢٣.

(٤٢) م.ذ.، ص ٢٨٩.

(٤٣) أ. بالابانوف، My life as a Rebel، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠، لندن، ١٩٣٨.

(٤٤) لينين، الاعمال، ج ٤٤، ص ٩٣.

(٤٥) م.ذ.، ج ٣١، ص ٤٢٢.

(٤٦) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٨٦.

(٤٧) م.ذ.، ص ١٠٤.

(٤٨) Arbeiter demokratie oder partei diktatur، ص ١٣٣.

(٤٩) لينين، الاعمال، ج ٣٢، ص ٢٦٩.

(٥٠) م.ذ.، ج ٣٥، ص ٥٠٥.

(٥١) ج. شاباروف، م.م.، ص ١٦١.

(٥٢) ب. سورلين، م.م.، ص ٧٢ وإ. هـ. كار، م.م. ج ٢، ص ١٦٨.

(٥٣) ر. لوكسمبورغ، La Révolution russe، ص ٤٠ ـ ٤٥.

(٥٤) لينين، **الأعمال**، ج ٢٩، ص ١٤٠.

(٥٥) م.ذ.، ج ٣٠، ص ١٤١.

(٥٦) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٢٢٥.

(٥٧) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٤٩٩.

(٥٨) م.ذ.، ص ٥١٦.

(٥٩) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٦٠٦.

(٦٠) م.ذ.، ج ٢٨، ص ٤٦ و٥٢، ج ٤٤، ص ١٢٥، ج ٢٧، ص ٥٥٥.

(٦١) ج.م. مايجر، **«Town and country in the Civil war»** في ر. بايبس، **Revolutionnarez Russia**، ص ٢٦٧ - ٢٦٩.

(٦٢) لينين، **الأعمال**، ج ٢٨، ص ٣٥٩ و٣٦٠، ج ٣٠، ص ٢٠٢ وهنا وهناك.

(٦٣) م.ذ.، ج ٢٩، ص ٢١٢.

(٦٤) م.ذ.، ج ٣٠، ص ١٩٨.

(٦٥) م.ذ.، ج ٢٨ ص ١٧٨.

(٦٦) م.ذ.، ص ٣٥٦.

(٦٧) م.ذ.، ص ٣٥٩.

(٦٨) م.ذ.، ج ٣١، ص ٣٥١.

(٦٩) م.ذ.، ج ٣٣، ص ٥٠١ - ٥٠٣.

(٧٠) م.ذ.، ج ٣٦، ص ٥٧٦.

(٧١) م.ذ.، ج ٤٢، ص ٣٣٩.

(٧٢) م.ذ.،

(٧٣) م.ذ.، ج ٣١، ص ٣٩٨.

(٧٤) هـ. لوفيفر ون. غوترمان، **Introduction aux «Cahiers pur la dialectique» de Lénine**، باريس، ١٩٦٧، ص ٨٢.

(٧٥) انظر بهذا الصدد هـ. لوفيفر، **La peusée de lénine**، باريس ١٩٥٧، ص ١٤٤ وما بعدها.

(٧٦) ب. وولف، م.م.، ص ٥٥٩.

(٧٧) لينين، **الاعمال**، ج ١٤، ص ٧٣.

(٧٨) م.ذ.، ص ٨٠.

(٧٩) م.ذ.، ص ٥٨، ٦٣ و١٦٠.

(٨٠) م.ذ.، ص ٧٦.

(٨١) م.ذ.، ص ٩٤ وما بعدها.

(٨٢) م.ذ.، مثلاً، ص ١٢٨ وما بعدها.

(٨٣) م.ذ.، ص ١١٦. انظر بهذا الصدد: أ. بانكوك، **Lénine philosophe**، باريس، ١٩٧٤، ص ٧٤ وما بعدها.

(٨٤) لينين، **الأعمال**، ج ١٤، ص ١٠٠

(٨٥) مثلاً م.ذ.، ص ١٥٠.

(٨٦) هـ. لوفيفر، م.م.، ص ١٨٥.

(٨٧) انظر الجزء ٣٨ من اعمال لينين.
(٨٨) لينين، الأعمال، ج ٣٨، ص ٢٤٥.
(٨٩) م.ذ.، ص ١٠٧.
(٩٠) م.ذ.، ص ١٣٢.
(٩١) م.ذ.، ص ٢٦٧.
(٩٢) م.ذ.، ص ٢٨٠.
(٩٣) م.ذ.، ص ١٧٠، ١٨٦ و١٩٢.
(٩٤) م.ذ.، ص ٢٦٠.
(٩٥) م.ذ.، ص ٣٤٧.
(٩٦) اورد الاستشهاد هـ. لوفيفر، **Le Matérialisme Dialectique**، باريس ١٩٦٢، ص ٢٤.
(٩٧) م.ذ.، ج ٣٢، ص ٥٥٣ ـ ٥٥٤.
(٩٨) اورد الاستشهاد هـ. لوفيفر، **Le Matérialisme Dialectique**، ص ١٠.
(٩٩) لينين، الأعمال، ج ٣٢، ص ٤٣٢.
(١٠٠) م.ذ.، ص ٢٨٥.
(١٠١) م.ذ.، ج ٣٨، ص ١٠٧.
(١٠٢) اورد الاستشهاد هـ. لوفيفر ون. غوترمان، م.م.، ص ٨٥.
(١٠٣) هـ. لوفيفر **Le Matérialisme Dialectique**، ص ١٤.
(١٠٤) لينين، الأعمال، ج ٣٦، ص ٦٠٧.

الفهرس

القسم الثالث

روسيا اللينينية

الصفحة

القسم الرابع

اللينينية خارج روسيا ٢٠١

جـدول التصويب

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطــا	الصــواب
٨	٢٧	يبيد	يبيد
١٢	١	مضاعف	مضاعفة
١٥	١٦	بأسر	بأسره
١٦	١٩	النشط لجنود	النشطه للجنود
١٦	٢٠	سلبا	صلبا
٣٢	١٥	: لم	: لم
٥٥	٢٠	لساد	المضاده
٥٦	الأخير من الهامش	....	د. فوتمان
٥٨	١	هـ	هو
٥٨	٥٧	مباشرة للمشاركة ى	مباشره للمشاركة في
٦٠	٩	بضاف	يضاف
٦٠	١١	نضيفهم	تصنيفهم
٦٠	٣٠	جهته	جهتهم
٦٧	١	نويه	قويه
١٢٣	١	للحر	للحزب
١٣٤	١	بهذا	كهذا
١٥٩	٢٣	أر	أن
١٥٩	٢٥	سرق	سرقة
١٥٩	٢٦	مقاطع	مقاطعة
١٥٩	٢٧	م	ما
١٥٩	٢٨	تقد	تقدم
١٥٩	٢٩	مكاد	مكان
١٧٤	٢١	لعمال	العمال

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطــــأ	الصـــواب
١٧٤	٢٣	سيكون	« سيكون
١٧٤	٢٤	ء حين	في حين
١٧٤	٢٦	رار	قرار
١٧٤	٢٧	كمن	تكمن
١٧٤	٢٩	دله	دولة
١٧٤	٣٠	راء	مدراء
٢١٥	١	ان	ان
٢١٥	١	بوصع	بوضع
٢١٥	١	سوف	سوف
٢٣٠	١	اتاج	انتاج
٢٣٠	٥	يسكت	سيكت
٢٣٣	١	تلاته	ثلاثه
٢٤٣	٢٢	واحد هم	واحدهما
٢٥٩	١	مسحق	مستحق
٢٥٩	١	شهرته	شهرته
٢٥٩	الهامش	عقد بين	عقدبين
٢٦٢	١٠	جماعي	إجماعيه
٢٩١	٢	لتالي	التالي
٢٩٨	الأخير(٣٠)	اكمت	راكمت

ليس امتحان السلطة الذي يتحدث عنه هذا الجزء من الكتاب من النوع العادي. فالسلطة المعنية هنا ليست الإمساك بالمؤسسات الموجودة بكوادرها ونُظمها ومن ثَمَّ إدارتها داخل دولة محدَّدة. فالأمر يبعدُ عن هذا بُعداً شاسعاً.

إنه يتعلق بخلق مؤسسات جديدة تماماً وغير معهودة بالمرَّة في سائر الدول. وبخلق نُظمها وكوادرها التي لم يسبق لها أن تمرَّست اطلاقاً لا في الإدارة ولا في السلطة. لا هي ولا حتى من يُشرِّع لها. وهذا وحده من أصعب الأمور وأشقِّها.

ولن يتوقف محتوى الإمتحان عند هذا الحدّ. بل يمتد ليطال تطبيق فلسفة بكاملها. جديدة كل الجدَّة في تاريخ البشرية. فلسفةٌ ينهض لتطبيقها حزبٌ بزعامة رجل أصبح اسمُه مقروناً بها. وتقف من ورائها الجماهير باندفاع هائل وهنا أيضاً ليس ضمن حدود الدولة. فحسب. بل يتم السعي لتطبيقها خارج الحدود.

تتعاظم المعوِّقات بشكل مرعب: حربٌ أهلية من أشد الحروب الأهلية مرارة في التاريخ. غزوٌ خارجي من أقوى الدول. حرب الطبيعة والأوبئة التي تفتك بالملايين. تناحر قوى الثورة. يتضافر هذا كله ليذهب بكمٍّ هائل من النخبة المؤمنة ـ إن على صعيد الحزب أو على صعيد الجماهير ـ ويعمل على تشويه المؤسسات الفتية ونظمها ويغرس بذرة البيروقراطية فيها. وحالما يتمّ الانتصار على البندقية المعادية يكرِّس زعيم الثورة أقصى ما لديه من طاقة لتدارك ذلك. ولكن ضمن الوقت القصير جداً الذي أبقته له الحياة.

إن السلطة المعنية هنا (السلطة اللينينية بكل أبعادها) هي ملحمة حقيقية يبدع الكاتب في التقرُّب منها أيَّما ابداع.

ـ ولعلّنا باطلاعنا عليها نستشف سرَّ ما يحدث في عاصمتها اليوم.

الناشر

مارسيل ليبمان:

ولد في بروكسل عام ١٩٢٩. حاز الدكتوراه في العلوم السياسية على أساس أطروحة عن الأصول الأيديولوجية للحركة الشيوعية في بلجيكا وعمل أستاذاً في جامعة بروكسل حيث درّس المذاهب والسوسيولوجيا السياسية. وكان قدّم مساهمات عديدة نشرتها مجلة «الأزمنة الحديثة» وهو مؤلف كتاب عن الثورة الروسية (١٩٦٧) ترجم إلى خمس لغات. كما كتب مؤلفاً عن الستالينية (في الاتحاد السوفياتي والعالم) وأبحاثاً عديدة أخرى.

دار الحصاد للنشر والتوزيع
دمشق ـ برامكة ـ جانب سانا هـ: ٢٤٦٣٢٦